

ش

شِنْجُونَ الْبَلَانَةُ

كِتَابُ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مُعَاوِيَةَ الْأَخْدُودِ الْمُرْسَلِيِّ

الْبَلَانَةُ

بِهِ تَحْصِيدُ الْمُرْسَلِينَ الْكَامِلَةِ فَرِيقَةُ الْمُسْلِمِينَ

عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ



شِحْ

شِحْ الْجَلَالَةِ

عَزْرَى

لِكَالِ الَّذِينَ مِنْهُمْ بَرُونَ عَلَىٰ نَسْبَتِ الْبَرِّ الَّذِي أَمْتَوْا فِي سِنَةٍ ٦٧٩

أَخْرَى الْثَانِي

عَنِ تَصْحِيحِهِ عِدَّةٌ مِنَ الْأَفَاضِلِ وَقُوْبَلَ بِعِدَّةٍ لِسَحْ مَوْتَقَّفٍ بِهَا

مِنْ مَنْشُورَاتِ مُؤْسَسَةِ النَّضَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمد الله على ما فتح لنا أبواب المعرفة، ونشكره على
ما ألهمنا من شكر النعمة. ونصلّى ونسلّم على من بعثه إلى
عباده ليتلّو عليهم الكتاب والحكمة، وعلى آلـ المعصومين
الكرام البررة. ونسأله أن يسعد حظتنا ويشتت أقدامنا للسير
في سبله وللسعي وراء مرضاته، وأن يجعل صيّائف أعمالنا
بسعد الجدّ متواالية، وبصالح الأعمال متواصلة. إِنَّه بعباده
رَوْفٌ رَحِيمٌ .

وَبَعْدَ فَهَذَا هُوَ الْجَزءُ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ شَرْحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ
لِلْعَالَمَةِ الْمُحْقِقِ الْحَكِيمِ: مَيْمَنُ بْنُ عَلَى الْبَهْرَانِيِّ عَلَى حِسْبِ
مَارْتَبِ كِتَابِهِ، مِبْتَدئًا فِي شَرْحِ الثَّانِيَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ الْخُطُبِ
وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا عَلَى حِسْبِ مَاجْمِعِهِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ - جَزَاهَا
اللَّهُ أَحْسَنُ الْجَزَاءِ - .

وَهِيَ :

إِمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزُلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ : إِلَى
 كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِّمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ وَنَقْصَانٍ ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لَأْخِيهِ غَفِيرَةً
 فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ ، فَلَا تَكُونَ لَهُ فِتْنَةٌ : فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَعْشَ
 دَنَاءَةً تَظَهُرْ فِي خَشْعَهُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ ، وَتُغَرِّبَهَا لِنَامِ النَّاسِ ؛ كَانَ كَافَالِجِ الْيَاسِرِ
 الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةً مِنْ قَدَاحَهُ تُوجِبُ لَهُ الْمُغْنَمَ ، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمُغْرَمُ ،
 وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيُّ مِنَ الْحَيَاةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ إِمَادَاعِيَّ
 اللَّهِ فَمَا عَنَّ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ ، وَإِمَّا رَزَقَ اللَّهُ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ ، وَمَعْهُ دِينٌ
 وَحَسْبٌ ، إِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرَثُ الدُّنْيَا ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ حَرَثُ الْآخِرَةِ ، وَقَدْ
 يَجْمِعُهُمَا اللَّهُ لِأَقْوَامٍ ، فَأَحْذَرُوا مِنَ اللَّهِ مَا حَذَرُوكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاخْشُوهُ خَشِيَّةَ
 لِيْسَ بِتَعْذِيرٍ ، وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاهُ وَلَا سَمعَةً ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ
 يَكُلُّهُ اللَّهُ لَمْ يَرْكَعْ عَمَلَ لَهُ نَسَالُ اللَّهَ مَنَازِلَ الشَّهَادَةِ ، وَمَعَايِشَةَ السُّبُودَادِ ،

ومرافقه الآتية

إِنَّمَا النَّاسُ إِنَّمَا لَا يَسْتَغْفِلُ الرَّجُلُ، وَإِنْ كَانَ ذَامًا، عَنْ عَشِيرَتِهِ، وَدَفَاعِهِمْ
 عَنْهِ بِأَيْدِيهِمْ وَالسَّيْئِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حِيطَةً مِنْ وَرَاهِهِ، وَاللهُمْ لِشَعْهِ
 وَاعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازَلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ . وَلِسَانُ الصَّدَقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمُرِّ، فِي
 النَّاسِ خَيْرٌ لِمَنْ مَالَ يَوْرَثُهُ غَيْرَهُ

أقول : الغيرة: الكثرة والزيادة . وروى عفوة بكسر العين؛ وعفوة كل شيء صفوته .
 وغري يغري بالأمر إذا ولع به، وأغريته به : إذا حشت له الدخول فيه . والفالج: الفائز .
 واليسار: اللاعب باليسار . وسند كر كيفيته . والقادح: سهام اليسار التي يلعب بها ، والتعديز
 اظهار العذر من لاعذه في الحقيقة ، وعشيرة الرجل : قبيلته و المعاشرون له ، و الحيطة
 بالكسر: الحفظ والرعاية ، واللم : الجمع . والشعث : تفرق الأمر وانتشاره .
 واعلم أن مدار هذا الفصل على تأديب القراء بترك الحسد ونحوه أولاً ، وعلى تأديب
 الأغنياء بالشفقة على القراء ومواساتهم بالفضل من المال وتزهيدهم جمعه ثانياً .
 قوله: أَمَّا بعْدَ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزَلُ . إلى قوله : أونقصان . صدر الخطبة . أورده ليبني عليه
 غرضه ، وحاصله الاشارة إلى أن كل ما يحدث من زيادة أو نقصان و يتعدد فيما يكون
 به صلاح حال الخلق في معاشهم ومعادهم من صحة أعمال أو علم أو وجه أو أهل فإنه صادر
 عن القسمة الربانية المكتوبة بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ الذي هو خزانة كل
 شيء . والمراد بالأمر حكم القدرة الإلهية على الممكنات بالوجود وهو المعبر عنه بقوله تعالى:
 كن : في قوله : « إِنَّمَا قَوْلَنَا شَيْءٌ إِذَا أَرْدَنَاهُ » وبنزوله نسبة حصوله إلى كل نفس بما قسم
 لها وهي النسبة المسمّاة بالقدر في قوله تعالى « وَإِنْ مَنْ شَيْءٌ إِلَّا عَنْدَنَا خَزَانَةٌ وَمَا نَنْزَلُ » له إِلَّا
 بقدر معلوم ^(١) والمراد بالسماء سماء الجود الإلهي و بالأرض عالم الكون و الفساد على
 سبيل استعارة هذين اللفظين للمعنىين المعقولين من المحسوسيين ، ووجه الاستعارة في الموضعين

مشاركة المعنين المذكورين للسماء والأرض في معنوي العلو والاستفال كل بالنسبة إلى الآخر، وإنما تكن الحقيقة مرادة لأن الأمر النازل ليس له جهة هي مبدء نزوله وإنما كان الأمر في جهةه - تعالى الله عن ذلك - ويحتمل أن يراد حقيقة السماء والأرض على معنى أن الحركات الفلكية لما كانت شرائط معددة يصدر بواسطتها ما يحدث في الأرض كانت السماء مبادئ على بعض الوجه لنزول الأمر. فاما تشبيهه بقطار المطر فوجه التشبيه أن حصول الرزق والأهل ونحوهما لكل نفس وقسمها منها مختلف بالزيادة والنقصان كما أن قطار المطر بالقياس إلى كل واحدة من البقاع كذلك. وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس.

وقوله : فإذا رأى أحدكم لا يخه المسلم غيرة في أهل أو مال أو نفس فلاتكون له فتنة .
 شروع في تأديب من حصل في حقه النقصان في أحد الأمور المذكورة بالنهي لهم عن الافتتان بحال من حصلت له الزيادة والنفقة في أحد ها من المال أو الأهل أو النفس . قال بعض الشارحين : إنه أراد بالنهي عن الفتنة هي هنا النهي عن الحسد . والتحقيق أن يقال : إن الفتنة هي الضلال عن الحق بموجبة أمر ما من الأمور الباطلة ، والإشغال به عما هو الواجب من سلوك سبيل الله . ولما كان حال الفقراء من أحد الأمور المذكورة بالنسبة إلى من عرضت له الزيادة في أحدها ، فمنهم من يؤهّل نفسه لتلك الزيادة فيرى أنه أحق بها من من عرضت له فيعرض له أن يحسده ، أو يرى أنه يستحق مثلها فيعرض له أن يغبطه ، ومنهم من يقصر نفسه عن ذلك لكن يميل بطبيعته إلى خدمة من له تلك الزيادة ، وينجذب بكليته إلى موالاتهم كثثير من الفقراء الذين يميلون بطبيعتهم إلى خدمة الأغنياء ، ويخلصون السعي لهم ليس لأمر سوى ما حصلوا عليه من مال أو جاه أو نحو ذلك . ولعل تلك الغاية يشوبها توهّم الانتفاع بهم مما حصلوا عليه . ولما كانت هذه الأمور ونحوها أعلى الحسد والبغضة ، والميل إليهم لأجل ما حصلوا عليه من الزيادة في أحد الأمور المذكورة ردائل أخلاق مشغلة عن التوجّه إلى الله تعالى وقبلة عن سواء السبيل كان المنهي عنه في الحقيقة هو الضلال بأحد الرذائل المذكورة وهو المراد بلفظ الفتنة هي هنا .

وقوله : فإن أمر المؤمن إلى قوله : ومعه دينه وحسبه .
 أقول : إعراب هذا الفصل أن ما هي هنا بمعنى المدة . وكالفالج خبر أن . وتظهر صفة

شرح الخطبة الثانية والعشرين

لدناءة . وقوله فيخشى إن حملنا الخشوع على المعنى اللغوى وهو عن "الطرف مثلاً والتطامن . كان عطفاً على يظهر ، وإن حملناه على المعنى العرفى وهو الخضوع لله والخشية منه فالفاء لابتداء . والياسر صفة للفالج . وإذا للمفاجأة . إذا عرفت ذلك .

فاعلم أنه ~~كذلك~~ لما نهى عن الفتنة بأحد الأمور المذكورة والشغل بها أراد أن ينبه على فضيلة الانتهاء عنه فنبه على كونها دناءة بقوله : مالم يغش دناءة ، ثم عقب بالتنفير عن الدناءة والترغيب في التنزه عنها بماذ كره . ومعناه أن المسلم مهما لم يرتكب أمراً خسيساً يظهر عنه فيكسب نفسه خلقاً رديئاً ، ويلزممه بارتكابه الخجل من ذكره بين الخلق إذا ذكر والحياء من التعير به ، ويغرس به لئام الناس وعواصمهم في فعل مثله . وقيل : في هتك ستة . فإنه يشبه الفالج الياسر . هذا إن حملنا الخشوع على معناه اللغوى ، وإن حملناه على المعنى العرفى الشرعى كان المراد أنه مالم يغش دناءة فيخشى لها : أى بل يخشى الله وي الخضوع له عند ذكرها ويقتصر إليه هرباً من الوقوع في مثلها وخوفاً من وعيده على المعاصى فيكون كالفالج الياسر .

فلنشرأولاً إلى كيفية اللعب المسمى ميسراً ليتضاح به وجده التشبيه . فنقول : إنَّ
الخُبَاتِ المسمَياتِ قد أحَادَهُ هِيَ الْتِي كَانَ لَا يُسَارُ الْجُزُورُ سَبْعَةً : أَوْ لَهَا : الْفَدْ^١ بِالذَّالِّ
الْمُعْجَمَةِ وَفِيهِ فَرْضٌ وَاحِدٌ . وَثَانِيَهَا : التَّوْأَمُ . وَفِيهِ فَرْضٌ . وَ ثَالِثَهَا : الضَّرِبُ بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ
وَفِيهِ ثَالِثَةُ فَرْضٌ . وَرَابِعَهَا : الْحَلْسُ بِكَسْرِ الْحَاءِ ، وَنَقْلُ أَحْمَدَ بْنِ فَارِسٍ فِي الْجَمْلِ : الْحَلْسُ
بِفَتْحِ الْحَاءِ وَكَسْرِ الْأَلَامِ . وَفِيهِ أَرْبَعَةُ فَرْضٌ . وَخَامِسَهَا : النَّافِسُ وَفِيهِ خَمْسَةُ فَرْضٌ . وَسَادِسَهَا :
الْمُسِيلُ . وَهِيَ سَتَةُ فَرْضٌ . وَسَابِعَهَا : الْمُعَلَّى وَلَهُ سَبْعَةُ فَرْضٌ . وَلَيْسَ بَعْدَهُ قَدْحٌ فِيهِ شَيْءٌ
مِنَ الْفَرْضِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ مَعَ هَذِهِ السَّبْعَةِ أَرْبَعَةً أُخْرَى تُسَمَّى أُوْغَادًا . لَا فَرْضٌ
فِيهَا . وَإِنَّمَا تَنْقُلُ بِهِ الْقَدَاحُ . وَأَسْمَاهَا : الْمُصْدَرُ ، ثُمَّ الْمُضْعَفُ ، ثُمَّ الْمُطْبَحُ ، ثُمَّ الصَّفِيفُ . فَإِذَا جَاءَتِ
أَيْسَارُ الْحَيِّ أَخْذَ كُلَّهُمْ قَدْحًا : وَكَتَبَ عَلَيْهَا سَمْهُ أَوْعَلَمُ بَعَلَمٍ بَعَلَمَةً ، ثُمَّ أَتَوْ بِجَزْرٍ وَرِينَحِرٍ هَا
صَاحِبَهَا وَيَقْسِمُهَا عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ : عَلَى الْوَرْكَينِ ، وَالْفَخْذَيْنِ ، وَالْعَجْزِ ، وَالْكَاهْلِ ، وَالْزُّورِ ،
وَالْمَلْحَاءِ ، وَالْكَتْفَيْنِ . ثُمَّ يَعْدُ إِلَى الْطَّفَاطِفِ وَحَرْزِ الرَّقْبَةِ فَيَقْسِمُهَا عَلَى تِلْكَ الْأَجْزَاءِ
بِالسُّوَيْدَةِ . فَإِذَا اسْتَوَتْ وَبَقَى مِنْهَا عَظْمٌ أَوْ بَضْعَةُ لَحْمٍ انتَظَرَ بِهِ الْجَازِرُ مِنْ أَرَادَهُ مِنْ

يفوز قدحه فإن أخذه عيسى به وإنما فهو للمجازر، ثم يؤتى بـرجل معروف أنه لم يأكل لحمًا فقطً بشمن إلا أن يصييه عند غيره ويسمي الحرضة. فيجعل على يديه ثوب، وتعصب رؤوس أصحابه بعصابة كيلا يجد مس الفروض، ثم يدفع إليه القداح، ويقوم خلفه رجل يقال له الرقيب. فيدفع إليه قدحًا قدحًا منها من غير أن ينظر إليها. فمن خرج قدحه أخذ من أجزاء الجزور بعدد الفروض التي في قدحه، ومن لم يخرج قدحه حتى استوفيت أجزاء الجزور غرم بعدد فروض قدحه كأجزاء تلك الجزور من جزور أخرى لصاحب الجزور الذي نحرها. فإن اتفق أن خرج المعلّى أو لا فأخذ صاحبه سبعة أجزاء من الجزور، ثم خرج المسيل فلم يجد صاحبه إلا ثلاثة أجزاء أخذها، وغرم له من لم يفر قدحه ثلاثة أجزاء من جزور أخرى. وأما القداح الأربع والأوّل غاد فليس في خروج أحدها غنم، ولا في عدم خروجه غرم. والمنقول عن الأيسارائهم كانوا يحرّمون ذلك اللحم على أنفسهم، ويعذّونه للضيافة. إذا عرفت ذلك.

فاعلم أن وجه الشبه هو ما ذكره تباركوا وذلك أن الفائز الياسر الذي ينتظر قبل فوزه أو فوزه من قدحه أوجب له فوزه المغنم ونفي عنه المغرم فكذلك المسلم البريء من الخيانة الضابط لنفسه عن ارتکاب مناهي الله لما كان لأبد له في انتظاره لرحمة الله وصبره عن معصيته أن يفوز بإحدى الحسنين: وهي إما أن يدعوه الله إليه بالقبض عن الشقاء في هذه الدار. فما عند الله مما أعده لا ولائه الأبرار خير له. فيفوز إذن بالنعم المقيم. وما كان فوزه مستلزمًا لعدم خسارته ظهر حسن تشبّيهه بالياسر الفالج في فوزه المستلزم لعدم غرمته. ويحتمل أن يريد بداعي الله لا الموت؛ بل الجوازب الإلهية، والخواطر الربانية التي تسنج له فتجذبه إلى طرف الزهد الحقيقي والالتفات عن خسائص هذه الدار إلى ما وعده المتقوّن، وإما أن يفتح الله عليه أبواب رزقه فيصبح وقد جمع الله له بين المال والبنين مع حفظ الحسب والدين. فيفوز الفوز العظيم ويلامن العقاب الأليم. فالتشبيه أيضًا هيئنا واقع موقعه، وكلا الوصفين أفضل عند العاقل من الفتنة بالغير، والالتفات عن الله تعالى، وتدنيس لوح النفس برذائل الأخلاق من الحسد ونحوه. وكما أن الفصل مستلزم للنهي عن الحسد ونحوه من الفتن المضلة كذلك

هو مستلزم للأمر بالصبر على بلاء الله وانتظار رحمة .

قوله : إنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حُرثُ الدِّينِ . إِلَى قَوْلِهِ : لَا قَوْمٌ .

أقول : ملائكة فيما سبق من التشبيه وغيره أنَّ تارك الرذائل المذكورة و نحوها المنتظر للحسنى من الله فائز . أردف ذلك بالتشبيه على تحقيق المغشيات التي ينشأ منها التنافس ، ومنها الرذائل المذكورة . فذكر أعظمها وأهمتها عند الناس وهو المال والبنون . فإنَّهما أعظم الأسباب الموجبة لصلاح الحال في الحياة الدنيا و أشرف القينات الحاضرة . كما قال الله تعالى « الْمَالُ وَالْبَنِينُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ونبه على تحقيقهما بالنسبة إلى العمل بكونهما من حرث الدنيا . والعمل الصالح حرث الآخرة . والمقدمة الأولى من هذا الاحتياج صغير كبراه ضمير تقديرها وحرث الدنيا حقير عند حرث الآخرة . فينتفع أنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَقِيرَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَرثِ الْآخِرَةِ . وقد ثبت في المقدمة الثانية أنَّ حَرثَ الْآخِرَةِ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ . فَإِذْنُ الْمَالِ وَالْبَنِينِ حَقِيرَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ . أمَّا المقدمة الأولى فظاهرة إذا حصول للمال والبنين في غير الدنيا .

وأمَّا بيان الثانية فمن وجهين : أحدهما : قوله تعالى « وَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ » وظاهر أنه لا يريد قلة الكمية ، بل المراد حقارته بالنسبة إلى متاع الآخرة ولذتها . الثاني : أنَّ حَرثَ الدِّينِ مِنَ الْأُمُورِ الْفَانِيَةِ ، وَحَرثَ الْآخِرَةِ مِنَ الْأُمُورِ الباقيَةِ الموجبة للسعادة الْأَبْدِيَّةِ ، والفاينات الطالحات ظاهرة الحقارنة بالنسبة إلى الباقيات الصالحات كما قال تعالى « وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثُوابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا » ثم نبه السامعين بقوله : وقد يجمعهما الله لآقوام . على وجوب الالتفات إلى الله تعالى والتوكّل عليه . و ذلك أنَّ الجمع بين حَرثِ الدِّينِ وَالْآخِرَةِ مُلْكًا كَلَّ عَاقِلٍ طلب تحصيله ، و كان حصوله إنَّما هو من الله دون غيره ملن يشاء من عباده . ذكر عليه السلام ذلك ليفرغ الطالبون للسعادة إلى جهة تحصيلها وهو التقرب إلى الله بوجوه الوسائل ، والإعراض عمَّا لا يجدى طائلًا من الحسد ونحوه ، ثم أكَّد ذلك الجذب بالتحذير مما حذرَه الله من نفسه ، والأمر بالخشية الصادقة البريئة من التعذير المستلزم لترك محارمه ، ولزوم حدوده العاجزة إلى الزهد الحقيقي ، ثم أردف ذلك بالأمر بالعمل له

البرىء من الرياء والسمعة وهو إشارة إلى العبادة الخالصة لله ، والمستلزم لتطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة ، وقد ثبت في علم السلوك إلى الله تعالى أنَّ الزهد والعبادة كيف يوصلان إلى السعادة التامة الأبدية .

وقوله : فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ يَكْلِهُ اللَّهُ لَمْ يَعْمَلْ لَهُ .

تعليق لوجوب ترك الرياء والسمعة في العمل . فإنَّ العامل للرياء والسمعة قاصد أن يراه الناس ويسمعوا بحاله ليعود إليه منهم ما يتوقعه من مال أو جاه ونحوه من الأغراض الباطلة والأعراض الزائلة . وقد علمت أنَّ التفات النفس إلى شيء من ذلك شاغل لها عن تلقى رحمة الله والاستعداد لها ، محجوبة به عن قبول فضله . ولما كان هو مسبب الأسباب ومنتهاي سلسلة المكانت لاجرم كانت المطالب منهلاً من غيره فجرى منه التحديد بالوكول إلى من سواه ممن عمل له العاملون لاستلزماته الخيبة والحرمان . و خسر العاملون إلا له ، و خاب المتكلون إلا عليه . وقد سبق من بيان معنى كون العامل لغير الله موكلًا إلى نفسه وإلى من عمل له في الفصل الذي ذم فيه عليه السلام من يتصدّى للحكم بين الأمة وليس من أهله .

قوله : نسأّل الله منازل الشهداء و معايشة السعداء و مرافقته الأنبياء .

لما كانت همتّه عليه السلام مقصورة على طلب السعادة الآخرية طلب هذه المراتب الثلاث . وفي ذلك جذب للسامعين إلى الاقتداء به في طلبها و العمل بها . و بهذه عليه السلام بطلب أسهل المراتب الثلاث للانسان ، و ختم بأعظمها . فإنَّ من حكم له بالشهادة غايتها أن يكون سعيداً ، والسعيد غايتها أن يكون في زمرة الأنبياء رفيقاً لهم . وهذا هو الترتيب اللائق من المؤدب الحاذق . فإنَّ مرتبة العالية لاتتزال دفعة دون نيل ما هو دون منها .

قوله : أَيْهَا النَّاسُ إِلَى قَوْلِهِ : يُورَّثُهُ غَيْرُهُ .

أقول : لما أشار إلى تأديب القراء عن التعرّض للأغنياء بما يوجب لهم ملكات السوء من الحسد و نحوه أردف ذلك بتأديب الأغنياء واستدراجهم في حق القراء ذوى الأرحام وأهل القبيلة و نحوهم من الأصحاب بالأمر بالمواساة في المال والمؤونة لهم لينتظم شمل المصلحة من الطرفين . فاستدرجهم بأمردين :

شرح الخطبة الثانية والعشرين

أحدهما : بيان أنّهم لا يستغنون عنهم وإن كانوا أصحاب ثروة . فإنَّ الرجل لا يستغني بماله عن أعون له يذبّون عنه بأيديهم صولة قبائل ، ويدفعون عنه بالسنتهم مسبة قائل ، بل من المعلوم أنَّ أشدَّ الناس حاجة إلى الأعون والأصحاب والمعاضدين هم أكثر الناس ثروة ؛ وانظر إلى الملوك والمتشبّهين بهم من أرباب الأموال . وأحق الناس بعدم الاستغناء عنهم عشرة الرجل وأصحابه . فإنَّهم أعظم الناس شفقة عليه ، وأشدُّهم دفاعاً عنه وحفظاً لجاته ، وأمّهم لشعنه أى أشدُّهم جعماً لمفرق حاله ، وأعطفهم عليه إن نزلت به نازلة من فقر ونحوه . وذلك أنَّ قرّبهم منه باعث لدعائِ الشفقة عليه .

الثاني : التبيه بذكر غايتِي إِنفاق المال وجمعه ، وتفضيل أحدهما على الآخر . وذلك قوله : ولسان الصدق يجعله الله للمرء الخ . فلسان الصدق هو الذكر الجميل بين الناس وهو من غايات البذل والإنفاق ، وغاية جمع المال هي توريشه للغير . وأمّا أفضليّة البذل على الجمع فظاهرة من تصوّر هاتين الغايتين . وإنما رفق عَبْتَلَةَ في البذل بما يستلزم من غاية الذكر الجميل بين الناس وإن لم يكن مقصوده من الحث على البذل إلا مصلحة الفقراء وسداد خلّتهم ، وتأديب الأغنياء وتعويدهم بالبذل والنزول عن محبة المال . لأنَّ توقع الذكر الجميل من الناس أدعى إلى البذل وأكثر فعاليّة النقوس من الغايات التي يقصدها عَبْتَلَةَ . وذلك من الاستدراجات الحسنة . حتى إذا افتتح باب البذل وتعرّرت النقوس عليه وجدت أنَّ أولى المقاصد التي يصرف فيها المال هي المقاصد التي يقصدها الشارع وبحث عليها من سدّ خلل الفقراء التي ينتظم بها شامل المصلحة ويتحد الناس بعضهم بعض خصوصاً العشيرة . فإنَّه من الواجب في السيرة العادلة التي بها صلاح حال الإنسان في الدارين أنه لما كان لا غنا له عن عشيرته وأصحابه ، وكان إِكرامهم ومواساتهم بالمال هو الذي يؤكّد الانتفاع بهم ويستحقونه في مقابلة حفظهم لجاته وحياطتهم له فالحرى أن يُجب مواساتهم وإِكرامهم بما ينتظم أحوالهم من فضل المال ، وكفى بذلك غاية جمع المال وهي توريث الغير المستلزمة لذكر هادم اللذات باعثاً على بذل المال والنزول عن محبتَه وجمعه من لمح عين بصيرته عاقبة أمره . و بالله التوفيق .

وَمِنْهَا : إِلَّا لَا يَعْدِلُنَّ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسْدِهَا بِالَّذِي
لَا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ ، وَمَنْ يَقْبضُ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ
فَإِنَّمَا تَقْبِضُ مِنْهُمْ يَدَ وَاحِدَةٍ ، وَتَقْبِضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدِي كَثِيرَةٍ ؛ وَمَنْ تَلَنَّ
حَاشِيَتَهُ يَسْتَدِمُ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوْدَةَ .

قال الشريف : أقول : الغيرة هنا الزيادة والكثرة ، من قوله للجمع
الكثير : الجم الغير ، والجماع الغير . ويروى « عفوة من أهل أو مال »
والعفوة الخيار من الشيء ، يقال : أكلت عفوة الطعام ، أى : خياره ، وما
أحسن المعنى الذي أراده عليه السلام بقوله : « ومن يقبض يده عن عشيرته
إلى تمام الكلام ، فإنَّ الْمُمْسِكُ خَيْرٌ عَنْ عَشِيرَتِهِ إِنَّمَا يُمْسِكُ نَفْعَ يَدَ وَاحِدَةٍ
فَإِذَا أَحْتَاجَ إِلَى نُصْرَتِهِمْ وَاضْطَرَّ إِلَى مُرَافَدِهِمْ قَدَّوْا عَنْ نَصْرِهِ ، وَتَنَافَلُوا
عَنْ صَوْتِهِ فَنِعْ تَرَادُدُ الْأَيْدِي الْكَثِيرَةِ ، وَتَنَاهُضُ الْأَقْدَامُ الْجَمِيعَ

أقول : العدول : الانحراف ، والخاصية : الفقر وال الحاجة ، وحاشية الرجل : جانبه
وحاشيته : أيضاً أخداماً وآباءه الذين هم حشوبيته ، وقوله : يرى . في موضع النصب على الحال ،
وأن يسددها . في موضع الجر بدلاً من القرابة .

واعلم أن المقصود بهذه الفصل هو ماذ كرنا قبله ، ولو وصلنا به لصلاح تسمة . له . وحاصله إلى
قوله : أيد كثيرة . النهي عن العدول عن سد خلل الأقرباء وأولي الأرحام ذوى الحاجة بالفضل
من المال ، وصرفه في غير وجه من المصادر الغير المرضية لله سبحانه ، وكتى بالسد الذي هو حقيقة
في منع جسم لجسم عن المنع المعقول وهو منع الاختلال في حال إلا إنسان كنایة بالمستعار .
وقوله : لا يزيد إإن أمسكه ولا ينقصه إإن أهلكه . على ظاهره إشكال فإنه يحتمل أن يقال : كل

جزء من المال فإنْ بقائه زبادة فيه وعدمه نقصان منه . و جوابه من و جهين : أحدهما أن يقال إنه عليه لم يرد هيهنا مطلق الزيادة والنقصان في المال بالنسبة إلى المال . فإنَ الضميرين المنصوريين في يزيده و ينقصه عايدان إلى الشخص المعتبر عنه بأحد كم المأمور بالإتفاق ، وإنما أراد الزيادة والنقصان فيه الذين لا يعتبر تأثيرهما في صلاح حال الإنسان و عدم صلاحته ، فإنَ الفضل الزائد في مال الإنسان على القدر الذي يدفع ضرورته بحسب الشريعة ليس زيادته معتبرة في صلاح حاله ، ولأنَّ صاحبه معتبراً في فساد حاله . فلا يزيده إذن إنْ أمسكه ، ولا ينقصه إنْ أهلكه . وهذا كما يقول إنَّ الإنسان من يرید أن يسهل عليه أمراً حظيراً يتشدد في طلبه : إنَّ هذا الأمر لا يضرك إنْ تركته ولا ينفعك إنْ أخذته أى بالنسبة إلى صلاح حالك . الثاني أنه يحتمل أن يرید الزيادة والنقصان في التواب والأجر في الآجل ، والثناء والذكر في العاجل أى لا يزيده صلاح حال عند الله ، وعند الناس يكون سبباً لفساد حاله : أمما عند الله فلان إمساك الفضل من المال عنده له إليه ضرورة من عباد الله سبب للشقاء العظيم والعذاب الأليم في الآخرة لقوله تعالى «والذين يكتنرون الذهب والفضة ولا ينفقوها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»^(١) وأمما عند الناس فعليك بمطالعة مقالاتهم في ذم البخل والبخال . وكذلك لا ينقصه أى لا المعطى ينقص من صلاح حاله : أمما عند الله فلما وعد به أهل الإتفاق في سبيله من الأجر الجميل والثواب الجليل كقوله تعالى «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا ممنا ولأذى الآية»^(٢) ونحوها ، وأمما عند الناس فلما اتفقوا عليه من مدح أهل الكرم والحساء و ملائكة الصحف من النظم والنشر فيهم . فاما قوله : ومن يقبض يده عن عشيرته . إلى آخره . فمعناه ما ذكره السيد الرضي و هو أنَ الممسك خيره عن عشيرته إنما يمسك عنهم نفع يد واحدة ، فإذا احتاج إلى نصرتهم قعدوا عن نصرته و تثاقلوا عنه . فمنع ترافق الأيدي الكثيرة ؟ إلا أنَ هذا البيان يحتاج إلى تقرير ؟ وهو أنَ الإنسان لما كان انتفاعه بالأيدي الكثيرة أتم وأولى بصلاح حاله ، وأكثر من النفع الحاصل له بقبض يده عن النفع بها . وجوب عليه أن يستجلب بمد يده بالنفع مدد الأيدي الكثيرة إلى

نفعه و إلا لكان بسبب طلبه لنفع ما من إمساك يده الواحدة عنهم المستلزم لا إمساك أيديهم الكثيرة عنه مضيئاً على نفسه منافع عظيمة فيكون بحسب قصده لنفع ما مضيئاً ما هو أعظم منه فيكون مناقضاً لغرضه ، وذلك جهل وسفه . وقوله : ومن تلن حاشيته يستدム من قوله المودة . من تمام تأديب الأغنياء بما يعود عليهم منافعه وينتظم به شامل المصالحة في العالم من التواضع ولبن الجائب للخلق فاستدرجهم إلى التواضع بذكر ثمرته الالزمة عنه التي هي مطلوبة لكل عاقل ، وهي استدامة مودة الناس المستلزمة لنفعهم و لعدم نفرتهم المستلزمين لصلاح حال التواضع فيما يقصده ، وبمثل ذلك أدب الله تعالى نبيه ﷺ حيث قال : « واحفظ جناحك ممن اتبعك من المؤمنين » وقد عرفت أن سر ذلك استجواب الألفة لهم والمحبة بينهم عند سكونهم إليه ليجتمعوا على قبول أقواله ، وظهر أن شيئاً من ذلك لا يحصل عند جفاوة الخلق والتكبر كما قال الله تعالى « ولو كرت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » (١) وإن حمل لفظ الحاشية على الأتباع والأخدام كان ذلك تأدبياً لهم بالتواضع من جهة أخرى ، وذلك أن حاشية الرجل وخاصة هم حرسة عرضه وميزان عقله وعليهم يدور تدبير صلاح حاله فبحسب شدّتهم وغلظتهم ولينتهم وتواضعهم للناس يكون قرب الناس وبعدهم منه ، وبغضهم ومحبتهم له وأنسهم ونقارهم عنه . وقال بعض الحكماء : إن سبيل الخدم والقوم من إلا إنسان سبيل الجوارح من الجسد ؛ ف حاجب الرجل وجهه ، وكانته قبله ورسوله لسانه ، وخادمه يده ورجله وعينه لأن من كفاه تعاطي كل واحد من الأفعال المحتاج إليها فقد قام مقامه فيها ، وكما يلحقه الذم من العقالة بترك إصلاح أفعاله الصادرة عن أحد جوارحه كذلك يلحقه الذم منهم على ترك إصلاح من يقوم مقامه في تلك الأفعال بتوليتها إياها ، وكما يستديم مودة أخوانه ويستجلب مودة الناس بتواضعه بنفسه ولبن جابنه لهم كذلك يستديمها بتأدبي حاشيته وخدمه بالأدب المتفق على حسنها بين الناس . وأهمها وأنفعها في ذلك لبن الجائب وترك الكبر المنفرد فإن أوهام الخلق حاكمة بنسبة كل خير وشر يجري من حاشية الرجل إليه . وإن كان صدق هذا الحكم

اكثرية، وبالله التوفيق .

٢٣ - فَمِنْ خَيْرِهِ مِنْ يُكَلِّمُ الْسَّلَامَةَ

وَلَعَمْرِي مَا عَلَىَّ مِنْ قَتَالَ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ، وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلَا
إِبْهَانٍ ، فَاقْتُلُوا اللَّهَ عَبَادَ اللَّهِ ، وَفَرُوا إِلَى اللَّهِ مِنَ اللَّهِ ، وَأَمْضُوا فِي الدَّنِيَا
نَهْجَهُ لَكُمْ ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَتِ بِكُمْ . فَعَلَيْهِ ضَانُنْ لِقَلْبِكُمْ آجِلاً ، إِنْ
لَمْ تَنْحُوهُ عَاجِلاً .

أقول : الإدهان والمداهنة : المصادنة ، والإيهان مصدر أو هناء أي أضعفه ، و خابط
الغيّ بلفظ المفاعلة : يخبط كلّ منهما في الآخر . وقد مرّ أنّ الخطيب : هو المشي على غير
استقامة، والغيّ : الجهل . ونهجه : أي أوضجه . وعصبه بكم أي علقة بكم وربطه . والفلج الفوز ،
والمنحة : العطية . وفي هذا الفصل ردّ لقول من قال إنّ متابعته ^{لِكَلِيلِ الْمَحَايِرِ} ومخالفتهم ومداهنتهم
أولى من مخاربهم فرد ذلك بقوله : لعمرى ما علىّ إلى قوله : ولا إيهان . أي ليس مصانعتهم
بواجبة علىّ من طريق المصلحة الدينية ، وليسوا بمضعفين لي ، ولا علىّ في قتالهم عجز .
وفي ذكره ^{لِكَلِيلِ الْمَحَايِرِ} لهم بصفة مخالفة الحقّ ومخابطة الغيّ والبغى تنبية للسامعين واستدراج
لهم لقيام عنده في قتالهم إذ كانت مقاتلة من هذه صفتة واجبة فلا يمكن إنكار وقوعها منه .
ثم أردف ذلك بأوامر :

أولاً لها : الأمر بتقوى الله ، وقد علمت أنّ تقوى الله هي خشيته المستلزمة للإعراض
عن كلّ مناهيه المبعدة عنه وهو الزهد الحقيقى كما سبقت الإشارة إليه .

الثاني : الأمر بالفرار إلى الله وهو أمر بالإقبال على الله وتوجيه وجه النفس
إلى كعبه وجوب وجوده ، وأعلم أنّ فرار العبد إلى الله تعالى على مراتب :
فأولها : الفرار عن بعض آثاره إلى بعض كما يفرّ من أثر غضبه إلى أثر رحمته كما
قال تعالى حكاية عن المؤمنين في التضرّع إليه « ربنا لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف

عَنَّا واغفر لنا وارجحنا^(١) فكأنهم لم يروا إِلَّا الله و أفعاله فرقوا إِلَى الله من بعضها إِلَى بعض .

الثانية : أن يفني العبد عن مشاهدة الأفعال و يترقى في درجات القرب و المعرفة إلى مصادر الأفعال ; وهي الصفات فيفتر من بعضها إلى بعض كما ورد عن زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أُسْوَةً مِنْ قَدْ أَنْهَضْتَهُ بِتَجَازُوكَ مِنْ مَصَارِعِ الْمُجْرِمِينَ فَأَصْبِحَ طَلْيقَ عَفْوَكَ مِنْ أُسْرِ سُخْطَكَ ، وَالْعَفْوُ وَالسُّخْطُ صفتان فاستعاد بإحديهما من الآخر .

الثالثة : أن يترقى عن مقام الصفات إلى ملاحظة الذات فيفتر منها إِلَيْها كقوله تعالى « لَا مُلْجَأٌ مِّنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ »^(٢) وكالوارد في الدعاء في القيام إلى الصلوة : منك وبك ولك وإليك . أَيْ منك بده الوجود ، وبك قيامه ، ولكل ملكه ، وإليك رجوعه . ثم أَكَدَ ذلك بقوله لا ملجاً ولا منجاً ولا مفرًّا منك إِلَّا إِلَيْكَ . وقد جمع الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المراتب حين أمر بالقرب في قوله تعالى « وَاسْجُدْ وَاقْرُبْ »^(٣) وقال في سجوده : أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عَقَابِكَ . وهو كلام من شاهد فعل الله فاستعاد بعض أفعاله من بعض ، والعفو كما يراد به صفة العافي كذلك قد يراد به الآخر الحصول عن صفة العفو في المعفو عنه كالخلق والصنع ، ثم مَّا قرب فغنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادرها وهي الصفات قال : وَأَعُوذُ بِرَضَاكَ مِنْ سُخْطَكَ وَهُما صفتان ، ثم مَّا رأَى ذَلِكَ نَفْسَانَا فِي التَّوْحِيدِ اقترب و ترقى عن مقام مشاهدة الصفات إلى ملاحظة الذات فقال : وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، وَهَذَا فرار إِلَيْهِ مِنْهُ مَعْ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْأَفْعَالِ وَالصَّفَاتِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَقَامِ الْوَصْوَلِ إِلَى سَاحِلِ الْعَزَّةِ . ثُمَّ لِلسَّبَاحَةِ فِي لَجْنَةِ الْوَصْوَلِ دَرَجَاتٌ أَخْرٌ لَا تَتْنَاهِي . ولذلك مَّا ازداد عَلَيْهِ قرباً قال : لَا حُصْنٌ ثَنَاءٌ عَلَيْكَ . فَكَانَ ذَلِكَ حَذْفًا لِنَفْسِهِ عَنْ دَرْجَةِ الْاعْتِبَارِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ وَاعْتِرَافًا مِنْهُ بِالْعَجَزِ عَنِ الإِحْاطَةِ بِمَا لَهُ مِنْ صَفَاتِ الْجَلَالِ وَنَعْوَتِ الْكَمَالِ ، وَكَانَ قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ : أَنْتَ كَمَا أَنْتَتِ عَلَى نَفْسِكَ . كَمَا لَأَخْلَاصَ وَتَجْرِيدَ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ الَّذِي بِهِ هُوَ أَجْلَى مِنْ أَنْ يَأْحَقَهُ لِغَيْرِهِ حَكْمٌ وَهُمْ أَوْعَقُلَى . إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ ظَهَرَ أَنَّ مَقْصُودَه عَلَيْهِ بَعْدَ بَعْدِهِ : وَفَرَّ إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ . أمر بالترقي إلى المرتبة الثالثة من المراتب المذكورة .

الثالث : الأُمر بالمضيّ فيما نهجه لهم من السبيل الواضح العدل الذي هو واسطة بين طرفى الإفراط والتقيّط ، والصراط المستقيم المدلول عليه بالأوامر الشرعية . وقد علمت أنَّ الغرض من سلوك هذا السبيل وامثال التكاليف التي الزم الإنسان بها وعصبت به إنما هو تطويق النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة بحيث تصير مؤتمرة لها ومتصرفة تحت حكمها العقلي منقادة لها عن الانهماك في ميولها الطبيعية ولذاتها الفانية . وحينئذ تعلم أنَّ هذه الأوامر الثلاثة هي التي عليها مدار الرياضة والسلوك إلى الله تعالى ، فالأمر الأوَّل والثالث أمر بما هو معين على حذف الموانع عن الالتفات إلى الله تعالى ، وعلى تطويق النفس الأمارة ، والأمر الثاني أمر بتوجيه السير إلى الله . وقد تبيَّن فيما مرَّ أنَّ هذه الأمور الثلاثة هي الأغراض التي يتوجه نحوها الرياضة المستلزمة لكمال الاستعداد المستلزم للوصول التام . ولذلك قال عليه السلام : فعليَّ ضامن لفلحكم آجالاً إن لم تمنحوه عاجلاً . أى إذا قمت بواجب ما أمرت به من هذه الأوامر كان ذلك مستلزمًا لفوزكم في دار القرار بجنات تجري من تحتها الأنهر التي هي الغايات الحقيقة ومثلها يعمل العاملون وفيها يتنافس المتنافسون إن لم يتم تأهلكم للفوز في الدار العاجلة فمنحوه فيها ، وقد يتم الفوز بالسعادتين العاجلية والآجلية ملن وفت قوله بالقيام بهما وكل استحقاقه لذلك في علم الله . ولما كان حصول السعادة والفوز عن لزوم الأوامر المذكورة أمرًا واجبًا واضح الوجوب في علمه عليه السلام لا جرم كان ضامنًا له . فإن قلت : فما وجه اتصال هذه الأوامر بصدر هذا الفصل قلت : لما كان مقتضي صدر الفصل إلى قوله : لا إيهان . هو الإعذار إلى السامعين في قتال مخالفي الحق ، وكان مفهوم ذلك هو المحظى على جهادهم و التنفير عمّا هم عليه من الطريق العاجز كان تعقب ذلك بذكر الطريق الواضح المأمور بسلوكه و لزوم حدود الله فيه فهو اللائق الواجب . وبالله التوفيق .

٢٤ - فِيْ مِنْ خَطْبَتِيْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْنِيْ مِنْ بَعْدِ امْرِيْ

وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد وقدم

عليه عاملاته على اليمين ، وهو عبد الله بن عباس وسعيد بن ثوران لما غلب

عليهم بُسرُ بن أبي أَرْطَةَ ، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بتناقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرأي ، فقال :

مَا هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبَضَهَا وَأَبْسَطَهَا ، إِنْ لَمْ تَكُونِ إِلَّا أَنْتِ تَهْبِطَ أَعَاصِيرَكَ . فَقَبَحَكَ اللَّهُ

وتمثل بقول الشاعر

لَعْمَرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَأْعُمُرُ إِنْتِي عَلَى وَضَرِّ مِنْ ذَا إِلَّا إِنَّهُ قَلِيلٌ
ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَنْتَ بُسرٌ أَقْدَمْ أَطْلَعَ الْمِينَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَظُنَّ أَنْ هُولَاءِ الْقَوْمَ سِيدُ الْوَنْدَنْ
مِنْكُمْ : يَاجْمَعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرَّقُكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامُكُمْ
فِي الْحَقِّ ، وَطَاعَهُمْ إِمَامُهُمْ فِي الْبَاطِلِ ، وَبَادَاهُمْ الْآمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخَيَّاتُكُمْ
وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بَلَادِهِمْ وَفَسَادُكُمْ . فَلَوْ أَتَمْنَتْ أَحَدُكُمْ عَلَى قُبْلَتِكُمْ لَتَشَيَّتْ أَنْ
يَذْهَبَ بِعَلَاقَتِهِ ! اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَسَمِعْتُهُمْ وَسَمِعْتُهُمْ ، فَأَبْدَلْنِي بِهِمْ خَيْرًا
مِنْهُمْ وَأَبْدَلْهُمْ بِشَرًا مِنِّي ، اللَّهُمَّ مَثْ قَلْوَبِهِمْ كَمَا يُمَاثِلُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ ، أَمَا
وَاللَّهِ لَوِدَدْتُ أَنْ لِي بِكُمُ الْفَ فَارِسٌ مِنْ بَنِي فَرِسٍ بْنِ غَمِيمٍ

هُنَالِكَ ، لَوْ دَعَوْتَ ، أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسٌ مِثْلُ اُرْمِيَةِ الْخَيْرِ

ثُمَّ زَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمَنْبَرِ .

قال الشريف : أقول : الأرمية جمع رمى وهو السحاب ، والحميم هنا :

وقت الصيف ، وإنما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولاً وأسرع خفوفاً لأنه لاماء فيه . وإنما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء ، وذلك لا يكون في إلا كثراً إلا زمان الشتاء ، وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا ، والإغاثة إذا استغثوا ، والدليل على ذلك قوله هنالك لو دعوت أتاك منهم

أقول : السبب : أنَّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان يعظمون قتله فبايعوا عليه عليه السلام على دغل . فلما اختلف الناس عليه بالعراق ، و كان العامل له يومئذ على صنعاء عبيدة الله بن عباس ، وعلى الجندي بها سعيد بن نمران . ثم قتل محمد بن أبي بكر بمصر وكثرت غارات أهل الشام . تكلم هؤلاء ودعوا إلى الطلب بدم عثمان فأذكروا عليهم عبيدة الله ابن عباس فتظاهرروا بمناولة على عليه السلام فحبسهم فكتبو إلى أصحابهم : الجندي . فعزلوا سعيد بن نمران عنهم وأظهروا أمرهم فانضم إليهم خلق كثير إرادة منع الصدقة . فكتب عبيدة الله وسعيد إلى أمير المؤمنين عليه السلام يخبراه الخبر فكتب إلى أهل اليمن و الجندي كتاباً يهدّدهم فيه و يذكر لهم الله تعالى فأجابوه بأنّا مطيعون إن عزلت عننا هذين الرجلين : عبيدة الله وسعيداً . ثم كتبوا إلى معاوية فأخبروه فوجده إليهم بسر بن أرطاة و كان فطماً سفاكًا للدماء فقتل في طريقه بملكة داود وسلميـان ابني عبيدة الله بن عباس ، و بالطائف عبيدة الله بن المدان وكان صهراً لأبن عباس ثم انتهى إلى صنعاء و قد خرج منها عبيـد الله وسعيد ، واستخلفا عليهـا عـبيـد الله بن عمرو بن أـراكـة التـقـيـ فـقتـلهـ بـسرـ ، وـأخذـ صـنـعـاءـ فـلمـ أـقـدـمـ ابنـ عـباسـ وـسعيدـ عـلـيـ عليه السلام بالـكـوـفـةـ عـاتـيـهـماـ عـلـىـ تـرـكـهـماـ قـتـالـ بـسرـ فـاعـتـدـرـاـ إـلـيـهـ بـضـعـفـهـماـ عـنـهـ . فـقـامـ عليه السلام إـلـيـ المـنـبـرـ ضـجـراـ مـخـالـفـةـ أـصـحـابـهـ لـهـ فـقـالـ : مـاهـيـ إـلـاـ الـكـوـفـةـ . الفـصلـ .

إذ اعـرفـ ذـلـكـ فـنـقـولـ : الإـعـصارـ : رـيحـ تـهـبـ فـتـشـيـرـ التـرـابـ . وـالـوضـرـ : بـفتحـ الضـادـ الدـرـنـ الـبـاقـيـ فـيـ إـلـاـ نـاهـ بـعـدـ الـأـكـلـ ، وـيـسـتـعـارـ لـكـلـ بـقـيـةـ مـنـ شـيـءـ قـلـ الـاتـفـاعـ بـهـ . وـالـأـنـاءـ : بـالـفـتحـ

شجر حسن المنظر مر الطعم، واطلع اليمن: أي غشيهما. سيدالون أي: يصير الأمر إليهم والدولة لهم، والقعب: الفدح الضخم. وما ث الشيء: أذابه. وأعلم أنَّ الضمير في قوله ما هي إلا الكوفة وإن لم يجر لها ذكر في اللفظ إلا أن تضجره من أهلها قبل ذلك وخطوه في تدبرها مراراً، وحضورها في ذهنه يجري مجرى الذكر السابق لها، وأقبضها خبر ثان مبتدأ محفوظ تدبره: أنا، ويحتمل أن يكون هي ضمير القصة وأقبضها خبر عن الكوفة. ونظيره في الاحتمالين قوله تعالى «كلا إنما لطى نزاعة للشوى»^(١) ويفهم من هذا الكلام حصر ما بقي له من البلاد التي يعتمد عليها في الحرب ومقابلة العدو في الكوفة. وهو كلام في معرض التحقيق ما هو فيه من أمر الدنيا وما بقي له من التصرف الحق بالنسبة إلى مالغيره من التصرف الباطل. وأقبضها وأبسطها كنياتان عن وجوده التصرف فيها أي إنَّ الكوفة والتصرف فيها بوجوه التصرف حقير بالنسبة إلى سائر البلاد التي عليها الخصم. مما عسى أصنع بتصرف فيها، وما الذي أبلغ به من دفع الخصم ومقاومته. وهذا كما يقول الرجل في تحقيق ما في يده من الماء القليل إذارام به أمراً كبيراً: إنما هو هذا الدينار فما عسى أبلغ به من الغرض، قوله. إن لم تكوني إلا أنت تهسب أغاصيرك. عدول من الغيبة إلى الخطاب، والضمير بعد إلا تأكيد للذى قبلها والجملة الفعلية بعده في موضع الحال، وخبر كان محفوظ. ولنفظ الأغاصير يحتمل أن يحمل على حقيقته فإنَّ الكوفة معروفة ببوب الأعصار فيها، ويحتمل أن يكون مستعاراً لما يحدث من آراء أهلها المختلفة التي هي منبع الغدرية، والتشاكل عن ندائها. ووجه المشابهة ما يستلزم المستعار منه قوله من الأذى والإزعاج. وتقدير الكلام فإن لم تكوني إلا أنت عدة لي وجنة ألقى بها العدو، وحظطاً من الملائكة والخلافة مع ماعليه حالك من المذام فقبحالك. وهو ذم لها بعد ذكر وجه الذم. ولا جل استصحابه لأمرها تمثيل بالبيت: لعمريك. الخبر. ومعنى تمثيله به أنَّى على بقية من هذا الأمر كالوضر القليل في الإناء، وهو تمثيل على وجه الاستعارة فاستعار لنفظ الإناء للدنيا ولفظ الوضر القليل فيه للكوفة، ووجه المشابهة ما يشرك فيه الكوفة والوضر من الحقاره بالنسبة إلى ما استولى عليه خصمها من الدنيا وما اشتمل عليه

الإِناء من الطعام ، و من روى الإِناء فَإِنْمَا أَرَادَ أَنَّى عَلَى بَقِيَةِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ كَالْقُدْرَ الْحَالِصُ لِإِنَاطِرِ إِنَاءِ مِنْ حَسْنِ الْمُنْظَرِ مَعَ دُمَّ اِنْتِفَاعِهِ مِنْهُ بِشَيْءٍ آخَرَ ، وَيَكُونُ قَدْ اسْتَعَارَ لِفَظِ إِنَاءِ لِسَائِرِ بَلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَلِفَظِ الْوَضْرِ لِمَا فِي يَدِهِ هُوَ مِنْ حَسْنِ الْمُنْظَرِ اِسْتَعَارَةً فِي الْدَرْجَةِ الثَّانِيَةِ ، وَإِنَّمَا خَصَّصَ الْكُوفَةَ دُونَ الْبَصْرَهِ وَغَيْرِهَا لِأَنَّ جَمِيعَهُمْ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي الْحَرْبِ إِذْنَهُمْ أَهْلَ الْكُوفَهُ ، وَقَوْلُهُ: أَنْبَثْتُ بَسْرًا إِلَى قَوْلِهِ: مِنْكُمْ . شَرُوعُ فِي اِسْتِنْفَارِهِمْ إِلَى الْجَهَادِ . فَأَعْلَمُهُمْ أَوْلَآءِ بِحَالِ بَسْرٍ وَخَرْجِ الْيَمَنِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ خَوْفُهُمْ بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنَ الظَّنِّ الصَّادِقِ أَنْ سِيدَ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، ثُمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ أَسْبَابِ تَوْجِبِ وَقْوَعِ مَا حَكَمَ بِهِ وَهِيَ إِلَمَارَاتُ الَّتِي عَنْهَا حَكَمَ ، فَذَكَرَ أَرْبَعَةً أُمُورًا مِنْ قَبْلِهِمْ هِيَ أَسْبَابُ الْاِنْقَهَارِ ، وَأَرْبَعَةً أُمُورًا مِنْ قَبْلِ الْخَصْمِ مَضَادَّهُ لَهَا هِيَ أَسْبَابُ الْقَهْرِ ، وَرَتَبَ كُلَّ أَمْرٍ عَقِيبَ ضَدِّهِ لِيُظَهِّرَ لَهُمُ الْمَنَاسِبَ بَيْنَ أَفْعَالِهِمْ وَأَفْعَالِ خُصُومِهِمْ فِي دِعَوْهُمْ دَاعِيَ الدِّينِ وَالْمُرْوَّهُ إِلَى الْفَرَارِ مِنْ سُوءِ الرَّأْيِ .

فَالْأَوْلُ مِنْ أَفْعَالِ الْخَصْمِ: الْاجْتِمَاعُ وَالتَّوَازِرُ إِنْ كَانُوا عَلَى الْبَاطِلِ وَهُوَ التَّصْرِيفُ الْفَيْرُ الْحَقُّ فِي الْبَلَادِ ، وَالْأَوْلُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ مَا يَضَادُ ذَلِكَ: وَهُوَ تَفَرُّقُهُمْ عَنْ حَقِّهِمْ أَيْ تَصْرِيفُهُمُ الْمُسْتَحْقَّ لَهُمْ بِإِذْنِ وَلِيِّ الْأَمْرِ :

الثَّانِي مِنْ أَفْعَالِ الْخَصْمِ: الطَّاعَةُ لِإِمَامِ الْجَاهِرِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ مِنْ الْبَاطِلِ ، وَمِنْ أَفْعَالِهِمْ: مُعْصِيَةُ إِمامِ الْحَقِّ فِي أَمْرِهِ بِالْحَقِّ .

الثَّالِثُ لِلْخَصْمِ: تَأْدِيَتِهِمْ لِلْأَمَانَهُ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَهِيَ لِزُومِ عَهْدِهِ وَالْوَفَاءِ بِيَعْتِدَهُ ، وَمِنْ أَفْعَالِهِمْ: ضَدُّ ذَلِكَ مِنَ الْفَدْرِ وَالْخِيَانَهُ فِي الْعَهْدِ بِتَرْكِهِمْ لِمَوَازِرَتِهِ فِي الْقَتَالِ وَعَصِيَانِهِمْ لِأَمْرِهِ حَتَّى صَارَ الْغَدَرُ مِثْلًا لِأَهْلِ الْكُوفَهُ

الرَّابِعُ: صَلَاحُ الْقَوْمِ فِي بَلَادِهِمْ أَيْ اِنْتِظامُ أُمُورِهِمْ فِيهَا النَّاشِيَهُ عَنْ طَاعَهُ إِمامِهِمْ ، وَمِنْ أَفْعَالِهِمْ: مَا يَضَادُ ذَلِكَ مِنْ فَسَادِهِمْ فِي بَلَادِهِمْ لِخَرْجِهِمْ عَنْ طَاعَهُ إِمامِهِمْ . وَظَاهِرُ أَنَّ الْأُمُورَ الْأَرْبَعَهُ الْمُذَكُورَهُ مِنْ أَفْعَالِ الْخَصْمِ مِنْ أَسْبَابِ صَلَاحِ الْحَالِ وَانْتِظامِ الدُّولَهِ وَالْغَلْبَهِ وَالْقَهْرِ ، وَأَنَّ الْأُمُورَ الْأَرْبَعَهُ الْمَضَادَّهُ لَهَا مِنْ أَفْعَالِهِمْ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْمُوجِيَّهُهُ لِلِّاِنْقَلَابِ وَالْاِنْقَهَارِ ، وَقَوْلُهُ: وَلَوْ اِتَّمَنْتَ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبِ لِخَشِيتَ أَنْ يَذَهِبَ بِعَلَاقَتِهِ . مَبَالِغَهُ فِي ذَعْمِهِمْ بِالْخِيَانَهُ عَلَى سَبِيلِ الْكَنْتَاهِهِ عَنْ خِيَانَهِمْ لِأَمَانَهِمْ فِي عَهْدِهِ عَلَى

قبول أوامر الله . وقوله : اللهم إني قد عملتكم ومملوكي . شكایة إلى الله سبحانه منهم وعرض لما في ضميره وضمائرهم بحسب ما شهدت به قرائن أحوالهم ، والمال والسام متراfon . وحقيقة إعراض النفس عن شيء إما لفتور القوى البدنية وكلالها عن كثرة الأفاعيل ، وإما لاعتقاد النفس عن دليل وإمارة يتبيّن لها أن ما يطلبها غير ممكن لها : و هذان السببان كانوا موجودين : إما سامه عَلَيْهِمُ الْكَفَرُ من أفعالهم (أفعاله خ) فإنه لم يشك منهم ولم يدع عليهم حتى عجزت قواه عن التطلع إلى وجوه إصلاحهم وانصرف نفسه عن معالجة أحوالهم لاعتقاد أن تقويمهم غير ممكن له ، وأما سألهم منه فـ إِنَّ الْعَاقِدَةَ مطلوباتهم التي كانوا أرادوه لها غير ممكنة منه ، أو لكتلة تكرار أوامرهم بالجهاد والذب عن دين الله وأمواله على أوامر الله وزيادة تعالي قواهم الضعيفة التي هي مع ضعفها مشغولة بغير الله . فلذلك تنصرف نفوسهم عن قبول قوله وامتثال أوامره ، ثم أردف تلك الشكایة بالضرع إلى الله تعالى في الخلاص منهم ، ثم الدعاء عليهم فدعاه الله لنفسه أو لأن يبدلهم خيراً منهم إما في الدنيا : قوماً صالحين ينظرون بنور الله نعمه عليهم فيخلصون الدين ، وأما في الآخرة : فوماً غرقوا في مطالعة نوار كبرىاء الله فأعطواهم أعلى منازل جنته وأنسى مراتب كرامته : قوماً نعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء و الصالحين و حسن الائكة رفيقا . و طلبه الخير منهم في الدنيا هو الأرجح في الذهن . لما يتمسّأه بعد من فوارس بنى فرس . ثم دعا الله عليهم أن يبدلهم شرّاً منه . فإن قلت : إن صدور مثل هذا الدعاء منه عَلَيْهِمُ الْكَفَرُ مشكل من وجهين : أحدهما : أنه يقتضي أن يكون هو ذاشر . وقد ثبت أنه كان منزهًا عن الشرور ، الثاني أنه كيف يجوز منه أن يدعوا بوجود الشرور ووجود الأشرار . قلت : العجواب عن الأول من وجهين : أحدهما : أن صيغة أفعل التفصيل كما ترد لا إِثبات الأفضلية كذلك قد ترد لا إِثبات الفضيلة . وحينئذ يحتمل أن يكون مراده من قوله : شرًا مني : أي أَبْدَلَهُمْ بِمِنْ فِيهِ شرًا غيري ، الثاني : أن يكون شرًا مني على عقائدتهم أن فيه شرًا عليهم . واعتقادهم أنه ذوش لا يوجب كونه كذلك ، وعن الثاني من وجهين : أحدهما : أنه لما كان في دعاء الله أن يبدلهم من هو شر منه مصلحة تامة حسن منه ذلك ، وبيان المصلحة من وجهين : أحدهما : أن ذلك الدعاء منه عليهم بمثابة منهم وسمع من أعظم الأسباب المخوفة العاذبة لأكثرهم

إلى الله تعالى و ذلك مصلحة ظاهرة ، الثاني أن نزول الأمر المدعوا به عليهم بعده مما ينبعهـم على فضله ، وبذكـرهم أـنهـم يصـبـهمـذـلـكـإـلـاـلـتـرـكـهـمـأـوـأـمـرـالـهـتـعـالـىـ وـخـرـوجـهـمـعـ طـاعـتـهـفـيـتـقـفـرـوـاعـنـمـسـالـكـالـغـيـ وـالـفـاسـدـ إـلـىـ واـضـحـ سـبـيلـ الرـشـادـ ، وـيـكـونـ ذـلـكـ بـلـاءـ منـ اللهـ لـهـمـ . الثاني : لـعـلـهـ إـنـمـاـ دـعـاـ عـلـيـهـمـ لـعـلـمـأـنـهـلـاـيـرـجـيـ صـلـاحـهـمـ فـيـمـاـخـلـقـواـلـأـجـلـهـمـاـ يـدـعـوهـمـ إـلـيـهـ . وـمـنـ لـاـيـرـجـيـ صـلـاحـ حـالـدـمـعـ فـسـادـ نـظـامـ الـعـالـمـ بـوـجـودـهـ وـلـزـومـهـ مـاـ يـضـادـ مـطـلـوبـ اللهـ مـنـهـ فـعـدـمـهـ أـوـلـىـ مـنـ وـجـودـهـ . فـكـانـ دـعـاءـهـمـ عـلـيـهـمـ إـذـنـ مـنـدـوـبـاـ إـلـيـهـ . وـعـلـىـ ذـلـكـ يـحـمـلـ أـيـضـأـ دـعـاءـهـمـ عـلـيـهـمـ : اللـهـمـ مـثـقـلـوـهـمـ كـمـاـيـمـاتـ الـمـلـحـ فـيـ الـأـمـاـءـ . وـنـحـوـهـ . وـذـلـكـ تـأـسـ مـنـهـ عليـتـهـ بـالـسـابـقـينـ مـنـ الـأـنـبـيـاءـ عـلـيـتـهـ فـيـ التـضـجـرـ مـنـ قـوـلـهـمـ وـالـشـكـاـيـةـ مـنـهـمـ إـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ وـدـعـاهـمـ عـلـيـهـ كـنـوـحـ عـلـيـتـهـ إـذـقـالـ : رـبـ إـنـيـ دـعـوتـ قـوـمـيـ لـيـلـاـ وـنـهـارـاـ فـلـمـ يـزـدـهـمـ دـعـائـيـ إـلـاـ فـرـارـاـ إـلـىـ قـوـلـهـ إـنـهـمـ عـصـوـنـيـ ، ثـمـ خـتـمـ بـالـدـعـاءـ مـنـ لـمـ يـرـجـلـهـ صـلـاحـ ، فـقـالـ : رـبـ لـاـ تـذـرـ عـلـىـ الـأـرـضـ مـنـ الـكـافـرـيـنـ دـيـارـاـ الـآـيـةـ . وـكـلـوـطـ إـذـقـالـ لـقـوـمـهـ : إـنـيـ لـعـلـمـكـمـ مـنـ الـقـالـيـنـ ، وـغـيـرـهـمـاـ مـنـ الـأـنـبـيـاءـ وـأـمـرـادـ بـالـمـيـثـ الـمـدـعـوـ بـهـ يـشـبـهـ أـنـ يـكـونـ مـاـيـحـصـلـ فـيـ الـقـلـبـ مـنـ الـأـنـفـعـالـ عـنـ الـغـمـ وـالـخـوـفـ وـنـحـوـهـماـ ، وـذـلـكـ أـنـ الـغـمـ إـذـاـ وـقـعـ لـزـمـهـ تـكـافـفـ الـرـوـحـ الـقـلـبـيـ لـلـبـرـدـ الـحـادـثـ عـنـدـ اـنـطـفـاءـ الـحـرـارـةـ الـغـرـيرـيـةـ لـشـدـةـ اـنـقـاضـ الـرـوـحـ وـاـخـتـنـاقـهـ فـيـحـسـ فـيـ الـقـلـبـ بـاـنـفـعـالـ شـبـيهـ بـالـعـصـرـ وـالـمـرـسـ . وـذـلـكـ فـيـ الـحـقـيقـهـ أـلـمـ أـوـ مـسـتـلـزـمـهـ لـهـ فـيـحـسـ أـنـ يـكـونـ مـرـادـاـ لـهـ ، وـيـحـتـمـلـ أـنـ يـكـونـ كـنـيـةـ عـنـ أـسـبـابـهـ مـنـ الـغـمـ وـالـخـوـفـ فـكـأـنـهـ طـلـبـ مـنـ اللهـ أـنـ يـقـنـصـ لـهـ مـنـهـ إـذـ ماـثـواـ قـلـبـهـ بـفـسـادـ أـفـعـالـهـمـ ، وـيـرـوـىـ أـنـ الـيـوـمـ الـذـيـ دـعـاـ عـلـيـهـمـ فـيـهـ وـلـدـ فـيـهـ الـحـجـاجـ بـنـ يـوسـفـ ، وـرـوـىـ أـنـهـ وـلـدـ بـعـدـ الـيـوـمـ بـأـوـقـاتـ يـسـيـرـةـ . وـفـعـلـ الـحـجـاجـ بـأـهـلـ الـكـوـفـةـ ظـاهـرـ ، وـدـمـارـهـ لـهـ مـشـهـورـ .

وقـولـهـ : أـمـاـ وـالـهـ لـوـدـدـتـ أـنـ لـيـ بـكـمـ أـلـفـ فـارـسـ مـنـ بـنـيـ فـرسـ بـنـ غـنمـ .
يـصـلـحـ تـعـيـنـهـ مـنـ ذـكـرـيـاـنـالـلـهـ خـيـرـهـمـ الـذـيـ طـلـبـهـ أـوـلـاـ مـنـ اللهـ جـمـلاـ عـوـضاـ بـهـمـ . وـبـنـوـفـرسـ حـيـ مـنـ تـغـلـبـ أـبـوـهـمـ غـنمـ بـفـتـحـ الـعـيـنـ وـسـكـونـ الـنـوـنـ ؛ وـهـوـغـنمـ بـنـ تـغـلـبـ بـنـ وـائلـ ، وـإـنـمـاـخـصـ هـذـاـ الـبـطـنـ لـشـهـرـ تـهـمـ بـالـشـجـاعـةـ وـالـحـمـيـةـ وـسـرـعـةـ إـجـابـةـ الدـاعـيـ ، وـأـمـاـ الـبـيـتـ : هـذـاـلـكـ لـوـ دـعـيـتـ فـمـعـنـاهـ مـاـ ذـكـرـهـ السـيـدـ الرـضـيـ . رـضـوانـ اللهـ عـلـيـهـ . وـوـجـهـ تـمـثـلـهـ عـلـيـتـهـ بـهـذـاـ الـبـيـتـ أـنـ

هؤلاء القوم الذين ودّ أنهم كانوا له عوضاً عن قومه هم بصفة الفوارس الذين أشار إليهم الشاعر في المبادرة إلى إجابة الداعي والمجتمع على دفع الضيم عنهم ونصرة حقهم فلذلك تمنواهم عوضاً، ومقصوده في جميع ذلك ذمّهم وتوبيخهم وتحقيرهم بتفضيل غيرهم عليهم تنفيراً لطباعهم عمّا هي عليه من التناقض عن دعوته للذبّ عن دين الله ، وبالله التوفيق والعصمة .

٢٥ - فَمِنْ خَطْبَتِي لِبِعْلَيْبِ الْسَّلَاجْرَةِ

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَذِيرًا لِلْعَالَمَيْنَ ، وَأَمِنَا عَلَى التَّنْزِيلِ ، وَاتَّمَ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينِ ، وَفِي شَرِّ دَارِ ، مُنْيَخُونَ بَيْنَ حَجَارَةِ خُشْنَ ، وَحَيَاتِ صُمِّ تَشْرُبُونَ الْكَدَرَ ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشَبَ ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَتَقْطُعُونَ أَرْحَامَكُمْ ، الْأَصْنَامُ فِيْكُمْ مَنْصُوبَةُ ، وَالآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةُ .

أقول : إلا ناخة : المقام بالمكان . والحقيقة الصماء : هي التي لا تنجز بالصوت كأنها لا تسمع ، وربما يراد بها الصلبة الشديدة . والجشب : هو الطعام الغليظ الخشن ، ويقال : هو الذي لا إدام معه ، ومعصوبه : مشدودة .

واعلم أنه عليه السلام افتقد أموراً وقعت ليحسن مدحها وذمها . فبدأ بذكر النبي ص وذكر بعض أسباب غاية البعثة فإنه لما كانت الغاية منها هو جذب الخلق عن دار الغرور إلى الواحد الحق و كان ذلك العجب تارة بالنذرارة وتارة بالبشرارة . وذكر هنا النذرارة ، وخصها بالذكر لأنّها السبب الأقوى في الردع فإنّ عامة الخلق وجمهورهم قلما يلتقطون إلى ما وعدوا به في الآخرة إذا قابلوه بذلك بلذّاتهم الحاضرة فإنّ تلك أمور غير متصورة لهم إلا بحسب الوصف الذي إنّما ينكشف لهم عن أمور محسوبة تشبه ما هم فيه أو أضعف عندهم . ثم إنّ نيلها مشروط بشرائط صعبة في الدنيا تقدر

عليهم ما هم فيه من حاضر لذتهم مع براعتها عن الشروط والتکاليف الشاقة فلذلك قلما يلتقطون إلى الوعد عما هم فيه . فكان السبب الأقوى في الردع والالتفات إلى الله إنما هو الإنذار والتخييف فإذا أضفنا إليه الوعد أفاد المجموع الغاية . ولما كان مقصوده ~~بياناً~~ في هذا الموضع التوييج المطلق للعرب وترقيق قلوبهم المشتملة على الفظاظة والقسوة كان الأنليق هيئنا ذكر إنذار النبي للعلميين ليتذكروا بذلك تفصيل الإنذارات الواردة في القرآن والسنة ، ثم أردف ذلك بذكر كونه أميناً على التزويل ليتذكروا أن الإنذارات الواردة هي من عند الله تعالى أتي بها الرسول غير خائن فيها بتبدل أو زيادة أو نقصان فينأك في قلوبهم ما قد علموه من ذلك ليكون أدعى لهم إلى الانفعال عن أقوله ، ثم شرع بعده في اقتصاص أحواهم التي كانوا عليها ، والواو في قوله : وأتقم . للحال أي حال ما كنتم بهذه الصفات بعثتكم ، وذكر أحواهم في معرض الذم لهم . فذكر أنهم كانوا على شرّ دين ؛ وهو عبادة الأصنام من دون الله . وأعظم بذلك افتضاحاً ملـن عقل منهم أسرار الشريعة وعرف الله سبحانه . فلا أحسبه عند سماع هذا التوييج إلا خجلاً مما فرط في جنب الله ويقول : ياليتني لم أشرك بربّي أحداً ، ثم أردف ذلك بتذكيرهم ما كانوا فيه من شرّ دار . وأراد نجد أورتها مة وأرض العجارة ، وبين كونها شرّاً بيان فساد أحواهم ، أمّا في مساكنهم فبأنا خلتهم بين الحجارة السوداء الخشن التي لا دادوا بها ولا نبات ، وحيات الصم التي لا علاج لسمومها . ووصفها بالصم . لأنّ حيات تلك الأرض على غاية من القوّة وحدّة السموم لاستيال الحرارة واليس عليها ، وأمّا في مشربهم فلأنّ الغالب على المياه التي يشربونها أن يكون كدرة لا يكاد غير المعتاد بها أن يقبل عليها مع العطش إلا عند الضرورة ، والسبب الغالب في ذلك عدم إقامتهم بالمكان الواحد بل هم أبدافي الحلّ والارتحال ، ولا يحتفرون المياه ويصلحونها ~~إلا~~ رشاماهم عليها . فربما كان بعضهم يحتفرو بعضهم يشرب . ومشاهدتهم توضح ذلك ، وأمّا في ما كلهم فجشوا به ظاهرة فإنّك تجده عامتهم يا كل مادب من حيوان ، وسئل بعض العرب أي الحيوانات تأكلون في البادية ؟ فقال : نأكل كل مادب ودرج إلا أم حين (أم حين نج) فقال السائل : ليت تدرك أم حين السلامة . قال صاحب الجمل : وأم حين : دويبة قدر كف إلا نسان . وبعضهم يخلط الشعر بنوى التمر ويطحنها

و يتخدّ منها خبزاً ، و روى أنّهم كانوا في أيام المجاعة يلوّثون أوبارات الإبل بدم القراد و يجففونها فإذا بيسّت وقوها وصنعوا طعاماً ، وأمّا في سفكهم الدماء بعضهم لبعض و قطع أرحامهم فظاهر أيضاً فإن الولد كان يقتل أباه وبالعكس ، وأمّا نصبهم للأصنام وعصب الآثام بهم في جاهليتهم فغتني عن البيان ، ولفظ العصب مستعار للزرم الآثام لهم في تلك الحال عن معناه الأصلي وهي استعارة لفظ للنسبة بين محسوسين بالنسبة بين معقولين أو بين معقول ومحسوس ، وإنّما ذكرهم عليهم السلام بهذه الأحوال اينبّههم لنسبة ما كانوا عليه في الجahiliyah إلى ما هم عليه في تلك الحال من أخداد ذلك كله . إذ بدّلوا مَا كانوا فيه من فساد أحوالهم في الدنيا إلى صلاح حالهم فيها ففتحوا المدن وكسروا الجيوش وقتلوا الملوك وغنموا أموالهم كما قال تعالى في المثلة عليهم وتدّكيرهم أنواعاً أنعم عليهم به «وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأراضيّم تطّورها» ^(١) وجعل لهم الذكر الباقى والشرف الثابت . كل ذلك زيادة على هدايته لهم إلى الإسلام الذي هو طريق دار السلام وسبب السعادة الباقيه . وإنّما كان ذلك لسبب مقدم عذر الله تعالى لهم . واعلم أنّ سياق هذا الكلام يقتضى مدح النبي عليه السلام فيما حذف من الفصل بعده لينبني عليه مقصوداً له ، و فيه تنبيه على دوام ملاحظة السامعين لنعماء الله عليهم فلما حظوا استحقاقه ل تمام العبادة عامة أحوالهم ، ويكونون في وجل من خوفه وفي وشوق إليه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وَمِنْهَا . فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِ فَضَنْتُ بِهِمْ عَنْ

**الْمَوْتِ ، وَأَغْضَيْتُ عَنِ الْقَدْنِي ، وَشَرَبْتُ عَلَى الشَّجْنِ ، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ
الْكَظْمِ ، وَعَلَى أَمْرٍ مِنْ طَعْمِ الْعِلْمِ**

أقول : ضنت بكسر النون : أى بخلت ، ونقل الفراء بالفتح أيضاً و أغضيت على كذا : أى اطبقت عليه جفني . والقدنى : ما يسقط في العين فيؤذها . والشجني : ما يعرمن في الحلق عند الغبن و نحوه لا يكاد يسيغ إلا نسان معه الشراب ، وقد مر تفسيرهما . وأخذ بكظمه : أى بمحرى نفسه ، والعلم : شجر بالغ المرأة ، ويصدق بالعرف على كل مر .

واعلم أن هذا الفصل يشمل على اقتصاص صورة حاله بعد وفاة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه في أمر الخلافة وهو اقتصاص في معرض التظلم والشكایة من يرى أنه أحق منه بالأمر. فأشار إلى أنه فكر في أمر المقامات والدفاع عن هذا الحق الذي يراه أولى فرأى أنه لاناصر له إلا أهل بيته وهم قليلون بالنسبة إلى من لا يعينه ومن يعين عليه. فإنه لم يكن له معين يغلب على الظن إلا بني هاشم كالعباس وبنيه وأبي سفيان الحرف بن عبد المطلب ومن يخصهم، وضعفهم وقلتهم عن مقاومة جمهور الصحابة ظاهر، فضن بهم على الموت لعلمه أنهم لوقاوم بهم لقتلوا ثم لا يحصل على مقصوده، ومتى ضُرِّ بهم عن الموت لزمهما ذكر من الأمور وهي الإغضاد على القذى، وكنتي بالاغضاد على القذى عن صبره عن مقاومة كنایة بالاستعار، ووجه المشابهة بينهما استلزم الالم البالغ، وبالقذى عمما يعتقد ظلامي في حقه، وكذلك قوله: وشربت على الشجى. ملاحظة لوجه الشبه بين ما يجري لهم من الأمور التي توجب له الغضاد والبغضاء وبين الماء الذي يشرب على الشجى وهو استلزمهما الأذى وعدم التلذذ والاساغة. ولذلك استعار له لفظة الشرب. وكذلك قوله: وصبرت علىأخذ الكظم وعلى أمر من طعم العلقم. فيه استعارات حسنة للفظ أخذ الكظم كنتي بها عن أخذ الوجه عليه وتضيق الأمر فيما يطلبه، ولفظ المرأة التي هي حقيقة في الكيفية المخصوصة للأجسام لما يجده من التألم بسبب فوت مطلوبه، ووجه المشابهة في هاتين الاستعاراتين لزوم الأذى أيضاً، وأمان الماء الذي وجده أمر من العلقم فظاهر إذ لا نسبة للألم البدني في الشدة إلى الألم النفسي. وأعلم أنه قد اختلف الناقلون لكيفية حاله بعد وفاة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فروي المحدثون من الشيعة وغيرهم أخباراً كثيرة ربما خالفة بعضها بعضاً بحسب اختلاف الأهواء: منها وهو الذي عليه جمهور الشيعة أن علياً عليه السلام امتنع من ال碧عة لأبي بكر بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه وامتنع معه جماعة بني هاشم كالزبير وأبي سفيان بن الحرف والعباس وبنيه وغيرهم وقالوا: لا يابيع إلا علياً عليه السلام وأن الزبير شهر سيفه فجاء عمر في جماعة من الأنصار فأخذ سيفه فضرب به الحجر فكسره وحملت جماعتهم إلى أبي بكر فباعوه وبابيع معهم على إكراها، وقيل: إن علياً عليه السلام اعتمد بيت فاطمة عليها السلام وعلموا أنه مفرد فتر كوه، وروى نضر بن مزاحم في كتاب صفين أنه كان

يقول . لو وجدت أربعين ذوى : لقاتل ، و منها و هو الذى عليه جمهور المحدثين من غير الشيعة أنه امتنع من البيعة ستشر حتى مات فاطمة . فبایع بعد ذلك طوعاً ، وفي صحيح مسلم و البخارى : كانت وجوه الم مختلف إليه وفاطمة لم تتم بعد فلما مات اصرفت وجوه الناس عنه . فخر جواباً يبرر ، وعلى الجملة فحال الصحابة في اختلافهم بعد رفاة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه و ما جرى في سقيفة بنو عده و حال على في طلب هذا الأمر ظاهر ، و العاقل إذا طرح العصبية و الهوى عن نفس نظر فيما نقله الناس في هذا المعنى علم ما جرى بين الصحابة من الاختلاف والاتفاق وهل بایع على طوعاً أو كرهاً و هل ترك المقاومة عجزاً أو اختياراً . ولما لم يكن غرض لا تفسير كلامه كان الاشتغال بغیر ذلك تطويلاً وفضولاً خارجًا عن المقصود . ومن رام فعليه بكتاب التواریخ .

وَمِنْهَا: وَلَمْ يَأْبِعْ شَرْطَ أَنْ يُؤْتِيهِ عَلَى الْبَيْعَةِ ثُمَّاً، فَلَا ظَفَرَتْ
يَدُ الْبَائِعِ، وَخَرَبَتْ أَمَانَتَاعِ، نَذَرُوا لِلْحَرْبِ أَهْبَتَاهَا، وَأَعْدَدُوا لَهَا دُدَّهَا،
فَقَدْ شُبَّ لَظَاهَاهَا، وَعَلَانَا، وَاسْتَشَرُوا الصَّبَرَ فَانْهَادُوا إِلَى النَّصْرِ.

أقول: خزيت: أى ذلت وهو الأبهة: الاستعداد، وأعدوا: أى هيئوا، وعدة الحرب: ما يعدلها من الآلات والمال . وشب لظاهرا: أى أو قدت نارها و أثمرت ، وروى شب بالبناء للفاعل أى ارتفا . والسنن مصورة: الضؤ . والشعار: ما يليل الجسد من الشياطين، وبالازمه .

اعلم أن هذا الفصل كلام اقتصاص ذكر عليه السلام فيه حال عمرو بن العاص مع معاوية . فذكر أنه لم يبايع شرط أن يؤتيمه على بيعته ثماناً؛ وذلك أنه لما تنازل عليه السلام بالكوفة بعد فراغه من أمره كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه فيه إلى البيعة فأهمنه ذلك . فدعى قوماً من أهل إلى الطلب بعد عثمان فأجابوه وأراد الاستظهار في أمره فأشار عليه أخوه عتبة بن أبيه بالاستعانة بعمرو بن العاص و كان بالمدينة فاستدعاهم فلما قدم عليه وعرف حاجه تباعد عنه وجعل يمدح علياً عليه السلام في وجهه و يفضل له

ليخدعه عما يريده منه . فمن ذلك أنَّ معاوية قال له يوماً : يا أبا عبد الله إنِّي أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشقّ عصا المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم . فقال عمر : من هو ؟ قال : على . فقال : والله يا معاويه ما أنت وعلى ^{حلي} بغير ، ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا علمه والله إنَّ له مع ذلك لحظة في الحرب ليس لأحد غيره . ولكنني قد تعودت من الله إحساناً و بلاه جميلاً . فما تجعل لي إن بايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرور والخطر ؟ قال له : حكمك . قال له : مصر الطعممة . فلم ينزل معاوية يتلئماً عليه و يماطله وهو يمتنع عن مساعدته حتى رضي معاوية أن يعطيه مصر . فعاشه على ذلك و بايع عمر و معاوية ، و كتب له بمصر كتاباً . فذلك معنى قوله ^{عليه السلام} : ولم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتنيه على البيعة ثمناً ، ثم أردف ذلك بالدعاء على البايع لدينه و هو عمر و بعدم الظفر في الحرب أو بالشمن بقوله : فلانظرت يد البايع ، وألحقه بالتوبيخ والذم للبياع بعد ذكر هوان أمانته عليه وهي بلاد المسلمين وأموالهم التي أفاءها الله عليهم ، و يحتمل أن يكون إسناد الخزى إلى الأمانة إسناداً مجازاً ^{يا} أو على سبيل إضمار الفاعل يفسر المبتاع أي والخزى المبتاع في أمانته بخيانته لها ، وذهب بعض الشارحين إلى أنَّ أمراد البايع معاويه وبالبياع عمر و هو ضعيف . لأنَّ الثمن إذا كان مصرأً فالمبتاع هو معاوية . ثم لما ظهرت دعوة معاوية لأهل الشام و مبايعة عمر له كان ذلك من دلائل الحرب فلذلك أمر ^{عليه السلام} أصحابه بالتأهب لها وإعداد عدتها ، وكتى عمامذ كرناه من إمارات وقوتها بقوله : وقد شب لظاها و عالسناها . كنایة بالمستعار . ووجه المشابهة بين لهب النار و سناها و أمارات الحرب كونها علامات على أمررين هما مظنة الها لا و محل الفتنة ، و يحتمل أن يكون إطلاق لفظ السنا ترشيحًا لاستعارة ، ثم أردف ذلك بالأمر بالصبر في الحرب واستشعاره إمّا أن يراد به اتخاذ شعاراً على وجه استعارته من التوب ملازمته الجسد ، أو يراد اتخاذ علامة لأنَّ شعار القوم علامتهم أيضاً ، و يحتمل أن يكون اشتقاء من الشعور أي يكن في شعوركم الصبر وإن كان الأشقاء يرددون الشعار بمعنى الثاني إلى الشعور .

وقوله : فإنَّ ذلك أدعى إلى النصر . بيان لفائدة اتخاذ الصبر شعاراً أو علامة ، أمّا

إن كان المقصود ألمزوا أنفسكم الصبر فظاهر أن لزوم الصبر من أقوى أسباب النصر ، وإن كان المقصود اتخذه علامة فلان من كان الصبر في الحرب علامة له يعرفه الخصم بها كان الخصم يتصورها منه أدعى إلى الافتخار فكان المستشعر لتلك العلامة أدعى إلى القهر والنصر ، وإن كان المراد إخباره بالبال فلان سبب لزومه . وبالله التوفيق .

٢٦ - وَهِنْ خُطْبَةٌ لِّبْرَ عَلَيْهَا السِّلَامُ

اما بعد ، فان الجهد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصته او لياه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة ، فمن ترك رغبة عنه البسه الله ثوب الذل ، وسلمة البلا ، وديث بالصغر والقام ، وضرب على قلبه بالاسداد ، وأدبي الحق منه بتضييع الجهد ، وسيم الحسف ، ومنع النصف ، الا وإني قد دعوتم إلى قتال هؤلاء القوم ليلًا ونهاراً ، وسرّاً وإعلاناً ، وقلت لكم : أغزوهم قبل أن يغزوكم فهو الله ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا فتوا لكم ، ومخذلتم حتى شنت الغارات عليكم ، وملكت عليكم الأوطان ، وهذا آخر غامد وقد وردت خيله الانبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وازال خيلكم عن مسالحها ، ولقد بلغتني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والآخر المعاهدة ، فينتزع حجلها وقلتها وقلائدتها ورعايتها ، ما يمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلا منهم لكم ، ولا أريق لهم دم ، فلو ان أمر ما مسلمات

من بعدها أسفًا ما كان به ملومًا، بل كان به عندي حديراً؛ فيا عجباً - والله -
 يُمْيِتُ القلب ويجلب المم أجياع هؤلاء القوم على باطفهم وتفرقكم عن حكم
 فَقْبَحَ الْكُمْ وَتَرَحَا، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرمى ؛ يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ،
 وَتَغْزُونَ وَلَا تَغْزُونَ، وَيَعْصِي الله وَتَرْضُونَ ؛ فَإِذَا أَمْرَتُمْ بِالسَّيرِ إِلَيْهِمْ فِي
 أَيَّامِ الصَّيفِ قُلْتُمْ هَذِهِ حَارَّةُ الْقِيَظِ ، أَمْهَلْنَا يَسْبِخُ عَنَّا الْحَرُّ ، وَإِذَا أَمْرَتُمْ
 بِالسَّيرِ إِلَيْهِمْ فِي الشَّتَاءِ قُلْتُمْ : هَذِهِ صَبَارَةُ الْقَرَّ أَمْهَلْنَا يَسْلَخُ عَنَّا الْبَرْدَ، كُلُّ هَذَا
 فِرَارًا مِنَ الْحَرَّ وَالْقَرَ (١) فَاتَّمْ وَالله مِنَ السَّيفِ افْرِيَالِ الشَّاهِ الرَّجَالِ وَلَارِجَالِ !
 حُلُومُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُولُ رَبَاتِ الْجَمَالِ ، لَوْدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفُكُمْ !
 مَعْرِفَةُ وَالله جَرَتْ نَدْمًا ، وَأَعْقَبَتْ سَدْمًا فَاتَّلَكُمْ اللَّهُ !! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلَى
 قَيْحَا ، وَشَخْتُمْ صَدِرِي غَيْظَا ، وَجَرَعْتُمْ نُفَبَ الْتَّهَمَامِ أَنْفَاسًا وَأَفْسَدْمِ
 عَلَى رَأْيِي بِالْعَصِيَانِ وَالْخَذْلَانِ ، حَتَّى قَالَتْ قُرِيشٌ : إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ
 شَجَاعٌ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرَبِ .

لَهُ أَبُوئِمْ !! وَهُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُهَا مَرَاسًا ، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي ؟!
 لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا ، وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ ، وَهَا أَنَا ذَرْفُتُ عَلَى السِّتِينَ ،
 وَلَكِنْ لَأَرَأَى مَنْ لَا يُطَاعُ !!

(١) (فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ تَغْزُونَ نَلْ) .

أقول : هذه الخطبة مشهورة ذكرها أبو العباس المبرّد وغيره ، و السبب المشهور لها أنّه ورد عليه عاج من أهل الأنبار فأخبره أنّ سفيان بن عوف الغامدي قدورد في خيل المعاوية إلى الأنبار و قتل عامله حسان بن حسان البكري . فصعد عليقلة المنبر و خطب الناس وقال : إنّ أخاكم البكري قد صيب بالأنبار وهو مفتر لايختاف مكان ، واختار ما عند الله على الدنيا . فانتدروا إليهم حتى تلاؤهم فإن أصبتم منهم طرفاً انكلتموه عن العراق أبداً ما بقوا . ثم سكت رجاه أن يجيئوه بشيء فلم يفتأمدهم بكلمة . فلما رأى صمتهن نزل وخرج يمشي راجلاً حتى أتى النخلة والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرافهم وقالوا : ترجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك . فقال : ماتكفوني ولا تكفون أنفسكم . فلم يزدوا به حتى ردّه إلى منزله . فبعث سعيد بن قيس الهمداني في ثمانية آلاف في طلب سفيان بن عوف فخرج حتى انتهى إلى أدنى أرض قنسرين وقد فاتوه . فرجع وكان على عليقلة في ذلك الوقت عليلاً فلم يقول على القيام في الناس بما يريده من القول . فيجلس بباب السدة التي تصل إلى المسجد و معه الحسن و الحسين عليهم السلام و عبد الله بن جعفر ، ودعى سعداً مولاه فدفع إليه كتاباً كتب فيه هذه الخطبة وأمره أن يقرأها على الناس بحيث يسمع عليقلة و يسمعون ، وفي رواية المبرّد أنه لما انتهى إليه ورود خيل معاوية الأنبار و قتل حسان بن حسان خرج مغضباً فجر ردائه حتى أتى النخلة و معه الناس فرقى رباء من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ثم قال الخطبة . ورواية المبرّد أليق بصورة الحال وأظهر ، وروى أنه قاد إليه رجل في آخر الخطبة ومعه ابن أخي له فقال : يا أمير المؤمنين : إنّ وابن أخي هذا كما قال تعالى « رب إني لأملك إلأنفسي و أخي » ^(١) فمرنا بأمرك فوالله لننهي إلينه ولو حال بيننا وبينه بحر الغضا و شوك القتاد فدعا لهما بخير ، وقال : و أين أنتما مما أريد .

ولنرجع إلى التفسير فنقول : الجننة : ما استترت به من سلاح أو غيره ، وديث : أي ذلل ، ومنه الديوث : الذي لا غير له . والصغر : الذل والضيم ، والقماء ممدود مصدر قمة فهومي : الحقارة والذل » ؛ وروى الرواوندي القما بالقصر وهو غير معروف ، وأسد الرجل بالبناء للمفعول إذ ذهب عقله من أذى يلحقه . وأدبل الحق من فلان أى غلبه عليه عدوه ،

واسمه خسفاً بضم "الخاء وفتحها: أى أولاه ذلاً و كلّه المشقة ، والنصف بكسر النون وسكون الصاد: الاسم من الانصاف، وضم "النون لغفيفه ، وعقر الشيء": أصله ، والتواكل : أن يكل كلّ واحد منهم الأمر إلى صاحبه ويعتمد عليه فيه . وشنـ" الغارة وأشنـها: فرقـها عليهم من كلـ وجه . وغامـد: قبيلـة من اليمـن وهـى من الأـزد اـزد شـنوة ، والمسـالـح جـمع مـسـلـحة وهـى الحـدود الـتي تـرـتـبـ فيـهاـدـوـ والأـسـلـحـةـ مـخـافـقـةـ عـادـيـةـ العـدـوـ" كالـثـغـرـ ، والـمـعـاهـدـةـ الـذـمـيـةـ ، والـجـبـلـ بكـسرـ الـحـاءـ وـفـتحـهاـ: الـخـلـخـالـ ، وـالـقـلـبـ السـوـارـ المـصـمـتـ ، وـالـرـعـاثـ جـمع رـعـثـةـ بـفتحـ الرـاءـ وـسـكـونـ الـعـينـ وـفـتحـهاـ: وـهـىـ الـقـرـطـ ، وـالـرـعـاثـ أـيـضاـ: ضـربـ منـ الـخـرـزـ وـالـحـلـىـ ، وـالـاـسـتـرـجـاعـ قولـ: إـنـتـهـ وـإـنـتـاـ إـلـيـهـ رـاجـعـونـ ، وـالـاـسـتـرـحـامـ: مـنـاشـدـةـ الرـحـمـ ، وـالـوـافـرـ: التـامـ ، وـالـكـلمـ الـجـرـحـ . وـالـتـرـحـ: الـحـزـنـ . وـالـغـرـضـ: الـهـدـفـ ، وـحـمـارـةـ الـقـيـظـ بـتـشـدـيدـ الرـاءـ: شـدـةـ حـرـهـ: وـسـبـخـ الـحـرـ: فـتـرـ ، وـخـفـ ، وـصـبـارـةـ الـقـرـ بـتـشـدـيدـ الرـاءـ أـيـضاـ: شـدـةـ الـبـرـدـ ، وـيـنـسـلـخـ: يـنـقـضـيـ ، وـرـبـاتـ الـجـبـالـ: النـسـاءـ ، وـالـجـبـالـ جـمعـ حـجـلـةـ: وـهـىـ يـتـ الـعـرـوـسـ بـنـ يـنـ بالـسـتـورـ وـالـثـيـابـ ، وـالـسـدـمـ: الـحـزـنـ عنـ النـدـمـ ، وـالـقـيـحـ: ماـ يـكـوـنـ فـيـ الـقـرـحـةـ مـنـ الـمـدـةـ وـالـصـدـيـدـ ، وـشـخـنـتـمـ: مـلـأـتـ الـنـفـقـ جـمعـ نـفـقـةـ بـضمـ النـونـ وـهـىـ الـجـرـعـةـ ، وـالـتـهـمـاـنـ بـالـفـتـحـ التـهـمـ" ، وـالـمـرـاسـ الـعـلاـجـ ، وـذـرـفـتـ عـلـىـ السـتـيـنـ بـتـشـدـيدـ الرـاءـ أـيـ زـدتـ .

واعلم أنـ" قوله: أـمـاـ بـعـدـ إـلـىـ قـولـهـ: وـمـنـ النـصـفـ صـدـرـ الـخـطـبـةـ يـسـنـ فـيـهـ عـزـضـهـ إـجـمـالـاـ وهوـ الـحـثـ" عـلـىـ الـجـهـادـ ، فـإـنـهـ مـمـاذـ كـرـمـ أـمـرـ الـجـهـادـ وـتـعـظـيمـهـ وـخـطـأـ مـنـ قـصـرـ عـنـهـ عـامـ أـنـهـ يـرـيدـ أـنـ يـحـثـ السـامـعـينـ عـلـىـ جـهـادـ عـدـوـهـ فـذـ كـرـمـ مـعـادـجـ الـجـهـادـ أـمـورـاـ .

أـحـدـهـ: أـنـهـ بـابـ مـنـ أـبـوـبـ الـجـنـةـ . وـبـيـانـهـ أـنـ" الـجـهـادـ تـارـةـ يـرـادـ بـهـ جـهـادـ عـدـوـ" الـظـاهـرـ كـمـاـهـوـ الـظـاهـرـ هـيـهـاـ ، وـتـارـةـ يـعـنـيـ بـهـ جـهـادـ عـدـوـ" الـخـفـيـ" وـهـىـ الـنـفـسـ الـأـمـارـةـ بـالـسـوـءـ . وـكـلـاـهـماـ بـابـانـ مـنـ أـبـوـبـ الـجـنـةـ ، وـالـثـانـيـ مـنـهـماـ مـرـأـهـ بـوـاسـطـهـ الـأـوـلـ إـذـ هـوـ لـازـمـ لـهـ ، وـذـلـكـ أـنـكـ عـلـمـتـ أـنـ لـقاـةـ اللهـ سـبـحـانـهـ وـمـشـاهـدـةـ حـضـرـةـ الـرـبـوـيـةـ هـىـ ثـمـرـةـ الـخـلـفـةـ وـغـاـيـةـ سـعـىـ عـبـادـ اللهـ الـأـبـرـارـ ، ثـمـ قـدـ ثـبـتـ بـالـضـرـورـةـ مـنـ دـيـنـ عـمـدـ وـأـلـفـقـلـيـهـ أـنـ" الـجـهـادـ أـحـدـ الـعـبـادـاتـ الـخـمـسـ ، وـثـبـتـ أـيـضاـ فـيـ عـلـمـ السـلـوكـ إـلـىـ اللهـ أـنـ" الـعـبـادـاتـ الـشـرـعـيـةـ هـىـ الـمـتـمـةـ وـالـمـعـيـنةـ عـلـىـ تـطـوـيـعـ الـنـفـسـ الـأـمـارـةـ بـالـسـوـءـ لـلـنـفـسـ الـمـطـمـئـنـةـ ، وـأـنـ" الـتـطـوـيـعـ كـيـفـ يـكـوـنـ

وسيلة إلى الجنة التي وعد المتقون . فيعلم من هذه المقدّمات أنَّ الجهاد الشرعي باب من أبواب الجنة إذ منه يعبر المجاهد السالك إلى الله إلى الباب الأعظم للجنة وهو الرياضة وفهر الشيطان . ومن وقوفك على هذا السر تعلم أنَّ الصلاة والصوم وسائر العبادات كلها أبواب للجنة إذ كان امثاليها على الوجه المأمور بها مستلزمًا للوصول إلى الجنة . فإنَّ باب كلَّ شيء هو ما يدخل إليه منه ويتوصل به إليه . و نحوه قول الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه في الصلاة : إنَّها مفتاح الجنة ، وفي الصوم إنَّ للجنة باباً يقال له الرِّيَان لا يدخل خله إلَّا الصائمون .

الثاني من أوصاف الجهاد : أنَّه باب فتحه الله لخاصة أوليائه . والمراد بخواص الأولياء ، المخلصون له في المحبة والعبادة . وظاهر أنَّ المجاهدة لله لغرض آخر من خواص الأولياء ، وذلك أنَّ المرء المسلم إذا فارق أهله و ولده و ماله وأقدم على من يغلب على ظنه أنه أقوى منه كما أمر المسلمين بأن يثبت أحدهم لعشرة من الكفار ، ثم يعلم أنه لوقته لقتله واستباح ذريته وهو في كل تلك الأحوال صابرًا كرو معترف بالعبودية لله مسلم أمره إلى الله فذلك هو الولي الحُقْقَى الذي قد أعرض عن غير الله رأساً ، وفهر شيطانه قهراً ، وآيسه أن يطيع له أمراً .

فإن قلت : إذا كان الغرض من العبادات هو جهاد الشيطان والإخلاص لـ هؤلاء كان التخصيص بالوصفين المذكورين لاستلزمـه ذلك المعنى لم يبق حينئذ لسائر العبادات منزهة عليه فما معنى قول الصحابة وقد رجعوا من جهاد المشركين : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؟ .

قلت : يحتمل معنيين :

أحدهما : أنَّ الجهاد الظاهر ليس كلَّ غرضه الذاتي هو جهاد النفس ؛ بل ربما كان من أعظم أغراضه الذاتية هو فهر العدو ؛ الظاهر ليستقيم الناس على الدين الحق ، وينتظم أمرهم في سلوكه . ولذلك دخل فيه من أراد منه إلَّا ذلك كالمؤلفة قلوبهم وإن كانوا كفاراً . ولذلك بخلاف سائر العبادات إذ غرضها ليس إلَّا جهاد النفس ولا شك أنَّه هو الجهاد الأكبر : أمَّا أوَّلًا فباعتبار مضرَّة العدو وين فإنَّ مضرَّة العدو وظاهر مضرَّة ديناوية فانية ، ومضرَّة الشيطان مضرَّة أخروية باقية . ومن كانت مضرَّته أعظم كان جهاده

أكبر وأهم ، وأعماقًا يفتأل أن مواجهة الشيطان مواجهة العدو لازم ومع ذلك فلا يزال مخادعاً غرّاً لا ينال غرضه إلا بالخروج في ذي الناصحين الأصدقاء ، ولاشك أن الاحتراز من مثل هذا العدو وأصعب ، وجهاده أكبر من جهاد العدو مظاهر عداؤه يقاتلاته إلا إنسان في عمره مرّة أو مررتين . فحسن لذلك تخصيص الجهاد بالصغر ، ومجاهدة النفس بالأكبر .

المعنى الثاني : أننا وإن قلنا : إن الغرض من الجهاد الأصغر هو مجاهدة النفس إلا أن جهادها في حال جهاد العدو الظاهر قد يكون أسهل و ذلك أن القوى البدنية كالغضب والشهوة يشوان عند مناجزة العدو طلبًا لدفعه ، و تصران مطاعيم للنفس إلا إنسانية في ماتراه و تأمر به فلا يكون عليها كثير كلفة في تطويق تلك القوى . بخلاف سائر العبادات فإن طباع تلك القوى معاً كثرة فيها لرأي النفس . فلذلك كان جهادها في سائر العبادات أصعب وأكبر من جهادها في حال الحرب . والله أعلم .

الثالث : كونه لباس التقوى ، و درع الله الحصينة ، و جنته الوثيقة . و استعار لفظ اللباس والدرع والجنة ثم رشح الاستعاراتتين الأخيرتين بوصفى الحصانة والوثاقة . ووجه المشابهة أن الإنسان يتلقى شر العدو أو سوء العذاب يوم القيمة كما يتلقى بشوبه ما يؤذيه من حرّ أو برد ، و بدرعه و جنته ما يخشاه من عدوه ، ثم أردد على ذلك ممدادح الجهاد بتوعيد من تركه رغبة عنه من غير عنده يوجب تخلفه بأمور منفور عنها طبعاً : منها : أنه يستعد بالترك لأن يلبسه الله ثوب الذل . واستعار لفظ التوب للذل ولنقط اللباس لشموله له . ووجه المشابهة إحاطة الذل به إحاطة الصفة بالمحض كإحاطة التوب بملابسها ، وأن يشمله بلاء العدو في ذلك بالصفار والقماء ، وأن يضرب على قلبه بالأسباب أى يذهب وجه عقله العملي في تدبير مصالحة : أمّا لحقوق الذل به فذلك أن كثرة غارات العدو وتكررها منه موجب لتوهّم قبره وقوته و ذلك مما ينفع عن النفس بالانغماس والذل . و حينئذ تذعن لشمول بلاه ، وتذهب وجه عقلها في استخراج وجوه المصالح في دفعه و مقاومته إما بالقلة اهتمامها بذلك عن عدم طمعها في مقاومته أو لتشويفها عن ملاحظة وجه المصالحة . وفي إطلاق لفظ الضرب على قلبه استعارة كقوله تعالى « و ضربت عليهم الذلة والمسكنة »^(١)

ووجه الشبه فيها إحاطة القبة المضروبة بمن فيها ، أو لزوم قلة العقل له كلزم الطين المضروب على الحائط . و يحتمل أن يراد بالأسهاب كثرة الكلام من غير فائدة فإن " إلا نسان حال الخوف والذل" كثيراً ما يخبط في القول و يكثر من غير إصابة فيه . وكذلك لحقوق باقي الأمور به كإدلة الحق منه ، ولغلبة العدو له ، وعدم انتصافه منه أمر ظاهر عن ترك جهاد عدوه مع التمكّن من ذلك . و هي أمور منفور عنها طبعاً و مضرة بحال من تلحّقه في الدارين . وقدورد في التنزييل الإلهي من فضل الجهاد والبحث عليه أمور كثيرة كقوله تعالى «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيراً ولِيُ الضرُّ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» إلى قوله «فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرأً عظيماً درجات منه و مفترقة ورحمة»^(١) و قوله «وجاهدوا في الله حقَّ جهاده»^(٢) و قوله «ومن جاهد فإِنَّمَا يجاهد لنفسه»^(٣) و نحو ذلك .

قوله : ألا وإنني قد دعوكم . انخ . لما ذكر صدر الخطبة أردفه بتفصيل غرضه مما أجمله فيه و هو حشمتهم على الجهاد و توبيخهم على تركه . فنبّههم أولاً على ما كان دعاهم إليه قبل من قتال معاوية وأصحابه مراراً كثيرة ، وذُكر لهم نصيحة السابقة لهم في أمرهم بغزو عدوهم قبل أن يغزوه ، ويدركهم بما كان أعلمهم أولاً من الفاعدة الكلية المعلومة بالتجربة والبرهان و هو أنه ماغزى قوم فقط في عقر دارهم إلّا ذلوا . وقد أشرنا إلى علة ذلك : وهو أن " للأوهام أفعالاً عجيبة في الأبدان تارة بزيادة القوة و تارة بنقصانها حتى أن" الوهم ربما كان سبباً لمرض الصحيح لتوهمه المرض ، و بالعكس . فكان السبب في ذلك من غزى في داره و إن كان معروفاً بالشجاعة هو الأوهام : إنما أوهامهم فلا تتها تحكم بأنّها لم تقدم على غزوهم إلّا لقوّة غازيهم ، و اعتقادهم فيهم الضعف بالنسبة إليهم . فينفع إذن نفوسهم عن تلك الأوهام و تتقربون من المقاومة و تضعفون عن الانبعاث و تزول غيرتها و حميّتها . فتحصل على طرف رذيلة الذل ، وإنما أوهام غيرهم فلان الغزو الذي يلحقهم يكون باعثاً لكثير الأوهام على الحكم بضعفهم و محركاً لطبع كلّ طامع فيهم . فيشير ذلك لهم أحکاماً وهمية بعجزهم عن المقاومة . ثم إنّه أردف ذلك بما قابلوا به نصيحته من

تواكلهم وتخاذلهم عن العمل بمقتضى أمره إلى غاية ظهور العدو عليهم وتفريق الغارات من كل جانب على أوطانهم وحدودهم . ثم عقب ذكر العدو المطلق بذكره في شخص معين مشاهد ، ونبههم عليه ليكونوا إلى التصديق بظهور العدو عليهم أقبل ، وقص عليهم ما أحدث من ورود خيله ديارهم وقتله لعاملهم وإزالة خيلهم عن ثغورهم ومسالحهم وهتك المسلمين والمعاهدات وسلب أموال المسلمين وساير ماعده على الوجه المذكور مما هو مستغن عن الإيضاح . ثم ختم ذلك القصص بما الأولى أن يلحق المسلم الحق ذا الغيرة والحمية لله من الأسف والحزن المميت له بسبب ما يشاهد من الأحوال المنكرة الواقعة بال المسلمين مع تقصيرهم عن مقاومة عدوهم . كل ذلك التقرير لم يهدّقاناً بحسن معه توبيخهم وذمهم على التقصير فيما ينبغي لهم من امتثال أمره وقبول شوره فيما هو الأولى والأصح لهم . ثم أردف ذلك بالتعجب من حالهم تأكيداً لذلك التمهيد . فنادي : العجب من حالهم منكراً ليحضر له كأنه غير متبعين في حال ندائهم ، ثم تعين بذلك وحضر فكره ليصفه بالشدة . ونصبه على المصدر كأنه لما حضر وتعين قال عجبت عجباً من شأنه كذا . ونحو هذا المنادى قوله تعالى : يا بشرى في قراءة من قراءة بغير إضافة ، ويحمل أن يكون العجب الأول نصباً على المصدر أيضاً والثاني للتاكيد أولما ذكرناه ، ويكون المنادى محنوفاً تقديره يا قوم أونحوه ، وأما وصفه له بأنه يحيط القلب ويجلب لهم : فاعلم أن السبب في التعجب من الأمور عدم اطلاع النفس على أسبابه لغموضها مع كونه في نفسه أمراً غريباً . ولذلك وضع أهل اللغة قولهم ما أفعله صيغة للتعجب كقولك ما أحسن زيداً ، وعلمت أن التقدير فيها السؤال عن أسباب حسنه . وكلما كان الأمر أغرب وأسبابه أخفى كان أعجب . فإذا كان أمراً خطراً مهماً وابعثت النفس في طلب سببه فقد تعجز من تحصيله وتتكلّم القوة المتخيّلة عن تعينه فيحدث بسبب عدم الاطلاع على سببه هم وغم لأنه كالمرمن الذي لا يمكن علاجه إلا بالوقوف على سببه فيسمى ذلك لهم موتاً للقلب تجوازاً بلحظ الموت في لهم والغم تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه ، وإطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

إذا عرفت ذلك فنقول : إن حال قومه عليهم السلام في تفرقهم عن حقهم مع علمهم بحقيقةه ،

و حال اجتماعهم على باطلهم مع اشتراكهم في الشجاعة و كون قومه واثقين برضاء الله لو امثروا أمره من العجب المميت للقلب الذي لا يهدى بسيبه .

و أمّا أنه يجعل لهم ظاهرًا ذاك حال عليهم السلام معهم كحال طيب طرى أزرهم بالاجهم مع خطر أمراضهم و عدم لزومهم لما يأمر به من حية أو شرب دواء . و ظاهر أنَّ تلك الحال مما يجعلهم الطيب . ثمَّ لما أظهر لهم التعجب و وصفه بالشدة أعقبه بذلك الأمر المتعجب منه ليكون في نفوسهم أوقع . ثمَّ أردف ذلك المتعجب بالدعاء عليهم وبالبعد عن الخير و بالحزن بسبب تفريطهم ، وأعقبه بالتوجيه لهم و التبكيت بما يأنف منه أهل المروءة و الحمية و يوجب لهم الخجل و الاستحياء من صيرورتهم بسبب تقصيرهم غرضاً للرماء يغار عليهم وقد كان الأولى بهم أن يغزوا ، و يغزون وقد كانوا هم أولى بأن يغزوا ، و يعصى الله مع رضاه بذلك . ثمَّ حكى صور أخذ ارهم في التخلف عن أمره وهي تارة شدة الحر و تارة شدة القر و نحوها من الأعذار التي يذوق العاقل منها طعم الكسل و الفتور ، و أنه لم يكن لهم بها مقصود إلا المدافعة . ثمَّ تسلم تلك الأعذار منهم واستتبثتها و جعلها مهادأ للاحتجاج عليهم قوله : فأنتم والله من السيف أفر . و ذلك لأنَّ الفار من الأهون فار من الأشد بطريق الأولى إذ لامناسبة لشدة الحر و البر دمع القتل و المحالدة بالسيف . ثمَّ أردف ذلك التبكيت بالذم لهم بثلاثة أوصاف :

أحدها : أنه نفي عنهم صفة الرجولية . لاستجماعها ما ينبغي من صفات الكمال الإنساني كالشجاعة و الأنفة و الحمية و الغيرة . و عدم هذه الكمالات فيهم و إن كانوا بالصورة المحسوسة للرجال الموجبة لتشبيههم بهم . و ذلك قوله : يا أشداء الرجال و لارجال .

و ثانيةها : أنه وصفهم بحلوم الأطفال . و ذلك لأنَّ ملكرة الحلم ليس بحاصل للطفل و إن كانت قوَّة الحلم حاصلة له لكن قد يحصل لهم ما يتصور بصورة الحلم كعدم التسريع إلى الغضب عن خيال يرضيه و أغلب أحواله أن يكون ذلك في غير موضعه ، و ليس تحصل له ملكرة تكسب نفسه طمأنينة كما في حقِّ الكاملين . فهو إذن ف Hasan . و لما كان تاركوا أمره عليهم السلام بالجهاد قد تركوا المقاومة حلماً عن أدنى خيال

كثراً كثراً الحرب بصفتين عن خدعة أهل الشام لهم بالمسالمة وطلب المحاكمة إلى كتاب الله ورفع المصالح فقالوا : إخواننا في الدين فلا يجوز لنا قتالهم . كان ذلك حلماً في غير موضعه حتى كان من أمرهم ما كان . فأشباهه رضي الصبيان فأطلق اسمه عليه . وثالثها : إلحاد عقولهم بعقول النساء . وذلك للمشاركة في النقصان وعدم عقليتهم لوجوه المصالح المختصة بتدمير المدن وال Herb . ثم عرّفهم محبتهم لعدم رؤيتهم وعدم معرفتهم لاستلزمها ندمه على الدخول في أمرهم وحزن من تقصيرهم في الذب عن الدين لأنَّ المتولى لأمر يغلب على ظنه استقامتهم حتى إذا دخل فيه وطلب انتظامه ووجوده غير ممكن له لابد وأن يندم على تضييع الوقت به ، ويزحن على عدم إمكانه له . وهذه حالة عاتبهم مع أصحابه . ولذلك حزنت الأنبياء عليهم على تقصير أمههم حتى عاتبهم الله تعالى على ذلك كقوله عليه السلام **«و لا تحزن عليهم ولا لك في ضيق مما يمكرون»** . لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين » . ثم عاد إلى الدعاة عليهم والشكية منهم ؛ وذلك قوله : قاتلوك الله . إلى آخره . وأعظم بماذا عليهم به فإنَّ المقاتلة لما كانت مستلزمة للعداوة ، و العداوة مستلزمة لأحكام كالعن و الطرد و البعد من الشفقة و الخير من جهة العدو ، و كان إطلاق المقاتلة والعداوة على الله بحسب حقيقتهما غير ممكن كان إطلاق لفظ المقاتلة و العداوة مقصوداً به لوازمهما كلاً بعد عن الرحمة مجازاً . قال المفسرون : معنى قول العرب : قاتلوك الله : أى لعنكم . وقال ابن الأبرارى : المقاتله من القتل . فإذا أخبر الله بها كان معناها اللعنة منه لأنَّ من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الحالك .

وقوله : لقد ملأتم قلبي قيحاً إشارة . إلى بلوغ الغاية في التألم الحاصل له من شدة الاهتمام بأمرهم مع تقصيرهم و عدم طاعتهم لأوامره . فعيّر بالقيق عن ألم قلبه مجازاً من باب إطلاق اسم الغاية على ذى الغاية . إذ كان غاية ألم العضو أن يتقيّح . وكذلك إطلاق لفظ الشحن على فعلهم المولم لقلبه مجاز لأنَّ الشحن حقيقة في نسبة بين جسمين ، وكذلك قوله : و جرّ عتموني نسب التهمام أنفاساً : أى جلبتهم لى لهم وقتاً فوقتاً . مجاز لأنَّ التجريح عبارة عن إدخال آماء أو نحوه في الحلق . و طريان لهم على نفسه وما

يلزم الهم من الآلام البدنية على بدنك ، و تكرار ذلك منهم يشبه طريان المشروب و تجريعه . قوله : أنفاساً . مجاز في الدرجة الثانية فإنَّ النفس حقيقة لغوية في الهواء الداخل والخارج في الحيوان من قبل الطبيعة . ثمَّ استعمل عرفاً مقدار ما يشرب في مدة إدخال الهواء بقدر الحاجة إطلاقاً لِإِسْمِ المُتَعَلِّقِ على المُتَعَلِّقِ ، ثمَّ استعمل هيئتنا في كل مقدار من الهم يرد عليه من قبل أصحابه وقتاً فوقتاً وهي درجة ثانية من المجاز .

وقوله : و أفسدتم رأي بالعصيان . من تمام شكياته منهم . ومعنى إفسادهم له خروجه بسبب عدم التفاتهم إليه عن أن يكون منتفعاً به لغيرهم حتى قالت قريش : إنه وإن كان رجالاً شجاعاً إلا أنه غير عالم بالحرب . فإنَّ الخلق إذا رأوا من قوم سوء تدبير أو مقتضى رأى فاسد كان الغالب أن ينسبوه إلى رؤسائهم ومقدمتهم ولا يعلمون أنه على الأعلى الذي يرى الرأي كأنَّ قد رأى وقد سمع ، وأنَّ التقصير من قومه . ثمَّ أردف ذلك بالرد على قريش في نسبتها له إلى قلة العلم بالحرب بقوله : الله أبوهم . إلى آخره . وهي كلمة من مدح العرب . ثمَّ سألهم عن وجود من هو أشد للحرب معالجة أو أقدم منه فيها مقاماً سؤالاً على سبيل الإنكار عليهم ، وتبه على صدقه بنهاوضه في الحرب ومعاناة أحوالها عامة عمره وهو من قبل بلوغ العشرين إلى آخر عمره . ثمَّ يبين أنَّ السبب في فساد حال أصحابه ليس ما تخيله قريش فيه من ضعف الرأي في الحرب كما يزعمون ؛ بل عدم طاعتكم له فيما يراه ويشير إليهم به وذلك قوله : ولكن لرأي من لا يطاع . فإنَّ الرأي الذي لا يقبل بمنزلة الفاسد وإن كان صواباً . والمثل له على الأعلى .

٢٧ - فِي مِنْ حَطَبَتِهِ بِعَلِيَّهُ الْسَّلَامِ

أَمَّا بَعْدُ . فَإِنَّ الدِّينَ قَدْ أَدْبَرَتْ ، وَآذَنَتْ بُوَدَّاعَ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَشْرَفَتْ بِإِطْلَاعٍ ؟ أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمُضْمَارَ ، وَغَدَّا السَّابِقَ ، وَالسَّبِقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ ؟ أَفَلَا تَأْتِبُ مِنْ حَطَبَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ ؟ أَلَا عَامِلُ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ

بُؤْسِهِ ؟ أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ أَمْلَى مِنْ وَرَاهُ أَجْلٌ ، فَنَّ عَمَلَ فِي أَيَّامٍ
 أَمْلَهُ قَبْلَ حُضُورِ أَجْلِهِ نَفْعَهُ عَمَلُهُ ، وَلَمْ يُضُرِّهِ أَجْلُهُ ، وَمَنْ قَصَرَ فِي أَيَّامٍ أَمْلَهُ
 قَبْلَ حُضُورِ أَجْلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ وَضَرَّهُ أَجْلُهُ ، أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ
 فِي الرَّهْبَةِ ؟ أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرْ كَالْجَنَّةَ نَامَ طَالِبًا ، وَلَا كَالنَّارَ نَامَ هَارِبًا
 أَلَا وَإِنَّهُ مِنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يُضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَقِمْ بِهِ الْمَهْدَى يَجْرِيهِ
 الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى ، أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أَمْرَيْتُمْ بِالظُّنُنِ ، وَدَلَّتُمْ عَلَى الزَّادِ ، وَإِنَّ
 أَخْوَافَ مَاخَافَ عَلَيْكُمْ أَتَابَعُ الْمَوْى وَطُولَ الْأَمْلِ ، تَرَوْدُوا مِنَ الدُّنْيَا
 مَاتَحْرُزُونَ أَنْفَسَكُمْ بِهِ غَدًا .

قال الشري夫: أقول: لو كان كلام يأخذ بالأنفاق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً للعلاقتين الآمال، وقد حا ر زناد الاتعاظ والازدجاج، ومن أبغجه قوله عليه السلام «ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق والسبقة الجنة والغاية النار»، فإن فيه - مع شفاعة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سراً عجيباً، ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسبقة الجنة، والغاية النار»، تختلف بين اللفظين لاختلاف المعنين، ولم يقل «السبقة النار» كما قال «السبقة الجنة»، لأن الاستبقاء إنما يكون إلى أمر محظوظ، وغير منطلوب، وهذه صفة الجنة وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ بالله منها، فلم يجز أن يقول «والسبقة

النار» بل قال «والغاية النار»؛ لأن الغاية ينتهي إليها من لا يسره الانتهاء ومن يسره ذلك، فصلح أن يعبر بها عن الأمرين معاً، فهــى في هذا الموضع كالمصير والمال، قال الله تعالى: (قل تَمَتُّعُوا فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) ولا يجوز في هذا الموضع أن يقال: سبقكم — بــسكون الــباء — إلى النار، فتأمل ذلك فباطنه عجيب وغوره بعيد. وكذلك أكثر كلامــه عليه السلام، وفي بعض النــسخ، وقد جاء في رواية أخرى «والسبقة الجنة» — بــضم الســين — والسبقة عندــهم: اسم لما يجعل للسابق إذا سبق من مــال أو عــرض، والمعنىان مــتقاربان لأنــ ذلك لا يكون جــراــء على فعل الأمر المــذموم، وإنــما يكون جــراــء على فعل الأمر المــحمود.

أقول: هذا الفصل من الخطبة التي في أولها الحمد لله غير مقنوط من رحمته. وسيجيء بعد، وإنــما قدمــه الرضــي عليهــ ما سبقــ من اعتذارــه في خطبة الكتاب أنه لا يراعــي التــتالي والنــسقــ في كلامــه ثانية. و قوله: قد أدرــت أــي ولــي دــبرــه. و آذــت أــي أــعلــمتــ. وأــشرــفتــ أــي أــطــلــعتــ، والمضارــ: المــدةــ التي يضمــرــ فيهاــ الخــيلــ للمسابــقةــ أــي تعلــفــ حتىــ تــسمــ ثمــ تــردــ إلىــ القــوتــ والمــدةــ أــربــعونــ يومــاــ، وــقدــ يــطلقــ علىــ المــوضــعــ الذيــ يــضمــرــ فيهــ أــيضاــ. وــالسبــاقــ: مصدرــ مرادــفــ للمسابــقةــ وــهوــ أــيضاــ جــمــعــ ســبــقةــ كــنــظــفةــ وــنظــافــ، أــوســبــقةــ كــجــلةــ وــحــيــاجــ، أــوســبــقــ كــجــملــ وــجــهــ. والثالثــةــ اسمــ ما يجعلــ للسابــقــ منــ مــالــ أو عــرضــ، والمنــيةــ: الموتــ، وــالبــؤــســ: شــدــةــ الحاجــةــ، وــتحــرــزــونــ: تحــفــظــونــ. واعلمــ أنــ هذاــ الفــصلــ يــشــتمــلــ عــلــ أحدــ عشرــ تــنبــيــهاــ:

الأــولــ: على وجوب النــفارــعنــ الدــنيــا وــعدــمــ الــرــكونــ إــلــيــهاــ. وــذلكــ بــقولــهــ: أــلــا وــإــنــ الدــنيــا قدــ أــدرــتــ وــآذــتــ بــوــداعــ. وــأشــارــ بــإــدــبــارــ الدــنيــا وــإــعــلــامــهاــ بــالــوــداعــ إــلــىــ تــفضــيــ الأــحــوالــ الحــاضــرةــ بــالــنــســبــةــ إــلــىــ كــلــ شخصــ منــ النــاســ منــ صــحــةــ وــشــبابــ وــجــاهــ وــمــالــ وــكــلــ ماــ يــكــونــ ســبــيــاــ لــالــصــلاحــ حــالــ إــلــإــنســانــ، وــأــنــ كــلــ ذلكــ فيــ هــذــاــ الحــيــةــ الدــنيــا لــدــنــوــهــاــ

من الإنسان . ولما كانت هذه الأمور أبداً في التغيس والتفضي المفترضي مفارقة الإنسان لها وبعدها عنده لاجرم حسن إطلاق اسم الإدبار على تفضيّها وبعدها استعارة تشبيهاً لها بالحيوان في إدباره . فقيل لكل "أَمْرٍ يَكُونُ إِنْسَانٌ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍ" إذا كان في أوله : أقبل ، وإذا كان في آخره وبعد تفضيّه : أديب ، وكذلك اسم الوداع فإنَّ التفضي لمّا استلزم المفارقة وكانت مفارقة الدنيا مستلزمة لأُسف إنسان عليها ووجده لها أشبه ذلك ما يفعله الإنسان في حق صديقه المرتجل عنه في وداعه له من الأسف على فراقه والحزن والبكاء ونحوه . فاستغير اسم الوداع له ، وكتنى باعلامها بذلك عن الشعور الحاصل بمفارقتها من تفضيّها شيئاً فشيئاً ، أو هو إعلام بسان الحال .

الثاني : التنبية على الإقبال على الآخرة والتيقظ للاستعداد لها بقوله : ألا وإنَّ الآخرة - قد أقبلت - وأشارت بالاطلاع . ولما كانت الآخرة عبارة عن الدار الجامعة للأحوال التي يكون الناس عليها بعد الموت من سعادة وشقاوة وألم ولذة ، وكان تفضي العمر مقرّاً بالوصول إلى تلك الدار والحصول فيما يشمل عليه من خير أو شر حسن إطلاق لفظ الإقبال عليها مجازاً . ثم تزّلّ لها الشرفها على الدنيا في حال إقبالها منزلة عال عند سافل . فأسند إليها لفظ الإشراف . ولا جل إحصاء الأعمال الدنيوية فيها منزلة عالم مطلع . فاطلق عليها لفظ الاطلاع ، ويحتمل أن يكون إسناد الإشراف بكيفية الاطلاع إلى رب الآخرة ، وإنما عبر بالآخرة عنه تعظيمًا لجلاله كما يكتنى عن الرجل الفاضل بمجلسه وحضرته و يكون كيـفـيـة الـاطـلاـع قـرـيـنة ذـلـك .

الثالث : التنبية على وجوب الاستعداد بذكر ما يستعد لا جله وهو السباق ، وذكر ما يستبق إليه وما هو غاية المقصّر المتخلّف عن نداء الله . وذلك قوله : وإنَّ اليوم المضمار . إلى قوله : و الغاية النار . كتني باليوم عن عمر إنسان الباقية له وأخبر بالمضمار عنها . و أعلم أنه قد ورد المضمار والسباق مرفوعين ومنصوين : فأمّا رفع المضمار فلا نه خبر أنَّ و اليوم اسمها ، وإنما اطلق اسم المضمار على تلك المدة لما ينبعها من المشابهة فإنَّ إنسان في مدة عمره يستعد بالتقوى ويرتاض بالأعمال الصالحة لتكمل قوته فيكون من السابقين إلى لقاء الله و المقربين في حضرته كما يستعد الفرس بالتضمير

لسبق مثله ، و أمّا نصبه فيه شك . إذ يحصل أن يقال : إن المضمار زمان و اليوم زمان فلو أخبرنا عنه باليوم لكن ذلك إخباراً بوقوع الزمان في الزمان فيكون الزمان محتاجاً إلى زمان آخر . وذلك محال . وجوابه : لا نسلم أن الإخبار بوقوع الزمان في الزمان مخوج للزمان إلى زمان آخر . فإن بعض أجزاء الزمان قد يخبر عنها بالزمان بمعنى أنها أجزاء و الجزء في الكل لا بمعنى أنها حاصله في زمان آخر . و إن كان إنما يحسن الإخبار عنها به إذا قيّدت بوصف و اشتملت على أحداث يتخصص بها كما تقول : أن مصطبخ القوم اليوم . فكذلك المضمار مكان وقتاً مشتملاً على التضليل وهو حدث صح الإخبار عنه باليوم . و أمّا نصب السباق فلأنه اسم إنْ آى و إنْ غداً السباق و كنّي بعده عمّا بعد الموت ، و أمّا رفعه فلا وجه له إلا أن يكون مبتدئاً خبره غداً و يكون اسم إنْ ضمير الشأن . وقال بعض الشارحين : يجوز أن يكون خبر إنْ . وهو ظاهر الفساد لأنَ الحكم بشيء على شيء إنما يعني أنه هو هو كما يقال : الإنسان هو الضحّاك . وهو ما يسميه المنطقيون حمل المواطاة ، أو على أنَ المحكوم عليه ذو المحكوم به كما يقال : الجسم أبيض أي ذو ياض . وهو ما يسمونه حمل الاشتراك . ولا واحد من المعنيين بحاصل في الحكم بالسباق على غد . فيمتنع أن يكون خبر إنْ ؟ اللهم إلا على تقدير حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه : آى و إنْ غداً وقت السباق . لكن لا يكون السباق هو الخبر في الحقيقة . ثم إن قلنا : إنَ السباق مصدر . كان التقدير ضمروا أنفسكم اليوم فإنكم غداً تستيقون . و تحقيق ذلك أنَ الإنسان كلما كان أكمل في قوّاته النظرية و العملية كان وصوله إلى حضرة القدس قبل وصول من هو أقصى منه . ولما كان مبده النقصان في هاتين القوتين إنما هو محنة ماعدا الواحد الحق ، واتباع الشهوات ، والميل إلى أنواع اللذات الفانية ، والإعراض بسبب ذلك عن توّلي القبلة الحقيقة . و مبده الكمال فيما هو الإعراض عمّا عدا الواحد الحق من الأمور المعدودة ، والإقبال عليه بالكلية . وكان الناس في محنة الدنيا وفي الإعراض عنها و الاستكمال بطاعة الله على مراتب مختلفة و درجات متفاوتة كان كون اليوم هو المضمار و غداً السباق متصرّراً جليّاً . فإنَ كلَ من كان أكثر استعداداً وأقطع لعائق الدين عن قلبه لم يكن له بعد الموت عائق يعوقه عن الوصول إلى الله

و ما أعد له في الجنة من الثواب الجزيل ؛ بل كان خفيف الظاهر ناجياً من هقل الوزر كما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله : نجا المخلفون . و كمابق من إشارة على تبارك إلى ذلك بقوله : تخففو اتلحقوا . فيكون بعد الملوت سابقًا ممتن كان أضعف استكمالاً منه ، و ممتن لسبعت عقارب الهيئة و الملوك الرديئة قلبه و أتقلت الأوزار ظهره وأوجب له التخلف عن درجة السابقين الأولين . وكذلك يكون سبق هذا بالنسبة إلى من هو أقل استعداداً منه و أشد علاقة للدنيا بقلبه . فكان معنى المسابقة ظاهراً إن كان استعارة من السباق المتعارف بين العرب . و إن قلنا : إن "السباق جمع سبقة" : اسم مما يستبق إليه و يجعل للسابق . فالمعني أيضاً ظاهر فإن ما يستبق إليه إنما يكمل الوصول إليه بعد المفارقة ، ويكون الاستباقي إنما قبل المفارقة و هو السعي في درجات الرياضيات كما أشار إليه سبحانه بقوله « ساهموا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعددت للذين آمنوا » ^(١) الآية ، و قوله « فاستبقوا الخيرات » . أو بعد المفارقة كما أشرنا إليه . و يكون قوله بعد ذلك : و السبقة الجنة . تعيناً للمستبق إليه بعد التنبية عليه إيجالاً و أمّا قوله : و الغاية النار . فالذى ذكره الرضي - رضوان الله عليه - في تخصيص الجنة بالسبقة و النار بالغاية حسن و كاف في بيان مراده تبارك إلا أنه يبقى هنا بحث وهو أن هذه الغاية من أي الغايات هي ؟ و هل هي غاية حقيقة أولاً زمة لغاية ؟ فنقول : إن ما ينتهي إليه قد يكون بسوق طبيعى ، وقد يكون بسوق إرادى . وكل واحد منهما قد يكون ذاتياً ، وقد يكون عرضياً . فالسوق الذي منها يقال له غاية إما طبيعية كاستقرار الحجر في حيزه عن حر كته بسوق طبيعته له إليه و إنما إرادية كغايات إلا إنسان من حركاته المنتهي إليها بسوق إرادته . و إنما المنتهي إليه بالسوق العرضي فهو من لوازم إحدى الغايتين وقد يسمى غاية عرضية . فاللازم عن الطبيعية كمنع الحجر غيره أن يحل بحيث هو فإن ذلك من لوازم استقراره في حيزه ، و عن الإرادية كاستضاءة الجار بسراج جاره فإن ذلك من لواحق استضاءته و كهلاك الطاير في جبائل الصياد عن الميل إلى التقاط حبة . إذاعرف ذلك فنقول : إن كون النار غاية بهذا المعنى الرابع .

وبياته : أن محبة الدنيا والميل إليها والإهتمام في مشتتها سواء كان معها مسكة ل إلا نسان بالله تعالى أولم يكن فإن من لوازمهما الانتهاء إلى النار إلا أن يشاء الله كما قال تعالى «من بريد حرف الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب»^(١) و كان المقصود الأول للإنسان هو تناول اللذات الحاضرة لكن لما كان من لوازم الوصول إلى تلك اللذات لا يقبل عليها دخول النار والانتهاء إليها كانت عرضية .

الرابع : التنبية على التوبة قبل الموت وهو قوله : أفلأ تائب من خطئه قبل منيته . ولأنك أنت يجب أن تكون مقدمة على الأعمال لأنك علمت أن التوبة هي انجذاب النفس العاقلة عن متابعة النفس الأمارة بالسوء لجاذب إلهاً اطلعت معه على قبح ما كانت عليه من اتباع شياطينها وهو من مقام الزهد والتخلّي . وقد علمت في بيان كيفية السلوك إلى الله تعالى أن مقام التخلية مقدم على مقام التحلية . فكان الأمر به مقدماً على الأمر بسائر الطاعات .

الخامس : التنبية على العمل للنفس قبل يوم البوس ، والإشارة إلى ما بعد الموت من العذاب اللازم للنقصان اللازم من التقصير في العمل إذ الوصل إلى يوم بوسي على غير عمل أسير في يد شياطينه . وقد علمت أن غاية الاسترسال في يد الشيطان دخول النار والحجب عن لقاء رب العالمين . ولما كان العمل هو المعين على قهر الشياطين والخلاص من أسره نسبه عليه ، ثم أرده بالتنبيه على وجود الزمان الذي يمكنهم فيه العمل وهو أيام آمالهم للعمل وغيره على أن ذلك الزمان منقطع بلحوق الأجل ، ثم أرده ببيان فaidة العمل في ذلك الزمان وهي المنفعة بالثواب في الآخرة وما يلزمها من عدم مضر الأجل ، وبيان ثمرة التقصير في العمل فيه وهي خسران العمل المستلزم لمضرة الأجل . وأحسن باستعارته عليه لفظ الخسران لغوات العمل فإن الخسران في البيع لما كان هو النقصان في رأس المال أو ذهب جعلته ، وكان العمل هو رأس مال العامل الذي يكتسب الكمال و السعادة الأخرى لاجرم حسنت استعارة لفظ الخسران لعدم العدل ، و أمما استلزم المنفعة لعدم مضر الماء واستلزم الخسران لمضرته فهو أمر ظاهر إذ كان الكامل في

قوّيَه المعرض عن متاع الدنيا غير ملتفت إليها بعد المفارقة فلم يحصل له بسببها تعذيب .
ف كانت المضرّة منفيّة عنه . وكان المقصّر عن الاستكمال فيهما من ضرورة طباعه الميل إلى
اللذات الحسيّة . فإذا قصر عن العمل والتعلق بطاعة الله الجاذبة إليه فلا بد وأن يستضرّ
بحضور الأجل إذ كان الأجل فاطعاً لزمان الاستكمال وحائلاً بين الإنسان وبين ما هو
معشوّق له من حاضر اللذات .

السادس : التنبية على وجوب التسوية للعامل بين العمل في الرغبة والعمل في
الرهبة . وفيه شميمة التوبيخ للعبد على غفلته عن ذكر الله وإعراضه عن عبادته في حال
صفاء اللذات الحاضرة له ، و لجأ إليه و فزعه عند نازلة إنزلت به . فان ذلك ليس من
شأن العبودية الصادقة لله . و إلى مثل هذا التوبيخ أشار التنزيل الإلهي « و إذا
مسّكم الضّر في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيماه فلما نجّيكم إلى البرّ أعرضتم و كان
إنسان كفوراً^(١) » وغيره من الآيات ؛ بل من شأن العابد لله الفاصل له أن يتتساوّى عبادته
في أزمان شدّته و رخائه . فيقابل الشدة بالصبر ، و الرخاء بالشكرا ، و أن يعبد لالرغبة
ولارهبة و أن يعبد فيما من غير فرق .

السابع : قوله : ألا و إنّي لم أرك الجنة نام طالبها و لا كالنار نام هاربها . و اعلم
أنّ الضمير في طالبها و هاربها يعود إلى المفعول الأوّل لرأي المحدوف المشبه في
الموضوعين و التقدير لم أرنعمة كالجنة نام طالبها و لانفعة كالنار نام هاربها ، و نام في
محلّ النصب مفعولاً ثانياً . و مغزى هذا الكلام أنّه نفي علمه بما يشبه الجنة و ما
يشبه النار و لم ينف علمه بذات التشبيه بل علمه من جهة الشبه و هي نوم الطالب
و الهارب . و لذلك استدعت أرى بمعنى أعلم هنا مفعولين أى لم أرنعمة كالجنة
بصفة نوم الطالب لها . فنبّه على وجه الشبه بقوله : نام طالبها ، ثمّ نفي التشبيه من
تلك الجهة . وكذلك قوله : و لا كالنار بصفة نوم هاربها . و المفعول الثاني في الجملتين
صفة جارية على غير من هي له . وهي تنبية للموقنين بالجنة و النار على كونهم نائمين
في مرقد الطبيعة ليتبهوا منها و يتقطّنوا [يتقطّنوا] للاستعداد بالعمل التام لما وراءهم

من مرغوب و مرهوب . و فيشميه العجب من جمع الموقن بالجنة و النار بين علمه بما في الجنة من تمام النعمة و تقصيره عن طلبها بما يؤدى إليها من الأعمال الصالحة ، و جمع الموقن بالنار بين علمه بما فيها من عظيم العذاب و بين تقصيره و غفلته عن الهرب إلى ما يخلص منها .

الثامن : قوله ألا و إنّه من لم ينفعه الحقّ يضره الباطل . فالضمير في إنّه ضمير الشأن . و أراد بالحقّ الإقبال على الله بزوم الأعمال الصالحة المطابقة للعوائد المطابقة ، و بالباطل الالتفات عنه إلى غير ذلك مما لا يجدي نفعاً في الآخرة . وهو تنبئه على استلزم عدم منفعة الحقّ مضرّة الباطل في صورة شرطية متصلة ، و بيان الملازمة فيها ظاهر فإنّ وجود الحقّ مستلزم لمنفعته فعدم منفعته إذن مستلزم لعدمه و عدمه مستلزم لوجود الباطل لأنّ اعتقاد المكلّف و عمله إما أن يطابقا أوامر الله تعالى ، أو ليس . والأول هو الحق ، و الثاني هو الباطل . و ظاهر أنّ عدم الأول مستلزم لوجود الثاني . ثم إنّ وجود الباطل مستلزم مضرّته . فيظهر بهذا البيان أنّ عدم منفعة الحقّ مستلزم لوجود مضرّة الباطل . و إذا ثبت ذلك فنقول : مراده عليه السلام بزوم الحقّ ما هو المستلزم لمنفعته و بنفي الباطل ما هو المستلزم لعدم مضرّته . فإنّ لزوم الطاعة لله بامتثال أوامره و الإقبال عليه مستلزم للوصول إلى جواره المقدس ، و الالتفات إلى ما عداه المعبر عنه بالباطل مستلزم للنقدان الموجب للتخلّف عن السابقين و الهوى في درك الها لكن . و ذلك محض المضرة . فظهور أدنى سرّ قوله : عليه السلام من لم ينفعه الحقّ يضره الباطل . و من غفلة بعض من يدعى العلم عن بيان هذه الملازمة ذهب إلى أنّ الوعيدات الواردة في الكتب الإلهية إنما جاءت للتخييف دون أن يكون هناك شقاوة للعصاة . محتاجاً على ذلك بتمثيلات خطابية عن مشهورات في بادي الرأي إذا تعقبها النظر زالت شهرتها .

التاسع : ومن لا يستقيم به الهوى يجرّ به الفلال إلى الردى . أراد بالهوى نور العلم و الإيمان ، و بالفلال الجهل و الخروج عن أمر الله . و المعنى أنّ من لم يكن الهوى دليلاً القائد له بزمام عقله في سبيل الله و يستقيم به في سلوك صراطه المستقيم

فلا بدّ و أن ينحرف به الضلال عن سواء الصراط إلى أحد جانبي التقريرط والإفراط . و ملائمة هذه الشرطية أيضاً ظاهرة . لأنّ وجود الهدى لما استلزم وجود استقامة بالإنسان على سواعده السبيل كان عدم استقامة الهدى به مستلزمًا لعدم الهدى المستلزم لوجود الضلال المستلزم للجرّ بالإنسان إلى مهاوى الردى ، و العدول به عن الصراط المستقيم إلى سواء الجحيم .

العاشر : قوله : ألا وإنكم قد امرتم بالظعن و دللتكم على الزاد . و هو تنبئه على ملاحظة الأوامر الواردة بالظعن كقوله تعالى « فَرِّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لِكُمْ مِنْ نَذِيرٍ مُّبِينٌ »^(١) و كقوله تعالى « سَابَقُوكُمْ إِلَى مغفرة من ربكم »^(٢) على الأمر باتخاذ الزاد كقوله تعالى « و تزوّدوا فِيْنِ خير الزاد التقوى »^(٣) و أحسن باستعانته الظعن للسفر إلى الله و استعارة الزاد لما يقرب إليه . و وجه درجة الاستعارة الأولى : أنّ الظعن لما كان عبارة عن قطع المراحل المحسوسة بالرجل والجمل و نحوه فكذلك السفر إلى الله عبارة عن قطع المراحل المعقوله بقدم العقل ، و وجه الثانية أنّ الزاد لما كان إنما يعدّ لتقوى به الطبيعة على الحركة الحسية وكانت الأمور المفتربة إلى الله تعالى مما تقوى به النفس على الوصول إلى جنابه المقدّس كان ذلك من أمّ ما مشابهه التي يقرب معها اتحاد المشابهين . و بحسب قوّة المشابهة يكون قوّة حسن الاستعارة .

الحادي عشر : التنبئه على أخواف الأمور التي ينبغي أن تخاف لتجتنب و هو الجمع بين اتباع الهوى و طول الأمان . وسيذكر بياناً لهذا الكلام في موضع آخر مع ذكر علة التحذير من هذين الأمرين ، و سنجوّض معناه هناك . و يكفي هيئنا أن يقال : إنّما حذرّ منهما عقب التنبئه على الظعن والأمر باتخاذ الزاد لكون الجمع بينهما مستلزمًا للإعراض عن الآخرة فيكون مستلزمًا لعدم الظعن وعدم اتخاذ الزاد . فخوّف منهما ليجتنبا . فيحصل مع اجتنابهما الإقبال على اتخاذ الزاد والأهبة للظعن و لذلك أردف التخويف منهما بالأمر باتخاذ الزاد . وفي قوله : من الدنيا في الدنيا لطف . فإنّ الزاد المؤصل إلى الله تعالى إنما علم أو عمل وكلاهما يحصلان من الدنيا : إنما العمل

(١) ٥٠ - (٢) ٥٧ - (٣) ٢١ - ١٩٣-٢

فلا شَكْ أَنَّهُ عِبَارَةٌ مِنْ حِرَكَاتٍ وَسُكُنَاتٍ تَسْتَلزمُ هِيَنَاتٍ مُخْصوصَةٍ إِنْتَما تَحْصُلُ بِوَاسْطَةِ هَذَا الْبَدْنِ وَكُلَّ ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ فِي الدِّينِ، وَأَمَّا الْعِلْمُ فَلَأُنْ اسْتَكْمَالُ بِهِ إِنْتَما يَحْصُلُ بِوَاسْطَةِ هَذَا الْبَدْنِ أَيْضًا إِمَّا بِوَاسْطَةِ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، أَوْ بِتَقْطُنِ النَّفْسِ لِشَارِكَاتِ بَيْنَ الْمَحْسُوسَاتِ وَمَبَيْنَاتِ بَيْنَهَا وَظَاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ فِي الدِّينِ وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ : مَا تَحْرِزُونَ نُفْسُكُمْ بِهِ غَدًا . أَنَّ كُلَّ زَادَعَدَ بِهِ إِلَّا نَسَانَ نُفْسُهُ لِللوْصُولِ إِلَى جَوَاءِ اللَّهِ فَقَدْ تَدْرَعَ بِهِ مِنْ غَدًا بِهِ وَحَفَظَ بِهِ نُفْسُهُ يَوْمًا لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنْوَنٌ . وَقَدْ اشْتَملَ هَذَا الْفَصْلُ عَلَى اسْتِدْرَاجَاتٍ لَطِيفَةٍ لَانْفَعَالَاتٍ عَنْ أَوْامِرِ اللَّهِ وَزَوْاجِهِ، وَإِذَا تَأْمَلَتِ الْأُسْلُوبُ كَلَامَهُ تَلْكِيلَهُ، وَرَاعِيَتِ مَا فِيهِ : مِنْ فَخَامَةِ الْأَلْفَاظِ، وَجُزَّاهُ الْمَعْانِي الْمُطَابِقَةُ لِلْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ، وَحُسْنِ الْاسْتِعَارَاتِ وَالْتَّشْبِيهَاتِ وَمَوَاقِعُهَا، وَصَحَّةِ تَرْتِيبِ أَجْزَائِهِ . وَوُضِعَ كُلَّ مَعْ مَا يَنْسَبُهُ . وَجَدَتِهِ لَا يَصْدِرُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ لَدَنِيٍّ وَفِي ضِرْبِ رِبَّانِيٍّ . وَأَمْكَنَكَ حِينَئِدَ الْفَرْقَيْنِ كَلَامَهُ تَلْكِيلَهُ وَكَلَامَ غَيْرِهِ وَالتَّعْمِيزُ بَيْنَهُمَا بِسَهْوَةِ . وَبِاللَّهِ الْعَصْمَةُ وَالْتَّوْفِيقُ .

٢٨ - فِي مَنْ جَنَاحَتِهِ الْعِلْيَنَاتِ الْمُلَامِرَةِ

إِيَّاهَا النَّاسُ الْمُجَمَّعَةُ أَبْدَاهُمْ ، الْمُخْتَلَفَةُ أَهْوَأُهُمْ ، كَلَامُكُمْ يُوَهِي الْأَصْمَ
الْصَّلَابَ ، وَفَلَكُمْ يُطْمِعُ فِيمْكُمُ الْأَعْدَاءُ ! تَقُولُونَ فِي الْجَمَالِسِ : كَيْتَ
وَكَيْتَ ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالَ قَلْمَمْ : حِيدِي حِيَادِ ! مَاعِزَتْ دُعْوَةُ مِنْ دَعَائِكُمْ
وَلَا أَسْتَرَاحَ قَلْبُ مِنْ قَاسَائِكُمُ أَعْالِيُّ بِأَضَالِيلِ ^(١) دِفاعَ ذِي الدِّينِ الْمُطْلُولِ
لَا يَمْنَعُ الْضَّيْمُ الْذَّلِيلُ . وَلَا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجُدُّ ، أَيْ دَارَ بَعْدَ دَارِكُمْ مُنْعَوْنَ
وَمَعَ أَيْ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ ؟ الْمُغْرُورُ وَاللَّهُ مَنْ غَرَّمُوهُ ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ
فَقَدْ فَازَ وَاللَّهُ بِالسَّهِمِ الْأَخِيَّبِ ، وَمَنْ رَمَيَ بِكُمْ ، فَقَدْ رَمَيَ بِأَفْوَقِ نَاصِلِ

أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ لَا أَصْدُقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوْدُعُ الْعُدُوِّكُمْ
 مَا بَالُكُمْ! مَادَوْأُكُمْ! مَاطْبُكُمْ! الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ! أَقُولَا بِغَيْرِ عِلْمٍ؟
 وَغَفَلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعِيٍّ؟ وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ؟!

أقول : روى أنَّ السبب في هذه الخطبة هو غارة الضحاك بن قيس بعد قصَّةِ
 الحكمين و عزمه على المسير إلى الشام . و ذلك أنَّ معاوية لما سمع باختلاف الناس على
 عليٍ عليه السلام ، و تفرُّقهم عنه ، و قتلهم من قتل من الخوارج بعث الضحاك بن قيس في نحو من
 أربعة آلاف فارس و أوعز عليهم بالنهب و الغارة . فأقبل الضحاك يقتل و ينهب حتى مرَّ
 بالشعلبية . فأنغار على الحاج فأخذ أمتعتهم . و قتل عمرو بن عمير بن مسعود ابن أخي
 عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله عليه السلام و قتل معه ناساً من أصحابه . فلما بلغ علينا
عليه السلام ذلك استصرخ أصحابه على أطراف أعماله و استشارهم إلى لقاء العدو قتلكؤوا .
 و رآى منهم تعاجزاً و فشلاً . فخطبهم هذه الخطبة . و لترجمة إلى المتن .

فالأُهوا : الآراء ، والوهي : الضعف ، وكيتوكيت : كنایة عن الحديث . وحداد عن
 الأمر : عدل عنه . قال الجوهرى : قولهم حيدى حياد كقولهم : فيحيى فيباح ، ونقل أنَّ فيباح
 اسم للغارة كقطام . فحياد أيضاً اسم لها . والمعنى : إعزلي عنـا [عنها خ] أيتها الحرب ،
 و يحتمل أن يكون حياد من أسماء الأفعال كنزال . فيكون قد أمر بالتحيي مررتين
 بلطفين مختلفين . وأعاليـل و أخـالـل : جمع أعلاـل و أضـالـل و هـما جـمـع عـلـة : اسـمـاـ مـاـ يـعـلـلـ
 بهـ مـنـ مـرـضـ وـ غـيرـهـ ، وـ ضـلـةـ : اسـمـنـ الضـلالـ بـمـعـنىـ الـبـاطـلـ ، وـ المـطـالـ : كـثـيرـ الـمـطـالـ وـ هوـ
 تـطـوـيلـ الـوـعـدـ وـ تـسوـيفـهـ ، وـ الجـدـ : الـاجـهـادـ ، وـ الـأـخـيـبـ : أـشـدـ خـيـبةـ وـ هيـ الـحرـمانـ ،
 وـ الـأـفـوـقـ : السـهـمـ الـمـكـسـورـ الـفـوـقـ وـ هوـ مـوـضـعـ الـوـتـرـ مـنـهـ ، وـ النـاـصـلـ : الـذـيـ لـاـ نـاصـلـ فـيـهـ .
 وـ الـمـقـصـودـ أـنـهـ عليـهـ سـبـبـهـ مـاـ يـسـتـقـبـلـ فـيـ الـدـيـنـ ، وـ مـرـاعـةـ حـسـنـ السـيـرـةـ مـنـ أـحـوـالـهـ
 وـ أـفـوـالـهـ وـ أـفـعـالـهـ : أـمـاـ أـحـوـالـهـ فـاجـتـمـاعـ أـبـدـانـهـ مـعـ تـفـرـقـ آرـائـهـ الـمـوـجـبـ لـتـخـاذـلـهـ
 عنـ الذـبـ عنـ الـدـيـنـ وـ الـمـفـرـقـ لـشـمـلـ مـصـالـحـهـ . وـ أـمـاـ أـفـوـالـهـ فـكـلـامـهـ الـذـيـ يـضـعـفـعـنـدـ

سماعه القلوب الصلبة الثابتة و يظن سامعه أن تحته نجدة و ثباتاً و هو قوله مثلاً في مجالسهم : إنَّه لَا مُحْلٌ لِخُصُومَنَا ، وَإِنَّا سَنَفْعُلُ بِهِمْ كَذَا ، وَسَيَكُونُ مِنْنَا كَذَا . وَأَمْثَالُه . و استعار لفظي الصم الصاب من أوصاف الحجارة للقلوب التي تضعف من سماع كلامهم كما شبيه القرآن الكريم بها : فهي كالحجارة أو أشد قسوة . و أمّا أفعالهم فهو تعقب هذه الأقوال عند حضور القتال و دعوتهم إلى الحرب بالتخازل و عدم التناصر و التقادع عن إجابة داعي الله و كراهية الحرب و الفرار عن مقاتلة العدو ، و كنتي قوله : فلتم حيدي حياد . عن ذلك ، وهي كلمة كانت تستعملها العرب عند الفرار . ثم أردف ذلك بما العادة أن يأنف منه من يطلب الانتصار به على وجه التضجر منهم عن كثرة تقاعدهم عن صوته . و ذلك قوله : ما عزَّتْ دُعْوَةٍ مِنْ دُعَاكُمْ . المستلزم للحكم بذلك داعيهم ، ولاستراح قلب من قساكم . المستلزم للحكم بتبعبه ، قوله : أَعَالِيلٌ بِأَضَالِيلٍ . خبر مبتدء مخدوف أي و إذا دعوتكم إلى القتال تعللتم بأعاليل هي باطلة ضاللا عن سبيل الله و سالموني التأخير و تطويل المدة دفاعاً ، و قوله : دَفَاعٌ ذِي الدِّينِ الْمَطْوُلُ . يحمل أن يكون تشبيهاً لدفاعهم له بدفاع ذي الدين فيكون منصوباً مخدوف الجار ، و يحمل أن يكون قد استعار دفاع ذي الدين المطول لدفاعهم فيكون مرفعاً ، و وجه الاستعارة أنَّ المدين المطول أبداً مشتهي لعدم المطالبة و تودّ نفسه أن لا يراه غريمه فكذلك فهم كذلك لأنهم أنهم كانوا يحبون أن لا يعرض لهم بذكر القتال و لا يطالعهم به . فاستعار لدفاعهم الدفاع المذكور مكان المشابهة ، ثم تباههم على قبح الذل ليفرّوا إلى فضيلة الشجاعة بذكر بعض لوازمه المنفرة وهو أنَّ صاحبه لا يتمكّن من رفع الضيم عن نفسه ، وعلى قبح التوانى و التخاذل بأنه لا يدرك الإنسان حقه إلا بضد ذلك و هو الجد و التشمير في طلبه ، ثم أعقب ذلك بالسؤال على جهة الإنكار و التقرير عن تعين الدار التي ينبغي لهم حمايتها بعد دار الإسلام التي لا نسبة لغيرها إليها في العز و الكرامة عند الله و وجوب الدفع عنها و التي هي موطنهم و محل دولتهم . كذلك قوله : وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بعدي تقاتلُونَ . وفيه تنبية لهم على أفضليته و ما وثق به من إخلاص نفسه لله في جميع حر كاته ، و تنبية لهم على طاعته إذ كان يَأْتِيُكُمْ يتوجهون في بعضهم الميل إلى معاوية والرغبة

بيان شكواه بِتَقْلِيلٍ عن الناس بخلف الوعد

فيما عنده من الدنيا . ثم أردد ذلك بذمّ من اغترّ بكلامهم ونسبه إلى الغرور والغفلة . ثم بالأخبار عن سوء حال من كانوا حزبه و من يقاتل بهم :

أما الأول : فهو قوله : المغرور والله من غير رتموه . والمقصود بالحقيقة ذمّهم و توبيخهم على خلف الموعيد و المماطلة بالنفارة إلى الحرب لأنّه إنما ينسب من وثق بهم إلى الغرور بعد خلفهم في وعدهم له بالنهوض معه . وجعل المغرور مبتدهً و من خبره أبلغ في إثبات الغرورة ملنا اغترّ بهم من العكس لاقتضاء الكلام إذن إنحصر المغرور في من اغترّ بهم . ولا كذلك لو كان من مبتدهً .

و أما الثاني : فهو قوله : ومن فاز بكم فقد فاز بالسهم الأُخِيب و من رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل . وقد شبه نفسه و خصوصه باللاعبين بالميسي ، ولا حظ شبه حصولهم في حقه بخروج أحد السهام الخائبة التي لا غنم لها أو الأوغاد التي فيها غرم كالتي لم يخرج حتى استوفيت أجزاء الجزر وحصل لصاحبها غرم و خيبة . فلا جل ملاحظة هذا الشبه استعار لهم لفظ السهم بصفة الأُخِيب ، وإطلاق الفوز هنا مجاز في حصولهم له من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كتسمية السيئة جراء . كذلك لا حظ المشابهة بين رجال الحرب وبين السهام في كون كلّ منها عدة للحرب و دفع العدوّ ولا حظها أيضاً بين إرسالهم في الحرب وبين الرمي بالسهم . فلا جل ذلك استعار أو صاف السهم من الأُفوق و الناصل ، واستعار لفظ الرمي مقاتلة بهم ثم خصمهم بأرده أو صاف السهم التي يبطل معها فائدته مشابتهم ذلك السهم في عدم الانتفاع بهم في الحرب . و كأنه أيضاً خصص بعثه لهم إلى الحرب باستعارة الرمي بالسهم الموصوف لزيادة الشبه و هي عدم اتباعهم عن أمره . وتجاوزهم أو طارفهم كالرمي بالسهم الذي لا فوق له ولا نصل فإنه لا يكاد يتتجاوز عن القوس مسافة . و هي من لطائف ملاحظات المشابهة والاستعارة عنها . و المعنى أنّ من حصلتم في حربه فالخيبة حاصلة له فيما يطلب بكم ، ومن قاتل بكم عدوه فلا نفع له فيكم . ثم أرددته بالإخبار عن نفسه بأمور نشأت عن إساءة ظنه بهم و عدم ثوقيه بأقوالهم بكثرة خلفهم و موعديهم الباطلة بالنهوض معه وهي أنه لا يصدق قيم لأنه من أكثر من شيء عُرف به . ومن أمثلتهم : إنّ الكنوب

لا يصدق و أنه لا يطبع في نصرهم وأنه لا يوعدهم إذ كان وعدهم بهم مع طول تخلّفهم و شعور العدو” بذلك مما يوجب جرأته و تسلطه و أمانه من المقاومة . ثم أردهه بالاستفهام على سهل الاستئثار و التقرير عن حالهم التي توجب لهم التخاذل و التصالح عن ندائهم وهو قوله : ما بالكم . ثم عن دوائهم الصالح للمرض الذي هم فيه . ثم عن كيفية علاجهم منه بقوله : ما دوائكم ما طبّكم . و قيل أراد بقوله ما طبّكم أي ما عادتكم والأول أظهر و أليق . ثم نسبّهم على ماعساهم يتوهّمونه من قوّة خصومهم و باسّهم بأنّهم رجال أمثالكم في الرجولية التي هي مظنة الشجاعة و البأس فلا منزحة لهم عليكم فلا معنى للخوف منهم . ثم عاد إلى سؤالهم على جهة التقرير و نسبّهم به على أمور لا ينبغي ، منفورة عنها ، مستقبحة في الشريعة والعاده .

فأولاً : عن قولهم مالا يفعلون و هو إشارة إلى ما يعدون به من النهوض إلى الحرب ثم لا يفعلون و ذلك بقوله : أقولاً بغير عمل ؟ تذكيراً لهم بما يستلزم ذلك من المقت عند الله كما أشير إليه في القرآن الكريم « يا أئيمها الذين آمنوا لم يقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » ^(١) وعلى الرواية الثانية وهي أقولاً بغير علم ؟ أى أنّقولون بالسننكم ما ليس في قلوبكم ولا تعتقدونه و تجزمون به من أنا ستفعل كذا . و يحتمل أن يكون معناه أتقولون إنّا مخلصون الله و إنّا مسلمون ولا تعلمون شرائط الإسلام و الإيمان .

و ثانياً : عن غفلتهم التي ليست عن ورع وهي عدم تعقلهم للمصالح التي ينبغي أن يكتونوا عليها وهي طرف التفريط من فضيلة الفطنة . وهذه بخلاف الغفلة مع الورع . فإن تلك نافعة في المعاد إن كان الورع عبارة عن لزوم الأعمال الجميلة المستعدّة في الآخرة فالغفلة معه عن الأمور الدنيوية و المصالح المتعلقة بجزئياتها ليست بضارّة ؛ بل ربما كانت سبباً للخلاص من عذاب ما في الآخرة .

و ثالثاً : عن طمعهم في غير حقّ أى في أن يمنحهم ما لا يستحقونه لينهضوا معه و يجيئوا دعوته ، و كأنّه ^{يُلْتَهِ} عقل من بعضهم أن أحد أسباب تخلّفهم من ندائهم

من كلام له تَبَلَّه في معنى قتل عثمان

إنما هو طمعهم في أن يوفر عطياتهم و يمنجمهم زيادة على ما يستحقون كما فعل غيره مع غيرهم فأشار إلى ذلك و نبههم على قبحه من حيث إنه طمع في غير حق .
و الله أعلم .

٢٩ - فِي قُتْلِ الْأَمْرَاءِ عَلَيْهِنَّ السِّنَّةُ الْأَمْرَاءُ

في معنى قتل عثمان

لَوْ أَمْرَتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلًا ؛ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِرًا غَيْرَ أَنْ مَنْ نَصَرَهُ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَقُولَ : خَذْلَهُ مِنْ أَنَا خَيْرُهُ ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَقُولَ : نَصَرَهُ مِنْ هُوَ خَيْرُهُ مِنِّي ، وَأَنَا جَامِعٌ لِكُمْ أَمْرَهُ : أَسْتَأْثِرُ فَاسِدَ الْأَثْرَ وَجِزْعَمُ فَاسِدِ الْجَزْعَ ، وَلَهُ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمَسْتَأْثِرِ وَالْمَاجِزِيِّ .

أقول : المستأثر بالشيء المستبد به . ومقتضى هذا الفصل تبرؤه تَبَلَّه من الدخول في دم عثمان بأمر أو فهي كما نسبه إليه معاوية وغيره .

وقوله : لو أمرت به لكنت قاتلاً . قضية شرطية بين فيها لزوم كونه قاتلاً لكونه أمراً . وهذا اللزوم عرفي . إذ يقال في العرف للأمر بالقتل قاتل . والآمر يرك الفاعل وإن كان القاتل في اللغة هو المباشر للفعل والذي صدر عنه . وكذلك يبين في قوله : أو نهيت عنه لكنت ناصراً لكونه ناهياً . وهو ظاهر ، وقد عرفت أنَّ استثناء نقض اللازم يستلزم نقض الملازم ، واللازمان في هاتين القضيتين هما القتل والنصرة ، ومعاوم أنَّ القتل لم يوجد منه تَبَلَّه بالاتفاق فإنَّ غاية ما يقول الخصم أنَّ قعوده عن نصرته دليل على إرادته لقتله . وذلك باطل . لأنَّ القعود عن النصرة قد يكون لأسباب أخرى كما سنبينه . ثمَّ لو سلمنا أنَّ القعود عن النصرة دليل إرادة القتل لكن إرادة القتل ليس بقتل . فإنَّ كلَّ أحد يحب قتل خصمه لكن لا يكون بذلك قاتلاً . وكذلك

ظاهر كلامه يقتضي أن النصرة لم توجده منه، وإذا انتهى الازمان استلزم نفي أمره بقتله و نفيه عنه . و يحتمل أن يريد في القضية الثانية استثناء عن مقدمها لينتج تاليها : أى لكنني نفيت عنه فكنت ناصراً . لا يقال : لا يخلو إما أن يكون مرتكب المنكر هو عثمان أو قاتليه و على التقديرين فيجب على علي عليهما السلام القيام والإنكار إما على عثمان بالمساعدة عليه إن كان هو مرتكب المنكر ، أو على قاتليه بالإنكار عليهم و نصرته . ففعوده عن أحد الأمريرين يستلزم الخطأ ؛ لكنه لم يخطأ فلم يكن تاركاً لأحد الأمريرين . فلا يثبت التبرء . و الجواب البرىء من العصبية في هذا الموضوع : أن عثمان أحدث أموراً نفمتها جهور الصحابة عليه ، و قاتلوه أحدثوا حدثاً يجب إنكاره : إما أحداث عثمان فلم ينته في نظر علي عليهما السلام إلى حد يستحق بها القتل و إما استحق في نظره أن ينفيه عليها . فلذلك ورد في النقل أنه انكرها عليه و حذره من الناس غير مرر عمر كما سيعجب في كلامه عليهما السلام . فإن صح ذلك النقل ثبت أنه انكر عليه ما أحدثه لكنه لا يكون بذلك داخلاً في دمه لاحتمال أنه لما حذر الناس ولم ينته اعزله . وإن لم يثبت ذلك النقل فالإنكار ليس من فروض الأعيان بل هو من فروض الكفايات إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وقد ثبت أن جهور الصحابة أنكروا تلك الأحداث من عثمان فلا يتعدى وجوب الإنكار على علي عليهما السلام ، وأما حدث قاتليه فهو قتله . فإن ثبت أنه عليهما السلام ما انكر عليهم . فلنا : إن من جملة شروط إنكار المنكرات أن يعلم المنكر أو يغلب على ظنه قبول قوله ، أو تمكنه من الدفع بيده فلعله عليهما السلام علم من حالهم أنه لا يفدي إنكاره معهم . و ظاهر أن الأمر كان كذلك : أاما عدم فائدة إنكاره بالقول معهم فلا نه عنه عليهما السلام أنه كان يعد الناس بإصلاح الحال بينهم وبين عثمان و إزالته عمما نفموه عليه و تكرر منه وعده لهم بذلك ولم يتمكن منه ، و ظاهر أنهم بعد تلك المواجهة لا يلتقطون إلى قوله ، وأما إنكاره بيده فمعلوم بالضرورة أن الإنسان الواحد أو العشرة لا يمكنهم دفع الجمع العظيم من عوام العرب و دعاتهم خصوصاً عن طباع ثارت و تآلفت و جمعها أشد جامعاً وهو ما نسبوه إليه حقاً و باطلأ . ثم من المحتمل من تفرّقه مال المسلمين الذي هو

قام حياتهم سواء كان ما نسبوه إليه حقاً أم لا أن يكون قد غلب على ظنه أنه لو قام في نصرته لقتل معه ولا يجوز للإنسان أن يعرض نفسه للأذى والقتل في دفع بعض المنكرات الجزئية . وأما إن ثبت أنه أنكر عليهم كما نقلنا حملنا ذلك النهي على نهيه لهم حال اجتماعهم لقتله قبل حال قتله ، قوله : و لو نهيت عنه لكتن ناصراً . على عدم المنع من قتله حال قتله لعدم تمكنه من ذلك وعدم إفادته قوله . قال بعض الشارحين : هذا الكلام بظاهره يقتضي أنه ما أمر بقتله ولا نهى عنه . فيكون دمه عنده في حكم الأمور المباحة التي لا يؤمر بها ولا ينهي عنها . قلت : هذا سهو لأن التبر من الأمر بالشيء والنهي عنه غاية ما يفهم منه عدم الدخول فيه والسكوت عنه ولا يلزم من ذلك الحكم بأنه من الأمور المباحة لاحتمال أن اعتراه هذا الأمر كان لأحد ما ذكرناه . و بالجملة فإن أهل التحقيق متتفقون على أن السكوت على الأمر لا يدل على حال الساكت بمجرد و إن دل بقرينة أخرى . وما يدل على أنه كان متبرثاً من الدخول في دم عثمان بأمر أو نهى ما نقل عنه لما سُئل : أساءك قتل عثمان أم سررك ؟ فقال : ما ساءني ولا سرني . و قيل : أرضيت بقتله ؟ فقال : لم أرضن . فقيل : أسرخت قتله . فقال : لم أسرخط . وهذا كلام حق يستلزم عدم التعرّض بأمره فإن من أعرض عن شيء ولم يدخل فيه يصدق أن يقول : إنني لم أسرخط به ولم أرضن ولم أسا به ولم أسر ، فإن السخط والرضا والإساءة و السرور حالات تتوارد على النفس بأسباب تتعلق بها فخالع تلك الأسباب عن نفسه في أمر من الأمور كيف يعرض له أحد هذه الحالات فيه . فإن قلت : إن كان قتل عثمان منكراً كان مستلزمأ لسرخطه تبارك و مساته منه وقد نقل عنه أنه لم يسرخط له و ذلك يقتضي أحد الأمرين : أحدهما أنه تبارك لا يسرخط للمنكر وهو باطل بالاتفاق ، والثاني أن قتل عثمان لم يكن عنده منكراً ، و التقدير أنه منكرا . قلت : إن قتل عثمان يستلزم سرخطه لكن لا من حيث إن قتل عثمان بل من جهة كونه منكراً ، و المنقول أنه لم يسرخط لقتل عثمان ولا ساته ذلك أى من جهة كونه قتل عثمان و ذلك لا ينافي أن يسوؤه و يسرخطه من جهة كونه منكراً . وفي الجواب

غموض . فليغفطن . ولأجل اشتباه الحال خبط الجهمان . و فيها يقول شاعر
أهل الشام :

مقال سوى صحبة المحدثينا
و رفع الفحاص عن القاتلينا
و عمى الجواب على السائلينا
و لا في النها ولا الامرينا
ولا بد من بعض ذا أن يكوننا
و ما في علي مستعبد
و اشاره اليوم أهل الذنوب
إذا سئل عنه حدا شبهة
وليس براض ولا ساخط
ولا هو سائب ولا [هو] سره
فاما تفصيل الاعتراضات والأجوبة في معنى قتل عثمان وما نسب إلى علي عليه السلام
من ذلك فمبسوط في كتب المتكلمين كالفاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري
والسيد المرتضى وغيرهم فلا نطول بذكرها ، و ربما أشرنا إلى شيء من ذلك
فيما بعد .

و قوله : غير أن من نصره لا يستطيع . إلى قوله : خير مني . فأعلم أن هذا الفصل
ذكره عليه السلام جواباً لبعض من أنكر بحضرته قعود من قعد عن نصرة عثمان و جعلهم
منشاً الفتنة ، و قال : إنهم لو نصروه و هم أكبر الصحابة لما اجترى عليه طعام
الأمة وجهمالها ، و إن كانوا رأوا أن قتله و قتاله هو الحق فقد كان يتعين عليهم
أن يعرّفوا الناس ذلك حتى يرتفع عنهم الشبهة ، وفهم عليه السلام أن الفائل يعنيه
 بذلك . فأجابه بهذا الكلام تلوياً لاتصربيحاً . إذ كان في محل يلزم التوفيق . فقرأوا لا
أنه ما أمر في ذلك بأمر ولا نهى ثم عاد إلى الاستثناء فقررها في هاتين الفضيتين :
إن الذين خذلوه كانوا أفضل من الناصرين له إذ لا يستطيع ناصروه كمروان
و أشباهه أن يفضلوا أنفسهم على خاذليه كعلى عليه السلام بزعم المنكر وكطلحة وسائر
أكبر الصحابة إذا العقل و العرف يشهد بأفضليتهم ، و كذلك لا يستطيع الخاذلون
أن يفضلوا الناصرين على أنفسهم اللهم إلا على سبيل التواضع . وليس الكلام
فيه . فكانه عليه السلام سلم تسليم جدل أنه دخل في أمر عثمان و كان من الخاذلين له .
ثم أخذ في الرد على المنكر بوجه آخر فقال : غير أنني لو سلمت أنني ممن خذله

لكنَّ الخاذلُونَ لَهُ أَفْضَلُ مِنَ النَّاصِرِينَ وَأَثَبَتَ الْمُقْدَمَةَ بِهَا تِيَّنَ الْفَضِيَّيْنَ وَحَذَفَ التَّالِيَّةَ لِلْعِلْمِ بِهَا ، وَتَقْدِيرُهَا : وَالْأَفْضَلُ يَجِبُ عَلَى مَنْ عَدَاهُ اتِّبَاعُهُ وَالْاقْتَدَاءُ بِهِ ، فَيَنْتَجُ هَذَا الْقِيَاسُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَى مَنْ نَصَرَهُ أَنْ يَتَبَعُ مِنْ خَذْلِهِ . وَهَذَا عَكْسُ اعْتِقَادِ الْمُنْكَرِ . وَقَالَ بِعْنَ النَّقَادِ : إِنَّ هَذِهِ كَلْمَةُ فَرْشِيَّةٍ ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ عَمِّي عَلَى النَّاسِ فِي كَلَامِهِ . قَالَ : وَلَمْ يَرِدِ التَّبَرِّيْ مِنْ أَمْرِهِ . وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الْخَادِلِيْنَ لَا يَلْحَقُهُمُ الْمُفْضُولِيَّةُ بِكَوْنِهِمْ خَادِلِيْنَ لَهُ ، وَإِنَّ النَّاصِرِيْنَ لَهُ لَا يَلْحَقُهُمُ الْأَفْضُولِيَّةُ بِنَصْرِهِ . وَالَّذِي ذَكَرَهُ بَعِيدُ الْفَهْمِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ . وَيُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى وَجْهِ آخَرِهِ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا قَرَرَ أَفْضُولِيَّةَ الْخَادِلِيْنَ عَلَى النَّاصِرِيْنَ لِيُسْلِمُهُ مِنَ التَّخْصِيصِ بِاللَّائِمَةِ فِي الْفَعُودِ عَنِ النَّصْرَةِ فَكَأَنَّهُ قَالَ : وَإِذَا كَانَ الْخَادِلُونَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْ نَصْرِهِ . تَعَيَّنَ عَلَيْهِمُ السُّؤَالُ عَنِ التَّخْلُفِ ، وَأَنْ يَسْتَهْدِفُهُمْ بِحَالِ النَّاصِرِيْنَ لَهُ مَعَ كَوْنِهِمْ مُفْضُولِيْنَ . فَلَمْ خَصَّصْتُ بِاللَّائِمَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَالْمُطَالَبَةَ بِدُمْهُ ؟ لَوْلَا الْأَغْرِاضُ الْفَاسِدَةُ .

وَقَوْلُهُ : وَأَنَا جَامِعُ لَكُمْ أَمْرِهِ . إِلَى قَوْلِهِ : الْأَثْرَةُ .

أَشَارَ عليه السلام فِي هَذَا الْلَّفْظِ الْوَجِيزِ إِجْمَاعًا إِلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ عُثْمَانَ وَقَاتِلِيهِ كَانَ عَلَى طَرْفِ الْإِفْرَاطِ مِنْ فَضْلِيَّةِ الْعَدْلَةِ : أَمَّا عُثْمَانَ فَاستِيَّثَرَهُ وَاسْتِبَدَّاهُ بِرَأْيِهِ فِيمَا أَمْمَةُ شَرَكَاهُ فِيهِ وَالْخُروجُ فِي ذَلِكَ إِلَى حدَّ الْإِفْرَاطِ الَّذِي فَسَدَ مَعَهُ نَظَامُ الْخَالِفَةِ عَلَيْهِ وَأَدَى إِلَى قَتْلِهِ ، وَأَمَّا قَاتِلُوهُ فَلَخَرُوجُهُمْ فِي الْجَزْعِ مِنْ فَعْلِهِ إِلَى طَرْفِ التَّقْرِيطِ عَمَّا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ مِنَ التَّشْبِّتِ وَانتِظَارِ صَلَاحِ الْحَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِدُونِ الْقَتْلِ ؛ حَتَّى اسْتَلَرَمَ ذَلِكَ الْجَزْعَ ارْتَكَابِهِمْ لِزَرْدِيلَةِ الْجُورِ فِي قَتْلِهِ . فَلَذِلِكَ كَانَ فَعْلَهُ إِسَاعَةً لِلْاسْتِيَّثَارِ ، وَفَعْلَهُمْ إِسَاعَةً لِلْجَزْعِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ أَنْكُمْ أَسَأَتُمُ الْجَزْعَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْقَتْلِ . وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي مِنْكُمْ ذَلِكَ الْجَزْعَ لَهُ قَبْلَ قَتْلِهِ

وَقَوْلُهُ : وَلَهُ حُكْمُ وَاقِعِ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ .

الْمُفْهُومُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرِدُ بِالْحُكْمِ الْوَاقِعِ لِلَّهِ فِي الْمُسْتَأْثِرِ هُوَ الْحُكْمُ الْمُقْدَرُ الْلَّاحِقُ لِعُثْمَانَ بِالْقَتْلِ الْمُكْتَوبُ بِقَلْمَنِ الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ فِي الْلَّوْحِ الْمُحْفَوظِ ، وَفِي الْجَازِعِ هُوَ الْحُكْمُ الْلَّاحِقُ لِفَاتِلِيهِمْ كَوْنِهِمْ قَاتِلِيْنَ ، أَوْ قَالِيْنَ وَجَازِعِيْنَ . وَفِي نَسْبَةِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ إِلَى اللَّهِ تَبَيَّنَهُ عَلَى

تبرّئه من الدخول في أمر عثمان وقاتلته بعد الإشارة إلى السبب المعدّ لوقوعها في حكمهم وهو الاسئلة في الاستئثار والجزع، ويحتمل أن يريد الحكم في الآخرة لاحق للكلّ: من ثواب أو عقاب عمما ارتكبه . وبالله التوفيق والعصمة .

٣٠ - وَمِنْ كَلَامِهِ عَلَيْهِ الْمُسْتَدِلُونَ

لابن العباس لما أرسله إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل

لَا تَقِينَ طَلْحَةَ فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجْدِهُ كَاثُورًا عَاقِصًا قَرْنَهُ يَرْكُ الصَّعْبَ
وَيَقُولُ : هُوَ الْذَّلُولُ . وَلَكِنَّ الْقَرْنَهُ زَلْزَلٌ فَإِنَّهُ الْيَنْعَرِيَّةَ قَلْهُ لَهُ : يَقُولُ لَكَ
أَنْ خَالِكَ : عَرَفْتَنِي بِالْجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعَرَاقِ ، فَإِنَّمَا بَدَا .

قال الشري夫: أقول: هو أول من سمعت منه هذه الكلمة، أعني «فما بدا»

أقول: يستفيئه: أى يسترجعه من فاء إذا رجع . وفي رواية إن تلقه تلقه من الفيء على كذا إذا وجدته عليه . والعقص: الأعوجاج، وعصص الثور قرنيه: بالفتح متعدد، وعصص قرنه: بالكسر لازم . والصعب: الدابة الجموج السغبة . والذلول: السهلة الساكنة . والعريكة: فعيل بمعنى مفعول والباء لنقل الاسم من الوصفية إلى الاسمية الصرفية، وأصل العرك ذلك الجلد بالدباغ وغيره . وعدا: جاوز . وبدا: ظهر .

وأعلم أنه عليه السلام لما نهى ابن عباس عن لقاء طلحة بحسب ما رأى في ذلك من اصلاحه نسبه على علة وجده فيه عنه بقوله: فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجْدِهُ كَذَا . وَقَدْ شَبَّهْتَهُ بِالثُّورِ ، وأشار إلى وجه الشبه بعcess القرن . استعار لفظ القرن وكتنى به عن شجاعته ، ولفظ العقص لما يتبع تعاطيه بالقوة والشجاعة من منع الجانب وعدم الانقياد تحت طاعة الغير اللازم عن الكبر والعجب بالنفس الذي قد تعرض للشجاع . وجه الاستعارة الأولى أنَّ القرن آلة للثور بها يمنع ما يراد به عن نفسه . وكذلك الشجاعة يلزمها الغلبة والقوّة ومنع الجانب ، وجه الاستعارة الثانية أنَّ الثور عند إرادة الخصم يعتص قرنيه

شرح كلام له عليه السلام ابن عباس لمن أرسله

أى يرخي رأسه و يعطف قرنيه ليصوّبها إلى جهة خصمه . ويقارن ذلك منه فتح صادر عن توهّم غلبيته مقاومه وشدّته عليه و أنه لا قدر له عنده كذلك المشتبه هينها علم منه عليه السلام أنه عند لقاء ابن عباس له يكون مانعاً جانبه ، متهيئاً للقتال ، مقابلاً للخشونة وعدم الانقياد له الصادر عن عجبه بنفسه و غروره لشجاعته . فذلك حسن التشبيه ، و يحتمل أن يكون وجه الشبه هو التواه طلحة في آرائه و انحرافه عنه عليه السلام الشبيه بالتواه القرن . وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس . و يقال : إنَّ الكبر الذي تداخل طلحة لم يكن فيه قبل يوم أحد . وإنما حدث به في ذلك اليوم و ذلك أنه أبلى فيه بلاه حسناً . ثم أشار إلى بن عباس بلقائه الزبير ، وأشار إلى وجه الرأي في ذلك ، وهو كونه ألين عرفة ، و يمكنني بالعرفة عن الطبع والخلق كنایة بالمستعار . فيقال : فلان لين العرفة إذا كان سهل العجائب لا يحتاج فيما يراد منه إلى تكلف ومجازية قوله عليه السلام كالجلد اللين الذي يسهل عره . وفلان شديد العرفة : إذا كان بالقصد بذلك . وظاهر أنَّ الزبير كان سهل الع جانب . فلا جل ذلك أمره بلقائه لما عهد من طبيعته أنها أقبل للاستدراج ، وأقرب إلى الانفعال عن الموعضة ، و تذكر الرحمة . وأحسن بهذه الاستعماله له بذكر النسب المستلزم تصوّره للميل والانعطاف من الطبائع السليمة : و نحوه قوله تعالى حكاية قول هرون موسى عليه السلام « يا ابن أُمٌ لا تأخذ بلحيني ولا برأسى » قال : يا ابن أُمٌ إنَّ القوم استضعفوني » فإنَّ فيه من الاستعمال والاسترافق بتذكيره حقَّ الأخوة مما يدعى إلى عطفه عليه مما لم يوجد في كلام آخر . وأمّا كون على عليه السلام ابن خال الزبير فإنَّ أبا طالب وصفيه أُمَّ الزبير من أولاد عبد المطلب بن هاشم .

وقوله : فماعدا متابدا .

قال ابن أبي الحديد . عدا بمعنى صرف . ومن : هينها بمعنى عن . و معنى الكلام بما صرفك عما كان بدا منك أى ظهر : أى ما الذي صدر عن طاعتى بعد إظهارك لها ، وحذف الضمير المفعول كثير كقوله تعالى « وسائل من أرسلنا قبلك » أى أرسلناه .

وقال القطب الروندى : له معنيان : أحدهما : ما الذي منعك مما كان قد بدا منك من البيعة قبل هذه الحالة ، الثاني : ما الذي عاقدك من البداء الذي يبدو للإنسان ، و

يكون المفعول الثاني لعدا محنوفاً يدلّ عليه الكلام أى ما عدك . يرده ، ما شغلك و ما منعك عمّا كان بحالك من نصرتى .

قال ابن أبي الحديد : ليس في الوجه الثاني مما ذكره القطب زيادة على الوجه الأول إلا زيادة فاسدة . أمّا أنه لا زيادة . فلا تفهّم فسرّ عدا في الوجهين بمعنى منع ، و فسرّ قوله مما كان بدا منك في الوجهين أيضاً بتفسير واحد . فلم يبق بينهما تفاوت ، وأمّا الزيادة الفاسدة فظنه أنّ عدا يتعدّى إلى مفعولين وهو باطل باجماع النحاة .

وأقول : الوجه الذي ذكره ابن أبي الحديد هو الوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما الرواوندي لأنّ الصرف والمنع لا كثير تفاوت بينهما وإن كان قد يفهم أنّ المنع أعمّ . وأمّا اعتراضه عليه بأنّه لا فرق بين الوجهين اللذين ذكرهما فهو سهو . لأنّ معنى بدا في الوجه الأول ما ظهر للناس منك من البيعة لي . ومراده به في الثاني ما ظهر لك في الرأى من نصرتى و طاعتى . وفرق بين ما يظهر من الإنسان لغيره ، وبين ما يظهر له من نفسه أو من غيره ، وأمّا ما ذكره من أنه زيادة فاسدة فالظاهر أنّ لفظة الثنائي في قوله المفعول الثاني زيادة من قلمه أو قلم الناسخ سهواً ، ويعوده إظهاره للمفعول الأول تفسيراً لقوله ويكون المفعول لعدا محنوفاً .

ثمّ أقول : وهذه الوجوه وإن احتملت أن يكون تفسيراً إلا أنّ في كلّ واحد عدولًا عن الظاهر من وجه : أمّا الوجه الذي ذكره المدائني فلا تفهّم عدا على حقيقتها وهي المجاوزة ، وحمل ما بدا على الطاعة السابقة . احتاج أن يجعل من بمعنى عن . و هو خلاف الظاهر . وأمّا الرواوندي فإنه فسرّ عدا بمعنى منع أو عاق وشغل ، وحمل ما بدا على الطاعة السابقة أو على البيعة . ولا يتمّ ذلك إلا أن يكون من بمعنى عن . والحقّ أن يقال : إنّ عدا بمعنى جاوز . و من لبيان الجنس . والمراد ما الذي جاوز بذلك عن بيته مما بدا لك بعدها من الأمور التي ظهرت لك . وحينئذ يبقى الألفاظ على أوضاعها الأصلية مع استقامة المعنى وحسنها . وروي عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن جده قال : سألت ابن عباس - رضوان الله عليه - عن تلك الرسالة فقال : بعثني فأتيت الزبير فقلت له . فقال : إنّي أريد ما يريد . كأنّه يقول : الملك . ولم يزدني على

ذلك . فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرته . وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : قلت الكلمة لزير فلم يزدني على أن قال : أنا مع الخوف الشديد لنطمع . و سئل ابن عباس عمما يعني الزين بقوله هذا . فقال : يقول : أنا على الخوف لنطمع أن نلي من الأمر ما وليت ، وقد فسر غيره ذلك بتفسير آخر . فقال : أراد أنا مع الخوف الشديد من الله لنطمع أن يغرننا هذا الذنب .

٣١ - فِيْ حِجَّةِ الْمُتَّلِّمِ

إِنَّا النَّاسَ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحَنَا فِي دَهْرٍ عَنْدَهُ، وَزَمْنَ كَنُودٍ يَعْدُ فِيهِ الْمُحْسِنُ
مُسِيْئًا، وَبَزْدَادِ الظَّالِمِ عَوْنَاهُ، لَا تَنْتَقِعُ مَا عَلَنَا، وَلَا نَسَالُ عَمَّا جَهَنَّمَ،
وَلَا تَخُوفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحْلِلَ بَنَا فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ اِصْنَافٍ : مِنْهُمْ مِنْ
لَا يَمْنَعُهُمُ الْفَسَادُ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلَّةُ حَدَّهُ، وَنَسْيِضُ وَفْرَهُ؛ وَمِنْهُمْ
الْمُصْلِتُ لِسِيفِهِ، وَالْمَعْلُنُ بِشَرِهِ، وَالْمَجْلُبُ بِخَلِيلِهِ وَرَجْلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ،
وَأَوْبَقَ دِينَهُ، لِحَاطَامَ يَنْهَزِهِ، أَوْ مَقْنِبَ يَقْوُدُهُ، أَوْ مَنْبِرَ يَفْرَعُهُ . وَلَبَسَ
الْمَتَجَرَ أَنْ تَرَى الدِّينَ لِنَفْسِكَ هُنَّا، وَمَا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عَوَاضًا : وَمِنْهُمْ مِنْ
يَطْلُبُ الدِّينَ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدِّينِ: قَدْ طَامَنَ مِنْ
شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوَهُ، وَشَمَرَ مِنْ ثُوبِهِ، وَزَخَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلَّامَانَةِ،
وَأَنْخَذَ سَرَّ اللَّهِ ذَرِيعَةَ إِلَى الْمُعْصِيَةِ؛ وَمِنْهُمْ مِنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمَلْكِ ضُوْلَةَ
نَفْسِهِ، وَانْقِطَاعُ سَيِّئِهِ . فَقَصَرَتِهِ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ . فَتَحَلَّ بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ،

وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحِ وَلَا مَغْدَىٰ . وَبِقَوْمٍ
رِجَالٌ غَضَّ ابْصَارُهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعُهُمْ خَوْفُ الْمُحْسَرِ، فَهُمْ
بَيْنَ شَرِيدَنَادٍ : وَخَافَفَ مَقْمُومٍ، وَسَاكَتْ مَكْعُومٍ، وَدَاعَ مُخْلَصٍ ،
وَشَكَلَانَ مُوجِعٍ . قَدْ اخْتَلَتْهُمْ التَّقْيَةُ، وَسَلَّمُوهُمْ الذَّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرِ أَجَاجٍ ،
أَفْوَاهُهُمْ ضَانِمَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرَحةٌ ، وَقَدْ وَعَظُوا حَتَّىٰ مُلَا ، وَقَهَرُوا
حَتَّىٰ ذُلَا ، وَقَتَلُوا حَتَّىٰ قُلَا . فَلَتَكُنْ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرُ مِنْ حُثَّةِ الْقَرَاطِ
وَقَرَاضَةِ الْجَلَمِ، وَأَعْظُوا بَيْنَ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَظَّ بِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ ،
وَأَرْفَضُوهَا ذَمِيمَةً : فَإِنَّهَا رَفَضَتْ مِنْ كَانَ أَشَعَّفَ بِهَا مِنْكُمْ .

قال الشريف : أقول : هذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية ، وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه ، وأين الذهب من الرغام ، والعذب من الأجاج ؟ وقد دل على ذلك الدليل الخرير ، ونقده الناقد البصیر عمر و بن بحر الجاحظ : فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب البيان والتبيين ، وذكر من نسبها إلى معاوية ، ثم قال : هي بكلام على عليه السلام أشبه وبمنذهبة في تصنيف الناس . وبالإخبار عما هم عليه من الفهر والإذلال ، ومن التقية والخوف - أليق قال : ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ومذاهب العباد !!

أقول : عنود : جائز . وكتنود : كفور . والعتو : الكبر . والقارعة : الخطب العظيم . ومهانة النفس : حقارتها . وكل حد السيف وغيره : إذا وقف عن القطع . ونضيض وفره :

شرح الخطبة الإِحدى و الثلاثين

قلة ماله . والمصلت بسيفه : الماضي في الأمور بقوّته . والمجلب : المستعين على الأمر بالجمع . والرجل : جمع راجل . وأشرط نفسه لکذا : أى أعلمها وأعدّها له . وأوبق دينا : أى أهلكه . والحطام : متاع الدنيا ، وأصله ما تكسر من اليأس . والانهار : الاختلاس والإِستلاب بقدر الامكان . والمقنبل بكسر الميم وفتح النون : الجمع من الغيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين . وفرع المنبر يفرعه : أى علاه . وطأمن من شخصه : أى خفف ، والاسم الطمأنينة . وشمر من ذبله : إذا رفعه . وزخرف : أى زين ونمثّق . وضُؤْلَهْ نفسه : حفارتها . المراح : المكان الذي يأوي إليه الماشية بالليل . والمغدى : هو الذي يأوي إليه بالغداة . والشريد . المشرد : وهو المطرود . والناد : الذاهب على وجهه . والقمع : الإِذلال . والمكعوم : الذي لا يمكنه الكلام كأنه سدّ فوه بالكعبان ؛ وهو شيء يجعل في فم . البعير عند الهياج . والشكل : الحزن على فقد بعض المحاب . و اخملتهم : أى اسقطهم وأرذلتهم بين الناس . والتقة والتقوى : الخوف . والاجاج : الملح . والضامز . بالراء : الساكتة . والحالة الشفل . والقرظ ، ورق السلم يدبغ به . والجلم : المقرافن تجزّ به أوبار الإِبل ، وفرضته ما تساقط من قرضه .

و أعلم أن نسبة الخير إلى بعض الأزمنة والشر إلى بعض آخر ، و تفضيل بعض الأزمنة على بعض نسبة صحيحة لما أنّ الزمان من الأسباب المعدّة لحصول ما يحصل في هذا العالم من الإمتراجات و ما يتبعها مما يعدّ خيراً أو شرّاً . و قد يتفاوت الأزمنة في الإعداد لقبول الخير و الشر ففي بعضها يكون بحسب الاستقرار ما يعدّ شرًّا كثيراً فيقال : زمان صعب و زمان جائز . وخصوصاً زمان ضعف الدين والنوايس الشرعية التي هي سبب نظام العالم و بقاوئه و سبب الحياة الأبدية في الدار الآخرة ، و في بعضها يكون ما يعدّ خيراً كثيراً فيقال : زمان حسن و زمان عادل ، و هو الزمان الذي يكون أحوال الخلق فيه منتظمة صالحة خصوصاً زمان قوّة الدين و ظهوره وبقاء ستة نماوس الشريعة مسدولاً . هذا . وإن كننا إذا اعتبرنا أجزاء الخير و أجزاء الشر الواقعه في كلّ العالم بحسب كلّ زمان لم يكن هناك كثير تفاوت بين الأزمنة فيما بعدّ خيراً فيها و شرّاً . ولذلك قال أفالاطون : الناس يتوهّمون بكلّ زمان أنه آخر

الأزمنة وينبئون تفصيراً عمّا تقدّمه وليس يوفون الزمان الماضي والمقيم حقيقة من التأمل . وذلك أنهم يقيسون الأحداث في الزمان المقيم إلى من تناهت سنّه وتجاربه في الزمان الماضي ، وينظرون إلى قصور المروّات في الزمان المقيم واتساعها في الماضي من غير أن ينظروا إلى الأغراض في الزمانين وما يوجبه كل واحد منها . وإذا تتبع هذا بعدل واستقصى تصرف الزمانين من القوى والجذبات ، والأمن والخوف ، والأسباب والأحوال كانوا متقاربين . إذا عرفت هذا فتقول :

قوله عليك السلام إننا قد أصبحنا . إلى قوله : حتى تحلّ بنا .

ذمّ للزمان بوصفى الجور والشدة لما أعدله مما عدد فيه من الأوصاف المعدودة شرّاً بالقياس إلى نظام العالم وبقائه . وذكر من تلك الأوصاف خمسة : أولها : أنه يعدّ فيه المحسن مسيئاً . وذلك من حساب المسيئين الكسالي عن القيام بطاعة الله فيعدّون إنفاق المحسن لما له رباءً وسمعةً أو خوفاً أو رغبة في مجازاة ، وكذلك سائر فضائله رذائل . كل ذلك طعننا في فضيلته وحسداً أن ينال رتبة أعلى . فيلحقونه بدرجاتهم في الإساءة .

و ثالثها : أنه يزداد الظلم فيه عتوّاً . وذلك أنّ منشأ الظلم هو النفس الامارة بالسوء وهي في زمان العدل تكون مفهورة دائمًا أو في أكثر الأحوال . و ثورانها في ذلك الوقت طالبة للظلم يكون فلتةً و انتهاز فرصة . فالظلم في زمان العدل إن ظلم أو تجاوز حدّه فالسارق الذي لا يأمن في كل لحظة أن يقع به المكروه فكذلك الظالم في زمن العدل مقموع بحرسـةـ الشـريـعـةـ مـرـصـودـ بـعيـونـ طـلـابـهـ . أمّا في زمان ضعف الشـريـعـةـ فالـظـالـمـ فيهـ كالـناـهـيـ معـطـرـ لـقوـتهـ سـوـلـهاـ ،ـ غـيرـ مـلـفـتـ إـلـىـ وـازـعـ الدـينـ فـلاـ جـرمـ كـانـ عـتوـهـ فـيهـ أـزـيدـ .ـ وـقـدـ كـانـ فـيـ زـمـانـهـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ عـهـدـ الرـسـولـ صلوات الله عليه وسلم كذلك .

و ثالثها : أنه لا ينتفع أهله فيه بما علموا . وهو توبخ للمقصرين في أعمال الآخرة على وفق ما علموا من الشـريـعـةـ مماـ يـبـغـيـ أنـ يـعـمـلـ لهاـ إـذـ الـانتـفاعـ بـالـعـلـمـ إنـماـ يـكـونـ إـذـ وـاقـعـهـ الـعـلـمـ ،ـ وـ إـلـيـهـ إـلـاـشـارـةـ بـقـولـهـ عليك السلام فيـ مـوـضـعـ آـخـرـ :ـ الـعـلـمـ مـقـرـونـ بـالـعـلـمـ ،ـ وـ الـعـلـمـ يـهـتـفـ بـالـعـلـمـ فـإـنـ أـجـابـهـ وـ إـلـاـ اـرـتـحلـ .ـ فـإـنـ اـمـرـادـ بـارـتـحالـ الـعـلـمـ

شرح الخطبة الإحدى والثلاثين

هو عدم الانتفاع به وبهتفه بالعمل اقتضاؤه ما ينبغي من مقارنة العمل له .
ورابعها : أنهم لا يسئلون عمّا جهلو . وهو توبیخ للمقصرين في طلب العلم بعدم
السؤال عمّا جهلو منه ، و قلة الالتفات لقصور أفهمهم عن فضيلته ، و اشغالهم بحاضر
اللذات الحسية .

وخامسها : كونهم لا يتخوّفون قارعة حتى تحلّ بهم . وذلك لعدم فكرهم
في عواقب أمورهم و اشغالهم بحاضرها عن الالتفات إلى مصالحهم و تدبرها و هو
توبیخ للمقصرين في أمر الجهاد و تبنيه لهم بذكر القارعة و حلولها بهم . وكلّ هذه
أمور مضادة لمصلحة العالم . فلذلك عدّ الزمان الواقعة فيه عنوداً وشديداً .
قوله : فالناس على أربعة أصناف . إلى قوله : قلوا .

أقول : وجه هذه القسمة أنَّ الناس إماً مريدون للدنيا أوَّلُه . والمریدون لها
فإماً قادرون عليها أو غير قادرين . و غير القادرين إماً غير محظوظين لها ، أو محظوظون .
و المحظوظون إماً أن يؤهّلوا نفوسهم للإمرة و الملك ، أو لما هودون ذلك . فهذه أقسام
خمسة مطابقة لما ذكره تبارك من الأوصاف الأربع التي عرضهم للذم مع الصنف
الخامس الذين أفردهم بالمدح .

فالصنف الأوّل . فهم المریدون للدنيا القادرون عليها المشار إليه في القسم الثاني
من قسمته بقوله : ومنهم المصلت لسيفه والمعلن بشرّه . إلى قوله : يفرّعه . و المقصود بهذا
الصنف القادرون على الدنيا المطلقون لعنان الشهوة و الغضب في تحصيل ما يتخيّل
كمالاً من القيّنات الدنيوية . فإن صفات السيف كنایة عن التغلب وتناول ما ممكن تناول له
بالغلبة والقهوة وإعلان الشرّ و المجاهرة بالظلم وغيره من رذائل الأخلاق . و الإجلاب
بالخيل و الرجل كنایة عن جمع أسباب الظلم والغلبة والاستعلاء على الغير . وإشراط
نفسه : تأهيلها وإعدادها للفساد في الأرض . و ظاهر أنَّ من كان كذلك فقد أطبق دينه وأفسده .

وقوله : لحطام ينتهزه أو مقرب يقوده أو منبر يفرّعه .
إشارة إلى بعض العلل الغائبة للصنف المذكور من كونهم بالأوصاف المذكورة .
و استعار لفظ الحطم للمال . ووجه المشابهة أنَّ اليأس من النبات كما أنه لافع له

بالقياس إلى ما يبقى خضرته و نضارته أو يكون ذا ثمرة كذلك المال بالنسبة إلى الأعمال الصالحة الباقى نفعها في الآخرة، وإنما خص هذه الأمور ثلاثة لأنها الأغلب فيما يسعى أهل الدنيا لأجله إذ الغالب أنَّ السعي فيها إما لجمع المال أو لريادة دينية بأفبناء الخيل والنعيم، أو دينية كافتراع المنابر والرئاس بناء الدين مع قصد الدنيا. و قوله : ولبس المتجر . إلى آخره .

تنبيه لهذا الصنف من الناس على خسارتهم في أفعالهم الشبيهة بالتجارة الخاسرة فإنَّ طالب الدنيا المحصل لها كيف ماتتفق هالك في الآخرة . فهو كالبائع لها بما حصل له من دنياه ، والمعتاض بما له عند الله من الأجر العجزيل لو أطاعه حطاماً تفني عينه و تبقى بعنته . ولذلك استعار لفظ التجارة لها .

الصنف الثاني : وهم المريدون لها غير القادرين عليها وغير المحتملين لها و هو المشار إليه بقوله : منهم من لا يمنعه من الفساد [في الأرض] إلا مهانة نفسه وكالة حده و نضيض و فره . وكتنى بقوله : كالة حده . عن عدم صراحته في الأمور وضعفه عنها . وظاهر أنَّ المريد للدنيا المعرض عن الله لوطني عن الموانع المذكورة و وجدة الدنيا لم يكن سعيه فيها إلا فساداً .

الصنف الثالث : الغير القادرين على الدنيا مع احتيالهم لها و إعداد أنفسهم لأمور دون أملاك وهو المشار إليه بقوله : و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا . إلى آخره .

وقوله : يطلب الدنيا بعمل الآخرة إشارة إلى الحيلة للدنيا كالرباه والسمعة .

وقوله : ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا إشارة إلى أنه مريد للدنيا فقط .

قوله : قد طامن من شخصه . إلى آخره .

تفصيل لكيفية الحيلة فإنَّ خضوع الإنسان و تطامن شخصه و المقاربة بين خطوه و تشمير ثوبه و زخرفته لنفسه بما هو شعار الصالحين من عباد الله و ستر الله الذي جرى به أهل التقوى أن يردو موارد الهمكة يقع من صنف من الناس التماساً لدخولهم في عيون أهل الدنيا و أرباب أهل القيبات ليسكناوا إليهم في الأمانات و نحوها و يجعلون

ذلك ذريعة لهم إلى ما أملأوه من الدنيا الفانية فيكونون قد اتّخذوا ستر الله و ظاهر دينه و سيلة إلى معصيته .

الصنف الرابع : الغير القادرين عليها المحتالون لها المؤهّلون أنفسهم للملك والإمرة ، وهم المشار إليهم بقوله :

ومنهم من أفعدهم عن طلب الملك ضؤولة نفسه . إلى آخره . و ذكر من مواطن هذا الصنف عما رايه مانعين : أحدهما ضؤولة نفسه و قصورها عن المناواة و تخيلها العجز عن طلب الملك وإن كان مطلوبًا له ، الثاني سبب ذلك الضعف وهو انقطاع سبيبه من قلة المال و عدم الأعون و الأنصار في الطلب . فلذلك وقفت به حال القدر على حاله الذي لم يبلغ معهاماً أراد ، وقصرته عليها . فعدل لذلك إلى الحيلة الجاذبة لرغبات الخلق إليه من التحلّي بالقناعة و الترّين بلباس أهل الزهدادة من المواظبة على العبادات و لزوم ظواهر أوامر الله وإن لم يكن ذلك عن أصل و اعتقاد قاده إليه .

وقوله : و ليس [هو] من ذلك في مراح ولا مغدي . كناية عن أنه ليس من القناعة و الزهد في شيء أصلاً ، و يحتمل أن يكون هذا الصنف من غير القادرين وغير المحتالين .

الصنف الخامس : وهم المریدون لله تعالى وهم المشار إليهم بقوله ﴿إِنَّمَا يُنَهَا عَنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ : وبقى رجال . إلى آخره . و ذكر لهم أوصافاً :

الأول : كونهم قد غشّ أبصارهم ذكر المرجع . و ذلك أنَّ المريد لله إذا التفت إلى جنابه المقدس و استحضر أنه راجع إليه بل ما يليل بين يديه . فلا بد أن يعرض عن غيره حياء منه و ابتهاجاً بمطالعة أنواره و خوفاً أن يمحى به بصره عن صعود مرآت الأَمَلاك إلى مهاوى الْهَلَاكِ ، ولأنَّ الحسَّ تابع للقلب فإذا كان بصر القلب مشغولاً غريقاً في جلال الله كان مستبعاً للحسَّ فلم يكن له التفاتات من طريقه إلى أمر آخر . و هو المراد بالغضّ .

الثاني : كونهم قد أراق دموعهم خوف المحشر .
و اعلم أنَّ خوف الخائفين قد يكون لأمور مكرورة لذاتها ، وقد يكون لأمور

مكروهة لأدائها إلى ما هو مكره لذاته ، وأقسام القسم الثاني كثيرة كخوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نفس القرية ، أو خوف الانحراف عن القصد في عبادة الله ، أو خوف انتلاء القوى الشهوانية بحسب مجرى العادة في استعمال الشهوات المألفة ، أو خوف تبعات الناس عنده ، أو خوف سوء الخاتمة ، أو خوف سبق الشقاوة في علم الله تعالى . وكل هذه ونحوها مخاوف عباد الله الصالحين . وأغلبها على قلوب المتقيين خوف الخاتمة فإنَّ الأمر فيه خطر ، وأعلى الأقسام وأدله على كمال المعرفة خوف السابقة لكون الخاتمة تبعاً لها ومظيرة لما سبق في اللوح المحفوظ . وقد يمثل من له خوف السابقة ومن له خوف الخاتمة بوجلين وقع لهما ملك بتوقيع يحتمل أن يكون لهم فيه غناه أو هلاك فتعلق قلب أحدهما بحال نشر التوقيع وما يظهر فيه من خير أو شر ، وتعلق قلب الآخر بما خطر للملك حالة التوقيع من رحمة أو غضب . وهذا التفات إلى السبب . فكان أعلى . فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلِي " الذي جرى بتوقيعه القلم الإلهي " في اللوح المحفوظ أعلى من الالتفات إلى الأند . وإلى ذلك أشار الرسول ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيه ولا ينقص . وليعمل أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال : كأنهم منهم بل هم ثم يستخر جهنم (يستنقذهم خ) الله قبل الموت ولو بفارق ناقة ، وليعمل أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال : كأنهم منهم بل هم ثم يستخر جهنم الله قبل الموت ولو بفارق ناقة . السعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله ، والأعمال بالخواتيم . وأما أقسام القسم الأول فمثل أن يتمثل في نفوسهم ما هو المكره لذاته كسكنات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر ، أو هول الموقف بين يدي الله تعالى والحياة من كشف السر وسؤال عن النمير والقطمير ، أو خوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه ، أو من النار وأغلالها وأحوالها ، أو من حرمان الجنة ، أو من نقصان الدرجات فيها ، أو خوف الحجاب من الله تعالى . وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها وختلف حال السالكين إلى الله فيها ، وأعلاها رتبة خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك وهو خوف العابدين وصالحين و الزاهدين و من لم تكمل معرفته بعد .

شرح الخطبة الأُحدى و الثلاثين

إذ أعرفت ذلك فنقول : الخوف الذي أشار إليه تبارك و تقدس من هذا القسم إذ خوف المحسن
يشمل ماذ كرناه من أقسامه .

الثالث : كونهم بين شرير ناد : أى مشرد في البلاد مطرود إما لكتلة إنكاره
المنكر أو لقلة صبره على مشاهدة المنكر ، و خائف مفهوم وساكت مكعوم : أى كانَ
الحقيقة سدت فاه عن الكلام . وهو من باب الاستعارة ، وداع مخلص الله و ثكلان موجع
إما مصابه في الدين أو من كثرة أذى الظالمين . وهذا تفصيل حال آحاد المتقين ،
ويحتمل أن يكون ذلك تفصيلاً لحالهم بالنسبة إلى خوف المحسن أى أنَّ خوف المحسن
أراق دموعهم و فعل بكل واحد منهم ماذ كرعنده من الحالة التي هو عليها .

الرابع : كونهم قد أعملتهم الحقيقة : أى تفهيم الظالمين وهو تأكيد لما سبق .

الخامس : كونهم قد شملتهم الذلة : أى بسبب الحقيقة .

السادس : كونهم في بحر أجاج ، واستعار لفظ البحر بوصف الأجاج ما فيه من
أحوال الدنيا الباطلة . ووجه المشابهة أنَّ الدنيا كما لا يصلح للاقتناء والاستمتاع بها
بل يكون سبباً للعذاب في الآخرة كذلك البحر لا يمكن سباحه وإن بلغ به جهد العطش
مبلغه شربه والتروي به .

وقوله : أفواهم ضمرة و قلوبهم قرحة .

أي إنهم ملأ فطموا أنفسهم عن لذاتها و مخالطة أهلها فيما هم فيه من الانهماك
فيها لاجرم كانت أفواهم ضمرة لكتلة صيامهم بعيدة العهد بالمضغ ، و قلوبهم قرحة
جوعاً أو خوفاً من الله أو عطشاً إلى رحمته و رضوانه أو لما يشاهدونه من كثرة المنكرات
و عدم تمكّنهم من إنكارها . ومن روى ضامرة بالزای المعجمة أراد سكوتهم و قلة كلامهم .

السابع : كونهم قد وعظوا حتى ملوا :

أي ملوا وعظ الخلق لعدم نفعه فيهم .

الثامن : كونهم قد قهروا حتى ذلوا .

التاسع : كونهم قد قتلوا حتى قلوا : أى قتلهم الظالموں لعدم سلکهم في انتظامهم
فإن قلت : كيف يقال قتلوا مع بقائهم . قلت : إسناد الفعل إلى الكل لوجود القتل في

البعض مجازاً من باب إسناد حكم الجزء إلى الكل ، ولأنَّ الكلَّ مُتَّا كان مقصوداً بالقتل، كان كونهم مقتولين علةٌ غائبةٌ فجاز إسناد القتل إليهم وإنْ كان المقتول بعضهم . و قوله : فلتكن الدنيا في أعينكم . إلى آخره .

أمر للسامعين باستصغار الدنيا واحتقارها إلى حد لا يكون في أعينهم ما هو أحقر منها فإنَّ حثالة الفرط وقرابة الجلم في غاية الحقاره ، والمراد من هذا الأمر . وغايتها الترك لها فإنَّ استحقار الشيءِ واستصغاره يستتبع تركه والإعراض عنه ، ثم أمرهم بالاتساع بالآمِم السابقة فإنَّ في الماضين عبرة لا ولِيَ الْبَصَار ، ومحلَّ الاعتبار ما كانوا فيه من تعيم الدنيا ولذاتها و المبالغة بكثرة قيانتها ثم مفارقتهم لذلك كلَّه بالموت وبقاء الحسرة و الندامة للمستكثرين منها حجاً حالية بينهم وبين الوصول إلى حضرة جلال الله ، وبنبيِّهم بقوله : قبل أن يتسعَّ بكم من بعدكم . على أنَّهم مضطرون إلى مفارقة ما هم فيه وسيصيرون عبرة لغيرهم ، وفائدة الأمر بالاتساع أيضاً الإعراض عنها و الإفلاع و الأغترار بها ، ثم مُتَّا أمرهم بهذه الأوامر التي ليست صريحة في الترك أردف ذلك بالأمر الصريح بالترك فقال : و ارفضوها ذميمة : أي أترَّكوا ما حاله الحقاره والذمة ، ثم نسبَّه بعده على ما يصلح علة لتركها وهو عدم دوام صحبتها و ثباتها ملَّ كان أحبَّ منهم لها : أي ولو دام سرورها و نعيها لأحد دام لأحبَّ الخلق لها وأحرصهم على المحافظة عليها فلما لم تدم ملَّ هو أشدَّ حباً لها منكم فبالأولى أن لا تدوم لكم ، وإذا كان طباعها رفض كلَّ حبٍ فالآخرى بذى المروءة اللبيب الترفع والإعراض عنـ لا تدوم صحبتـه ولا تصفـو محبـته . وبالله التوفيق .

٣٢ - فِيْ حَجَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

عند خروجه لقتال أهل البصرة

قال عبد الله بن العباس : دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذى قار وهو يخصف نعله فقال لي : ما قيمة هذه النعل ؟ فقلت : لا قيمة لها . فقال

عليه السلام : وَاللَّهُ أَحْبَ إِلَيْهِ مِنْ إِمْرَتُكُمْ إِلَّا أَنْ أَقِيمَ حَقًا ، أَوْ أُدْفَعَ بِاطْلًا ،
ثُمَّ خَرَجَ نَفْطَبَ النَّاسَ فَقَالَ :-

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِّنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا
وَلَا يَدْعُ نُوبَةً ، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّىٰ بَوَاهِمَ حَلْتَمْ ، وَبِلِغْهُمْ مَنْجَاتَهُ
فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ ، وَاطْمَانَتْ صَفَاتُهُمْ . أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَنِي سَاقَهَا
حَتَّىٰ وَلَتْ بَحْذَافِيرَهَا : مَاضَعْتُ وَلَا جَبَتْ وَإِنْ مَسِيرِي هَذَا مَلْهُلَهَا فَلَا نَقْبَنِ
الْبَاطِلَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ مَالِ وَلَقْرَيْشَ ! وَاللَّهُ لَقَدْ قَاتَلَهُمْ كَافِرِينَ
وَلَا قَاتَلَهُمْ مُفْتُونِينَ ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ : كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ !

أقول : ذوقار : موضع قريب من البصرة ، و هو الموضع الذي نصرت فيه العرب على الفرس قبل الإسلام . و يخصف نعله : أي يخرزها . و بوآهم : أسكنهم . و المحلة : المنزلة . و المنجاة : موضع النجاة . و القناة : الرمح ، و عمود الظهر المنتظم للفقار . و الصفة : الحجر الأملس المنبسط . والساقة : جمع سائق . و تولت بحذافيرها : أي بأسها . و البقر : الشق .

و اعلم أنه عليه السلام قدّم لنفسه مقدمة من الكلام أشار فيها إلى فضيلة الرسول عليه السلام في مبعثه و هو سوقه للخلق إلى الدين الحق عليه السلام يعني عليها فضيلة نفسه . و كانت غايتها من ذلك توجيه من خرج عليه من قريش و الاستعداد عليهم .
فقوله : إنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا . إِلَى قَوْلِهِ : صَفَاتُهُمْ .

صدر الكلام . أشار فيه إلى فضيلة الرسول عليه السلام . والواوان الداخلتان على حرفي النفي للحال . فإن قلت : كيف يجوز أن يقال إنه لم يكن أحد من العرب في ذلك

الوقت يقرء كتاباً و كانت اليهود يقرؤون التوراة و النصارى الأنجيل . قلت : إنَّ الكتاب الذي تدعى به اليهود و تسميه في ذلك الوقت التوراة ليس هو الكتاب الذي أنزل على موسى ﷺ فـإِنَّهُمْ كَانُوا حِرْفَوْهُ و بَدَلُوهُ فَصَارَ كِتَابًا آخَرَ بَدِيلٍ قَوْلَهُ عَالَى «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا و هَدِيَ لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تَبْدُونَهَا و تَخْفُونَ كَثِيرًا»^(١) و ظَاهِرٌ أَنَّهُ مِنْ حِيثِ هُوَ مُبَدِّلٌ و مُحْرَفٌ لَيْسَ هُوَ المَنْزَلُ عَلَى مُوسَى ﷺ ، و أَمَّا الْكِتَابُ الَّذِي تَدَعُّ النَّصَارَى بِقَاءَهُ فِي أَيْدِيهِمْ فَغَيْرُ مَعْتَمِدٍ عَلَى نَقْلِهِمْ فِيهِ لِكُوْنِهِمْ كُفَّارًا بِسَبِّ القَوْلِ بِالْتَّشْلِيتِ ، و أَمَّا النَّاُونُ لِلتَّشْلِيتِ فَهُمْ فِي غَايَةِ الْقَلَةِ فَلَا يَفِيدُهُمْ قَوْلُهُمْ : إِنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ هُوَ إِنْجِيلُ عِيسَى . عَلَمًا . فَإِذْنَ لَا يَكُونُ الْمُقْرَأُ لَهُمْ حَالٌ مَبْعَثٌ مُحَمَّدٌ ﷺ كِتَابًا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . سَلَمَنَاهُ لَكُنْ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِالْعَرَبِ بِجَهُورِهِمْ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ دِينٌ وَلَا كِتَابٌ وَإِنَّمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَتَمَسَّكُ بِآثارِ مِنْ شَرِيعَةِ إِسْمَاعِيلَ وَبَعْضُهُمْ بِرِسُومِ لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : فَسَاقَ الْأَنْسَ حَتَّى بُوَأْهُمْ مُحْلَّتُهُمْ .

الإشارة بسوقه لهم إلى سوق العقل لـأذهانهم بحسب المعجزات إلى تصديقه فيما جاء به بحسب ما جائهم من القرآن الكريم والسنّة النبوية وإلى معرفة سبيل الله ، ثم بحسب الترغيب لبعضهم والترهيب للبعض إلى سلوك تلك السبيل . فأصبحوا وقد تبتوؤوا مُحْلَّتُهُمْ : أَيْ مُنْزَلَتُهُمْ وَمُرْتَبَتُهُمُ الَّتِي خَلَقُوا لِأَجْلِهَا ، وَكَانَتْ هِيَ مَطْلُوبُ الْعِنَايَةِ الْأَزْلِيَّةِ بِوُجُودِهِمْ فِي هَذَا الدَّارِ وَهِيَ لِزُومِ الْقَصْدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمُسْمَى إِسْلَامًا وَدِينًا وَإِيمَانًا وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ الْمُنْجَاهَةُ الَّتِي لَا خُوفُ عَلَى سَالِكِهَا وَلَا سَلَامَةُ لِلْمُنْحَرِفِ عَنْهَا ، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ : وَبِلَغْتُهُمْ مُنْجَاهَتُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ .

وَالْمَرَادُ بِالْقَنَاتِ : الْفُوَّةُ وَالْغُلْبَةُ وَالْدُّولَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُمْ مِجَازًا وَهُوَ مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ اسْمِ السَّبِبِ عَلَى الْمُسْبَبِ فَإِنَّ الرَّمْحَ أَوَالظَّهُرَ سَبِبُ لِلْفُوَّةِ وَالشَّدَّةِ ، وَمَعْنَى إِسْنَادِ الْاِسْتِقَامَةِ إِلَيْهَا اِنْتِطَامُ قَهْرِهِمْ وَدُولَتِهِمْ .

شرح الخطبة الثانية والثلاثين

وقوله : واطمأنت صفاتهم .

استعارة للفظ الصفة لحالهم التي كانوا عليها ، ووجه المشابهة أنهم كانوا قبل الإسلام في مواطنهم وعلى أحوالهم متزلزين لا يقرّ بعضهم بعضاً في موطن ولا على حال بل كانوا أبداً في الغارة والنهر والجلاء . فكانوا كالواقي على حجر أملس متزلزلي مضطرب . فاطمأنت أحوالهم وسكنوا في مواطنهم . كل ذلك بسبب مقدم محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وقوله : أما والله إن كنت لفي ساقتها . إلى قوله : ولا جنت .

تقرير لفضيلته . فأثبتت لنفسه أنه كان من ساقتها إلى أن تولّت بأسرها من غير عجز اعتراه ولاجن ، والضمير في ساقتها لكتائب الحرب وإن لم يجعلها ذكر صريح بل ما يحصل منه معنى الذكر وهو الناس فكأنه قال : فساق الناس وهم يومئذ كتائب عليه فكنت في ساقتها حتى تولّت تلك الكتائب بأسر هالم يبق منها من يغاليه ، وقد علمت أن السوق قد يكون سوق طرد وهزيمة ، والأول هو غايته على كل حال من السوق الثاني إذ لم يكن مقصوده من حررته إلا السوق إلى الدين ، ولما لم يمكن حصول الهدایة للخلق إلا بوجود النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وإيصال سبيل الحق كان ذبه وطرده الكتائب حتى تولّت بحذافيرها حمامة عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وعن حوزة الدين أمراً واجباً لالذاته لكن لغرض تمام الهدى الذي هو غاية وجود النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وقوله : ماعجزت [ماضعفتخ] ولا جنت .

تمام لإثبات الفضيلة المذكورة له ، وتقرير ما علم من شجاعته ، وتأكيد لعدم العجز والجن الذي هو طرف التفريط من فضيلة الشجاعة .

وقوله : وإن " مسيري هذا مثلها .

أى مثل تلك الحال التي كنت عليها معهم زمان كفرهم من سوق كتائبهم وطردتها من غير جبن ولا ضعف . وهو في معنى التهديد الذي عساه أن يبلغ خصومه وتفوي به نفوس أولائه ، وكذلك قوله : ولا يقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته . أيضاً في معنى التهديد ، وتنبيه على ما عليه خصومه من الباطل . واستعار هنا لفظ الخاصة للباطل والبقر لتفريق الباطل و تمييز الحق منه تشبيهاً له في استثار الحق فيه وعدم

و تذكير الخصم بابتلاء الكفار به بِعَذَابِهِ

تميّزه منه بـحيوان ابتلع جوهرًا ثميناً أعزّ منه قيمة وأتمّ فائدة فاحتاج إلى شقّ بطنه في استخلاص ما ابتلع .
وقوله : مالي و لفريش .

استفهام على سبيل الإنكار لما ينطوي عليه و بينهم مما يوجب الاختلاف وجحد فضيلته ،
و حسم لاذعارهم في حربه .
وقوله : والله لقد قاتلتهم كافرین .

إظهار للمنة عليهم بسوقه لهم إلى الدين أو لا وتعيير لهم بما كانوا عليه من الكفر
ليعترفوا بفضيلته ونعمته الله عليهم به وليخجلوا من مقابلته بالباطل و هو إظهار الإنكار
عليه إذ كانوا أولى ببيان المنكر منه وهو أولى بردّهم عنه آخرًا كما كان أو لا . وكذلك
قوله : وقاتلهم مفتونين . على أحد الروايتين ، وأمّا على رواية ولا فقاتلهم مفتونين فهو
تهديد بأن يوقع بهم القتال على فتنتهم وضلالتهم على الدين . و كافرین و مفتونين نصبا
على الحال ، و في ذكر هذين الحالين تنبية على علة قتاله لهم في الحالتين و هو طلبه
لاستقامتهم على الدين ورجوعهم إلى الحقّ عن الضلال وإغراء السامعين بهم .
وقوله : وإنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم .

إشارة إلى أنه لم تتغير حالته التي بها قاتلهم كافرین ، وفائدته تذكير الخصم
الآن بابتلاء الكفار به في ذلك الوقت ليتقهقر واعن محاربته إذ في تذكير وقايده في بدء
الإسلام وشدّة بأسه ما تطير منه القلوب وتفتش عن منه الجلود . وقد نقلت في تمام هذه الخطبة
في بعض النسخ :

لتضجّ قريش ضجيجها إن تكون فينا النبوة والخلافة ، والله ما أتينا إليهم إلا أنا
اجترأنا عليهم .

وذلك إشارة إلى السبب الأصلّى لخروج طلحة والزبير وغيرهما من قريش عليه .
وهو الحسد والمنافسة إن تكون الخلافة والنبوة فيبني هاشم دونهم . والضجيج : الصراح
القوى . وهو كنایة عن أشدّ مخاصماتهم و منافراتهم معه على هذا الأمر .
وقوله : والله ما آتينا إلى آخره .

تُأكِيد مَا نسبه إليهم من سبب الخروج بالقسم البار على أنه لم يكن الباعث لهم على قتاله أو على حسده والبغى عليه أمراً من قبله سوى الاجتراء عليهم أى الشجاعة والإقدام عليهم في منعهم عمما يريدون من قول أو فعل لا تسوغه الشريعة فإنه لما لم يكن ذلك في الحقيقة إساءة في حقهم يستحق بها المكافأة منهم بل إحسان وردع عن سلوك طرق الضلال. تعين أن السبب في الخروج عليه ونكت يعتن به هو الحسد والمنافسة وبالله التوفيق.

٢١ - فِيْ حَجَبِ الْمِنَارِ عَلَيْنَا الْسَّلَامُ

في استئثار الناس إلى أهل الشام

إِفْ لَكُمْ، لَقَدْ سَمْتُ عَنَّابَكُمْ !! أَرَضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عَوْضًا؟
 وَبِالَّذِلِّ مِنَ الْعَزِّ خَلَفَا ؟ إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عُدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَانَكُمْ
 مِنَ الْمَوْتِ فِيْ عَمَرَةِ ، وَمِنَ الْذُهُولِ فِيْ سَكْرَةِ ، يُرْجِعُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي
 قَعْدَهُوْنَ . فَكَانَ قُلُوبُكُمْ مَالُوسَةَ قَدْهُوْنَ ، مَا اتَّمْتُ لِي بِنَفْتَهِ
 سَجِيسَ اللَّيَالِيَ ، وَمَا اتَّمْتُ بِكُنْ يَمَالُ بَكُمْ ، وَلَا زَوَافُرُ عَزِيزٌ يَفْتَقِرُ إِلَيْكُمْ
 مَا اتَّمْتُ إِلَّا كَابِيلٌ ضَلَّ رُعَاهَا ، فَكُلُّمَا جَعَتْ مِنْ جَانِبِ اتَّشَرَتْ مِنْ آخَرَ ،
 لِبَسَ - لَعْرُ اللَّهِ - سَعْرُ نَارِ الْحَرَبِ اتَّمْتُ تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ ،
 وَتَنْقُصُ أطْرَافُكُمْ فَلَا تَمْتَضِعُونَ لَا يَنْامُ عَنْكُمْ وَاتَّمْتُ فِي غَفَلَةِ سَاهُونَ ، غُلَبَ
 وَاللَّهُ الْمُتَخَالِذُونَ ، وَإِيمَانُهُ إِلَى لَا ظُنُونَ بَكُمْ ، أَنَّ لَوْحِسَ الْوَغْيَ وَاسْتَحْرَ الْمَوْتَ
 قَدْ أَنْفَرْجَتْ عَنِّيْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنْفَرَاجَ الرَّأْسِ . وَاللَّهِ إِنَّ أَمْرًا يُمْكِنُ

ضَعِيفٌ مَا ضَمِنْتَ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شَتَّ فَامَا أَنَا فَوْاللهِ
دُونَ أَنْ أَعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمُشْرِفَةِ تَطْبِيرٌ مِنْهُ فِرَاشُ الْهَلَامِ، وَتَطْبِيرُ السَّوَادِ
وَالْأَقْدَامُ، وَيَفْعُلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ.

إِيَّاهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًا، وَلَكُمْ عَلَىٰ حَقٍّ: فَامَا حَقُّكُمْ عَلَىٰ فَالنَّصِيحَةِ
لَكُمْ، وَتَوْفِيرِ فِتْنَتِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمَكُمْ كُلَّا بَحْثَهُوا، وَتَأْدِيسَكُمْ كَيْمًا
تَعْلَمُوا، وَامَا حَقُّ عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهِدِ وَالْمَغْبِبِ،
وَالإِجَابَةُ حِينَ ادْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمِرُوكُمْ.

أقول : روى أنّه عليه السلام خطب بهذه الخطبة بعد فراغه من أمر الخوارج وقد كان قام بالنهار وان فحمد الله وأثنى عليه وقال : أمّا بعد فإنَّ الله تعالى قد أحسن بنا نصركم فتوّجّهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام . فقالوا له : قد نفدت بنا ناراً و كلّت سيفونا ارجع بنا إلى مصرنا لتصحّ عدتنا ، ولعلَّ أمير المؤمنين يزيد في عدنا مثل من هلك مننا لنستعين به . فأجابهم « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم » ^(١) الآية فتكلّمُوا عليه وقالوا : إنَّ البرد شديد . فقال : إنّهم يجدون البرد كما تجدون أفعى لكم ثمَّ تلا قوله تعالى « قالوا يا موسى إنَّ فينا قوماً جبارين » ^(٢) الآية . فقام منهم ناس واعتذروا بكثره الجراح في الناس وطلبوه أن يرجع بهم إلى الكوفة أيامًا . ثمَّ يخرج بهم . فرجع بهم غير راضٍ وأنزلهم نخيلة . وأمرهم أن يرميوا معسكراً لهم ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم ويتقدّموا زيارة أهلهم . فلم يقبلوا وجعلوا

شرح الخطبه الثالثة والثلاثين

يتسللون ويدخلون الكوفة حتى لم يبق معه إلا القليل منهم . فلما رأى ذلك دخل الكوفة فخطب الناس . فقال : أيها الناس استعدوا لقتال عدو في جهادهم القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده . قوم حيارى عن الحق لا ينصرونه ، موزعين بالجحود والظلم لا يعادون به . جفاة عن الكتاب نكب عن الدين يعمهون في الطغيان ، و يتسلّعون في غمرة الفلال « فأعدوا و لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل و توكلوا على الله و كفى بالله و كيلا » . قال : فلم ينفروا . فتركتهم أياماً ثم خطبهم هذه الخطبة فقال : أَفْ لِكُمُ الْفَصْلُ . أَفْ : كلمة تضجر من الشيء . و غمرات الموت : سكراته التي يغمر فيها العقل . والذهول : النسيان والسهو . و يرتجع عليكم : أى يفاق . والحوال . المخاطبة . و تعمهون : تحيرون وتترددون . و المطلوس : المجنون والمختلط العقل . و سجين الليلي و سجين الأوجس : أى أبداً مدى الليلي . والزوافر : جمع زافرة ، وزافرة الرجل أنصاره وعشيرةه . و سعر : جمع ساعر ، و إسعار النار تهيجها وإلهابها . والامتعاض : الغضب . و حمس الوعي : اشتداد الحرب وجلبة الأصوات . و عرق اللحم أعرقه : إذا لم أبق على العظم منه شيئاً . و المشرفة : سيف منسوبي إلى مشارف : قرى من أرض العرب تدنو من الريف . و فراش الهم : العظام الرقيقة تلي القحف .

واعلم أنه لما أراد استئفارهم إلى الحرب . وكانوا كثيراً ما يتشاقلون عن دعوته استقبلهم بالتأنيف والتضجر بما لا يرتضيه من أفعالهم .
وقوله : لقد سئمت عتابكم .
تفسير بعض ما تألف منه .

وقوله : أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً ، وبالذلة من العزة خلفاً .
استفهم على سبيل الإنكار عليهم يستلزم الحث على الجهاد فإن الجهاد لما كان مستلزمًا لثواب الآخرة ولعزّة الجانب ، وخوف الأعداء ، والقعود عنه يستلزم في الأغلب السالم في الدنيا والبقاء فيها لكن مع طمع العدو فيهم وذلتهم له كانوا بعودتهم عنه كمن اعتاض الدنيا من الآخرة ، واستخلف الذلة من العزة . و ذلك مما لا يرضى به ذو عقل سليم . و عوضاً وخلفاً منصوبان على التمييز .

قوله : إذا دعوتم إلى جهاد عدوكم . إلى قوله : لا تعقلون .

تبكيت لهم و توبينج برذائل تعرض لهم عند دعائهم لهم إلى الجهاد .

الأولى : بأنه تدور أعينهم حيرة و ترددوا و خوفاً من أحد أمررين : إما مخالفة دعوه ، أو الإقدام على الموت . وفي كلا الأمررين خطر . ثم شبه حالتهم تلك في دوران أعينهم و حيرتهم بحال المغمور في سكرات الموت ، الساهي فيها عن حاضر أحواله ، المشغول بما يجده من الألم . و نحوه قوله تعالى « ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت »^(١) .

الثانية : أنه يرتج عليهم حواره ، و يرتج في موضع الحال و تعمهم عطف عليه أى يرتج عليكم فيتعিرون . ثم شبه حالهم عند دعائه إلى الجهاد تشبيها ثانياً بحال من اختلط عقله أى أنهم في حيرتهم و ترددتهم في جوابه كمختلط العقل ما يفقه ، ما يقول .

الثالثة : أنهم ليسوا له بشارة أبداً . و هو وصف لهم برذيلة الخلف والكذب المستلزم لعدم ثقته بأقوالهم .

الرابعة : كونهم ليسوا بـ ركن يميل به المستند إليه في خصمه . يقال : فلان رـ كـنـ شـدـيدـ . استعارة له من رـ كـنـ الجـبـلـ وهو جـانـبـ ما يـنـهـمـاـ منـ اـمـشارـكـةـ فيـ الشـدـدـةـ وـ اـمـتـنـاعـ المـعـتـصـمـ بـهـ . و نحوه قوله تعالى « أو أـنـ لـيـ بـكـمـ قـوـةـ أـوـ آـوـيـ إـلـىـ رـ كـنـ شـدـيدـ »^(٢) أـىـ قـوـىـ يـمـنـعـنـىـ مـنـكـمـ وـ هـوـ وـصـفـ بـالـتـخـازـلـ وـ الـعـجزـ .

الخامسة : ولا زوارف عز يفتقر إليهم . وهو وصف لهم برذيلة الذلة والحقارة .

السادسة : تشبيهم بـ بلـ ضـلـ رـعـانـهـ ، وـ إـيمـاءـ إـلـىـ وـجـهـ الشـبـهـ وـ هـوـ أـنـهـ كـلـمـاـ جـعـتـ مـنـ جـانـبـ اـنـتـشـرـتـ مـنـ جـانـبـ . إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـهـ ضـعـيفـواـ العـزـومـ مـتـشـتـتوـاـ الـأـراءـ لـاـ يـجـتـمـعـونـ عـلـىـ مـصـلـحـةـ بـهـ يـكـونـ نـظـامـ أـحـوـالـهـ فـيـ الدـارـيـنـ . وـ قـدـ عـلـمـتـ أـنـ ذـلـكـ مـنـ نـقصـانـ الـقـوـةـ الـعـلـمـيـةـ فـكـانـواـ مـنـهـاـ عـلـىـ رـذـيـلـةـ الـبـلـهـ .

السابعة : كونهم ليسوا بـ سـعـرـ نـارـ الـحـربـ : أـىـ لـيـسـواـ مـنـ رـجـالـهـ . وـ ذـلـكـ أـنـ مـدارـ الـحـربـ عـلـىـ الشـجـاعـةـ وـ الرـأـيـ . وـ قـدـ سـبـقـ مـنـهـ إـشـارـةـ إـلـىـ ذـمـمـهـ بـالـفـشـلـ وـ ضـعـفـ الرـأـيـ .

شرح الخطبة الثالثة والثلاثين

فإذن ليسوا من رجال الحرب ، ولما استعار لهيجان الحرب لفظ النار لما يستلزم منه من الأذى الشديد رشح تلك الاستعارة بذكر الأسعار ووصف رجالها به .

الثامنة : كونهم يكادون ولا يكيدون : أى يخدعون ويمكر بهم عدوهم في ايقاع الحيلة ، وليس لهم قوة المكر والحيلة به . و ذلك أيضاً من ردائلة ضعف الرأى .

الناسعة : كونهم تنقص أطرافهم فلا يمتعضون : أى يغار العدو في كل وقت على بعض بلادهم فيحوزها فلا يشق ذلك عليكم ولا يدركم منه أفة ولا حمية ، وهو وصف لهم برذيلة المهانة .

العاشرة : كونهم في غفلة ساهون مع انتباه عدوهم . وهو وصف لهم برذيلة الغفلة أيضاً عمّا يراد بهم ، وقلة عقليتهم مصالح أنفسهم ، وكل هذا التوبيخ تشريف لهم وتنبيه لنفوسهم الراقدة في مرافق طباعها على ما ينبغي لهم من المصالح التي يكون بها نظام أحوالهم على قانون الدين .

وقوله : غالب والله المتخاذلون .

تنبيه على أنّهم يتخذون سيفلبون . وأورد الغلب المطلق بعلمة التخاذل لأنّهم للحكم العام أشدّ قبولاً منهم له على أنفسهم إذ لو خصصهم به فقال غالبتم والله أنتخاذلتكم لم يكن وقوعه في الذوق كوقعه عاماً .

وقوله : وأيم الله . إلى قوله : انفراج الرأس .

أقسم أنه ليظنّ بهم أنّهم عند اشتداد الحرب وحرارة الموت ينفرجون عند انفراج الرأس : أى يتفرقون أشدّ تفرق . وانفراج الرأس مثل . قيل : أوّل من تكلّم به أكثم بن صيغى في وصيّة له : يا بنى لانفرجوا عند الشدائـد انفراج الرأس فإنّكم بعد ذلك لا تجتمعون على عزّ . وفي معناه أقوال .

أحدتها : قال ابن دريد : معناه أنّ الرأس إذا انفوج عن البدن لا يعود إليه ولا يكون بعده اتصال و ذلك أشدّ انفراج .

الثانى : قال المفضل : الرأس اسم رجل ينسب إليه قرية من قرى الشام يقال لها بيت الرأس وفيها يباع الخمر . قال حسان : كان سببه من بيت رأس يكون مزاجها

عسلاً و ماء

و بيان ما في كلامه عليه السلام من لطيف الحيلة المحمودة

-٨١-

وهذا الرجل قد انفوج عن قومه ومكانه فلم يعد إليه فضرب به المثل في المباينة والمقارقة .

الثالث : قال بعضهم : معناه أن الرأس إذا انفوج بعض عظامه عن بعض كان ذلك بعيد الاتمام والعود إلى الصحة .

الرابع : قال بعضهم : معناه انفوجتم عن رأساً أى بالكلية .

الخامس : قيل معناه : انفوج من يريد أن ينجو برأسه .

السادس : قيل معناه : انفوج امرأة عن رأس ولدها حالة الوضع فإنّه يكون في غاية من الشدة و تفرق الاتصال والانفوج . و نحوه قوله عليه السلام في موضع آخر : انفوج امرأة عن قبلها ، وعلى كل تقدير فمقصوده شدة انفصالمهم و تفرقهم عنه لهم أحوج ما يكون إليهم ، واستحرار الموت يحتمل أن يراد به شدّته الشبيهة بالحرارة مجازاً كما سبق ، ويحتمل أن يراد به خلوصه وحضوره فيكون اشتقاقه من العربية ، والجملة الشرطية خبر أن المخفة من المثقلة . و اسمها الضمير الشأن وهي مع اسمها و خبرها قائمة مقام مفعولي ظن ، وفيه توبيخ لهم على التقصير البالغ في حقه إلى حد أن يظن بهم الظن المذكور .

وقوله : والله إنّ أمراً . إلى قوله : إن شئت .

من لطيف الحيلة في الخطاب الموجب للانفعال عنه ؛ و ذلك أنه صور لهم أفعالهم من التخاذل على العدوّ والضعف وسائر أفعالهم المذمومة التي الفوا التوييج والتعمييف بعبارة ترجم إياها في أقبح صورة وأشدّها كراهة إليهم وأبلغها نكایة فيهم وهو تمكينهم للعدوّ من أنفسهم فإنّ أفعالهم من التخاذل ونحوه . وهي بعينها تمكين للعدوّ فيما يريد بهم وإعداد له و تقوية لحاله ، و ملأا كان من عادة ظفر العدوّ احتياج المال والقتل وتفرق الحال كنّى عن الأول بقوله : يعرق لحمده ، و وجه استعارة عرق اللحم لسلب المال بكلّيته ظاهر، وكذلك كنّى عن القتل وسائر أسباب الهلاك من فعل العدوّ بهم العظم ، وعن تمزيق الحال المنتظم بغير الجلد . ثمّ ملأا كان من البيّن أنّ تخاذلهم تمكين لعدوّهم منهم وكان تمكين إلاّ نسان لعدوّ من نفسه يفعل به الأفعال المنكرة لا يكون إلاّ

عن عجز عظيم وضعف في القلب عن مقاومته لا جرم أثبت العجز وضعف القلب لأمره ممكّن عدوه من نفسه وأكده ذلك بأنّ ، وبالقسم البار ، وكنتي بضعف القلب عن الجبن وأتي بذلك الإثبات على وجه عام لكلّ أمره فعل ذلك ولم يخصّهم بالخطاب ولا نسب تمكّن العدو إليهم صريحاً وإن كانوا هم المقصودين بذلك رجاء لنفارهم عن الدخول تحت هذا العموم بالانقياد لأمره والجهاد . ثم أرده بالأمر أن يكونوا بذلك أمراء الذي وصفه بما وصفه أمراً على سبيل التهديد والتنفير ، وذلك قوله : أنت فكن ذاك إن شئت . أى ذاك أمراء الموصوف بالعجز والضعف . خطاب للشخص المطلق الصادق على أيّ واحد منهم كان وأمر له أن يكون بصفة أمراء الموصوف أو لا تغيراً له عمما ذكره مما يلزم الإنسان من الأحوال الرديئة عند تمكّنه عدوه من نفسه . وروى : أنه خاطب بقوله : أنت فكن ذاك . الأشعث بن قيس . فإنه روى : أنه فال وهو يخطب ويلوم الناس عن تقاعدهم عن الحرب : هلاً فعلت فعل ابن عفان فقال عليه السلام له : إنّ فعل ابن عفان مخزنة على من لدين له ولا وثيقة معه ، وإنّ أمراءً ممكّن عدوه من نفسه يهشم عظمه ويفرى جلده لضعيّف رأيه ما فوق عقله أنت فكن ذاك إن شئت . الفصل .

وقوله . فأمّا أنا . إلى قوله : ما يشاء .

ما خيرهم أن يكونوا بذلك أمراء على سبيل التهديد أرده ذلك بالتبّع من حال أمراء المذكور ليكون لهم به عليه السلام أسوة في النفار عن تمكّن العدو من أنفسهم إلا بعد بذلك النفس في الجهاد أى على تقدير اختيار المخاطب تلك الحال فإنه هو لا يختار ذلك الحال بل دون أن يعطي عدوه من نفسه ذلك التمكّن ضرب بالمشورة يطير منه الهام وتطيح منه السواعد والأقدام ، وكل ذلك كنایة عن أشدّ المجاهدة ، ويفعل الله بعد ذلك الجهاد والمناجزة ما يشاء من تمكّن العدو أو عدم تمكّنه فإنّ إليه مصير الأمور وعواقبها .

وقوله : أيّها الناس . إلى آخره .

ذكر ما لهم عليه من الحقّ وماله عليهم منه ليعرفهم أنه أدى ما عليه من الواجب لهم فينبغي لهم أن يخرجوا إليه من واجب حقّه الذي فرض الله عليهم فبدء ببيان حقوقهم

عليه أدباً و استدراجاً لطبياعهم فإنّ البداية بحقّ الغير قبل حقّ النفس أليق بالآدب وهم لسماعه أقبل . فذكر منها أربعة أمور بها يكون صلاح حالهم في الدارين . أحدها : النصيحة لهم وهي حشمتهم على مكارم الأخلاق وجذبهم إلى ما هو الأليق بهم في معاشهم و معادهم .

الثاني : توفير فيهم عليهم بترك ظلمهم فيه و تفريقه في غير وجهه مما ليس بمصلحة لهم كما نسبوه إلى من كان قبله .

الثالث : تعليمهم كيلا يجهلوا . وإن مالم يقلّ كيما يعلموا لأنّ ظهور المنشأ عليهم يذكر نفي الجهل عنهم أشدّ من ظهورها في ذكر عرض إيجاد العلم لهم ولذلك كان تأذى الرجل وأنتهت من أن يقال له : ياجاهل . أشدّ بكثير من نثار من يقال له : لست بعالماً .

الرابع : تأديبهم كيما يعملا . فهذه الأمور الأربع هي الواجبة على الإمام للرعاية واحد منها يرجع إلى صلاح أبدانهم و قواهم : وهو توفير فيهم عليهم بضبطه ، و عدم التصرف فيه لغير وجوه مصالحهم . و إثنان يرجعان إلى صلاح حال نفوسهم إمام من جهة إصلاح القوة النظرية : وهو التعليم لغرض العلم أو من جهة إصلاح القوة العملية وهو التأديب لغرض العمل . و واحد مشترك بين مصلحتي البدن والنفس ونظام أحوالهما وهو النصيحة لهم . ثم أردد ذلك بيان حقّه بيانه و ذكر أيضاً أربعة .

الأول : الوفاء بالبيعة وهي أهمّ الأمور إذ بها النظام الكلّي الجامع لهم معه .

الثاني : النصيحة له في غيته وحضوره والذبّ عنه إن بذلك نظم شمل المصلحة بينهم وبينه أيضاً .

الثالث : إجابتـه حين يدعوهـم من غير تـشـافـل عن نـدائـه فـإنـ للـتـشـافـل عن دـعـوـتـه ما عـلـمـتـ من قـهـرـ العـدوـ . و غـلـبـتـه عـلـيـهـمـ وـفـوـاتـ مـصـالـحـ عـظـيمـةـ .

الرابع : طاعتهمـ لهـ حينـ يـأـمـرـهـ ، وـ ظـاهـرـ أـنـ شـمـلـ المـصـلـحـةـ لاـ يـنـتـظـمـ بـدـونـ ذـلـكـ . وـ أـنـتـ تـعـلـمـ بـأـدـنـيـ تـأـمـلـ أـنـ هـذـهـ الـأـمـورـ الـأـرـبـعـةـ وـ إـنـ كـانـتـ حـقـوقـاـ لـهـ عـلـيـهـمـ إـلـاـ أـنـهـ إـنـماـ يـطـلـبـهـ مـنـهـمـ مـاـ يـعـودـ عـلـيـهـمـ بـهـ مـنـ النـفـعـ فـيـ الدـنـيـاـ وـ الـآـخـرـةـ فـإـنـ الـوـفـاءـ مـلـكـةـ تـحـتـ العـفـةـ وـ النـصـيـحةـ لـهـ سـبـبـ لـاـنـتـظـامـ أـمـورـهـ بـهـ وـ إـجـابـةـ دـعـوـتـهـ إـجـابـةـ لـدـاعـيـ اللهـ الـجـاذـبـ

إلى الخير و المصلحة ، وكذلك طاعة أمره طاعة لأمر الله إِذْ هُوَ الناطق بِهِ ، وقد علمت ما تستلزم إِطاعة الله من الكراهة عندـه . و بِاللهِ التوفيق و العصمة .

٣٤ - فَقْرَنْ حَطَبَتِهِ عَلَيْهِ الْسَّلَامَةُ

بعد التحريم

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنَّ أَنَّ الدَّهْرَ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ ، وَالْحَدِيثِ الْجَلِيلِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مُعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالَمِ الْجَرِبِ تُورُثُ الْمِيَرَةَ ،
وَتُعَقِّبُ التَّدَامَةَ . وَقَدْ كُنْتُ أَمْرَتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَخْلَتُ لَكُمْ
مَخْزُونَ رَأْيِي ، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ : فَأَقْرَأْتُمْ عَلَيْهِ إِيمَانَ الْخَالِفِينَ الْجَنَانَ ،
وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاهَ ، حَتَّى أَرْتَابَ النَّاصِحِ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ الرَّازِدُ بِقَدْحِهِ ،
فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازَنَ : -

أَمْرَتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعِرِجِ الْلَّوَى فَلَمْ تَسْتَبِّنُوا النَّصْحَ إِلَّا ضُحِيَ الْغَدِ

أقول : روى أنَّ عمرو بن العاص و أبو موسى الأشعري لما التقى بدومة الجندي
و قد حكمـا في أمر الناس كان على يومـنـ قد دخل الكوفـةـ يـنتـظرـ ما يـحـكمـانـ بهـ . فـلـما
تمـتـ خـدـعـةـ عمـرـ و لاـ بيـ مـوسـىـ و بلـغـهـ ذـلـكـ اـغـتـمـ لهـ غـمـاـ شـدـيدـاـ و وجـمـ منهـ و قـامـ
فـخطـبـ النـاسـ . فـقالـ : الـحـمـدـلـهـ . الفـصـلـ . وزـادـ بـعـدـ الـاستـشـهـادـ بـبـيـتـ درـيدـ فيـ بعضـ الـروـاـيـاتـ :
أـلـاـ إـنـ هـذـيـنـ الرـجـلـيـنـ الـلـذـيـنـ اـخـتـرـتـمـوـهـماـ قـدـ نـبـذـاـ حـكـمـ الـكـتـابـ وـ أـحـيـاـ مـاـ أـمـاتـ

و اتبع كلّ واحدٍ منها هواه و حكم بغير حجة ولا بيضة ماضية و اختلفا فيما حكما فكلاهما لم يرشدا الله . فاستعدوا للجهاد و تأهبوا للمسير و أصبحوا في معسكركم يوم كذا . وأمّا قصة التحكيم و سببها فمدّوكور في التواريخ .

والخطب : الأمر العظيم . و فدحه الأمر : إذا عاله و أبهظه . و العجافي : خشن الطباع الذي ينبعوا طبعه عن المؤانسة فيقطاع و بيان .
قوله : الحمد لله . إلى قوله : الجليل .

قد عرفت نسبة الخير والشر إلى الدهر على أيّ وجه هي ، و مراده أحمد الله على كلّ حال من السرّاء والضرّاء . وإن هنا للغاية . و يفهم من هذا الصدر و قوع الخطب الفادح وهو ما وقع من أمر الحكمين . و محمد الله عليه .

وقوله : ليس معه إله غيره .

تأكيد لمعنى كلمة التوحيد و تقرير مقتضاه .

و قوله : أمّا بعد . إلى قوله : الندامة .

القيود الأربع التي ذكرها من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي و وجوب قبوله : أمّا كونه ناصحاً فلأنَ الناصح يصدق الفكر و يمحض الرأي و غير الناصح ربّما يشير بغضير الرأي فيوقع في المضرة ، و أمّا كونه شفيراً فلأنَ الشفقة تحمل على النصح فتحمل على حسن التروي في الأمر و ايقاع الرأي فيه من تثبيت و اجتهاد . و الباعث على هذين أعني النصح والشفقة إمّا الدين أو محبة المستشير ، و أمّا كونه عالماً ففائدته إصابت لعلمه وجه المصلحة في الأمر فإنَ العاجلُ أعمى لا يبصر وجه المصلحة فيه . قال رسول الله ﷺ : استرشدوا العاقل ترشدوا و لا تعصوه فتندعوا ، وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد : احذر مشورة العاجل وإن كان ناصحاً كما تحذر عداوة العدو العاقل فاته كما يوشك أن يقع بك مكر العاقل كذلك يوشك أن يورّتك شور العاجل ، و أمّا كونه مجرّباً فلا تنه لا يتم رأي العالم ما لم ينضم إليه التجربة . وذلك أنَ العالم وإن علم وجه المصلحة في الأمر إلا أنَ ذلك الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد لا يطلع عليه إلا بالتجربة مرّة و مرّة فالمشورة من دون تجربة مظننة الخطاء ، و قيل

شرح الخطبة الرابعة والثلاثين

في منشور الحكم : كل شيء يحتاج إلى العقل والعمل يحتاج إلى التجارب . وإذا عرفت أن طاعة المشير الموصوف بالصفات المذكورة مستلزمة في أغلب الأحوال للسرور بحسن ثمرة رأيه و الفوز بها لا جرم كان معصيته و مخالفة رأيه مستلزمة للحسرة مستعقبة للندامة . و قوله : وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى .

لما قدم أنّ معصية المشير المذكور تعقب الحسرة والندامة أردف ذلك ببيان أنه هو المشير وأنه أشار عليهم فخالفوه ليتبين لهم أنّهم عصوا مشيرا قد استكملا شرائط الرأى فيتوقعوا الندم على معصيته .

و قوله : و نخل لكم مخزون رأيي .

استعارة للفظ النخل لاستخلاص أسد الرأى وأجودها لهم بحسب اجتهاده ، ووجه المشابهة أنّ أجود ما ينفع به مما ينخل من دقيق و نحوه هو المنخول كذلك الرأى أجوده و أفعده ما استخلص وصفى من كدورات الشهوة والغضب .

و قوله : لو كان يطاع لقصير أمر .

مثل . وقصير هذا هو قصير بن سعد اللخمي مولى جذيمة البارش بعض ملوك العرب . وأصل المثل أنّ جذيمة كان قتل أبي الزباء ملكة الجزيرة فبعثت إليه عن حين ليتزوج بها خدعة و سأله القديوم فأجابها إلى ذلك ، وخرج في ألف فارس و خلف باقي جنوده مع ابن أخيه عمرو بن عدّى ، وكان قصير أشار إلى جذيمة أن لا يتوجه إليها فلم يقبل رأيه فلما قرب جذيمة من الجزيرة استقبله جنود الزباء بالعدّة و لم ير منهم إكراماً له فأشار عليه قصير بالرجوع عنها ، وقال : إنها إمرأة و من شأن النساء الغدر . فلم يقبل . فلما دخل إليها غدرت به و قتلتة . فعندها قال قصير : لا يطاع لقصير أمر .

فذهبت مثلاً لكل ناصح عصى و هو مصيبة في رأيه . وقد يتوجه أنّ جواب لوهيبنا متقدم ، و الحق أنّ جوابها محنون و المعنى يتضح بترتيب الكلام ، والتقدير إنّي كنت أمرتكم أمري في هذه الحكومة و نصحت لكم فلو اطعتموني لفعلتم ما أمرتكم به ومحضت لكم النصيحة فيه ، فقولنا : لفعلتم هو تقدير الجواب ، و مما ينبه عليه أنّ قوله : فأبيتم على إباء المخالفين الجفاوة و المناذدين العصاة . وهو في تقدير استثناء نقيس ذلك

التالي ، و تقديره لكمكم أبitem على " إباء من خالف الأمر و جفا المشير و عصاه حتى شاك" في نصحه هل كان صواباً أو خطأ . وهذا الحكم حق " فإن" المشير بالرأي الصواب إذ أكثر مخالفوه فيه قد يتهم نفسه في صحة ذلك الرأي و صوابه لأن" استخراج وجه المصلحة في الأمر أمر اجتهادي" يغلب على الظن" بكثره الأمارات اللاحية للمشير فإذا جوز المشير أن يكون خلاف ما رأاه هو المصلحة فلا مانع إذن أن يعرض لغيره . أمارات أخرى يغلب على ظنه أن ما رأاه هو ليس بمصلحة فيعارض بها ما رأاه الأول حفاظاً و يخالفه في رأيه فإذا كثرت تلك المخالفة من جمع عظيم جاز أن يتشكل الإنسان فيما ظنه من المصلحة أنه ليس بمصلحته وأن" الأمارات التي اقتضت ذلك الظن" غير صحيحة فلذلك قال عليهما : حتى ارتاب الناصح بنصحه . وعني بالناصح نفسه أو من رأى رأيه لا إبطاق أكثر أصحابه على مخالفتهم ، و قال بعض الشارحين : يحمل ذلك على المبالغة لأنه عليهما منزلة عن أن يشك" فيما يراه صواباً بعد شوره به .

وقوله : و ضن" الزند بقدرها .

قيل : هو مثل يضرب ملن يدخل بفوائده إذا لم يجد لها قابلاً عارفاً بحقها أو لم يتمكن من إفادتها فإن" المشير إذا اتهم واستغش أو خطئ في رأيه ربما لا ينقدح له بعد ذلك رأى صالح لحكم الغضب عليه من جهة مخالفته وعدم قبول رأيه . ولما كان غرضه أن يقر عليهم الندامة في مخالفة رأيه و يردهم ثمرة عصيان أمره الصادر عن معاناة وجه المصلحة كما هو قال : فكنت وإياكم كما قال أخوه هوازن : أمرهم أمرى . البيت ، و هولدريد بن الصمة من قصيدة له في الحماسة أولها :

نصحت لعارض و أصحاب عارض و رهط بنى السوداء و القوم سهد
و قصته في هذه القصيدة أن" أخاه عبد الله بن الصمة غزا بنى بكر بن هوازن بن غطفان فعم منهم و استفاق إبلهم فلما كان بمنعرج اللوى قال : لا والله لا أبرح حتى أنحر البقعة وهي ما ينحر من النهب قبل القسمة ، و أحيل السهام . فقال له أخوه دريد : لا تفعل . فإن" القوم في طليك . فأبى عليه و أقام و أنحر البقعة و بات فلما أصبح هجم القوم عليه و طعن عبد الله بن صمة فاستغاث بأخيه دريد فتهنئ عنه القوم حتى طعن هو

شرح الخطبة الرابعة والثلاثين

أيضاً و صرع و قتل عبدالله و حال الليل بين القوم فنجا دريد بعد طعنات و جراح حصل له فقال القصيدة ، وإنما قال عليه السلام : أخوه هوازن . لنسبته إليهم فإن دريداً ابن الصمة بن بنى جشم بن معاویة بن بكر بن هوازن . و نحوه قوله تعالى « وَذُكْرُ أَخَا عَادٍ » لنسبته فيهم وكذلك قال لهم أخوه لوط و يكفي في إطلاق لفظ الأخوة مجازاً مجرد الاتصال بهم و الملاسة لهم وقد عرفت ذلك ، و وجه تمثيله عليه السلام بالبيت : إني كنت وإياكم في نصيحتي و نهبي من الحكومة و مخالفتكم أمرى المستلزمة لندايتكم على التفريط كهذا القائل مع قومه حيث نصح لهم فعصوه فلحقهم من الندامة و الهلاك .

و اعلم أنَّ الذي كان وأشار به على أصحابه : هو ترك الحكومة و الصبر على قتال أهل الشام . و محل السبب أنَّ أمارات الغلبة ليلة الهرير كانت لايحة على أهل الشام فلما عاينوا الهلاك استشار معاویة بعمرو بن العاص في كيفية الخلاص فقال عمرو : إنَّ رجالك لا تقوم لرجاله ، و لست مثله إني يقاتلك على أمر و أنت تقاتله على غيره و أنت تريد البقاء و هو يريده النقاء ، و أهل العراق يبغون منك إن ظفرت بهم وأهل الشام لا يخافون عليك إن ظفر بهم ؛ ولكن ألق إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا و إن ردوا اختلفوا : ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك و بينهم فإني بالغ به حاجتك فإني لم أزل أذكر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه فعِفْ معاویة ذلك فلما أصبحوا رفعوا المصاحف على أطراف الرماح و كان عددها خمس مائة مصحف و رفعوا مصحف المسجد الأعظم على ثلاثة رماح مشدودة يمسكها عشرة رهط و نادوا بأجمعهم : الله الله مبشر العرب في النساء و البنات الله الله دينكم هذا كتاب الله بيننا و بينكم . فقال عليه السلام : إني تعلم أنتم ما الكتاب يريدون فاحكم بيننا و بينهم إني أنت الحكم الحق المبين ، و حينئذ اختلف أصحابه فقالت طائفة : القتال القتال ، و قال أكثرهم : المحاكمة إلى الكتاب و لا يحل لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب و تنددوا من كل جانب المواجهة فقال عليه السلام في جوابهم : أيها الناس إني أحق من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاویة و عمرو بن العاص و ابن أبي معيط ليسوا بأصحاب دين و لا قرآن إني أعرف بهم منكم صحبتهم صغاراً و رجالاً فكانوا شر صغار و شر رجال و يحكمكم إتها كلمة حق يراد بها

الباطل إنهم ما رفعوها إنهم يعرفونها ولا يعلمون بها ولكنها الحديعة والمكيدة والوهن
أعيروني سواعدكم وبحاجبكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطوعه ولم يبق إلا أن يقطع
دابر القوم الظالمين ، فجاءه عشرون ألفاً من أصحابه ونادوه باسمه دون إمرة المؤمنين :
أجب اليوم إلى كتاب الله إذا دعيت وإلا قتلناك كما قتلنا عثمان . فقال عليه السلام : ويحكم
أنا أول من أجاب إلى كتاب الله ، وأول من دعا إليه فكيف لا أقبله و إنما قاتلتهم
ليديبو بحكم القرآن ولكنني قد أعلمتكم أنهم قد كادوا لكم وليس العمل بالقرآن يربدون .
قالوا : أبعث إلى الأشرى يأتيك . وقد كان الأشتري صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر
معاوية ليدخله ولاح له الظفر فبعث إليه فرجع على كره منه ووقع بينه وبين من أجاب
إلى الحكومة من أصحاب علي عليه السلام مساب عليه السلام ومجادلات على ما اختاروا من ترك العرب
وتنددوا من كل جانب رضي أمير المؤمنين بالتحكيم وكتبوا عهداً على الرضايه ،
وسند ذكر كيفية إيجاد إنشاء الله تعالى . و بالله التوفيق .

٣٥ - فِي نَحْوِيْفِ أَهْلِ النَّهْرَوَانِ

(في نحويف أهل النهروان)

فَإِنَّا نَذِيرُكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ ، وَبَاهْضَامِ هَذَا الْقَائِطِ
عَلَى غَيْرِ يَدِنَّةِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا سُلْطَانٌ مِنْ مَعْكُمْ : قَدْ طَوَّحْتُمْ بِكُمُ الدَّارَ
وَأَخْبَلْتُمُ الْمَقْدَارُ ، وَقَدْ كُنْتُ نَهِيَّكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَإِيْتُمْ عَلَى إِيَّاهُ
الْخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ ، حَتَّىٰ صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَىٰ هَوَّا كُمْ ، وَاتَّمْ مَعَاشِرَ أَخْفَاءَ
الْهَامِ ، سُفَهَاءَ الْأَهْلَامِ وَمَآتَ - لَا أَبَالَكُمْ - بُجْراً ، وَلَا أَرْدَتُ
لَكُمْ ضَرًا .

أقول : الخطاب للمخوارج الذين قتلهم عليه السلام بالنهروان ، وقد كان القضاء الإلهي

سبق فيهم بما كان منهم من الخروج . روي في صحيح الأخبار أنَّ رسول الله ﷺ يبناه بـ^{الْفَلَقِي} : يقسم قسمًا جاءه رجل من بنى تميم يقال له ذو الخووصرة فقال : أعدل يا مُحَمَّدٌ فقال ^{بِالْفَلَقِي} : قد عدلت . فقال له ثانية : أعدل يا مُحَمَّدٌ فـ^{إِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ} . فقال ^{بِالْفَلَقِي} : وبـ^{إِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ} من بعدك إذا لم أعدل . فقام عمر وقال : يارسول الله أئذن لي في ضرب عنقه . فقال : دعه فسيخرج من ضصيَّه هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يخرجون على خير فرقة من الناس تحقر صلاتكم عند صلاتهم وصومكم عند صومهم يفرون القرآن لا يجاوز تراقيهم فيهم رجل أسود مخدج اليدي إحدى يديه كأنَّها ثدي إمرأة أو بضعة يقتله أولى الفريقين بالحق . وفي مسند أحمد عنه عن مسروق قال : قالت لي عاشرة : إنَّكَ من ولدي وأحبّهم إليَّ فهل عندك علم من المخدج . قفت : نعم قتلته على بن أبي طالب على نهر يقال لأعلاه تأmer و لأسفه النبروان بين لخاقيق و طرفاء . فقالت : أيتنى على ذلك بيستنة . فأقمت على ذلك رجالاً شهدوا عندها بذلك ثم قلت لها : سألك بصاحب القبر ما الذي سمعت منه فيهم . قالت : سمعته يقول : إنَّهم شرُّ الخلق و الخليقة يقتلهم خير الخلق و الخليقة ، و أقربهم عند الله وسيلة . فأمَّا سبب خروج هؤلاء القوم فهو أنَّه ^{بِالْفَلَقِي} لما قبره أصحابه على التحكيم و أظهروا عنده الرضى به بعد أنْ حذرهم ووعظهم فلم يلتقطوا كتاب التحكيم وأخذنه الأشعث بن قيس فطاف به على أصحاب معاوية فرضوا به ، وطاف به على أصحاب عليٍّ فرضوا به حتى مرَّ برأيات عنزه و كان مع عليٍّ ^{بِالْفَلَقِي} منهم بصفين أربعة آلاف فارس فلما قرأ الكتاب عليهم قال قتيان منهم : لاحكم إلا الله ثم حمل على أصحاب معاوية فقتلوا فيما أوْلَى من حكم ، ثم مرَّ على مراد ، ثم على رأيات بنى راسب ، ثم على بنى تميم فكلَّ فرقه فرأى عليهم قالوا : لاحكم إلا الله لا ترضى ولا تحكم الرجال في دين الله فرجع الأشعث فأخبر علياً ^{بِالْفَلَقِي} بذلك فاستصغر أمرهم وظن أنَّهم قليلون ، فلما بلغهم أمر الحكمين ما رأوه إلا و الناس يتنادون من كلِّ جانب لاحكم إلا الله الحكم الله ياعليٍّ لا لك وقد كنا أخطأنا حين رضينا بالحكمين فرجعنا إلى الله و تبنا فارجع أنت و تب إلى الله كما تبنا و إلا بـ^{إِنَّا} منك . فأبى ^{بِالْفَلَقِي} الرجوع ، وقال : ويحكم أبعد العهد نرجع فما نصنع بقوله تعالى «أوفوا بعهد الله إذا عاهدتُم »^(١) الآية و أبت الخوارج إلا تضليل التحكيم

و الطعن فيه فبرئوا من علىٰ و بريء منهم ثمٰ كان اجتماعهم بحرور فسمّاهم عَلَيْهِ لذلک الحزرونية فناظرهم بها فرجع منهم ألفان ثمٰ مضوا إلى النهر و كان أميرهم يومئذ عبد الله بن الكوَا، و حين القتال عبدالله بن وهب الراسبي فسار إليهم فخطبهم وقال : نحن أهل بيت النبوة و موضع الرسالة و مختلف الملائكة و عنصر الرحمة و معدن العلم والحكمة أيها القوم إني نذير لكم . الفصل ، وروى أنه عَلَيْهِ مَا قتلهم طلب ذو الثدية فيهم طلباً شديداً فلم يجده فجعل يقول : و الله ما كذب ولا كذبت اطلبوا الرجل فإنه لفي القوم . فلم يزل يطلبه حتى وجده في ودهة من الأرض تحت القتلى وهو رجل مخدج اليد كأنها ثدي في صدره و عليها شعرات كسبال الهرة فكبّر عليٰ عَلَيْهِ و كبر الناس معه و سرّوا بذلك .

الأهضام : جمع هضم و هو المطمئن من الوادي . و الغائط : ما سفل من الأرض . و طوّحت بكم : أي توّهتم في أموركم و رمت بكم المرامي . و احتبلكم : أوقعكم في الحبالة . و النكّر : المنكر ، و يروى بحراً . و البحر : الأمر العظيم و الداهية ، و يروى بحراً : وهو الساقط من القول ، و يروى عرًّا . و العرّ و المعرّة : الإثم ، و العرّ أيضاً : داء يأخذ الإبل في مشافرها و يستعازل للداهية .

و اعلم أنّ حاصل هذا الفصل تحذير للقوم من الهلاك وهم على غير يسنة من ربّهم ولا حجة واضحة يحتاجون بها على ما يدعونه حقاً و يقاتلون عليه و ذلك مما يجب الحذر منه إذ فيه حرمان سعادة الدارين ، و إنما سميت الحجة نفسها سلطاناً لأنّ بها الغلبة و التسلط و هو من باب الاستعارة .

وقوله : قد طوّحت بكم الدار .

كتى بالدار عن الدنيا و إنما نسب هلاكم أو إبعادهم و رميهم إليها لأنّ المهمك لهم والواجب لتهم إنما هو اتباع أهوائهم الباطلة التي منشؤها إنما هو تحصيل أمر دنيوي من مال أو جاءه و نحوه فكانت الدنيا هي التي رمت بهم المرامي عن رحمة الله و أخرجتهم عن طاعته .

وقوله : و احتبلكم المقدار .

من كلام له توكيل بجري مجرى الخطبة

استعارة حسنة لإحاطة القدر النازل عن قضاء الله بهم فهو كحبالة الصايد التي لا يخرج للطابير منها إذا تزلت به .

وقوله : كنت نهيتكم عن هذه الحكومة . إلى قوله : إلى هواكم .

تقرير للحجّة عليهم و كأنّه يقول لهم : إن كان الحقّ هو عدم الحكومة فلم طلبتموها وأبىتم على إباء المخالفين المناذدين لما نهيتكم عنها حتى صرت إلى أهوائكم فيها ، وإن كان الحقّ هو ايقاعها فلم شاققتموني الآن لما أوقعتها و جعلت الله على بها عهداً . وعلى القديرين يلزمهم الخطاء ،

وقوله : و أنتم معاشر أخفاء الهمام سفهاء الأحلام .

الواو للحال والعامل صرف ، والإضافة في أخفاء و سفهاء غير محضة و لذلك صحّ كونهما و صفين معاشر ، وخفّة الهمامة كنائية عن رذيلة الطيش المقابلة لفضيلة الثبات ، والسفه رذيلة مقابلة للحلم ، والثبات والحمل فضيلتان تحت ملكة الشجاعة ، و لما كانت لهاتين الرذيلتين نسبة إلى الفضيلتين صح إضافتها إليهما .

وقوله : ولم آت - لا أبا لكم - نكراً ولا أردت بكم ضرّاً .

خرج مخرج الاعتذار إليهم واستدراجهم بيان تحسين فعله و نفي المنكر عنه و عدم قصد الإساءة إليهم ليرجعوا عمّا شبه إليهم ، و قوله : لا أباً لكم كلمة اعتيدت في ألسنة العرب . قال الجوهري : يراد بها المدح ، وقال غيره : يراد بها الذم فإن عدم اللجوء بأب يستلزم العار والسبّ ، وقيل : هي دعاء على المرء أن لا يكون له أب يعزّه ويشدّ ظهره و نفي الأب يستلزم نفي العشيرة له فكانه دعاء بالذلّ و عدم الناصر . والله أعلم .

٣٦ - قِمْزِ كَلَامِنَةِ عَلَيْنِهِ الْسِّنَّةِ الْأُخْرَى

يجري مجرى الخطبة

فقمت بالأمر حين فشلوا ، وتطلعت حين تقبعوا ، وسقطت حين منعوا

وَمُضِيَتْ بُنُورُ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا . وَكُنْتُ أَخْفَضُهُمْ صَوْتاً ، وَأَعْلَمُهُمْ فَوْتاً
 فَطَرْتُ بِعِنَانِهَا ، وَاسْتَبَدَتْ بِرِهَانِهَا ، كَأَجْبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْغَوَاصُ ، وَلَا
 تُزِيلُهُ الْغَوَاصُ : لَمْ يَكُنْ لَّا حَدَّ فِي مَهْمَمَةٍ ، وَلَا لِقَاتِلٍ فِي مَعْمَزٍ ، الْذَّلِيلُ
 عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ ،
 وَضَيَّنَا عَنَّ اللَّهِ قَضَاءَهُ ، وَسَلَّمَنَا اللَّهُ امْرَهُ ، أَتَرَأَى أَكْذَبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَآلِهِ ؟ وَاللَّهُ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَقَهُ فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .
 فَنَظَرْتُ فِي أَمْرٍ فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ يَعْتِي ، وَإِذَا مَيْتَاقُ فِي عَنْقِي لَغَيْرِي .

أقول : التعتعة : الاضطراب في الكلام عند الحسر . وتطلع الأمر : اختباره وتعريفه .
 والتقبّع : التقبّض . يقال : قبع القنف إذا قبض رأسه بين كتفيه . و الاستبداد : الانفراد .
 والرهان : ما يرهن ويستبق عليه . و الهمز : الغيبة بالعيوب ، وكذلك الغمز .
 قال بعض الشارحين : هذا الفصل فيه فضول أربعة التقاطها الرضى رحمه الله من كلام
 طويل له تَبَلَّغَ قاله بعد وقعة النهر وان ذكر فيه حاله منذ توفي رسول الله مَاتَ الشَّهِيدُ إِلَى
 آخر وقته .

الفصل الأول : فقمت بالأمر حين فشلوا . إلى قوله : برهانها .
 هذا الكلام ورد في معرض افتخاره و إثبات فضيلته على سائر الصحابة لغاية قبول
 رأيه . فقيامه بالأمر حين فشلهم إشارة إلى فضيلة شجاعته : أي فقمت بأمر الله حين يدبر رسوله
 وبعده في الحروب و المقامات الصعبة التي ضعفوا عنها والأوقات التي فشلوا فيها وأمره
 في ذلك ظاهر .

وقوله : و نطقت حين تعتعوا [تمنعوا خ] .
 إشارة إلى ملكة الفصاحة المستتبعة ملكة العلم : أي نطقت في القضايا المهمة

والأحكام المشكّلة والمقابل التي حصرت فيها بلغاؤهم، فكتّى بنطّه وتعتّعّتهم عن
فضاحتهم وعيّهم .
وقوله تطلّع حين تقبّعوا .

إشارة إلى كبر الهمة في تحصيل ما ينبغي للإنسان أن يحصله من تعرّف
الآمور واختبارها والنظر في مصادرها ومواردها؛ وهي ملكة تحت الشجاعة ، ولما
كان التطلّع على الأمر يحتاج الإنسان فيه إلى نحو من التطاول و مد العنق وتحديق
العين ونحوه ، وكان تعرّف الآمور واختبارها لابدّ فيه من بعث رائد الفكر الذي هو
عين النفس التي بها يبصر وتحديقه نحو الآمور المعقوله و إرسال المتخيلة لتفتيش
خرائن المحسوسات أشبه ذلك التطلّع فاستعار له لفظ التطلّع وكتّى به عنه ، و قوله :
حين تقبّعوا . أي كان تعرّف في الآمور حين قصورهم عن ذلك ، ولما كان التقبّع يقابل
مد العين والتطاول إلى رؤية الأشياء المسمى تطلّعا ، وكان قصور أفكارهم وعدم اعتبارهم
للأشياء يقابل مد الفكر و تطاول الذهن إلى معرفة الآمور و كان قصور الفكر أيضاً
والعجز عن المعرفة يشبه التقبّع استعار لفظ التقبّع وكتّى به عنه .
وقوله : ومضيت بنور الله حين وقفوا .

إشارة إلى فضيلة العلم أي كان سلوكى لسبيل الحق على وفق العلم و هو نور الله
الذى لا يضلّ من اهتدى به . و ذلك حين وقفوا حائرين متربّدين جاهلين بالقصد
وكيفيّة سلوك الطريق . و إنّما أثبت لنفسه هذه الفضائل و قرن كلّ فضيلة له برذيلة
فيهم يقابلها لتبين فضلها بالنسبة إليهم إذ كان الغرض ذلك .
وقوله : و كنت أخفضهم صوتا وأعلّهم صوتا .

كتّى بخفض الصوت عن ربط الجأش في الآمور والثبات فيها و التصميم على فعل
ما ينبغي من غير التفات إلى الحوادث [الجواذب خ] و الموانع على فعل ما هو خير
و مصلحة فإن كثرة الأصوات و علوّها في الأفعال التي هي مظنة الخوف دليل الفشل ،
ولا شكّ أنّ من كان أشدّ في ذلك كان أعلى صوتا وأشدّ سبقا إلى مراتب الكمال و درجات
السعادة ممّن كان أضعف فيه .

وقوله : فطرت بعنانها و استبدلت برهانها .

الضميران يعودان إلى الفضيلة وإن لم يجعلها ذكر لفظي فاستعار هيئها لفظ الطيران للسبق العقلي لما يشتراك فيه من معنى السرعة ، واستعار لفظي العنان والرهان اللذين هما من متعلقات الخيل للفضيلة التي استكملتها نفسه تشبيها لها مع فضائل نفوسهم بخيل الحلبة ، وجه المشابهة أن الصحابة - رضي الله عنهم - لما كانوا يقتلون القتائل و يستبقون بها إلى رضوان الله و سعادات الآخرة كانت فضائلهم التي عليهما يستبقون كخيل الرهان ، ولما كانت فضيلته عَلَيْهِ الْمُبَرَّأَةُ أكمل فضائلهم وأتمها كانت بالنسبة إلى فضائلهم كالفرس الذي لا يشق غباره . فحسن منه أن يستعيض لسبقه بها لفظ الطيران ، و يجري عليها لفظ العنان و الرهان .

الفصل الثاني : قوله : لا تحر كه القواص . إلى قوله : آخذ الحق منه .
وهذا الفصل يحكي فيه قيامه بأعباء الخلافة حين انتهائها إليه وجريه فيها على القانون العدل والأمر الإلهية . فقوله : كالجبل . تشبيه له في الثبات على الحق بالجبل فكمالاً تحر كه القواص الرياح وعواصفها كذلك هو لا تحر كه عن سوء السبيل مراعاة هوى لأحد أو اتباع طبع يخالف ما يقتضيه سنة الله وشرعه بل هو ثابت على القانون العدل وموافقة الأمر الإلهي .

وقوله : لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز .
أي لم يكن في عيب أعاد به . وقد راعى في هذه القرائن الأربع مع الأربع الأخيرة من الفصل الأول السجع المتوازي .

وقوله : الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له .
إعزازه للذليل اعتناؤه بحاله و إهتمامه بأمر ظلامته ، ومن اعتنی بحال إنسان فقد أعزه ثم جعل لا إعزازه غاية هي آخذ الحق له ، وكذلك قوله : و القوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه ، فإن ضعف القوى هو قهره تحت حكمه إلى غاية يستوفى منه حق المظلوم .

فإن قلت : يفهم من هاتين الغايتين أن نظره إلى الذليل بعد استيفاء حقه و إني

القوى بعد أخذ الحق منه لا يكون على السواء بل يكون التفاوت إلى القوى أكثر وذلك ليس من العدل .

قلت : إنما يُكن الغرض من الأمر بمساواة النظر بين المخلوق إلا أخذ حق الضعيف من القوى و عدم التظام بينهم لم تجب مساواة النظر بين الضعيف والقوى إلا من تلك الجهة . ولم يكن إعزازه القوى وإكرامه في غير وجه الظلم قبيحاً لجواز انفراده بفضيلته يوجب إعزازه من جهة الدين أيضاً .

الفصل الثاني : قوله : رضينا عن الله قضاؤه وسلمنا له أمره . إلى قوله : من كذب عليه .

قيل : ذكر ذلك عليه السلام لما تفرّس في طائفة من قومه أنّهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخبار الملاحم في الأمور المستقبلة ، وقد كان منهم من يواجهه بذلك كما روى أنه لما قال : سلوني قبل أن تفقدوني فواهلا لا تسألوني عن فئة تضلّ مائة و تهدى مائة إلا أبناءكم بناعقها و ساقتها . قام إليه أنس النخعى فقال : أخبرني كم في رأسى و لحيتى طاقة شعر . فقال عليه السلام : و الله لقد حدثنى حبيبى أنّ على كل طاقة شعر من رأسك ملك يلعنك ، وأنّ على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك ، وأنّ في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و كان ابنه سنان بن أنس قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبه ، وسيأتي بعض تلك الأخبار .

قوله : رضينا عن الله قضاؤه وسلمنا له أمره .

قد عرفت أن الرضا بقضاء الله و التسليم لأمره بباب من أبواب الجنة يفتحه الله لخواص أوليائه ، ولما كان عليه السلام سيد العارفين بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و كان قلم القضاء الإلهي قد جرى على قوم بالتكذيب له و التهمة فيما يقول لا جرم هو كان عليه السلام أولى الناس بـلزوم باب الرضا .

و قوله : أتراني أكذب . إلى قوله : عليه .

استنكار ما صدر منهم في حقه من التكذيب ، و إبراد حجة لبطلان أوهامهم في حقه بصورة قياس الضمير مع نتيجته ، و تقديره والله لأنّا أول من صدّقه وكل من كان

أول مصدق له فلن يكون أول مكذب له ينتج أني لا أكون أول مكذب له .
الفصل الرابع : قوله : فنظرت في أمرى . إلى آخره .

فيه إحتمالان : أحدهما قال بعض الشارحين : إنّه مقطوع من كلام يذكر فيه
حالة بعد وفاة الرسول ﷺ وأنّه كان معهوداً إليه أن لا ينماز في أمر الخلافة بل
إن حصل له بالرفق وإلا فليمسك . فقوله : فنظرت فإذا طاعتي قد سبقت يعنى : أى
طاعتي لرسول الله ﷺ فيما أمرني به من ترك القتال قد سبقت يعنى للقوم فلا سبيل
إلى الامتناع منها .

وقوله : وإذا ميثاق في عنقي لغيري .

أى ميثاق رسول الله ﷺ وعهده إلى بعد المشaque ، وقيل : الميثاق ما لزمه من
بيعة أبي بكر بعد اتفاقها : أى فإذا ميثاق القوم قد لزمني فلم يمكننى المخالفه بعده .
الإحتمال الثاني : أن يكون ذلك في تضجره وتبّرّه من ثقل أعباء الخلافة ، وتتكلّف
مداراة الناس على اختلاف أهوائهم . ويكون المعنى إنّى نظرت فإذا طاعنة الخلق لى
وأتفاقهم على قد سبقت يعترض لهم ، وإذا ميثاقهم قد صار في عنقي فلم أجد بدّاً من القيام
بأمرهم ولم يسعني عند الله إلا النهوض بأمرهم ولو لم يكن كذلك لتركه كما قال من
قبل : أما والله لواحد حاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء
أن لا يقاروا على كظمة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت جلبها على غاربها ، ولسبقت آخرها
بكأس أولها . والأول أشهر بين الشارحين ، والله أعلم بالصواب .

٣٧ - فِيْ مَحْبَبِيْهِ بِعَلِيِّيْهِ السِّنَابِاجِيْ

وَإِمَّا سَمِّيَتِ الشَّهَةُ شَهَةً لَا تَشَبَّهُ الْحَقَّ : فَإِمَّا أَوْلَاهُ اللَّهُ فَضَّاَوْهُمْ فِيهَا
الْيَقِيْنُ ، وَدَلِيلُهُمْ سَمِّيَتُ الْهَدِيَّ ، وَإِمَّا اعْدَاهُ اللَّهُ فَدَعَاؤُهُمْ فِيهَا الصَّلَالُ ، وَدَلِيلُهُمْ
الْعَمَى ، فَإِنْجُو مَنْ مُوتَّ مِنْ خَافَهُ ، وَلَا يُعْطِي الْبَقاءَ مِنْ أَجْهَهُ .

أقول : يحتمل أن يكون هذا الكلام فصلين :

أحدهما : قوله : وإنما سميت الشبهة . إلى قوله : ودليلهم العمى ، والثاني : البافي .

فالفصل الأول إشارة إلى علة تسمية الشبهة شبهة ، ثم إلى بيان حاذ الناس فيها .

أما الأول : فالشبهة عبارة عمّا يشبه الحق مما يحتاج به إمّا في صورته أو في

مادّته أو فيما معاً ، وظاهر أنّ علة تسميتها شبهة هو ذلك الشبه . فلذلك حصرها فيه .

وأما الثاني : فلان الناس إما أولياء الله أو أعداء له . أما أولياؤه فلما كانت

نفوسهم مشرقة بنور اليقين مستضيئه بمصباح النبوة في سلوك الصراط المستقيم كان بذلك

الأنوار هدى أذهانهم في ظلمات الشبهات وحرزهم عن الهوى في مهابي الجهالات كما

قال تعالى «يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم بشر يكم اليوم جنات تجري من تحتها

الأنوار» ^(١) الآية . وهو الهدى المأمور بلزوم سنته والسلوك إلى المطالب الحقيقة ، وهو

المراد بقوله : فضياؤهم فيها اليقين ، ودليلهم سمت الهدى ، وأما أعداؤه فليس دعاؤهم إلى

ما يدعون إليه إلا أخلالاً عن القصد القويم ، وإخلالاً للخلق عن الطريق الحق و ليس ما

يعتمدونه دليلاً يزعمون أنّهم يهدون به السبيل إلا شبهة هي في نفسها عمى لا يصار لهم

[لبعضهم] عن مطالعة نور الحق وطمس لأذهان من استجواب لهم عند اهتداء سلوك

سبيل الله ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وأما الفصل الثاني : وهو قوله : فما ينجو . إلى آخره .

صدق القضية الأولى قوله تعالى «قل إنّ الموت الذي تفرون منه فإذا

ما لقيكم» ^(٢) وقوله «أينما تكونوا يدرككم الموت» ^(٣) الآية . وحاصله التذكير بها دم

اللذات ، والتخييف بذكره ، والتنفير عن محبة مالا بدّ من زواله ليفرغ السامعون إلى

العمل لما بعده إن أخذ التوفيق بأذمة عقولهم فإنّ خوفه ومحبّته ضده وهو البقاء لينفعان

في الخلاص منه لكونه ضروريًا في الطبيعة ، ويحتمل أن يكون الكلام متصلةً ويكون

الفصل الثاني قد سبق له قبل الأول كلام يحسن تعلقه به ، وبالله التوفيق .

٣٨ - فَمِنْ حَلْبَتِهِ بِعَلَيْنَا السَّلَامُ

مُنِيتْ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمْرُتْ ، وَلَا يُحِبُّ إِذَا دَعُوتْ ، لَا أَبَاكُمْ
مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ ؟ أَمَا دِينُكُمْ كُمْ ، وَلَا حَجَةٌ لِحَمْشُكُمْ أَقْوَمْ
فِيكُمْ مُسْتَضْرِخًا ، وَأَنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثًا ، فَلَا تَسْمَعُونَ لِقَوْلًا ، وَلَا تُطِيعُونَ لِ
أَمْرًا ، نَتَّيْ تَكْشِفَ الْأَمْوَرُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَ ، فَمَا يُدْرِكُكُمْ ثَارُ
وَلَا يُلْعَنُكُمْ مَرَامٌ : دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصِيرِ إِخْرَانِكُمْ فِي جَرْجَةِ الْجَلَّ
الْأَسْرِ ، وَتَنَاقَلُتِ النَّصْوُ الْأَدْبِرِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْكُمْ جَنِيدٌ مَذَابِ
ضَعِيفٌ (كَانُوا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظَرُونَ)

أقول : يروى أنّ هذه الخطبة خطب بها عليها في غارة النعمان بن بشير بعين التمر . والسبب أنّ معاوية بعث النعمان بن بشير في أولى فارس لإرهاب أهل العراق فأقبل حتى دنا من عين التمر ، وكان عاملها يومئذ من قبل على عليها مالك بن كعب الأرجيّ ولم يكن معه إذ ذاك سوى مائة رجل و نحوها فكتب مالك إليه عليها يعلمه الخبر . فقصد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أحيينكم فإنّ نعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام ليس بالكثير فانهضوا إلى إخوانكم لعل الله يقطع بكم طرفاً من الكافرين . ثم نزل فتناقلوا فأرسل إلى وجوهم فأمرهم بالنهوض فتناقلوا ولم يجتمع منهم إلا نفر يسير نحو ثلاثة مائة رجل فقام عليها وقال : [ألا إني منيت . الفضل ، ويروى أن الدايرة كانت مالك بن معه على النعمان وجمعه . منيت : أى ابتليت . و يحمسكم : أى يغضبكم . والمستصرخ : المستجلب بصوته من ينصره . والغوث : الصوت يستصرخ به ، وقيل : هو قول الرجل : واغوثه . والثار : الذحل .

شرح الخطبة الثامنة والثلاثين

والجرجة : ترديد صوت البغير في ضجرته عند عصفه . والسر : داء يأخذ البغير في سرّته يقال منه جهل أسر . والنضو من الإبل : البالي من تعب السير . والأدبر : الذي به دبر وهي الفروح في ظهره . وفي الفصل مطالب :

الأول : قوله : منيت بمن لا يطيع . إلى قوله : دعوت .

وهو إظهار لغدر نفسه على أصحابه لينسب إليهم التقصير دونه ويقع عليهم لائمة غيرهم .

الثاني : قوله : لا أبالكم . إلى قوله : مرام .

وهو استنهاض لهم إلى نصرة الله بسؤالهم عن سبب تناقلهم عن نصرته والذب عن دينه سؤالاً على سبيل الإنكار للسبب ، وتنبيه لهم على الأسباب التي توجب اجتماعهم لنصرة الله والغضب له بسؤالهم عنها هل هي موجودة لهم أم لا سؤالاً على سبيل الإنكار أيضاً إذهم يدعون وجودها لهم وهي الدين الذي أمروا بذرومه والاتحاد فيه كما قال تعالى « و ما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » (١) الآية . ثم الحمية وهي ملكة تحت الشجاعة ، وكذلك قوله : أقوم فيكم . إلى قوله : أمراً . من الأسباب الباعثة لهم أيضاً على الاجتماع فإن ذكر حاله من استصراره لهم واستغاثته بهم مع ذكر حالهم في مقابلة ذلك من تناقلهم عن ندائهم وعدم طاعتهم له مما ينسبهم على خطأهم و تقصيرهم .

وقوله : حتى تكشف الأمور عن عوائق المسائة .

ذكر لغاية تناقلهم عن دعوته وتنبيه بذلك استعقابه للمسائة على خطأهم فيه ، وكذلك قوله : فما يدرك بهم ثار ولا يبلغ بهم مرام . غتاب و توبخ يبعث طباع العرب على التئاف في النصرة إذ من شأنهم شوران الطباع بمثل هذه الأقوال .

وقوله : دعوتكم . إلى قوله : الأدبر .

استعار لفظ الجرجة لكثرتهم تملّلهم وقوّة تضجرهم من ثقل ما يدعوهـم إليه ، و لما كانت جرجة الجمل الأسر أشد من جرجة غيره لاحظ شبه ما نسبـه إليـهم من التضجرـ بها . وكذلك تشبيـهـ تناـقلـهمـ بتـناـقلـ النـضـوـ الأـدـبـرـ وـ ذـكـرـهـ ماـ دـعـاهـمـ إـلـيـهـ من

نصرة أخوانهم أعني أصحاب مالك بن كعب المذكور وجوابهم له بالترم من ذلك والتناقل ثم أردف ذلك بتضليل من خرج منهم من الجندي ووصفه بالاضطراب والضعف . وتشبيههم بمن يساق إلى الموت وهو ينظر في تناقله واضطرابه وضعفه عن الحركة إلى ما يساق إليه لشدة خوفه . كل ذلك ذمٌ و توبيخ يستثير به طباعهم عمّا هي عليه من التناقل عن ندائهم والتقصير في إجابة دعائهم . وبالله التوفيق .

٣٩ - قَمِنْ كَلَامِنْ عَلَيْنِ الْسِّنَّا لِلْأَفْرَدِ

في الخوارج لما سمع قولهم : لا حكم إلا لله ؛ قال عليه السلام
 كلمة حق يراد بها الباطل ! نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون :
 لا إمرة إلا لله ، وإنما لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في إمراته
 المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الف ،
 ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبيل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى
 يستريح بر ويستراح من فاجر .

وفي رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال :

حُكْمُ اللَّهِ انتَرِ فِيمُ

وقال : — أما الإمرة البرة فيعمل فيها الحق ؛ وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع
 فيها الشقى ، إلى أن تنقطع مدتة ، وتدركه منتهية .

أقول : قوله : كلمة حق يراد بها الباطل . هذه الكلمة رد لما انغرس في أذهان الخوارج من حقيقة دعاء أصحاب معاوية إلى كتاب الله : أى أن دعائهم لكم إلى كتاب الله كلمة حق

لكن ليس مقصودهم بها كتاب الله بل غرض آخر باطل وهو فتور الحرب عنهم و تفرق أهوائهم و نحوه مما لا يجوز أن يفعل .
قوله : لاحكم إلا الله .

تصديق لقولهم لكن ما عليه الكلمة في نفس الأمر لا ما رأوه حقاً من ظاهرها فإن حصر الحكم ليس بحق على معنى أنه ليس للعبد أن يحكم بغير ما نص كتاب الله عليه فإن أكثر الأحكام الفرعية غير منصوص عليها مع أنها أحكام الله بل تكون منتزعة بحسب الاجتهاد وسائر طرقها كان أهلاً لذلك ، ويجب على من ليس له أهلية الاجتهاد امثالها ، ولما تصور الخوارج تلك الكلمة بمعنى أنه لا يصح حكم لم يوجد في كتاب الله ولا يجوز امثاله والعمل به لاجرم قال : نعم لاحكم إلا الله لكن هؤلاء القوم يقولون : لا إمرة : أى لما نفوا أن يكون لغير الله حكم لم ينص عليه فقد نفوا الإمارة لأن استباط الأحكام و النظر في وجوه المصالح من لوازم الإمارة التي هي حال الأمير في رعيته ، ونفي اللازم يستلزم نفي المازوم ، ولما كانوا قد نفوا الإمارة كذا بهم عليه السلام قوله : ولابد للناس من أمير بر أوفاجر . فكان جملة الكلام في معنى شرطية متصلة هكذا : إذا قالوا لا حكم إلا الله كما تصوروه فقد قالوا بنفي الإمارة لكن القول بنفي الإمارة باطل فالقول بنفي الحكم إلا الله كما تصوروه باطل . قوله : ولابد للناس من أمير . في معنى استثناء تقىضي تالي المتصلة ، وتقريره : أن الإنسان خلق منوأاً بمقارنة النفس الأمارة بالسوء محتاجاً إلى مجموع قوى في بدنه هي منابع الشر . فأهواء الخلق لذلك مختلفة ، وقلوبهم متفرقة وكانت طبيعة نظام أحوالهم في معاشرهم وبقائهم محوجة إلى سلطان قاهر تتألف بربتها الأهواه ، وتحجتمع بهيئته القلوب ، وتنكف بسطوته الأيدي العادي إذ في طباع الخلق من حب المغالبة على ما آثروه ، والقهر من عاندوه مالا ينكفون عنه إلا بمانع قوى ورادع ملي . وقد أوضح المتنبي عن ذلك حيث يقول :

لإسلام الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النقوس فإن تجد ذاعفة فلعلة لا يظلم
وهذه العلة المانعة من الظلم عند الاستقراء يرجع إلى أمور أربعة : إما عقل زاجر ،

أو دين حاجر ، أو عجز مانع ، أو سلطان رادع . والسلطان الفاجر أبلغها نفعاً لأنَّ العقل والدين ربما كانا مغلوبين بدعوى الهوى فيكون رهبة السلطان أقوى رداً وأعمَّ نفعاً وإنْ كان جائراً فإنه روى عن رسول الله ﷺ : إنَّ اللَّهُ لِيُؤْتِي دُرْجَاتَ الْمُفْلِحِينَ هَذَا الدِّينُ بِقَوْمٍ لِّا خَلُوقَاتٍ لَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ بِالرِّجْلِ الْفَاسِقِ ، وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : إِلَّا إِمَامُ الْجَاهِرِ خَيْرٌ مِّنْ فَكِيلٍ لَا خَيْرٍ فِيهِ ، وَبَعْضُ الشَّرِّ خَيْرٌ : أَيْ وَأَنْ وَجْدُ الْإِمَامِ وَإِنْ كَانَ جَائِرًا خَيْرٌ مِّنْ عَدْمِهِ الْمُسْتَلِزِمِ لِوَجْدِ الْفَتْنَةِ وَوَقْعِ الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ بَيْنَ الْخَلْقِ إِذَا كَانَ بِوْجُودِهِ صَلَاحٌ بَعْضُ الْأُمُورِ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ لَا خَيْرٍ فِيهِ أَيْضًا مِنْ جَهَةِ مَا هُوَ جَائِرٌ كَمَا قَالَ : وَكُلُّ لَا خَيْرٍ فِيهِ إِلَّا أَنَّ هَبَبَتِهِ وَجَوَدَهُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَمَّا يُوجِبُ الْإِنْزَاجَارَ عَنِ إِثَارَةِ الْفَتْنَةِ وَيَكُونُ ذَلِكَ خَيْرًا وَقَعَ فِي الْوَجْدَ بِوْجُودِهِ لَا يَحْصُلُ مَعَ عَدْمِهِ فَوْجُودُهُ مُطْلَقًا وَاجِبٌ وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : لَابِدٌ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرًّا أَوْ فَاجِرٍ .

وقوله : يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ وَيَسْتَمْتَعُ فِيهَا الْكَافِرُ .

الضمير في إمرته ملأ عاد إلى الأمير ، وكان لفظ الأمير محتملاً للبر والفارج كان المراد بالإمرة التي يعمل فيها المؤمن إمرة الأمير من حيث هو بريء ، وبالتي يستمتع فيها الكافر إمرته من حيث هو فاجر ، وهذا أولى من قول بعض الشارحين : إنَّ الضمير يعود إلى الفاجر فإنَّ إمرة الفاجر ليست مظنة تمكّن المؤمن من عمله ، والمراد يعمل المؤمن في إمرة البر عمله على وفق أو امرأة وتواهيه إذ ذلك وقت تمكّنه منه ، والمراد باستمتاع الكافر في إمرة الفاجر انهمما كه في اللذات الحاضرة التي يخالف فيها أو أمر الله وذلك في وقت تمكّنه من مخالفته الدين .

وقوله : يَبْلُغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجْلُ .

أي في إمرة الأمير سواء كان بريئاً أو فاجراً ، وفائدة هذه الكلمة تذكير العصاة بيلوغ الأجل و تخويفهم به .

وقوله : وَيَجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ . إلى قوله : القوى .

الضمائر المجرورة كلها راجعة إلى الأمير المطلق إذ قد تحصل الأمور المذكورة كلها من وجوده كيف كان بريئاً أو فاجراً . وبهذا يؤيد ذلك أنَّ أكثر الخلق متتفقون على أنَّ

أُمّاء بنى أُمّيَّةٍ كانوا فجّاراً عدا رجليْن أو ثلَاثَةَ : كعثمان وعمر بن عبد العزيز و كان الفيء يجمع بهم ، والبلاد تفتح في أيّامهم ، والشغور الإسلاميَّة محرُوسَة ، والسبيل آمنة ، والقوى مأخوذ بالضعف ، ولم يضر جورهم شيئاً في تلك الأمور .

وقوله : حتَّى يستريح بر و يستراح من فاجر .

غاية من الأمور المذكورة : أي غاية صدور هذه الأمور أن يستريح بر بوجودها و يستراح من تعدِّي الفاجر و بغيه ، و قيل : أراد أن هذه الأمور لا تزال تحصل بوجود الأُمير بر أكان أو فاجراً إلى أن يستريح بر بموته ، و يستراح من فاجر بموته أو بعزله ، وأمّا الرواية الآخرى فمعنى الكلام فيها ظاهر ، و بالله التوفيق .

٤ - فِي مَنْ حَطَبَتْ بَرَّ عَلَيْهِ الْتِبَلَامَةُ

إِنَّ الْوَفَاءَ تُوْمَ الصَّدْقِ ، وَلَا اعْلَمُ جَنَّةً أَوْقَى مِنْهُ . وَلَا يَغْدُرُ مَنْ عَلِمَ
كَيْفَ الْمَرْجُعُ . وَلَقَدْ أَصْبَحَنَا فِي زَمَانٍ ، قَدْ أَخْذَ أَكْثَرَ أَهْلِهِ الْغَدَرَ كَيْسًا
وَنَسِيمًا أَهْلُ الْجَهَلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ ، مَا لَهُمْ؟ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ ! قَدْ يَرَى الْحُوْلُ
الْقَلْبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهُ مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهِيٍّ فِي دُعَاهُ رَأَى عَيْنَ بَعْدَ الْقُدْرَةِ
عَلَيْهَا وَيَتَهَزِّ فَرْصَتَهَا مِنْ لَأَحَرِيجَةِ لَهُ فِي الدِّينِ .

أقول : الجنَّةُ : ما استترت به من سلاح و نحوه . والقلب الحوْلُ : الذي يكتسر
بِحُوْلِهِ و تقلُّبهُ في اختيار الأمور ، و تعرُّف و جوهُها . والانتهازُ : المبادرة إلى الأمر .
و الأنفرصةُ : وقت الِّإِمْكَان . والحرِيجَةُ : التحرُّج و هو التحرُّزُ من الْحُرجِ و الإِثمِ .
واعلم أن الوفاء ملكرة نفسيَّة ينشأ من لزوم العهد كما ينبغي ، والبقاء عليه ،
والصدق ملكرة تحصل من لزوم الأقوال المطابقة ؛ وهمما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة

العفة متلازمان ، ولما كان التوأم هو الولد المقارن لولد آخر في بطن واحد شبهه الوفاء مقارنته الصدق تحت العفة ، فاستعار لفظه له . ثم لما كانت فضيلة الوفاء مقابلة برذيلة الغدر وفضيلة الصدق مقابلة برذيلة الكذب ورذيلتا الغدر والكذب أيضاً توأمين تحت رذيلة الفجور المقابلة لفضيلة العفة .

قوله : ولا أعلم جنة أوفي منه .

حكم ظاهر فإن الوفاء وقاية تامة للمرء أمّا في آخرته فلا استارة به من عذاب الله الذي هو أعظم محذور ، وأمّا في دنياه فلا استارة به من السب والعار وما يلزمه عدم الوفاء من الغدر والكذب الملطخين لوجه النفس . وإذا علمت أنه لانسبة لشيء مما يجتنبه بالأسلحة وغيرها إلى ما يتوقفى بالوفاء علمت أنه لاجنة أوفي من الوفاء ، ومادح الوفاء ومذام الغدر كثيرة قال الله تعالى «الذين يوفون بعهدهم ولا ينقضون الميثاق»^(١) «والذين يوفون بعهدهم إدا عاهدوا» الآية وقال في تمدحه بالوفاء «ومن أوفي بعهده من الله» قال «ومن نكث على نفسه ومن أوفي بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيما»^(٢) ومن الخبر في ذم الغدر : لكل غادر لواء يعرف به يوم القيمة .

وقوله : ولا يغدر من علم كيف المرجع .

أقول : العلم بكيفية المرجع إلى الله تعالى والاطلاع على منازل السفر إليه وعلى أحوال الآخرة التي هي المستقر صارف قوى عن ارتكاب الرذائل التي من جملتها الغدر وإنما خاص الغدر بنسبة أهله إلى الجهل بأمر المعادل كونه في معرض مدح الوفاء والترغيب فيه .

قوله : و لقد أصبحنا في زمان . إلى قوله : الحيلة .

أقول : إنّما اتّخذ أهل الزمان الغدر كيساً و نسبهم كثيراً إلى حسن الحيلة ليجهل الفريقين بشمرة الغدر ولعدم تمييزهم بين الغدر والكيس فإنه لما كان الغدر كثيراً ما يستلزم الذكاء والفتنة لوجه الحيلة و ايقاعها بالغمدor به وكان الكيس أيضاً عبارة عن الفطانة والذكاء وجودة الرأي في استخراج وجوه المصالح التي تنبغي كانت بينهما مشاركة في استلام مفهوميها للتفطن والذكاء في استخراج وجه الحيلة و ايقاع الآراء

إلا أنَّ نفطَنَ الغادر يستعمله في استنباط الحيلة وإن خالفت القوانين الشرعية وفاقت المصالح الكلية في جنب مصلحة جزئية تخصه، وفقطَنَ الكيس إنما يستعمله في إيقاع رأي أو حيلة تنتظم مصلحة العالم وتوافق القوانين الشرعية، ولدقة الفرق بينهما استعمل الغادرون غدرهم في موضع الكيس، ونسبيهم أيضاً الجاهلون في غدرهم إلى حسن حيلتهم كما نسب ذلك إلى عمرو بن العاص والغيرة بن شعبة و نحوهما، ولم يعلموا أنَّ حيلة الغادر تخرجه إلى رذيلة الفجور، وأنَّه لا حسن في حيلة جرت إلى رذيلة .
وقوله : مالهم قاتلهم الله قديرى . إلى آخره .

دعاهم عليهم بقتال الله لهم بعد استفهمه عن خوضهم في أمره استقها ماماً على سبيل إلا نكارة، وقد علمت أن قتال الله كنایة عن عداوته والبعد عن رحمته، وظاهر أنَّ أهل الغدر بعده عن رحمة الله، ثم أردف ذلك الدعاء بالإشارة إلى أنه لا فضيلة لهم فيما يفت Hwyون به من الذكاء في استنباط وجوه الحيلة إذ كانت غايتهم الغدر والخيانة فإنَّ الحول القلب في الأمور قديرى وجه الحيلة عياناً إلا أنه يلاحظ في العمل بها مانع من الله ونهيه عن ارتكابها لما يؤدى إليه من ارتكاب الرذائل الموبقة فيتر كها رأى عنه : أى حال عاهي مرئية له و بعد القدرة عليها خوفاً من الله تعالى . ثم يراها من لا يعتقد إنما في حزم قواعد الدين فيبادر إليها حال إمكانها وليس ذلك لفضيلة بل الفضل في الحقيقة لتار كها عن وازع الدين ، والإشارة بالحول القلب إلى نفسه فإنَّ شيمه الكريمة كانت كذلك .

٤— قُمْزَكَلَاهِلَّهُ عَلَيْنَا الْمِسْتَلَاهِلُ

إِيَّاهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَافَ مَاخَافُ عَلَيْكُمْ أَثْنَانٌ: أَتَبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ
الْأَمْلِ، فَامَّا أَتَبَاعُ الْهَوَى فَيُصْدِعُ عَنِ الْحَقِّ، وَامَّا طُولُ الْأَمْلِ فَيُنْسِي
الآخِرَةَ . إِلَّا، وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَتْ حَذَاءَ، فَلَمْ يَقِنْ مِنْهَا إِلَاصْبَابَهَا كَصَبَابَهَا
الْأُنَاءِ أَصْطَبَهَا صَابَهَا، إِلَّا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلِّ مِنْهَا بَنُونَ، فَكُونُوا

مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سِيلْحُقُّ بِأَمْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ يَوْمَ عَمَلٍ وَلَا حِسَابٍ، وَغَدَّا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٍ.

أقول : هذه : خفيقة مسرعة لا يتغلق أحد منها بشيء . والصباية : بقية الماء في الإناء .

و المقصود بهذا الفصل النهي عن الهوى و طول الأمل في الدنيا فإنهما من أشد أسباب الهايا فكان العجلان عنهما من أشد أسباب النجاة كما قال تعالى « فَأَمَّا مِنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مِنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » ^(١) ثم التذكير بأمور الآخرة .

فاعلم أنَّ الهوى هو ميل النفس الأمارة بالسوء إلى مقتضي طباعها من المذمومات الدينوية إلى حد الخروج عن حدود الشريعة ، وأمَّا الأمل فقد سبق بيانه ، ولما كانت السعادة التامة إنما هي في مشاهدة حضرة الربوبية ومجاورة الملائكة الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، و كان اتباع النفس الأمارة بالسوء في ميولها الطبيعية والانهماك في ملذاتها الفانية أشد مهلك جاذب لإنسان عن قصد الحق ، و صاد له عن سلوك سبيله و عن الترقى في ملوكوت السماوات إلى حضيض جهنم كما قال سيد المرسلين عليه السلام : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهو متبع ، و إعجاب المرء بنفسه ، و كما قال : حب الدنيا رأس كل خطية ، وقال : الدنيا والآخرة ضرitan بقدر ما يقرب من إحديهما ببعدهما الآخر . لاجرم كان أخوف ما ينبغي أن يخاف من الأمور المهملة اتباع الهوى ، وأمَّا الأمل فمراده به أيضاً الأمل لما لا ينبغي أن يمده الأمل فيه من المقتنيات الفانية و ظاهر أنَّ طول الأمل فيها يكون مطابقاً لاتباع الهوى وبه يكون نسيان الآخرة لأنَّ طول توقيع الأمور المحبوبة الدينوية يوجب دوام ملاحظتها ، و دوام ملاحظتها مستلزم دوام إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة و هو مستعف لا نماء ما تصور في

الذهب منها و ذلك معنى النسيان لها و بذلك يكون الهلاك الأبدى و الشقاء الأشقي ، ولما كان ^{لائقاً} هو المتأول لإصلاح حال الخلق في أمور معاشهم و معادهم كان الاهتمام بصلاحهم منوطاً بهمته العلية فلاجرم نسب الخوف عليهم إلى نفسه .
قوله : ألا و إنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَتْ . إلى قوله : صابها .

أقول : الدنيا بالنسبة إلى كلّ شخص مفارقة له وخفيفة سرعة الأجيال لم يبق منها بالقياس إليه إلَّا يسير ، وإطلاق الصباية هيمنا استعارة لبقيتها القليلة ، والقلة هي وجه تشبيهها بصباية الـ ناء أيضاً .
وقوله : ألا و إنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ .

لما نبه على أنَّ الدنيا سرعة الأجيال أردف ذلك بالتنبيه على سرعة لحقوق الآخرة و إقبالها ، وكلّ ذلك قطع للآمال الفانية و ردع عن اتباع الهوى . و من آثار الصالحين : إذا كان العمر في إدبار الموت في إقبال فما أسرع الملتقى . والموت هو دليل الآخرة .
وقوله : و لـ كلّ منهما بنون . إلى قوله : يوم القيمة .

من لطائف كلامه . فاستعار لفظ الأبناء للخلق بالنسبة إلى الدنيا والآخرة ، ولفظ الأب لهم ، ووجه الاستعارة أنَّ الـ ابن لما كان من شأنه الميل إلى والله إما ميلاً طبيعياً أو بحسب تصوّر المفعة منه . وكان الخلق منهم من يزيد الدنيا . ومنهم من يزيد الآخرة ، و يميل كلّ منها إلى مراده مع ما يحصل من طرف الدنيا للراغبين فيها مما يتوهّمونه لذة و خيراً ، وما يحصل من طرف الآخرة للراغبين فيها من اللذة و السعادة أشبه كلّ بالنسبة إلى ما رغب فيه واستفاد منه الخير الابن بالنسبة إلى الأب . فاستعير لفظه لتلك المشابهة ، ولما كان غرضه حتّى الخلق على السعي للآخرة و الميل إليها و الإعراض عن الدنيا ، قال ^{لائقاً} : فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ثم ذكر فaidة رأيه عليهم بأن يكونوا كذلك . وهي أنَّ كلّ ولد سيلحق بما مه يوم القيمة ، وأشار : إلى أنَّ أبناء الآخرة و الطالبين لها و العاملين لأجلها مقربون في الآخرة لحقوق مراداتهم فيها ، و لهم فيما تشتت أنفسهم و لهم ما يدعون نزلاً من غفور رحيم ، و أمّا أبناء الدنيا فإنَّ نفوسهم لما كانت مستقرفة في محبتها و ناسية لطرف الآخرة و معرضة عنها لا جرم

كانت يوم القيمة معمورة في محبة الباطل مغلولة بسلاسل السيئات البدنية والملكات الريدية المتمكنة من جواهرها فهي تتعلقها بمحبة الدنيا حيث لا يمكن من محبوها منزلة ولد لا تعلق له ولا مسكنة إلا بوالده ولا إلف له إلا هو ولا أنس إلا معه ، ثم حيل بينه وبينه مع شدة تعلقه به وشوقه إليه وأخذ إلى أضيق الأسجان ، وبدل بالعز الهوان فهو في أشد دله و يتم وأعظم حسرة وغم ، وأما أبناء الآخرة ففي حضارة أبيهم وتعيمه قد زال عنهم بؤس الغربة وشقاء الitem وسوء الحظن . فمن الواجب إذن تعرّف أحوال الوالدين واتباع أيرهما وأدو مهما شفقة وأعظمهما بركة وما هي إلا الآخرة فليكن ذو العقل من أبناء الآخرة وليكن برأً بوالده متوصلاً إليه بأقوى الأسباب وأمتنها .

وقوله : و إنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ إِلَى آخِرٍ .

كتى باليوم عن مدة الحياة وبعد عمّا بعد الموت ، وراعي المقابلة مقابل اليوم بالغد ، والعمل بلا عمل ، ولا حساب بالحساب . واليوم : اسم إن ، وعمل : قام مقام الخبر استعمالاً للمضاف إليه مقام المضاف : أي واليوم يوم العمل ، ويحتمل أن يكون اسم إن ضمير الشأن ، واليوم عمل جملة من مبتدء وخبر هي خبرها ، وكذلك قوله : وغداً حساب ولا عمل ، وصدق هذين الحكمين ظاهر وفائدتهما التنبية على وقتى العمل وعدمه ليBADروا إلى العمل الذي به يكونون من أبناء الآخرة في وقت إمكانه قبل مجيء الغد الذي هو وقت الحساب دون العمل ، وبالله التوفيق .

٤٢ - قَمْزَكَلَاهْلَهْ عَلَيْهِ الْبَسْلَاقَنْ

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد إرساله جريرا بن عبد الله البجلي إلى معاوية

إِنَّ أَسْتَعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرُ عِنْدِهِمْ إِغْلَاقُ الشَّامِ ، وَصَرْفُ أَهْلِهِ عَنْ خَيْرِ إِنْ أَرَادُوهُ . وَلَكِنْ قَدْ وَقَتْ لِجَرِيرٍ وَقَاتَلَ أَيْقِيمَ بَعْدَ إِلَامِهِ دُوَّاعَا

كلام له عليه السلام بعد إرساله جريراً إلى معاوية

أو عاصياً . والرأي عندي مع الآراء فارودوا ، ولا أكره لكم الإعداد
ولقد ضربت أنت هذا الأمر وعينه ، وقلبت ظهره ، وبطنه ، فلم أر ^أ
إلا القتال أو الكفر ، إنه قد كان على الناس والحدث أحدهما ، وأوجد
لناس مقالاً ، فقالوا ، ثم نعموا فغيروا .

أقول : وقد كان في طن كثير من الصحابة بعد ولادة علي عليه السلام أن معاوية
لا يطيع له بأمارات كثيرة ، ولذلك أشار عليه أصحابه وبعد إرسال جريراً إليه بالاستعداد
للحرب ، وروى أن جريراً لما أراد بعثة قال : والله يا أمير المؤمنين ما أدركك من
نصرتي شيئاً ، وما أطمع لك في معاوية فقال عليه السلام : قصدى حجية أقمتها . ثم كتب معه :
أما بعدي فإن يعتى بالمدينة لرمتك وأنت بالشام لأنّه بيعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر
و عمر و عثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ،
و إنما الشورى للمهاجرين و الأنصار إذا اجتمعوا على رجل فسموه إما ما كان ذلك
رضافاً من خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه فإن أبي قاتلوه
على اتباع غير سبيل المؤمنين و لا والله ما تولى و يصليه جهنم و ساءت مصيرأ ،
و إن طلحة و الزبير بيعانى ثم نقضى بيعانى فكان نقضهما كردة تهما فجاهدتھما على ذلك
حتى جاء الحق و ظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمين فإن أحـبـ
الأمور إلىـ فيـكـ العـافـيـةـ إـلـاـ أـنـ تـعـرـضـ لـلـبـلـاءـ فإنـ تـعـرـضـ لـهـ قـاتـلـاتـكـ وـ استـعـنـتـ بالـلهـ
عـلـيـكـ . وـ قـدـأـ كـثـرـتـ فـيـ قـتـلـةـ عـشـانـ فـادـخـلـ فـيـمـاـ دـخـلـ فـيـهـ النـاسـ ثـمـ حـاكـمـواـ الـقـومـ إـلـىـ
أـحـلـكـ وـ إـيـاـهـمـ عـلـيـ كـتـابـ اللهـ فـأـمـاـ تـلـكـ الـتـيـ تـرـيـدـهـاـ فـخـدـعـةـ الصـبـىـ عـنـ الـلـبـنـ ، وـ لـعـمرـىـ
وـ إـنـ نـظـرـتـ بـعـقـلـكـ دـوـنـ هـوـاـكـ لـتـجـدـنـىـ أـبـرـءـ قـرـشـ مـنـ دـمـ عـشـانـ ، وـ اـعـلـمـ أـنـكـ مـنـ الـطـلـقـاءـ
الـذـيـنـ لـاـ يـتـحـلـىـ لـهـمـ الـخـلـافـةـ وـ لـاـ يـتـعـرـضـ فـيـمـهـ الشـورـىـ ، وـ قـدـأـرـسـلـتـ إـلـيـكـ جـرـيراـ بنـ عـبدـ
الـلـهـ وـ هـوـ مـنـ أـهـلـ الـإـيمـانـ وـ الـهـجـرـةـ فـبـاـعـ لـاـ قـوـةـ إـلـاـ بـالـلـهـ . وـ رـبـمـاـ جـاءـ شـيـءـ مـنـ هـذـاـ
الـكـتـابـ فـيـ كـتـبـهـ عليه السلام إـلـىـ مـعـاوـيـةـ . فـأـجـابـهـ مـعـاوـيـةـ أـمـاـ بـعـدـ فـلـعـمـرـىـ لـوـ بـاـيـعـكـ الـقـومـ

الذين بایعوك و أنت برىء من دم عثمان كنت كأبي بكر و عمر و عثمان ولكنك أغرتت بعثمان و خذلت عنه إلا نصاراً فأطاعك العاجل و قوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا القتال حتى تدفع إليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شوري بين المسلمين . ولعمري ما حجتك على كحجتك على طلحة و الزبير لأنهما بایعاك ولم أبایعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة لأنهم أطاعوك ولم يطعك أهل الشام . فاما شرفك في الإسلام و قرابتك من النبي ﷺ و موقعيك من قريش فلست أدفعه ، و كتب في آخر الكتاب قصيدة كعب بن جحيل .

أرى الشام تكره أهل العراق
و أهل العراق لها كارهونا

و قد ذكرنا بعضها قبل ، و يروى أن " الكتاب الذي كتبه علي بن أبي الحسن مع جرير كانت صورته : إني قد عزلتك ففوض الأمرا إلى جرير والسلام . و قال لجرير : صن نفسك عن خداعه فإن سلم إليك الأمر و توجه إلى فاقم أنت بالشام ، و إن تعذر بشيء فارجع . فلما عرض جرير الكتاب على معاوية تعلل بمشاورة أهل الشام وغير ذلك فرجع جرير . فكتب معاوية في أمره على ظهر كتاب على " علي بن أبي الحسن : من لا يكتفى تعزلي والسلام . و أقول : الاستعداد : التهيئة للأمر . و الخداع : الأخذ بالحيلة . والأناة . الاسم من الثاني والرفق . و أردووا : أمهلوا . و نقمت الأمر بفتح القاف : أنكرته . فقوله : إن " استعدادي . إلى قوله : إن أرادوه .

المراد أن " أهل الشام في زمان كون جرير عندهم هم في مقام التروي والتفكير في أي الأمرين يتبعون . وإن لم يكن كلهم في بعضهم كذلك فلو اعتقد هو للحرب في تلك الحال لبلغهم ذلك فاحتاجوا إلى الاستعداد أيضاً و التأهيل للقاء فكان ذلك الاستعداد سبيلاً لغلق الشام بالكلية ، و صرفاً لمن يكون في ذهنه تردد في هذا الأمر أوفي قلبه اللحقوق به عمما يريد و ذلك مناف للحزم .

و قوله : قد وقت . إلى قوله : عاصياً .

أى قد وقت له وقتاً يصل إلينا فيه لا يختلف عنه إلا لأحد مائتين إما خداع فيهم له ومواعيد مختلفة بالجواب ليهروا أمورهم في تلك المدة ، وإما عصيان منه ومخالفته .

شرح ما يجري بجرى الخطبة الثانية والأربعين

فإن قلت : حصر تخلف جرير في هذين المانعين غير صحيح لجواز أن يتخلّف مرض أو موت أو غرض آخر .

قلت : إنَّه عليه لم يقصد الحصر اليقيني وإنما أراد الحصر بحسب غلبة الظن الناشئ من الأمارات والقرائن الحالية ثم كلامه عليه ليس في الأسباب الاضطرارية التي من قبل الله تعالى فإن ذلك أمر مفروغ منه لا يحسن ذكره ، وأمّا الموضع الاختياري فأمّا منهم و غالب الظن هو الخداع ، وأمّا منه و غالب الظن أنَّه العصيان إذ لا يتصور من مثل جرير وقد أرسل في مثل هذا الأمر منهم أن يعدل عنه إلى شغل اختياري لنفسه أو لغيره إلا أن يكون عاصيا .

وقوله : و الرأى مع الأنا .

رأى حق أجمع الحكماء على صوابه فإن إصابة المطالب والظفر بها في الغالب إنما هو مع التثبت والثانية في الطلب ، وذلك أنَّه الطالب هي مظنة فكره في الاهتداء إلى تلخيص الوجه الألائق والأقيس والأشمل للمصلحة في تحصيل مطلوبه ، ولذلك أكد بعض الحكماء الأمر بالثانية بقوله : من لم يتثبت في الأمور لم يعد مصيباً وإن أصاب . فالغرض وإن كان هو الإصابة إلا أنها وإن حصلت من غير الثانية كان مفترطاً وثمرة التفريط غالباً الندامة وعدم الإصابة ، والإصابة منه نادرة و النادر غير منتفع به ولا ملتفت إليه .

وقوله : فأردوها ولا أكره لكم الإعداد .

لما نبههم على فضيلة الآنة أمرهم بها وإن لم يأمرهم مطلقاً بل نبههم بقوله : ولا أكره لكم الإعداد على أمور ثلاثة :

أحددها : أنه ينبغي لهم أن يكونوا على يقظة من هذا الأمر حتى يكونوا حال إشارته إليهم قريين من الاستعداد .

الثاني : أن لا يتوهّم أحد منهم فيه مداخلة ضيق عن مفارقة أهل الشام فيدخلهم بسبب ذلك فشل وضعف عزيمة .

الثالث : ذكر شارح ابن أبي الحديد هو أنه عليه وإن كان كره الاستعداد

الظاهر إلا أن قوله : ولا أكره لكم الإعداد . تنبئه لهم على الاستعداد الباطن والتهيؤ في السر وربما كان فرار الشارح بهذا الوجه مما يتواهم تناقضًا وهو كونه قد أشار بترك الاستعداد ، ثم قال لأصحابه : ولا أكره لكم الإعداد ، وقد علمت أن تركه للإستعداد في ذلك الوقت و اختياره تركه لا ينافي تنبئهم على عدم كراهيته له ليكونوا منه على يقظة كما أو مأنا إليه .

وقوله : و لقد ضربت . إلى قوله : أو الكفر .

أقول : استعار لفظ العين والأنف والظهر والبطن التي حقائق في الحيوان لحاله مع معاوية في أمر الخلافة وخلاف أهل الشام له استعارة على سبيل الكنایة . فكتى بالعين والأنف عن المهم من هذا الأمر و خالصه فإن العين والأنف أعز ما في الوجه ، و كتى بالضرر بما عن قصده للمهم منه على سبيل الاستعارة أيضًا ، و كتى بلفظ الظهر والبطن لظاهر هذا الأمر و باطنه و وجوه الرأي فيه ، و لفظ التقليل لتصفح تلك الوجوه و عرضها على العقل واحداً واحداً .

قوله : فلم أر لي إلا القتال أو الكفر .

تعين ما اختاره بعد التقليل والتتصفح لوجوه المصلحة في أمر مخالفه وهو قتالهم ، ونبه على وجه اختياره له بقوله : أو الكفر : أى أن أحد الأمرين لازم إما القتال أو الكفر ؛ وذلك أنه إن لم يختار القتال لزم تركه و تركه مستلزم للकفر لكن التزام الكفر منه محال فتعين اختياره للقتال ، و مراده بالكفر الكفر الحقيقي " فإنه صرّح بمثله فيما قبل حيث يقول : وقد قلبت هذا الأمر بطنه و ظهره حتى منعني القوم فما وجدتني يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به عَنْه وَالْمُنْهَا .

فإن قلت : ما وجده الحصر في القتال والجحود مع أن ترك القتال بدون الجحود ممكن .

قلت : بيانه من وجهين .

أحدهما : قال الشارحون : إن الرسول وَالْمُنْهَا كان قد أمره بقتال من خالقه ، لقوله : أمرت أن أقاتل الناكثين والقاسطين والممارقين . فلو ترك قتالهم مع ما عليه أمر الإسلام من الخطر لكان قد خالف أمر الرسول و ظاهر أن مخالفه مثله يُنْهَا لا لأمر

الرسول لا يتصور إلا عن عدم اعتقاد صحتها وذلك جحديه و كفر .

الثاني : يحتمل أن يكون قد تجوّز بلفظ الجحود في التهاون بهذا الأمر تعظيمًا له في نفوس السامعين وهو من المجازات الشائعة .
وقوله : إِنَّهُ قَدْ كَانَ . إِلَى آخِرِهِ .

تبنيه على وجه عنده عما نسبه إليه معاوية وجعله سبباً لعصيائه لدوه الطلب بدم عثمان وتهمنه له بذلك ، وأراد بالوالى عثمان . والأحداث التي أحدثتها هو ما نسب إليه من الأمور التي أنكروها عليه كما سند كرها . وأوجد الناس مقالاً : أى جعل لهم بذلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا ، ثمَّ أنكروا ما فعل فعيروه وأزالوه . فاما الأحداث المنقولة عنه فالمشهور منها بين أهل السير عشرة :

الأولى : توليته أمور المسلمين من ليس أهلاً من الفساق مراعاةً للقرابة دون حرمة الإسلام كالوليد بن عقبة حتى ظهر منه شرب الخمر ، وسعید بن العاص حتى ظهرت عنه الأمور التي أخرجه أهل الكوفة منها بسببيها ، وعبد الله بن أبي سرح مع قوّة ظلمه وظلم المصريين منه وهو الذي اتهمه المسلمون بمكانته بقتل محمد بن أبي بكر ، ونقل أنهم ظفروا بالكتاب ولا جله عظم التظلم وكثرة الجمع واشتدّ الحصار عليه .

الثانية : ردّه للحكم بن أبي العاص إلى المدينة بعد طرد رسول الله ﷺ ، وبعد امتناع أبي بكر و عمر من ردّه . فخالف في ذلك سنة الرسول ﷺ وسيرة الشيفين ، وعمل بدعواه مجردة من البيينة .

الثالثة : أنه كان يؤثر أهله بالأموال العظيمة من بيت المال من غير استحقاق وذلك في صور : منها أنه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوجهم بينمااته أربع مائة ألف دينار ، ومنها أنه أعطى مروان مائة ألف دينار ، وروى خمس إفريقية و ذلك مخالف لسنة الرسول ﷺ ومن بعده من الخلفاء .

الرابعة : أنه حمى عن المسلمين بعد تسوية الرسول ينهم في الماء والكلاء .

الخامسة : أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها وذلك مالاً يجوز في الدين .

السادسة : أنه ضرب عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - وهو من أكبر الصحابة ،

وعلمائها حتى كسر بعض أضلاعه وذلك ظلم ظاهر .

السابعة : أنه جمع الناس على قرائة زيد بن ثابت خاصة وأحرق المصاحف وأبطل مالاشرك أنه من القرآن المنزل وذلك مخالفة الله ولرسول ولمن بعده .

الثامنة : أنه أقدم على عمار بن ياسر رحمة الله بالضرب مع أنه من أشرف الصحابة ، ومع علمه بما قال الرسول ﷺ : عمار جلدة ما بين عيني تقتله الفتنة الباغية لأنها الله شفاعتي . حتى أصابه الفتن ، ولذلك صار عمار مظاهراً لبعض المتظالمين منه على قتله ، وروى أنه كان يقول : قتلناه كافرا .

النinthة : إقدامه على أبي ذر مع ثناء الرسول ﷺ وصحبته له ، وقوله فيه : ما أفلت الغراء ولا أفللت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر . حتى نفاه إلى الريضة

العاشرة : تعطيله الحد الواجب على عبيدة الله بن عمر بن الخطاب فإنه قتل البرمان مسلماً بمجرد تهمته أنه أمر أبا لؤلؤة بقتل أخيه ثم لم يقدر به وقد كان على يُتَّبِعُهُ يطلب به بذلك . وهذه هي المطاعن المشهورة فيه . وقد أحب الناصرون لعثمان عن هذه الأحداث بأجوبة مستحسنة وهي مذكورة في المطولات من مظانها وإنما ذكرنا هذه الأحداث وآوردنها مختصرة لتعلق المتن بذكرها .

٤٣ - وَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِنَّ الْبِشَارُ

لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية ، وكان قد اتبع سبى بن ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه ، فلما طالبه بالمال خاص به وهرب إلى الشام :-

قَبَحَ اللَّهُ مَصْقُلَةَ فَعَلَ السَّادَاتِ ، وَفَرَّ فَرَارَ الْعَيْدِ ، فَإِنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَنَهُ ، وَلَا صَدَقَ وَاصْفَهَ حَتَّى بَكَتْهُ ، وَلَوْ أَقَمَ لَا خَذَنَا مِسْوَرَهُ

وَاتَّهَزَنَا بِمَالِهِ وَفُورَهُ .

أقول : مصلحة هذا كان عاملاً لعلى عليه السلام على أردشير خر . وبنو ناجية : قبيلة تسبوا أنفسهم إلى سامة بن لوى بن غالب فدفعتهم قريش عن هذا النسب وسمّتهم بنى ناجية وهي أمّهم إمرأة سامة ، و أمّا سبب هربه إلى الشام فهو أنّ الحريث أحد بنى ناجية كان قد شهد مع على عليه السلام صفين ثم استهواه الشيطان فصار من الخوارج بسبب التحكيم ، وخرج هو وأصحابه إلى المدائن مفارقاً العلّى عليه السلام فوجّه إليهم معلم بن قيس في ألفي فارس من أهل البصرة ولم يزل يتبعهم بالعسكر بعد العسّر حتى أحقّوهם بساحل فارس ، و كان به جماعة كثيرة من قوم الحريث وكان فيهم من أسلم عن النصرانية فلما رأوا ذلك الاختلاف ارتدوا واجتمعوا عليه فزحف إليهم معلم بن معه فقتل الحريث وجماعة منهم وسباً من كان أدرك فيهم من الرجال والنساء ، ونظر فيهم فمن كان مسلماً أخذ بيته و خلي سبيله واحتمل الباقين من النصارى وعيالهم معه وكانوا خمسماة نفر حتى مرّوا بمصلحة فاستغاثوا إليه الرجال والنساء ومجده و طلبوا منه أن يعتقهم فأقسم ليتصدقون عليهم بذلك ثم بعث إلى معلم بن قيس فابتاعهم منه بخمسة ألف درهم ثم وعده أن يحمل المال في أوقات مخصوصة فلما قدم معلم على عليه السلام وأخبره القصة شكر سعيه وانتظر المال من يد مصلحة فابطأ به فكتب إليه باستعجاله أو بقدومه عليه فلم يفتقراً كتابة قدم عليه وهو بالكوفة فاقرأه أيامًا ثم طالبه بماله فأدى منه مائة ألف درهم وعجز عنباقي وخلف فلحق بمعاوية فبلغ عليه عليه السلام فقال الفضل . ولنرجع إلى المتن .

قبحه الله : أى نحّاه عن الخير . والتبيّن : كالتربيع واللائمة . و الوفور : مصدر وفر المال أى نما وزاد ، وبروى موفورة .

و مقصوده عليه السلام بعد أن قدم الدعاء على مصلحة بيان خطأه فإنه أشار إلى جهة الخطأ وهي جمعه بين أمرتين متنافتين في العرف : وهما فعل السادة وذى المروءة والحمية حيث اشتراك القوم واعتظم ، مع الفرار الذي هو شيمة العبيد . ثم أكد عليه السلام ذلك بمثلين . أحدهما : ما أنطق مادحه حتى أسكنه ، و يفهم منه معنيان .

أحدهما : أن يكون حتى بمعنى اللام : أى إنه لم ينطق مادحه حتى يقصد إسكناته بحربه فإن إسكات المادح لا يتصور قصده لو قصد إلا بعد إتطاقه و هو لم يتمّ فعله

الذى يطلب به إنطاق مادحه ب مدحه من الـ كرم و الحمـية والرقـة و نحوها ، فـ كـأنـه قـصد إـسـكـاتـ مـادـحـهـ بـهـرـوـبـهـ فـأـزوـىـ عـلـيـهـ ذـلـكـ ، وـقـالـ : إـنـهـ لـمـ يـنـطقـهـ بـمـدـحـهـ فـكـيفـ يـقـصـدـ إـسـكـاتـهـ بـهـرـوـبـهـ ، وـإـنـ كـانـ العـاقـلـ لـاـيـتـصـورـ مـنـهـ قـصـدـ إـسـكـاتـ مـادـحـهـ عـنـ مـدـحـهـ إـلـاـ أـنـهـ لـاـخـتـيـارـ الـهـرـوبـ الـمـسـتـلزمـ لـإـسـكـاتـ اـمـادـحـ صـارـاـلـقـاصـدـ لـهـ فـنـسـبـ إـلـيـهـ .

الثـانـيـ : أـنـ يـكـونـ المـرـادـ أـنـهـ قـدـ جـعـ بـيـنـ غـايـيـنـ مـتـنـافـيـيـنـ : إـنـطـاقـهـ مـادـحـهـ بـفـداـهـ لـلـأـسـرـىـ ، مـعـ إـسـكـاتـهـ بـهـرـوـبـهـ قـبـلـ تـامـ إـنـطـاقـهـ . وـهـوـ وـصـفـ لـهـ بـسـرـعـةـ إـلـحـاقـهـ لـفـضـيلـتـهـ بـرـذـيلـتـهـ حـتـىـ كـأنـهـ قـصـدـ الـجـمـعـ بـيـنـهـمـ ، وـهـذـاـ كـمـاـ تـقـولـ فـيـ وـصـفـ سـرـعـةـ تـفـرـقـ الـأـحـبـابـ عـنـ اـجـتمـاعـهـمـ : مـاـ اـجـتـمـعـوـاـ حـتـىـ اـفـتـرـقـواـ : أـىـ لـسـرـعـةـ اـفـتـرـاقـهـمـ كـانـ الـدـهـرـ قـدـ جـعـ لـهـمـ بـيـنـ الـاجـتمـاعـ وـ الـاـفـرـاقـ .

الثـانـيـ : قـوـلـهـ : وـلـاـ صـدـقـ وـاصـفـهـ حـتـىـ بـكـتـهـ .

وـالـمـفـهـومـ مـنـهـ كـالـمـفـهـومـ مـنـ الـذـيـ قـبـلـهـ .

قـوـلـهـ : وـلـوـ أـقـامـ . إـلـىـ آخـرـهـ .

لـمـ أـشـارـ إـلـىـ خـطـاءـ أـرـدـفـهـ بـمـاـ يـصـلـحـ جـوـابـاـ طـاـعـاهـ يـكـونـ عـذـراـ لـهـ لـوـ اـعـتـذرـ وـ هـوـ توـهـمـ التـشـدـيدـ عـلـيـهـ فـيـ أـمـرـ الـبـاقـيـ مـنـ اـمـالـ حـتـىـ كـانـ ذـلـكـ الـوـهـمـ سـبـبـ هـزـيمـتـهـ ، وـ فـيـ بعضـ الـرـوـاـيـاتـ : لـوـ أـقـامـ لـأـخـذـنـاـ مـنـهـ مـاـ قـدـرـ عـلـيـهـ فـإـنـ أـعـسـرـ أـنـظـرـنـاهـ فـإـنـ عـجـزـ لـمـ نـأـخـذـ بـشـيءـ . وـالـأـوـلـ هـوـ الـمـشـهـورـ . وـبـاـلـهـ التـوـفـيقـ .

٤٤ — فـمـنـ جـلـبـتـهـ عـلـيـهـ الـسـلـامـ

الـحـمـدـ لـلـهـ غـيرـ مـقـنـوـطـ مـنـ رـحـمـتـهـ ، وـلـاـ مـخـلـوـ مـنـ نـعـمـتـهـ ، وـلـاـ مـاـيـوسـ مـنـ مـغـفـرـتـهـ ، وـلـاـ مـسـتـكـفـ مـنـ عـبـادـهـ ، الـذـيـ لـاـ تـبـرـحـ مـنـهـ رـحـمـهـ ، وـلـاـ تـفـقـدـ لـهـ نـعـمـةـ . وـالـدـنـيـاـ دـارـ مـنـهـ لـهـ الـفـنـاءـ ، وـلـاـ هـلـهـ مـنـهـ الـجـلـاءـ ، وـهـىـ حـلـوةـ خـضـرـةـ ، وـقـدـ بـعـدـتـ لـلـطـالـبـ ، وـالـتـبـسـ بـقـلـبـ النـاظـرـ ، فـأـرـجـلـوـاـ عـنـهـ

**بِأَحْسَنِ مَا حَضَرْتُكُمْ مِنَ الرَّادِ : وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ ، وَلَا تَطْلُبُوا
مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ**

أقول : هذا الفصل ملقط من خطبة طويلة له عليها خطب بها يوم الفطر . وهو غير متنسق بل بين قوله : نعمة ، قوله : والدينا . فصل طويل . وهذه الخطبة تنظم الفصل المتقدم ، وهو قوله : أمّا بعد فإنَّ الدنيا قد أدرت وهو فيها بعد هذا الفصل ولم نذكرها كراهة التطويل ، ولنعد إلى الشرح فنقول :

القنوط . اليأس . والاستكفار . ومني لها : أى قدر . والجلاء بالفتح
والمدّ : الخروج عن الوطن . والتبيّن : امتنجت . والكافف : ما كفَّ عن الناس أى
أغنى عنهم من المال . والبلاغ : ما بلغ مدة الحياة منه وكفى .

وأعلم أنه نبه على استحقاق الله تعالى للحمد ودوامه باعتبار ملاحظة ستة أحوال :
فأشار إلى الحالة الأولى بقوله : غير مقوط من رحمة مقررًا لقوله تعالى « و رحمتني
و سعت كل شيء » ^(١) ولقوله « لا يأسوا من روح الله إنَّه لا يُيأس من روح الله إلاَّ القوم
الكافرون » ^(٢) وهذه الحال مما يشهد بثباتها العقل إذ كان العبد عند أخذ العناية
إلاَّ بهيمة بضعيه يعلم استناد جميع الموجودات كلَّيَها وجزئيَّها إلى مدبر حكيم ، وأنَّه
ليس شيء منها خاليًا عن حكمة فيستلigh من ذلك أنَّ إيجاده له وأخذ العهد إليه بالعبادة
ليس إلاَّ لينجذب إلى موطنِه الأصليٍّ ومبدئه الأوليٍّ بالتوحيد المحقق » والحمد المطلق
عن نار أجيح و جحيم سعرت ، وما خلقت الجنّ و الإنس إلاَّ ليعبدون ، فلا يأس من
روح الله عند تزول أمر واجب النزول به مما يعده شرًّا بل يكون بر جائه أو ثق و قلبه
بشموله العناية له أعلم فإنه لا يأس من روح الله إلاَّ الذين عميّت أ بصائرهم عن
أسرار الله ، فهم في طغيانهم يعمّهون و أولئك هم الخاسرون .

وأشار إلى الحالة الثانية بقوله : ولا تخلو من نعمته . تقريرًا لقوله تعالى « وما بكم
من نعمة » فسبوغ نعمتكم دائم لآثار قدرته التي استلزمت طباعها الحاجة إليه فوجب لها

فيض جوده فاستلزم ذلك وجوب تصريحها بلسان حالها و مقالها بالثناء المطلق عليه دوام الشكر له وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا يفهون تسبيحهم .

و أشار إلى الحالة الثالثة بقوله : ولا مَيْوسٌ مِنْ مَغْفِرَتِهِ . تقريرًا لقوله تعالى « يا

عَبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا قَنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » ^(١) الآية و هي شهادة بشمول ستره و جيل عفوه و غفره ملن جذب بعقله أيدي شياطينه لتحطمه إلى مهابي الهالك فعجز عن مقاومتها بعد أن كانت له مسكة بجنب اللهم فضعف تلك المسكة عن أن تكون منجاة له حال مجاذبته لهواه وإن كان ذلك الغفران متفاوتاً بحسب قوّة تلك المسكة و ضعفها ، و العقل مما يؤيّد ذلك ويحكم بصحة هذه الشهادة فإنَّ كُلَّ ذي علاقة بجنب اللهم سيخلص من العقاب وإن بعد خلاصه على مانطق به البرهان في موضعه ، وذلك يستلزم الاعتراف بالإحسان و دوام الثناء والحمد .

ثم أشار إلى الرابعة بقوله : ولا مستكف عن عبادته تقريرًا لقوله تعالى « لا يَسْتَكْفُونَ عَنْ عَبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ » و قوله « لَنْ يَسْتَكْفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبُونَ » الآية و كونه تعالى غير مستكف عن عبادته شاهد عظيم على كمال عظمته وأنَّه المستحق للعبادة دون ماعدها إذ هو المجتمع للكمال المطلق فلا جهة نقصان فيه إليها يشار فيكون سبباً للاستكفار والاستكبار . وغير ، مع محال السلوب الثلاثة بعدها منصوبات على الحال .

وقوله : الَّذِي لَا تَبْرُحُ فِيهِ رَحْمَةٌ وَلَا تَفْنِدُ لَهُ نِعْمَةٌ .

اعتباران آخران يستلزمان في ملاحظتهما وجوب شكره تعالى . ونبيه بقوله : لا تبرح على دوام رحمة الله لعباده ، و قوله : لا تفقد له نعمة ك قوله : ولا مخلوٌ من نعمته ، ثم أعقب ذلك بالتبني على معائب الدنيا للتنتفير عنها فذكر وجوب الفداء لها ثم حذر بذكر العيب الأكبر لها الذي ترحب مع ذكره وملاحظته من له أدنى بصيرة عن الركون إليها ومحبة قيناتها وهو مفارقتها الواجبة والجلاء عنها ، ثم أردف ذلك بذكر جهتين

من جهات الميل إليها :

إحدىهما منسوبة إلى القوّة الدافقة وهي حلوتها ، والآخرى إلى القوّة الباصرة وهي خضرتها . وإطلاق لفظيهما مجاز كنى به عن جهات الميل إليها من باب إطلاق لفظ الجزء على الكل . وایرادهذين الوصفين اللذين هما وصفا مدح في معرض ذمها كتقدير اعتراض على ذمها الغرض أن يجيز عنه ، ولهذا عقب ذكرهما بما يصلح جواباً وبستنة على ما يصرف عن الميل إليها من هاتين الجهتين وهو كونها معجلة للطالب . إذ كان من شأن المعجل أن ينتفع به في حال تعجيله دون ما بعده خصوصاً في حق من أحب ذلك المعجل ولم يلتفت إلى مساواه . والدنيا كذلك كما أشار إليه بقوله : و التبست بقلب الناظر ، وإنما خص الناشر لتقديم ذكر الخضراء التي هي من حظ النظر فمن عجلت له منحة والتبتضت قبله و كان لا بد من مفارقتها لم ينتفع بما بعدها بل بقى في عذاب الفراق منكوساً وفي ظلمة الوحشة محبوساً ، وإليه أشار التنزيل الإلهي « من كان يريد العاجلة عجلناه فيها ما نشاء من نريد ثم جعلنا له جهنم يصلها متذمماً مدحوراً »^(١) ثم لما نبه على معايبها أمر بالارتحال عنها ولم يأمر به مطلقاً بل لا بد معه من استصحاب أحسن الأزواب إذ كانت الطريق المأمور بسلوكها في غاية الوعارة مع طولها وقصر المدة التي يتroxد فيها الزاد فلا ينفع إذن إلا التقوى الأبقى الذي لا يتطرق إليه فناء . ولا تفهمن - أعدكم الله لافضة رحته - من هذا الارتحال الحسي الحاصل لك من بعضها إلى بعض ، ولا من الزاد المأكول الحيواني « فإن أحسن ما يحضرنا منه ربما كان منهياً عنه ؛ بل المأمور به ارتحال آخر يتبيّنه من تصوّر سلوك طريق الآخرة . فإنك لما علمت أنّ الغاية من التكاليف البشرية هي الوصول إلى حضرة الله ومشاهدته جلال كبرياته علمت من ذلك أنّ الطريق إلى هذا المطلوب هي آثار جوده و شواهد آلامه وأنّ القاطع مراحل تلك الطريق و منازلها هو قدم عقلك مقتدياً بأعلامها الواضحة كلما نزل منها منزلًا أعدته المعرفة به لاستراحة أعلام منزل آخر أعلى وأكرم منه كما قال تعالى « لتركبن طبقاً عن طبق » إلى أن يستقر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وإذا تصوّرت معنى الارتحال وقد علمت أنّ لكل ارتحال وسفر زاداً علمت أنّ أكرم الزاد وأحسنه في هذا الطريق

ليس إلا التقوى والأعمال الصالحة التي هي غذاء للعقل ومادة حياتها، وإليه الإشارة بقوله «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» وأشار بقوله: ما بحضرتكم إلى ما يمكننا أن نأتي به من الأعمال الصالحة في حياتنا الدنيا، ثم عقب الأمر باستخاذ الزاد بالنبي عن طلب الزيادة على ما يقول به صورة البدن من متاع الدنيا إذ كان البدن منزلة قمر كوب تقطع به النفس مراحل طريقها فالزيارة على المحتاج إليه مما يحوج الراكب إلى الاهتمام به والعناية بحفظه المستلزم لحياته. وكل ذلك مثقل للظهر ومشغل عن الجهة المقصودة. وذلك معنى قوله: ولا تسألو منها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ، ولا تمدّن أعينكم فيها إلى مامتنع المترفون فتقصرؤ في الرحيل وتشغلوا بطلب مثل ما شاهدتم، وباشره التوفيق.

٤٥ - قِمْرَكَلَامِهِ عَلَيْهِ الْبَيْلَانُ

عند عزمه على المسير إلى الشام

اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر، وكابة المنقلب، وسوء النظر
في الأهل والمال. اللهم أنت الصاحب في السفر، وانت الخليفة في الأهل
ولَا يجمعهما غيرك؛ لأن المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب
لا يكون مستخلفاً.

أقول: روى: أنه عليه السلام دعا بهذا الدعاء عند وضعه رجله في الركاب متوجهاً إلى حرب معاوية.

ووعاء السفر مشقته، وأصله المكان المتعب لكثرة رمله، وغوص الأرجل فيه.
والكابة: الحزن.

يشتمل هذا الفصل على اللجوء إلى الله في خلاص طريقه المتوجه فيها بدءاً وعوداً

شرح كلامه الجارى مجرى الخطبة الخامسة والأربعين

من الموانع الصارفة عن تمام المقصود، وفي سلامة الأحوال المهمة التي تتعلق النفس بها عن المشتغلات البدنية المعاوقة عن عبادة الله. وأعظمها أحوال النفس، ثم ما يصح به من أهل ومال ولد. ثم عقب ذلك بالقرار بشمول عنانيته وجيئ رعايته وصحبيته تقريراً لقوله تعالى «وهو معكم أينما كنتم» إذ شأن الصاحب العناية بأمور صاحبه، وشأن الخليفة على الشيء العناية بذلك وحفظه مما يوجب له ضرراً، واستلزم جمعه له بين هذين الحكمين وهو الخلاف والاستصحاب بقوله: ولا يجمعهما غيرك. كونه تعالى بريئاً عن الجهة والجسمية إذ كان اجتماعهما ممتنعاً للاجسام. إذ لا يكون جسم مستصحيباً مستخلفاً في حال واحد، وأكذلك وبينه بقوله: لأن المستخلف لا يكون مستصحيباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً فان قلت: هذا الحصر إنما يتم لو قلنا: إن كل ما ليس بذاته هو واجب الوجود. وهذا مذهب خاص. فما وجه صحته مطلقاً؟.

قلت: الحصر صادق على كل تقدير فإنه على تقدير ثبوت أمور مجردة عن الجسمية والجهة سوى الحق سبعانه فالمستحق للجمع بين هذين الأمرين بالذات والأولى هو الله تعالى، وما سواه فالعرض. فيحمل الحصر على ذلك الاستحقاق.

ولنبحث عن فائدة الدعاء وسبب إجابته فإن دريماتعرض لبعض الأذهان شبهة فيقول: إنما أن يكون المطلوب بالدعاء معاوم الواقع لله أو معلوم اللاإلقاء. وعلى التقديرين لفائدة في الدعاء لأن ما علم الله وقوعه وجوبه وما علم عدمه امتنع. فنقول في الجواب عن هذا الوهم: إن كلَّ كاين فاسد موقف في كونه وفساده على شرائط توجده وأسباب تعدد لا أحدهما لا يمكن بدونها كما علمت ذلك في مطانته. وإذا جاز ذلك فعلل الدعاء من شرائط ما يطلب به. وهو وإن كان معلوم الواقع لله وهو سببهما وعلتهما الأولى إلا أنه هو الذي ربط أحدهما بالآخر فجعل سبب وجود ذلك الشيء الدعاء كما جعل سبب صحة المريض شرب الدواء و ما لم يشرب الدواء لم يصح. وأمّا سبب إجابته فقال العلماء: هو توافق الأسباب. وهو أن يتواتي سبب دعاء رجل مثلًا فيما يدعو فيه وساير أسباب وجود ذلك الشيء معاعن الباري تعالى، لحكمة إلهية على ما مقدر وقضى. ثم الدعاء واجب، وتوقع الإجابة واجب. فإن أبعاث الدعاء سببه من هناك وتصير

دعانا سبباً للإجابة . وموافقة الدعاء لحدوث الأمر المدعاً لأجله هما معلوماً علة واحدة ، وقد يكون أحدهما بواسطه الآخر ، وقد يتوجه أن السماويات تنفع عن الأرضية ، و ذلك أننا ندعو فيستجاب لنا . و ذلك باطل لأن المعلول لا يفعل في علةه البتة . وإذا لم يستجب الدعاء لداع وإن كان يرى أن العاية التي يدعوا لاجابتها نافعة فالسبب في عدم الإجابة أن العاية النافعة ربما تكون نافعة بحسب مراده بل بحسب نظام الكل فلذلك تتأخر إجابة دعائه أولاً يستجاب له ، وبالجملة يكون عدم الإجابة لفوات شرط من شروط ذلك المطلوب حال الدعاء .

وأعلم أن النفس الزكية عند الدعاء قد يفيض عليها من الأول قوة تصير بها مؤثرة في العناصر فتطاوهها متصرفة على إرادتها فيكون ذلك إجابة للدعاء فإن العناصر موضوعة لفعل النفس فيها . واعتبار ذلك في أبداننا فـ ربما تخيلنا شيئاً فتنغير أبداننا بحسب ما يقتضيه أحوال نفوسنا وتخيلاتها ، وقد يمكن أن تؤثر النفس في غير بدنها كما تؤثر في بدنها ، وقد تؤثر في نفس غيرها ، وقد أشرنا إلى ذلك في المقدمات . وقد يستجيب الله لتلك النفس إذا دعت فيما تدعوه فيه إذا كانت العاية التي تطلبها بالدعاء نافعة بحسب نظام الكل ، وبالله التوفيق .

٤٦ - وَمِنْ كُلِّ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِنَّ مَا لَيْسَ لِلْمُرْسَلِينَ

في ذكر الكوفة

كَافِ بِكَ يَا كُوفَةَ مُهَدِّيَنَ مَدَ الْأَدِيمِ الْعَكَاظِيَّ ، تُعَرِّكِينَ بِالنَّوَازِلِ ،
وَتَرَكِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنَّ لَا عَلَمَ أَهْمَارَادَ بِكَ جَارٌ سُومَا إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ
بِشَاغِلٍ ، وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ .

أقول : عكاظ بالضم : اسم موضع بناحية مكة كانت العرب تجتمع به في كل

سنة ويقيمون به سو فاً مدة شهر ، ويتباينون ويتناشدون الأشعار ، ويتغاخرون . وفي ذلك قول أبي ذؤيب :

وقام البيع واجتمع الألوف .

إذا بني القباب على عكاظ

فلما جاء الإسلام رفع ذلك ، وأديم عكاظي منسوب إليها لكثرة ما كان يباع منه بها . والأديم : واحد وجمعه أدم ، وربما جمع على آدمة كريغيف و أرغفة . و العرك . الدلك . و النوازل : المصائب . والخطاب هنا لشاهد حال المدينة التي هي الكوفة . وبك هو خبر كان ، وتمدّين وتعركين وتركتين في موضع النصب على الحال ، و تقدير الخطاب كأنّي حاضر بك و مشاهد لحالات المستقبلة حال تجاذب أيدي الظالمين لأهلك بأنواع الظلم ، وهو المكنّى عنه بمدها . و شبّه ذلك بـ "الأديم" ، و وجه الشبه شدة ما يقع بهم من الظلم والبلاء كما أن "الأديم" مستحكم الدباغ يكون شديد المد . واستعار العرك ملاحظة لذلك الشبه ، و لفظ الركوب ملاحظة لشبهها بشقى المطاياد كذلك لفظ الزلازل ملاحظة لشبهها فيما يقع لهم من الظلم الموجب لاضطراب الحال بالأرض ذات الزلازل . ثم أشار إلى مشاهدة ثانية لما يقع من أراديهم سوء و أوقع بهم ما أوقع من البلاء فأشار إلى كونهم جبارية ثم إلى ابتلاء الله بعضهم بشاغل في نفسه عمّا يريده من سوء أو يهم به من حدث خراب ورمي بعضهم بقاتل . فـ "المصائب" التي ابتلى بها أهل الكوفة والنوازل التي عركوا بها فكثيرة مشهورة في كتب التواريخ ، و أمّا الجبارية التي أرادوا بها سوءاً وطنعوا فيها فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب وأخذهم بذنوبهم وما كان لهم من الله واق فجماعة فممّن ابتلى بشاغل فيها زياد . روى أنه كان قد جمع الناس في المسجد ليأمرهم بسب على عَيْتَلَهُ والبراءة منه و يبنتلهم بذلك فقتل من يعصيه فيه فييناهم مجتمعين إذ خرج حاجبه فأمرهم بالانصراف ، وقال : إنّ الأمير مشغول عنكم وكان في تلك الساعة قدرمى (أصابخ) بالفالج ، و منهم ابنه عبد الله وقد أصابه العذام ، ومنهم الحجاج . وقد تولدت في بطنه الحيات واحتراق دبره حتى هلك ، ومنهم عمرو بن هبيرة وابنه يوسف وقد أصابهما البرص ، ومنهم خالد القسرى وقد ضرب وحبس حتى مات جوعاً ، و أمّا الذين رماهم الله بقاتل فيبيد الله بن زياد ،

ومصعب بن الزير ، والختارين أبي عبيدة الثقفي ، ويزيد بن المهلب . وأحوالهم مشهورة من رامها طالع التاريخ .

٤٧ - فَقَرْنَخْطَبَتْلَهُ عَلَيْنَا السَّلَامُ

عند المسير إلى الشام

الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّاً وَقَبْ لَلَّهِ وَغَسَقَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّاً لَاحْ بَحْمَ وَخَفَقَ ، وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ غَيْرِ مَفْقُودٍ الْأَنْعَامُ وَلَا مُكَافِيُ الْإِفْضَالِ .
أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ لَعِثْتُ مَقْدُمَتِي ، وَأَمْرَتُهُمْ بِلَزَوْمِ هَذَا الْمَلَاطِاطِ حَتَّى يَأْتِيهِمْ
أَمْرِي ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النَّطْفَةَ إِلَى شَرْذَمَةٍ مِنْكُمْ مُوْطَنِينَ أَكْنَافَ
دَجَلَةَ ، فَانْهَضُوهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ ، وَاجْعَلُوهُمْ مِنْ أَمْدَادِ القُوَّةِ لَكُمْ .

قال الشريف : أقول : يعني عليه السلام بالملطاط السمت الذي أمر به
بنزوله وهو شاطئ الفرات ، ويقال ذلك لشاطئ البحر ، وأصله ما استوى من
الأرض . ويعني بالنطفة ماء الفرات . وهو من غريب العبارات وأعجبها

أقول : روى أن هذه الخطبة خطب بها على الناس وهو بالنجيلة خارجاً من الكوفة
متوجهًا إلى صفين لخمس بقين من شوال سنده سبع ثلاثين .

وقب الليل : دخل . وغسق : أظلم . وخفق النجم : غاب . و مقدمة الجيش :
أوله . والشرمدة : النفر اليسير . والأكناfe : النواحي . وطن البقعة و استوطنهما :
استخذنها وطننا . والأمداد : جمع مدد ، وهو ما يمد به الجيش من الجندي .

واعلم أنه قيد حداهه باعتبار تكرر وقتين و دوام حالين . والمقصود وإن كان دوام
الحمد لله إلا أن في التقييد بالقيود المذكورة فوائد :

الأول : قوله : كُلَّمَا وَقَبْ لَيْلٍ وَغَسْقًا . فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى كَمَالِ قَدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَعْاقِبِ الظُّلْمِ وَالنَّهَارِ وَاسْتِحْقَاقِهِ دَوْامِ الْحَمْدِ بِمَا يَلْزَمُ ذَلِكَ مِنْ ضَرْبِ الْأَمْتَنَانِ .

الثاني : قوله : كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفْقٌ . فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى مَا يَلْزَمُ طَلُوعَ الْكَوَاكِبِ وَغَرْوبِهَا مِنَ الْحِكْمَةِ وَكَمَالِ النِّعَمَةِ كَمَا سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ .

الثالث : الحمد لِهِ حَالٌ كُونَهُ غَيْرُ مَفْقُودٍ إِلَيْهِ . وَقَدْ تَكَرَّرَتِ الإِشَارَةُ إِلَى فَائِدَةِ هَذَا الْقِيدِ .

الرابع : كُونَهُ غَيْرٌ مَكْافِئٌ لِإِفْضَالِ . وَفَإِيمَدَهُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ "إِفْضَالَهُ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَهَابَ إِلَيْهِ بِجَزَاءِ" إِذْ كَانَتِ الْقَدْرَةُ عَلَى الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ نِعَمَةً ثَانِيَةً . وَقَدْ سَبَقَ بِيَانَ ذَلِكَ إِيْضًا . فَأَمَّا قَوْلُهُ : أَمَّا بَعْدُ . إِلَى آخِرِهِ .

فَخَلاصَتْهُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ التَّوْجِهَ إِلَى صَفَّيْنِ بَعْثَ زَيَادَيْنِ النَّصْرِ وَشَرِيعَ بَنْ هَانِيَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ مَقْدَمَةً لَهُ وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَلْزِمُوا شَاطِئَ الْفَرَاتِ فَأَخْذُوا شَاطِئَهَا مِنْ قَبْلِ الْبَرِّ لِمَا يَلْقَى الْكُوفَةَ حَتَّى يَلْغُوا عَانَاتِ . فَذَلِكَ مَعْنَى أَمْرِهِ لَهُمْ بِلَزُومِ الْمَلَاطِاطِ وَهُوَ سَمْتُ شَاطِئَ الْفَرَاتِ ، وَأَمَّا هُوَ تَعَالَى فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْكُوفَةِ اتَّهَى إِلَى الْمَدَائِنِ فَحَذَّرَهُمْ وَوَعَظَهُمْ ثُمَّ سَارَ عَنْهُمْ وَخَلَفَ عَلَيْهِمْ عَدَىٰ بْنَ حَاتَمَ فَاسْتَخْلَصَ مِنْهُمْ ثَمَانَ مَائَةٍ رَجُلٌ فَسَارُوهُمْ وَخَلَفُوا مَعَهُمْ ابْنَهُ زَيْدًا فَلَحِقَهُ فِي أَرْبِعَمَائَةِ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : وَقَدْ رَأَيْتَ [أَرَدْتَ] أَنْ أَقْطُعَ هَذِهِ النَّطْفَةَ : أَنِّي الْفَرَاتَ إِلَى شَرْذَمَةٍ مِنْكُمْ مَوْطَنِينَ أَكْنَافَ دَجلَةِ وَهُمْ أَهْلُ الْمَدَائِنِ . فَأَمَّا الْمَقْدَمَةُ فَإِنَّهُ لَمَّا بَلَغُوهُمْ أَنَّهُ تَعَالَى سَاقَ عَلَى طَرِيقِ الْجَزِيرَةِ وَأَنَّ مَعاوِيَةَ خَرَجَ فِي جَوَعَهِ لِاستِبَالِهِ كَرِهُوا أَنْ يَلْقَوْهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَلَى تَعَالَى الْفَرَاتِ مَعَ قَلْمَةِ عَدِّهِمْ فَرَجَعُوا حَتَّى عَبَرُوا الْفَرَاتَ مِنْ هِيَتِ وَلَحِقُوا بِهِ فَصَوَّبُوا آرَائِهِمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ . وَبَاقِي الْكَلامِ ظَاهِرٌ .

٤٨ - فَمَنْ حَطَبَتِهِ عَلَيْهِ الْسَّبَلُ الْمُرَجَّعُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَّنَ خَيَّابَ الْأُمُورِ ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظَّهُورِ ،

وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ؛ فَلَا عَيْنٌ مِنْ لَمْ يُرِهْ تُنْكِرُهُ، وَلَا قَلْبٌ مِنْ أَثْبَتَهُ
يُبَصِّرُهُ؛ سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ لَا شَيْءٌ أَعْلَى مِنْهُ. وَقَرْبٌ فِي الدُّنْوِ فَلَا شَيْءٌ أَقْرَبُ
مِنْهُ. فَلَا أَسْتَعْلَوْهُ بَعْدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قَرْبٌ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ
بِهِ؛ لَمْ يُطِلِّعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صَفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجِبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ
الَّذِي تَشَهِّدُ لَهُ أَعْلَمُ الْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ — تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يَقُولُ الْمُشَهُونَ بِهِ، وَالْمُجَادِلُونَ لَهُ — عَلَوْا كَيْرًا.

أقول : يقال بطن الوادي : دخلته . وبطنت الأمر : علمت باطنه . وفي هذا الفصل
مباحث جليلة من العلم الإلهي وجلة من صفات الروبيّة :
أولها : كونه تعالى بطن خفيات الأمور وفهم منه معنيان :
أحدهما : كونه داخلاً في جلة الأمور الخفية ، ولما كان بواطن الأمور الخفية
أخفى من ظواهرها كان المفهوم من كونها بطنها أنت أخفى منها عند العقول .
الثاني : أن يكون المعنى أنه نفذ علمه في بواطن خفيات الأمور
أما المعنى الأول فبرهانه أنك علمت أن الإدراك إما حسي أو عقلي ، ولما كان الباري
تعالى مقدساً عن الجسمية منزها عن الوضع والجهة استحال أن يدر كه شيء من الحواس
الظاهرة والباطنة ، ولما كانت ذاته بريئة عن أنواع التراكيب استحال أن يكون للعقل
اطلاقاً عليها بالكتمه فخفاوة إذن على جميع الإدراكات ظاهر ، وكونه أخفى الأمور الخفية واضح .
وأما الثاني : فقد سبق منا بيان أنه عالم الخفيات والسرائر .
وثانيها : كونه تعالى قد دلت عليه أعلام الظاهر ، وكتى بأعلام الظهور عن آياته
وآثاره في العالم الدالة على وجوده الظاهر في كل صورة منها كما قال :
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .
وهي كناية بالمستعار ، ووجه المشابهة ما ينتمي من الاشتراك في الهدایة . وإلى هذا

الأعلام الاشارة بقوله تعالى « سُنْرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » ^(١).

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الطَّرِيقُ مِنِ الْإِسْتِدَالَلِ هِيَ طَرِيقُ الْمُلَيَّينِ وَسَائِرِ فَرَقِ الْمُتَكَلِّمِينَ فَإِنَّهُمْ يَسْتَدِلُّونَ أَوْ لَا عَلَى حَدُوثِ الْأَجْسَامِ وَالْأَعْرَاضِ ، ثُمَّ يَسْتَدِلُّونَ بِحَدُوثِهَا وَتَغْيِيرِ اتِّهَا عَلَى وُجُودِ الْخَالِقِ ، ثُمَّ بِالنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْمَلَائِقَاتِ عَلَى صَفَاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً . مَثَلًا بِحَكَامِهَا وَإِتقانِهَا عَلَى كَوْنِ فَاعْلَمِهَا عَالِمًا حَكِيمًا . وَبِتَخْصِيصِ بَعْضِهَا بِأَمْرِ لِيْسَ لِلآخرِ عَلَى كَوْنِهِ مُرِيدًا . وَنَحْوُ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الْحَكَامُ الْطَّبَيْعِيُّونُ يَسْتَدِلُّونَ أَيْضًا بِوُجُودِ الْحَرَكَةِ عَلَى مُحْرِكٍ ، وَبِامْتِنَاعِ اتِّصَالِ الْمُتَحْرِكَاتِ لِإِلَى أَوْلَى عَلَى وُجُودِ مُحْرِكٍ أَوْلَى غَيْرِ مُتَحْرِكٍ ، ثُمَّ يَسْتَدِلُّونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ مِبْدِئٍ أَوْلَى ، وَأَمَّا إِلَهِيَّوْنَ فَلَهُمْ فِي الْإِسْتِدَالَلِ طَرِيقٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّهُمْ يَنْظَرُونَ أَوْلَى فِي مُطْلَقِ الْوِجُودِ أَهْوَاجِبٌ أَوْ مُمْكِنٌ ، وَيَسْتَدِلُّونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى إِثْبَاتِ وَاجْبٍ ، ثُمَّ بِالنَّظَرِ فِي لَوَازِمِ الْوِجُودِ مِنِ الْوِحدَةِ الْحَقِيقَةِ عَلَى نَفِيِّ الْكَثْرَةِ بِوَجْهِهِ مَا الْمُسْتَلِزَمُ مِنِ الْعَدَمِ الْجَسَمِيَّةِ وَالْعَرْضِيَّةِ وَالْجَهَةِ وَغَيْرِهَا ، ثُمَّ يَسْتَدِلُّونَ بِصَفَاتِهِ عَلَى كِيفِيَّةِ صُورِ أَفْعَالِهِ عَنْهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ ، وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا الطَّرِيقُ أَجْلٌ وَأَشْرَفُ مِنِ الْطَّرِيقِ الْأُولَى ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِسْتِدَالَلِ بِالْعَلَمِ عَلَى الْمَعْلُومِ أَوْلَى الْبَرَاهِينِ بِإِعْطَاءِ الْيَقِينِ لِكَوْنِ الْعِلْمِ بِالْعَلَمِ الْمُعْيَنَةِ مُسْتَلِزَمًا لِلْعِلْمِ بِالْمَعْلُومِ الْمُعْيَنِ مِنْ غَيْرِ عِكْسٍ . وَمَطَاكِنُ صَدْرِ الْآيَةِ الْمَذَكُورَةِ إِشَارَةٌ إِلَى الْطَّرِيقَةِ الْأُولَى فَتَمَامُهَا إِشَارَةٌ إِلَى هَذِهِ الْطَّرِيقَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى « أَوْلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : وَإِنَّهُ طَرِيقُ الصَّدِيقِينَ الَّذِينَ يَسْتَشِيدُونَ بِهِ لَاعْلِيهِ : أَيْ يَسْتَدِلُّونَ بِوُجُودِهِ عَلَى وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ إِذْ هُوَ مِنْهُ ، وَلَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِوُجُودِ شَيْءٍ ؛ بَلْ هُوَ أَظَهَرٌ وَجُودًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَإِنْ خَفَى مِعَ ظَهُورِهِ فَلَشَدَّةُ ظَهُورِهِ ، وَظَهُورُهُ سَبَبُ بَطْوَنَهُ ، وَنُورُهُ هُوَ حِجَابُ نُورِهِ إِذْ كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ مِبْدَعَاتِهِ وَمَكَوْنَاتِهِ فَلَهَا عَدَّةُ أَلْسِنَةٍ تَشَهِّدُ بِوُجُودِهِ وَبِالْحَاجَةِ إِلَى تَدْبِيرِهِ وَقَدْرَتِهِ . لَا يَخَالِفُ شَيْءٌ مِنِ الْمَوْجُودَاتِ شَيْئًا فِي تَلْكَ الشَّهَادَاتِ وَلَا يَتَخَصَّصُ أَحَدُهَا بِعَدَمِ الْحَاجَاتِ ، وَفَدَ ضَرْبُ الْعُلَمَاءِ الشَّمْسُ مَثَلًا لَنُورِهِ فِي شَدَّةِ ظَهُورِهِ قَالُوا : إِنَّ أَظَهَرَ الْإِدْرَاكَاتِ الَّتِي

(١) ٤١ - ٥٣

يساعد عليها الوهم إدراكات الحواس ، وأظهرها إدراك البصر أظهر مدرك للبصر نور الشمس المشرق على الأجسام ، وقد أشكل ذلك على جماعة حتى قالوا : الأشياء الملوّنة ليس فيها إلّا ألوانها فقط من سواد ونحوه فاما أنّ فيها مع ذلك خروء يقارن اللون فلا . فإذا ذكرت تنبية هؤلاء على سهوهم . فطريقة التنبية بالتفرقة التي يجدونها بين غيبة الشمس بالليل واحتتجابها عن الملأ نات ، وبين حضورها بالنهار وإشراقها عليها مع بقاء الألوان في الحالين . فإن التفرقة بين المستضيء بها وبين المظلم المحجوب عنها جلية ظاهرة فيعرف وجود النور إذن بعده . ولو فرضت الشمس دائمة الإشراق على الجسم الملوّن لاتغيب عنه لتعذر على هؤلاء معرفة كون النور شيئاً موجوداً زائداً على الألوان مع أنه أظهر الأشياء وبه ظهورها ، ولو تصور له تعالى وتقدير عدم أو غيبة لأنعدت السماوات والأرض ، وكل ما انقطع نوره عنه لا دركت التفرقة بين الحالين وعلم وجوده قطعاً ؛ ولكن لما كانت الأشياء كلها في الشهادة به متسقة ، والآحوال كلها على نسق واحد مطردة متسقة كان ذلك سبباً لخفائه . فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره وخفى عليهم بشدة ظهوره .

ثالثها : إشارة إلى سلوب توجّب ملاحظة تركيبيها تعظيمه تعالى .

أحدها : كونه ممتنعاً على عين البصیر : أی لا يصح أن يدرك بحساسته البصر . وصدق هذا السلب ظاهر بدليل . هكذا الباري تعالى هو غير جسم وغير ذي وضع ، وكل ما كان كذلك فمتنع رؤيته بحساسته البصر فينتزع أَنَّه تعالى ممتنع الرؤية بحساسته البصر . و المقدمة الأولى استدلالية ، و الثانية ضرورة ، وربما استدلّ عليها . والمسللة مستقصاة في الكلام . وإلى ذلك أشار القرآن الكريم « لا تدرکه الأ بصار وهو يدرك الأ بصار »^(١) .

وثانيها : قوله : فلا عين من لم يره تنكّره : أی إنَّه سبحانه مع كون البصر لا يدركه بحساسته بصره لا ينكره من جهة أنه لا يبصره . إذ كانت فطرته شاهدة بظهور وجوده في جميع آثاره ومع ذلك ليس له سبيل إلى إنكاره من جهة عدم إبصاره إذ كان حظ العين

شرح الخطبة الثامنة والأربعين

أن يدرك بها ما صح إدراكه . فاما أن ينفي بها مالا يدرك من جهتها فلا .
 و ثالثها : قوله : ولا قلب من أثبته يبصره : أي من أثبته مع كونه مثبتا له بقلب
 لا يبصره ، وإنما أكد عليه بهذين السلين الآخرين لأنهما يشتملان عند الوهم في
 مقدم سمعها على منافات وكذب إلى أن يقهره العقل على التصديق بهما فكان الوهم
 يقول في جواب قوله : فلا عين من لم يره تذكره : كيف لا تذكر العين شيئا لا تراه ، وفي
 جواب السلب الثاني : كيف يثبت بالقلب ما لم يبصر . فلما كان في صدق هذين السلين
 إذ عاج لأوهام السامعين مفرغ لهم إلى ملاحظة جلال الله وتنزيهه وعظمته عما لا يجوز
 عليه كان ذكرهما من أحسن الذكر ، ويحتمل أن يريد بقوله : ولا قلب من أثبته
 يبصره : أي إنه وإن أثبته من جهة وجوده فيستحيل أن يحيط به علمًا .
 ورابعها : كونه تعالى قد سبق في العلو فلا شيء أعلى منه ، ونفيه أن العلو
 يقال بالاشتراك على معان ثلاثة :

الأول : العلو الحسنى المكانى كارتفاع بعض الأجسام على بعض .

الثاني : العلو التخيلى كما يقال للملك الإنساني : إنه أعلى الناس : أي أعلىهم
 في الرتبة التخييلة كمالاً .

الثالث : العلو العقلى كما يقال في بعض الكمالات العقلية التي بعضها أعلى من
 بعض ، وكما يقال : السبب أعلى من المسبب .

إذا عرفت ذلك فنقول : يستحيل أن يكون علو تعالى بالمعنى الأول لاستحالة
 كونه في المكان ، ويستحيل أن يكون بالمعنى الثاني لتنتزهه سبحانه عن الكمالات
 الخيالية التي يصدق بها العلو الخيالي إذ هي كمالات إضافية تتغير وتتبدل بحسب
 الأشخاص والأوقات ، وقد يكون كمالات عند بعض الناس ونقصانات عند آخرين
 كدول الدنيا بالنسبة إلى العالم الزاهد ، ويترافق إليه الزيادة والنقصان ولا شيء من
 كمال الأول الواجب سبحانه كذلك لتنتزهه عن النقصان والتغيير بوجه ما . فبقي أن
 يكون علوه علواً عقلياً مطلقاً بمعنى أنه لا رتبة فوق رتبته بل جميع المراتب العقلية
 منحطة عنه . وبيان ذلك أن أعلى مراتب الكمال العقلى هو مرتبة العلية ، ولما كانت

ذاته المقدّسة هي مبدء كلّ موجود حسيّ و عقليّ و علته التامة المطلقة لا يتصوّر النقصان فيها بوجه ما لا جرم كانت مرتبته أعلى المراتب العقلية مطلقاً، و له الفوق المطلق في الوجود العاري عن الإضافة إلى شيء وعن إمكان أن يكون فوقه ما هو أعلى منه . و ذلك معنى قوله : سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه ، فسبق في علوّه تفرّده في العلوّ المطلق و فواته لغيره أن يلحقه فيه .

و خامسها : قربه في الدنوّ فلا شيء أدنى منه . وقد أورد عليه السلام القرب هيئنا مقابلاً للبعد اللازم عن السبق في العلوّ فإنه مستلزم للبعد عن الغير فيه ، و أورد الدنوّ مقابلاً للعلوّ ، و كما علمت أنّ العلوّ يقال على المعانى الثلاثة المذكورة بحسب الاشتراك فكذلك الدنوّ يقال على معانى ثلاثة مقابلاً لها . فيقال مكان فلان أدنى من مكان فلان إذا كان أسفل منه . و إن كان يقال بمعنى القرب أيضاً ، و يقال رتبة الملك الفلاميّ أدنى من رتبة السلطان الفلاميّ إذا كان في مرتبته أقلّ منه ، و يقال رتبة المعلول أدنى من رتبة علته . و يقال على معنى رابع فيقال فلان أدنى إلى فلان و أقرب إليه إذا كان خصيّصاً به مطلعاً على أحواله أكثر من غيره ، و البارى تعالى منزه عن أن يراد بدنوه أحد المفهومات الثلاثة الأولى بل المراد هو المفهوم الرابع فقربه في دنوه إذن بحسب علمه الذي لا يعزّب عنه مثقال ذرة في الأيمن ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، و بهذا الاعتبار هو أقرب كلّ قريب وأدنى كلّ داني كما قال تعالى « و نحن أقرب إليه من حبل الوريد » و هو أدنى إلى العبد من نفسه إذ نفس كلّ إنسان لا تعرف نفسها ، و هو سبحانه العالم بها الموجد لها فهو إذن القريب في دنوه الذي لا شيء أقرب منه ، و إنما أورده بلفظ الدنوّ لتحصل المقابلة فتنزعج النقوص السليمة عند إنكار الوهم لاجتماع القرب و البعد و العلوّ و الدنوّ في شيء واحد إلى توهّم [تفهّم خ] ، المقاصد بها و تطّلع على عظمته الحقّ سبحانه منها .

و قوله : فلا استغفار له باعده من شيء من خلقه ، ولا قربه سوا هم في المكان به . تأكيد لردّ الأحكام الوهمية بالأحكام العقلية فإنّ الوهم يحكم بأنّ ما استعمل على الأشياء كان بعده عنها بقدر علوّه عليها . و ما قرب منها فقد سواها في أمكنتها ،

شرح الخطبة الثامنة والأربعين

و ذلك لكونه مقصوراً للحكم على المحسوسات ، ونحن لما يسنا أنّ علوّه على خلقه وقربه منهم ليس علوّاً وقرباً مكابيّين بل بمعانٍ أخرى لا جرم لم يكن استعاؤه بذلك المعنى على مخلوقاته مباعداً له عن شيء منها ولم يكن منافيّاً لقربه بالمعنى الذي ذكرناه بل كان الاستعاء والقرب مجتمعين له ، ولم يكن قربه منها أيضاً موجباً لمساواته لها في المكان عناداً للوهم وردّاً لأحكامه الفاسدة في صفات العجالل ونحوت الكمال .

و سادسها : كونه لم تطلع العقول على تحديد صفتة ولم يحجبها عن واجب معرفته . ويفهم من صفتة معنيان : أحدهما شرح حقيقة ذاته ، و الثاني شرح مالها من صفات الكمال المطلق . و ظاهر أنّ العقول لم تطلع على حصر صفتة و تحديدها بالمعنى الأول إذ لاحد لحقيقة ، ولا بالمعنى الثاني أيضاً إذ ليس ما يعتبره العقول من كماله سبحانه نهاية يقف عندها فتكون حدّاً له ، وأما أنه سبحانه مع ذلك لم يحجبها عن واجب معرفته فلا ته تعالى وهب لكلّ نفس قسطاً من معرفته هو الواجب لها بحسب استعدادها لقبوله حتى نفوس العجاذين له فإنّها أيضاً معترفة بوجوده لشهادة أعلام الوجود وآيات الصنع له على نفس كلّ جاحد بتصورها عنه بحيث يحكم صريح عقلها وبديهتها بالحاجة لما يشاهده من تلك الآيات إلى صانع حكيم فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب كلّ من جحده بأنّ جحده له إنّما هو رأى اتبع فيه وهمه مع إقرار قلبه بالتصديق به وشهادة آيات الصنع و شواهد الآثار على صحة ذلك الإقرار .

و أعلم أنّ الجحود على نوعين : أحدهما جحود تشبيه إذا المشبهون الله بخلقهم وإن اختلفوا في كيفية التشبيه بأسرهم جاحدون له في الحقيقة . و ذلك أنّ المعنى الذي يتصورونه إليها ليس هو نفس الإله مع أنّهم ينفون ما سوى ذلك فكانوا نافين للإله الحقّ في المعنى الذي يتصورونه ، والثاني جحود من لم ثبت صانعاً . و كلا الفريقين جاحد لهم وجه ، مثبت لهم وجه . أما المشبهون فمثبتون لهم بحاجة جاحدون له لزوماً ، وأما الآخرون فالعكس إذ كانوا جاحدين له صريحاً من الجهة التي ثبته العقلاه بها و مقرّون به التراماً و اضطراراً ، ولذلك نزّهه عليه السلام على أحوال الفريقين فقال عليه السلام : تعالى الله عما يقول المشبهون به و الجاحدون له علوّاً كبيراً ، و حكى أنّ زديقاً دخل على

الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام فسأله عن دليل إثبات الصانع فأعرض عليهما عنه، ثم التفت إليه، وسأله من أين أقبلت وما قصتك. فقال الزنديق : إني كنت مسافراً في البحر فعصفت علينا الريح ذات يوم وتلقيت بنا الأمواج من كل جانب فانكسرت سفينتنا فتعلقت بخشبة منها ولم تزل الأمواج تقلبها حتى قذفت بها إلى الساحل وسلمت عليها . فقال له عليهما السلام : أرأيت الذي كان قلبك إذا تكسرت السفينة و تلاطمت عليكم أمواج البحر فرعاً إليه مخلصاً في التضرع له طالباً للنجاة منه فهو إليك ، فاعترف الزنديق بذلك و حسن اعتقاده . و بالجملة فاتفاق العقول على الشهادة بوجود الصانع سبحانه أمر ظاهر و إن خالطها غواشى الأوهام و إليه الإشارة بقوله « و إذا مسكم الشر في البحر ضل » من تدعون إلا إياته فلم ينجحكم إلى البر أعرضتم و كان الإنسان كفوراً^(١) و قوله تعالى « حتى إذا كنتم في الفلك و جرین بهم بريح طيبة و فرحاها بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان و ظنوا أنفسهم أحبط بهم دعووا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتك من هذه لنكونن » من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق »^(٢) و بالله التوفيق .

٤٩— فِي مِنْجَبِ طَبَّابَةِ مَلَكِ عَلَيْهِ الْسَّيْلَانُ

إِنَّمَا بَدَءَ وَقْوِعُ الْفَتَنِ اهْوَاءً تَبْغِيْعُ ، وَاحْكَامَ تَبْدِعُ ، يُخَالِفُ فِيهَا كِتَابَ
الله ، وَيَتَوَلَّ عَلَيْهَا رِجَالٌ رَجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ الله ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ
مِنْ مَزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنَ الْبَاطِلِ أَنْقَطَعَتْ
عَنِ السِّنِ الْمَعَانِدِينَ ، وَلَكِنَّ يَؤْخُذُهُمْ هَذَا ضُغْطٌ ، وَمِنْ هَذَا ضُغْطٌ فِي خَرْجَانِ
فَهَذَا الْكَيْسَنُ يَسْتَوِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلَائِهِ ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقُتْهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحَسَنِ .

أقول : المرتاد : الطالب . و الضفت : القبضة من الحشيش .

و أعلم أنّ مبدء وقوع الفتن المؤدية إلى خراب العالم و فساده إنما هو اتباع الهوى و الآراء الباطلة والآحكام المبتعدة الخارجة عن أوامر الله ، و ذلك أنّ المقصود من بعثة الرسل و وضع الشريعة إنما هو نظام أحوال الخلق في أمر معاشهم و معادهم فكان كلّ رأي ابتداع أو هوى اتبع خارجاً عن كتاب الله و سنة رسوله سبيلاً لوقوع الفتنة و تبديد نظام الموجود في هذا العالم . و ذلك كأوهاء البعثة و آراء الخوارج و نحوها . و قوله : فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق . إلى آخره .

إشارة إلى أسباب تلك الآراء الفاسدة . ومدار تلك الأسباب على امتراج المقدمات الحقة بالباطلة في الحجج التي يستعملها المبطلون في استعلام المجهولات في حين أنّ السبب هو ذلك الامتراج بشرطيتين متصلتين .

إحديهما : قوله : فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين . و وجه الملازمة في هذه المتصلة ظاهر فإنّ مقدمات الشبهة إذا كانت كلّها باطلة أدرك طالب الحق وجه فسادها بأدئي سعي ولم يخف عليه بطلانها ، و أمّا استثناء نقيس تاليها فلا نتهيّاً متأخفي ووجه البطلان فيها على طالب الحق لم يكن الباطل فيها خالصاً من مزاج الحق . فكان ذلك هو سبب الغلط و اتباع الباطل لأنّ النتيجة تتبع أحسن المقدمتين . و الثانية : قوله : و لو أنّ الحق خلص من [ليس بـ] الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين ، و وجه الملازمة أيضاً كما مرّ : أي إنّ مقدمات الحجّة التي يستعملها المبطلون لو كانت كلّها حقيقة مرتبة ترتيباً حقاً وكانت النتيجة حقاً انقطعت ألسنتهم عن العناد فيه و المخالفة له . وقد حذف عليك السلام كبرى هذين القياسين لأنّهما قياساً ضمير كما سبق ، ثمّ أتى بالنتيجة أو ما في معناها و هو قوله : ولكن يؤخذ من هذا ضفت ، ومن هذا ضفت : أي من الحق و الباطل فيمزجان ، و لفظ الضفت مستعار ، و مقصوده بذلك التصرّح بلزم الاراء الباطلة و الأهواء المبتعدة مزاج الحق بالباطل . ولذلك قال :

و هنالك يستولى الشيطان على أوليائه : أي إنه يزّعن لهم اتباع الأهواء و الأحكام الخارجية عن كتاب الله بسبب إغواههم عن تمييز الحق من الباطل فيما سلكوه من الشبهة

وينجو الذين سبق لهم منا الحسني : أى من أخذت عنابة الله بأيديهم في ظلمات الشبهات فقادتهم فيها بإضافة نور الهدایة عليهم إلى تميّز الحق من الباطل و «أولئك هم عن النار مبعدون » .

٥ - قَمْزَلَامِلَةُ عَلَيْهِنَّ الْمُتَّلَاهِنَّ

لَا غَلَبَ أَحْصَابَ مَعَاوِيَةَ أَحْصَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى شَرِيعَةِ
الفَرَاتِ بِصَفَنِ وَمَنْعُومِ المَاءِ

قَدْ أَسْطَعْمُوكُمُ الْقِتَالَ فَاقْرُوا عَلَى مَذَلَّةِ ، وَتَأْخِيرِ حَمَّةِ ؛ أُورُوا السَّيْوَفَ
مِنَ الدَّمَاءِ رُوَوا مِنَ الْمَاءِ ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورُينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ
فَاهْرِنَ . الْأَوَّلَ إِنَّ مَعَاوِيَةَ قَادَ لَهُ مِنَ الْغَوَّةِ . وَعَمِسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرُ ، حَتَّى
جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنَيَّةِ .

أقول : اللمة بالتخفيض : الجماعة القليلة . و عمس بالتخفيض والتشديد : عمى وأبهم ، ومنه عمس الليل أظلم . وال محللة : المنزلة . وفي الفصل لطائف .
الأولى : قوله : قد استطعموكم القتال .

استعارة لفظ الاستطاعام لتحرّشهم بالقتال في منعهم للماء . ووجه الاستعارة استسهالهم للقتال و طلبهم له بمنع الماء الذي هو في الحقيقة أقوى جذباً للقتال من طلب المأكول بالأقوال . ولأنّهم لما حازوا الماء أشبهوا في ذلك من طلب الطعام له ، ولما استلزم ذلك المنع طلبهم للقتال تعين أن يشبه ما طلبوا إطعامه .

الثانية : قوله : فَاقْرُوا عَلَى مَذَلَّةِ ، وَتَأْخِيرِ حَمَّةِ . إلى قوله : الماء .

أمر لهم بأحد لازمين عن منعهم الماء واستطاعهم القتال : إما ترك القتال ، أو إيقاعه . وإنما أورد الكلام بصورة التخيير بين هذين اللازمين و إن لم يكن مراده إلا القتال لعلمه بأنّهم لا يختارون ترك القتال مع ما يلزم من الإقرار بالعجز و المذلة

شرح كلامه لماً غلب أصحاب معاوية أصحابه على الشريعة

والاستسلام للعدو وتأخير المنزلة عن رتبة أهل الشرف والشجاعة ، وإنما أورد الوصفين اللازمين لترك القتال . و بما الإقرار على المذلة و على تأخير المحلة لينفر بهما عنه و يظهره لهم في صورة كريهة ، وإنما جعل الري من إماء الذي هو مشتهي أصحابه في ذلك الوقت لازماً لترويهم السيف من الدماء التي يلزمها القتال ليرويهم القتال في صورة محبوبة تميل طباعهم إليها . و نسبة التروي إلى السيف نسبة مجازية .

الثالثة : قوله : فالموت في حياتكم مقهورين ، و الحياة في موتكم فاھرين .
 من لطاف الكلام و محاسنه وهو جذب إلى القتال بأبلغ ما يمكن من البلاغة فجذبهم إليه بتصویره لهم أن الغاية التي عساهم يفرّون من القتال خوفاً منها وهي الموت موجودة في الغاية التي عساهم يطلّبونها من ترك القتال وهي الحياة البدنية حال كونهم مقهورين . و تجواز بلفظ الموت في الشدائد والأهواء التي تلهمهم من عدوهم لو قهرهم وهي عند العاقل أشد بكثير من موت الدين وأقوى مقاومة فإن المذلة وسقوط المنزلة والهضم والاستنقاص عندى اللب موات متعاقبة ، و يحتمل أن يكون مجازاً في ترك عبادة الله بالجهاد فإنه موت للنفس وعدم لحياتها برضوان الله ، و كذلك جذبه لهم أن الغاية التي تفرّون إليها بترك القتال وهي الحياة موجودة في الغاية التي تفرّون منها وهي الموت البدني حال كونهم فاھرين أمامي الدنيا فمن وجهين : أحدهما الذكر البافى الجميل الذي لا يموت ولا يفنى . الثاني أن طيب حياتهم الدنيا إنما يكون بنظام أحواهم بوجود الإمام العادل وبقاء الشريعة كما هي ، وذلك إنما يكون باللقاء أنفسهم في غرّات الحرب محافظة على الدين وموت بعضهم فيها . و لفظ الموت مهملاً تصدق نسبته إلى الكل وإن وجد في البعض ، وأمّا في الآخرة فالبقاء الأبدى بالمحافظة على وظائف الله والحياة التامة في جنّات عدن كما قال تعالى « ولا تحبسن الذين قتلوا في سبيل الله أمواطاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » ^(١) وفي القرینتين الأوليين السبع المتوازي و في اللتين بعدهما السبع المطرف ، و في اللتين بعدهما المقابلة .

الرابعة : قوله : ألا وإن معاوية .

ذكر للعدو بربيلتين ، ولا أصحابه بربيلتين أما الأوليان فكونه قائد غواة ، وكونه قد لبس عليهم الحق بالباطل وأراهم الباطل في صورة الحق ، وأما الآخريان لكونهم غواة عن الحق ، وكونهم قد انقادوا للباطل عن شبهة حتى صار جهله مرتكبة ، والغرض من ذلك التغافل عنهم ، وقوله : حتى جعلوا نجورهم أغراض المنية غاية لا أصحاب معاوية من تلبيسه الحق عليهم . وكتني بذلك عن تصديتهم للموت ، ولغط الغرض مستعار لنجورهم ، ووجه المشابهة جعلهم لنجورهم بصدق أن تصيبها سهام المنية من الطعن والضرب والذبح ووجوه القتل فأثبتت ما ينصبه الرامي هدفا . و هي استعارة بالكتابية كأنه حاول أن يستعيير للمنية لفظ الرامي . وبالله التوفيق .

٥١ - فَمِنْ حَاطِبَةِ الْمُكَبَّرِ عَلَيْنَا السَّلَامُ

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصْرَمَتْ وَآذَنَتْ بُوَدَاعَ ، وَتَسْكُرَ مَعْرُوفُهَا ،
وَادْبَرَتْ حَدَاءَ فَهِيَ تَحْفَرُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا ، وَمَحْدُو بِالْمَوْتِ جِرَانَهَا ، وَقَدْ
أَمَرَ مِنْهَا مَا كَانَ حُلُوا ، وَكَدَرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفَوا ، فَلَمْ يَقِنْ مِنْهَا إِلَّا سَمْلَةً
كَسْمَلَةِ الْإِدَاؤَةِ ، أَوْ جُرْعَةَ بَكْرَعَةِ الْمَقْلَةِ ، لَوْمَزَ زَهَا الصَّدِيَانِ لَمْ يَنْقُعْ
فَازْمَعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالِ ،
وَلَا يَعْلَمُونَكُمْ فِيهَا الْأَمْلُ وَلَا يَطُولُنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمْدُ ، فَوَاللَّهِ لَوْ حَنِتْمَ حَنِينَ الْوَلَةَ
الْعِجَالِ ، وَدَعَوْتُمْ بِهِ دِيلَ الْحَمَامِ ، وَجَارِمْ جَوَارِمْ بَنْ الْرَّهَبَانِ ، وَحَرَجَتْ
إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، الْعَلَاسَ الْفَرَبَةَ إِلَيْهِ فِي أَرْتِقَاعِ دَرَجَةِ عَنْهُ ، أَوْ
غُفَرَانِ سَيِّنَةِ أَحْصَنَتْهَا كُتُبَهُ ، وَحَفَظَهَا رَسُلُهُ ، لَكَانَ قَلِيلًا فِيهَا أَرْجُوكُمْ

مِنْ ثَوَابِهِ ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عَقَابِهِ . وَاللَّهُ لَوْ أَنْمَاتَ قُلُوبُكُمْ أَمْيَاثًا ،
وَسَالَتْ عَيْنُكُمْ ، مِنْ رَغْبَةِ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةِ مِنْهُ ، دَمًا ، ثُمَّ عُرِمَ فِي الدُّنْيَا
مَا الدُّنْيَا نَاقِةٌ ، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ ، وَلَوْلَمْ تَبَقَّوا شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ ، أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ وَهَدَاهُ إِيَّاكُمْ لِإِيمَانِكُمْ .

أقول : آذنت : أعلمت . وتنكر معرفتها : جهل . وحداء : سرعة خفيفة ، وبروى بالجيم : أي مقطوعة الخبر والعلاقة . والحفز : السوق الحديث . والحفز أيضاً الطعن ، والسلمة بفتح الميم : البقية من الماء في الإناء . والمقللة بفتح الميم وسكون الفاف : حصة يقسم بها الماء عند قلته يعرف بها مقدار ما يسكن كل شخص . والتمزّز : تمتص الشراب قليلاً قليلاً . والصديان : العطشان . ونفع ينفع : أي سكن عطشه . وأزمعت الأمر وأزمعت عليه : أي ثبتت عزمه على فعله . والمقدور : المقدر الذي لا بد من كونه . والأمد : الغاية . والوله العجال : جمع واله وعجل ، وهو ما من الإبل النوق تفقد أولادها . وهديل الحمامنة : نوحها . والجوار : الصوت المرتفع . والتبتل : الانقطاع إلى الله بإخلاص النية . وانماث الشيء : تحلل وذاب .

واعلم أنَّ مدار هذا الفصل على أمور ثلاثة :
أحدها : التتفير عن الدنيا والتحذير منها والنهي عن تأميمها والأمر بالرحيل عنها .
الثاني : التنبيه على عظيم ثواب الله وما ينبغي أن يرجي منه ويلتفت إليه ويقصد بالرحيل بالنسبة إلى ما الناس فيه مما يتوهّم خيراً في الدنيا ثم على عظيم عقابه وما ينبغي أن يخاف منه .

الثالث : التنبيه على عظمة نعمة الله على الخلق ، وأنه لا يمكن جزاءها بأبلغ المساعي وأكثر الاجتهد .

أما الأول : فأشار به قوله : ألا وإنَّ الدُّنْيَا قد تصرَّمت . إلى قوله : فيها الأمد . وقد علمت أنَّ تصرَّمها هو تفاصي أحوالها الحاضرة شيئاً فشيئاً بالنسبة إلى من

و جد فيها في كل حين ، وأن إذنها بالانفصال هو إعلامها بلسان حالها لأذهان المعتبرين أنها لا تبقى لأحد ، فاما تذكر معرفتها : فمعناه تغيره وتبدلها ، ومثاله أن الإنسان إذا أصاب لذاته من لذات الدنيا كصحّة أو أمن أو جاه و نحوه أنس إليه و توهم بقاءه له وكان ذلك معرفتها الذي أسدته إليه و عرفه وألفه منها ، ثم إنّه عن قليل يزول و يتبدل بضده فتصير بعد أن كان معروفاً مجرّلاً . و تكون الدنيا كصديق تذكر في صداقته و مزاجها بعداوته .

وقوله : و أذرت حذاء .

أى ولّت حالاً لا تعلق لأحد بشيء منها سرعة ، واستعار لفظاً لإبار لانتقال خيراتها عن انتقالت عنه بموجتها أو غير ذلك من وجوه زوالها ملاحظة لشبهها بملك أعرض عن بعض رعيته برفده و ماله و بره .

قوله : فهي تحفظ بالفناء سكانها و تحيط بالموت جيرانها .

استعار لها وصفي السائق والحادي استعارة بالكتابية . و وجه المشابهة كونهم قاطعين مدة العمر بالفناء والموت فهي مصاحبة لهم بذلك كما يصبح السائق والحادي للإبل بالسوق والحداء ، وإن أريد بالحفظ الطعن فيكون قد تجوز بحسبه إلى البلاه ملاحظة لشبه مصائب الدنيا بالرماح ، وكذلك استعار لفظ الفناء والموت لآلة السوق والحداء و نزلهما منزلة الحقيقة . و وجه المشابهة كون الموت هو السبب في انتقال الإنسان إلى دار الآخرة كما أن الصوت والسوط مثلاً للذين هما آلات الحداء والسوق هما اللذان بهما يحصل انتقال الإبل من موضع إلى موضع .

وقوله : وقد أمر منها ما كان حلواً ، و كدر منها ما كان صفوا .

قوله : و تذكر معرفتها : أي إن الأمور التي تقع لذريته فيها ويجدها الإنسان في بعض أوقاته صافية حلوة خالية عن كدورات الأمراض و مرارة التنجيص بالعوارض الكريهة هي في معرض التغيير والتبدل بالمرارة والكدر فما من شخص يخاطبه بما ذكر إلا و يصدق عليه أنه قد عرضت له من تلك اللذات ما استعقب صفوها كدرًا و حلاوتها مرارة إمّا من شباب يتبدل بكبر ، أو غنى بفقير ، أو عز بذل ، أو صحّة بضم .

وقوله : فلم يدق منها إلasmلا . إلى قوله : لم ينفع .

تقليل و تحير مطابق منها لـكـلـ شخص شخص من الناس فإن بقائـها له على حسب بقائـها فيها ، وبقاء كلـ شخص فيها يسير و وقتـه قصير . و استعـار لـفـظـ السـملـة لـبـقـائـتها ، و شـبـقـها بـقـيـةـ اـطـاءـ فيـ الـاـدـاـوـةـ ، و بـجـرـعـةـ الـمـفـلـةـ ، و وجـهـ الشـبـهـ ما أـشـارـ بـقـوـلـهـ : لو تمـزـ زـهاـ الصـدـيـانـ لمـ يـنـفعـ : أـىـ كـمـاـ أـنـ العـطـشـانـ الـواـجـدـ لـبـقـيـةـ الـاـدـاـوـةـ وـ الـجـرـعـةـ لـوـ تـمـصـصـهـ لمـ يـنـفعـ عـطـشـهـ كـذـلـكـ طـالـبـ الـدـنـيـاـ الـمـتـعـطـشـ إـلـيـهاـ الـواـجـدـ لـبـقـيـةـ عمرـهـ وـ لـلـيـسـيرـ منـ الاستـمـتـاعـ فـيـهـ بـلـذـاتـ الـدـنـيـاـ لـاـ يـشـفـىـ ذـلـكـ غـلـيلـهـ وـ لـاـ يـسـكـنـ عـطـشـهـ مـنـهاـ ، فـالـأـوـلـىـ إـذـنـ تعـوـيـدـ النـفـسـ بـالـفـطـامـ عـنـ شـهـوـاتـهاـ .

وقوله : فـازـمـعواـ عـبـادـ اللهـ الرـحـيلـ عـنـ هـذـهـ الدـارـ .

أمرـ لـهـمـ بـعـدـ تـحـيرـهـاـ وـ التـنـفـيرـ عـنـهاـ بـالـإـزـمـاعـ ، وـ تـصـمـيمـ العـزـمـ عـلـىـ الرـحـيلـ عـنـهاـ بـالـلـقـاتـ إـلـىـ اللهـ وـ إـلـيـقـابـ عـلـىـ قـطـعـ عـقـبـاتـ الـطـرـيقـ إـلـيـهـ وـ هوـ الرـحـيلـ عـنـ الـدـنـيـاـ .
وقوله : المـقـدـورـ عـلـىـ أـهـلـهـاـ الزـوالـ .

تـذـكـيرـ بـمـاـ لـابـدـ مـنـ مـفـارـقـتـهاـ لـتـحـفـ الرـغـبـةـ فـيـهاـ ثـمـ أـعـقـبـ ذـلـكـ بـالـنـهـىـ عـنـ مـتـابـعـةـ الـأـمـلـ فـيـ لـذـاتـهاـ فـاـنـهـ يـنـسـيـ الـآـخـرـةـ كـمـ سـبـقـتـ الـإـشـارـةـ إـلـيـهـ ، وـ ذـكـرـ لـفـظـ الـمـغـالـبـةـ تـذـكـيرـ بـالـأـنـفـةـ وـ اـسـتـشـارـةـ لـلـحـمـيـةـ مـنـ نـفـوسـهـمـ ثـمـ بـالـنـهـىـ عـنـ تـوـهـمـ طـوـلـ مـدـةـ الـحـيـاةـ وـ اـسـتـبعـادـ الـغاـيـةـ الـتـيـ هـيـ الـمـوـتـ فـيـاـنـ »ـ ذـلـكـ يـقـسـيـ الـقـلـبـ فـيـوـرـثـ الـغـفـلـةـ عـنـ ذـكـرـ اللهـ كـمـ قـالـ تـعـالـىـ «ـ فـطـالـ عـلـيـهـمـ الـأـمـدـ فـقـسـتـ قـلـوبـهـمـ وـ كـثـيرـ مـنـهـمـ فـاسـقـونـ »ـ (١)ـ .

وـأـمـاـ الثـانـيـ : فـهـوـ التـنـيـهـ عـلـىـ عـظـيمـ ثـوابـ اللهـ وـ عـقـابـهـ .

فـاعـلـمـ أـنـهـ لـمـ حـقـرـ الـدـنـيـاـ وـ حـذـرـ مـنـهاـ ، وـ أـمـرـ بـالـارـتـحالـ عـنـهاـ . أـشـارـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ ماـ يـنـبـغـىـ أـنـ يـعـظـمـ وـ يـلـتـفـتـ إـلـيـهـ وـ يـرـجـيـ وـ يـخـشـىـ ؛ وـ هـوـ ثـوابـ اللهـ وـ عـقـابـهـ ، فـأشـارـ إـلـىـ تـعـظـيمـهـ بـتـحـيرـ الـأـسـبـابـ وـ الـوـسـائـلـ الـتـيـ يـعـتمـدـ عـلـيـهـاـ الـعـبـادـ وـ هـيـ غـایـاتـ جـهـدـهـمـ بـالـنـسـبةـ إـلـىـ ماـ يـنـبـغـىـ أـنـ يـرـجـيـ مـنـ ثـوابـهـ وـ يـخـشـىـ مـنـ عـقـابـهـ وـ تـلـكـ الـأـسـبـابـ مـنـ شـدـةـ الـحـنـينـ وـ الـوـلـهـ إـلـىـ اللهـ وـ الدـعـاءـ الـمـسـتـمرـ »ـ وـ التـضـرـ عـلـىـ الـمـشـبـهـ بـتـبـتـلـ الـرـهـبـانـ . هـذـاـ فـيـ طـرـفـ الـعـبـادـةـ .

و إنما خص التشبه بمتبالي الرهبان لشهرتهم بشدة التضرع، وكذلك الخروج إلى الله من الأموال والأولاد هو أشد الزهد، و رتب ذلك في صورة متصلة مقدمة قوله: ولو حنتم . إلى قوله : رسليه ، وتاليها قوله : لكان ذلك قليلاً . إلى قوله : من عقابه . والتلمس : مفعول له . و خلاصة هذا المقصود بوجيز الكلام إنكم لو أتيتم بجميع أسباب التقرب إلى الله الممكنة لكم من عبادة و زهد ملتمسين بذلك التقرب إليه في أن يرفع لكم عنده درجة أو يغفر لكم سيئة أحصتها كتبه وألواحه المحفوظة لكان الذي أرجوه من ثوابه للمقرب إليه في أن يرفع منزلته من حضرة قدسه أكثر مما يتصور المقرب أنه يصل إليه بتقربه ، ولكن الذي أخافه من عقابه على المقرب في غفران سيئة عنده أكثر من العقاب الذي يتواهم أنه يدفعه عن نفسه بتقربه . فينبغي لطالب الزيادة في المنزلة عند الله أن يخلص بكلية في التقرب إليه ليصل هو إلى ما هو أعظم مما يتواهم أنه يصل إليه من المنزلة عنده ، و ينبغي للهارب من ذنبه إلى الله أن يخلص بكلية في الغرار إليه ليخلص من هول ما هو أعظم مما يتواهم أنه يدفع عن نفسه بوسيلته إليه فإن الأمر في معرفة ما أعد الله لعباده الصالحين من الثواب العظيم ، وما أعده لأعدائه الظالمين من العقاب الآليم أجمل مما يتتصوره يقول البشر ما دامت في عالم الغربة وإن كان عقوبهم في ذلك إلا دراك متفاوتة ، ولما كانت نفسه القدسية أشرف نفوس الخلق في ذلك الوقت لاجرم نسب الثواب المرجو لهم و العقاب المخوف عليهم إلى رجائه هو وحده . فقال : ما أرجو لكم من ثوابه و أخاف عليكم من عقابه . و ذلك لقوة اطلاعه من ذلك على ما لم يطلعوا عليه .

و أما الثالث : وهو التنبية على عظيم نعمة الله تعالى على العباد فنبه عليه أن كل ما أتوا به من الأعمال التي بذلوا جهدهم فيها في طاعة الله وما عسام يمكنهم أن يأتوا به فهو قاصر عن مجازاته نعمة العظام . وقد سبق بيان ذلك . و رتب المطلوب في صورة شرطية متصلة أيضاً مقدمة من كتب من أمور : أحدها : قوله : لو انمائت قلوبكم . أى ذابت خوفاً منه و وجداً منه ، و كنتي بذلك عن أقصى حال الخائف الراجي لربه في عبادته .

كلام له في ذكر يوم النحر

الثاني قوله : و سالت عيونكم دمًا ، وهو كالأول .

الثالث قوله : ثمْ عمرتم في الدنيا ما الدنيا باقية أى مدة بقاء الدنيا . وتاليها قوله : وما جزت أعمالكم . إلى آخره . وأنعمه منصوب مفعول جزت . و هدافي محل النصب عطفاً عليه ، وإنما أفرد الهدى بالذكر وإن كان من الأعم لشرفه إذ هو الغاية المطلوبة من العبد بكل تعمداً ففيه فضلاً على إلهيته . لم يخلق ولم يفضل عليه أنواع النعم . الإلهيَّة إلَّا تَاهَلَ [ليستأهل] خ [قلبه] ، و يستعد نفسه لقبول صورة الهدى من واهبها فيمشي بها في ظلمات الجهل إلى ربِّه ويجوز بها عقبات صراطه المستقيم ، وأكمل ملازمته هذه المتصلة بالقسم البار ، وكذلك المتصلة السابقة ، وفيه هذا التنبية بعث الخلق على الشكر و توفير الدواعي على الاجتهد في الإخلاص لله حياءً من مقابلة عظيم إنعماته بالتقدير في شكره والتشاغل بغيره . وبالله التوفيق .

٥٢ - قَمْرُ الْأَمْرِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

في ذكر يوم النحر

وَمَنْ كَانَ الْأَضْحِيَّةَ أَسْتَرَافُ أذْنَهَا ، وَسَلَامَةُ عَيْنَهَا ، فَإِذَا سَلَتِ الْأَذْنُ
وَالْعَيْنُ سَلَتِ الْأَضْحِيَّةُ وَمُتْ ، وَلَوْ كَانَتْ عَصْبَاءَ الْقَرْنِ بَحْرُ رِجْلَهَا إِلَى
الْمَنسَكِ .

أقول : الأضحية : منصوبة إلى الأضحى إذ كان ذبحها في ضحي ذلك اليوم ، وقيل إنَّه مشتق منها . واستشراف أذنها : طولها ، وكتني بذلك عن سلامتها من القطع أو نقصان الخلقة . والعصباء : مكسورة القرن ، وقيل القرن الداخل . وكتني بحر رجلها إلى المنسك عن عرجها . والمنسك : موضع النسك ، وهو العبادة والتقرب بذبحها . واعلم أنَّ المعتر في الأضحية سلامتها عمما ينقص قيمتها ، وظاهر أنَّ العمى والعور والهزال وقطع الأذن تشويه في خلقتها ونقصان في قيمتها دون العرج وكسر القرن .

و في فضل الأضحية أخبار كثيرة روى عن رسول الله ﷺ قال : ما من عمل يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إراقة دم ، وإنها لتأتي يوم القيمة بقرونها وأظلافها وأن الدم ليقع من الله يمكن قبل أن يقع الأرض فطيبوا بها نفسا .

و روى عنه أيضاً أن " لكم بكل " صوفة من جلدتها حسنة ، و بكل قطرة من دمها حسنة ، وأنها لتوضع في الميزان فابشروا ، وقد كانت الصحابة يبالغون في أثمان الهدى والأضاحي ، ويكرهون المماكسة فيها فإن " أفضل ذلك أعلاه ثمناً وأنفسه عند أهله . روى أن عمر أُهدي نجيبة فطلبـت منه بـلـاثـمـائـة دـيـنـار فـسـأـلـ رسولـ اللهـ ﷺـ أنـ يـبـعـهـاـ وـ يـشـتـرـىـ بـشـمـنـهـاـ بـدـنـاـ فـنـهـاـ عـنـ ذـلـكـ ،ـ وـ قـالـ :ـ بـلـ اـهـدـهـاـ .ـ وـ سـرـ ذـلـكـ أـنـ الـجـيـدـ الـقـلـيلـ خـيرـ مـنـ الـكـثـيرـ الدـوـنـ .ـ فـثـلـاثـ مـائـةـ دـيـنـارـ وـ إـنـ كـانـ قـيـمـةـ ثـلـاثـيـنـ بـدـنـاـ وـ فـيـهاـ تـكـثـيرـ الـلـحـمـ وـ لـكـنـ لـيـسـ الـمـقـصـودـ الـلـحـمـ .ـ بـلـ الـمـقـصـودـ تـزـكـيـةـ الـنـفـسـ وـ تـطـهـيرـهـ عـنـ صـفـةـ الـبـخـلـ وـ تـزـينـهـ بـجـمـالـ الـتـعـظـيمـ لـهـ فـلـنـ يـنـالـ اللـهـ لـحـومـهـ وـ لـاـ دـمـاـهـاـ وـ لـكـنـ يـنـالـ التـقـوـيـ منـكـ ،ـ وـ ذـلـكـ بـمـرـاعـةـ الـنـفـاسـةـ فـيـ الـقـيـمـةـ كـثـرـ الـعـدـدـ أـمـ قـلـ .ـ

و أعلم أنه ربما لاح من أسرار وضع الأضحية سنة باقية هو أن يدوم بها التذكرة لقصة إبراهيم عليه السلام و ابتلاءه بذبح ولده و قوته صبره على تلك المحنة البراء المبين ، ثم يلاحظ من ذلك حلاوة ثمرة الصبر على المصائب و المكاره فيتأسى الناس به في ذلك مع ما في نحر الأضحية من تطهير النفس عن رذيلة البخل و استعداد النفس بها للتقرب إلى الله تعالى . و بالله التوفيق .

٥٣ - وَمِنْ كُلِّ أَمْرٍ لَنَا عَلَيْهِ الْمِسْتَأْنِدُونَ

فَتَدَأْكُوا عَلَى تَدَأْكِ الْأَبْلَأْبِلِ الْمُهِيمِ يَوْمَ وَرَدَهَا ، قَدَارَسْلَهَا رَأَيْهَا ، وَخَلَعْتَ مَثَانِيهَا ، حَتَّى ظَنَنتُ أَنَّهُمْ قَاتِلَيْ ، أَوْ بَعْضَهُمْ قَاتِلٌ بَعْضٌ لَدَيْ ، وَقَدْ قَلَّتْ هَذَا الْأَمْرُ ، بَطْنَهُ وَظَهَرَهُ ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسْعَى إِلَّا قَاتَلَهُمْ أَوْ اجْحُودُ بِمَا جَاءَنِي

بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقَتَالِ أَهُونَ عَلَى مِنْ مُعَالَجَةِ
الْعَقَابِ، وَمَوْتَاتِ الدُّنْيَا أَهُونَ عَلَى مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ.

أقول : تداكوا : دك بعضهم بعضاً : أى دقه بالضرب و الدفع . و الهيم : الإبل
العطاش . والمثاني : جمع مثنى و هي الجبل يثنى و يعقل به البعير .
و اعلم أن قوله : فتداكوا . إلى قوله : لدى .

إشارة إلى صفة أصحابه بصفين طال منعه لهم من قتال أهل الشام ، وكان على ذلك
يمنعهم من قتالهم لأمررين : أحدهما أنه كانت عادته في الحرب ذلك ليكون خصمهم الباقي
فتركته الحجة ، والثاني أنه كان يستخلص وجه المصلحة في كيفية قتالهم لا على سبيل
شكه في وجوب قتال من خالده فإنه على ذلك كان مأموراً بذلك بل على وجه استخلاص
الرأي الأصلح أو انتظاراً لا نجداً بهم إلى الحق و رجوعهم إلى طاعته لحقن دماء المسلمين
كما يصرح به في الفصل الذي يأتي ، ثم أكد وصفهم بالزحام عليه بأمررين : أحدهما
تشبيهه بزحام الإبل العطاش حين يطلقها رعايتها من مثانيها يوم توردها الماء . ووجه
الشبه ما بهما من شدة الزحام ، الثاني غاية ذلك الزحام وهو ظنه على ذلك أن يقتلوه أو
يقتل بعضهم بعضاً .

وقوله : وقد قلبت هذا الأمر . إلى آخره .

إشارة إلى بعض عمل منعه لهم من القتال ; وهو تقليله لوجوه الآراء في قتالهم حتى
تبين له ما يلزم في ترك القتال من الخطر وهو الكفر . على أن في الأمررين خطراً
أما القتال فيه بذل نفسه للقتل و هلاك جملة من المسلمين ، وأما تركه فيه مخالفه أمر
الله و رسوله المستلزمة للعقاب الأليم ; لكن قد علمت أن الدنيا لا قيمة لسعادتها ولا نسبة
لشقاؤتها إلى سعادة الآخرة و شقاوتها عند ذوى البصائر خصوصاً مثله على ذلك قال :
فكان معاذلة القتال أهون على من معاذلة العقاب ، و موتات الدنيا أهون على من
موتات الآخرة . واستعار لفظ الموتات للأهواء والشدائد في الدنيا والآخرة لما بين الموت
و بينها من المناسبة في الشدة .

٤٥ -- فِي مَرْكَلَةِ الْمَذْنَبِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد استطاع أصحابه إذنه لهم في القتال بصفتين

أَمَا قَوْلُكُمْ أَكُلُّ ذَلِكَ كَرَاهِيَّةُ الْمَوْتِ؟ إِفَوَّالَهُ مَا أَبَالِي ادْخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ
أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيْهِ. وَأَمَا قَوْلُكُمْ شَكَّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَّالَهُ مَا دَفَعْتُ
الْحَرَبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْعَقَ بِطَافِهَةَ فَهِتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوا إِلَى ضُوْفِي،
وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتَلَهُمْ عَلَى ضَلَالِهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا.

أقول : عشا إلى النار : استدل عليها بغير ضعيف . وباء بإثمهم : أى رجع به .
و هذا الفصل مناسب للذى قبله . و السبب فيه أن أصحابه لما طال منعه لهم عن
قتال أهل الشام الحوادث عليه في طلبه حتى نسبه بعضهم إلى العجز وكراهيَّة الموت ،
و نسبة بعضهم إلى الشك في وجوب قتال هؤلاء . فأورد تَسْبِيحُهُ شبهة الأولين وهي قوله :
أَكُلُّ ذَلِكَ كَرَاهِيَّةُ الْمَوْتِ ، و روى كراهيَّة بالنصب على المفعول و سد مسد الخبر .
و أجاب عنها بقوله : فوَّالَهُ مَا أَبَالِي . إلى قوله : إلى ، وصدق هذا الدعوى المؤكدة
بالقسم البار ظاهر منه فإن العارف بمغزى عن تقىَّة الموت خصوصاً نفسه القىسيَّة كما
سبق ، و نسبة الدخول على الموت والخروج إليه نسبة مجازية تستلزم ملاحظة تشبيهه
بحيوان مخوف . ثم أورد الشبهة الثانية وهي قوله : وَأَمَا قَوْلُكُمْ شَكَّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ .
و أجاب عنها بقوله : فوَّالَهُ مَا دَفَعْتُ الْحَرَبَ . إلى آخره ، و تقريره أن المطلوب الأول
من الأنبياء والأولياء إنما هو اهتداء الخلق بهم من ظلمة الجهل ، و استقامة أمرهم
في معاشهم ومعادهم بوجودهم ، و إذا كان هذا هو المطلوب الذي له تَسْبِيحُهُ من طلب هذا
الأمر و القتال عليه و كان تحصيل المطالب كلما كان أطفف و أسهل من القتل و القتال
كان أولى لا جرم كان انتظاره بالحرب و مدافعتها يوماً فيوماً إنما هو انتظار و طمع أن
يلتحق به منهم من تجذب العناية الإلهيَّة بذهنه إلى الحق فيهتدى به في طريق الله و يعشوا

إلى ضوء عمله وكماله ، و كان ذلك أحب إلينه من قتلهم على خلافتهم وإن كان كل ضال إنما يرجع بإثمه إلى ربه ويكون رهين عمله كما قال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة . ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرها وزرًا خرى » .

٥٥ - *فَمَنْزِلَةُ الْمُرْسَلِ عَلَيْهِ الْمُسْتَلِّ الْأَفْرَقُ*

ولقد كنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَفْلُ آبَانَا وَابْنَانَا وَإخْوَانَا
وَأَعْمَانَا : مَا يَزِيدُنَا ذَلَكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيًّا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقِيمِ ، وَصَبَرَا عَلَى
مَضَضِ الْآلَمِ ، وَجِدَا فِي جَهَادِ الْعَدُوِّ . وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْأَخْرَى مِنْ عَدُونَا
يَتَصَافَّ لَأَنَّ تَصَافُّ الْفَحَّاحِينِ ، يَتَخَالَّسَانِ أَنفُسُهُمَا ، إِيمَانًا يُسْقِي صَاحِبَهُ كَاسَ
الْمُنْتُونَ : فَرَةٌ لَنَا مِنْ عَدُونَا ، وَمَرَّةٌ لَعْدُونَا مَنَا ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صَدَقَنَا أَنْزَلَ بَعْدُونَا
الْكَبَّتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتَّى أَسْتَقْرَ الإِسْلَامُ مُلْقِيًّا جِرَانَهُ ، وَمُتَبَوِّنَا
أَوْطَانَهُ . وَلَعْمَرٍ لَوْ كَانَتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلَّدِينِ عَمُودًا ، وَلَا أَخْضَرَ لِلْإِيمَانِ
عُودًا ، وَأَيْمَنَ اللَّهِ لَتَحْلِبُنَا دَمًا وَلَتَتَعْنَنَا نَدَمًا .

أقول : المنقول أن هذا الكلام مصدر عنه يوم صفين حين أقر الناس بالصلح . وأوله :
إن هؤلاء القوم لم يكونوا يließنوا إلى الحق ، ولا يحييوا إلى كلمة سواه حتى
يرموا بالمنابر تتبعها العساكر ، وحتى يرجعوا بالكتائب تقوها الجلاّب ، وحتى يجر
بيلادهم الخميس يتلوه الخميس ، وحتى تدعى الخبول في نواحي أراضيهم وبأعناء مشاربهم
ومسارحهم ، حتى تشن عليهم الغارات من كل فج عميق ، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر
لا يزيدتهم هلاك من هلك من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلا جدًا في طاعة الله وحرصا
على لقاء الله . ولقد كنا مع رسول الله يَلْتَمِسُ الفصل .

كلمتسواه : أى عادلة . و المنشر : خيل من الملاة إلى الملائكة ، ويقال بل الجيش ما يمر بشيء إلا اقتلعه ، والخميس : الجيش . و تدعى : تغافر على أرضهم فتؤثر فيها حوافرها . و شن الغارة : آثارها . و اللقم : منع الطريق . و المضن : حرقة الألم . و يتداولان : يتحاملان و يتطاولان . و يتخالسان : ينتهز كلّ منهما فرصة صاحبه ، و المتنون : النذية . و الكبت : الصرف والإذلال . و جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منخره . و تبوء وطنه : سكن فيه .
و مقصوده في هذا الفصل توبخ أصحابه على ترك الحرب و التقصير فيه .
قوله : و لقد كننا . إلى قوله : أوطانه .

بيان لفضله و كيفية صنيعه هو وساير الصحابة في الجهاد حين يدعي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ لغرض قيام الإسلام وظهور أمر الله ليتبين للسامعين تقصيرهم بالنسبة إلى ما كان أولئك عليه في جهادهم يومئذ . فبده بذكر ما كانوا يكافحونه من الشدائـد ، وأن أحدهم كان يقتل أباه و ولده طلياً لرضا الله وذباعـن دينه ثم لا يزيدـه ذلك إلا إيمانا و تسليما لقضائه ، و مضيـا على واضح سبـيله ، وصبراً في طاعته على مضـض الآلام المتواتـرة ، وأن أحدهم كان يصاول عدوـه ليختطفـ كلـ روح صاحـبه . وتجوزـ بالفـظ الكلـس فيما يتجـزـ عنه الإنسان من مضـض الآلام حال القـتل ، ونبـهـ بقولـهـ : مرـة لـنا وـرـة لـعدـونـا . علىـ أنـ إـقدـامـهمـ علىـ القـتـالـ يـوـمـئـذـ لـمـ يـكـنـ عـنـ قـوـةـ مـنـهـمـ عـلـىـ العـدـوـ وـيـقـيـنـ بـغـلـبـةـ بـلـ مـعـ غـلـبـ العـدـوـ لـهـمـ وـقـيـرـهـ . وـمـرـةـ مـنـصـوبـ عـلـىـ الـظـرفـ وـتـقـيـرـهـ فـمـرـةـ الإـدـالـةـ تـكـوـنـ لـنـاـ مـنـ عـدـوـنـاـ وـمـرـةـ تـكـوـنـ لـهـ مـنـاـ .

وقوله : فلما رأى الله صدقـناـ . إلى قولهـ : النـصرـ .

فيهـ تـبـيـهـ عـلـىـ أـنـ الـجـوـدـ الـإـلـهـيـ لـابـخلـ فـيهـ وـلـامـنـعـ مـنـ جـهـتـهـ وـإـنـمـاـ هـوـ عـامـ الفـيـضـ عـلـىـ كـلـ قـابـلـ استـعـدـ لـرـحـتـهـ ، وـأـشـارـ بـرـؤـيـةـ الـهـدـيـقـهـ إـلـىـ عـلـمـهـ باـسـتـحـقـاقـهـ وـاستـعـدـادـهـ بـالـصـبـرـ الـذـيـ أـعـدـ هـمـ بـهـ ، وـبـإـنـزـالـ النـصـرـ عـلـيـهـمـ وـالـكـبـتـ لـعـدـوـهـمـ إـلـىـ إـفـاضـتـهـ عـلـىـ كـلـ مـنـهـمـ مـاـ اـسـتـعـدـ لـهـ .

وقولـهـ : حـتـىـ اـسـتـقـرـ إـلـاسـلـامـ . إلىـ قولهـ : أـوطـانـهـ .

إشارة إلى حصول غایتهم التي قصدها بجهاد العدو" (الله خ) وهي استقرار الإسلام في قلوب عباد الله . واستعار لفظ الجران ، ورُشح تلك الاستعارة باللقاء ملاحظة لشبيه بالبعير الذي أخذ مكانه ، وكذلك استعار لفظ التبوء ونسبة إلى الأوطان تشبيهاً له بمن كان من الناس خائفاً متزلزاً لاستقر "لهم اطمأن" واستقر في وطنه . واستعار لفظ الأوطان لقلوب المؤمنين ، وَكُنْتِ بِتَبُوءِ أَوْطَانِهِ عَنْ إِسْتِقْرَارِهِ فِيهَا .
وقوله : ولعمري لو كنـ أناقـى . إلى قوله : عود .

رجوع إلى مقصوده الأصلـي وهو تبـيه أصحابـه على تـصـيرـهـم . وـالـمعـنىـ لو قـصـرـناـ يومـئـذـ كـمـ تـصـيرـ كـمـ الآـنـ وـتـخـازـلـكـمـ ماـ حـصـلـ مـاـ حـصـلـ مـنـ اـسـتـقـامـةـ الـدـلـيـنـ ، وـكـنـتـيـ بـالـعـمـودـ لـلـدـلـيـنـ عنـ قـوـتـهـ وـمـعـظـمـهـ كـنـيـةـ بـاـسـتـعـارـ ، وـكـذـلـكـ بـاخـضـرـ العـودـ لـلـإـيمـانـ عـنـ نـفـارـتـهـ فيـ النـفـوسـ ، وـلـاحـظـ فيـ الـأـوـلـىـ تـشـبـيهـ الإـسـلـامـ بـالـبـيـتـ ذـيـ الـعـمـودـ ، وـفـيـ الثـانـيـةـ تـشـبـيهـ الـإـيمـانـ بـالـشـجـرـةـ ذاتـ الـأـغـصـانـ .

وقوله : وأيم الله لتحتبـسـهاـ دـماـ .

استعار لفظ حلب الدم لمرة تصـيرـهـمـ وـتـخـاذـلـهـمـ عـمـاـ يـدـعـوهـ إـلـيـهـ منـ الـجـهـادـ ، وـلـاحـظـ فيـ تـلـكـ الـاسـتـعـارـ تـشـبـيهـهـمـ لـتـصـيرـهـمـ فيـ أـفـعـالـهـمـ بـالـنـاقـةـ الـتـيـ أـصـيبـ ضـرـعـهـاـ بـافـةـ منـ تـفـرـيطـ صـاحـبـهـاـ فـيـهـاـ ، وـالـضـمـيرـ الـمـؤـنـثـ مـبـهـمـ يـرـجـعـ فيـ الـمـعـنـىـ إـلـيـ أـفـعـالـهـمـ ، وـكـذـلـكـ الضـمـيرـ فيـ قـوـلـهـ : وـلـتـتـبـعـهـاـ نـدـمـاـ فـإـنـ ثـمـرـةـ التـفـرـيطـ النـدـمـةـ . وـدـمـاـ وـنـدـمـاـ مـنـصـوـبـانـ عـلـىـ التـميـزـ . وـقـدـ اـتـقـقـ فـيـ هـذـاـ الفـصـلـ نـوـعـانـ مـنـ السـجـعـ فـالـلـقـمـ وـالـأـلـمـ سـجـعـ مـتـواـزـيـ ، وـجـرـانـهـ وـأـوـطـانـهـ مـطـرـفـ ، وـكـذـلـكـ عـمـودـ وـعـودـ وـدـمـاـ وـنـدـمـاـ . وـبـاـلـهـ التـوفـيقـ .

٥٦ - قـمـنـ كـلـامـهـ عـلـيـهـ الـسـتـلـامـ

لـأـصـحـابـ

أـمـاـ إـنـهـ سـيـظـهـرـ عـلـيـهـ بـعـدـ رـجـلـ رـحـبـ الـبـلـعـومـ ، وـمـنـدـحـقـ الـبـطـنـ ، يـاـ كـلـ مـاـ يـجـدـ وـيـطـلـبـ مـاـ لـاـ يـجـدـ ، فـلـقـتـلـوـهـ ؛ وـلـنـ تـفـتـلـوـهـ إـلـاـ وـإـنـهـ سـيـامـرـ كـمـ بـسـيـ

والبراءة مني : أما السب فسبوني ؛ فإنه لـ زكاة ، ولـكم نجاة : وأما البراءة فلا
تبرأوا مني ؛ فإني ولدت على الفطرة ، وسبقت إلى الإيمان والمigration .

أقول : رحب بالبلعوم : واسع مجرى الحلق . وبطن مند حق ناتي بارز .
وفي هذا الفصل إخبار بما سيكون لأصحابه من الابتلاء بسببه . و الخطاب
لأهل الكوفة .
فقوله : أمّا .

يحتمل أن يكون المشددة . و التقدير أمّا بعد أنه كذا ، و يحتمل أن يكون
مخففة وهي ما النافية دخلت عليها همزة الاستفهام ، والتقدير أمّا أنه سيظهر ، و اختلف
في مراده بالرجل . فقال أكثر الشارحون : المراد معاوية لأنّه كان بطيناً كثيراً الأكل .
روى أنه كان يأكل في مثلث يقول : ارفعوا فو والله ما شبعت ولكن مللت وتعبت ، وكان ذلك
داء أصحابه بدعاه الرسول ﷺ . روى : أنه بعث إليه من فوجده يأكل فبعث إليه ثانية
فوجده كذلك . فقال : اللهم لا تشبع بطنه . ولبعضهم في وصف آخر .

صاحب لي بطنه كالها ويه كأنّ في أمعائه معاوية
وقيل : هو زياد بن أبي سفيان ؟ وهو زياد بن أبيه ، وقيل : هو الحجاج ، وقيل :
المغيرة بن شعبة . ووظهوره عليهم بعده . استعلاؤه وتأمره عليهم . وأكلهما يجتمع طلبه طالاً يجد
كتنائية عن كثرة أكله ، وجعل ذلك عالمة له .
وقوله : فاقتلوه .

أى ما هو عليه من الفساد في الأرض ، ولن تقتلوه . حكم لدنى " اطلع عليه .
وقوله : الأوانيه سياصركم بسي . إلى آخره .
إشارة إلى ما يأمرهم به في حقه من السب والبراءة ، ووصيّة لهم بما هو مصلحة
إذن . وفرق الثبات بين سببه والبراء منه بأن رخص في سبّه عند الإكراه عليه و لم
يرخص في التبرئ منه ، وفي الفرق بينهما لطف ، و ذلك أنّ السب من صفات القول
اللسانى وهو أمر يمكن إيقاعه من غير اعتقاده مع احتماله التعرض ومع ما يشتمل عليه

من حقن دماء المأمورين ونجاتهم باعتقال الأمر به . وأمّا التبرء فليس بصفة قولية فقط بل يعود إلى المجانية القلبية والمعاداة والبغض وهو المنهي عنه فيها فإنه أمر باطن يمكنهم الانتهاء عنه ولا يتحقق بحسب تركه وعدم انتقال الأمر به ضرر . وكأنه لحفظها قوله تعالى « إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقْلَبَهُ مَطْمَئِنٌ بِالإِيمَانِ وَلَكُنْ مِنْ شَرِّ الْكُفَّارِ صَدِرًا فَعَلِيهِمْ غَضْبٌ »^(١) الآية وقوله في السب: فإنه لـ زـ كـ اـ تـ لـ كـ نـ جـ اـ . إـ شـ اـ رـ إـ لـىـ أـ سـ بـ اـ تـ رـ خـ يـ صـهـ في سبـهـ أمـ اـ نـ جـ اـ تـ هـ بـ سـ بـهـ فـ ظـ اـ هـ رـ وـ أـ مـ اـ كـ وـ نـهـ زـ كـ اـ لـهـ فـ لـوـ جـ هـ يـ :ـ أحـ دـ هـ مـاـ :ـ مـارـوـيـ فـيـ الـ حـدـيـثـ أـ ذـ كـ مـؤـمـنـ بـسـوـهـ هـ زـ كـوـ لـهـ ،ـ وـ ذـ مـهـ بـمـالـيـسـ فـيـهـ زـيـادـهـ فـيـ جـاهـهـ وـشـرفـهـ .ـ

الثاني: أنَّ الطَّبَاعَ تَحرَصُ عَلَى مَا تَمْنَعَ مِنْهُ وَتَلْحَّ فِيهِ . فَالنَّاسُ طَامِنُوا مِنْ ذَكْرِ فَضَائِلِهِ وَالْمُوَالَةِ لَهُوا لَزَمُوا سَبَبَهُ وَبَغْضَهُ ازْدَادُوا بِذَلِكَ مُحبَّةً لَهُ وَإِظْهَارًا لِشَرْفِهِ ، وَذَلِكَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ سَبَبَهُ بِنَوْا مِيقَةً أَلْفَ شَهْرٍ عَلَى الْمَنَابِرِ فَما زادَ ذَكْرَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا عَلَوْاً وَلَا ازْدَادَ النَّاسِ فِي مُحِبَّتِهِ إِلَّا عَلَوْاً . وَالْمَنْقُولُ أَنَّ الَّذِي أَمْرَ بِقَطْعِ سَبَبِهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَوُضُعَ مَكَانُ سَبَبِهِ مِنَ الْخُطْبَةِ « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » الآيَةُ ، وَلَذِلِكَ قَالَ كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَمْدُحُهُ :

وليت فلم تشنتم علياً ولم تخف
برّ يا ولم تقبل إساءة مجرم

وفيه يقول الرضي الموسوي :

يَا بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَوْ بَكَتِ الْعَيْنُ
نَفْتَنِي مِنْ أُمِّيَّةِ لِبْكِيَّتِكَ
أَنْتَ نَزَّهْتَنَا عَنِ الشَّتْمِ وَالسَّبِّ
بَلْ وَلَوْ كُنْتَ مَجْزِيَّا لِلْجَزِيَّتِكَ
غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ إِنَّكَ قَدْ طَبِّتَ
وَإِنْ لَمْ يَطِّبْ وَلَمْ يَزِدْ يَتِيكَ
وَقَوْلُهُ : فَإِنِّي وَلَدَتْ عَلَى الْفَطْرَةِ إِلَى آخِرِهِ .

تعليل لحسن الانتهاء عن البراءة منه ووجوبه . وأراد بالفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي بعثهم إلى عالم الأجسام مأخذوا عليهم ميثاق العبودية والاستقامة على سنن العدل في سلوك صراطه المستقيم ، وأراد بسبقه إلى الإسلام والهجرة سبقة إلى طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جاء به من الدين وصحبته له ومهاجرته معه مستقيماً في كل ذلك

على فطرة الله لم يدنِس نفسه بشيء من الملائكة الرديئة مدة وقته . أمّا زمان صغره فللخبر المشهور : كل مولود يولد على الفطرة ، وأمّا بعده فلان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ كان هو المحتولى لتربيته وتركيه نفسه بالعلوم والأخلاق من أول وقته إلى أن توفي وَاللَّهُ أَعْلَمُ كما أشرنا إليه قبل ، و كما سيدرك هو بعد كيفيته ، وكان قبوله واستعداده لأنوار الله أمر أفترط عليه نفسه ، وجبلت عليه طبيعته حتى لم يلحد في ذلك أحد من الصحابة ، وظاهر أنّ من كان بهذه الصفة من خلفاء الله وأولياءه كان التبرء منه تبرء من الله ورسوله . فوجب الاتهاء عنه . وبالله التوفيق .

٥٧ - وَمِنْ كَلَامِ رَبِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ

كلم به الخوارج

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ أبعد إيمان بالله وجهادى مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر ؟ لقد ضلت إذاً وما أنا من المهددين ! فأذربوا شر ما بـ وارجعوا على أثر الأعقاب ، أمّا إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملـاً وسيفاً قاطعاً واثراً يتحذها الطالمون فيكم سنة .

قال الشريـف : قوله عليه السلام « ولا بقـ منكم آبر » يروى بالباء والراء من قولهـ للذى يـ بر النـخلـ — أـى : يصلـحـهـ — ويرـوى « آـثـرـ » وهو الذـى يـأـثـرـ الحديثـ، أـى : يـ روـيـهـ ويـ حـكـيـهـ ، وـهـوـ أـصـحـ الـوجـوهـ عـنـدـىـ ، كـاـنـهـ عـلـيـهـ السـلامـ قالـ : لاـ بـقـ منـكـ مـخـبـرـ . وـيـ روـىـ « آـبـزـ »ـ بـالـزـايـ المـعـجمـةـ — وـهـوـ الـوـاـبـ . وـهـالـاـكـ أـيـضاـ يـقـالـ لـهـ آـبـزـ .

الأخبار بما سيلقى الخوارج بعده من الذل

أقول : المروي في السبب أنه لما كتب عهد التراضي بين الحكمين بين على معاوية اعترلت الخوارج وتنادوا من كل ناحية لاحكم إلا الله ، الحكم الله ياعلى لالك ، إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يدخلوا تحت حكمنا وقد كناز لنا وأخطأنا حين رضينا بالتحكيم وقد بان زللنا وخطأنا ورجينا إلى الله وتبنا فارجع أنت كما رجعنا وتب إلينه كما تبنا . وقال بعضهم : إنك أخطأ فأشهد على نفسك بالكفر ثم تب منه حتى نطيعك . فاجاب لهم بهذا الكلام .

والحاصل : ريح شديدة ترمي بالحصاء وهي صغار الحصى . و الأثرة بالتحرير :
الاستبداد .

فدعوا عليهم أو لا ريح تحصيهم ، ثم بالفناء غضباً من مقالتهم ، ثم أخذ في تفريغهم وإنكار مقالتهم وطلبهم شهادته على نفسه بالكفر في صورة سؤال أعقبه تنبئهم على خطأهم في حقه بيان غلطه على نفسه لو أجابهم إلى ما سئلوا فإن شهادة الإنسان على نفسه بالكفر ضلال عن الحق وعدم اهتداء في سبيل الله .
ثم أردف ذلك بأمرین :

أحدهما : جذبهم بالغضب والقهر وأمرهم بالرجوع إلى الحق على أعقابهم : أي من حيث خرجو من الحق وفارقوه .

الثاني : إخبارهم بما سيلقون بعده من الذل الشامل والسيف القاطع . و هو كنایة عنهم " تقتلهم بعده كالمهلب بن أبي صفرة وغيره ، وهذا إخبار لغرض استفهامهم إليه وجذب لهم برذلة غيره . والأثرة التي تتخذها الظالمون فيهم سنة . إشارة إلى ما يستثار به الملاوك والعمال عليهم من الفيء والغنايم وإهانتهم ، وقد كانت دعوة لهم لا تستجيب لمن لم يز الوابعده في ذل شامل وقتل ذريع حتى أفهتم الله تعالى . وأحوالهم في كيفية قتالهم وقتلهم من قتلهم مستوف في كتاب الخوارج . وبالله التوفيق .

٥٨ — وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج وقيل له : إنهم قد عبروا جسر النهر وان

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النَّطْفَةِ ، وَإِنَّهُ لَا يُقْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةً ، وَلَا يَهْلِكُ
مِنْكُمْ عَشَرَةً .

قال الشري夫 : يعني بالنطفة ماء النهر ، وهو أوضح ، كناية وإن كان كثيراً جماً .

أقول : خلاصة هذا الخبر أنه عليه السلام لما خرج إلى أصحاب النهر جاءه رجل من أصحابه فقال : البشري يا أمير المؤمنين إنَّ القوم عبروا النهر لما بلغهم وصولك فابشر فقد منحك الله أكتافهم . فقال : الله أنت رأيتهم قد عبروا . فقال : نعم . فقال عليه السلام : والله ما عبروه ولن يعبروه وإنَّ مصارعهم دون النطفة والذى فلق الحبة وبره النسمة لم يبلغوا إلا ثلاث ولا فصر توران حتى يقتلهم الله وقد خاتم من افترى . قال : ثم جاءه جماعة من أصحابه واحداً بعد آخر كلهم يخبره بما أخبره الأول فركب عليه السلام وسار حتى انتهى إلى النهر فوجد القوم بأسرهم قد كسروا جفون سيفهم وعرقوبا خيولهم وجنوا على الركب وحكموا تحكيم واحدة بصوت عظيم لمزجل ، وروى أنَّ شاباً من أصحابه قال في نفسه حين حكم عليه السلام بما حكم من أمرهم وسار إلى النهر لبيان صدق حكمه : والله لا أكون قريباً منه فإن كانوا عبروا النهر لا جعلنَّ سنان رمحى في عينه أيدعى علم الغيب ، فلما وجدتهم لم يعبروا نزل عن فرسه وأخبره بما روى في نفسه ، وطلب منه أن يغفر له . فقال عليه السلام : إنَّ الله هو الذي يغفر الذنب بجيعه فاستغفره . فأما حكمه بأنَّه لا يقتل منهم عشرة ولا يقتل من أصحابه عشرة . فروى أنه قال لأبي أيوب الأنباري و كان على ميمنته : لما بدأ الخوارج بالقتال أحملوا عليهم قوله لا يقتل منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة فلما قتلهم وجد المفلت منهم تسعة وأمقتول من أصحابه ثمانية . وهذا الحكم من كراماته عليه السلام :

لما قتل الخوارج قيل له : يا أمير المؤمنين ، هلك القوم بأجمعهم !

كَلَّا وَاللهِ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَقَرَارَاتِ النَّسَاءِ ، كُلُّمَا يَحْمِمُهُمْ
قَرْنٌ قُطْعَ ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصًا سَلَابِينَ .

شرح كلامه عليه السلام لما أخبر أنهم هلكوا بأجمعهم

أقول : نجم : طلع . والسلام : المختلس . وكلاً : رد مقالة من حكم بهلاكهم جميعاً . وأشار بكونهم نطفاً في أصلاب الرجال وفارات النساء إلى أنه لابد من وجود قوم منهم يقولون بمثل مقالتهم وأنهم الآن موجودون في الأصلاب والأرحام بالقوة . فمنهم نطف بربت إلى الأرحام ، وكنتى بالقرارات عنها . ومنهم نطف بعدفي الأصلاب ، ثم أحدهم أحکاماً آخر تغير رأياً لبقائهم . منها : أنه سيقوم منهم رؤساء ذوو أتباع ، وعبر عن يظهر منهم بالقرن استعارة مرشحاً لتلك الاستعارة . بهوله : نجم وقطع . لكونهما حقيقين في النبات وجعل لتراد لهم غاية هي كون أواخرهم لصوصاً سلائين : أي قطاعاً للطريق ، وأما الذين ظهروا بعده من رؤسائهم فجماعة كثيرة وذلك أن التسعة الذين سلموا يوم النهر تفرّقوا في البلاد فانهزّ اثنان منهم إلى عمان ، وإثنان إلى كرمان ، وإثنان إلى سجستان ، وإثنان إلى الجزيره واحد إلى تل مورون ، وقد كان منهم جماعة لم يظفر عليهم السلام بهم فظهرت بدعهم في أطراف البلاد بعده فكانوا نحواً من عشر بن فرقه وكتارها ست :

إحدىها : الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق ، وكان أكبر الفرق . خرجوا من البصرة إلى الأهواز وغلبوا عليها وعلى كورها وماراء هامن بلدان فارس وكرمان في أيام عبدالله بن الزبير ، وكان مع نافع من أمراء الخوازج عشرة : عطيّة بن الأسود الحنفي ، وعبد الله بن ماخول ، وأخوه عثمان بن الزبير ، وعمر بن عمير العميري ، وقطري بن فجحة المازني ، وعبدة بن الهلال الشيباني ، وصخر التميي ، وصالح العبدى ، وعبد رببه الكبير ، وعبد رببه الصغير في ثلاثة ونيف ألف فارس منهم فأنفذ إليهم المهلب بن أبي صفرة ، ولم ينزل في حربهم هو وأولاده تسعة عشرة سنة إلى أن فرغ من أمرهم في أيام الحجّاج ، ومات نافع قبل وقاييع المهلب وبابعوا قطر يـا وسمـوه أمـير المؤـمنـين .

الثانية : النجدات رئيسهم نجدة بن عامر الحنفي ، وكان معه أميران يقال لأحدهما عطيّة ، والآخر أبو فديك . ففارقاه بشبهة ثم قتلته أبو فديك وصار لـكل واحد منها جمع عظيم وقتلا في زمن عبد الملك بن مروان .

الثالثة : البيهـيـيـة أـصـحـابـ أبيـ يـهـيـصـ بنـ جـاـبـرـ ، وـكانـ بـالـحـجـاجـ وـقـتـلـهـ عـثـمـانـ بنـ حـيـانـ المـزـنـيـ بالـمـدـيـنـةـ بـعـدـ أـنـ قـطـعـ يـدـيهـ وـرـجـلـيهـ . وـذـلـكـ فـيـ زـمـنـ الـولـيدـ بـإـشـارـةـ مـنـهـ .

الرابعة : العباردة أصحاب عبد الكريم بن عجرد ، وتحت هذه الفرق فرق كثيرة لكل منهم رئيس منهم مشهور .

الخامسة : الأ باضية أصحاب عبدالله بن أبيه في أيام مروان بن محمد فوجه إليه عبدالله بن محمد بن عطية فقاتلته فقتله .

السادسة : الشعالية أصحاب ثعلبة بن عامر ، وتحت هذه الفرق أيضاً فرق كثيرة ، وكل منها رئيس مشهور . وتفصيل رؤسائهم وفروعهم وأحوالهم ومن قتلهم مذكور في كتب التواريخ . وأما كون آخرهم لصوصاً لأنفسهم فإشارة إلى ما كانوا يفعلونه في أطرف البلاد بإصبغان والأهواز وسود العراق يعيشون فيها بنهب أموال الخراج وقتل من لم يدن بهم جهراً وغيلة وذلك بعد ضعفهم وتفرقهم بوقائع المهلب وغيرها كما هو مذكوره في مظانه .

وقال عليه السلام :

لَا تُقْتَلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي ، فَلَيْسَ مِنْ طَلَبِ الْحَقِّ فَأَخْطَاهُ كُنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ

فادركه (يعني معاوية وأصحابه)

أقول : نهى عن قتل الخوارج بعده ، وأومى إلى علة استحقاق القتل بأنها طلب الباطل لأنها باطلة ليتبين أنها منافية في حقهم فینتفي لازمها وهو استحقاق القتل ، وأشار إلى أن الخوارج لم يطلبوا الباطل مع العلم بكونه باطلًا بل طلبوا الحق بالذات فوقوا بالباطل بالعرض . ومن لم يكن غرضه إلا الحق لم يجز قتله ، وحسن الكلام يظهر في تقدير متصلة هكذا : لو استحقوا القتل بسبب طلبهم لاستحقاقه بسبب طلبهم للباطل من حيث هو باطل لكنهم لا يستحقونه من تلك الجهة لأنهم ليسوا بطالين للباطل من حيث هو باطل فلا يستحقون القتل ، وفرق بين من يطلب الحق لذاته فيظهر عنه في صورة باطل ، وبين من يطلب الباطل لذاته فيظهره في صورة الحق حتى يدركه ، فإن الثاني هو المستحق للقتل دون الأول ، وأومى بمن طلب الباطل فادركه إلى معاوية .

كَلَامُهُ مَا خَوْفُ الْغِيلَةِ

واعلم : أنّ هذَا نصّ مِنْهُ تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ كَانُوا طَالِبِينَ لِلْحَقِّ ، وَيَسِّرْهُمْ رُؤُسَاهُمْ كَانُوا عَلَى غَايَةِ الْمَحَافَظَةِ عَلَى الْعِبَادَاتِ كَمَا نَقْلَ عن الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِيثُ وُصُوفُهُمْ فَقَالَ : حَتَّى أَنْ صَلَوةً أَحَدُكُمْ لَتَحْتَرُ في جَنْبِ صَلَاتِهِمْ . وَكَانُوا مَشْهُورِينَ بِالصَّالِحَةِ وَالْمَوَاطِبِ عَلَى حَفْظِ الْقُرْآنِ وَدِرْسِهِ إِلَّا أَنَّهُمْ بَالْغَوَّ فِي التَّعْجِيزِ وَشَدَّةِ الْطَّلَبِ لِلْحَقِّ حَتَّى عَبَرُوا عَنْ فَضْيَلَةِ الْعَدْلِ فِيهِ إِلَى رِذْيَلَةِ الْإِفْرَاطِ فَوَقَعُوا فِي الْفَسْقِ وَمِرْقَامِ الدِّينِ .
فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ نَهَى عَنْ قَتْلِهِمْ .

قُلْتَ : جَوابُهُ مِنْ وَجْهِنَّمِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ إِنَّمَا نَهَى عَنْ قَتْلِهِمْ بَعْدَهُ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَلْزَمُ كُلُّهُمْ نَفْسَهُ وَيَشْتَغلُ بِهَا وَلَا يَعْيَثُ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَهُوَ إِنَّمَا قَتَلَهُمْ حِيثُ أَفْسَدُوهُ فِي زَمَانِهِ وَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِنَ الصَّالِحِينَ كَعَبْدَاللهِ بْنَ خَبَّابٍ ، وَشَقَوْا بَطْنَ إِمَّرَأَهُ وَكَانَ حَامِلاً وَدَعَوْا النَّاسَ إِلَى بَدْعَتِهِمْ وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ لَا صَاحِبَهُ حِينَ سَارُوا إِلَيْهِمْ : لَا تَبْدِئُوهُمْ بِالْقَتْلِ حَتَّى يَبْدُئُوكُمْ بِهِ وَلَمْ يَشْرِعْ فِي قَتْلِهِمْ حَتَّى يَبْدُئُوهُ بِقَتْلِ جَمَاعَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّهُمْ أَنْتَمُ قَاتِلُهُمْ لَأَنَّهُ إِمامٌ عَادِلٌ رَأَيَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ قَاتِلِهِمْ بَعْدَهُ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَلِي هَذَا الْأَمْرَ بَعْدَهُ مِنْ لَهُ بِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ أَنْ يُقْتَلُ وَيَتَوَلَّ أَمْرَ الْحَدُودِ ، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ مَوْاضِعَهَا . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

٥٩ - وَمِنْ كُلِّ الْأَرْضِ عَلَيْنَا الْبَيْتُ الْمُبَارَكُ

لَا خَوْفُ مِنِ الْغِيلَةِ

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللَّهِ جَنَّةٌ حَصِينَةٌ ، فَإِذَا جَاءَ يَوْمَ الْنَّفْرَةِ عَنِي وَأَسْلَمْتِي
خَيْرَتِنِي لَا يَطِيشُ السَّهْمُ ، وَلَا يَبْرُأُ الْكَلْمُ .

أَفُولُ : قد كان عَلَيْهِ خَوْفٌ مِنْ غِيلَةِ ابْنِ مُلْجَمٍ - لِعَنْدَ اللَّهِ - مَرَارًا . روِيَ : أَنَّ الْأَشْعَثَ لَقِيهِ مَتَقَلَّدًا سَيْفَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا يَقْلِدُكَ السَّيْفُ وَلَيْسَ بِأَنْ حَرْبٌ ؟ فَقَالَ : أَرْدَتُ أَنْحِرَبَهُ جَزْرَوْهُ الْقَرِيَةَ . فَأَتَى الْأَشْعَثَ عَلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ وَقَالَ : قَدْ عَرَفْتَ ابْنَ مُلْجَمٍ وَفَتَكَهُ فَقَالَ عَلَيْهِ : مَا

قتلني بعد ، وروى : أن " علياً عَذَابَهُ" كان يخطب مرّةً ويدرك أصحابه وابن ملجم تلقاه المنبر فسمع وهو يقول : والله لا ريحنهم منك . فلما انتصر على "أتوابه ملبساً" . فأشرف عليهم وهو قال : ما تريدون . فأخبروه بما سمعوا منه . فقال : فما قتلني بعد ، خلو عنه ، وإن على من الله جنة . الفصل .

والغيلة : القتل على غفلة . والجنة : ما تستر به من سلاح . وطاش السهم : انحرف عن الغرض . والكلم : الجرح .

وكتنى بالجنة عن عناية الله بحفظ أسباب حياته في المدة الممكنة لدفي الفضاء إلا وهي كنایة بالمستعار . ووجه الاستعارة أنَّ معبقاء أسباب الحياة محفوظة لا يؤثر في الإنسان شيء من سهام المنية أبداً كما أنَّ لابس الجنة محفوظ بها من آثار السهام ونحوها . وصفتها بالحصينة ترشحًا للاستعارة ، وكتنى بها أيضًا عن قوة ذلك الحفظ . وكتنى بيومه عن وقت ضرورة موته ، وبنفراج الجنة عنه عن عدم بعض أسباب الحياة المستلزم لعدم الحياة وللحوق سهام الأمراض وهو ترشح للاستعارة أيضًا ، ونسب إليها إسلامها له ملاحظة لتشبيهها بمن يحفظه ثم يسلمه للقتل .

وقوله : و حينئذ لا يطيش السهم .

استعارة لفظ السهم للأمراض التي هي أسباب الموت ، وكتنى بعدم طيشه عن إنكاره وحصول الموت عنه ، ولفظ الكلم للأثر الحاصل عن تلك الأسباب ، ووجه الشبه في الأولى كونهما سببين للهلاك ، وفي الثانية ما يستلزمانه من التأمل ، ورشح الأولى بذكر الطيش والثانية بذكر البرء . ومن الشعر المنسوب إليه في ذلك .

أي يوم من الموت أفر يوم لم يقدر أم يوم قدر

يوم لم يقدر فلا أرهبه يوم قد قدر لا يغنى الحذر

وهو في ذلك ملاحظ لقوله تعالى « و ما كان لنفس أن تموت إلَّا بِإِذْنِ اللهِ كُتُبًاً

مُؤْجَّلًا^(١) » و لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأرون ساعة ولا يستقدمون »^(٢) و

بإله التوفيق

٦٠ - فِي مِنْ حَطَبَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِلَّا وَإِنَّ الدِّينَا دَارَ لَا يُسْلِمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنْجِي بَشِّرَ كَانَ هَذَا :
 أَبْتَلَ النَّاسَ فِيهَا فِتْنَةً فَمَا أَخْذُوهُ مِنْهَا لَا أَخْرُجُوهُ مِنْهَا ، وَحُوَسِبُوا عَلَيْهِ
 وَمَا أَخْذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدَّمُوا عَلَيْهِ وَاقْتَمُوا فِيهِ ، فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَى
 الظُّلُلَ : يَدِنَا تَرَاهُ سَابِعًا حَتَّى قَلَصَ ، وَزَائِدًا حَتَّى نَفَصَ .

أقول : بينما : أصله بين معنى التوسط فأشبعت الفتحة فحدثت ألف ، وقد تزداد ما فيقال بينما والمعنى واحد ، وتحقيق الظرفية هنا أن "الظل" دائرة بين السبوع والتقلص والزيادة والنقصان . وفاصن الظل نصف .
 والغرم من هذا الفصل تحذير من الدنيا والتبيه على وجوب لزوم أوامر الله فيها .
 وأشار إلى ذلك في أوصاف لها :

الأول : كونه لا يسلم منها إلّا فيها . وتحقيق ذلك أنه لا دار إلّا الدنيا والآخرة ، و قد علمت أن "أسباب السلام" هي الزهد والعبادة وسائر أجزاء الرياضة و شيء منها لا يمكن في الآخرة بل كلها أعمال متعلقة بالبدن فإذا ذكر ذلك لاحظ له في من الدنيا إلّا في الدنيا .

الثاني : كونها لا ينجي بشيء كان لها . و فيه إيماء إلى ذمة الرياء في الأقوال والأفعال وتحذير من كل عمل وقول قصد به الدنيا فإن شيئاً من ذلك لاحظ له في استلزم النجاة في الآخرة بل ربما كان سبباً للهلاك فيها لما أن "الاشتغال بمهمات الدنيا منس للآخرة" .

الثالث : كونها قد ابتلي الناس بها فتنـة . وفتنة منصوب بالمعنى على له ، و يحتمل

أن يكون مصدر أسد مسد الحال . ونحوه قوله تعالى «وبلوكم بالخير والشر فتنة وإلينا ترجعون »^(١) ولنبحث عن معنى الابتلاء بالدنيا وكونها فتنة .

واعلم أنه ليس المراد أن الله تعالى لا يعلم ما يؤول إليه أحوال العباد و ما يكون منهم بعد خلقهم و ابتلائهم بالدنيا فإنه تعالى هو العالم بما كان وما يكون قبل كونه كما قال تعالى « وما من غائبة في السماء والأرض إلّا في كتاب مبين »^(٢) و قوله تعالى « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في السماء ولا في نفسك إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير »^(٣) بل الكشف عن حقيقة الابتلاء أنه مسakan الإنسان إنما يكون إنسانا بما خلق فيه من القوى الشهوية والغبية وما يتبعهما ، وكان لهذه القوى ميول طبيعية إلى حاضر اللذات الدنيوية فهي مستحباتها ولا ابتهاج لها إلّا بباواحظها لها من غيرها ، و كانت النفوس الإنسانية مخالطة لهذه القوى وهي آلاتها ، و لا وجه لها في تصرّفاتها غالب الأحوال إلّا هي ، وكانت تلك القوى في أكثر الخلق جاذبة لنفسها إلى مستحباتها الطبيعية بالطبع ، وكانت تلك النفوس في أكثر الناس منقادة لقوتها معرضة عن الآخرة مشغولة بحاضر ما وجدته من لذات الدنيا عن تصور ماورائها . ثم مع ذلك كان المطلوب منها ما يضاد ذلك وهو ترك حاضر الدنيا ، ومنازعه وهذه القوى في مستحباتها ، وجذبها عن التوجه بكليتها إليها متابعة النفس في التفاتها عن ذلك إلى أمر لا يتصور في الدنيا إلّا بالوصاف الخيالية كما هو وظيفة الأنبياء كالتي لا يحيط بها العقول مع الخلق كانت إرادته تعالى لذلك الالتفات مع ما هم فيه من منازعه الهوى فإن أطاعوه هلكوا وإن عصوه نجوا صورة امتحان . فأشبه ذلك ما يعتمده أحدهنا عند عبده إذا أراد مثلاً اختبار صبره ومحنته له فوهد له جميع ما يشتبه ثم كلفه بذلك بتکاليف شاقة لا يتمكّن من فعلها إلّا بالتفاته عن مستهانه وتنغيصه عليه . فالاجر صدقت صورة الابتلاء و الاختبار من الله في الوجود ، و كذلك ظهر معنى كونها فتنة . فإن الفتنة الامتحان والاختبار . وإن قد رناها حالاً في معنى الفلال ويعود إلى جذبها للنفس إلى حاضر لذاتها عن سنن الحق .

الرابع : كونهم ما أخذوه منها أخرجوه منه وحوسبوا عليه . وهو تنبئه على

تحقيق معنى الحساب في الآخرة

وجوب قصد الآخرة بما يؤخذ من الدنيا ويتصرف فيه، وتنفي أن يجعل المأخذ منه مجرد التمتع بها بذكر وصفين : أحدهما : وجوب مفارقة المأخذ منها والإخراج منه ، والثاني : الحساب عليه في الآخرة .

واعلم أن الحساب على رأي المليين ظاهر ، قالوا : إنَّ الله تعالى قادر على حساب الخلق دفعة واحدة ولا يشغله كلام كما قال : وهو سبع الحساب . أمَّا الحكماء فقالوا : إنَّ للحساب معنى ، وتقريره بتقديم مقدمات .

الأولى أنَّ كثرة الأفعال وتكررها يوجب حشو الملائكة في النعوم ، والاستقرار التام يكشف عن ذلك ، ومن كان مواطنه على عمل من الأعمال أكثر كان رسوخ تلك الملائكة الصادرة عن ذلك الفعل في نفسه أقوى .

الثانية : أَنَّه مَا كان تكرر العمل يوجب حصول الملائكة وجب أن يكون لكل عمل يفعله الإنسان أثر في حصول تلك الملائكة بل يجب أن يكون لكل جزء من أجزاء العمل الواحد أثر في حصول لها بوجه ما وضربوا لذلك مثلاً فقالوا : لو فرضنا سفينتين عظيمتين بحيث لو ألقى فيها مائة ألف من إنسانها تغوص في الماء قدر شبر واحد ولو لم يكن فيها إلاجية واحدة من الحنطة فذلك القدر من الجسم الخفيف فيها يجب غوصها في الماء بمقدار ماله من الثقل وإن بلغ في القلة إلى حيث لا يدرك الحس . إذا عرفت بذلك فنقول : ما من فعل من الخير والشر قليل ولا كثير إلا وفيه حصول أثر في النفس إمَّا سعادة أو شقاوة . وعند هذا ينكشف سرُّ قوله تعالى « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » وكذلك لما ثبت أنَّ الأفعال إمَّا تصدر بواسطة الجوارح من اليد والرجل وغيرهما لاجرم كانت الأيدي والأرجل شاهدة على الإنسان يوم القيمة بلسان حالها على معنى أنَّ تلك الآثار النفسيَّة إمَّا حصلت في جواهر النعوم بواسطة الأفعال الصادرة عنها فكان صدور تلك الأفعال من تلك الجوارح جارياً مجرِّي الشهادة على النفس بما اكتسبها . إذا عرفت بذلك فنقول : مَا كانت حقيقة المحاسبة تعود إلى تعريف الإنسان ماله وما عليه من مال ونحوه . وكان ما يحصل من النعوم من الملائكة الخيرية والشريرة أموراً مضبوطة في جوهرها محسنة عليها وإنَّما تكشف لها كثرة تلك الهيئات وتمكُّنها

من ذواتها و تضرّرها بهافي الآن الذي تقطع فيه علاقة النفس مع البدن أشبه ذلك ما تبيّن لإنسان عند المحاسبة مما أحصى عليهوله . فاطلق عليه لفظالحساب . وذلك اليقين والاطلاع هو المشار إليه بقوله ﴿إِنَّمَا مَا يَنْهَا حُلُولُهُ﴾ : وقد مواعيله ، وليس المقصود أنّ ما يقدم عليه في الآخرة هو عين ما أخذ من الدنيا بل ثمرة في النفوس من خير أو شرّ فالذى يتناوله العاجلون منها مجرّد التنعم بها فهو الذى يتمكّن عنه هيئات السوء في جواهر نفوسهم فيقدمون عليها ويقيمون بها في عذاب جهنّم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون .

الخامس : كونها عند ذوى العقول كفى ظلل ، وبشهدها الوصف على سرعة زوالها ، وإنما خصّص ذوى العقول بذلك لأمررين : أحدهما : أنّ المعتبر لزوالها عامل بمجرّد عقله دون هواه فلذلك نسب إلى العقل . الثاني : أنّ حال ذوى العقول مرغوب فيه من سمعه . و لما كان مقصوده تحذير السامعين من سرعة زوالها ليعملوا فيها لما بعدها نسب ذلك إلى ذوى العقول ليتفقى السامعون أثرهم . ثم أشار إلى وجه شبها للظل بقوله : يينا تراه . إلى آخره : أى أنها يسرع زوالها كما يسرع زواله ، وهو من التشبيهات السائرة ، ومثله قول الشاعر .

أظللت يسيراً ثم حفت فولت
ألا إنما الدنيا كظلٌ غمامه

٦١ - فَمَنْ حَطَبَتْ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَاتَّقُوا اللَّهَ عَبَادَ اللَّهِ ، وَبَادِرُوا آجَاءَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ
بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ ، وَتَرْحَلُوا فَقَدْ جَدِبُوكُمْ ، وَاسْتَعْدُوا لِلْوَتْرِ فَقَدْ ظَلَمُوكُمْ ،
وَكُونُوا قَوْمًا صَحَّ بِهِمْ فَانْبَثُوا ، وَعَلِمُوا أَنَّ الدِّينَا لِيُسْتَهْمِ بِدَارِ فَاسْتَدَلُوا
فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبْثًا ، وَلَمْ يَرْكُمْ سَدِّي ، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ
الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ ، وَإِنَّ غَايَةَ تَنْقُصُهَا الْحَلْقَةُ وَتَهْدِمُهَا

الساعة لجديرة بقصر المدة ، وإن غالباً يحدوه الجدیدان الليل والنہار لحرى سرعة الأوبه ، وإن قادماً يقدم بالفوز والشقوة ، لستحق لافضل العدة فزودوا في الدنيا ، من الدنيا ، ما يحرزون به أنفسكم غداً فاتني عبد ربه نصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشیطان موكل به : يذنب له المعصية ليركبها وينبئه التوبة ليسوفها حتى تهجم مدينته عليه أغفل ما يكون عنها ، فإذا لها حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وأن تؤديه أيامه إلى شقوة ، نسال الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم لا يُطْرُه نعمة ، ولا تقصريه عن طاعة ربِّه غایة ، ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة .

أقول : المبادرة : المسارعة . والسدى : المهمل . وجدير بكذا : أى أولى به . وحرى : حقيق . والتسويف : قول إلا إنسان سوف أفعل ، وهو كنایة عن التمادى في الأمر . والبطر : تجاوز الحد في الفرح . والكآبة : الحزن .
وحاصل هذه الموعظة للتغیر من الدنيا والترغيب في الآخرة وما يكون وسيلة إلى نعيمها والترهيب مما يكون سبباً للشقاء فيها .
فقوله : فاتّقوا الله . إلى قوله : بأعمالكم .

فيه تنبيه على وجوب لزوم الأعمال الصالحة ، وحثّ عليها بالأمر بمسابقة الآجال وعلى توقيع سرعة الأجل وإخطاره بالبال ، وهو من الجواذب القوية إلى الله تعالى . ونسب المسابقة إلى الآجال ملاحظة لتشبهها بالمراهن إذ كان لحقوقها حائلاً بينهم وبين

شرح الخطبة الحادية والستين

- ١٦٣ -

الأعمال الصالحة الشبيهة بما يسبق عليه من رهن .

قوله : وابتاعوا ما بقى . إلى قوله : عنكم .

إشارة إلى لزوم الزهد في الدنيا ، والتخلّي عن ممتعها الغافى ، و أن يشتري به ما يبقى من ممتع الآخرة . وقد عرفت غير مرّة إطلاق لفظ البيع هنا . و قيد المشتري بما يبقى ، والثمن بما يزول ليكون المشتري أحب إلى النفوس لبقاءه .

وقوله : فترحلوا فقد جدّ بكم .

أمر بالترحيل ، وهو قطع منزل منزل السفر إلى الله تعالى في مراتب السيرك أمر بـ : رتبه على وجوب الترحيل بقوله : فقد جدّ بكم : أى في السير إلى آجالكم بقوه و ذلك الجدّ يعود إلى سرعة توارد الأسباب التي تعدّ المزاج للفساد و تقرّب إلى الآخرة ملاحظة لشبهها بسابق الإبل و نحوها .

وقوله : واستعدوا للموت فقد أظلّكم .

الاستعداد له هو باستكمال النفوس كما لها الذي ينبغي حتى لا يبقى للموت عندها كثير وقع بل يكون محبوباً لكونه وسيلة إلى المحبوب وهو لقاء الله والسعادة الباقية في حضرة أطلا العلّى ، و نبه بقوله : فقد أظلّكم . على قربه . و استلزم ذلك تشبيهه بالسحاب والطير فاستغير له وصف الإظلال .

وقوله : وكونوا فوماً صبح بهم فانتبهوا .

تنبيه لهم على الالتفات إلى منادي الله ، و هو لسان الشريعة و الانتباه بندائه من مرآق الطبيعة .

وقوله : وعلموا . إلى قوله : سدى .

تنبيه لهم على أنّ الدنيا ليست بدار لهم ليتلقنوا عن الرّكون إليها و يتوقعوا الإخراج منها . ثم أمرهم بالاستبدال بها ليدركوا أنّ هناك عوضاً منها يجب أن يتلقن إليه و هو الدار الآخرة ، و نبه بقوله : فإنّ الله لم يخلقكم عيشاً . إلى آخره على وجوب العمل بذلك البديل فإنّهم لم يخلقوا إلا لأمر وراء ما هم فيه .

وقوله : ما بين أحدكم . إلى قوله : ينزل به .

وأنَّ الحائل بين العبد وما وعده ليس إِلَّا الموت

تعيّن مَا خلقوا له و وعدوا بالوصول إِلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا حা�يلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ إِلَّا الموت .
 قال بعض الشارحين : وهذا الكلام مما يصلح متّسّكًا للحكماء في تفسيرهم للجنة والنار فـإِنَّهُمْ لَمْ يَقُلُوا : إنَّ الْجَنَّةَ تَعُودُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَلَوْازِمِهَا ، والنار تعود إلى حُبِّ الدِّينِ وَالْمَلِيلِ إِلَى مُشْتَهِيَّاتِهَا . وَتَمْكِنُ الْهَيَّاتُ الرَّدِيَّةُ فِي جُوهرِ النَّفْسِ وَعُشْقِهَا بَعْدَ الْمَفَارِقَةِ مَا لَا يَتَمْكِنُ مِنْ الْعُودِ إِلَيْهِ كَمَنْ نَقْلٌ عَنْ مَجاوِرَةِ مَعْشُوقَهِ وَالْالِتَّذَادِ بِهِ إِلَى مَوْضِعِ ظَلْمَانِيٍّ شَدِيدٍ الظَّلْمَةِ مَعَ دُمُّ تَمْكِنَةِ الْعُودِ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى « قَالَ رَبُّ ارْجُعُونَ لَعَلَّی أَعْمَلُ صَالِحًا فَيُمَاتَرُ كَتَ كَلَّا »^(١) الْآيَةُ . وَكَانَ إِدْرَاكُ لَذَّةِ الْمَعْرِفَةِ التَّامَّةِ ، وَإِدْرَاكُ أَلْمِ النَّارِ بِالْمَعْنَى أَمْرًا يَتَحَقَّقُ حَالَ مَفَارِقَةِ هَذَا الْبَدْنِ . إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ فِي إِدْرَاكِهِ مَا حَصَلَ فِي نَفْسِهِ وَتَمْكِنَةِ الْهَيَّاتِ كَعَضُوٍ مَفْلُوجٍ غَطَّى خَدِيرَهُ عَلَى أَمْلَهِ فَإِذَا أَزَّالَ الْخَدْرَ أَحْسَنَ بِالْأَلْمِ فَكَذَلِكَ النَّفْسُ بَعْدَ الْمَوْتِ تَدْرِكُ مَالَهَا مِنْ لَذَّةٍ أَوْ أَلْمٍ كَمَا هُوَ لِزَوَالِ الشَّوَّاغِلِ الْبَدِيَّةِ عَنْهَا .

قلت : وهذا الكلام أيضًا ظاهر على مذهب المتكلّمين إذ جاء في الخبر أنَّ العبد يكشف له الموت عمّا يستحقه من جنة أو نار ثم يؤجّل ذلك إلى قيام القيمة الكبرى .
 و قوله : وإنَّ غَايَةً . إلى قوله : المدَّةُ .

كتَّى بالغاية عن الأجل المعلوم للإِنْسَانِ ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى قَصْرِهِ وَحَقَارَتِهِ بِأَمْرِينِ : أَحدهما : كونه تنتصَرُ لِلْمَحْظَةِ : أَيِّ النَّظَرَةِ . وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنَ الزَّمَانِ فَرْصَةٌ قَدْ مَضَى مِنْ مَدَّةِ الْإِنْسَانِ مَنْقُصٌ لَهَا .

الثاني : كونه تهدمها السَّاعَةِ . كَتَّى بِالسَّاعَةِ عَنْ وَقْتِ الْمَوْتِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآنَ الَّذِي تَنْقُطُ فِيهِ عَلَاقَةُ النَّفْسِ مَعَ الْبَدْنِ غَايَةً لِأَجْلِ الْإِنْسَانِ . وَغَايَةُ الشَّيْءِ هِيَ مَا يَتَعَلَّقُ بِعَنْدِهَا الشَّيْءُ فَكَنَّى بِالْهَدْمِ عَنْ ذَلِكَ الْأَنْقَطَاعِ وَالْأَنْتِهَاءِ كَنْيَةً بِالْمُسْتَعَارِ . وَظَاهِرٌ أَنَّ مَدَّةَ هَذَا شَأْنَهَا فِي غَايَةِ الْقُصْرِ .

وَقُولُهُ : وإنَّ خَائِبَا . إلى قوله : الْأُوبَةُ .

أَشَارَ بِالْغَافِبِ إِلَى إِنْسَانٍ إِذْ كَانَ الدِّينُ عَالَمًا غَرْبَتْهُ وَمَحْلُّ سَفَرَهُ ، وَمَنْزَلَهُ الْحَقِيقَى

إنما هو منشاء وما إليه مرجعه، وإنما سمي الليل والنهر جديدان لتعاقبهما فليس أحدهما مختلفاً للآخر. واستعارة لفظ الحدو ما يستلزم أنه من إعداد الإنسان لقرب أجله ألمشيه لصوت الحادى الذي يحدو إلا بسرعة سيرها وقربها من المنزل المقصود لها. وظاهر أنَّ من كان الليل والنهر حاديه فهو في غاية سرعة الرجوع إلى مبدئه ووطنه الأصلى . وقال بعض الشارحين : أراد بالغائب الموت . وهو وإن كان محتملاً إلا أنه لا يطابقه لفظ الأوبة لأنَّ الموت لم يكن جائياً أو ذاهباً حتى يرجع .

وقوله : وإنْ قادماً . إلى قوله : العدة .

وأشار بالقادم بالفوز أو الشفوة إلى الإنسان حين قدمه على ربِّه بعد المفارقة فإنه إنما الفوز بالسعادة الباقيَة ، أو الحصول على الخيبة والشفوة . ونسبة ذكر القديم على أنَّ من هذا شأنه فالواجب عليه أن يستعدُّ بأفضل عدة ليصل بها إلى أحبهما لديه ، ويتباعد بها عن أكرههما عنده .

وقوله : فتزوَّدوا . إلى قوله : غداً .

فصل نوع تفصيل أفضل العدة وهو الزاد الذي يحرز إلا إنسان به نفسه يوم القيمة من السقب في نار جهنم وغليل حرّها ، وأشار بذلك الزاد إلى تقوى الله وخشيته . وقد علمتحقيقة الخشية والخوف وأنه إنما يحصل في الدنيا . وأمّا كونه من الدنيا فلأنَّ الآثار الحاصلة للنفس من الحالات والملكات كالخشية والخوف وسائر ما يتزود به ويستصحبه بعد المفارقة أمور إنما حصلت عن هذا الدين واستفیدت من الدنيا بواسطته . والمشابهة التي لأجلها استعارة لفظ الزاد هنا هو ما يشتراك فيه الزاد المحسوس والتقوى من سلامته المتزود بهما كلَّ في طريقه فذاك في المنازل المحسوسة من عذاب الجوع والعطش المحسوسيَن ، وهذا في المنازل المعقولة ومراتب السلوك ومراحل السفر إلى الله تعالى من عذاب الجوع المعقول .

وقوله : فاتقى عبد ربه . إلى قوله شهوته .

أو أمر وردت بلفظ الماضي خالية عن العطف وهي بلاغة تريك المعنى في أحسن صورة . فالامر بالتقوى تفسير لاً من بالزاد كما قال تعالى «وتزوَّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى»^(١)

والامر بنصيحة النفس أمر بالنظر في مصالحها ، والشعور عليها أن تعمل ما هو الاولى بها من التمسك بحدود الله والوقوف عندها ، والأمر بتقديم التوبة وغلب الشهوة هو من جملة الأمر بالنصيحة كالتفسير له و من لوازم التقوى أرده بهما ، و أراد تقديم التوبة على الموت أو بالنسبة إلى كل وقت سيحضر .
وقوله : فإنْ أَجْلِهِ إِلَى قُولِهِ شَوْفَةٌ .

حث على امثال او امرء السائفة إلى التوبة وغيرها ، و تحذير من هجوم المنية على غفلة لما يستلزم ذلك من شدة الحسرة و طول الندم على التغريط ، وذلك أن ستر الأجل عن الإنسان موجب للغفلة عنه فإذا انضاف إلى ذلك خداع الأمل الناشئ عن وساوس الشيطان في تزيينه المعصية وتسوييفه التوبة مع كون موكلًا به و قرينا له كما قال سيد المرسلين ﷺ : ما من مولود إلا ويولد معه قرين من الشيطان . كانت الغفلة أشد والنسيان أكدر ، و استعار لفظ الخداع لصورته من النفس الامارة بالسوء وهو قوله لـإنسان مثلا : تتمتع من شبابك و اغتنم لذة العيش مادمت في مهله و مستقبل من عمرك و ستلحق للتوبة ، و نحو ذلك من الأدلة فإن هذه الصورة خداع من الشيطان ، وأمام نسبة ذلك إلى الأمل فلان الأمل هو عزم النفس على فعل تلك الأمور وأمثالها في مستقبل الأوقات عن توهّم طول مدة الحياة واتساعها بما تفعله فيها من معصية و توبة ، وذلك العزم من أسباب الانخداع للشيطان و غروره فلذلك نسب الخداع إلى الأمل مجازاً ، وجعل غاية ذلك الخداع هو أن تهجم على المخدوع منيته حال ما هو في أشد غفلة عنها و اشتغال بما يؤمّله فيكون ذلك مستلزمًا لأعظم حسرة وأكبر ندامة على أن يكون عمره عليه حجة شاهدًا بلسان حاله على ما اكتسب فيه من الآثام فصار بعد أن كان وسيلة لسعادته سبباً لشقاؤه . وأغفل نصب على الحال . وحرقة على التميز للمتعجب منه المدعو . والله في لها قيل : للأستغاثة . كأنه قال : يا للحرقة على الغافلين ما أكثرك ، وقيل : بل لام الجر فتحت لدخولها على الضمير و المنادى مخنوّف و تقديره يا قوم أدعوكم لها حسرة ، وأن في موضع النصب بحذف الجار كأنه قيل : فعلام يقع عليهم الحسرة ؟ فقال : على كون أعمارهم حجة عليهم يوم القيمة .

وقوله : نسأّل الله تعالى . إلى قوله : كأنّة .

خاتمة الخطبة ، وسأل الله الخلاص عن أمور ثلاثة :

الأول : أن يخلصه من شدة الفرج بنعمة الدنيا فإن ذلك من لوازم محبتها المستلزمة للهلاك الأبدى .

الثاني : أن لا يقصر به غاية عن طاعة ربّه : أى لا يقصر عن غاية من غابات الطاعة يقال قصرت هذه الغاية بفلان إذا لم يبلغها .

الثالث : أن لا تحلّ به بعد الموت ندامة ولا حزن وذلك سؤال لجسم أسبابهما وهو اتباع الهوى في الدنيا والمدعول عن طاعة الله . وبأشه العصمة .

٦٢ - فِي مَنْ حَطَبَتْ لَهُ عَلَيْهَا السَّيْلَةُ

الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالاً ، فيكون أولاً قبل أن يكون آخرًا ،
 ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطنًا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ،
 وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوي غيره ضعيف ، وكل مالك غيره ملوك ،
 وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم
 عن لطيف الأصوات ، ويصممه كبرها ، ويده عنه ما بعد منها ، وكل
 بصير غيره يعمى عن خفي الاولان ولطيف الاجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ،
 وكل باطن غيره غير ظاهر ، لم يخلق مخلقه لتشديد سلطان ، ولا تخوف
 من عوّاقب زمان ، ولا استعانت على ندّ معاور ، ولا شريك مكابر ، ولا
 ضدّ منافر : ولكن خلائق مربوبون ، وعباد دارخرون ، لم يحمل في الآشيا

فِيَقَالُ هُوَ فِيهَا كَائِنٌ ، وَلَمْ يَنْعَهَا فِيَقَالُ هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ لَمْ يُؤْدِهِ خَلْقُ مَا أَبْتَداَ
وَلَا تَدْبِرُ مَا ذَرَأَ ، وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجَزٌ عَمَّا خَلَقَ ، وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُهَبَةٌ فِيهَا
قَضَى وَقْدَرٌ . بَلْ قَضَاءً مُتَقْنٌ ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ ، وَأَمْرٌ مُبْرِمٌ : الْمَامُولُ مَعَ ،
الْقُمِّ ، وَالْمَرْجُوُّ مِنَ النَّعْمِ .

أقول : المثاوار : المواتب . و الداخر : الذليل ، و آده الأمر : أتقله . و ذرع : خلق .

والمبرم : المحكم .

وقد اشتملت هذه الخطبة على مباحث لطيفة من العلم إلاليه أيضاً لا يطلع عليها إلا المبحرون فيه .

الأول : الذي لم يسبق . إلى قوله : باطننا .

أقول : إنَّه ملأ ثبتَ أَنَّ السبق و المقارنة و القبلية و البعدية أمور تلحق الزمان
لذاته و تلحق الزمانيات به ، وثبت أنَّه تعالى مُنْزَهٌ عن الزمان إذ كان من لوا حُقُّ
الحر كة المتأخرة عن وجود الجسم المتأخر عن وجود الله سبحانه كما علم ذلك في موضعه
لاجرم لم تلحق ذاته المقدسة و مالها من صفات الكمال و نعموت الحال شيء من لوا حُقُّ
الزمان . فلم يجز إذن أن يقال مثلاً كونه عالماً قبل كونه قادر و سابق عليه ، و كونه قادرًا
قبل كونه عالماً ، و لا كونه أولاً للعالم قبل كونه آخرًا له قبلية و سبقاً زمانياً . بقى أن
يقال : إنَّ القبلية و البعدية قد تطلق بمعانٍ أُخْرٍ كالقبلية بالشرف و الفضيلة و الذات
والعلية ، وقد يتسنى في الخطبة الأولى أنَّ كلَّ ما يلحق ذاته المقدسة من الصفات فاعتبارات
ذهنية تحدّثها العقول عند مقاييسه إلى مخلوقاته ، و شيء من تلك الاعتبارات لا تتفاوت
أيضاً بالقبلية و البعدية بأحد المعانٍ المذكورة بالنظر إلى ذاته المقدسة فلا يقال مثلاً هو
المستحق لـهذا الاعتبار قبل هذا الاعتبار أو بعده وإن كان كمال ذاته قابلاً للزيادة والنقصان ؛ بل
استحقاقه بالنظر إلى ذاته لما يصحُّ أن يعبر له استحقاق واحد لجميعه بأدئماً فالحال يفرض إلَّا
وهو يستحق فيه أن يعتبر له الأولى و الآخريَّة مع استحقاقاً أو ليَذْأَيَاً لـأعلى وجه الترتيب

وإن تفاوتت الاعتبارات بالنظر إلى اعتبارنا ، وهذا بخلاف غيره من الأمور الزمانية فإن الجوهر مثلاً يصدق عليه كونه أولاً من العرض ولا يصدق عليه مع ذلك أنه آخر له حتى لوفرضنا عدم جمـع الأعراض وبقاء الجوهر بعدها لم يكن استحقاقه لاعتبارين معاً بل استحقاقه لاعتبار الأولية متقدماً إذ كانت بعض أحوال المسابقة على بعض ، و لا استحقاقه لما له ذاته بل بحسب بقاء أسبابه . ولا العرض مما صدق عليه أنه بعد انجوهر يصدق عليه أنه قبله باعتبار ما ، وخلاف المخالفين في أي "الصفات أقدم" مبني على سوء تصوّرهم لصانعهم سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً .

إذا عرفت ذلك فقول : أولياته اعتبار كونه مبدئاً بكل موجود ، وآخريته هو كونه غاية لكل ممكن ، وقد سبق معنى كونه ظاهراً و باطنًا في الخطبة التي أولتها : الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور .

الثاني : كل مسمى بالوحدة غيره قليل .

مقصود هذه الكلمة أنه تعالى لا يوصف بالقلة وإن كان واحداً ؛ و تقرير ذلك أن الواحد يقال بمعانٍ والمشهور منها المترافق بين الخلق كون الشيء مبدئاً الكثرة يكون عاداً لها ومكيناً وهو الذي تلحقه القلة و الكثرة إلا ضا فستان فإن " كل " واحد بهذا هو قليل بالنسبة إلى الكثرة التي يصلح أن يكون مبدئاً لها و المتصور لأكثر أهل العالم صدق هذا الاعتبار على الله بل ربما لا يتصور بعضهم كونه تعالى واحداً إلا بهذا الوجه ، ولما كان تعالى منزهاً عن الوصف بالقلة و الكثرة لما يستلزم مانه من الحاجة والنقصان اللازمين لطبيعة إلا مكان أثبتت القلة لكل ماسواه فاستلزم إثباتها لغيره في معرض المدح له و نفيه ماعنه . واستلزم ذلك تنزيهه تعالى عن الوحدانية بالمعنى المذكور . إذ سلب اللازم يستلزم سلب ملزومه ، و ليس إذا بطل كونه واحداً بهذا المعنى بطل كونه واحداً . فـ إنما يتناسق الـ واحد عليه بمعانٍ آخر في الخطبة الأولى ، وقد يفهم من هذا أنه لما نفي عنه القلة استلزم ذلك أن يثبت له الكثرة ، وهو من سوء الفهم و قوله العلم فإن " عدم القلة إنما يستلزم ثبوت الكثرة عند تعاقبها على محل " من شأنه قبولهما . و ربما يقال : إن المراد بالقليل هنا الحقير ، وهو غير مناسب لذكر الوحدة وإنما قال تعالى : كل

مسمى بالوحدة ، ولم يقل **كل** واحد ليشعر بأنّ قول الوحدة على واحديته تعالى وعلى واحديّة غيره قول بحسب اشتراك الاسم .
الثالث : **و كل** عزيز غيره ذليل .

أقول : رسم العزيز **بأنه** الخطير الذي يقلّ وجود مثله وتشتدّ الحاجة إلّي ويعصب الوصول إليه . ثمّ في **كل** واحد من هذه القيود الثلاثة كمال ونقصان فالكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى واحد ويستحيل أن يوجد مثله وليس ذلك إلّا الله سبحانه ، و الكمال في النفاسة وشدة الحاجة أن يحتاج **كل** شيء في **كل** شيء ، وليس ذلك على الكمال إلّا الله تعالى ، والكمال في صعوبة المثال أن لا يوصل إلى حقيقته على معنى الإحاطة بها ، وليس ذلك على كمال إلّا الله تعالى فهو إذن العزيز المطلق الذي **كل** موجود سواه ففي ذلّ الحاجة إليه وحقاره العبودية بالنسبة إلى كمال عزّه . فأمّا العزيز من الخلق فهو الذي توجد له تلك الاعتبارات لكن لامتصاقها بقياسه إلى من هو دونه في الاعتبارات المذكورة فهو إذن وإن صدق عليه أنه عزيز بذلك الاعتبار إلّا أنه في ذلّ الحاجة إلى من هو أعلى رتبة منه وأكمل في تلك الاعتبارات ، وكذلك من هو أعلى منه إلى أن ينتهي إلى العزيز المطلق الذي لا يلحقه ذلّ باعتبار ما . فلذلك أثبت **عَلَيْكُمْ الذلّ لـ كل عزيز سواه** .

الرابع : **و كل** قوى غيره ضعيف .

القوّة تعود إلى تمام القدرة ، و يقابلها الضعف ، ولما كان استناد جميع الموجودات إلى تمام قدرته علمت أنه لأنّ من قدرته فكلّ قوّة وصف بها غيره بالنسبة إلى ضعف يقابلها من هو دونه وإذا قيس بالنسبة إلى من هو فوقه كان ضعيفاً بالنسبة إليه ، و كذلك من هو فوقه إلى أن ينتهي إلى تمام قدرة الله فهو القوى الذي لا يلحقه ضعف بالقياس إلى أحد غيره كذلك قوله : **و كل** مالك غيره ملوك . فإنّ معنى المالك يعود إلى القادر على الشيء الذي تنفذ مشيّته فيه باستحقاق دون غيره ، وغيره باذنه . ولما ثبت أنّ **كل** موجود سواه فهو في تصريف قدرته و مشيّته إذ هما مستند وجوده ثبت أنه هو المالك المطلق الذي لست له مملوكة بالقياس إلى شيء آخر وأنّ **كل** متساوون فهو مملوك له وإن صدق عليه

بالعرف أنه مالك بالقياس إلى هو دونه . ثم لا يخفى عليك مماسلك أن قول القوى والمالك عليه وعلى غيره قول بحسب اشتراك الاسم أيضاً .
الخامس : وكل عالم غيره متعلم .

لما ثبت أن علمه تعالى بالأشياء على مامر من التفصيل إنما هو لذاته ، ولم يكن شيء منه يستفاد من أمر آخر ، وكان علم من سواه إنما هو مستفاد بالتعلم من الغير ثم الغير من الغير إلى أن ينتهي إلى علمه تعالى الفايض بالخيرات لا جرم كان كل عالم سواه متعلما وإن سمي عالما بحصول العلم له ، و كان هو العالم المطلق الذي لاحاجة به في تحصيل العلم إلى أمر آخر .
السادس : وكل قادر غيره يقدر ويعجز .

أقول : قدرة الله تعالى تعود إلى اعتبار كونه مصدراً لآثاره . فاما قدرة الغير فقد يراد بها قوّة جسمانية منبثة في الأعضاء مجرّدة لها نحو الأفعال الاختيارية . والعجز ما يقابل القدرة بهذا المعنى وهو عدمها عمّا من شأنه أن يقدر كما في حق الواحد مننا ، وقد يراد بهما اعتبار آخرين يتقابلان . إذا عرفت ذلك فنقول : القادر المطلق على كل تقدير هو مستند كل مخترع و موجود اخترعا ينفرد به ويستغنى فيه عن معاونة غيره وذلك إنما يتحقق في حق الله سبحانه فاما كل منسوب إلى القدرة سواه فهو وإن كان بالجملة ذاترة إلا أنها نافضة لتناولها بعض الممكنات فقط وقصورها عن البعض الآخر وعدم تناولها له إذا كانت لا تصلح للمختبرات وإن نسب إليه إيجاد شيء فلا تزاله فاعل أقرب وواسطة بين القادر الأول سبحانه وبين ذلك الآخر لذاته استقلالاً و تفرداً به على ما علم في مظانه . فكل قادر سواه فلذاته يستحق العجز وعدم القدرة بالنسبة إلى ما يمكن تعلق قدرته به من سائر المختبرات والممكنات وإنما يستحق القدرة من وجوده . فهو إذن الفاعل المطلق الذي لا يعجز شيء عن شيء ولا يستعصي على قدرته شيء .

السابع : وكل سميع غيره بصم عن لطيف الأصوات ، ويصمّه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد منها .

أقول : حس السمع في الحيوان عبارة عن قوة تنفذ من الدماغ إلى الأذن في

شرح الخطبة الثانية والستين

عصبة ثابتة منه إلى الصماخ مبوسطة عليه كجلد الطبل ، و هذه العصبة آلة هذه القوة .
 و الصوت هيئه تحصل في الهواء عن تموّجه بحركة شديدة إما من قرع يحصل من اصطكاك جسمين صلبين فيضغط الهواء بينهما وينفلت بشدة ، وإما من قلع شديد فيلح الهواء بين الجسمين المنفصلين الصلبين ويحصل عن السبيبين تموّج الهواء على هيئة مستديرة كما يفعل وقوع الحجر في الماء فإذا انتهى ذلك التموّج إلى الهواء الذي في الأذن تحرّك ذلك الهواء إرادة حركة مخصوصة بهيئة مخصوصة فتنفع العصبة المفروشة على الصماخ عن تلك الحركة و تدركها القوة السامعة هناك فهذا الإدراك يسمى ساماً .
 إذا عرفت ذلك فاعلم أن إدراك هذه القوة للصوت يكون على قرب وبعد وحدة من القوة والضعف مخصوص فـ إن كان الصوت ضعيفاً أو بعيداً جداً لم يحصل بسببه تموّج الهواء فلم يصل إلى الصماخ فلم يحصل السماع بذلك معنى قوله : يضم عن لطيف الأصوات ، و يذهب عليه ما بعد منها .

فإن قلت : لم خصص اللطيف بالضم عنه والبعيد بالذهب عليه .

قلت : يشبه أن يكون لأن البعيد في مظنة أن يسمع وإنما يفوته بسبب عدم وصول الهواء الحامل له إليه ، وأما الخفي فلما فلم يكن من شأنه أن تدركه القوة السامعة أشبه عجزها عن إدراكه الصم فاستغير لفظه له ، وأما إن كان الصوت في غاية القوة والقرب فـ مما أحدث الصم وذلك لشدة قرعه للصماخ وتفرق اتصال الروح الحامل لقوة السمع عنه بحيث يبطل استعدادها لتأدية القوة إلى الصماخ وكل ذلك من نقصان الحيوان وضعفه ، و لما كان الباري تعالى منزها عن الجسمانية وتوابعها لاجرم كانت هذه اللواحق من الصمم عن لطيف الأصوات ، وذهاب بعيدتها ، والضم من كبرها مخصوصة بمن له تلك القوة المذكورة و السمع المخصوص فكل سامع غيره فهو كذلك . و استلزم ذلك في معرض مدحه بتزييه سبحانه عنها . و إذ ليس سميحاً بالمعنى المذكور وقد نطق القرآن بإثبات هذه الصفة له فهو سمي بمعني أنه لا يعزب عن إدراكه مسروع و إن خفي فيسمع السر والنرجوى بل ما يسمع هو أدق وأخفى حمد الحامدين و دعاء الداعين ، وذلك هو السميع الذي لا يتطرق إليه الحديثان إذ لم يكن بالله وآذان .

الثامن : وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام .

أقول : خفي الألوان مثلاً كاللون في الظلم ، و اللطيف قد يكون بمعنى عديم اللون كما في الهواء ، وقد يكون بمعنى رقيق القوام كالجوهر الفرد عند المتكلمين ، وكالذرة ، واللطيف بالمعنيين غير مدرك للحيوان ، وأطلق لفظ العمي مجازاً إذ كان عبارة إمساع عن عدم البصر مطلقاً أو عن عدمه عمما من شأنه أن يتصور لا واحد من هذين الاعتبارين بموجود للبصیر غير الله فلم يكن عدم إدراكها عمی حقيقة بل لكون العمی من أسباب عدم الرؤیة أطلق لفظه عليه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ، وهذا الحكم في معرض مدحه إن يستلزم تنزيه بصره عن لاحق العمی ومنظنته إن كان سببها منزهاً عن معروض العمی والبصر ومتعالياً عن أن يكون إدراكه بحدقة وأخفان وأنطباع الصور والألوان وإن كان يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى . وإذا ليس بصيراً بالمعنى المذكور فهو البصیر باعتبار أنه مدرك لكمال صفات المبصرات ، وذلك الاعتبار أوضح وأجلى مما يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيات .

التاسع : وكل ظاهر غيره باطن .

أقول : ظهور الأشياء هو انكشافها للحسّ أو للعقل انكشافاً بيّنا ، و يقابلها بظواهرها هو خفاءها عن أحدهما ، و لما ثبت أنه تعالى منزه عن الجسمية ولو احقرها علم كونه منزهاً عن إدراك الحواس ، و لما قام البرهان على أنه تعالى يرى عن أنحاء التراكيب الخارجية والعقلية وجب تنزه ذاته المقدسة عن اطلاع العقول عليها فعلم من هذا الترتيب أنه لا يشارك الأشياء في معنى ظواهرها وقد وصف نفسه بالظهور فيجب أن يكون ظهوره عبارة عن انكشاف وجوده في جزئيات آثاره كما قال تعالى « سرّهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى تتبين لهم أنه الحق » ^(١) و إن كانت مشاهدة الحق له على مراتب متفاوتة و درجات متضادة كما أشار إليه بعض مجرّد السالكين : مارأينا الله بعده . فلما ترقوا عن تلك المراتبه درجة من المشاهدة والحضور قالوا : مارأينا شيئاً إلا ورأينا الله فيه . فلما ترقوا قالوا : ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله قبله . فلما ترقوا قالوا : ما رأينا شيئاً سوى الله .

والاولى مرتبة الفكر والاستدلال عليه ، والثانية مرتبة الحدس ، والثالثة مرتبة المستدلّين به لا عليه ، والرابعة مرتبة الفناء في ساحل عزّه واعتبار الوحدة المطلقة مخدوفاً عنها كلّ لاحق . وإذا عرفت معنى ظهوره علمت أنّ شيئاً من المكبات لا يكون له الظهور المذكور فإنّه وإن كان لبعض الأشياء في عقل أو حسٍ إلا أنه ليس في كلّ عقل وفي كلّ حسٍ إذ كلّ مطلع على شيء فالذى خفى عنه أكثر مما اطلع عليه فكلّ ظاهر غيره فهو باطن بالقياس إليه وهو تعالى الظاهر لكلّ شيء وفي كلّ شيء لكونه مبدأ كلّ شيء ومرجع كلّ شيء . العاشر : و كلّ باطن غيره فهو ظاهر [فهو غير ظاهر خ] .

وقد علمت معنى البطون للمكبات و ظهورها ، و علمت أيضاً مما سبق أنّ كونه باطننا يقال بمعنىين : أحدهما : أنه الذي خفي قدس ذاته عن اطلاع العقول عليه . والثاني : أنه الذي بطن جميع الأشياء خبره و نفذ فيها علمه . ثم علمت الظهور المقابل للمعنى الأول ، وأمّا المقابل للثاني فهو الذي لم يطلع إلا على ظواهر الأشياء لم يكن له اطلاع على باطنها يقال فلان ظاهر و ظاهري .

إذا عرفت ذلك فنقول : إنّ كلّ باطن غيره سوا كان المراد بالبطون خفاء المتصوّر أو نفوذ العلم في البوابات . فهو ظاهر بالقياس إلى تعالى ظهوراً بالمعنى الذي يقابلة . أمّا الأول فلانـ كلّ ممكـن وإن خـفى عـلى بعض العـالمـين لم يـخف عـلى غـيرـه وإن خـفى عـلى الكلـ فهو ظـاهرـ في عـلمـهـ تـعالـيـ و مـمـكـنـ الـظـهـورـ فـيـ عـلـمـ غـيرـهـ فـلـيـسـ إـذـنـ بـخـفـيـ مـطـلـقاـ وـ هـوـ تـعالـيـ الـبـاطـنـ الـذـيـ لـأـبـطـنـ مـنـهـ وـ كـلـ باـطـنـ غـيرـهـ فـوـ ظـاهـرـ بـالـقـيـاسـ إـلـيـهـ . وـ أـمـّـاـ الثـانـيـ فـلـاـنـ كلـ عـالـمـ وـ إـنـ جـلـ قـدـرـهـ فـلـاـ إـحـاطـةـ لـهـ بـعـضـ الـمـعـلـومـاتـ وـ هـوـ قـاـصـرـ عـنـ بـعـضـهـ وـ بـعـضـهـ غـيرـ مـمـكـنـ لـهـ وـ هـوـ تـعالـيـ الـذـيـ لـأـيـعـزـبـ عـنـ عـلـمـهـ مـقـاـلـ ذـرـةـ فـيـ الـأـرـضـ وـ لـأـفـيـ السـمـاءـ وـ لـأـ صـغـرـ مـنـ ذـلـكـ وـ لـأـكـبـرـ وـ كـلـ ظـاهـرـ بـالـقـيـاسـ إـلـيـهـ ، وـ فـيـ بـعـضـ النـسـخـ وـ كـلـ ظـاهـرـ غـيرـهـ غـيرـ باـطـنـ وـ كـلـ باـطـنـ غـيرـهـ غـيرـ ظـاهـرـ ، وـ مـعـنـيـ القـضـيـتـيـنـ أـنـ كـلـ مـمـكـنـ إـنـ كـانـ ظـاهـرـاـ مـنـكـشـفـاـ لـعـقـلـ أـوـ حـسـ لـمـ يـوـصـفـ مـعـ ذـلـكـ بـأـنـهـ باـطـنـ كـالـشـمـسـ مـثـلـاـ وـ إـنـ كـانـ باـطـنـ خـفـيـاـ عـنـ الـعـقـلـ وـ الـحـسـ لـمـ يـوـصـفـ مـعـ ذـلـكـ بـأـنـهـ ظـاهـرـ ، وـ هـوـ تـعالـيـ الـمـوـصـفـ بـأـنـهـ الـبـاطـنـ الـظـاهـرـ مـعـاـ . وـ فـيـ هـذـهـ النـسـخـةـ نـظـرـ . فـإـنـاـ إـنـسـاـ أـثـبـتـنـاـ كـوـنـهـ تـعالـيـ ظـاهـرـاـ وـ باـطـنـاـ مـعـاـ باـعـتـبـارـيـنـ

وفي بعض الممكنات ما هو كذلك كالزمان مثلاً فإنّ كلّ عاقل يعلم بالضرورة وجود الزمان وإن خفيت حقيقته على جمهور الحكماء واصطربت عليه أقوال العلماء و كذلك العلم فليس إذن كلّ ظاهر غيره غير باطن ولا كلّ باطن غيره غير ظاهر . والله أعلم .

الحادي عشر : لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان . إلى قوله : منافر .

أقول : إنّه تعالى لا يفعل لغرض ومتى كان كذلك كان منزّها عن خصوصيات هذه الأغراض . أمّا الأوّل فبرهاته أنه لوفعل لغرض لكن وجود ذلك الغرض و عدمه بالنسبة إليه تعالى إمّا أن يكونا على سواء ، أو ليس . والأوّل باطل وإلّا لأنّ حصول الغرض له ترجيحاً من غير مرجح ، والثاني باطل لأنّهما إذ الم يستوي ياكان حصول الغرض أولى به فحينئذ يكون حصول ذلك الغرض معتبراً في كما له فيكون بدونه ناقصاً تعالى الله عن ذلك .

لا يقال : ليست أولوية الغرض بالنسبة إلى ذاته بل بالنسبة إلى العبد إذ غرضه الإحسان إلى الغير .

لأنّا نقول : غرض إحسانه إلى الغير و عدمه إن كانا بالنسبة إليه على سواء عاد حديث الرجحان بلا مرجح ، وإن كان أحدهما أولى به عاد حديث الكمال والنقصان . و إذا عرفت أنّه تعالى لا يفعل لغرض ، و كلّ ما ذكره عليه في هذا الفصل من تشديد سلطان و تقويته أو تخوّف عاقبة زمان أو استعانته على ندو شريك و ضد أغراض علمت صدق قوله : إنّه لم يخلق شيئاً من خلقه لشيء من هذه الأمور . وهذا تنزيهه من طريق نفي الغرض المطلق . و أمّا تنزيهه تعالى عن خصوصيات هذه الأغراض فلان تشديد السلطان إنّما يحتاج إليه ذو النقصان في ملكه ، و لمّا كان تعالى هو الغنى المطلق في كلّ شيء عن كلّ شيء صدق أنّ ذلك بغير من له مما خلق ، و أمّا التخوّف عن عواقب الزمان فلان التفرّر والانفصال ولو احتجما من الخوف والرجاء و نحوهما إنّما هي من لواحق المكنات القابلة للنقصان والكمال و ما هو في معرض التغيير والزوال ، و لما ثبت تنزيهه تعالى عن الانفصال عن شيء لم يتصور أن يكون أحد هذه الأمور غرضاً له ، ولذلك الاستعانة على الندو ضدّ الشريك فإنّ الاستعانة هي طلب العون من الغير وذلك من لوازم الضعف

والعجز والخوفو أنه لاعجز فلا استعانة فلاند ولا شريك ولا ضدّ، وكذلك نقول : لاند ولا شريك ولا ضدّ فلا استعانه والغرض تنزيهه سبحانه عن صفات المخلوقين و خواص المحدثين .
وقوله : ولكن خلائق مربوبون و عباد داخرون .

أي بل خلائق خلقهم بمحض جوده وهو فيضان الخير عنه على كل قابل بقدر ما يقبله من غير بخل ولا منع و تعويق ، و بذلك الاعتبار كان كل شيء وكل عبد ذليل وهو مالكه و مولاه :

وقوله : لم يحل في الأشياء فقال هو فيها كائن .

إشارة إلى وصفه بسلب كونهذا محلّ . و للناس في تنزيهه تعالى عن المحل كلام طويل . والمعقول من الحلول عند الجمّهور قيام موجود بموجود على سبيل التعبية له ، و ظاهر أنّ الحلول بهذا المعنى على الواجب الوجود محال لأنّ كونه تبعاً للغير يستلزم حاجته إليه كلّ محتاج ممكن . قال أفضـلـ المتأخرـينـ نـصـيرـ الدـينـ الطـوـسـيـ - أـبـقـاهـ اللهـ - : و الحق أنّ حلول الشيء في الشيء لا يتصور إلا إذا كان الحال بحيث لا يتغير إلا بتوسط المحل وإن لا يمكن أن يتغير واجب الوجود بغيره فإذا ذُنـبـ سـتـحـيلـ حلـولـهـ فيـ غـيرـهـ .
إذا عرفت ذلك فنقول : لما كان الكون في المحل والنائي عنه و المبادنة له أموراً إنما يقال على ما يصح حلوله فيه ويحله وكان هو تعالى منزه عن الحلول وجب أن يتمتنع عليه إطلاق هذه الأمور . فإذا ليس هو حال في الأشياء فليس هو بكائن فيها ، وإن ليس بكائن فيها فليس بنائي عنها ولا مبادنة لها .

وقوله : لم يؤده حلق ما ابتدء ولا تدبر ما ذرع .

الإعـيـاءـ إـنـمـاـ يـقـالـ لـذـىـ الـأـعـضـاءـ مـنـ الـحـيـوانـ وـ إـذـ لـيـسـ تـعـالـىـ بـجـسـمـ وـلـذـىـ آـلـةـ جـسـمـانـيـةـ لـمـ يـلـحـقـهـ بـسـبـبـ فـعـلـهـ إـعـيـاءـ ،ـ إـنـمـاـ قـالـ :ـ هـاـ اـبـتـدـءـ .ـ لـيـكـونـ سـلـبـ إـلـاـعـيـاءـ عـنـهـ أـبـلـغـ إـذـ مـاـ اـبـتـدـءـ مـنـ الـأـفـعـالـ يـكـوـنـ الـمـشـقـةـ فـيـهـ أـتـمـ وـتـدـبـرـهـ يـعـوـدـ إـلـىـ تـصـرـيفـهـ لـجـمـيعـ الـذـوـاتـ وـالـصـفـاتـ دـائـمـاـ تـصـرـيفـاـ كـلـيـاـ وـجـزـئـيـاـ عـلـىـ وـفـقـ حـكـمـتـهـ وـعـنـيـاتـهـ ،ـ وـنـحـوـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ «ـ أـوـ لـمـ يـرـوـاـ أـنـ اللـهـ الـذـىـ خـلـقـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ وـلـمـ يـعـيـ بـخـلـقـهـنـ »ـ (١)ـ .ـ

(١) ٤٦ -

وقوله : ولا وقف به عجز عمّا خلق .

إشارة إلى كمال قدرته وأنّ العجز عليه محال . وقد سبق بيانه .

وقوله : ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر .

إشارة إلى كمال علمه ونفي الشبهة إن تعرّض له . وأعلم أنّ الشبهة إنّما تدخل على العقل في الأمور المعقولة الصرف غير الضرورية . وذلك أنّك علمت أنّ الوهم لا يصدق حكمه إلا في المحسوسات فاما الأمور المعقولة الصرف فحكمه فيها كاذب فالعقل حال استفصالة وجه الحق فيها يكون معارضًا للأحكام الوهمية فإذا كان المطلوب غامضًا فبما كان في الأحكام الوهمية ما يشبه بعض أسباب المطلوب فتتصوّره النفس بصورته وتعتقد أنه مبدئًا فينتهي الباطل في صورة المطلوب وليس به ، ولما كان الباري تعالى منزّهًا عن القوى البدنية وكان علمه لذاته لم يجز أن تعرّض لقضائه ولا قدره شبهة ، أو يدخل عليه فيه شكّ لكونهما من عوارضها . وقد عرفت معنى القضاء والقدر فيما سبق .

وقوله : بلا قضاة متقد وعلم محكم .

أى برىء من فساد الشبهة والغلط .

وقوله : وأمر مبرم .

إشارة إلى قدره الذي هو تفصيل قضاة المحكم ، وظاهر أنّ تفضيل المحكم لا يكون إلا محكمًا :

وقوله : المأمول مع النقم المرهوب مع النعم [المرجو] من النعم خ] .

أقول : منبع هذين الوصفين هو كمال ذاته وعموم فيضه وأنه لا غرض له وإنّما الجود المطلق والبهبة لكلّ ما يستحقه ، ولما كان العبد حال حلول نعمته به قد يستعد بالاستغفار والشكر لا فاضة الغفران ورفع النعمة فيفيضها عليه مع بقاء كثير من نعمه لديه كان تعالى مظننته الأمل والفرز إليه في رفع ما ألقى فيه وإبقاء ما أبقى حتى أنه تعالى هو المفيس لصورة الأمل ، وإليه وأشار بقوله تعالى « وإذا مسّكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياتاه » وكذلك حال إفاضة نعمته لما كان العبد قد يستعد بالغفلة لا يعراض عن شكرها كان تعالى في تلك الحال أهلاً أن يفيض عليه بوادر نعمته بسلبيها

كَلَامُهُ لَا صَحَابَهُ فِي بَعْضِ أَيَّامِ صَفَينَ

فَكَانَ هُوَ الْمَأْمُولُ مَعَ النَّقْمِ الْمَرْهُوبُ مَعَ النَّعْمِ فَهُوَ الْمُسْتَعْنَى بِهِ عَلَيْهِ وَهُوَ الَّذِي لَا مَفْرُونَ
مِنْهُ إِلَيْهِ ، وَمِنْ عَدَاهُ مَخْلُوقُ نَقْمَتِهِ غَيْرُ مَجَامِعُ الْأَمْرِ رَحْمَتِهِ ، وَقِيمَ نَعْمَتِهِ مَعَانِدُ لِشَمْوَلِ
رَهْبَتِهِ . فَلَا مَأْمُولُ وَلَا مَرْهُوبٌ فِي كُلِّ الْحَالَيْنِ سَوَاءً . وَبِاللَّهِ الْعَصْمَةُ وَالْتَّوْفِيقُ .

٦٣ — قَمْزَكَلَامِلَنْ عَلَيْهِ السِّتْلَافِنْ

كَانَ يَقُولُهُ لِأَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَيَّامِ صَفَينَ

مَعَاشِ الْمُسْلِمِينَ ، أَسْتَشْعِرُوا الْخُشْبَةَ ، وَبَخْلَبُوا السَّكِينَةَ ، وَاعْضَوْا عَلَى
الْنَّوَاجِذَ ، فَإِنَّهُ أَبْنَى لِلْسَّيُوفِ عَنِ الْهَامِ ، وَأَكْلَوْا الْلَّامَةَ ، وَقَلَقَلُوا السَّيُوفَ
فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلَهَا ، وَالْخَطَّوْا الْخَزَرَ ، وَاطْعَنُوا الشَّزَرَ ، وَنَافِخُوا
بِالظُّلَّا ، وَصَلُوْا السَّيُوفَ بِالْخُطَا . وَاعْلَمُوا أَنْكُمْ بَعْيَنِ اللَّهِ ، وَمَعَ
أَبْنِ عَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَعَاوَدُوا الْكَرَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ
الْفَرَقَ إِنَّهُ عَارٍ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارُ يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَطَبِيعَا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْسًا
وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مُتَبِّيَا سَجْحًا ، وَعَلِمْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ ، وَالرَّوَاقِ
الْمُطَنَّبِ ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كُسْرَهُ ، قَدْ قَدَمَ لِلْوَنَبَةِ
يَدًا ، وَآخِرَ لِلثَّكُوكِصِ رِجْلًا ، فَصَمَدَا صَمَدًا حَتَّى يَنْجُلَ لَكُمْ مُحَمَّدُ الْحَقُّ
(وَاتُّمُ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَرْكِمْ أَعْمَالَكُمْ)

أَقْوَلُ : الْمَشْهُورُ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ قَالَهُ لَا صَحَابَهُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَانَ مَسَاوِهِ
لِلْيَلَةِ الْهَرِيرِ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ فِي أَوَّلِ الْلَّقَاءِ بِصَفَينَ وَذَلِكَ فِي صَفَرِ سَنَةِ سَبْعَ وَثَلَاثَيْنَ .

استشعرت الشيء : اتّخذته شعراً : وهو ما يلى الجسد من الشياب . والجلباب : الملحفة . والسكينة : الثبات والوقار . والنواجد : أقصى الأضراض . ونبى السيف : إذارج في الضربة ولم ي العمل واللامة بالهمزة الساكنة : الدرع ، وبالمنودة مع تضييف الميم جميع آلات الحرب والقلقلة : التحرير . والخزر بفتح الزاء : ضيق العين وصغرها ، وكذلك تضييقها و النظر بمؤخرها عند الغضب . والطعن الشذر بسكون الزاء : الضرب على غير استقامة بل يميناً و شمالاً . والظبي : جمع ظبة : وهو طرف السيف و المنافحة : التناول بأطراف السيف . والأعقاب : جمع عقب أو جمع عقب و هو العاقبة . وسبحا : أى سهلاً . والسوداد : العدد الكبير . والرواق : بيت كالفسطاط يعمل على عمود واحد . وتبجه : وسطه . والكس : جانب الخباء والنكوص : الرجوع . والصمد . القصد . ولن يتذكركم : أى ينقضكم . واعلم أنَّ هذه الأوامر مشتملة على تعليم الحرب و المقاتلة وهي كيفية يستلزم الاستعداد بها إفادة النصر لامحاله .

فأولاً لها : الأمر باستشعار خشية الله كما يلزم الشعار الجسد . وهو استعارة كماسبق . وفائدة هذا الأمر الصبر على الحرب و امتثال جميع أمور الباقيه . إذ خشية الله مستلزمة لامتثال أوامره ولذلك قدمه .

الثاني : الأمر باتخاذ السكينة جلباباً تنزيلاً للثياب الشامل للإنسان منزلة الملحفة في شمولها للبدن . والشمول هو وجده الاستعارة ، وفائدة هذا الأمر طرد الفشل وإرهاب العدو فإنَّ الطيش والاضطراب يستلزمان الفشل وطعم العدو .

الثالث : الأمر بالغض على النواجد وفائدة ما ذكر و هو أنَّ ينبو السيف عن الهامة . وعلمه أنَّ "الغض" على الناجد يستلزم تصلب العضلات والأعصاب المتصلة بالدماغ فيقاوم ضربة السيف و يكون نكايته فيه أقلَّ ، والضمير في قوله : فاِنْه . يعود إلى الصدر الذي دلَّ عليه عضواً أكقولك : من أحسن كان خيراً لله . وقال بعض الشارحين : عض "الناجد" كنایة عن تسکین القلب و طرد الرعدة و ليس المراد حقيقته . قلت : هذا وإن كان محتملاً لقطع عن التعليل إلا أنَّه غير مراده لأنَّه يضيع تعليله بكونه أبداً للسيوف عن الهام .

الرابع : الأمر بإكمال الأمة ، وإكمال الدرع البيضة والسواعد ، ويحتمل أنَّ

شرح ما في كلامه تعالى من تعاليم

يريد باللامة جميع آلات الحرب وما يحتاج إليه فيه و فايديته شدة التحصن .

الخامس : الأمر بقلة السيف في الأغمام ، و فايديته سهولة جذبها حال الحاجة

إليها فإن طول مكثها في الأغمام يجب صدتها وصعوبة مخرجها حال الحاجة .

السادس : الأمر بلاحظ الخزر ؛ وذلك من هيئات الغضب فإن لا إنسان إذا نظر من

غضب عليه نظره خزراً ، و فائدتها مور : أحدها : إحياء الطبع واستثارة الغضب ، والثاني : أن

النظر بكلية العين إلى العدو أمارة الفشل ومن عوارض الطيش والخوف ، وذلك يجب

طبعه العدو . الثالث : أن النظر بكلية العين إليه يجب له التقطن والخذل وأخذ الأبهة

والتحرر ، والنظر خرزاً استفال له ومظنة لأخذ عزّته .

السابع : الأمر بالطعن الشرز ، وذلك أن الطعن يميناً وشمالاً يوسع المجال على

الطاعن ولأن أكثر المناوشة للخصم في الحرب يكون عن يمينه وشماله .

الثامن : الضرب بأطراف السيف . و فائدته أن مخالطة العدو والقرب الكبير منه

يشغل عن التمكّن من ضربه .

التاسع : الأمر بوصل السيف بالخطا . و له فايدينان : إحديهما أن السيف ربما

يكون قصيراً فلا ينال الغرض به فإذا انصاف إليه مد اليديه خطوات بلغ به المراد . وفيه

قول الشاعر .

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها

وقول الآخر :

وصل السيف إذا قصرن بخطوا

يوماً و نلحقها إذا لم تلحق

و قيل له تعالى : ما أقصر سيفك ؟ فقال : أطّو له بخطوة . الثانية : أن الزحف في الحرب

إلى العدو والتقدم إليه خطوات في حال المكافحة يكسر توهّمه الضعف في عدوه ويلقي

في قلبه الرعب ويدخله الرهبة ، وإليه أشار حميد بن ثور الهذلي .

وصل الخطأ بالسيف والسيف بالخطا إذا ظن أن الماء ذا السيف قاصر

ثم لما أراد تأكيد تلك الأوصي في قلوبهم وأن يزيد لهم أوامر أخرى أردف ذلك

بأمررين : أحدهما : أن الله تعالى يراهم وينظر كيف يعملون ، وذلك قوله : واعلموا أنكم

بعين الله ، والباء هنا كفي في قوله : أنت مني بمرأى وسمع . الثاني : تذكيرهم بكونهم مع ابن عم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه تنبيهاً لهم على فضيلته ، وأن طاعة كطاعته رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وحربه كحربه كما هو المقصود عنه : حربك ياعلى حربي . فيثبتوا على قتال عدوهم كما ثبتوها مع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه

العاشر : الأمر بمعاودة الكفر . وذلك عند التحرّف للقتال والا نحياز إلى الفتنة ، وأن يستحیوا من الفرار . ثم نبّههم على قبحه بأمررين : أحدهما : أنه عار في الأعقاب : أي أنه عار في عاقبة أمركم وبسبّة باقية خلفكم ، والعرب تستحبّ الفرار كثيراً ، الثاني : كونه ناراً يوم الحساب : أي يوجب استحقاق النار ، وهو من كبائر المعاصي ، وجعله ناراً مجازاً تسمية له باسم غايته و هو تذكير لهم بوعيده تعالى « ومن يوم لهم يومئذ ذرّه إلا متّحرّفاً لقتال أو متّحيزاً إلى فتنة فقدباء بغضّ من الله و مأويه جهنّم و بئس المصير » .

الحادي عشر : قوله : و طيّبوا عن أنفسكم نفساً . وهو تسهيل للموت عليهم الذي هو غاية ما يلقونه من الشدائد في الحرب بالبشرة بما هو أعظم وأجل من الحياة الدنيا المطلوبة بترك القتال وهو ما أعد لهم من الثواب الباقي ، وهذا كما يقول أحدنا للمنافق ماله مع حبيبه له طبّ نفساً مما ذهب منه فـ إن الصدقة مضاعفة لك عند الله وتجدها خيراً وأعظم أجرًا . و نفساً منصوب على التمييز ، وأشار بها إلى النفس المدبرة لهذا الدين ، وبالاولى إلى الشخص الزايد بالقتل .

الثاني عشر : الأمر بالمشي إلى الموت سجحة : أي مشياً سهلاً لا تتكلّف فيه ولا تخشّع فإن المتكلّف سريع الفرار ، وهو أمر لهم بالمشي إلى غاية ما يخافون من القتال ليوطّنوا نفوسهم عليه وإنفروا بسرعة إلى الحرب إذ من العادة أن يستقر الشجاع بمثل ذلك فيسارع إلى داعيه لما يتصوره فيه من جحيل الذكر وحسن الأحوثة ، وروى سمحاً والمعني واحد .

و قوله : عليكم بهذا السواد الأعظم . إلى قوله : رجالاً . أقول لما شجذهم بالأوامر المذكورة عين مقصدهم ، وأشار بالسواد الأعظم إلى أهل الشام مجتمعين ، وبالرّواق المتنبّـ إلى مضرب معاوية ، وكان معاوية إذن في مضرب

عليه قبة عالية بأطناب عظيمة وحوله من أهل الشام مائة ألف كانوا اتعاهدوا أن لا ينفرجوها عنه حتى يقتلوا . وعيّن لهم وسط الرواق وأغراهم به بقوله : إن "الشيطان كامن في كسره . وأراد بالشيطان معاوية ، وقيل عمرو بن العاص ، و ذلك لأن "الشيطان لما كان عبارة عن شخص يضل الناس عن سبيل الله ، وكان معاوية في أصحابه كذلك عنده عليه قبة لاجرم أطلق عليه لفظ الشيطان ، وقد سبقت الإشارة إلى معنى الشيطان . ويحتمل أن يريده الشيطان ، ولما كانت محال "الفساد هي مظنة إبليس ، وكان المضرب قد ضرب على غير طاعة الله كان محلاً للشيطان فلذلك استعار له لفظ الجلوس في كسره و قوله : وقد قدّم للوثبة يداً و آخر للنكوص رجالاً .

كتاباً عن تردد معاوية وانتظاره لأمرهم إن جبنا وثبت ، وإن شجعوا نكس و هرب ، أو عن الشيطان على سبيل استعارة الوثبة والنكوص واليدو الرجل ، ويكون تقديم يده للوثبة كتاباً عن تزيينه ل أصحاب معاوية الحرب والمعصية وتأخيره الرجل للنكوص كتاباً عن تهيته للفرار إذا التقى الجماعان كما حكى الله سبحانه عنه « فلما ترأرت الفتتان نكس على عقيبه وقال إني بريء منكم » ^(١) الآية .

فإن قلت : مما معنى نكوص الشيطان على رأي من فسره بالقوة الواهمة ونحوها .
قلت : لما كانت وسوساته تعود إلقاءه إلى النفس صورة ما يحكم بحسنها لها فقط دون أمر آخر كما حكى الله تعالى عنه « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم » ^(٢)
الآية كان نكوصه يعود إلى إعراض الوهم عند عرض الحرب ومشاهدة المكروره عن ذلك الحكم ورجوعه عنه ، وهو معنى قوله : إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ، وذلك لأن "الوهم إذن يحكم بالهرب والاندفاع من المخوف بعد أن كان قد زين الدخول فيه فيكون إذن قوله إني أخاف الله والله شديد العقاب موافقة لحكم العقل فيما كان يراه من طاعة الله بترك المعصية بالحرب . وكل ذلك من تمام إغراء أصحابه بأهل الشام وتنبيههم على أن باعثهم في الحرب ليس إلا الشيطان وأنه لاغر من له إلا فتتهم ثم الرجوع والإعراض عنهم .
الثالث عشر : أمرهم بقصد عدم وهم مؤكداً الله بتكريره : أى اصمدو لهم صمداً إلى غاية

أن يظهر لكم نور الحق بالنصر ، واستعار لفظ العمود للحق "الظاهر عن الصبح للمشاركة بينهما في الوضوح والجلاء فالصبح للحسن ، والحق للعقل ، ولفظ التجلّى ترشيح الاستعارة كثيًّا بهعن ظهوره ووضوحه ، والمعنى : إلى أن يتضح لكم أنَّ الحُقْقَ معمكم يظفركم بعده وكم وفهره . إذ الطالب لغير حقه سريع الانفعال قريب الفرار في المقاومة .

وقوله : وأنتم الأعلون . الآية .

تسكين لنفسهم وبشارة بالمطلوب بالحرب ، و هو العلو " والقهر كما بشر" الله تعالى به الصحابة في قتال المشركين و تشتيت لهم على المضي " في طاعته فإن" حزب الله هم الغالبون .

وقوله : ولن يتركم أعمالكم .

تذكير لهم بجزء الله لهم أعمالهم في الآخرة ، و بعث لهم بذلك على لزوم العمل له . و بالله التوفيق .

٦٤ - قَمِرْ كَلَامِ لِنْ يَلِيهِ السِّتْلَافُ

في معنى الانصار ، قالوا : لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قال عليه السلام :

ما قالـتـ الـانـصـارـ ؟ قالـواـ : قـالـتـ : مـاـ أـمـيرـ وـمـنـكـ أـمـيرـ ، قالـ عـلـيـهـ السـلـامـ :

فهـلـاـ أـحـتـجـجمـ عـلـيـهـمـ بـاـنـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـصـحـىـ بـاـنـ يـحـسـنـ

إـلـىـ مـحـسـنـهـ ، وـيـتـجـاـزـ عـنـ مـسـيـئـهـ ؟ ! قالـواـ : وـمـاـ فـهـذـاـ مـنـ الحـجـةـ عـلـيـهـمـ ؟

فـقـالـ عـلـيـهـ السـلـامـ : لـوـ كـانـتـ الـأـمـارـةـ فـيـهـمـ لـمـ تـكـنـ الـوـصـيـةـ بـهـمـ !!

ثم قال عليه السلام :

فَمَاذَا قَالَتْ قُرِيشٌ ؟ قَالُوا : احْجَبْتَ بَأْنَابِي شَجَرَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : احْجُوْا بِالشَّجَرَةِ ، وَاضْعُوْا الشَّمَرَةِ .

أقول : الأنباء التي بلغته هي أخبار ماجرى بين الأنصار والمهاجرين من المشاجرة في أمر الإمامة وارتفاعهم البيعة لأبي بكر ، وخلاصة القصة أنه لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة : وهي صفة كانوا يجتمعون بها فخطبهم سعد بن عبادة ، ومدحهم في خطبته وأغرىهم بطلب الإمامة . وقال : إن " لكم سابقة في الإسلام ليست لقبيل من العرب . إن رسول الله ﷺ لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن فما آمن به من قومه إلا قليل ، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوه ولا يدفعوا عنه ضيما حتى أراد الله بكم خير الفضيلة ، وساق إليكم الكرامة ، ورزقكم الإيمان به والإقرار بدينه . فكنتم أشد الناس على من تخلف عنكم ، وأنقلتم على عدوكم من غيركم حتى استقاموا لأمره ودانوا لأسلافكم العرب ، وانجز الله لنبيكم الوعود توافقه هو عنكم راض . فشدوا أيديكم لهذا الأمر . فأنتم أحق الناس به . فأجابوه جميعاً وإن وفقت وأصبتي لم نعد وأن نوليك هذا الأمر . وأنني أخير أبا يكر وعمراً فجاء مسرعين إلى السقيفة فتكلم أبو بكر فقال للأنصار : ألم تعلموا أننا معاشر المهاجرين أول الناس إسلاماً ؟ ونحن عشيرة رسول الله ﷺ وأنتم أنصار الدين وزراء رسول الله ﷺ وإخواننا في كتاب الله ، وأنتم المؤثرون على أنفسكم وأحق الناس بالرضا بقضاء الله والتسليم لما ساق الله إلى إخوانكم ، وأن لا يكون انقسام هذا الدين على أيديكم ، وأننا أدعوكم إلى بيعة أبي عبيدة أو عمر فكلاهما قد رضيت لهذا الأمر . فقال عمر وأبو عبيدة : ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك أنت صاحب الغار ، وثاني اثنين ، وأمرك رسول الله ﷺ بالصلة . فانت أحق بهذا الأمر . قالت الأنصار : نحن أنصار الدار والإيمان لم يعبد الله عالياً إلا عندنا وفي بلادنا ، ولا يعرف الإيمان إلا من أسيافنا ، ولا جمعت الصلة إلا في مساجدنا . فتحن أولى بهذا الأمر . فإن أبيتم فمنا أمير ومنكم أمير . فقال عمر : هيهات لا يجمع سيفان في غمد إن العرب لا ترضي أن تؤمركم وبينها من غيركم . فقال الحباب بن المنذر : نحن

والله أحقّ بهذا الأمر إِنَّه قدران لهذا الأمر بأسافينا من لم يكن يدين له وإن لم ترضوا
أجليناكم عن بلادنا إِنَّا جذبناها المحلاً وعذيقها المرجب إن شئتم لنعيدها جدعة . و
الله لا يرد على أحدنا أقول إِلَّا حطمت أنفه بسيفي هذا . فقام بشر بن سعد الخزرجي وكان
يحسد سعد بن عباده أن يصل إليه هذا الأمر وكان سيداً في الخزرج وقال : إِنَّا لم نر
بجهادنا وإسلامنا إِلَّا وجه ربنا لاغرضاً من الدنيا ، وإنْ مُحَمَّداً رجلاً من قريش وقومه أحق
بميراث أمره واتقوا الله ولا تنازعوههم عشر الأنصار . فقام أبو بكر فقال : هذا عمر و أبو عبيدة
بaidu وأيّهما شئتم فقالا : لا يتوّلى هذا الأمر غيرك و أنت أحق به ابسط يديك فبسط يده
فبایعاه وبایعه بشر بن سعد وبایعه الأوس كلّهم ، وحمل سعد بن عبادة وهو مریض
فأدخل منزله ، وقيل : إِنَّه بقي ممتنعاً من البيعة حتى مات بحوران في طريق الشام .

ولنرجع إلى المتن فنقول : أمّا الخبر الذي رواه عَلَيْهِ الْمُتَقْتَلُ عن رسول الله ﷺ حجة
عليهم فهو صحيح أخرجه مسلم والبخاري في مسنديهما عن أنس قال أبو بكر والعباس
بمجلس من مجالس الأنصار في مرض رسول الله ﷺ وهم يبكون فقالا : ما يبكيكم .
قالوا : ذكرنا مجلس رسول الله ﷺ فدخلوا على الرسول فأخبرواه بذلك فخرج رسول
الله ﷺ معصباً على رأسه حاشية برد فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بالأنصار فإنهم كرسي وعيته وقد قصوا الذي عليهم و
بقي الذي لهم فاقيلوا من حسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم . فاما وجه احتجاجه بهذا الخبر
فهو في صورة شرطية متصلة يستثنى فيها نقيس تاليها . وتقديرها : لو كانت الإمامة حقاً
لهم لما كانت الوصيّة بهم لكتّها بهم فليست الإمامة لهم . بيان الملازمة أنّ العرف قاض بأنّ
الوصيّة والشفاعة و نحوها إنّما يكون إلى الرئيس في حقّ المرؤوس من غير عكس ، وأمّا
بطalan التالي للخبر المذكور .

وأمّا قوله : احتجوا بالشجرة وأضعوا الثمرة .

فأشعار بالثمرة إِمَّا إلى نفسه وأهل بيته فإِنَّهم ثمرة الغصن المورق المثير لتلك
الشجرة . و مَمَّا استعير لفظ الشجرة لقريش استعار لفظ الثمرة لنفسه . وقد عرفت فرعونته
عن رسول الله ﷺ وكونه ثمرة . و إضعاعتهم لها إهمالهم له من هذا الأمر ، ويتحمل

أن يريد بالثمرة التي أضاعوها سنة الله الموجبة في اعتقاده استحقاقه لهذا الأمر وظاهر كونها ثمرة الرسول ﷺ وإهمالهم لها ترکهم العمل بها في حقه، وهو كلام في قوّة احتجاج له على قريش بمثل ما احتجوا به على الأنصار. وتقديره : إنهم إن كانوا أولى من الأنصار لكونهم شجرة رسول الله فتحن أولى لكوننا ثمرة ، وللثمرة اختصاص بالمثير من وجهين :

أحدهما : القرب و مزيته ظاهرة .

والثاني : أن " الثمرة هي المطلوبة بالذات من الشجرة وغرسها فإن كانت الشجرة معتبرة فبالأولى اعتبار الثمرة ، وإن لم يلتفت إلى الثمرة فبالأولى لا اللتفات إلى الشجرة . ويلزم من هذا الاحتجاج أحدهما من : إما بقاء الأنصار على حجتهم لقيام هذه المعارضة ، أو كونه تَبَلَّهُ أَحَقُّ بهذا الأمر وهو المطلوب . والله أعلم بالصواب .

٦٥ - وَمِنْ كَلَامِنَّرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لما قلد محمد بن أبي بكر مصر فلقت عليه فتن

وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَّ مَصْرَ هَاشِمَ بْنَ عَبْيَةَ ، وَلَوْلَيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَّا خَلَّ لَهُ
الْعَرْصَةَ وَلَا أَنْهَرْتُهُ الْفَرَصَةَ ، بِلَا ذَمَّ لَهُمْ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَى
حَبِيبَاً ، وَكَانَ لِي رَبِيبَاً ٠

أقول : كان تَبَلَّهُ أَلَّا ولـ " محمد بن أبي بكر مصر فلما اضطرب الأمر عليه بعد صفين وقوى أمر معاوية طمع في مصر . وقد كان عمرو بن العاص بايعه على أن يكون معه في قتال على ويكون مصر لطعمه . فبعثه إليها بعد صفين في ستة آلاف فارس وقد كان فيها جماعة عظيمة من يطلب بدم عثمان ، وكانوا يزعمون أن " محمدأ قتله فانضافوا إلى عمرو ، وكان معاوية كتب إلى وجوه أهل مصر أمنا إلى شيعته بالترغيب ، وأمنا إلى أعدائه بالترهيب ، وكتب محمد بن أبي بكر إلى على " بالقصة يستمدّه بما لا الرجال فكتب إليه بعده بذلك . فجعل محمد يدعى أهل مصر لقتال عمر وفانتدب معه منهم أربعة آلاف رجل فوجده منهم ألفين

عند كنانة بن بشر لاستقبال عمرو ، و بقى هو في أَفْنِين فابتلى كنانة في ذلك اليوم بـأَحْسَنَه
و قتل من عسكر عمرو خلقاً كثيراً ، ولم ينزل يقاتل حتى قتل هو و من معه فلما قتل
تفرق الناس عن مُحَمَّد ، وأقبل عمرو يطلب مُحَمَّداً فهرب منه مختفيًا فالتجيء إلى حزبه اختبئ
فيها فدخل عمرو فسطاطه . وخرج معاوية بن خديج الكندي و كان من أمراء جيش عمرو
في طلب مُحَمَّد فطفر به و قد كاد يموت عطشاً فقد مه فضرب عنقه ثم أخذ جسده فحشها في
جوف حمار ميت وأحرقه ، وقد كان على ظهره ^{عَلَيْهِ الْكَلْمَةُ} وجده لنصرته مع مالك بن كعب إلى
مصر نحو من ألفي رجل فصار بهم خمس ليال و ورد الخبر إلى على ^{عَلَيْهِ الْكَلْمَةُ} بقتله وأخذ
مصر . فخرج ^{عَلَيْهِ الْكَلْمَةُ} عليه جزاً ظهر أثره في وجهه ثم قال : رحم الله مُحَمَّداً كان غلاماً حديثاً ،
و قد كنت أردد . الفصل .

و النهر : النهوض لتناول الشيء . والفرصة : النهضة ، وهي ما مُمْكِنٌ من نفسك . و
إِنَّمَا أَرَادَ تولية هاشم لقوّته على هذا الامر و كثرة تجاربه ، و هاشم هذا ابن عتبة بن أبي
وقاص الذي كسر رباعية رسول الله ^{وَاللَّهُ أَعْلَمُ} يوم أحد و كلم شفته ، و كان هاشم من شيعة
على و المخلصين في ولائه شهد معه حرب صفين و أُبْلِي فيه بلاه حسناً و استشهد بين
يديه بها .

وقوله : مَا خَلَى نُهُمُ الْعِرْصَةِ .
أي عرصة الحرب كما في مُحَمَّد ، و ظن أنه ينجو بفرازه . ولو ثبت لثبت معه الناس
و قتل كريماً .

وقوله : و لَا أَنْهَزُهُمُ الْفَرْصَةَ .
كتى بالفرصة عن مصر : أي ولم يمكنهم من تناولها كما تمكّنوا مع مُحَمَّد .
وقوله : بِالْأَذْمِ مُحَمَّدٌ .

أي لست في مدحى لهاشم ذاتاً لـمُحَمَّد . ونبيه على براته من استحقاق الذم بوجهين .
الأول : أنه كان لـي حبيباً . و ظاهر أنه ^{عَلَيْهِ الْكَلْمَةُ} لا يحب إلا مرسي الله و رسوله بريئاً
من العيوب الفاضحة . وقد كان مُحَمَّد - رضي الله عنه - من نساك قريش و عبادها .
الثاني : أنه كان ربيئاً له . و ذلك مما يستلزم محبتة وعدم نمـه فأمـا كونه ربيئاً

فلا نَّ أَمْ مُخْدِهِيْ أَسْمَاء بِنْتُ عَمِيس وَكَانَتْ تَحْتَ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَهَا جَرَتْ مَعَهُ إِلَى الْجَبَشِيَّةِ فَوُلِدَتْ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ وَقُتِلَ عَنْهَا يَوْمَ مَوْتِهِ فَتَزَوَّجَهَا أَبُو بَكْرٌ فَأُولَدَهَا مُحَمَّدٌ ثُمَّ لِسَامَاتٌ عَنْهَا تَزَوَّجَهَا عَلَىٰ فَكَانَ عَمَّارَ بْنَ يَسِيرَهُ وَشَاعَ عَلَىٰ لَاهٌ مِنْذَ صَبَاهُ، وَكَانَ عَلَىٰ يَحْبِبَهُ وَيَكْرِمَهُ وَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ ابْنِي مِنْ ظَهَرِ أَبِي بَكْرٍ . وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

٦٦ - قِرْنَكَلَامِنَهُ عَلَيْهِ السِّنَالِ الْأَفْرَنِ

كُمْ أَدَارِيْكُمْ كَمْ تَدَارِيْ الْبَكَارُ الْعَمَدَةُ ، وَالثَّابُ الْمُدَاعِيَةُ ! كُلَّا
حِصَتْ مِنْ جَانِبِ تَهْتَكَتْ مِنْ آخَرَ ؟ أَكْلَمَا أَطْلَعَ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ
أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ ، وَابْحَرَ أَنْجَحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرَهَا ،
وَالضَّبْعِ فِي وِجَارِهَا ؟ ! ، الْذَّلِيلُ وَاللهِ مِنْ نَصْرِهِ ! وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ
فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقِ نَاصِلٍ . وَإِنْكُمْ ، وَاللهِ ، لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ قَلِيلٌ تَحْتَ
الرَّأْيَاتِ ، وَإِنَّ لَعَمَلَ بِمَا يُصْلِحُكُمْ وَيُقْيمُ أَوْدُكُمْ ، وَلَكَنِّي لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ
يَا فَسَادَنَفِي ! أَضْرَعَ اللَّهُ خُودُكُمْ ، وَاتَّعَسَ جُودُكُمْ ، لَا تَعْرِفُونَ
الْحَقَّ كَمْ عَرَفَكُمُ الْبَاطِلَ ، وَلَا تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَمْ بَطَالَكُمُ الْحَقَّ .

أقول البكار : جمع بكر وهو القوى من الإبل . والعمدة : هي التي شدح أسمتها
نقل الحمل . والعوص : الخياطة . وتهتك : تخرقت . وأطل : أشرق . والمنسر
بكسر الميم وفتح السين ، والعكس : القطعة من الجيش من المائة إلى المائتين . وقد سبق .
وانجحر الضب : دخل جحره وهو في بيته . وبيت الضبع : وجاره . والأفوق الناصل :
السهم لا فوق له ولا نصل . والباحة : ساحة الدار . والأود . الاعوجاج . وأضرع : أذل .
وأتعس : أهلك .

و هذا الفصل يشتمل على توبيخ أصحابه لتقاعدهم عن النهوض معه إلى حرب أهل الشام ، و ذكر وجوه التوبيخ :

الأول : حاجتهم إلى المداراة الكثيرة . و ليس ذلك من شيم الرجال ذوى العقول بل من شأن البهائم و من لا عقل له ، و نسبتهم في حاجتهم إلى المداراة بتشبيهين . أحدهما : بالبكرة التي قد انهاكها جعلها . و وجه الشبه بينهما وبينهم هو قلة صبرهم و شدة إشفاهم و فرارهم من التكليف بالجهاد و استغاثتهم كما يشتند جرجرة البكر العمد ، و فراره من معاودة الحمل .

الثاني : بالثياب المتداعية ؛ و هي التي يتبع مالم يتخرق منها ما اخرق في مثل حاله . و وجه الشبه ما ذكره ، وهو قوله : كلاما حيصن من جانب تهتك من آخر : أى كما أنّ الثياب المتداعية كذلك . فكذلك أصحابه كلّها أصلح حال بعضهم وبعدهم للحرب فسد بعض آخر عليه .

الثالث : شهادة حالهم عليهم بالجبن والخوف و هو قوله : كلاما أطل . إلى قوله : وجارها ، و كنتي بإغلاق كلّ منهم بابه عند سماعهم بقرب بعض جيوش الشام منهم عن فرارهم من القتال و كراهية سماعهم للحرب ، و شبههم في ذلك الخوف والفرار بالضبة والطبع حين ترى الصائد أو أمرأ تخافه . و إنما خاص الإنا ث لأنها أولى بالمخافة من الذكران .
الرابع : وصفهم بالذلة و قلة الانتفاع بهم . فنبه على وصف الذلّ بقوله : الذليل والله من نصر تموه . فإنّه إنما يكون ذليلاً لكونهم كذلك ، و يحتمل أن يشير بذلك إلى سوء آرائهم في التفرق والاختلاف ، ثم بالغ في ذلك بحصر الذلّ لكلّ منتصر بهم فيمن نصروه ، ونبه على قلة الانتفاع بهم بقوله : ومن رمى بكم فقدر مي بأفوق ناصل . استعار لهم من أوصاف السهم أردادها ، و كنتي بذلك عن عدم فايدتهم و نكايتهم في العدوّ كما لافايدة في الرمي بالسهم الموصوف .

الخامس : وصفهم بالكثرة في المجتمع والأندية مع قتلهم في الحرب و تحت الألوية . ذلك يعود إلى الذمّ بالجبن أيضاً والعوار به فإن قلة الاجتماع في الحرب و التفرق عنه من لوازم الخوف ، و كما أنّ مقابل هذا الوصف وهو الاجتماع والكثرة في الحرب مع القلة

في غيره مدح كما قال أبو الطيب .

ثقال إذا لائوا خفاف إذا دعوا قليل إذا عدوا كثير إذا شدوا .

بالحرى" أن كان هذا الوصف ذمًا كما قال عويف القوافي .

الستم أقل الناس عندلوائهم و أكثرهم عند الذبيحة و الفدر

وقوله : و إني لعالم إلى قوله : أودكم .

أراد أنه لا يصلحهم إلا السياسة بالقتل و نحوه كما فعل الحجاج حين أرسل المهلب

إلى الخوارج . روى أنه نادى في الكوفة من تخلف عن المهلب " بعد ثلاث فقد أحـل دمه ،

و قتل جماعة فخرج الناس إلى المهلب يهرعون ، و كما يفعله كثير من الملوك . و قوله :

ولكنني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي : أى مـا لم يكن يستحلـ من دماء أصحابـ ما يستحلـ

ملوكـ الدنيا من رعيتهم إذا أرادـ و إثباتـ ملـكـهمـ ولو بفسـادـ دينـهمـ لا جـرمـ لمـ يـرـ إـصـلاحـهمـ

بالـقتـلـ إذـ كانـ إـصـلاحـهمـ بـذـلـكـ سـبـباـ لـفـسـادـ نـفـسـهـ بـلـزـومـ آـثـامـهـ لـهـ . وـ مـاـ كـانـ مـنـ الـوـاجـبـ

فـيـ الـحـكـمـ أـنـ يـكـونـ إـصـلاحـ إـلـاـ إـنـ اـلـنـاسـ لـلـغـيرـ فـرـعـاـ عـلـىـ إـصـلاحـ نـفـسـهـ أوـ لـاـ لـمـ يـتـصـوـرـ مـنـ

مـثـلـهـ تـلـكـ أـنـ يـفـعـلـ فـعـلـاـ يـسـتـلـزـمـ فـسـادـ نـفـسـهـ وـ إـنـ اـشـتـمـلـ عـلـىـ وـجـهـ مـنـ الـمـصلـحةـ .

فـإـنـ قـلـتـ :ـ الجـهـادـ بـيـنـ يـدـيـ الـإـمـامـ الـعـادـلـ وـاجـبـ وـ لـهـ أـنـ يـحـمـلـهـ عـلـيـهـ .ـ فـلـمـ

لـاـ يـسـتـجـيـزـ قـتـلـهـ ؟ـ

قلـتـ :ـ الـجـوابـ مـنـ وـجـهـينـ :

أـحـدـهـماـ :ـ أـنـهـ لـيـسـ كـلـ وـاجـبـ يـجـبـ فـيـ تـرـكـ الـقـتـلـ كـالـحـجـ .ـ

الـثـانـيـ :ـ لـعـلـهـ تـلـكـ لـوـ شـرـعـ فـيـ عـقـوبـتـهـ بـالـقـتـلـ عـلـىـ تـرـكـ الـجـهـادـ مـعـهـ لـتـفـرـقـواـ عـنـهـ

إـلـىـ خـصـمـهـ أـوـ سـلـمـهـ إـلـيـهـ وـ اـتـفـقـواـ عـلـىـ قـتـلـهـ .ـ وـ كـلـ هـذـهـ مـفـاسـدـ أـعـظـمـ مـنـ تـقادـعـهـمـ عـنـ

دـعـوـتـهـ لـهـمـ فـيـ بـعـضـ الـأـوـقـاتـ .ـ

وـ قـوـلـهـ :ـ أـضـرـعـ اللـهـ .ـ إـلـىـ آـخـرـهـ .ـ

دـعـاـ عـلـيـهـ بـالـذـلـ وـ هـلاـكـ الـحـظـ ،ـ ثـمـ نـبـيـهـمـ عـلـىـ عـلـةـ اـسـتـحـقـاقـهـمـ لـدـعـائـهـ وـهـيـ الـجـهـلـ ،ـ

ثـمـ مـاـ يـنـشـأـ عـنـهـ مـنـ ظـلـمـ أـنـفـسـهـمـ .ـ أـمـاـ الـجـهـلـ فـعـدـ مـعـرـفـتـهـمـ لـلـحـقـ كـمـعـرـفـتـهـمـ الـبـاطـلـ ،ـ وـ

أـرـادـ بـهـ مـاـ يـلـزـمـهـمـ مـنـ أـوـامـرـ اللـهـ ،ـ وـ أـرـادـ بـمـعـرـفـتـهـمـ الـبـاطـلـ مـعـرـفـتـهـمـ بـأـحـوـالـ الـدـنـيـاـ وـ بـاطـلـهـاـ .ـ

والاشغال به عن أوامر الله ، ويحتمل أن يشير به إلى ما يعرض لبعضهم من الشبه الباطلة في قتال أهل القبلة فيوجب لهم التوقف والتخاذل عن الحرب ، ويكون مكاثر تهين معرفتهم للباطل والحق تبنيها على قوّة جهلهم المر كب وهو أشد الجهل ، وغايتها توبيخهم بكونهم على قسمى الجهل . فالبسيط هو عدم معرفتهم للحق ، والمر كب هو تصديقهم بالباطل . وأما الظلم فهو إبطالهم للحق و ذلك إشارة إلى تعاميهم عن طاعة الله وتصاميمهم عن سماع مناديه وإجابته ، وعدم إبطالهم للباطل إشارة إلى عدم إنكارهم للمنكر من أنفسهم وغيرهم . و بالله التوفيق .

٦٧ — وقال عليه السلام

في سحرة اليوم الذي ضرب فيه

ملكتي عيني وأنا جالس ، فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 فقلت : يا رسول الله ، مَاذا لقيت من أمتك من الأود والدد ؟ فقال : « ادع عليهم » .
فقلت : أبدلي الله بهم خيراً منهم ، وابدّلهم في شرّاً لهم مني .

قال الشريف : يعني بالأود الأعوجاج ، وباللدان الخصام وهذا من أوضح الكلام

أقول : السحر : السحر الأعلى ، وأما كيفية قتله عليه السلام فمذكور في التواريخ .
 و قوله : ملكتي عيني .

استعارة حسنة وتجوز في التركيب أما الاستعارة فلفظ الملك للنوم ، ووجه الاستعارة دخول النائم في غلبة النوم و قهره و منعه له أن يتصرف في نفسه كما يمنع الملك العبد من التصرف في أمره ، وأما التجوز ففي العين وفي الإسناد إليها . أما الأول فأطلق لفظ العين على النوم لما بينها من الملابسة إذ إطباق الجفون من عوارضها ، و أما الثاني فإسناد الملك إلى النوم المتتجوز فيه بلفظ العين . والواو في قوله : وأنا . للحال .
 و قوله : فسنح إلى آخره .

أراد بالسنجح حضور صورة رسول الله ﷺ في لوح خياله كما علّمت وشكايه منهم .
و جواب الرسول له يستلزم أمرين : أحدهما أنه عَلِيُّ الْكَرْبَلَاءِ كان في غاية الكرب من تقصيرهم
في إجابة ندائهم ودعوه إلى الجهاد حتى انتهت الحال إلى قتلهم . الثاني عدم رضا رسول
الله عَلِيُّ الْكَرْبَلَاءِ عنهم .

وقوله : أبد لهم بي شرّاً لهم مني .

لا يستلزم أنّ فيه شرّاً كما قدمنا بيانه . وبالله التوفيق .

٦٨ - فِي مَنْ خَطَبَ بِنَبِيلَةِ عَلِيِّ الْكَرْبَلَاءِ

في ذم أهل العراق

أَمَّا بَعْدَ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرَأَةِ الْحَامِلِ ! حَمَلْتُ فَلَمَّا آتَيْتُمْ
أَمْلَصْتُ ، وَمَاتَ قِيمَهَا ، وَطَالَ تَائِمَهَا ، وَوَرَثَتُمَا بَعْدَهَا أَمَّا وَاللهِ مَا تَيَكُّمُمْ
أَخْيَارًا ، وَلَكُنْ جُهْتُ إِلَيْكُمْ سُوقًا ، وَلَكُنْ بَلَغَنِي أَنْكُمْ تَقُولُونَ : عَلَى
يُكَذِّبُ ! قَاتَلْتُمُ اللَّهَ ، فَعَلَى مَنِ الْكَذِبُ ؟ أَعْلَى اللَّهِ ؟ فَإِنَّا أَوْلَى مَنْ آمَنَّ بِهِ !
أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ ؟ فَإِنَّا أَوْلَى مَنْ صَدَقَهُ ، كَلَّا وَاللهُ ، وَلَكُنْهَا لَهْجَةُ غَيْرِهِمْ عَنْهَا
وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا . وَيَلْهِ ؟ كَيْلًا بِغَيْرِ ثَمَنٍ ! لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءً (وَلَتَعْلَمُنَّ
بِنَاهُ بَعْدَ حِينَ)

أقول : أملصت : أسقطت . والأئمّة : التي لا بعل لها . واللهمجة : اللسان والقول
الفصيح .

و هذا الكلام صدر عنه بعد حرب صفين . وفيه مقصودان :
الأول : توبيخهم على تركهم للقتال بعد أن شارفوا النصر على أهل الشام ، وتخاذلهم
إلى التحكيم . وأبرز هذا المقصود في تشبيههم بالمرأة الحامل ، وذكر لها أوصافاً

خمسة ، وهي وجود الشبه بينها وبينهم فالحمل يشبه استعدادهم و تعبيتهم للحرب ، والاتمام يشبه مشارقتهم للظفر ، والإِملاص يشبه رجوعهم عن عدوهم بعد طمعهم في الظفر به و ذلك رجوع غير طبيعي و لامعتاد للعقلاه كما أنّ الإِملاص أمر غير طبيعي للحامل و لامعتاد لها ، ثمّ موت القيس باُمورها وهو زوجها و طول غربتها ، و ذلك يشبه عدم طاعتهم له الجارى مجرى موته عنهم و طول ضعفهم لذلك و دوام عجزهم و ذلتهم بعد رجوعهم لنفّر قهم إلى خوارج وغيرهم فإنّ موت قيس المرأة مستلزم لضعفها و دوام عجزها و ذلتها ، ثمّ كونها قد استحقّ ميراثها البعيد عنها لعدم ولدها و زوجها و ذلك يشبه من حاليه أخذ عدوهم الذي هو أبعد الناس عنهم مالهم من البلاد ، و استحقاقه ذلك بسبب تقديرهم عن مقاومته . و بهذه الوجوه من الشبه أُ شبوا المرأة المذكورة و تمّ توييختهم من هذه الجهة ، ثمّ أُخبرهم على التضجر من حاله معهم بأنه لم يأتهم إِيّاً للمقام بينهم ولكن سوقاً قدرياً اضطرّه إلى ذلك . وصدق . إذ لم يكن خروجه من المدينة التي هي دار الهجرة و مفارقة منزل رسول الله ﷺ و فبره إلى الكوفة إِلَّا لقتال أهل البصرة ، و حاجته إلى الاستنصار بأهل الكوفة عليهم إذ لم يكن جيش الحجاز وافياً بمقاتلتهم ثمّ اتصلت تلك الفتنة بفتنة أهل الشام فدامت حاجته إلى المقام بينهم ، و روى و لا حبت إلىكم شوقاً بالشين المعجمة .

والمقصود الثاني : توييختهم على ما بلغه من تكمذبهم له ، و مقابلاته لهم على ذلك بردّ أحكام أوهامهم الفاسدة في حقه ، ونفيتهم بجهلهم و قصور أفهمهم عمّا يفيده من الحكم : وهو قوله : و لقد بلغنى أنّكم تقولون . يكذّب صورة دعواهم المقولة وقد كان جماعة من منافقى أصحابه إذا أُخبر عن أُمورستكون ، أو كانت ثمّ أُخبر عنها و أُسند ذلك إلى رسول الله ﷺ يتحادثون فيما بينهم بتكمذبته فيبلغه ذلك كإِخباره عن قصة الخوارج وما يكون منهم ، وعن ذى الثدية ، وأنّه سيقاتل الناكثين والقاسطين و المارقين و نحو ذلك من الأمور الغريبة التي تستذكرها طباع العوام" ولا يعقل أسرارها إِلَّا العاملون بل كانوا . يكذّبونه بمحضره . روى أنه لما قال : لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، و بين أهل الإنجيل بإِنجيلهم ، و بين أهل القرآن بفرقائهم ، و الله ما من آية نزلت في

بر أو بحر أو سهل أو جبل ولا سماء ولا أرض إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وفي أي شيء
أُنزلت . قال رجل من تحت المنبر : يا الله وللدعوى الكاذبة . وكذلك لما قال : سلوني قبل
أن تفقدوني أما والله لتشعرن الفتنة الغماء برجلها ويطا في خطامها يالها فتنة شبت
نارها بالحطب الجzel مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلهادعية ويلها بدحلة أو حولهذاك
إذا استدار الفلك وقلتم مات أو هلك بأى واد سلك . فقال قوم من تحت المنبر : الله أبواه ما
أفصحه كاذبا . وكأنها إشارة إلى واقعة التتار . وقابل دعواهم بأمرین :

أحدهما : الدعاء عليهم بقتل اللهم ، وقد علمت أن قتاله يعود إلى مقتنه وإبعادهم
عن رحمته .

الثاني : الحجة وتقريرها : أن الذي أخبركم به من هذه الأمور إنما هو عن
الله وعن رسوله صلوات الله عليه وآله وسليمه ولو كذبت فيه لكذبت إيمان على الله وهو باطل لأنني أول من
آمن به وأول مؤمن به لا يكون أول مكذب له ، أو على نبيه وهو باطل لأنني أول
من صدقه واتبع ملته .
وقوله : كلام الله .

رد لصدق دعواهم بعد الحجة كأنه قال : فإذا ذكرتكم على الكذب فيما
أخبركم به باطلة .

وقوله : ولكنها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها .

يريد به بيان منشأ دعويم الفاسدة لتكذيبه ، وذلك كون ما يقوله ويخبر به من
الأمور المستقبلة ونحوها طوراً وراء عقولهم الضعيفة التي هي بمنزلة أوهام سایر الحيوان
وليسوا لفهم أسرارها بأهل . و وأشار باللهجة إلى تلك الأقوال وأسرارها وبغيتهم عنها
إلى غيبة عقولهم عن إدراكها و معرفة إمكاناتها في حق مثله أو إلى غيبيتهم عنها عند إلقاء
الرسول صلوات الله عليه وآله وسليمه قوانينها الكلية إليه و تعليميه لا بوابها و تفصيل ما فصل منها له . و ظاهر
أنه لما كانت عقول أولئك و أمثالهم مقهورة تحت سلطان أوهامهم وكان الوهم مكذبا و
منكراً مثل هذه الأحكام لاجرم لم تنتهي عقولهم لتصديقه صلوات الله عليه وآله وسليمه فيها ولم تجوز اطلاعه
عليها بل تابعت أوهامهم في الحكم بتکذيبه . و حاله في ذلك مختصرة من حال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسليمه

مع منافقى قومه .

وقوله : ويل أمة .

فالويل في الأصل دعاء بالشر ، أو خبر به . وإضافته إلى الام دعاء عليها أن تصاب بأولادها ، وقيل : إنها تستعمل للرجمة ، وقيل تستعمل للمتعجب واستعظام الأمر .

وقوله : كيلا بغير ثمن .

إشارة إلى ما يفيض عليهم من الأخلاق الكريمة والحكم البالغة التي لا يريد بها جزاء ولا ثمنا ثم لا يفهونها ولا يهدّون بها أنفسهم لكون نفوسهم غير مستعدة لقبولها فليس لها إذن من تلك الأنفس وعاء يقبلها . واستعار لفظ الكيل وكتنى به عن كثرة ما يلقىء إليهم منها وهو مصدر استغنى به عن ذكر فعله . فعلى هذا يحتمل أن يكون ويل أمة دعاء بالشر على من لم يفقه مقاله ولم يقتبس الحكمة منه ، والضمير لا إنسان ذلك الوقت وإن لم يجر له ذكر سابق مفرد يعود إليه لكنه موجود في كل شخص منهم وكأنه قال : ويل لأمّهم ، ويحتمل أن يكون ترحّماً لهم فإنّ الجاهل مرحوم ، ويحتمل أن يكون تعجباً من قوّة جهمهم أو من كثرة كيله للحكم عليهم مع اعتراضهم عنها .

وقوله : ولتعلمن تبأه بعد حين .

اقتباس لهذه الآية المفصحة عن مقصوده : أى ولتعلمن تبأه لكم وإعراضكم عما أمركم به وألقوا إليكم من الحكم والأراء الصالحة ، وينكشف لهم ثمرة ذلك بعد حين . وأشار بالجين إما إلى مدة الحياة الدنيا . وثمرة أفعالهم إذن الندامة والحسنة على ما فرطوا في جنب الله حيث لا ينفع إلا الأعمال الصالحة وذلك حين تزول عنهم غواشى أبدائهم وطرح نفوسهم جلايبيها بالموت ، وإما إلى مدة حياته هو : أى ستعلمون عاقبة فعلكم هذا بعد مفارقتي لكم . والعاقبة إذن ابتلاؤهم بمن بعده من بنى أمتكم وغيرهم بالقتل والذلة والصغار . وبالله العصمة والتوفيق .

٦٩ - فَمِنْ حَطَبَتْ لَهُ عَلَيْنَا السِّلَامُ

علم فيها الناس الصلاة على النبي صلي الله عليه وآله

اللهم داحِي المَدْحُوَاتِ ، وَدَاعِمِ الْمَسْمُوكَاتِ ، وَجَابِلِ الْقُلُوبِ عَلَى
 فَطْرَتِهَا شَقِيقَةَا وَسَعِيدَهَا : أَجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَواتِكَ وَنَوَامِي بِرَكَاتِكَ
 عَلَى مُحَمَّدِ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ : الْحَامِ لِمَا سَبَقَ ، وَالْفَاعِي لِمَا أَنْفَقَ ، وَالْمُلِئِ
 الْحَقِّ بِالْحَقِّ ، وَالْدَافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ ، وَالْدَامِعِ ضَوَالَاتِ الْأَضَالِيلِ ، كَمَا
 حَلَ فَاضْطَلَعَ قَامِيْا بِأَمْرِكَ ، مُسْتَوْفِراً فِي مَرْضَانِكَ ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قَدْمِ
 وَلَا وَاهِ فِي عَزْمٍ وَاعِيَ الْوَحِيدَ ، حَافِظَا عَلَى عَهْدِكَ ، مَاضِيَا عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ
 حَتَّى أُورِيَ قَبْسَ الْقَابِسِ ، وَأَضَاءَ الْطَرِيقَ لِلْخَابِطِ ، وَهَدَيْتَ بِهِ الْقُلُوبَ بَعْدَ
 حُوَضَاتِ الْفَنِ ، وَأَقَامَ مُوضَحَاتِ الْأَعْلَامِ ، وَنِيرَاتِ الْأَحْكَامِ ، فَهُوَ أَمِينُكَ
 الْمَامُونُ ، وَخَازِنُ عَلَيْكَ الْمُخْزُونُ ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَبَعِيثُكَ
 بِالْحَقِّ . وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ . اللَّهُمَّ افْسِحْ لِهِ مَقْسَحاً فِي ظَلَّكَ ، وَاجْزِهْ
 مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بَنَاءِ الْبَانِينَ بَنَاهُ ، وَأَكْرِمْ
 لَدِيكَ مِنْزَلَتَهُ ، وَامْمَ لَهُ نُورَهُ وَاجْزِهْ مِنْ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ ، وَمَرْضِ
 الْمَقَالَةِ ذَا مَنْطَقَ عَدْلٍ ، وَخَطَّةَ فَصْلٍ . اللَّهُمَّ اجْعِ يَنْتَنَا وَيَنْهِي فِي بَرِدِ الْعِيشِ
 وَقَرَارِ النَّعْمَةِ ، وَمِنِ التَّهَوَّدِ ، وَاهْوَاءِ الْلَّذَّاتِ ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ ، وَمَنْهِي
 الْطَّمَانِيَّةِ ، وَتَحْفَ الْكَرَامَةِ .

أقول : المدحّوّات : المسوّطات . والمسموّات : المرفوعات . ودعّمها : حفظها بالدعامة .
 جبل : خلق . والفترات : جمع فطرة وهي الخلقة . والدمغ : كسر عظم الدماغ . وجيشات :
 جمع جيشه من جاشت الفير إذا ارتفع غليانها . واضطالم بالامر : قوى على حمله والقيام
 به من الضلاعة وهي القوة . والاستيفاز : الاستعجال . والنكول : الرجوع . والقدم :
 التقدّم . والوهى : الضعف . ووعى الأمر : فقهه . والقبس : شعلة النار . وأوري : زكي
 واشتعل .

وقد اشتملت هذه الخطبة على ثلاثة فصول .

الاول : في صفات المدعوّ وتمجيده وهو الله سبحانه .

الثاني : في صفات المدحّوّ له وهو النبي ﷺ .

الثالث : في صفات أنواع المدحّوّ به . وذلك هو الترتيب الطبيعي . فبده ممجداً الله تعالى باعتبارات ثلاثة :

أحدّهما : كونه داحي المدحّوّات : أي باسط الأرضين السبع وظاهر كونها مدحّوّات
 فإن كل طبقة منها إذا اعتبرت كانت مبوّطة فأماماً صدق البسط على جملة الأرض مع
 أنها كرّة وشهادة قوله : والأرض بعد ذلك درجتها . بذلك ، قوله : والأرض مدنناها . فهو
 باعتبار طبقاتها . وقد يصدق عليها البسط باعتبار سطحها البارز من الماء الذي يتصرف
 عليه الحيوان فإنه في الأوهام سطح مبسوط وإن كان عند الاعتبار العقلي محدّباً ، و
 إليه الإشارة بقوله تعالى «الذِّي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا» «وَإِنَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بَسَاطًا» .
 الثاني : داعم المسموّات : أي حافظ السماوات أن تقع على الأرض .

فإن قلت : قد قال في الخطبة الأولى : بلا عمد تدعّمها ثم جعلها هنا مدّعومة فما وجه الجمع ؟

قلت : لم ينف هناك إلا كونها مدّعومة بعمد و هذا لا ينافي كونها مدّعومة بغير
 العمد ، وقد بينا هناك أن الدعامة التي تقوم بها السماوات قدرته تعالى .

الثالث : كونه جابل القلوب على فطراتها شقيّها وسعيدها : أي خالق النفوس على ما
 خلقها عليه من التهيّء والاستعداد لسلوك سبيّل الخير والشر واستحقاق الشقاوة والسعادة

شرح الخطبة التاسعة و الستين

بحسب القضاء الإلهي كما قال تعالى « ونفس وما سوّيها فالمهمها فجورها و تقويتها قد أفلح من زكيتها وقد خاب من دسيتها »^(١) و قوله « و هديناه النجدين » أي ألمـناه معرفة سلوك طريقـيـ الخـير والـشـر . وأهل العـرـفـانـ كـثـيرـاـ ما يـعـتـبـرـونـ عـنـ النـفـسـ بالـقـلـبـ . وـشـقـيـهاـ . بـدـلـ منـ القـلـوبـ : أي خـالـقـ شـقـيـ القـلـوبـ وـسـعـيـدهـاـ عـلـىـ فـطـرـاتـهاـ المـكـتـوـبـةـ فيـ اللـوـحـ المـحـفـظـ فـمـنـ أـخـذـتـ العـنـيـاـةـ إـلـهـيـةـ بـزـمـامـ عـقـلـهـ عـلـىـ وـفـقـ ماـ كـتـبـ لـهـ فـأـعـدـتـهـ لـقـبـولـ الـهـداـيـةـ لـسـلـوكـ سـبـيلـ اللهـ فـهـوـ السـعـيدـ ، وـ مـنـ لـحـقـتـهـ حـبـاـيـلـ القـضـاءـ إـلـهـيـ فـحـطـتـهـ إـلـىـ مـهـاـوىـ الـهـلـكـةـ فـذـلـكـ هوـ الشـقـيـ الـبـعـيدـ . وـ إـلـيـهـ إـشـارـةـ بـقـوـلـهـ تـعـالـىـ « فـنـهـمـ شـقـيـ وـسـعـيدـ »^(٢) الـآـيـةـ . وـقـوـلـهـ : وـ اـجـعـلـ شـرـافـتـكـ صـلـوـاتـكـ وـ نـوـامـيـ بـرـكـاتـكـ عـلـىـ شـمـدـ عـبـدـكـ وـرـسـوـلـكـ . بـعـضـ مـطـلـوـبـاتـهـ مـنـ هـذـاـ الدـعـاءـ . وـ شـرـايـفـ صـلـوـاتـهـ مـاـ عـظـمـ مـنـ رـحـمـتـهـ وـ كـمـالـ جـوـدـهـ عـلـىـ النـفـوسـ الـمـسـعـدـهـ لـهـاـ ، وـ نـوـامـيـ بـرـكـاتـهـ مـاـ زـادـ مـنـهـاـ .

الفصل الثاني : ذكر للنبي ﷺ أحد وعشرين وصفاً على جهات استحقاق الرحمة من الله و زيادة البركة المدعوا بها .

الأول : كونه عبد الله و ظاهر كون العبودية جهة لاستحقاق الرحمة .

الثاني : كونه رسولاً له ; والرسالة نوع خاص من الاستعباد توجب مزيد الرحمة و الشفقة .

الثالث : كونه خاتما لما سبق من أنوار الوحي والرسالة بنوره وما جاء من الدين الحق . و ظاهر كون ذلك جهة استعداد منه لقبول الرحمة و درجات الكمال .

الرابع : كونه فاتحا لما انغلق من سبيل الله قبله و طريق جنته و حضرة قدسه باندراس الشرايع ففتح والافتتح تلك السبيل بشرعه وكيفية هدايته للخلق فيها .

الخامس : كونه قد أظهر الحق بالحق . والأول هو الدين وما يدعوه إليه ، و

الثاني فيه أقوال : فقيل : هو المعجزات إذ بسببيها تمكّن من إظهار الدين ، وقيل : الحرب والخصومة يقال فلان حاقد فلا نأ فحقيه : أي خاصمه فغلبه ، وقيل : هو البيان : أي أظهر الدين بالبيان الواضح . وأقول : الأشبه أنه أراد : أظهر الحق بعضه يعيش . وكل جزئي

من الحق "حق" ، وذلك أن" الدين لم يظهر دفعه وإنما بنى الإسلام على خمس ثم كثرت فروعه و هو بالأصل يظهر الفرع ، و ظاهر كون إظهاره للحق " جهة لاستحقاقه الرحمة .

السادس : كونه دافعاً لجيشات الأ باطيل : أي لثوران فتن المشركين و اتباعهم لا طفاء أنوار الله ، أولفتتهم السابقة التي كانت معتادة من الغارات و حروب بعضهم بعضاً في كل ذلك أمور باطلة على غير قانون عدل " من الله ، وذلك الدفع من جهات قبول الرحمة .

السابع : كونه داعماً لصلوات الأ ضاليل ، وهو قريب من السادس ، واستعار لفظ الدمع لهلاك الضلال بالكلية ببركة مقدمه والملائكة ، وجه الاستعارة كون الدمع مهلكا لإنسان فأشبهه ما أهلك الباطل ومحاه من أفعال الرسول والملائكة . والضلال هنا الانحراف عن طريق الله اللازم عن الجهل بها ، واستعار لفظ وصف الصولات له ملاحظة لشيء المنحرفين عن سبيل الله إلى الفساد في قوة انحرافهم و شدة فسادهم بالفعل الصايل .

الثامن : كونه حل الرسالة قمام بما كلف به وقوى عليه ، وقائماً . نصب على الحال ، وكذلك المنصوبات بعده و هي مستوفزاً ، وغير ناكلاً ، وكذلك محل " لا وام ، وواعياً ، وحافظاً ، وماضياً . وفي قوله : كما حاصل . لطف : أي صل عليه صلاة مناسبة مشابهة لتحميلك له الرسالة و قيامه بأمرها لأن" الجزاء من الحكم العدل يكون مناسباً للفعل المجزي و لأجل كونها جهة استحقاق طلب ما يناسبها .

التاسع : كونه عبلاً في رضا الله بامتثال أو أمره .

العاشر : كونه غيرنا كل ما يتقدّم فيه من طاعة الله .

الحادي عشر : كونه ماضي العزم في القيام بأمر الله غير و ان فيه .

الثاني عشر : كونه واعيالوحيه ، ضابطاً ، قوى" النفس على قبوله .

الثالث عشر : كونه حافظاً لعهده المأխوذ عليه من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ،

و قد سبق بيان معنى العهد في الخطبة الأولى .

الرابع عشر : كونه ماضياً على إنفاذ أمره في العالم و جذب الخلق إلى سلوك سبيله .

الخامس عشر : ما انتهى إليه من الغاية باجتهاده في إرضاء الله ، وهو كونه أورى

شرح الفصل الثاني من الخطبة ، و ذكر ما ألبني وألفتني

قبس القابس : أى اشتعل أنوار الدين و قدح زناد الأفكار حتى أظهر أنوار العلوم منها للمقتبسين ، واستعار لفظ القبس لنور العلم والحكمة ، و لفظ الورى لإظهار الرسول لتلك الأنوار في طريق الله ، وقد سبق وجه الاستعارة .

السادس عشر : كونه أباء الطريق للخاطب . فالطريق هي طريق الجنة و الحضرة الالهية ، وإضاءته لها بإظهار تلك الأنوار و بيانها بتعليم كيفية سلو��ها والإرشاد إليها ، والخاطب هو العاجل الذى قصدت الحكمة الالهية إرشاده حيث كان يخطب في ظلمات الجهل .
 السابع عشر : كونه قد هديت به القلوب إلى موضحات الأعلام : أى الأدلة الواضحة على الحق . و نيرات الأحكام هي المطالب الحقة الواضحة الالزمه من تلك الأدلة بعد ما كانت القلوب فيهم من خوضات الفتن والأثام الالزمه عمما اجترحته من السيئات . و ذلك أمر ظاهر .

الثامن عشر : كونه أمين الله : أى على وحيه ورسالته ، و المؤمنون تأكيد لأماته . و قد عرفت معنى الأمانة .

التاسع عشر : كونه خازن علمه المخزون : أى علومه الدينية الغيبية التي لا يتأهل لحملها كل البشر المشار إليها قوله تعالى « عالم الغيب فلا يظهر على غيه أحداً إلا من ارتفع من رسول » ^(١) .

العشرون : كونه شهيداً يوم الدين كقوله تعالى « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جنباً على هؤلاء شهيداً » ^(٢) أى شاهداً يقوم القيامة على أمته بما علم منهم من خير و شر .

فإن قلت : ما حقيقة هذه الشهادة و ما فايديتها مع أن الله تعالى عالم الغيب والشهادة ؟

قلت : أمّا حقيقتها فيعود إلى اطلاع وألفتني على أفعال أمته ، و بيان ذلك أنك علمت فيما سلف أن للنفوس القدسية الاطلاع على الأمور الغافية والانتقام بها مع كونه في جلابيب في أبدانها فكيف بها إذا فارقت هذا العالم والجسم المظلم فإنّها إذن تكون

مطلعة على جميع أفعال أئمها ومشاهدة لها من خير أو شر، وأمّا فايديتها فقد علمت أنَّ أكثر أحكام الناس وهمية، والوهم منكر لا يلهم على الوجه الذي هو واله فالحرى أن ينكر كونه عالما بجزئيات أفعال عباده و دقائق خطرات أوهامهم، وظاهر أنَّ ذلك الإثار يستتبع عدم المبالغ بفعل القبيح والانهك في الأمور الباطلة التي نهى الله تعالى عنها فإذا ذكر لهم أنَّ عليهم شهداء ورباء وكتابا لما يفعلون مع صدق كل ذلك بأحسن تأويل كان ذلك مما يعين العقل على كسر النفس الأمارة بالسوء وقهر الأوهام الكاذبة، ويردع النفس عن متابعة الهوى ثم لا بد لكل رسول من انتهاء على دينه وحفظة له هم شهداء أيضاً على من بعده إلى قيام الساعة، وإذا كان معنى الشهادة يعود إلى اطلاع الشاهد على ما في ذمة المشهود عليه وعلمه بحقيقة وفائدة حفظ ما في ذمة المشهود عليه وتخوّفه أن جحده أولم يوصله إلى مستحقه أن يشهد عليه الشاهد فيفضحه وينتزع منه على أقبح وجه، وكان هذا المعنى و الفائدة قائمين في شهادة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذ بها تحفظ أو أمر الله وتكليفه التي هي حقوقه الواجبة، ويحصل الخوف للمقصرين فيها بذلك شهادة الرسل عليهم بالتصير فيقتضحوا في محفل القيامة ويستوفى منهم جزاء ما كلفوا به فقصروا فيه بالعقاب الأليم لاجرم ظهر معنى كونهم شهداء الله على خلقه.

الحادي والعشرون: كونه مبعوثاً بالحق، وهو الدين الثابت الباقى نفعه وثمرته في الآخرة، ثم أعاد ذكر كونه رسول الله إلى خلقه. وإنما كرر لأنَّه الأصل في باقى الأوصاف، وظاهر أنَّ كلَّ هذه الأوصاف جهات استحقاق الرحمة والبركة وإفاضة الصلوات الإلهية على نفسه القدسية.

الفصل الثالث: في تفصيل المطلوب من هذا الدعاء وهو قوله: اللهم افسح . إلى

آخره ، وطلب أموراً :

أحدها: أن يفسح له مفسحاً في ظلة: أي مكاناً متسعًا في حضرة قدسه و ظل وجوده، و لفظ الظل مستعار للجود، وجده المشابهة راحة المستظل بالظل من حر الشمس فأشبهها راحة المتجهي إلى جود الله المستظل به من حرارة جهنم وسعيه عذابه، وإليه الإشارة بقوله تعالى «في ظلٍ ممدود».

شرح الفصل الثالث من كلامه تعالى

الثاني : أن يجزيه مضاعفات الخير من فضله : أى يضاعف له الكمالات من نعمه ، وقد علمت أن مراتب استحقاق نعم الله غير متباينة .

الثالث : أن يعلى على بناء البالين بناء ، ويحتمل أن يريد ببنائه ما شبيهه من الدين فيكون أعلى المطلوب هو إتمام دينه وإظهاره بعده على الأديان كلها ، ويحتمل أن يريد به ما شبيهه من الملوك الخيرية واستحقاقه من مراتب الجنة وقصورها .

الرابع : أن يكرّم لديه منزلته وهو إنزاله المنزلي المبارك الموعود ، وقل رب انزلني منزلًا مباركا .

الخامس : أن يتم له نوره وهو إما النور الذي بعث به وإتمامه انتشاره في قلوب العالمين ، وإما النور الذي في جوهر ذاته . وتمامه زيادة كماله .

السادس : أن يجزيه عن بعثته قبول شهادته ورضا مقالته ، ومقبول مفعول آخر .
وذا منطق . نصب على الحال . وقبول شهادته . كنایة عن تمام الرضى عنه إذ من كان مقبول الشهادة مرضي القول فلابد وأن يكون بريئاً من جهات الرذائل المسخطة ، أو كنایة عن كون معتقداته ومشاهداته من أعمال أُمته وغيرها بريئة عن كدر الأغالطي وشوائب الأوهام ، وكذلك رضا أقواله في شفاعته وغيرها . وكونه ذا منطق عدل : أى لا جور فيه عن الحق ، وخطبة فضل : أى مميزة للحق فاصلة له من الباطل ، وكل هذه الاعتبارات وإن اختفت مفهو ماتها ترجع إلى مطلوب واحد وهو طلب زيادة كما لاتة تعالى وقربه من الله تعالى ، قوله : اللهم آجع . إلى آخر سؤال الله أن يجمع بينه وبين الرسول في أمور : أحدها : برد العيش . والعرب يقولون : عيش بارد إذا كان لا كلفة فيه من حرب وخصوصة . وهو في الآخرة يعود إلى ثمرات الجنّة البريئة من كدر الآثار .

الثاني : قرار النعمة : أى مستقرّها وهو الجنّة وحضره رب العالمين .

الثالث : مني الشهوات ، و هو ما تمنّاه النفس من المشتهيات و تهواه من اللذات بنعيم الأبد .

الرابع : رخاء الدعة ومتنه الطمأنينة : أى اتساع سكون النفس بلذة مفارقة الحق والأنس بالملائكة الأعلى و أنها من مزعجات الدنيا و راحتها من معافاة آفاتها .

الخامس : تحف الكراهة . وهي ثمرات الجنة وقطوفها الدانية وساير ما أعدّه لتحف أوليائه الأبرار مما لاعين رأى ولا ذُنُون سمعت ولا خطر على قلببشر .

٧ - فَمِنْ كَلَامِ رَبِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قاله مروان بن الحكم بالبصرة

قالوا : أخذ مروان بن الحكم أسيرا يوم الجمل ، فاستشعف الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلمه في سبيله ، فقال له : يا ياعنك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام :

أَوْلَمْ يَا يَاعَنِي قَبْلَ قَتْلِ عُثْمَانَ ؟ لَا حَاجَةَ لِي فِي يَعْتَهِ ! إِنَّهَا كَفَ يَهُودِيَّةُ
لَوْ بِيَاعَنِي بِكَفَهِ لَغَدَرَ بَسْبَتِهِ أَمَا إِنَّهُ لَهُ إِمَرَّةٌ كَلْعَةُ الْكَلْبِ أَنْفُهُ ، وَهُوَ
أَبُو الْأَكْبَشِ الْأَرْبَعَةِ ، وَسَتْلَى الْأَمَّةِ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْمًا أَخْرَى !

أقول : السبة : الإست . والـ إمرة بالكسر : الولاية . وكبش القوم : رئيسهم .
ولما امتنع من يعنة مروان بنه على سبب امتناعه من ذلك وهو أنه مظنة الغدر
وذلك قوله : إنها كف يهودية . إذ من شأن اليهود الخبث والمكر والغدر ، ثم فسر تلك
الكنایة بقوله : لو بايعني بيده لغدر بسبنته ، وذكر السبة إهانة له لأن الغدر من أقبح
الرذائل فنسبته إلى السبة أولى النسب . والعرب تسلك مثل ذلك في كلامها . قال المتوكل
يوماً لأبي العيناء : إلى متى تمدح الناس وتذمّهم . فقال : ما أحسنوا وأسأوا ، ثم قال : يا
أمير المؤمنين : إن الله تعالى رضى فمدح فقال « نعم العبد إِنَّهُ أَبٌ » وسخط فدم فقال
« عتل بعذلك زئيم والزئيم ولدارلنا ». ثم ذكر مماسيكون من أمر مروان ثلاثة أمور :
أحدتها : أنه سيصير أميراً لل المسلمين وبنته على قصر مدة إمارته بتشبيهها بلعقة
الكلب أنفه ، ووجه الشبه هو القصر ، وكانت مدة إمارته أربعة أشهر وعشراً ، وروى ستة

كلام له ~~يُلْقَى~~ لما غروا على بيعة عثمان

أشهر ، وإنما خصه بلعقة الكلب لأنّه في معرض الذم ، والبحث في أمّا كهو في قوله :
أمّا أنه سيظهر عليكم .

الثاني : أنه سيكون أباً للأكبش الأربع . وكان له أربعة ذكور لصلبه وهم
عبدالملك ولد الخليفة ، وعبدالعزيز ولد مصر ، وبشر ولد العراق ، وعمّد ولد الجزيرة ،
ويحتمل أن يزيد بالأربعة أولاد عبد الملك وهم الوليد وسلمان ويزيد وهشام كلّهم ولدوا
الخلافة ولم يلها أربعة إخوة إلهام .

الثالث : ما يصدر منه ومن ذريته من الفساد في الأرض ، وما يلقى الناس منهم من
القتل وانتهاك الحرمة . وكنت عن قتلهم للناس وشدايد ما يلقون منهم بالموت الأحر .
ومن لسان العرب وصف الأمر الشديد بالأحر ، ولعله لكون الحمرة وصف الدم كنتي به
عن القتل ، وروى يوماً أحمر . وهو كنایة عن مدّة أمرهم ووصفه بالحمرة كنایة عن شدّتهم .
و فساد بنى أمية ودمارهم للإسلام وأهله مشهور ، وفي كتب التواريخ مسطور .

٧١ - *فَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ نَّاهِيٌّ عَنِ الْمُسْتَلِّ لِأَخْرِيٍّ*

لما عزموا على بيعة عثمان

لقد علّمتم اي احق الناس بها من غيري ، والله لا سلطان ما سلست امور
المسلمين ولم يكن فيها جور إلا على خاصة الناس لأجر ذلك وفضله . وزهدا
فيما تنافستموه من زخرفه وزرجه .

أقول: الزخرف: الزينة ، ويقال: الذهب . والزبرج: النفنون والزينة بالحلية أيضاً .
وقوله : لقد علمتمي أحق بها .

يشير إلى ما علموه من وجہ استحقاقه للخلافة و هو استجماعه للفضائل الداخلية
والخارجية ، والضمير في بها للخلافة وهو إمّا أن يعود إلى ذكرها في فصل تقدم متصلة
بهذا الفصل أول شهرتها ، و كون الحديث فيها قرينة معينة لها كما قال قبل : لقد قمنصها .

وقوله : **وَاللَّهُ لَا سُلْمَنْ** ما سلمت أمور المسلمين .

أى لأنّ كنّ المنافسة في هذا الأمر مهما سلمت أمور المسلمين من الفتنة . وفيه إشارة إلى أنّ غرضه **تَبَيَّنَ** من المنافسة في هذا الأمر هو صلاح حال المسلمين واستقامة أمورهم وسلامتهم عن الفتنة وقد كان لهم بمن سلف من الخلفاء قبله استقامة أمر و إن كانت لا تبلغ عنده كمال استقامتها لو ولّى هو هذا الأمر فلذاك أقسم **لِسْلَمَنْ** ذلك الأمر ولا ينزع فيه إذ لو نزع فيه لثارث الفتنة بين المسلمين و انشقت عصا الإسلام و ذلك ضد مطلوب الشارع ، وإنما يتعمّن عليه النزاع والقتال عند خوف الفتنة وقيامها .

فإن قلت : السؤال من وجهين :

الأول : ما وجه منافسته في هذا الأمر مع أنه منصب يتعلق بأمور الدنيا و صلاحها مع ما اشتهر منه **تَبَيَّنَ** من الزهد فيها والإعراض عنها وذمّها ورفضها ؟
الثاني : كيف سلم هيئنا خوف الفتنة ولم يسلم معاوية ولطحة و الزبير مع قيام الفتنة في حربهم .

قلت : الجواب عن **الأول** : أنّ منصب رسول الله **وَاللَّهُ لَا سُلْمَنْ** ليس منصباً دنيا ويبا وإن كان متعلقاً بإصلاح أحوال الدنيا لكن لا يكتونها دنيا بل لأنّها مضمار الآخرة ومزروعتها والغرض من إصلاحها إنما هو نظام أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم فمنافسته **تَبَيَّنَ** في هذا الأمر على هذا الوجه من الأمور المندوب إليها إذا اعتقاد أنّ غيره لا يغنى غناه في القيام به فضلاً أن يقال : إنّها لا تجوز .

وعن **الثاني** : أنّ الفرق بين الخلفاء الثلاثة وبين معاوية في إقامة حدود الله والعمل بمقتضى أوامره ونواهيه ظاهر .

وقوله : ولم يكن فيها جور إلا على خاصة .

تظلم ممن عدل بها عنه ، ونسبة لهم إلى الجور دون من استحقها في أنظارهم . فأوصلوها إليه من سائر الخلفاء . وخاصة نصب على الحال .

وقوله : إليها التماساً لأجر ذلك . إلى آخره .

التماساً مفعول له والعامل لا **سُلْمَنْ** : أى التمس ثواب الله وفضلة بتسليمى وصبرى

كلام له متأثراً بلغه اتهام المشاركة في دم عثمان

وكذلك قوله : و زهداً . مفعول له ، وفيه إيماء إلى أن مقصود غيره من طلب هذا الأمر والمنافسة فيه ليس إلا الدنيا وزخرفها . وبالله التوفيق .

٧٢ - قِنْزِكَلَامُهُ عَلَيْهِ السِّنَالُ الْأَرْبَعَةِ

لما بلغه اتهام بنى أمية له بالمشاركة في دم عثمان

أولم ينه أمية علمهابي عن قرفني ؟ أو ما وزع الجھاں سابقتي عن تھمتى !

ولما وعظهم الله به أبلغ من لسانى ! أنا حجيج المارقين ، وخصيم ،

المرتاين وعلى كتاب الله تعرض الأمثال ، وعما في الصدور تحازى العباد .

أقول : قرفني بكلدا : أى اتهمنى به و نسبه إلى . وزع : كف . وحجيجهم :

محاجتهم . والخصيم : المخاصم .

وقوله : أولم ينه . إلى أموازع .

استفهام من عدم اتهائهم عن نسبة إلى دم عثمان مع علمهم بحاله وقوته في الدين وعصمتهم عن دم حرام فضلاً عن مثل دم عثمان استفهاماً على سبيل الإنكار عليهم والتعجب منهم ، ونسبة لهم إلى الجهل لجهلهم بمناسبة حاله وسابقته في الإسلام لبراءة دعمها قروفه به .

وقوله : ولما وعظهم الله به أبلغ من لسانى ؟

تعديل لنفسه في عدم ردعه لهم عن الغيبة وأمثالها : أى إذا كان وعظ الله لهم مع كونه أبلغ من كلامي لا يرد عهم فكلامي بطريق الأولى وزواجر كتاب الله قوله « إن بعض الظن إثم » قوله « ولا تفتب بعضكم ببعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » الآية قوله « و الذين يؤذون المؤمنين و المؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاننا وإثما مبينا » (١) ونحوه من القرآن كثير ، وأراد بلسانه وعظه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب .

(١) ٤٩ - ١٢ (٢)

وقوله : أنا حجيج المارقين .

أى الخوارج أو كلّ من خرج عن دين الله ، وخصيم المرتباين : أى الشاكين في نسبة هذا الأمر إلى ، وقيل : المنافقين الشاكين في صحة الدين .

وقوله : وعلى كتاب الله تعرض الأمثال . إلى آخره .

إشارة إلى الحجّة التي يحجّ بها . وبخاصهم ، وتقريراها : أن تعلق هذا المنكر به إما من جهة أقواله ، وأفعاله ، و اعتقاداته و إراداته ، والثلاثة باطلة فتعلق هذا المنكر به و نسبته إليه باطلة . بيان الحصر أن " هذه الجهات هي جهات صدور المنكر عن الإنسان . بيان بطلان الأول والثاني أنه إن كان قدحصل في أقواله وأفعاله ما يشبه الأمر بالقتل أو فعله فأ الواقع في نفوس الجهال شبهة القتل نحو ما روى عنه متسائل عن قتل عثمان : الله قتله وأنا معه ، وكتخلفه في داره يوم قتل عن الخروج . فينبغي أن يعرض ذلك على كتاب الله تعالى فإنه عليه تعرض الأمثال والأشباه فإن دل على كون شيء من ذلك قتلاً فليحكم به و إلا فلا . ولن يدل أبداً . فليس لهم أن يحكموا بالقتل من جهة قول أو فعل ، وأما بطلان الثالث فلان علم ما في القلوب إلى الله وهو الجازى بما فيها من خير أو شر و ليسوا مطلعين على ما هناك حتى يحكموا بالقتل من جهةها فإذن حكمهم بتعلق هذا المنكر به باطل . وبإله التوفيق .

٧٣ — وَمِنْ خَطْبَتِي لِلْمُعْلَمَةِ عَلَيْنِ الْسَّلَامَةِ

رَحِمَ اللَّهُ امْرَأٌ سَمِعَ حُكْمَ فَوْعَى ، وَدَعَى إِلَى رَشَادِ فَدَنَا ، وَأَخْذَ بِحَجَزِهِ
هَادِ فَجَأَ : رَافِبَرَبَهُ ، وَخَافَ ذَنْبَهُ ، قَدَمَ خَالِصًا ، وَعَمِلَ صَالِحًا ، أَكْتَسَبَ
مَذْخُورًا ، وَاجْتَنَبَ مَذْوَرًا ، رَمَى غَرَضًا ، وَاحْرَزَ عَوْضًا كَبَرَ هَوَاءُ ،
وَكَدَبَ مُنَاهُ ، جَعَلَ الصَّبَرَ مَطْيَةً نَجَاتَهُ ، وَالْتَّقَوَ عُدَّةً وَفَاتَهُ رَكِبَ الطَّرِيقَةِ

الغَرَاءُ، وَلَرَمُ الْحَجَّةَ الْبِيضاءَ، اغْتَنِمُ الْمُهْلَ، وَبَادِرُ الْأَجَلَ، وَتَزَوَّدُ مِنَ
الْعَمَلِ.

أقول : الحجزة : معقد الإزار . والمراقبة : المحافظة . والغراء : البيضاء .
واعلم أن هذا الفصل يشتمل على استنزاله عليه السلام الرحمة لعبد استجمع ما ذكر من
الأمور ، وهي عشرون وصفا :

الأول يسمع الحكم فيعيه ؛ والحكم الحكمة ، ودعاؤه لسامعها وداعيها يستلزم أمره
بتعلمها وتعليمها ، وهي أعم من العلمية والعملية . ووعاها : أى فهمها كما أُلقيت إليه .
الثاني : كونه إذا دعى إلى رشاد دنا من الداعي إليه وأجاب دعاؤه . والرشاد يعود
إلى ما يهديه ويرشهده إلى طريق معاشه ومعاده من العلوم والأعمال التي وردت بها الشريعة .
الثالث : أن يأخذ بمحجزة هاد فينجو به : أى يكون في سلوكه لسبيل الله مقتدياً
باستاد مرشد عالم لتحصل به تجاته ، واستعار لفظ المحجزة لأن الأستاد وسنته . ووجه
المشابهة كون ذهن المقتدى لازماً لسنة شيخه في مضائق طريق الله وظلماتها لينجوه كما
يلزم السالك لطريق مظلم لم يسلكه قبل بمحجزة آخر قد سلك تلك الطريق وصار دليلاً
فيها ليهتدى به وينجو من التيه في ظلماتها . وبين أهل السلوك حلاف أنه هل يضطر
المريد إلى الشيخ في سلوكه ؟ ألم لا . وأكثرهم يرى وجوبه . وفيهم من كلامه عليه السلام وجوب
ذلك وبمثل شهادته يتبع حجاج الموجبون له إذ كان لسان العارفين ومنتهي طبقاتهم . وظاهر أن
طريق المريد مع الشيخ أقرب إلى الهدایة ، وبدونه أطول وأقرب إلى الضلال عنها . فلذلك
قال عليه السلام : فنجا : أى أن النجاة معلقة به ، وقد ذكرنا ما احتاج به الفريقان في كتاب
صبح العارفين .

الرابع : أن يرافق ربته .

واعلم أن المراقبة إحدى ثمرات الإيمان وهي رتبة عظيمة من رتب السالكين
قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اعبد الله كما تراه فإن لم تراه فإنه يراك قال تعالى « أَفَمَنْ

هو قائم على كلّ "نفس بما كسبت" ^(١) وقال «إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رِحْمَةً» ^(٢) قال الإمام الغزالى : وحقيقة أنها حالة للنفس بشرها نوع من المعرفة ، وتشمل أعمالاً في الجوارح والقلب: أمّا الحالـة فـهي مـراعـة القـلب للـرقـيب وـاشـغالـه بـه ، وـأـمـا الـعـلمـ المـشـمـلـهـاـ فـهـوـ الـعـلمـ بـأنَّ اللهَ تـعـالـى مـطـلـعـ عـلـىـ الضـمـائـرـ وـالـسـرـائـرـ قـائـمـ عـلـىـ كـلـ نـفـسـ بـماـ كـسـبـتـ وـأـنـ سـرـ الـقـلـوبـ مـكـشـفـ لـهـ كـظـاهـرـ الـبـشـرـةـ لـلـخـلـقـ بلـ هـوـ أـشـدـ فـهـذـهـ الـعـرـفـ إـذـاـ اـسـتـولـتـ عـلـىـ الـقـلـبـ وـلـمـ يـقـيـقـ فـيـهـ شـبـهـ فـلـابـدـ أـنـ تـجـذـبـهـ إـلـىـ مـرـاعـاتـ الرـقـيبـ . وـالـمـوـقـنـونـ بـهـذـهـ الـعـرـفـ فـمـنـهـ الـصـدـيقـونـ وـمـرـاقـبـتـهـمـ التـعـظـيمـ وـالـإـجـالـ وـاسـتـغـرـاقـ الـقـلـبـ بـمـلاـحةـ ذـلـكـ الـجـالـ وـالـانـكـسـارـ تـحـتـ الـهـيـةـ وـالـعـظـمـ بـحـيـثـ لـاـ يـقـيـقـ فـيـهـ مـتـسـعـ لـلـالـتـفـاتـ إـلـىـ الـغـيـرـ أـصـلـاـ . وـهـيـ مـرـاقـبـةـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ الـقـلـبـ . أمـاـ الـجـوـارـحـ فـإـنـهـاـ تـعـطـلـ عـنـ التـلـفـتـ إـلـىـ الـمـبـاحـاتـ فـضـلـاـ عـنـ الـمـحـظـورـاتـ ، وـإـذـاـ تـحـرـكـتـ بـالـطـاعـةـ كـانـتـ كـالـمـسـعـمـ لـهـاـ فـلـاـ تـصـلـحـ لـغـيـرـهـاـ وـلـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ تـدـبـيرـ فـيـ ضـبـطـهـاـ عـلـىـ سـنـ السـدـادـ ، وـمـنـ نـالـ هـذـهـ الرـتـبـةـ فـقـدـ يـغـفـلـ عـنـ الـخـلـقـ حـتـىـ لـاـ يـبـصـرـهـمـ وـلـاـ يـسـمـعـ أـقـوـالـهـمـ . وـمـشـلـ هـذـاـ بـمـنـ يـحـضـرـ فـيـ خـدـمـةـ مـلـكـ عـظـيمـ فـإـنـ بـعـضـهـمـ قـدـ لـاـ يـحـسـ بـمـاـ يـجـرـىـ فـيـ حـضـرـةـ الـمـلـكـ مـنـ اـسـتـغـرـاقـهـ بـهـيـتـهـ ، وـبـمـنـ يـشـغـلـهـ أـمـرـهـمـ يـفـكـرـ فـيـهـ . وـرـوـيـ : أـنـ يـحـيـيـ بـنـ زـكـرـيـاـ تـبـيـلـاـ مـرـاـةـ فـدـفـعـهـاـ عـلـىـ وـجـهـهـ . فـقـيلـ لـهـ : لـمـ فـعـلـ ؟ فـقـالـ : مـاـ ظـنـنـتـهـ إـلـاـ جـدارـاـ . الـثـانـيـةـ مـرـاقـبـةـ الـوـرـعـينـ مـنـ أـصـحـابـ الـيـمـينـ وـهـمـ قـوـمـ غـلـبـ بـعـضـ اـطـلـاعـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ وـلـكـنـ لـمـ تـدـهـشـهـمـ مـلـاحـظـةـ الـجـالـ بـلـ بـقـيـتـ قـلـوبـهـمـ عـلـىـ الـاعـدـالـ مـتـسـعـةـ لـلـتـلـفـتـ إـلـىـ الـأـقـواـلـ وـالـأـعـمـالـ إـلـاـ أـنـهـاـ مـعـ مـدارـسـتـهـاـ لـلـعـمـلـ لـاـ تـخـلـوـ عـنـ الـمـرـاقـبـةـ . وـقـدـ غـلـبـ الـحـيـاءـ مـنـ اللهـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ فـلـاـ يـقـدـمـونـ وـلـاـ يـجـمـحـونـ إـلـاـ عـنـ تـبـتـ فـيـمـتـنـعـونـ عـنـ كـلـ أـمـرـ فـاضـحـ فـيـ الـقـيـامـةـ إـذـيـرـونـ اللهـ تـعـالـىـ مـشـاهـدـاـ لـأـعـمـالـهـ فـيـ الـدـنـيـاـ كـمـ يـرـوـنهـ فـيـ الـقـيـامـةـ . وـمـنـ كـانـ فـيـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ فـيـحـتـاجـ أـنـ يـرـاقـبـ جـمـيعـ حـرـكـاتـهـ وـسـكـنـاتـهـ وـلـحـظـاتـهـ وـجـمـيعـ اـخـتـيـارـاتـهـ وـيـرـصـدـ كـلـ خـاطـرـ يـسـنـحـ لـهـ فـإـنـ كـانـ إـلـهـيـاـ يـعـجـلـ مـقـضـاهـ وـإـنـ كـانـ شـيـطـانـيـاـ بـادـرـ إـلـىـ قـعـدـهـ وـاستـحـيـاـ مـنـ رـبـهـ وـلـامـ نـفـسـهـ عـلـىـ اـتـبـاعـ هـوـاهـ فـيـهـ وـإـنـ شـكـ فـيـهـ تـوقـفـ إـلـىـ أـنـ يـظـهـرـ لـهـ بـنـورـ اللهـ سـبـحـانـهـ مـنـ أـىـ جـانـبـ هـوـ كـمـ قـالـ تـبـيـلـاـ : الـهـوـيـ شـرـيـكـ

شرح الخطبة الثالثة والسبعين

العمى . و من التوفيق التوقف عند الحيرة و لا يهمل شيئاً من أعماله و خواطره و إن قل لис ممن مناقشة الحساب . فقد قال الرسول ﷺ : الرجل ليسئل عن كحل عينيه و عن قتلة الطين بإصبعه و عن ملسه ثوب أخيه .

الخامس : أن يخاف ذنبه . و أعلم أن الخوف ليس مما هو ذنب بل من العاقب على الذنب لكن مما كان الذنب سبباً موجباً لسخط العاقب و عقابه نسب الخوف إليه . وقد سبق منها بيان حقيقتي الخوف والرجاء .

السادس : أن يقدم خالصاً بأن يكون أحواله كلها خالصة لله من قول أو عمل ، و خاطره بريئة عن الالتفات إلى غيره فيها . وقد سبق معنى الإخلاص في الخطبة الأولى .

السابع : أن يعمل صالحاً . و صلاح العمل الإيتان به كما أمر به و هو نوع مما تقدمه .

الثامن : أن يكتسب مذخراً . وهو أمر بساير ما أمرت الشريعة باكتسابه . ونبيه على وجوب السعي فيه بأنه يبقى ذخراً ليوم الفاقة إليه .

التاسع : أن يجتنب محذوراً . و هو أمر باجتناب ما نهت الشريعة عنه ، و نبه على وجوب اجتنابه بكونه محذوراً يستلزم العقاب في الآخرة .

العاشر : أن يرمي غرضاً : أي يحذف أعراض الدنيا عن درجة الاعتبار ، و هو إشارة إلى الزهد والتخلّي عن موانع الرحمة .

الحادي عشر : أن يحرز عوضاً : أي يدخل في جوهر نفسه ملكات الخير و يوجه سرّه إلى مطالعة أنوار كبرى الله ويحرز ما يفتقض عليه من الحسنات و يتبتّها بتكريرها . فنعم العوض من متع الدنيا وأعراضها الفانية .

الثاني عشر : أن يكابر هواه : أي يطوع نفسه الأمارة بالسوء بالأعمال الدينية و يراقبها في كل خاطر يلقاها إلى نفسه و يقابلها بكسره و قمعه .

الثالث عشر : أن يكذب منه : أي يقابل ما يلقته إليه الشيطان من الأماني ويعده به بالتكذيب والقمع له بتجويز عدم نيلها . و يحسم ماده ذلك بالمراقبة فإن الوساوس الشيطانية يتبع بعضها بعضاً ، ومن إشاراته عليه السلام إلى ذلك : إياكم والمني فإنها بضائع

النوكى : أى الحمقى .

الرابع عشر : أن يجعل الصبر مطية نجاته . و الصبر هو مقاومة النفس لئلا تنقاد إلى قبائح اللذات . و لما علمت أن الانقياد في مسلكها إلى اللذات القبيحة هو سبب الهلاك في الآخرة علمت أن مقاومتها ودفعها عنها هو سبب النجاة هناك ، وقد استعار لفظ المطية للصبر ، و وجه المشابهة كون لزومه سبباً للنجاة كما أن ركوب المطية والهرب عليه سبب النجاة من العدو .

الخامس عشر : أن يجعل التقوى عدّة وفاته . و لما كان التقوى قد يراد به الزهد ، و قد يراد به الخوف من الله المستلزم للزهد كما علمت و كانت العدة هو ما استعد به الإنسان للقاء الحوادث ، و كان الموت أعظم حادث يسبق إلى الإنسان من أحوال الآخرة كان التقوى عدّة للموت . إذ كان المتقي مشغول السر بعظمته الله و هي بيته عن كل حالة تتحقق فلا يكون للموت عنده كثير وقع ولا عظيم كرب ، و قد يراد بالتقوى مطلق الإيمان ، و بالوفاة ما بعدها مجازاً ، و ظاهر كون الإيمان عدّة واقية من عذاب الله .

السادس عشر : أن يرتكب الطريقة الغراء . وهو أن يسلك إلى الله تعالى الطريقة الواضحة المستقيمة وهي سبعة .

السابع عشر : أن يلزم المحاجة البيضاء . و الفرق بين هذا الأمر و الذي قبله أن الأول أمر بر كوب الطريقة الغراء ، و الثاني أمر بلزمها و عدم مفارقتها و أنها وإن كانت واصحة إلا أنها طويلة كثيرة المخاوف و سالكها أبداً محارب للشيطان وهو في معرض أن يستنزله عنها .

الثامن عشر : أن يغتنم المهل : أى أيام مهلته وهي حياته الدنيا و اغتنامه العمل فيها قبل يوم الحساب .

التاسع عشر : أن يبادر الأجل : أى يسابقه إلى العمل قبل أن يسبقه فيقطنه عنه .

العشرون : أن يتزود من العمل . وهو الأمر بما يبادر إليه من اتخاذ العمل زاداً .

و قد سبق وجہ استعارة الزاد له . و قد راعى ^{تَلْكِيلًا} في كل مرتبتين من هذا الكلام السجع المتوازى ، و جعل الصدر ثلاثة و الآخر ثلاثة و عطف كل قرينة على مشاركتها في

الحرف الأخير منها ، و حذف حرف العطف من الباقي ليتميّز ما يتناسب منها عن غيره .
و كل ذلك بлага .

٧٤ - قَمْرِنَ كَلَامِنَ عَلَيْهِ السَّيْنَ لِأَفْرَنْ

إِنَّ بَنِي أُمَّةٍ لِيَفْوَقُونِي تَرَاثٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيقًا، لَا نَفْضُهُمْ

نَفْضَ اللَّحَامَ الْوِدَامَ التَّرَبَةَ .

وبروى ، التراب الوذمة . . وهو على القلب .

قال الشري夫 : قوله عليه السلام «ليفوقوني» أي . يعطونى من المال
قليلاً كفواً الناقة ، وهو الخلبة الواحدة من لبنها ، والوذام : جمع وذمة
وهي : الحزة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتفض

أقول : استعارة لفظ التفوّيق لعطيتهم له المال قليلاً ، ووجه المشابهه هو قلة ما
يعطونه منه مع كونه في دفعات كما يعطى الفصيل ضرع أمه لتدبر ، ثم يدفع عنها لتحلبه ،
ثم يعاد إلى التدر . وتراث محمد إشارة إلى الفي ، الحاصل بيركة محمد صلوات الله عليه وهو التراث
اللغوي المكتسب عن الميت بوجه ما ، ثم أقسم إن بني أمية ليحرمنهم التقدّم في
الأمور ، واستعارة لفظ النفس لا بعادهم عن ذلك ، وشبّه نفسيّهم لهم بنفس القصّاب القطعة من
الكبد ، أو الكرش من التراب إذا أصابته . وهذه الرواية هو الحق ، والثانية سهو من الناقلين .
وقدورد عنه هذا الكلام بزيادة ونقصان في رواية أخرى وذلك أن سعيد بن العاص حيث
كان أمير الكوفة من قبل عثمان بعث إليه بصلة فقال : والله لا يزال غلام من عثمان نبي
أمّة يبعث إلينا ما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرمّلة ، والله لئن بقيت لا نفضنّها نفض
القصّاب الوذام التربة .

٧٥— وَمِنْ كَلْمَاتِ كَانَ يَدْعُو بِهَا

اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمْ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عَدْتُ فَعُدْ عَلَى الْمَغْفِرَةِ، اللَّهُمَّ
أَغْفِرْ لِي مَا وَاَيْتُ مِنْ نَفْسِي، وَلَمْ يَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي، اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِي مَا تَقْرَبَتِ
بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي، اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِي رَمَّاتِ الْأَلْحَاظِ، وَسَقَعَاتِ
الْأَلْهَاظِ، وَشَهْوَاتِ الْجَنَانِ، وَهَفَوَاتِ اللَّسَانِ،

أَقُولُ : الْوَأْيُ : الْوَعْدُ . وَالرَّمَّاتُ : بَعْضُ رَمَّاتِ الْأَلْهَاظِ ، وَهِيَ إِشَارَةٌ بِالْعَيْنِ أَوِ الْحَاجَبِ أَوِ
الشَّفَةِ . وَالسَّقْطُ مِنِ الشَّيْءِ : رَدِيَّهُ . وَالْهَفَوةُ : الْزَّلَّةُ .

وَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي بَعْضِ هَذَا الْفَصْلِ الْمَغْفِرَةَ . وَمَغْفِرَةُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ تَعُودُ إِلَى سُترِهِ
عَلَيْهِ أَنْ يَقُعُ فِي مَهَاوِي الْهَلْكَةِ فِي الْآخِرَةِ أَوْ يُكَشَّفَ مَقَابِحَهُ لِأَهْلِ الدِّينِ فِيهَا وَكُلُّ
ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى تَوْفِيقِهِ لِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَجَذْبِهِ بِهَا عَنِ مَتَابِعَةِ الشَّيْطَانِ فِي الْمُعَاصِي قَبْلِ
صَدْورِهِ مِنْهُ أَوْ قَبْلِ صِيرَوْرَتِهِ مَلَكَاتِ فِي جُوهرِ نَفْسِهِ وَالْمَطْلُوبُ غَرْهُ أُمُورٌ :
الْأَوَّلُ : مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ مَا هُوَ عِنْدَ اللَّهِ مُعْصِيَةٌ وَسَيِّئَةٌ فِي حَقِّهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُهَا
فَيَفْعُلُهَا ، ثُمَّ طَلَبَ تَكْرَارِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ مَا يَعْوَدُهُ وَيَتَكَرَّرُ مِنْهُ كَذَلِكَ . إِنَّمَا تَصوَّرُتُ مِنْهُ الْمَغْفِرَةُ
تَصوُّرَتْ كَيْفَ تَكَرَّرُهَا .

الثَّانِي : مَا وَعَدَ نَفْسُهُ أَنْ يَفْعَلَهُ اللَّهُ ثُمَّ لَمْ يَوْفِ بِهِ . وَمَا هِيَ بِنَا مُصْدِرَيَّةٍ . وَلَا شَكَّ أَنَّ
مَطَالَ النَّفْسِ بِفَعْلِ الْخَيْرِ وَدُمُودِ الْوَفَاءِ بِهِ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ خَاطِرِ شَيْطَانِيٍّ يَجِبُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ
وَبِسَأْلِ سُترِهِ يَبْعَثُ الدِّوَاعِيَ الْجَازِيَّةَ عَنِ مَتَابِعَةِ الشَّيْطَانِ الْمُحْرَكِ لَهُ .

الثَّالِثُ : شَوْبُ النَّفْسِ مَا يَقْرَبُ بِهِ مِنِ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ بِالرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ وَمُخَالَفَةِ
نِيَّةِ الْقِرْبَةِ إِلَيْهِ بِقَصْدِ غَيْرِهِ لَهَا . وَلَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ شَرُوكَخْفِيٌّ جَازِبٌ عَنِ التَّرْقِيِّ فِي درَجَاتِ
الْعُلُّى ، وَيَحْتَاجُ إِلَى تَدَارُكِ اللَّهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْجَذْبِ عَنْهُ قَبْلِ تَمْكِنَهُ مِنِ النَّفْسِ .

الْأَرْابِعَ : إِشَارَةٌ بِالْمَلْحَظَةِ . وَهُوَ إِلَيْمَاءُ الْخَارِجِ عَنِ الْحَدُودِ الشَّرِيعَةِ كَمَا يَفْعُلُ

شرح ما في كلامه مما يرجو ويطلب غفرانه

عند التنبيه على شخص ليعاب أولى يوضح منه أو يظلم . وكلّ ذلك عن خواطر شيطانية ينبغي أن يسأل الله تعالى رفع أسبابها وستر النفس عن التدنس بها .
الخامس : سقطات الألفاظ والردى من القول . هو ما تجاوز حدود الله وخرج بها الإنسان عن مستقيم صراطه .

ال السادس : شهوات القلوب . فمن روى بالشين المعجمة فالمراجعة القوة الشهوية للنفس : أى مشتهياتها ، ومن روى بالسين فشهوات القلب خواطره التي لا يشعر بتفاصيلها إذا خالفت أو أمر الله وقد تستتبع حركة بعض الجوارح إلى فعل خارج عن حدود الله أيضاً وذلك وإن كان لا يوجب أثراً في النفس ولا يؤخذ به إلا أنه ربما يقوى بهوة أسبابه وكثيرتها فيقطع العبد عن سلوك سبيل الله كما في حق المنهكين في لذات الدنيا المتجر دين لها فإن أحدهم ربما رام أن يصلى الفرض فيصلى الصلوة الواحدة مرتين أو مرتاً ولا يستثنى عدد ركعاتها وسجاداتها ، وغفر مثل ذلك بجذب العبد عن الأسباب الموجبة له .

السابع : هفوات اللسان : أى الزلل الحاصل من قبله . ومادّته أيضاً خاطر شيطاني ، وغفره بتوفيقه مقاومة هواه .

و أعلم أنّ الشيعة لما أوجبوا عصمتهم بتائلاً عن المعاصي حملوا طلبه مغفرة هذه الأمور على وجهين :

أحددهما : وهو الأدق أنّ طلبه لغفرانها إنّما هو على تقدير وقوعها منه فكأنّه قال : اللهم إن صدر عنّي شيء من هذه الأمور فاغفره لي ، وقد علمت أنه لا يلزم من صدق الشرطية صدق كلّ واحد من جزئها فلا يلزم من صدق كلامه صدور شيء منها حتى يحتاج إلى المغفرة .

الثاني : أنّهم حملوا ذلك على تأديب الناس وتعليمهم كيفية الاستغفار من الذنوب أو على التواضع والاعتراف بالعبودية وأنّ البشر في مظنة التقصير والإساءة ، وأمّا من لم يوجب عصمته فالأمر معه ظاهر . وبالله التوفيق .

٧٦ - قَمْزِ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّيْلَانِ

قاله بعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك ، من طريق علم النجوم .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَتَزَعْمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرْفَ عَنْهُ السُّوءِ ؟ وَمُخْوِفٌ
مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ ؟ فَنَّ صَدَقَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَبَ
الْقُرْآنَ، وَأَسْتَغْفِي عَنِ الْإِبْعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْحَبُوبِ وَدَفْعِ الْمُكْرُوهِ؛ وَتَبَغْنِي
فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيكَ الْحَمْدُ دُونَ رَبِّهِ؛ لِأَنَّكَ - بِزَعْمِكَ أَنْتَ -
هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ وَأَمْنَ الضُّرَّ !

شِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ السَّلَامَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ :

إِيَّاهَا النَّاسُ، إِيَّاهَا كُمْ وَتَعْلَمُ النَّجُومِ، إِلَّا مَا يُهْتَدِيَ بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا
تَدْعُ إِلَى الْكَهَانَةِ، وَالْمَنْجَمِ كَالْكَاهِنِ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ وَالسَّاحِرِ
كَالْكَافِرِ؛ وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ، سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ ..

أقول : حاقد به : أحاط . ويوليه كذا : يعطيه إياته و يجعله أولى به .
وروى أنَّ المشير عليه بذلك كان عفيف بن قيس أخا لأشعت بن قيس وكان يتعاطى

علم النجوم .

واعلم أنَّ الَّذِي يَلْوَحُ مِنْ سَرِّ نَبِيِّ الْحِكْمَةِ النَّبُوَيَّةِ عَنْ تَعْلُمِ النَّجُومِ أَمْرٌ انْ :

أَحَدُهَا : اشْتِغَالُ مُتَلَّمِّهَا بِهَا ، وَاعْتِمَادُ كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ السَّاعِدِينَ لِأَحْكَامِهَا فِيمَا يَرْجُونَ وَيَخَافُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يَسْنَدُهُ إِلَى الْكَوَافِكَ وَالْأَوْقَاتِ ، وَالاشْتِغَالُ بِالْفَرْزِ إِلَيْهِ وَإِلَى مَلَاحِظَةِ الْكَوَافِكَ عَنِ الْفَرْزِ إِلَى اللَّهِ وَالْغَفْلَةُ عَنِ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ فِيمَا يَمْهِمُ مِنَ الْأَحْوَالِ .

وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ يَضَادُ مَطْلَوبَ الشَّارِعِ إِذَا كَانَ غَرْضُهُ لَيْسَ إِلَّا دَوْمَ الْتَّفَاتِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ وَتَذَكِّرُهُمْ مَعْبُودُهُمْ بِدَوْمِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ .

الثَّانِي : أَنَّ الْأَحْكَامَ النَّجُومِيَّةَ إِخْبَارَاتٌ عَنْ أُمُورٍ سِكُونِ وَهِيَ تُشَبِّهُ الْأَطْلَاعَ عَلَى الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ . وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ مِنَ الْعَوَامِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانَ لَا يَتَمَيَّزُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِلْمِ الْغَيْبِ وَإِلَى إِخْبَارِهِ . فَكَانَ تَعْلُمُ تَلْكَ الْأَحْكَامُ وَالْحُكْمُ بِهَا سَبَباً لِضَلَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ مَوْهِنًا لِاعْتِقَادِهِمْ فِي الْمَعْجزَاتِ إِذَا إِخْبَارُهُنَّا عَنِ الْكَائِنَاتِ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ فِي عَظَمَةِ بَارِئِهِمْ . وَيُسَلِّكُهُمْ فِي عُوْمَ صَدْقَ قَوْلِهِ تَعَالَى « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ وَعِنْهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ »^(١) وَقَوْلِهِ « إِنَّ اللَّهَ عِنْهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدَاءً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ »^(٢) فَالْمُنْجَمُ إِذَا حَكَمَ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ يَصِيبُ كَذَا فِي وَقْتٍ كَذَا فَقَدْ أَدَعَنِي أَنَّ نَفْسَهُ تَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ غَدَاءً وَبِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . وَذَلِكَ عِنْ تَكْذِيبِ لِلْقُرْآنِ ، وَكَانَ هَذِينِ الْوَجْهَيْنِ هَمَا الْمُقْتَضَيَانِ لِتَحْرِيمِ الْكَهْبَانَةِ وَالسُّحُورِ وَالْعَزَىمِ وَنَحْوَهَا ، وَأَمَّا مَطَابِقَةِ لِسَانِ الشَّرِيعَةِ لِلْعُقْلِ فِي تَكْذِيبِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ فَيَبَانُهَا أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ أَمَّا مُتَكَلِّمُونَ فَإِمَّا مُعْتَرِلَةٌ أَوْ أَشْعُرِيَّةٌ .

أَمَّا الْمُعْتَرِلَةُ فَاعْتِمَادُهُمْ فِي تَكْذِيبِ الْمُنْجَمِ عَلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الشَّرِيعَةَ كَذَّبَتْهُ . وَعِنْهُمْ أَنَّ كُلَّ حَكْمٍ شَرِعيٍّ فَيُشَتَّمِلُ عَلَى وَجْهٍ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ عِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ ، وَالثَّانِي مَنَاقِشَتْهُ فِي ضَبْطِهِ لَا سَبَابٌ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ مِنْ كُونِ أَوْفَسَادٍ .

وَأَمَّا الْأَشْعُرِيَّةُ فَهُمْ وَإِنْ قَالُوا : إِنَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَزَعَمُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ خَلَصُوا بِذَلِكَ مِنْ إِسْنَادِ التَّأْثِيرَاتِ إِلَى الْكَوَافِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا مَانِعٌ عَلَى مَذَهَبِهِمْ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ

تعالى اتصال نجم بنجم أو حر كته عالمه على كون كاين أوفساده وذلك مما لا يبطل على منجم قاعدة . فيرجعون أيضاً إلى بيان عدم إحاطته بأسباب كون ما أخبر عنه . ومناقشته في ذلك .

وأما الحكماء فاعلم أنه قد ثبت في أصولهم أن كل كائن فاسد في هذا العالم فلا بد لهم من أسباب أربعة : فاعلي ، ومادي ، وصوري ، وغائي : أما السبب الفاعلي القريب فالحركات السماوية والذى هو أسبق منها فالمحر كلها إلى أن ينتهي إلى الجود الإلهي المعطى لكل قابل ما يستحقه ، وأما سببه المادى فهو القابل لصورته وتنبئه القوابل إلى القابل الأول وهو مادة العناصر المشتركة بينها ، وأما الصورى فصورتها التي يقبلها مادته ، وأما الغائي فهي التي لا جلها وجد . أما الحركات السماوية فإن من الكائنات ما يحتاج في كونه إلى دورة واحدة للفلك ، ومنها ما يحتاج إلى جملة من أدواره واتصالاته . وأما القوابل للكائنات فقد تقر رعندهم أيضاً قبولها لكل كاين معين مشروط باستعداد معين له وذلك الاستعداد يكون بحصول صورة سابقة عليه وهكذا قبل كل صورة صورة معدة لحصول الصورة بعدها وكل صورة منها أيضاً تستند إلى الاتصالات والحركات الفلكية ، ولكل استعداد معين زمان معين وحر كة معينة واتصال معين يخصه لا يفي بدر كها القوة البشرية .

إذا عرفت ذلك فقول : الأحكام النجومية إنما أن تكون جزئية و إنما كافية . إنما الجزئية فإن يحكم مثلاً بأن هذا الإنسان يكون من حاله كذا وكذا ، و ظاهرأن مثل هذا الحكم لا سبيل إلى معرفته إذ العلم به إنما هو من جهة أسبابه إنما الفاعلية فإن يعلم أن الدورة المعينة والاتصال المعين سبب ملك هذا الرجل البلد المعين مثلاً وأنه لا سبب فاعلي لذلك إلا هو ، والأول باطل لجواز أن يكون السبب غير ذلك الاتصال أو هو مع غيره . أقصى ما في الباب أن يقال : إنما كانت هذه الدورة وهذه الاتصال سببا لهذا الكاين لأنها كانت سببا مثلاً في الوقت الفلاني لكن هذا أيضاً باطل لأن كونها سببا للكاين السابق لا يجب أن يكون لكونها مطلق دورة و اتصال بل لعله أن يكون لخصوصية كونه تلك المعينة التي لا تعود بعينها فيما بعد ، و حينئذ لا يمكن الاستدلال بحصولها على كون هذا الكاين لأن المؤثرات المختلفة لا يجب تشابه آثارها ، والثانى

أيضاً باطل لأنَّ العقل يجزم بأنه لا اطلاع له على أنه لا يقتضي لذلك الكائن من الأسباب الفاعلة إلا الاتصال المعين. كيف وقد ثبت أنَّ من الكائنات ما ينافي إلى أكثر من اتصال واحد ودورة واحدة أو أقلَّ، وأما القابلية فإنَّ يعلم أنَّ المادة قد استعدت لقبول مثل هذا الكائن و استجمعت جميع شرائط قبوله الزمانية والمكانية والسماوية والأرضية. و ظاهر أنَّ الإحاطة بذلك مما لا يفي به القوة البشرية، وأما الصورية والغاية فإنَّ يعلم ما يقتضيه استعداد مادة ذلك المعين و قبولها من الصورة وما يستلزمها من الشكل و المقدار، وأنَّ يعلم ما غاية وجوده وما أعدَّته العناية له، و ظاهر أنَّ الإحاطة بذلك غير ممكنة للإنسان. وأما أحکامهم الكلية فكأنَّ يقال كلَّما حصلت الدورة الفلسفية كان كذا. و المنجم إنما يحكم بذلك الحكم من جزئيات من الدورات تشابه آثارها فظننها متكررة و لذلك يعد لون إذا حقق القول عليهم إلى دعوى التجربة، وقد علمنا أنَّ التجربة تعود إلى تكرر مشاهدات يضبطها الحس. والعقل يحصل منها حكمًا كليًا كحكمه بأنَّ كلَّ نارحرقة فإنه لما أمكن العقل استبعاد الإحراق بواسطة الحس أمكنه الجزم الكلّي بذلك. فأما التشكّلات الفلكية والاتصالات الكوكبية المقضية لكون ما يكون فليس شيء منها يعود بعينه كما علمت و إنْ جاز أن يكون تشكّلات و عودات متقاربة الأحوال و متشابهة إلا أنه لا يمكن للإنسان ضبطها ولا الاطلاع على مقدار ما بينها من المشابهة و التفاوت، و ذلك أنَّ حساب المنجم مبني على قسمة الزمان بالشهور و الأيام و الساعات و الدرج و الدقائق و أجزاءها، و تفسيم الحركة بإجزاءها و رفعهم بينهما نسبة عدديّة وكلَّ هذه أمور غير حقيقة وإنما تؤخذ على سبيل التقرير. أقصى ما في الباب أنَّ التفاوت فيها لا يظهر في المدد المتقاربة لكنه يشبه أن يظهر في المدد المتباعدة، و مع ظهور التفاوت في الأسباب كيف يمكن دعوى التجربة و الحصول على العلم الكلّي الثابت الذي لا يتغير باستمرار أثرها على وتيرة واحدة. ثمَّ لو سلمنا أنه لا يظهر تفاوت أصلاً إلا أنَّ العلم بعد مثل الدورة لا يقتضي بمجرد العلم بعده مثل الأثر السابق لتوقف العلم بذلك على عود أمثل الباقية للأثر السابق من الاستعداد و سائر أسبابه العلوية والسفلى، وعلى ضبطها فإنَّ العلم التجاري إنما يحصل

بعد حصرها لعلم عودها و تكرّرها و كلّ ذلك مما لا سبيل للقوة البشرية إلى ضبطه فكيف يمكن دعوى التجربة . إذا عرفت ذلك فنقول :
قوله : أَنزَعْتُمْ إِلَيْهِ قَوْلَهُ : الضرّ .

استثنات ملائكة العادة أن يدعى بهم الأحكاميون كما أدعاه المنجم المثير بعدم المسير في ذلك الوقت .

وقوله : فمن صدقك [صدقك] بهذا إلى قوله : الضر .

الإزمات له على ما يعتقد عن نفرتها عن قبول أحكام المنجم والاعتقاد فيه .

أولها : أنّ من صدقه فقد كذب القرآن ، و وجه التكذيب ما ذكرناه .

الثاني : كون مصدقه يستقى عن الاستعانة بالله في نيل محبوبه و رفع مكروره : أى يفرز إليه في كلّ أمر لهم به و يجعلهم عمدة له فيعرض عن الفزع إلى الله كما سبق .

الثالث : أنه ينبغي للعامل أن يولي الحمد دون ربّه . و علل هذا الإلزام بقياس

ضمير من الشكل الأول . صورته : تزعم أباك تهدي إلى ساعة النفع والضر ، و كلّ من زعم ذلك فقد أهل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدقه دون الله . فينتج أنه قد أهل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدقه دون الله . والكبرى من المخاللات ، وقد يستعملها الخطيب للتغافل عن بعض الأمور التي يقصد النهي عنها .

و قوله : أيّها الناس . إلى قوله : بر أو بحر .

تحذير عن تعلّمها لما ذكرناه ، و استثنى من ذلك تعلّمها للاهتداء بها في السفر .

و أعلم أنّ الذي ذكرناه ليس إلا إيمان أنّ الأصول التي يبني عليها الأحكاميون وما يخبرون به في المستقبل أصول غير موثق بها فلا يجوز الاعتماد عليها في تلك الأحكام و الجزم بها . وهذا لا ينافي كون تلك القواعد ممهدة بالتقريب كقسمة الزمان و حرفة الفلك بالسنة والشهر واليوم مأخذها عنها حساب يبني عليه مصالح دينية كمعرفة أوقات العبادات كالصوم والحجّ ونحوهما أودينوية كآجال المدابين وسائر المعاملات و كمعرفة الفصول الأربع ليعمل في كلّ منها ما يليق به من الحراثة و السفر و أسباب المعاش ، و كذلك معرفة قوانين تقربيّة من أوضاع الكواكب وحركاتها يهتمّي بقصدها وعلى

سمتها المسافرون في بـ "أو بحر فإن" ذلك القدر منها غير محرّم بل لعلّه من الأمور المستحبة لخلوّ المصالح المذكورة فيهنّ عن وجوه المفاسد التي تشتمل عليها الأحكام كما سبق . ولذلك أمن الله سبحانه على عباده بخلق الكواكب في قوله «وهو الذي جعل لكم النجوم لتتبدوا بها في ظلمات البر» و «البحر»^(١) و قوله «تعلموا عدد السنين والحساب»^(٢) .
وقوله : فإنها . إلى آخره .

تعليق للتحذير عن تعلمها وتنفي عنها بقياس آخر موصول يستتبع منه أن "المنجوم في النار . وعلى تقديره تفصيله فالنتيجة الأولى كون المنجوم كالساحر وهي مع قوله : والساحر كالفاجر . وهذه النتيجة مع قوله : والكافر في النار ينتهي المطلوب ، وهو أن "المنجوم في النار ، والقياسان الأولان من قياس المساواة . وقد علمت أنه عسر الانحال إلى العدد المرتبة في القياس المنتج لأنّ موضوع الكبري جزء من محو الصغرى فليس الأوسط بمشترك فهو معدل عن وجهه إلى وقوع الشركة في بعض الأوسط . ولذلك يستحق أن يفرد باسم ويجعل لتحليله قانون يرجع إليه في أمثاله . وقد سبق مثله في الخطبة الأولى . وإذا حل على القياس الصحيح كان تقديره المنجوم يشبه الكاهن المشبه للساحر ومشبه الكاهن المشبه للساحر فينتيج أن "المنجوم يشبه الساحر ، وهكذا في القياس الثاني المنجوم يشبه الساحر المشبه للكافر ومشبه الساحر المشبه للكافر يشبه الكافر فالمنجوم يشبه الكافر والكافر في النار فالمنجوم كذلك وهو القياس الثالث و نتيجته . فاما بيان معنى الكاهن والساحر والإشارة إلى وجوه التشبيهات المذكورة :

فاعلم أننا قد أشرنا في المقدمة إلى مكان وجود نفس تقوى على اطلاع ما سيكون وعلى التصرفات العجيبة في هذا العالم فتلك النفس إن كانت كاملة خيرة مجذوبة من الله تعالى بدعوى السلوك إلى سبيله وما يقود إلى فهى نفوس الأنبياء والأولياء ذوى المعجزات والكرامات ، وإن كانت ناقصة شريرة منجدية عن تلك الجهة وغير طالبة لتلك المعرفة بل مقتصرة على رذائل الأخلاق وخصائص الأمور كالتكهن ونحوه فهى نفوس الكهنة والسوقة . وأعلم أن أكثر ما تظهر قوّة الكهانة ونحوها من قوى النفوس في أوقات الأنبياء

و قبل ظهورهم . وذلك أن "الفلك إذا أخذني التشكّل بشكل يتمّ به في العالم حدث عظيم عرض من ابتداء ذلك الشكل و غايته أحداث في الأرض شبيهة بما يريدان يتمّ ولكنها تكون غير تامة فإذا استكمل ذلك الشكل في ذلك و تمّ وجد به في العالم ما يقتضيه في أسرع زمان لسرعة تبدل أشكال الفلك فتظهر تلك القوة التي يوجها ذلك الشكل في شخص واحد أو شخصين أو أكثر على حسب ما يقتضيه العناية الإلهية ويستوعب ذلك الشخص تلك القوة على الكمال . فاما من قرب من ذلك الشكل ولم يستوفه فإنه يكون ناقص القوة بحسب بعده من الشكل . ويظهر ذلك النقصان بظهور النبوة المقصودة من ذلك الشكل .

فتبيّن قصور القوى المتقدمة على النبي والمتاخرة عنه و نقصانهما عن ذلك التمام .

فاما صفة الكاهن من أصحاب تلك القوى فإنّ صاحب قوّة الكهانة إذا أحسن بها من نفسه تحرّك إليها بإرادة ليكملاها فيبرزها في أمور حسية ويشيرها في علامات تجري فيجرى الفال والزجر وطرق الحصى ، وربما استعان بالكلام الذي فيه سجع وموازنة أو بحر كة غنية من عدو حيث كما حكى عن كاهن من الترك ، وكما نقل إلى من شاهد كاهناً كان في زماننا و توفى منذ عشرين سنة يكنى بأبي عمرو كان بناحية من ساحل البحر يقال لها قليبات ، وإنّه كان إذا سُئل عن أمر استعان بتحرّك رأسه تحرّكأياً يقوى ويفضع بحسب الحاجة وأجاب عقيب ذلك ، وقيل إنه كان قد يستغنى في بعض الأخبار عن تلك الحرّكة . والغرض من ذلك اشتغال النفس عن المحسوسات فتدخل نفس هو يقوى فيها ذلك الآخر و يهبس في نفسه عن تلك الحرّكة ما تقذفه على لسانه ، وربما صدق الكاهن ، وربما كذب . وذلك أنه يتمسّ نقصه بأمر مباين لكماله غير داخل فيه فيعرض له الكذب ويكون غير موثوق به ، وربما تعمد الكذب خوفاً من كсад بضاعته فيستعمل الزرق ويخبر بما لا أثر له في نفسه ويضطر إلى التخمين . و درجات هؤلاء متفاوتة بحسب قرائهم من الأفق الإنساني وبعدهم منه وبقدر قبولهم للأثر العلوي . و يتميّزون عن الأنبياء بالكذب وما يدعونه من المحالات فإن اتفق أن يلزم أحدهم الصدق فإنه لا يتجاوز قدره في قوله ويبادر إلى التصديق بأول أمر يلوح من النبي والمثلثة ويعرف فضله كما روى عن طلحه و سوادين قارب و نحوهما من الكهنة في زمان الرسول والمثلثة .

إذا عرفت ذلك فقوله : أما قوله : فإنها تدعوا إلى الكهانة .

أى أنها تدعوا المنجم في آخر أمره إلى أن يصيّر نفسه كالكافر في دعوى الإخبار عمما سيكون ، ثم أكد كونها داعية إلى التمكين بتشبيهه بالكافر .

وأعلم أن الكاهن يتميّز عن المنجم بكون ما يخبر به من الأمور الظاهرة إثماه عن قوّة نفسيّة له ، وظاهر أن ذلك أدعى إلى فساد أذهان الخلق وإغوائهم لزيادة اعتمادهم فيه على المنجم ، وأما الساحر فيتميّز عن الكائن بأنّ له قوّة على التأثير في أمر خارج عن بيته آثاراً خارجة عن الشريعة موزية للخلق كالتفرق بين الزوجين ونحوه وتلك زيادة شرّ آخر على الكاهن أدعى إلى فساد أذهان الناس وزيادة اعتمادهم فيه وانفعالهم عنه خوفاً ورغبة ، وأما الكافر فيتميّز عن الساحر بالبعد الأكبر عن الله تعالى وعن دينه وإن شارك في أصل الإنحراف عن سبيل الله . وحينئذ صار الفلال والفساد في الأرض مشتركاً بين الأربعه لأنّه مقول عليهم بالأشد والأضعف فالكافر أقوى في ذلك من المنجم ، والساخر أقوى من الكاهن ، والكافر أقوى من الساحر . ولذلك التفاوت جعل الكافر الكاهن أصلاً في التشبيه للمنجم لزيادة فساده عليه ثم الحقه به ، وجعل الساحر أصلاً للكافر ، والكافر أصلاً للساخر . لأنّ التشبيه يستدعي كون المشبه به أقوى في الوصف الذي فيه التشبيه وأحق به . وقد لاح من ذلك أن وجه الشبه في الكل هو ما يشتهر كون فيه من العدول والإنحراف عن طريق الله بالتجيم والكهانة والسحر والكافر وما بلزمه من ذلك من صدّ كثير من الخلق عن سبيل الله وإن اختلف جهات هذا العدول بالشدة والضعف كما بيناه .

ولما فرغ الكافر من تنفيذ أصحابه عن تعلم النجوم وقبول حكمائها وغسل أذهانهم من ذلك بالتخويف المذكور أمرهم بالمسير إلى الحرب . وروي : أنه سار في تلك الساعة إلى الخوارج وكان منه ما علمت من الظفر بهم وقتلهم حتى لم يفلت منهم غير تسعة نفر ، ولم يهلك من رجاله غير ثمانية نفر كما سبق بيانه ، وذلك يستلزم خطأ ذلك المنجم وتكذيبه في مقاله . وبالله التوفيق .

٧٧ — فِي نَجْعَلُهُ عَلَيْنَا الْتَّبَلَّدَ

بعد حرب الجمل ، في ذم النساء

مَعَاشِ النَّاسِ ، إِنَّ النِّسَاءَ نَوَّاقِصَ الْإِيمَانَ ، نَوَّاقِصَ الْحَفْظَةَ ، نَوَّاقِصُ
الْعُقُولَ : فَامَّا نُقَصَّانُ إِيمَانَهُنَّ فَقَوْدُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ فِي أَيَّامِ حِيْضَرَهُنَّ
وَامَّا نُقَصَّانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَاتِهِنَّ كَشَاهَادَةُ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ ، وَامَّا نُقَصَّانُ
حُظُولِهِنَّ فَوَارِثَهُنَّ عَلَى الْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ : فَاتَّقُوا شَرَارَ النِّسَاءِ ،
وَكُونُوا مِنْ خَيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرِهِنَّ ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعُنَّ
فِي الْمُنْكَرِ .

أقول : لما كانت واقعة الجمل وما شتملت عليه من هلاك جمع عظيم من المسلمين منسوباً إلى رأي امرأة أراد أن يتبه على وجوه نقصان النساء وأسبابه فذكر نقصانهن من وجوه ثلاثة : أحدها : كونهن نواقص الإيمان ، وأشار إلى جهة النقص فيه ببعود إحديهن عن الصلاة والصوم أيام الحيض ، و لما كان الصوم والصلاحة من كمال الإيمان و متممات الرياضة كان قعودهن عن الارتكاب بالصوم والصلاحة في تلك الأيام نقصاناً لا يمانهن ، وإنما رفعت الشريعة التكليف عنهن بالعبادتين المذكورتين لكونهن في حال مستقدرة لا يتأهل صاحبها للوقوف بين يدي الملك العظيم ، وبعقل للصوم وجه آخر وهو أنه يزيد الحائض إلى ضعفها ضعفاً بخروج الدم . وأسرار الشريعة أدق وأجل لأن يطلع عليها عقول سائر الخلق .

الثاني : كونهن نواقص حظ ، وأشار إلى جهة نقصانه بأن ميراثهن على النصف من ميراث الرجال كما قال تعالى « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ

الاثنين^(١) والذى يلوح من سر ذلك كثرة المؤونة على الرجل وهو أهل التصرف وكون المرأة من شأنها أن تكون مكافولة محتاجة إلى قسم هولها كالخادم.

الثالث : كونهن ناقص عقول . ولذلك سبب من داخل وهو نقصان استعداد أمزجتنهن ، وقصورهن عن قبول تصرف العقل كما يقبله مزاج الرجل كما نبه تعالى عليه بقوله « فرجل وأمرأتان متمن ترضون من الشهداء أن تضل إحديهما فتذكرا » إحديهما الأخرى^(٢) فإنه نسبه على ضعف القوة الذاكرة فيهن ، ولذلك جعل شهادة أمرأتين بشهادة رجل واحد ، وله أيضاً سبب عارض من خارج وهو قلة معاشرتهن لأهل العقل والتصرفات وقلة رياضتهن لقواهن الحيوانية بلزوم القوانين العقلية في تدبير أمر المعاش والمعاد ولذلك كانت أحكام القوى الحيوانية فيهن أغلب على أحكام عقولهن فكانت المرأة أرق وأبكي وأحسد وألجم وأبغى وأجزع وأوقع وأكذب وأمكر وأقبل للمركر وأذكر لمجرات الأمور وكلونها بهذه الصفة اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون عليها حاكم ومدبر تعيش بتدبيره وهو الرجل فقال تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم^(٣) ولشدة قبولها للمركر وقلة طاعتها للعقل مع كونها مشتركة وداعية إلى نفسها افتضت أيضاً أن يسن في حقها التستر والتخدّر .

وقوله : فاتقوا شرار النساء وكُنُونا من خيارهن على حذر .

لتابنه على جهة نقصانهن ، وقد علمت أن النقضان يستلزم الشر لاجرم نفرعنهن فامر أو لا بالخشية من شارهن وهو يستلزم الأمر بالهرب منها عدم مقاربتهم فاما خيارهن فإنه أمر بالكون منها على حذر . ويفهم من ذلك أنه لابد من مقاربتهم ، وكان الإنسان إنما يختار مقاربة الخيرة منها فينبغي أن يكون معها على تحرّز وتنبّت في سياستها وسياسة نفسه معها إذ لم تكن الخيرة منها خيرة إلا بالقياس إلى الشريعة . ثم نهى عن طاعتهم بالمعروف كيلا يطعن في المنكر ، وأشار به إلى طاعتهم فيما يشنن بدوياً مطلبًا وإن كان معروفاً صواباً ، وفيما يطلبنه من زيادة المعروف والإحسان إليهن وإكرامهن بالزينة وتحوها فإن طاعة أمرائهم فيما يشرون من معروف تدعوهن

(١) ٤ - ٢ (٢) ٢٨٢ - ٤ (٣)

إلى الشور بما لا ينبغي ، والسلط على الأمر به فإن فعل فليفعل لأنـه معروف لا لأنـه مقتضى رأـيـهـن . وزيادة إـكرـامـهـنـ من مقوـيات دواعـي الشـهـوةـ والـشـرـ فيـهـنـ حتىـ يـتـهـيـ بـهـنـ الطـمعـ إـلـىـ الـاقـرـاحـ وـطـلـبـ الـخـروـجـ إـلـىـ الـمـوـاـضـعـ الـتـيـ يـرـىـ فـيـهـاـ زـيـنـتـهـنـ وـنـحـوـ ذـلـكـ إـذـ العـقـلـ مـغـلـوبـ فـيـهـنـ بـدـوـاعـيـ الشـهـوـاتـ . وـفـيـ الـمـثـلـ الـمـشـهـورـ: لـاتـعـطـ عـبـدـكـ كـرـاءـاـ فـيـأـخـذـ ذـرـاعـاـ . وـرـوـيـ: أـنـ رـسـوـلـ الـحـلـقـةـ كـانـ يـخـطـبـ يـوـمـ عـيـدـ فـالـتـفـتـ إـلـىـ صـفـوـفـ النـسـاءـ فـقـالـ: مـعـاـشـ النـسـاءـ تـصـدـقـنـ فـيـنـيـ رـأـيـتـكـنـ أـكـثـرـ أـهـلـ النـارـ عـدـدـاـ . فـقـالـتـ وـاحـدـةـ مـنـهـنـ: وـلـمـ يـارـسـوـلـ اللهـ؟ فـقـالـ وـالـلـهـ كـلـاـ: لـأـنـكـنـ تـكـثـرـ اللـعـنـ، وـتـكـفـرـ الـعـشـيرـ، وـتـمـكـثـ إـحـديـكـنـ شـطـرـ عـرـبـاـ لـاتـصـومـ وـلـاتـصـلـ .

٧٨ - وَمِنْ كُلِّ أَمْلَهُ عَلَيْهِ الْمُسْتَأْنِدُونَ

أـيـهـاـ النـاسـ . الرـهـادـهـ قـصـرـ الـأـمـلـ ، وـالـشـكـرـ عـنـدـ النـعـمـ ، وـالـوـرـعـ عـنـدـ الـمـحـارـمـ فـيـانـ عـزـبـ ذـلـكـ عـنـكـمـ فـلـاـ يـغـلـبـ الـحـرـامـ صـبـرـكـ ، وـلـاـ تـنـسـوـاـ عـنـدـ النـعـمـ شـكـرـكـمـ فـقـدـ أـعـذـرـ اللهـ إـلـيـكـمـ بـحـجـجـ مـسـفـرـةـ ظـاهـرـةـ ، وـكـتـبـ بـارـزـةـ الـعـذـرـ وـاضـحـةـ .

أـقـولـ: عـزـبـ: ذـهـبـ وـبـعـدـ . وـأـعـذـرـ: أـظـهـرـ عـذـرـهـ . وـمـسـفـرـةـ: مـشـرـفةـ . وـأـعـلـمـ أـنـ قـوـلـهـ: أـيـهـاـ النـاسـ . إـلـىـ قـوـلـهـ: عـنـدـ الـمـحـارـمـ . تـفـسـيرـ لـلـزـهـدـ ، وـقـدـ رـسـمـهـ بـشـلـاثـةـ لـواـزـمـ لـهـ:

الـأـوـلـ: قـصـورـ الـأـمـلـ . وـمـلـأـ عـلـمـتـ فـيـمـاـ سـلـفـ أـنـ الزـهـدـ هوـ إـعـرـاضـ النـفـسـ عـنـ مـنـاعـ الدـنـيـاـ وـطـيـبـاتـهـ وـقـطـعـ الـالـتـفـاتـ إـلـىـ مـاـ سـوـيـ اللهـ تـعـالـىـ ظـهـرـ أـنـ ذـلـكـ الـإـعـرـاضـ مـسـتـلـزـمـ لـقـصـرـ الـأـمـلـ فـيـ الدـنـيـاـ إـذـ كـانـ الـأـمـلـ إـنـمـاـ يـتـوـجـهـ نـحـوـ مـأـمـولـ، وـالـمـتـلـفـ إـلـىـ اللهـ مـنـ الدـنـيـاـ كـيـفـ يـتـصـوـرـ طـوـلـ أـمـلـهـ لـشـيـءـ مـنـهـ .

الـثـانـيـ: الشـكـرـ عـلـىـ النـعـمـةـ . وـذـلـكـ أـنـ الـعـبـدـ بـقـدـرـ التـفـاتـهـ عـنـ إـعـرـاضـ الدـنـيـاـ يـكـونـ

محبته لله وإقباله عليه واعترافه بالآية، وذلك أن "الشك حال للقلب يشمرها العلم بالمشكور وهو في حق" الله أن يعلم أنه لامنעם سواه، وأن كل منعم يقال في العرف فهو واسطة مسخرة من نعمته. وتلك الحال تثمر العمل بالجوارح.

الثالث: الورع وهو لزوم الأعمال الجميلة والوقوف على حدود عن التورط في محارمه وهو ملكة تحت العفة، وقد علمت أن الوقوف على التورط في المحارم ولزوم الأعمال الجميلة لازمة لالتفاتات عن محابي الدنيا ولذاتها المنهى عن الميل إليها. وهذا التفسير منه على تلقيه مستلزم للأمر به.

وقوله: بعد ذلك: فإن عزب عنكم. إلى آخره يحمل معنيين: أحدهما: وهو الظاهر أنه إن بعد عليكم وشق استجماع هذه الأمور الثلاثة فالزموا منها الورع والشك. وكأنه رخص لهم في طول الأمل، وذلك أنه قد يتصور طوله فيما ينبغي من عمارة الأرض لغرض الآخرة، ولأن قصر الأمل لا يصدر إلا عن غلبة الخوف من الله تعالى على القلب والإعراض بالكلية عن الدنيا وذلك في غاية الصعوبة فلذلك نبه على لزوم الشكر والورع ورخص في طول الأمل، وفسر الورع بالصبر إذ كان لازماً للورع، وهو ما تحت ملكة العفة، ثم شجّعهم بذكر الغلب عن مقاومة الهوى، ونبّههم بذكر النسيان على لزوم التذكرة.

الثاني: يحمل أن يكون مما فسر الزهد باللازم الثالث في معرض الأمر بلزومها قال بعدها: فإن صعب عليكم لزوم الشكر والثناء لله ولزوم الأعمال الجميلة فاعدولوا إلى أمور أسهل منها. فرخص لهم في طول الأمل لما ذكرناه، ثم في التذكرة لنعم الله بحيث لا ينسى بالكلية ويلتفت عنها عوضاً عن دوام الحمد والثناء، ثم لنعم الله عند المحارم وعند الانقمار لغلبة دواعي الشيطان عوضاً من لزوم الأعمال الجميلة عندها فإن الصبر عند شرب الخمر مثلاً عند حضورها أهون على الطبع من الصوم عن سائر المباحثات حينئذ ولزوم سائر الأعمال الجميلة.

وقوله: فقد أعدد . إلى آخره .

تأكيد لما سبق من أمره بالزهد، وجذب إليه. وأشار بالحجج إلى الرسل لقوله تعالى

«رسلاً مُبَشِّرين وَمُنذِّرين لِئَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ»^(١) وَلِفَظِ الْحِجَّةِ
مُسْتَعْلَمٌ، وَوَجْهُ الْمُشَابِهَةِ أَنَّهُ مُلْتَأِيًّا كَانَ ظَهُورُ الرَّسُولِ قَاطِعاً أَلْسِنَةَ حَالِ الظَّالِمِينَ لَا نُفْسِمُهُمْ فِي
مُحْفَلِ الْقِيَامَةِ عَنْ أَنْ يَقُولُوا «رَبِّنَا وَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَّلَ
وَنَخْزِي»^(٢) أَشْبَهُ الْحِجَّةِ الْقَاطِعَةَ فَاسْتَعِيرُ لِفَظَاهَا لَهُ، وَبِإِسْفَارِهَا وَظَهُورِهَا إِلَى إِشْرَاقِ أَنوارِ
الَّذِينَ عَنْ نُفْسِمِهِمُ الْكَاملَةَ عَلَى نُفُوسِ النَّاقِصِينَ وَهُوَ اسْتِعْلَامٌ أَيْضًا، وَأَشَارَ بِبَرْزَةِ عَذْرِ الْكِتَابِ
إِلَى ظَهُورِهَا أَعْذَارًا لِهِ إِلَى خَلْقِهِ بِتَخْوِيفِهِمْ وَتَرْغِيبِهِمْ وَإِرْشادِهِمْ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاهَةِ، وَإِسْنَادِ
الْأَعْذَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى اسْتِعْلَامَةً مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُخْصُوصَةِ الَّتِي يَبْدِيهَا إِلَى إِنْسَانٍ عَذْرًا لَا فَعَالًا
لِهُ وَأَقْوَالِهِ الَّتِي عَرَفَ خَلْقَهُ فِيهَا صَلَاحَهُمْ وَأَشْعَرَهُمْ فِيهَا بِلِزُومِ الْعِقَابِ لَهُمْ لَوْلَمْ يَلْتَقِيُوهَا
إِلَيْهَا . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

٧٩ - قَمِنْ كَلَامِنَةِ عَلَيْنِي زَسْتَلَافِنَ

في صفة الدنيا

مَا أَصْفُ مِنْ دَارَ أَوْلَاهَا عَنَّهُ، وَآخِرُهَا فَتَاءُ، فِي حَلَالِهَا حَسَابٌ، وَفِي
حَرَامِهَا عَقَابٌ، مَنْ أَسْتَغْنَى فِيهَا فُتَنَ، وَمَنْ أَفْقَرَ فِيهَا حَزَنَ، وَمَنْ سَاعَاهَا
فَاتَّهُ ، وَمَنْ قَدَّ عَنْهَا وَاتَّهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ بَهَا بَصْرَتَهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ
إِلَيْهَا أَعْمَهَهُ .

قال الشري夫 : أقول : وإذا تأمل المتأمل قوله عليه السلام « من أبصر بها
بصره » وجد تحته من المعنى العجيب والغرض بعيد مالا تبلغ غايته ولا
يدرك غوره ، ولا سيما إذا قرن إليه قوله « ومن أبصر إليها أعممه » ، فإنه يجد
الفرق بين « أبصر بها » و « أنصر إليها » واضحاً نيراً ويعيناً باهراً
أقول : العناء : التعب ، وقد ذكر للدنيا في معرض ذمها والتغفير عنها أوصاف عشرة :
الأول : كون أولها عناء . وهو إشارة إلى أن الإنسان من لدن ولادته في تعب

وشقاء، ويكتفى في الإشارة إلى متابعته الإنسان فيما ذكره الحكم بروزه في صدر كتاب كليلة ودمنة في معرض تطويق نفسه بالصبر على عيش الناسك: أوليست الدنيا كلها أذى وبلاء؟ أوليس الإنسان يتقلب في ذلك من حين يكون جنيناً إلى أن يستوفي أيامه؟ فما نحن قد وجدنا في كتب الطب "أن" الماء الذي يقدر منه الولد السوى إذا وقع في رحم المرأة اختلط بها ودمها وغفل ثم الريح تمتص ذلك الماء والدم حتى تتركه كالرائب الغليظ ثم تقسمه في أعضائه لآباء أيامه فإن كان ذكراً فوجهه قبل ظهر أمّه وإن كان اثني فوجهها قبل بطن أمّها، وذفنه على ركبتيه ويداه على جنبيه مقبض في المشيمة كأنه مصروف، ويتنفس من مت نفس شاق، وليس منه عضو إلا كأنه مقموط، فوقه حر البطن وتحته ما تحته، وهو منوط بمعاء من سرتته إلى سرة أمّه منها يمتص ويعيش من طعام أمّه وشرابها فهو بهذه الحالة في الغم والظلمات والضيق حتى إذا كان يوم ولادته سلط الله الريح على بطن أمّه وقوى عليه التحرير فتصوب رأسه قبل المخرج فيجد من ضيق المخرج وعصره ما يجده صاحب الرهق [الرمق خ] فإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو مستشه يد وجد من ذلك من الألم مالم يجده من سلط جلده ثم هو في ألوان من العذاب إن جاع فليس له استطاع، وإن عطش فليس له استقاء، أو وجع فليس له استغاثة مع ما يلقى من الرفع والوضع واللف والحل والدهن والمرخ، إذا أنيم على ظهره لم يستطع تقلباً، فلا يزال في أصناف هذا العذاب مadam رضيعاً. فإذا أفلت من ذلك أخذ بعذاب الأدب فاذيق منه ألواناً، وفي الحمية والأدواء والأوجاع والأسقام . فإذا أدرك فهم آمال والأهل والولد والشره والحرص ومخاطرة الطلب والسعى . وكل هذا يتقلب معه فيها أعداؤه الأربع: المرأة والبلغ والدم والريح ، والسم المميت والحيتان اللادغة مع وخوف السابع والناس وخوف البرد والحر ثم ألوان عذاب الهرم ملن بلغه.

الثاني: كون آخرها فناء . هو تنفيذه عنها بذكر غايتها وهو الموت وما يستصحبه من فراق الأهل والأحبة، والإشراف على أهوانه العظيمة المعضلة .

الثالث: كونها في حلالها حساب . وهو إشارة إلى ما يظهر في صحيفة الإنسان يوم القيمة من الآثار المكتوبة عليه مما ياخذ في من مباحثات الدنيا، وتوسيع فيه من المأكمل

والمسارب والمناكح و المراكب ، وما يظهر في لوح نفسه من محنة ذلك فيعوقه عن اللحوق بال مجرّدين عنها الذين لم يتصرّفوا فيها تصرّف الملائكة فلم يكتب عليه في شيء منها ما يحاسبون عليه . وإليه إشارة سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إن " الفقراء ليدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام ، وإن " فقراء أمّتى ليدخلون الجنة سعيًا ، وعبد الرحمن يدخلها حبًّا . وما ذاك إلّا لكثر حساب الأغنياء بتعويضهم بقليل ما حملوا من محنة الدنيا وقيمتها عن اللحوق بدرجة المخفين منها . وقد عرفت كيفية الحساب .

الرابع : كونها في حرامها عقاب . وهو تغير عما يوجب العقاب من الآثام بذكره .

الخامس : كونها من استغنى فيها فتن : أى كانت محنته لما اقتني فيها سبيلاً لفتنته وضلاله عن سبيل الله كما قال تعالى «إِنَّمَا أُمُوْرُكُمْ وَأُولَادُكُمْ فَتَنَّةٌ»^(١) .

السادس : كونها من افتقر فيها حزن . وظاهرأن" الفقير الطالب للدنيا غير الواحد لها في غاية المحنـة والحزن على ما يفوته منها ، وخاصة ما يفوته بعد حصوله له .

السابع : من ساعتها فاتهـه . وأقوى أسباب هذا الفوات أن" تحصيلها أكثر ما يكون بمنازعة أهلها عليها أو مجازتهم إياها ، وقد علمت ثوران الشهوة والغضب والحرص عند المجازبة للشيء وقوّة منع الإنسان له . وتجاذب الخلق للشيء وعزّته عندـهم سبب لتفويت بعضـهم له على بعض ، وفيه تنبيه على وجوب ترك الحرص عليها والإعراض عنها . إذ كان فواتـها اللازم عن شدة السعي في فضلـها مكرـوهاً للسامعين .

الثامن : كونـها من قعدـتها واتـتها . وهو أيضاً جذبـ إلى القعود عنها وتركـها وإنـ كانـ الغرضـ مواتـتها كما يفعلـه أهلـ الزهدـ الظاهـرى المشـوبـ بالـريـاءـ ، و قدـ علمـتـ أنـ الزـهدـ الـظـاهـرىـ مـطلـوبـ أـيـضاـ لـلـشارـعـ إـذـكانـ وـسـيـلـةـ إـلـىـ الزـهدـ الـحـقـيقـىـ" كماـ قالـ الرـسـولـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الـريـاءـ فـنـطـرـةـ الـإـخـالـصـ . وـقدـ رـاعـىـ فـيـ الـقـرـائـنـ السـجـعـ الـمـتوـازـىـ .

التاسع : من أـبـصـرـ بـهـ بـصـرـتـهـ : أـىـ منـ جـعـلـهـ سـبـبـ هـدـايـتـهـ وـبـصـرـهـ استـفـادـ منـهاـ الـبـصـرـ وـالـهـدـايـةـ ، وـذـلـكـ أـنـكـ عـلـمـتـ أـنـ مـقـصـودـ الـحـكـمـةـ الـإـلهـيـةـ منـ خـلـقـ هـذـاـ الـبـدـنـ وـماـ فـيـهـ مـنـ الـآـلـاتـ وـالـمـنـافـعـ إـنـمـاـ هوـ اـسـكـمـالـ نـفـسـهـ باـسـتـخـالـصـ الـعـلـومـ الـكـلـيـةـ وـفـضـاـيـلـ

الأخلاق من تصفح جزئيات الدنيا و مقاييس بعضها إلى بعض كالاستدلال بحوادثها و عجائب مخلوقات الله فيها على وجوده و حكمته وجوده ، و تحصيل الهدایة بها إلى أسرار ملکه فكانت سبباً مادياً لذلك فلأجله صدق أنها تبصر من أبصر بها .

العاشر : ومن أبصر إليها أعمته : أى من مد إلـيـاهـاـ بـصـيرـتـهـ ، وـتـطـلـعـ إـلـيـاهـاـ بـعـينـهـ قـلـبـهـ مـحـبـةـ وـعـشـقـاـ أـعـمـتـ عـيـنـهـ بـصـيرـتـهـ عنـ إـدـرـاكـ أـنـوـارـ اللـهـ وـ الـاهـتـاءـ لـكـيفـيـةـ سـلـوكـ سـيـلـهـ ، وإـلـيـهـ الإـشـارـةـ بـالـنـهـيـ فيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ «ـوـلـاـ تـمـدـنـ عـيـنـيـكـ إـلـىـ ماـ مـتـعـنـاـ بـهـ أـزـوـاجـاـ مـنـهـمـ زـهـرـةـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ لـنـفـقـتـهـ فـيـهـ»^(١) وقد ظهر الفرق بين قوله : من أبصر بها ، ومن أبصر إليها ، ومدح السيد لهذا الفصل مدح في موضعه .

وَمِنْ خُطْبَتِهِ عَلَيْهِ التَّسْلِيمُ

- ٨٠ -

وهي من الخطب العجيبة وتسمى الغراء .

اعلم أن في هذه الخطبة فضولا :

الفصل الأول قوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ ، وَدَنَّا بِطُولِهِ ، مَانَعَ كُلَّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ ،
وَكَافَشَ كُلَّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلَّ أَحَدَهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرْمِهِ ، وَسَوَابَغَ نَعْمَهِ ،
رَأَوْمَنَ بِهِ أَوْلَا بَادِيَا ، وَاسْتَهْدِيَهُ قَرِيبًا هَادِيَا ، وَأَسْتَعِنُهُ قَادِرًا قَاهِرًا ،
وَاتَّوَّ كُلَّ عَلَيْهِ كَافِيَا نَاصِرًا ، وَاشْهَدَ أَنْ مُحَمَّدا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَبْدَهُ
وَرَسُولَهُ ، أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ ، وَإِنْهَاءِ عُذْرَهُ ، وَتَقْدِيمِ نُذْرَهُ .

أقول : الحول : القوة . الطول : الفضل . و الملحمة : العطية . و الأزل : الشدة .

والنذر : النذارة .

وقد أثني على الله تعالى في هذا الفصل باعتبارات أربعة من نعمت جلاله :

الأول : كونه علياً ، و إذ ليس المراد به العلو المكاني لتقدسه تعالى عن الجسمية كما سبق فالمراد العلو المعقول له باعتبار كونه مبدء كل موجود و مرجعه فهو العلي المطلق الذي لأعلى منه في وجود و كمال رتبة و شرف كما سبق بيانه ، وما عرفت أن معنى الدنو إلى كل موجود صدر عن قدرته وقوته لاجرم جعل للحوque له مبدأ هو حوله.

الثاني : كونه دانيا بطله . وما عرفت أن معنى الدنو والقرب في حقه تعالى ليس مكانيا أيضاً كان اعتباراً تحدثه عقولنا له من قرب إفاضة نعمه على قواقلها وقربه من أبصار البصائر في صورة نعمة منها ولذلك جعل طوله مبدأ لدنوه .

الثالث : كونه مانح كل غنيمة وفضل .

الرابع : كونه كاشف كل عظيمة وأذل . هما إشارة إلى كل نعمة صدرت عنه على قواقلها فمبدؤها جوده ورجته سواء كانت وجودية بالصحة ومال وعقل وغيرها أو عدمية كدفع البأساء والضراء ، وإليه الإشارة بقوله «وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تتجازون ثم إذا كشف الضر عنكم»^(١) الآية ، قوله «أمن بجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء يجعلكم خلاه الأرض»^(٢) .

وقوله : أحمده . إلى قوله : نعمه .

تنبيه للسامعين على مبدء استحقاقه لاعتبار الحمد ، وهو كرمه . قال بعض الفضلاء : الكـرـيم هوـالـذـي إـذـا قـدـرـ عـفـا ، وـإـذـا وـعـدـ وـفـا ، وـإـذـا أـعـطـى زـادـ عـلـىـ مـنـتـهـيـ الرـجـاءـ وـلـمـ يـمـالـ كـمـ أـعـطـىـ وـلـاـ مـنـ أـعـطـىـ ، وـإـنـ رـفـعـ إـلـىـ غـيرـهـ حاجـةـ لـأـرـضـيـ ، وـإـذـا جـفـيـ عـاتـبـ وـمـاـسـتـقـصـيـ ، وـلـاـ يـسـيـعـ مـنـ لـازـبـهـ وـالـتـجـاـ وـيـغـنـيـهـ عـنـ الـوـسـائـلـ وـالـشـفـاعـاءـ . فـمـنـ اجـتـمـعـ لـهـ هـذـهـ الـاعـتـارـاتـ حـقـيقـةـ مـنـ غـيرـ تـكـلـفـهـ الـكـرـيمـ الـمـطـلـقـ . وـلـيـسـ ذـلـكـ إـلـاـ اللـهـ تـعـالـىـ . قـلـتـ : وـالـأـجـمـعـ الـأـمـنـ فـيـ رـسـمـ هـذـاـ الـاعـتـارـ يـعـودـ إـلـىـ فـيـضـانـ الـخـيـرـ عـنـهـ مـنـ غـيرـ بـخـلـ وـمـنـعـ وـ تـعـوـيقـ عـلـىـ كـلـ مـنـ يـقـدـرـ أـنـ يـقـبـلـ بـقـدـرـ مـاـيـقـبـلـ . وـعـوـاطـفـ كـرـمـهـ هـيـ نـعـمـهـ وـآـثـارـهـ الـخـيـرـيـةـ الـتـيـ تـعـودـ عـلـىـ عـبـادـهـ مـرـةـ بـعـدـ أـخـرىـ ، وـسـوـابـغـ نـعـمـهـ السـابـغـةـ الـتـيـ لـاقـصـورـ فـيـهاـ عـنـ قـبـولـ قـاـقلـهاـ .

وقوله : وأَوْمَنْ بِهِ أَوْلَا بَادِيَا .

نصب أَوْلَا بَادِيَا على الحال ، وأشار بهذين الوصفين إلى الجهة التي هي مبدء إلا يمان إذ كان منه باعتبار كونه أَوْلَا هو مبدءاً لجميع الموجودات ، وكونه بادياً هو كونه ظاهراً في العقل في جميع آثاره . فباعتبار ظهوره مع كونه مبدءاً لكل موجود وأَوْلَا له يجب الا يمان به والتصديق بالهيمَّة .

وقوله : وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيبًا هَادِيَا .

فاستهداؤه طلب الهدایة منه ، وقربه هودنوه بوجوده من قابل فضله ، وهذايته هبته الشعور لكل ذي إدراك بما هو أليق به ليطلبه دون ما ليس أليق به . وظاهر أنه باعتبار هذين الوصفين مبدء لطلب الهدایة منه .
وقوله : وَأَسْتَعِينُهُ فَاهْرًا قَادِرًا .

استعانته طلب المؤونة منه على ما ينبغي من طاعته وسلوك سبيله ، والقاهر هو الذي لا يجري في ملكه بخلاف حكمه نفس ؛ بل كل موجود مسخر تحت حكمه وقدرته وحغير في قبضته ، والقادر هو الذي إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل وإن لم يلزم أنه لا يشاً فلا يفعل كما سبق بيانه . وظاهر أنه باعتبار هذين الوصفين مبدء للاستعانته .
وقوله : وَأَتُوكَلْ عَلَيْهِ كَافِي نَاصِرا .

التوكل كما علمت يعود إلى اعتماد الإنسان فيما يرجو أو يخاف على غيره ، والكافى اعتبار كونه معطيا لكل قابل من خلقه ما يكفى استحقاقه من منفعة ودفع مضره والناصر هو اعتبار إعطائه النصر لعباده على أعدائهم بأفاضة هدايته وقوته . وظاهر أنه تعالى باعتبار هذين الوصفين مبدء لتوكل عباده عليه وإلقاء مقاليد أمورهم إليه .
وقوله : وَأَشْهَدُ إِلَى آخِرِه .

تقرير للرسالة وتعيين لأغراضها وذكر منها ثلاثة :
أحددها : إنفاذ أمره . والضمائر الثلاثة لله . و إنفاذ أمره إجراؤه لأحكامه على قلوب الخلق ليقرّوا بالعبودية له .

الثاني : إنتهاء عذره في أقواله و أفعاله . وقد سبق بيان وجه استعارة العذر .

الثالث : تقديم نذره وهو التخويفات الواردة على ألسنة الرسل كذلك إلى الخلق قبل لقائه الجاذبة لهم إلى لزوم طاعته . وظاهر كون الثلاثة أعراض للبعثة .

الفصل الثاني : قوله :

أَوْصِيكُمْ عَبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي ضَرَبَ الْأَمْثَالَ ، وَوَقَتَ لَكُمُ الْأَجَالَ ،
وَبِالْبَسْكُمِ الْرِّيَاسَ ، وَارْفَعْ لَكُمُ الْمَعَاشَ ، وَاحْاطِمُكُمْ بِالْإِحْصَاءِ وَأَرْصَدْ لَكُمْ
الْجَزَاءَ ، وَآثِرْكُمْ بِالنَّعْمِ السَّوَابِعِ ، وَالرَّفْدِ الرَّوَافِعِ ، وَانذِرْكُمْ بِالْحُجَّاجِ الْبَوَاعِعِ ،
وَاحْصَامُكُمْ عَدَداً وَوَظَفَ لَكُمْ مَدَداً فِي قَرَارِ خِبَرَةِ ، وَدَارِ عِبَرَةِ اتَّمْ مُخْبِرُونَ
فِيهَا ، وَمُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا .

أقول : الرياش : اللباس الفاخر . وقيل : الغنى بالمال . وأرصد : أعد . والرفد : جمع رفده وهي العطية . والرافع : الواسعة الطيبة

وهذا الفصل مشتمل على الوصيّة بتقوی الله وخشيته والانجداب إليه باعتبار أمور :
الأول : ضرب الأمثال . والأمثال التي ضربها الله لعباده في القرآن كثيرة منها :
قوله تعالى « كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم » إلى قوله
« يرجعون » ^(١) والإشارة بهذا المثل إلى من كان قد طلب إظهار المعجزات من الرسول والملائكة
فاما ظهرت لهم لم يقبلوها ورجعوا إلى ظلمة جهلهم فهم صم عن سماع دواعي الله باذان
قلوبهم ، بكلم عن مناجات الله بأسارهم ، عمى عن مشاهدة أنوار الله بإ بصار بصائرهم فهم
لا يرجعون عن تماديهم في غيّهم وكفرهم . ومنها : قوله « أو كصيّب من السماء » إلى
 قوله « قاموا » وهو مثل شبيه فيه القرآن بالمطر نزل من السماء ، وشبيه ما في القرآن
من الوعد والوعيد بما في المطر من الرعد والبرق ، وشبيه تباعد المنافقين عن الإصغاء إلى

القرآن و تغافلهم عن سماع الوعظ بمن يجعل أصابعه في آذانه خوف الصواعق ، قوله : يكاد البرق . إلى آخره . إشارة إلى من كان يرق قلبه بسماع الوعظ البالغ إذا قرعه ويميل إلى التوبة و يتجلّى عن قلبه بعض الظلمة فإذا رجعوا إلى قرائهم أشاروا عليهم بالعود إلى دنياهم و بذلك لهم الجهد في النصيحة و خوفهم بالعجز فتضيع قصودهم ، و تظلم عليهم شبهات الباطل فقط . ما كان ظهر لهم من نور الحق . وكذلك باقي أمثال الله في كتابه الكريم .

الثاني : قوله : و وقت لكم الآجال : أي كتبها بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ كل إلى أجل مسمى ثم يرجع إليه فيحاسبه بإعلانه وإسراره . فالحرى أن يقتسه و يعمل للقائه .

الثالث : كونه قد أبسمهم الرياش . وهو إظهار للمنتهى عليهم كما قال «بابني آدم قد أترنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى»^(١) الآية . ليذكروا أنواع نعمه ف يستحيوا من مجاهرته بالمعصيته .

الرابع : كونه قد أرفع لهم المعاش : أي أطاب معيشتهم في الدنيا كما قال تعالى «ورزقكم من الطيبات» ، وهو كالثالث .

الخامس : إحاطته بهم إحصاءاً كقوله تعالى «لقد أحصيتم وعدهم عدد» ، أي أحاط بهم علمه . وإحصاءاً منصوب على المصدر من غير لفظ فعله ، أو على التمييز . و ظاهر أن علم العصاة بأنه لا يشد أحد منهم عن إحاطة علمه جاذب لهم إلى تقواه .

السادس : كونه قد أرسد لهم الجزاء . كقوله «من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فرع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبّت وجوههم في النار هل يجزون إلا ما كنتم تعملون»^(٢) .

السابع : إيمارهم بالنعم السوابغ والرفد الروافع . كقوله تعالى «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة»^(٤) .

الثامن : إنذارهم بالحجج البالغ . وهي رسلاه ومواعظه وساير ماجذب به عباده إلى

سلوك سبله ، وهو حجَّةٌ على عصاة أمره أن يقولوا يوم القيمة إننا كنَّا عن هذا غافلين .
الثاسع : إحصاؤه لعددهم كقوله «تعالى وأحصى كلَّ شئٍ عدداً» .

العاشر : توظيفه لهم المدد ، وهو كتوقيته لهم الآجال ، وإنما كرر وصف الإحصاء والعد و هذين الوصفين أيضاً لأنَّ الوهم كثيراً ما ينكر إحاطته تعالى بالجزئيات مع عدم تناهيهما فيكون ذلك مشبهًا على النفس توقيت الآجال لكلَّ شخص ويقبح في أمر المعاد العقوبات الالازمة لكلَّ آحاد الخلق بحسب كلَّ ذرة من الأعمال الطالحة فكررها طرداً للوهم وكسرأ لحكمه ، ولأنَّ ذكر توقيت الآجال من أشدَّ الجوازب عن الدنيا إلى الله . وقوله : في قرارخبرة ودار عبرة : أى محلٌ اختبار الله خلقه ومحلٌ عبرتهم : أى انتقال أذهانهم فيما تجرى فيهما من آيات العبرة وآثار القدرة . والاستدلال بها على وحدانية مبدعها كناسبت الإشارة إلى معنى الاختبار والاعتبار وكذلك قوله : فأنتم فيها مختبرون وعليها محاسبون قد سبقت الإشارة إليه في قوله : ألا وإنَّ الدنيدار لا يسلم منها إلا فيها . وفي هذين القرينين مع السجع المتوازي نوع من التجنيس بين خبرة عبرة . والاختلاف بالحرف الأول .

الفصل الثالث قوله :

فَإِنَّ الدِّنَيَا رِنْقٌ مُشَرِّبَهَا ، رَدْغٌ مُشَرِّعَهَا : بُونِقٌ مَنْظَرَهَا ، وَبُونِقٌ مَخْبَرَهَا
غُرُورٌ حَاتِلٌ وَضُوءٌ آفِلٌ ، وَظُلْمٌ زَائِلٌ ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ حَتَّى إِذَا أَنَسَ تَافِرَهَا ،
وَأَطْمَانٌ نَاكِرَهَا : قَصَتْ بَارِجُلَهَا ، وَقَنَصَتْ بِأَحْبَلَهَا ، وَاقْصَدَتْ بِأَسْهَمَهَا ،
وَاعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنَّةَ قَانِدَهُ لِمَ إِلَى ضَنْكِ الْمَضَاجَعِ ، وَوَحْشَةَ الْمَرِيعِ
وَمَعَايِنَةَ الْمَحَلِّ ، وَثَوَابِ الْعَمَلِ . وَكَذَلِكَ الْخَلْفُ يَعْقُبُ السَّلَفَ : لَا تُقْلِعُ

الْمِيَةُ أَخْتَرَ امَا وَلَا يَرْعُو الْبَاقُونَ أَجْتَرَ امَا يَحْتَدُونَ مَثَلًا ، وَيَمْضُونَ أَرْسَالًا ،
إِلَى غَایَةِ الْأَتَهَادِ ، وَصَيْوَرِ الْفَنَاءِ .

قوله : الرنق : الكدر . والرددغ : الوحل والتراب المختلط بالماء . ويونق : يعجب .
ويوبق : يهلك . وغرور : خدعة مستغلة للأذهان . والحالئ : المنتقلة المحتولة . وقمصت
الداّبة : رفت يديها وطرحتها وعجبت برجلها . وقصست : صارت . وأقصدت : أصابت القصد .
والأوهاق : جمع وهم بالفتح وهو الجبل . والضنك : الضيق . وأفلع عن الشيء : امتنع منه .
والاخترام : الموت دون المدة الطبيعية . وارعوى : كف ورجع . وحذاخذ وفلان : فعل فعله .
وأرسال : جمع رسول بالفتح وهو القطيع من الغنم يتبع القطيع . وصيور الأمر : ما يرجع إليه .
ومدار هذا الفصل على التغير عن الدنيا بذكرا معايبها وما يؤول إليه ، وذكر لها أوصافا :
الأول : كونها رنق مشربها . وهو كتابة عن كدر لذاتها بشوائب المصائب
من الهموم والأحزان والأعراض والأمراض .

الثاني : كونها رددغ مشرعها . ومشرعها محل الشروع في تناولها و الورود
في استعمالها ، وكونه ردغاً وصف للطريق المحسوس استعمله . ووجه المشابهة كون طريق
الإنسان في استعمال الدنيا والتصرف فيها ذات مزalcon ومزالاً أقدام تهوى به إلى جهنم
لا يثبت فيها إلا قدم عقل قد هجر في ضبط قواه وفه سطوة شياطينه كما أنّ الطريق ذات
الوحل كذلك . وهو من لطائف إشاراته تَبَلَّطُه .

الثالث : كونها يونق منظرها ، ويوبق مخبرها . وهو إشارة إلى إعجابها لنذى الغفلة
بزینتها الحاضرة مع هلاكهم باختبارها وذوقهم لحالاتها وغرف من الا لتداذبها .

الرابع : كونها غروراً حائلاً . يرى بفتح العين وضمها . ومعنى الأول ذات
غرور : أى تغير الخلق بزخارفها فيتوهّمون بقاؤها ثم تنتقل عنهم وتحول ، ومن روى بالضم
جعلها نفسها غروراً : والغرور يطلق على ما يغتر به حقيقة عرقية .

الخامس : كونها ضوءً أفالاً استعار لفظ الضوء لما يظهر منها من الحسن في عيون
الغافلين يقال على فلان ضوء : أى له منظر حسن ، أولما ظهر لهم من وجوه مسالكها

فاهتدوا به إلى تحصيلها ومداخلها ومخارجها . وعلى التقديرين فهو ضوء آفل لا يدوم . ولفظ الأُفول أيضاً مستعار .

السادس : و ظلّ زائل . استعار لفظ الظلّ لما يأوي إليه الإنسان من نعيمها فيستظلّ به من حرارة بؤسها . و ظاهر كونه زائلاً .

السابع : كونه سناداً مایلاً . استعارة أيضاً للفظ السناد فيما يعتمد الغافلون عليه من قيانتها وخيراتها التي لا أصل لها ولا ثبات بل هي كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، وذكر الميل ترشيح للاستعارة .

الثامن : كونها تغرّ الناس بضوئها وظلّها وبهجة منظرها إلى غاية أن يستأنس بها من كان بعقله نافراً عنها ويطمئنّ إليها من كان بمقتضى فطرته منكراً لها حتى إذا كان ذلك منه طوعاً لها فعلت به أفعال العدوّ الخدوع ، وتنسب إليها من الأفعال أموراً : أحدها : قمصها بالأُرجل . واستعار لفظ القمص لامتناعها على الإنسان حين حضور أجله كأنها تدفعه برجليهما وليتعنّه كما تفعل الدابة ، ورشح بذلك بالأجل . وإنما جمع لاعتبار اليدين مع الرجلين ، وذكره بلغظ الرجلين لأنّ القمص إليها أنساب .

الثاني : فنصها له بأحبلها . وهو كناية عن تمكّن حبائل محبتها . والهيات الرديئة المكتسبة منها في عنق نفسه كناية بالمستعار .

الثالث : كونها أقصدت له بأسمها . واستعار لفظ الأسماء للأعراض وأسباب الموت ، وإقصادها كناية عن إصابتها بالمستعار لأوصاف الرامي تنزيلاً للدنيا منزلته .

الرابع : كونها أعلقته حبال المنية . وحبالها استعارة لما تجذب به إلى الموت من سائر أسبابه أيضاً ، وكذلك لفظ القائد استعارة كنّى بها عن انسياق المريض في حبال مرضه العاصل فيها إلى الأمور المذكورة من ضنك المضطجع وهو القبر ووحشة المرجع ، وهو إشارة إلى ماتجده النفوس البجاهلة عند رجوعها من وحشة فراق ما كان محبوباً لها في الدنيا وما كانت الفتنة من مال و أهل وولد . و هي استعارات لأوصاف الصايد تنزيلاً للدنيا منزلته . ومعاينة المحل : أي مشاهدة الآخرة التي هي محلّ الجزا . و ثواب العمل : أي جزاءه من خير أو شر .

الفصل الرابع من أصل الخطبة الثمانين

وقوله : وكذلك الخلف . إلى آخره .

أى على الأحوال المذكورة للدنيا مضى الخلق يتبع خلفهم من سلف منهم لامتنانة تفتر عن احترام نفوسهم ولا الباقيون منهم يرجعون عما هم عليه من ارتكاب الجرائم فيها و الغرور بها بل يقتدون بأمثالهم الماخين في ذلك و يمضون عليه اتساعاً إلى غاية مسيرهم بمطاباً للأبدان ومصير أمرهم وهو الفناء والعرض على الملك الدبيان . وقد راعى أيضاً مع السجع التجنيس في قوله : يونق ويوبق ، ونافرهاوناكرها ، وقمصتو قنست ، والاختلاف بحرف الوسط . وبالله التوفيق .

الفصل الرابع : في الإشارة إلى ما يلحق الناس بعد الموت من أحوال القيمة تذكر لهم . قوله :

حَتَّى إِذَا تَصْرَّمَتِ الْأُمُورُ وَتَقْضَتِ الدُّهُورُ ، وَأَزْفَفَ النُّشُورُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ
ضَرَائِعِ الْقُبُورِ ، وَأَوْكَارِ الطَّيُورِ ، وَأَوْجَرَ السَّاعِ وَمَطَارِحِ الْمَهَالِكِ ، سِرَاعًا
إِلَى أَمْرِهِ ، مُهْطَعِينَ إِلَى مَعَادِهِ رَعِيلًا صُمُوتًا ، قِيَامًا صُفُوفًا . يُنْفَدِعُمُ الْبَصَرُ
وَيُسْعِمُهُمُ الدَّاعِي ، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الْإِسْكَانِ ، وَضَرَغُ الْأَسْتِسْلَامِ وَالذَّلَّةِ
قَدْ ضَلَّتِ الْحِيلُ ، وَانْقَطَعَ الْأَمْلُ ، وَهَوَتِ الْأَقْدَدَةُ كَاظِمَةً ، وَخَشَعَتِ
الْأَصْوَاتُ مَهِينَةً ، وَالْجَمُ العَرْقُ ، وَعَظِيمُ الشَّفَقُ ، وَأَرْعَدَتِ الْأَسْمَاعُ لِزَرْبَرَةِ
الْدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْمِخَطَابِ وَمَقَايِضَةِ الْجَزَاءِ ، وَنَكَالِ الْعِقَابِ ، وَنَوَالِ
الثَّوابِ .

أقول : تصرّمت : تقضت . وأزف : دنا . وضرائح : جمع ضريح . وهو الشق في

وسط القبر . و أوكار الطيور : أعشاشها . وأوجرة : جمع وجار و هو يت السبع . مهطعين: مقبلين . و رعيلاً : مجتمعين . اللبوس : مايلبس . والفرع: الخضوع والانكسار . وكاظمة: ساكنة . والهينمة : صوت خفي . و الجم العرق : بلغ الفم فصار كاللجم . والشفق : الإشراق وهو الخوف . و الزبرة . الانتهار . والمقايضة: المعاوضة . والنkal : تنوع العقوبة .
واعلم أنّه قد تطابقت ألسنة الأنبياء والرسل عليهم السلام على القول بالمعاد الجسماني ، ونطق به الكتاب العزيز كقوله تعالى « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة »^(١). الآية ونحوه ، واتفق المسلمون على القول به ، وأمّا الحكماء فالمشهور من مذهبهم منع المعاد الجسماني « بناء على أنّ المعاد ليعاد بعينه لامتناع عود أسبابه بأعيانها من الوقت والدورة الفلكية المعينة وغيرهما . و ربما قال بعض حكماء الإسلام بجواز عود المثل و ربما قلد بعضهم ظاهر الشريعة في أمر المعاد الجسماني وإثبات السعادة والشقاوة البدنية مع الردحانية ، وقال الرئيس أبو على بن سينا في كتاب الشفاء ماهذه حكاية أفالظه :

« يجب أن يعلم أنّ المعاد منه ما هو المقبول من الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذي للدين عند البعث وخيرات الدين وشروطه معلومة لا تحتاج أن تعلم . وقد بسطت الشريعة الحقة التي أثنا بها سيدنا و مولانا محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه حال السعادة والشقاوة اللتين يحسب الدين ، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني ، وقد صدقه النبوة وهو السعادة والشقاوة البالغتان الثابتتان بالمقاييس اللتان لأنفس وإن كانت الأوهام منها يقصر عن تصوّرها لأنّ ملائكة العلل ، والحكماء الالهيون رغبتهم في إصابة هذه السعادة أعظم من رغبتهم في إصابة السعادة البدنية بل كأنهم لا يلتقطون إلى تلك وإن أُعطوه لا يستعظمونها في جنبة هذه السعادة التي هي مقاربة الحق الأول »
واعلم أنّ الذي ذكره عليهم السلام هنا صريح في إثبات المعاد الجسماني ولو احقره .

فقوله : آخر جهنم من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك . إشارة إلى جمعه لأجزاء أبدان الناس بعد تشذّبها و تفرقها فيخرج من كان قبر

من ضريح قبره ومن كان إكيل طيراً وسبع أو مقتولاً في مطرح الهلاك من معركة الحرب أو غيرها أخرجه من ذلك المكان وجمع أجزاءه وألف بينها.

فإن قلت : إذا أكل إنسان إنساناً واغتنى به فصارت أجزاء بدنه أجزاء بدن آكله فكيف يمكن إعادة هما لأنّ تلك الأجزاء في أيّ بدن منها أعيدت لزم نقصان الآخر وبطلاته .

قلت : مذهب محقق المتكلمين أنّ في كلّ بدن واحد أجزاء أصلية باقية من أول العمر إلى آخره لا تغير ولا تبدل ، وأجزاء فضلية فإذا أعيدا يوم القيمة فما كان أصلياً من الأجزاء لبين المأكول فهو فضل لبدن الآكل فيرد عليه من غير أن ينقص من الأجزاء الأصلية للأكل شيء ولا عبرة بالفضلة . و باقى الفضل غنى عن البيان ، وقال بعض الفضلاء : إنّه ربّما احتملت هذه الألفاظ أن يسلط عليها من التأويل ما يناسب مذهب القائلين بالملاء الروحاني .

قوله : حتى إذا تصرّمت الأمور .

أي أحوال كلّ واحد من الخلق في الدنيا .

وقوله : و تقضي الدهور .

أي انقضت مدة كلّ شخص منهم .

وقوله : و أزف النشور .

أي دنا انتشار كلّ واحد في عالم الآخرة من قبور الأبدان .

وقوله : أخر جهنم من ضرائح القبور .

استعار لفظة القبور للأبدان و ضرائحها ترشيح للاستعارة . و وجه المشابهة أنّ النفس تكون منغمسة في ظلمة البدن و كدر الحوائين مت الوحشة عن عالمها كما أنّ المقبور متوجه لظلمة القبر و وحشة ، منقطع عن الأهل و المال . و ضمير المخرج يعود إلى الله في صدر الخطبة .

وقوله : و أوكار الطيور .

فاعلم أنّ العارفين و أهل الحكمة كثيراً ما يستعيرون لفظ الطير و أوصافه للنفس

الناظفة وللملائكة كما أشار إليه سيد المرسلين ﷺ في قوله : حتى إذا حل الميت على نعشه رفعت روحه فوق العرش ، ويقول : يا أهلى و يا ولدي لاتلعنن " بكم الدنيا كما لعبت بي . والرففة إنما يكون الذي الجناح من الطين ، وكما جاء في التنزيل الإلهي " في وصف الملائكة « أولى أجنة مثنى وثلاث و رباع » و كما أشار إليه أبو على في قصيدة أولها ألقى :

هبطت إليك من المكان الأرفع و رقاء ذات تعزّز و تمنع

و أشار بازورقاء إلى النفس الناظفة ، و كما أشار إليه في رسالته المسمّاة برسالة الطير بقوله : برزت طافقة تنصبوا الجبال و رتبوا الشرك وهياوا الطعم ، و تواروا في الحشيش وأنا في سربة طير . و نحوه . و وجه المشابهة في هذه الاستعارة ما تشتراك فيهما النفس و الطير من سرعة التصرف والانتقال فالنفس بانتقال عقلي ، و الطير بانتقال حسي فإذا استغير لفظ الطير للنفس وبالحرى أن يستعار لفظ الوكر للبدن لما ينتما من المشاركة و هو كونهما مسكنًا لتسهيل مفارقتها .

وقوله وأجرة السباع .

استعارة للأبدان أيضاً . و السباع إشارة إلى النفوس المطيبة لقوتها الغضبية التي

شأنها محبة الغلبة والانتقام كما أنّ السبع كذلك .

وقوله : و مطارح المهالك .

إشارة إلى الأبدان أيضاً فإنها مطارح مهالك الغافلين الذين اتبعوا الشهوات

أعني أبدانهم .

وقوله : سراعاً إلى أمره .

نصب على الحال بقوله: أخرجهم ، وكذلك ما بعده من المنصوبات . و أمره هو حكم

قضائه الأذلي عليهم بالرجوع إليه و عودهم إلى مبدئهم و سرعتهم إليه إشارة إلى قرب وصولهم وهو في آن انقطاع علاقة النفس مع البدن وهو على غاية من السرعة .

وقوله : مهطعين إلى معاده .

إشارة إلى إقبال النفوس بوجوهها على محلّ عودها و ما أعدّ لها فيه من خير و شر .

و قوله : رعياً .

إشارة إلى اجتماعهم في حكم الله و قبضته و محل الاستحقاق لتوابه و عقابه .

وقوله : صموماً

إذلاً ألسنة لهم إذن ينطقون بها ، و يحتمل أن يكون الصمت كناية عن خضوعهم

و انتقادهم في ذل الحاجة وهيبة الجلال .

وقوله : قياماً صفوفاً .

فقيامهم استعارة لاستشعار النّفوس هيبة الله لعظمته ، و قيامها بتصور كماله على مساق العبودية و ذل الإمكان ، و صفوافاً استعارة لانتظامهم إذن في سلك علمه تعالى إذ الكل بالنسبة إلى علمه على سواء كما يستوي الصفة المحسوسة ، و يحتمل أن يكون الصفة استعارة لترتبهم في القرب إلى الله تعالى متنازلين متتصادفين .

وقوله : ينفذهم البصر .

إشارة إلى علمه تعالى بهم .

وقوله : و يسمعهم الداعي .

فالداعي هو حكم القضاء عليهم بالعود ، و إسماعهم : عموم ذلك الحكم لهم بحيث لا يمكن أن يخرج عنه منهم أحد .

وقوله : عليهم ليس الاستكانة و ضرع الاستسلام والذلة .

إشارة إلى حالهم التي يخرجون من الأجداث عليها من ذل الإمكان ورق الحاجة و الخوف في قبضة الله وهو قوله تعالى « يوم بدع الداع إلى شيء نكر خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث » ^(١) .

وقوله : قد ضلت العيل .

أى حيل الدنيا . فلا حيلة لهم في الخلاص ممّا هم فيه كما كانوا يخلصون بحيل الدنيا من بعض شرورها ، و انقطع الأمل : أى أمل لهم فيها لامتناع عودهم إليها و انقطاع طعمهم في ذلك .

وقوله : وهو هو الا فندة كاظمة .

أى سقطت النفوس في حضيض الذلّ و الفاقة إلى رضا الله و عفوه ، و لفظ الكظم مستعار كما سبق .

وقوله : وخشعـت الأصوات . هو كقول الله « وخشعـت الأصوات للرجم فلا تسمع إلا همساً » وهو إشارة إلى سؤالهم بسان حالهم عفو الله و رحمة على وجه الذلة و الضعف ورق العبودية في ملاحظة جلال الله .

وقوله : وألجم العرق و عظم الشفق .

استعار لفظ العرق و كتني به عن غاية ما تجده النفس من كرب ألم الفراق وهيـة الله و عدم الأنس بعد الموت إذ غاية الخافـق التـابـع أن يعرـق و يـشقـق من نزول العـقـابـ به . و نسبة الإلـجامـ إلى العـرقـ نـسـبةـ مـجاـزـيةـ .

وقوله : وارـعدـتـ الأـسمـاعـ لـزـيـرةـ الدـاعـيـ .

إشارة إلى ما تجده النفس عند تيقـنـها المـفارـقةـ . و استـعارـ لـفـظـ الزـبـرـةـ لـقـهـرـ حـكـمـ القـضـاءـ لـلـأـنـفـسـ عـلـىـ مـرـادـهـ قـهـرـاـ لاـ يـتـمـكـنـ معـهـ منـ الجـوابـ بـالـامـتـاعـ ، وـ فـصـلـ الـخـطـابـ هوـ إـمـاضـ أـحـكـامـ اللهـ عـلـىـ نـفـوسـ عـبـادـهـ عـنـ الرـجـوعـ إـلـيـهـ بـتـوـفـيـةـ مـالـهـ ، وـ اـسـتـيـفاءـ مـاـ عـلـيـهـ . وـ مـقـايـضـةـ الـجـزـاءـ : مـعـاـوـضـتـهـ بـمـاـ أـتـيـتـ بـهـ إـمـاـ مـنـ الـمـلـكـاتـ الـرـدـيـةـ فـبـنـكـالـ العـقـابـ ، وـ إـمـاـ مـنـ الـمـلـكـاتـ الـفـاضـلـةـ فـبـنـوـالـثـوـابـ ، وـ هـبـةـ كـلـ بـقـدـرـ اـسـتـعـداـهـ وـ قـبـولـهـ . وـ اـعـلـمـ أـنـ الـعـدـوـنـ إـلـىـ الـمـجـازـاتـ وـ الـاسـتـعـارـاتـ عـنـ حـقـائـقـ الـأـلـفـاظـ ، وـ إـلـىـ التـأـوـيلـ عـنـ الـظـواـهـرـ إـنـمـاـ يـجـوزـ خـصـوصـاـ فيـ كـلـامـ اللهـ وـ كـلـامـ رـسـولـهـ وـ أـوـلـيـاءـهـ إـذـاـ عـضـدـهـ دـلـيلـ عـقـليـ يـمـنـعـ مـنـ إـجـراـءـ الـكـلامـ عـلـىـ ظـاهـرـهـ . وـ لـمـاـ اـعـتـرـفـ الـقـومـ بـجـواـزـ الـمـعـادـ الـجـسـمـانـيـ تـقـليـدـاـ لـلـشـرـيـعـةـ وـ لـمـ يـقـمـ دـلـيلـ عـقـليـ يـمـنـعـ مـنـهـ لـمـ يـمـكـنـنـاـ الـجـزـمـ إـذـنـ بـصـحةـ هـذـهـ التـأـوـيـلـاتـ وـ أـمـشـالـهـ . وـ بـالـهـ التـوـقـيقـ وـ الـعـصـمةـ .

الفصل الخامس : في تنبيه الخلق على أوصاف حالهم المنافية لمامهم عليه من التجبر و الإعراض عمـاـ خـلـقـواـ لـأـجـلـهـ لـعـلـمـ يـتـذـكـرـونـ بـقـوـلـهـ :

عِبَادٌ مُخْلُوقُونَ اقْتَدَارًا ، وَمُرْبُوْبُونَ اقْتَسَارًا ، وَمَقْبُوضُونَ احْتَنَارًا ،
وَمَضْمُنُونَ أَجْدَانًا ، وَكَايْنُونَ رَفَاتًا ، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَادًا ، وَمَدِينُونَ جَزَاءً ،
وَمِيزُونَ حَسَابًا ، قَدْ امْهَلُوا فِي طَلَبِ الْمُخْرِجِ ، وَهُدُوا سَيِّلَ الْمُنْهِجِ ، وَعَمِرُوا
مَهْلَالَ الْمُسْتَعِبِ ، وَكُثِيفَ عَنْهُمْ سَدْفُ الرَّبِّ ، وَخُلُوا مِضَامِارَ الْجِيَادِ
وَرَوْيَةَ الْأَرْتِيَادِ ، وَأَنَّاهُ الْمُقْتَبِسُ الْمُرْتَادُ فِي مُدَدِ الْأَجَلِ ، وَمُضْطَرِّبُ
الْمَهْلِ .

أقول : القسر : الْقَهْرُ وَالْجَبْرُ . وَالْأَجْدَاثُ : الْقَبُورُ وَاحِدَةُ جَدْثٍ . وَالرَّفَاتُ :
الْقَنَاتُ مِنَ الْعَظَمِ وَنَحْوِهِ . وَالْمَدِينُونَ . مَجْرِيَّوْنَ . وَالْمُسْتَعِبُ : الْمُسْتَرْضِيُّ . وَالسَّدْفُ :
جَمْعُ سَدْفَةٍ وَهِيَ ظَلْمَةُ الْلَّيلِ . وَالرَّبِّ الشَّبَهُ وَالشَّكُوكُ . وَالْأَرْتِيَادُ : الْطَّلَبُ . وَذَكْرُ مَنْ تَلَكَ
الْأَوْصَافُ ثَلَاثَةُ عَشَرَ وَصَفَّاً :

الْأُولُّ : كُونُهُم مُخْلُوقُونَ اقْتَدَارًا : أَىٰ خَلْقُهُم لَنْوَاتِهِمْ بِلْ بِقَدْرِ قَادِرٍ مُسْتَقْلَةٍ
عَنْ مَشَارِكَةِ الْغَيْرِ وَذَلِكَ مَنَافِعُ لَعْصِيَانِهِمْ لَهُ .

الثَّانِي : كُونُهُم مَرْبُوْبُونَ اقْتَسَارًا : أَىٰ لَيْسَ مَلِكُهُمْ لَهُمْ عَنْ اخْتِيَارِهِمْ حَتَّىٰ
يَكُونُ لَهُمُ الْخَيْرَةُ فِي مَعْصِيَتِهِ وَطَاعَتِهِ .

الثَّالِثُ : كُونُهُم مَقْبُوضُونَ احْتَنَارًا : أَىٰ مُسْتَحْضُرُونَ بِالْمَلَوْتِ مَقْبُوضُونَ بِهِ إِلَى
حَضْرَةِ جَلَالِ اللَّهِ .

الرَّابِعُ : كُونُهُم مِنْ شَأنِهِمْ أَنْ يَضْمَنُوا الْأَجْدَاثَ .

الخَامِسُ : مِنْ شَأنِهِمْ أَنْ يَصِيرُوا رَفَاتًا .

السَّادِسُ : مِنْ شَأنِهِمْ أَنْ يَبْعَثُوا أَفْرَادًا كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَكُلُّهُمْ آتَيْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

فِرْدًا^(١) إِيْ مَجْرِدًا عَنْ اسْتَصْحَابِ غَيْرِهِ مَعْهُمْ أَهْلَ وَمَالٍ.

السادس : أَنَّهُمْ مَدِينُونَ جَزَاءً وَمِنْ شَأْنِهِمْ ذَلِكُوا . وَالْجَزَاءُ مَصْدُرُ نَصْبٍ بِغَيْرِ فَعْلِهِ .

السابع : أَنَّهُمْ مَدِينُونَ جَزَاءً وَمِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَمْيِيزُوا حَسَابًا : أَيْ يَحْصُونَ عَدْدًا كَوْلَهُ تَعَالَى « لَقَدْ

أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًا »^(٢) وَحَسَابًا أَيْضًا مَصْدُرُ نَصْبٍ بِغَيْرِ فَعْلِهِ .

الثامن : كَوْنُهُمْ قَدْ أَمْهَلُوا فِي طَلْبِ الْمَخْرُجِ : أَيْ إِنَّمَا أَمْهَلُوا فِي الدِّينِ لِطَلْبِ خَلَاصِهِمْ وَخَرْوَجِهِمْ مِنْ ظُلْمَاتِ الْجَهْلِ وَوَرَطَاتِ الْمَعَاصِي إِلَى نُورِ الْحَقِّ وَمُتَسْعِ الْجُودِ .

الحادي عشر : كَوْنُهُمْ قَدْ هَدَوْا سَبِيلَ الْمَنْهَاجِ : أَيْ أَلْهَمُوا بِأَبْصَلِ فَطْرَتِهِمْ ، وَدَلَّوْا بِالْأَعْلَامِ الْوَاضِحةِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالشَّرَائِعِ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى حَضْرَةِ قَدِيسِ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ .

الحادي عشر : كَوْنُهُمْ قَدْ حَمَرُوا مَهْلَ الْمُسْتَعْتَبِ . لِمَا كَانَ مِنْ يَطْلُبُ اسْتِعْتَابَهُ وَيَقْصُدُ رَجُوعَهُ عَنْ غَيْرِهِ يَمْهُلُ وَيَدَارِي طَوِيلًا كَانَتْ مَهْلَةُ اللَّهِ سَبَاحَانَهُ لِخَلْقِهِ مَدَّةً أَعْمَارِهِمْ لِيَرْجِعُوهَا إِلَى طَاعَتِهِ وَيَعْمَلُوا صَالِحًا تَشَبَّهُ ذَلِكَ فَنَزَّلَتْ مِنْزَلَتِهِ . وَمَهْلَ نَصْبٍ عَلَى الْمَصْدِرِ لِأَنَّهُ التَّعْمِيرُ إِمْهَالٌ .

الثاني عشر : كَوْنُهُمْ قَدْ كَشَفُوا عَنْهُمْ سَدِ الْرِّيبِ : أَيْ أَذَالُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ ظُلْمُ الشُّكُوكِ وَالشَّهَيْدَاتِ وَالْجَهَالَاتِ بِمَا وَهَبَهُ لَهُمْ مِنْ الْعُقُولِ وَأَيْدِيهِمْ مِنْ بَعْثَةِ الرَّسُلِ .

الثالث عشر : كَوْنُهُمْ قَدْ خَلَوْا مِنْ ضَمَارِ الْجِيَادِ : أَيْ تَرَكُوا فِي الدِّينِ لِيَضْمُرُوا أَنفُسَهُمْ بِأَبْزَادِ التَّقْوَىِ ، وَلِمَا اسْتَعَارَ لِفَظُ الْمِضْمَارِ رَشَحَ بِذِكْرِ الْجِيَادِ . إِذْ شَرَفَ الْمِضْمَارُ أَنْ تَحْلَّ بِهِ جِيَادُ الْخَيْلِ . وَفِيهِ تَنبِيَّهٌ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونُوا مِنْ جِيَادِ مِضْمَارِهِمْ . وَقَدْ سَبَقَ وَجْهُ الْاسْتِعَارَةِ ، وَمَعْنَى التَّضْمِيرِ فِي قَوْلِهِ : أَلَا وَإِنَّ يَوْمَ الْمِضْمَارِ وَغَدَ السَّبَاقِ . وَكَذَلِكَ خَلَوْا لِرُوْيَةِ الْأَرْتِيَادِ : أَيْ لِيَتَفَكَّرُوا فِي طَلْبِ مَا يَتَخلَّصُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ سَایِرِ طَاعَاتِهِ ، وَكَذَلِكَ لِيَتَأْنِوا أَنَّهَا الْمُقْتَبِسُ لِلأنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ الْطَّالِبُ لِلِّا سِتَارَةِ بِهَا فِي مَدَّةِ آجَالِهِمْ وَمَحْلِهِمْ اضْطَرَابُهُمْ فِي مَهْلَتِهِمْ وَتَحْصِيلِهِمْ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ مِنَ الْكَمَالَاتِ . وَمِنْ مَلَكِ مِنْ عَبِيدِهِ هَذِهِ الْحَالَاتُ وَأَفَاقُهُمْ ضَرُوبُ هَذِهِ الْإِنْعَامَاتِ فَكِيفَ يَلِيقُ بِأَحْدَهِمْ أَنْ

يُجاهر بالعصيان أو يتجرأ أن يقابله بالكفران إنّ الإِنسان لکفور مبين .
الفصل السادس : في التنبية على فضل موعظته وتذكيره ومدحها بالبلاغة والتعريف
بعدم القلوب الحاملة لها، ثم "الحث" على التقوى بقوله :

فِيَالْهَا أَمْثَالًا صَابَةَ، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةَ لَوْ صَادَفْتُ قُلُوبًا زَاكِيَةَ، وَأَسْمَاءَ
وَاعِيَةَ، وَآرَاءَ عَازِمَةَ، وَالبَابَا حَازِمَةَ، فَاتَّقُوا تَقْيَةَ مَنْ سَعَ نَفْشَعَ، وَاقْتَرَفَ
فَاعْتَرَفَ، وَوَجَلَ فَعَمِلَ، وَحَادَرَ فَبَادَرَ، وَأَيْقَنَ فَاحْسَنَ، وَعَبَرَ فَاعْتَبَرَ،
وَخَذَرَ فَازَدَ جَرَ، وَاجَابَ فَأَنَابَ، وَرَجَعَ فَتَابَ، وَاقْتَدَى فَاحْتَدَى، وَارِى
فَرَأَى، فَاسْرَعَ طَالِبًا، وَبَجَاهَارِبًا، فَأَفَادَ ذَخِيرَةَ، وَاطَّابَ سَرِيرَةَ، وَعَمَرَ
مَعَادًا، وَاسْتَظَهَرَ زَادَالْيَوْمَ رَحِيلَهُ، وَوَجَهَ سَيِّلَهُ، وَحَالَ حَاجَتَهُ، وَمَوْطِنَ
فَاقَهُ، وَقَدَمَ امَامَهُ لِدَارِ مُقامِهِ . فَاتَّقُوا إِلَهَ عِبَادَ اللَّهِ جَهَةَ مَا خَلَقْتُمْ لَهُ ،
وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَرْتُكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَاسْتَحْقُوا مِنْهُ مَا عَدَلْتُكُمْ بِالتَّنْجِزِ
لِصَدْقِ مِيعَادِهِ، وَالْخَذَرُ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ .

فقوله: فيالها أمثلاً صابيه ومواعظ شافية . أمثلاً ومواعظ نصب على التمييز . وصواب
الأمثلة : مطابقتها للممثّل به . وشقاء الموعظة : تأثيرها في القلوب إِذَا لَهَا مرض الجهل
والرذائل الخلقيّة ورجوع المتعظ بها منيّا إلى ربّه .

وقوله : لو صادفت قلوبًا زاكية وأسماعاً واعية وآراء عازمة وأبابا حازمة .
فركاء القلوب : استعدادها لقبول الهدایة وقربها من ذلك . ووعي الأسماع : فهم
القلوب عنها ، وإنما وصفها بالوعي لأنّها أيضاً قابلة لتشور المعانى مؤدية لها إلى قوّة

الحس ثم الخيال ، وعزم الآراء : توجيه الهمة إلى ما ينبغي والثبات على ذلك . وحزامة الألباب : جودة رأى العقول فيما يختاره . وظاهر أن هذه الثلاثة هي أسباب نفع الموعظة .
وقوله : فاتقوا الله . إلى قوله : مقامه .

أمر بتقوى الله تقيّة كتقوى من استجمع جميع هذه الأوصاف .
أحدهما : تقيّة من سمع فخشى : أي تقيّة من استعد قلبه لسماع الموعظة فخشى
عنها الله .

الثاني : تقيّة من اقترف فأعترف : أي اكتسب الذنوب فأعترف بها وأناب إلى الله .
الثالث : تقيّة من وجل : أي خاف ربّه . فأقلقه خوفه فعمل : أي فالتجأ إلى الأعمال
الصالحة لينجو بها .

الرابع : تقيّة من حادر : أي عقاب ربّه . فبادر إلى إطاعته .

الخامس : تقيّة من أيقن : أي بالموت ولقا هرّبه . فاحسن : أي فاحسن عمله وأخلص له .
السادس : تقيّة من عبر : أي رمى بالعبر وذكّرها . فاعتبر : أي فجعلها سلماً يعبر
فيها ذهنك إلى العلم بما ينبغي له .

السابع : وحذر : أي من سخط الله وعقابه . فازد جر : أي فرجع عن معصيته .

الثامن : تقيّة من أجاب : أي أجاب داعي الله . فأناب : أي رجع إليه بسرّه
وامتثل أمره .

التاسع : تقيّة من راجع فكره وعقله فتاب : أي فاستعان به على شياطينه وفهار
نفسه الأمارة بالسوء . فتاب من متابعتها .

العاشر : تقيّة من اقتدى : أي بآنباء الله وأوليائه وهديهم الذي أتوا به . فاحتذى:
أي حذا حذ وهم في جميع أحوالهم فطلب قصدهم وفعل فعلهم .

الحادي عشر : تقيّة من أرى : أي أرى الخلق فأظهرت بعين بصير تهريق الله وسبيله . فرأى:
أى فعرفها وأسرع طالباً لما يسلك له وينتهي إليه ونجا فيها هارباً من ظلمات جهله وثمراته
فأفاد ذ خيرة : أي فاستفاد سلو��ها وطاعته لربّه في ذلك ذ خيرة ملعاده ، وأطاب بسلوكها
سريرته عن نجاسات الدنيا وعمر بما يكتسبه في سلوکها من الكمالات المستعدة ملعاده .

واستظهر به زاداً ليوم رحيله من دنياه واستعدّ به لوجه سبيله التي هو سالكها ومسافر فيها ولحال حاجته ولموطنه فاقته . فإنَّ كلَّ مرتبة من الكمالات حصلت لِإنسانٍ فيها تعددٌ لرتبة أعلى منها لو لم يحصل لها ظهرت له حاجته في الآخرة إلى أقلَّ منها حيث لا يجدُ إليها سبيلاً . وكذلك قوله : قدْ : أى ما استظهر به زاداً أمامه : أى تلقاء وجهه التي هومستقبلها ومنتهٍ إليها لدار مقامه : أى الآخرة .
وقوله : فاتقوا الله عباد الله جهة مخالفكم له .

أى باعتبار ما خلقكم له . وما كان ما خلقهم له إنما هو عرفانه والوصول إليه كان المعنى : أجعلوا تقوكم الله نظراً إلى تلك الجهة والاعتبار لا للرياء والسمعة . وجهة منصوب على الطرف ، و يحتمل أن يكون مفعولاً به لفعل مقدر : أى و اقصدوا بتفويتكم جهة ما خلقكم .

وقوله : واحذروا منه كنه ماحذركم من نفسه .

أى أسلكوا في حذركم منه حقيقة تحذيره لكم من نفسه بما توعد به . وذلك الحذر إنما يحصل بالبحث عن حقيقة المحذور منه . و السالكون إلى الله في تصور ذلك على مراتب متفاوتة .

وقوله : واستحقوا منه ما أعدّ لكم بالتجزّ لصدق ميعاده . استحقاق ما وعد به الله تعالى من جزيل الثواب إنما يحصل بالاستعداد له فهو أمر بالاستعداد له والاستعداد يحتاج إلى أسباب فذكرها عليه السلام في أمرين :

أحدهما : التتجزّ لصدق ميعاده . والتتجزّ طلب إنجاز الوعد وقضائه و ذلك إنما هو بالإقبال على طاعته كما قال تعالى « وعدهم المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنوار » ^(١) الآية ، ونحوها .

و الثاني : الحذر من أحوال معاده . وذلك باجتناب مناخيه و الارتداع بزواجره و نواهيه منها .

قوله : جعل لكم أسماعاً . أعلم أنَّ في هذا الفصل فصلين :

الفصل الأول : في تذكير عباد الله بضر ونعمته عليهم ، والتنبيه على الغاية منها ، ثم التذكير بحال الماضين من الخلق والتنبيه على الاعتبار بهم . وهو في معرض الامتنان وذلك قوله عليه السلام :

جَعَلْ لَكُمْ أَسْمَاعًا لِتَعْيَ مَا عَنَّاهَا وَأَبْصَارًا لِتَجْلُو عَنْ عَشَاهَا ، وَأَشْلَاءً جَامِعَةً لِأَعْضَاهَا مَلَائِمَةً لِأَحْنَاهَا : فِي تَرْكِيبِ صُورَهَا ، وَمَدَدِ عُمرِهَا ، بِابْدَانِ قَائِمَةَ بِأَرْفَاقِهَا ، وَقُلُوبَ رَائِدَةَ لِأَرْزَاقِهَا ، فِي جُمِلَاتِ نِعَمِهِ ، وَمُوجَاتِ هَنْتَهِ وَحَوَاجِزِ عَافِيَةِ ، وَقَدْرِ لَكُمْ أَعْمَارًا سَرَّهَا عَنْكُمْ ، وَخَلَفَ لَكُمْ عِبَراً ، مِنْ آثارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلَاقِهِمْ ، وَمُسْتَفْسِحِ خَنَاقِهِمْ أَرْهَقَهِمْ الْمَنَابِيَا دُونَ الْآمَالِ ، وَشَدَّهُمْ عَنْهَا نَخْرُمُ الْآجَالِ ، لَمْ يَمْهُدوْ فِي سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ وَلَمْ يَعْتَرُوا فِي اَنْفِ الْأَوَانِ ، فَهَلْ يَنْتَظِرُ اَهْلُ بَضَاطَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِيَ الْهَرَمِ ؟ وَأَهْلُ غَيَّارَةِ الصَّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ ؟ وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقاءِ إِلَّا آوَانِ الْفَنَاءِ مَعَ قُربِ الْزِيَالِ ، وَأَزْوَافِ الْاِنْتِقالِ ، وَعَلَزِ الْفُلَقِ ، وَأَمْ المُضَضِ ، وَغُصَصِ الْجَرَضِ ، وَتَلَفَّتِ الْاِسْتِغَاةَ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالْاَقْرَبَادِ وَالْاَعْزَةِ وَالْقَرْنَاءِ ، فَهَلْ دَفَعَتِ الْاَقْارِبُ ، أَوْ نَفَعَتِ التَّوَاحِبُ ، وَقَدْ غُودَرَ فِي مَحَلَّةِ الْاَمْوَاتِ رَهِينًا ، وَفِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيدًا ، قَدْ هَتَّكَتِ الْمَوَامِ جَلَدَتِهِ

وَابْلَتِ النَّوَاهِكُ جَدَّهُ ، وَعَفَتِ الْوَاعِصُ آثَارُهُ ، وَحَالَ الْحَدَّانُ مَعَالِهِ
وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَبَّهَةٌ بَعْدَ بَصْنَهَا ، وَالْعَلَامُ خَرَّةٌ بَعْدَ قُوَّتَهَا ، وَالْأَرْوَاحُ
مُرْتَهَنَةٌ بِثَقَلِ أَعْيَانِهَا ، مُوْقَنَةٌ بِغَيْبِ أَبْنَائِهَا ، لَا تُسْتَرَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا :
وَلَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَّهَا أَوْ لَسْتَمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالآبَاءِ وَإِخْوَانَهُمْ وَالْأَقْرَبَاءِ
يَخْتَذُونَ امْثُلَتِهِمْ ، وَتَرْكُوبُونَ قَدْتَهُمْ ، وَتَطَاوِلُونَ جَادَتِهِمْ ؟ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ
عَنْ حَظَّهَا ، لَاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مُضَارِّهَا ! كَانَ الْمَعْنَى سِواهَا
وَكَانَ الرُّشْدُ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا .

أقول : عندها : أهمها : والعشى : ظلمة تعرض للعين بالليل . والأشلاء : جمع شلو
وهو العضو وهو أيضاً القطعة من اللحم ، وكتني به عن الجسد . والحنو : الجانب . والأرفاق :
المنافع ، ويروى بأرماقها . والرمق : بقية الروح : والخلق : النصيب . الخناق : بالكسر جبل
يختنق به . والارهاق : الإعجال . والتشدّب : التفرق . ومهد الأمراض . مختلفاً ومشداً : أى
شيء . وأعنف الأوان : أوطنه . والبضاقة : امتلاء البدن وقوته . والهرم : الكبر . وغضارة
العيش طيبة . وآونة : جمع أوان كأزمنة جمع زمان والزيال : المزايلة . وأذف : قرب . والعزلة :
كالرعدة يأخذ المريض . والجرس : أن يتبلع ريقه على هم وحزن . والحفنة : الأعواان .
ونوردر : ترك . وأنهكه : أخلقه وأبلأه . والمعالن : الآثار . والشعب : البعير البالك الناحل .
والنخرة : البالية . والأعباء : الأثقال . والقدرة : بكسر القاف والدال المهملة : الطريقة ، وروى
بضم القاف والدال المعجمة ، والأول أصح .

ولنرجع إلى معنى .

فقوله : جعل لكم . إلى قوله : بأرفانتها .

تذكير بنعم الله تعالى بخلق الأبدان ، وما تشتمل عليه من المنافع . ففايدة الأسماع أن تعى مالختلت لأجله ، وفايدة الأ بصائر أن يدرك بها إلا إنسان عجائب مصنوعات الله تعالى فيحصل له منها عبرة . ولفظ العشا يحتمل أن يكون مستعاراً لظلمة الجهل العارض لا بصار القلوب حتى يكون التقدير لتجلو عشا قلوبها ، وحينئذ فـ دراك البصر المحصل عبرة يحصل للقلب بـ حجاء لذلك العشا فـ صح إذن إسناد الجلاء إلى الأ بصار ، ويحتمل أن يكون مستعاراً للعدم إدراكها ما تحصل منه العبرة إذ كانت فـ ايـ دتها ذلك فإذا لم يحصل منها ذلك إلا إدراك كانت كـ بـ صـ أـ صـ اـ بـ العـ شـ ، وـ وجـهـ الـ مشـابـهـ عـ دـمـ الـ فـائـدـةـ . وـ نـسـبـةـ الـ جـلاـءـ إـلـيـهـ بـ وجـودـ

إـدـرـاكـ المـفـيدـ عـنـهـ وـ هـوـ اـسـتـعـارـةـ أـيـضاـ . وـ عـنـ لـيـسـ بـ زـايـدـةـ لـأـنـ الـ جـلاـءـ يـسـتـدـعـيـ

مـجـلـوـاـ وـمـجـلـوـاـ عـنـهـ فـذـ كـرـعـيـلـةـ الـمـجـلـوـ وـأـقـامـمـقـامـ الـمـجـلـوـ عـنـهـ فـكـانـهـ قـالـ : لـتـجـلـوـ عـنـ

قوـاهـاـ عـشـاـهـ . وـأـمـاـ فـايـدـةـ الـبـدـنـ وـأـعـصـائـهـ فـقـدـ أـشـرـنـاـ إـلـيـهـ قـبـلـ مـفـضـلاـ ، وـقـولـهـ : قـائـمـةـ

بـأـرـاقـاقـهـ : أـيـ أـنـ كـلـ بـدـنـ قـائـمـ فـيـ الـوـجـودـ بـحـسـبـ مـاعـنـىـ لـهـعـنـ ضـرـوبـ الـمـنـافـعـ .

وقـولـهـ : وـقـلـوـبـ رـايـدـةـ . إـلـيـ قـولـهـ : سـتـرـهـاـعـنـكـمـ . إـظـهـارـهـلـنـتـهـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـىـ عـبـادـهـ

بـخـلـقـهـلـهـ وـهـدـاـيـتـهـ لـنـفـوـسـهـلـ لـأـرـتـيـادـ أـرـزـاقـهـلـ الـتـىـ بـهـاـقـوـامـ حـيـاتـهـ الـدـنـيـاـ وـ تـمـكـنـهـاـ مـنـ إـصـلاحـ

مـعـادـهـ ثـمـ باـعـتـبـارـ كـوـنـهـ فـيـ مـحـلـلـاتـ نـعـمـهـ وـسـوـاـبـغـهـ . فـمـنـهـ : سـتـرـهـ عـلـيـهـمـ قـبـائـحـ أـعـمـالـهـمـ أـنـ

تـظـهـرـ، وـهـوـاجـسـ خـواـطـرـهـ بـعـضـ بـعـضـ بـحـيـثـ لـوـ اـطـلـعـ كـلـ عـلـىـ مـالـهـ فـيـ ضـمـيرـ صـاحـبـهـ

مـنـ الغـلـ وـالـحـسـدـ وـتـمـنـيـ زـوـالـ نـعـمـتـهـلـأـفـنـيـ بـعـضـهـ بـعـضـاـ وـخـربـ نظامـ وجودـهـ . وـمـوجـبـاتـ

مـنـهـ : نـعـمـهـ الـتـىـ يـسـتـوـجـبـ أـنـ يـمـنـ بـهـ . وـمـنـ روـيـ بـفتحـ الـجـيمـ فـاطـمـاـدـ بالـمـنـنـ إـذـ النـعـمـ

وـمـوجـبـاتـ ماـ سـقـطـ مـنـهـ وـأـفـيـضـ عـلـىـ الـعـبـادـ . وـحـوـاجـزـ عـافـيـتـهـ : مـامـنـهـ عـوـاـمـلـ الـأـمـراضـ

وـالـمـضـارـ الـمـنـدـفـعـةـ بـهـ ، وـإـنـمـاذـ كـرـسـتـرـ كـمـيـةـ الـأـعـمـارـ فـيـ مـعـرـضـ الـمـنـنـ لـأـنـهـ مـنـ النـعـمـ

الـعـظـيمـةـ عـلـىـ الـعـبـدـ إـذـ كـانـ اـطـلـاعـ إـلـيـهـ عـلـىـ كـمـيـةـ عمرـهـ مـمـاـ يـوـجـبـ اـشـتـفـالـ خـاطـرـهـ

بـخـوفـهـ مـنـ الـمـوـتـ مـنـ عـمـارـةـ الـأـرـضـ وـبـيـطـلـ بـسـبـبـهـ نـظـامـ هـذـاـ الـعـالـمـ .

وـقـولـهـ : وـخـلـفـ لـكـمـ عـبـراـ .

وـجـهـ مـنـ مـنـنـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـىـ عـبـادـهـ فـإـنـ إـيقـائـهـ أـحـوـالـ الـمـاضـينـ وـمـاـ خـلـفـوهـ عـبـرـةـلـلـلـاحـقـينـ

سـبـبـ عـظـيمـ لـجـذـبـهـمـ عـنـ دـارـ الـغـرـورـ وـمـهـاـوـيـ الـهـلاـكـ إـلـىـ سـعـادـةـ الـأـبـدـ . وـمـسـتـمـعـ خـلـقـهـمـ : مـاـ

شرح الفصل الأول من الفصل السابع

استمتعوا به مما كان نصيباً لكلّ منهم في مدة بقائه من متاع الدنيا. ومستفسح خناقهم محلّ الفسحة لا عناقهم من ضيق حبائل الموت وأغلال الجحيم ، وذلك المستفسح هو مدة حياتهم أيضاً ثم أردد ذلك بوصف حال الماضين في غروزهم ، وذكر إعجال الموت لهم عن بلوغ آمالهم وتشذيبه لهم باختراهم عنها وبته به على وجوب تقصير الأمل والاستعداد للموت وكذلك نبّتهم بقوله : لم يمهدوا . إلى قوله : **إِلَوْإِنْ** . على تقصير الماضين في إصلاح معادهم حيث أمكنهم ذلك في سلامه أبدانهم وأول زمانهم ليحصل لهم بذلك التذكرة نفقة عن حال السابقين وازرعاج عن الغرور إلى الاستعداد بالمتقوى والأعمال الصالحة ، ثم استفهمهم عمّا ينتظرون الشباب بشبابهم غير حوانى الهرم ، وأهل الصحة بصحتهم غير الأسمام والمعمرّون بطول أعمارهم غير الفناء استفهاماً على سبيل الإنكار لما ينتظرونـه غير هذه الأمور وتقريراً على ذلك الانتظار وتنفيراً عنه بذكر غاياته التي حصره فيها .

وأعلم أنّ ذلك ليس انتظاراً حقيقياً لكنّ ما كان المنتظر لأمر و المتربّـ له تاركـاً في أحواله ما يعنيه من الاشتغال إلى غاية أن يصل إليه ما ينتظره ، وكانت غاية الشباب أن يعني ظهورهم الهرم . وغاية الصحيح أن يسقم ، وغاية المعمر أن يفنى أشبهـ تركمـ للعمل وعبادة الله إلى غایاتـهم المذكورة لانتظارـ لها . فاستغير له لفظ الانتظار . ثم كنـتـ عن شدةـ حال المفارقـ في سكرـاتـ الموتـ بأوصافـ تعرضـ له حينـئـذـ كالرعدـةـ والغلـقـ والغمـ والخوفـ والغضـبـ بالـريقـ والتـلـفتـ للاستـغـاثـةـ بالـأـعـوانـ والـأـقـباءـ وـالـأـعـزـةـ . ثمـ بـتهـ بـقولـهـ : فـهـلـ دـفـعـتـ الـأـقـارـبـ أـوـ نـفـعـتـ النـواـبـ : أـىـ الـبـواـكـىـ . عـلـىـ أـنـ مـاـ يـقـعـ عـنـ دـنـزـوـلـ الـموـتـ مـنـ تـلـكـ الـأـحـوـالـ لـاـ يـنـفـعـ فـيـ دـفـعـهـ قـرـيـبـ وـلـاحـبـ عـلـىـ طـرـيـقـ الـاسـتـفـاهـ وـالـإـنـكـارـ .

وقوله : قدغودر .

الجملـةـ فيـ محلـ النـصبـ عـلـىـ الـحالـ وـالـعـاملـ نـفـعـتـ : أـىـ لـمـ يـنـفعـ البـكـاءـ حالـ مـاـ غـوـدـرـ فيـ محلـ الـأـمـوـاتـ بـالـأـوـصـافـ الـكـريـبةـ تـنـفـيرـاـ عـنـ أحـوـالـهـ وـ جـذـبـاـ إـلـىـ الـخـالـصـ منـ أحـوـالـهاـ بـالـعـملـ شـوـالـ إـلـاـ خـالـصـ لـهـ . وـ رـهـيـناـ : إـىـ مـقـيـماـ أـوـرـتـهـنـاـ بـذـنـوبـهـ وـمـوـثـقـابـهـ . وـ نـصـبـهـ عـلـىـ الـحالـ وـ كـذـلـكـ وـحـيدـاـ ، وـ مـوـضـعـ قـوـلـهـ : قـدـهـتـكـتـ ، وـ باـقـيـ الـأـفـعـالـ الـمـعـطـوـفـةـ عـلـيـهـ . وـ الـهـوـامـ: الـدـيـدـ انـ المـتـوـلـدـةـ مـنـ جـيـفـةـ أـوـغـيرـهـاـ .

وقوله : والأرواح مرتئنة بثقل أعبائها .

إشارة إلى اشتغال النفوس وانحاططها إلى الجنبة السافلة بثقل ما حملته من الأوزار واكتسبته من المهن الرديئة . وما يتحقق غيبة من الأبناء هناك هو الأخبار عن الأحوال اللاحقة بها بعد الموت من خير وشر فإذا تيقن غيبتها عن أهل الدنيا، أو أبناء مخالفته من اللواحق الدنيوية فإنه يتيقن بعد الموت غيبتها وانقطاعهاعنها . والأول أولى .

وقوله : لاستزاد من صالح عملها ولا تستعبد من سبي زللها .

أى لا يطلب منها زيادة من العمل الصالح ولا يقال من سبي زللها ويرضى عنها كقوله تعالى « وإن يستعيبوا فما هم من المعتبرين » ^(١) وذلك لعدم آلية العمل وامتناع الرجوع إليه و عدم تمكّنها من نزع ماصار في عنقها من أطواق المهن الرديئة كما قال تعالى « قال رب أرجعون على أعمل صالحا فيما تركت كل إنساناً كلمة هو قاتلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » ^(٢) .

وقوله : أولستم آباء القوم والأبناء وإخوانهم والأقرباء .

أى وليس فيكم من هو أب لأحد ولذلك أو ابن له أو أخوه أو قريبه، وهو تنبيه للسامعين على وجہ العبرة فإنه ملائر حال الماضين في الموت وما بعده تنبههم على أنهم أمثالهم في كل تلك الأحوال ليرجعوا إلى تقوى الله الذي هو سبب النجاة من تلك الأحوال .

وقوله : تحذدون أمثلتهم .

أى تقتدون بهم في أفعالهم وتسلكون مسالكهم في غرورهم ونحوه كما قال تعالى حكاية « إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونْ » ^(٣) .

وقوله : فالقلوب قاسية عن حظها .

أى لا استعداد لها تقبل بحظها الذي ينبغي لها طلب الاهية عن رشدها غافلة عن طلب هدایتها سالكة في غير مضمارها . المضارب فيها : هو الشريعة وأمر الله، وسلوكها لغيره: ارتكابها لمناهي الله، ورياضتها: هي الأعمال الصالحة التي هي طريق الجحيم .

وقوله : كان المعنى سوها و كان الرشد في إحرار دنياه .

بالغة في ذكر إعراض القلوب وغفلتها عن الموعظ وإنما كها في تحصيل الدنيا إلى غاية أن أُشْبِهَتْ من لم يكن معيناً بالخطاب بها، أو أن الرشد الذي جذبت إليه إنما هو تحصيل الدنيا وجمعها الذي جذب عنه وحذرت منه.

الفصل الثاني : في التذكير بأمر الصراط و التحذير من أهواه ، والبحث على التقوى وذلك قوله :

وَاعْلَمُوا أَنَّ بَيْانَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ ، وَمَرْقَلَقَ دَحْصَتِهِ ، وَاهَارِيلَ زَلَّهِ وَنَارَاتِ
أَهْوَالِهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقْيَةً ذِي لُبْ شَغَلَ التَّفْكِيرَ قَلْبَهُ ، وَانْصَبَ الْخَوْفُ بَدْنَهُ
وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدَ غَرَارَ نَوْمِهِ ، وَاظْمَأَ الرَّجَاءَ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ ، وَظَلَفَ الرَّهْدُ
شَهْوَاتِهِ ، وَارْجَفَ الذِّكْرَ بِلِسَانِهِ ، وَقَدِمَ الْخَوْفَ لِإِبَانِهِ ، وَنَكَبَ الْمُخَالِجَ
عَنْ وَضْحِ السَّبِيلِ ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكَ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ ، وَلَمْ تَفْسِلْهُ
فَاتَّلَاتُ الْغَرُورِ وَلَمْ تَعْمَلْ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأَمْوَارِ ، ظَافِرًا بِفَرَحةِ الْبَشَرِيِّ ،
وَرَاحَةِ النَّعْمِيِّ فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ ، وَآمِنِ يَوْمِهِ ، قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَيْدَارًا
وَقَدِمَ ذَاتَ الْأَجْلَةِ سَعِيدًا ، وَبَادَرَ مِنْ وَجْلِ ، وَأَكْثَشَ فِي مَهَلِ ، وَرَغَبَ
فِي طَلَبِ ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبِ ، وَرَاقَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ ، وَنَظَرَ قَدْمًا أَمَامَهُ فَكَفَى
بِالْجَهَنَّمَ ثَوَابًا وَنَوَالًا ، وَكَفَى بِالنَّارِ عَقَابًا وَبَالًا وَكَفَى بِاللَّهِ مُتَقَبِّلًا وَنَصِيرًا
وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجًا وَخَصِيمًا وَصِيمُكُمْ يَتَقَوَّى اللَّهُ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ

وأَحْتَجَ بِمَا نَهَى وَحَذَرَ كُمْ عَدُوا نَفَدَ فِي الصُّورِ خَفِيًّا، وَنَفَثَ فِي الْآذَانِ تَجَيًّا
 فَاضِلٌ وَأَرْدَى، وَوَعْدٌ فَنِي، وَزِينَ سَيَّئَاتِ الْجَرَامِ، وَهُونَ مُوبِقاتِ الْعَظَامِ
 حَتَّى إِذَا أَسْتَدَرَ قَرِينَهُ، وَاسْتَغْلَقَ رَهِينَهُ؛ انْكَرَ مَازِنَ : وَاسْتَعْظَمَ
 مَاهُونَ ، وَحَذَرَ مَالِمَ

أقول: المزلق: الموضع الذي لا تثبت عليه قدم. والدھن: الزلق. والتهجد: العبادة بالليل . والغرار : النوم القليل ، وأرجف : أسرع. والمخالج : الأمور المشغلة العازبة ، وأكمش : أمضى عزمه ومضى قدماً لم يرجع .

واعلم أنّ "الصراط الموعود به في القرآن الكريم حقّ يجب الإيمان به وإن اختلف الناس في حقيقته ، و ظاهر الشريعة والذى عليه جهور المسلمين ومن أثبت المعاد الجسماني يقتضى أنه جسم في غاية الدقة والعدة ممدود على جهنم وهو طريق إلى الجنة يجوزه من أخلص الله . ومن عصاه سلك عن جنبيه أحد أبواب جهنم ، وأماماً الحكماء قالوا بحقيقة . وما يقال في حقه : إنه كالشعر في الدقة فهو ظلم بل نسبة الشعرة إليه كنسبةها إلى الخط" الهندسي الفاصل بين الظل" والشمس الذي ليس من أحدهما فهو كذلك الخط الذي لاعرض له أصلاً ، وحقيقة هو الوسط الحقيقي" بين الأخلاق المتضادة كالسخاوة بين التبذير والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن ، والاقتصاد بين الإسراف والتقصير ، والتواضع بين التكبر والمهانة ، والعلفة بين الشهوة والخمود ، والعدالة بين الظلم والانتظام . فالآوساط بين هذه الأطراف المتضادة هي الأخلاق المحمودة ، ولكلّ واحد منها طرف الزبادة ولا من طرف النقصان . قالوا : وتحقيق ذلك غاية البعد بين طرقه وليس من طرف الزيادة وهم منفكون عن هذه الأوصاف المتضادة وليس أن" كمال الإنسان في التشبه بملائكة وهم منفكون عن هذه الأوصاف المتضادة وليس في إمكان الإنسان الانفكاك عنها بالكلية فغايتها التباعد عنها إلى الوسط تباعداً يشهد

الانفكال عنها. فالسخن كأنه لا يخيل ولا مبذر . فالصراط المستقيم هو الوسط الحق الذي لا يميل له إلى أحد الجانبين ولا عرض له وهو أدق من الشعر . ولذلك قال تعالى « ولن تستطعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كلَّ الميل »^(١) وروى عن الصادق عليه السلام و قدس سر عن قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » قال : يقول : أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلغ دينك والمانع من أن تتبع أهوائنا فنعطيك أو نأخذ بأرائنا فنهلك . وعن الحسن العسكري عليه السلام : الصراط صراطاً : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة . فاما الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل ، والصراط الآخر هو طريق المؤمنين إلى الجنة لا يبعدون عن الجنة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنة . والناس في ذلك متفاوتون فمن استقام على هذا الصراط وتعود سلوكه من على صراط الآخرة مستوى دخول الجنة آمنا .

إذا عرفت ذلك فنقول : مزاق الصراط كنایة عن الموضع التي هي مظان انحراف الإنسان عن الوسط بين الأطراف المذمومة ، وتلك الموضع هي مظان الشهوات والميول الطبيعية ، وأهاويات زلل الله هي ما يستلزم العبور إلى أحد طرق الإفراط والتغريط من العذاب العظيم في الآخرة . وتارات أهواله تكرار ذلك تارة بعد أخرى .

وقوله : فاتقوا الله . عود إلى الأمر بتقوى الله تقيّة من استجتمع أوصاف الإيمان : أحدها : تقيّة من شغل التفكير قلبه : أى في أمر معاده عن محبة الدنيا و باطلها .

الثاني : وأنصب الخوف بدنك : أى أتعبه وأنحله خوف الله تعالى وما أعد للعصاة من الأهوال .

الثالث : وأسهرت العبادة غرانتومه : أى لم تترك له نوماً .

الرابع : واظمأ الر جاء هو اجر يومه : أى اظمأ ر جاء ما أعد الله لا ولداته إلا برار عوضاً من طيبات هذه الدار . و ظماء في هو اجر يومه كنایة عن كثرة صيامه في أشد أوقاته

(١) ٤ - ١٢٨ -

حرارة ، وإنما جعل البوادر مفعولاً إقامة للطرف مقام المظروف ، وهو من وجوه المجاز .
الخامس : وظف الزهد شهواته . استعار لفظ الإطفاء للزهد وهو من أوصاف الماء
و نسبته إلى النار نسبة الزهد إلى الشهوات فلاحظ الشبه بين الشهوات والنار في
تأثيرهما المؤذى ، وبين الزهد والماء لما يستلزمانه من كون الإعراض عن الدنيا يستتبع
 فهو الشهوات ودفع مضارها كما يفعله الماء بالنار .

السادس : وأسرع [أرجف خ] الذكر إلى لسانه : أى لتعوده إياته وإداماته فيه .

السابع : وقد الخوف لأمانة لا [إياته خ] : أى خوف ربه . فعمل مخلصاته ليأمن عذابه .

الثامن : وتنكب المخالف : أى عدل عن الأمور المشغلة إلى واضح سبيل الله .

التاسع : وسلك أقصد المسالك : أى أولاه بالقصد إلى النهج الواضح والطريق
المطلوب لله من خلقه ، وهو سبيله المستقيم فإن الناس في سلوك سبيل الله مذاهب كثيرة
ولكن أحبتها إليه أولاه بالقصد إلى طريقه الموصى إليه .

العاشر : ولم تقتله فاتلات الغرور : أى لم تهلكه غفلاته في لذات الدنيا عن ربها
إذ لم يغفل عن طاعته .

الحادي عشر : ولم تعم عليه مشتبهات الأمور : أى لم تظلم في وجهه شبهة على حق
في سد عليه وجه تخلصه .

الثاني عشر : ظافراً بفرحة البشرى : أى بشرى الملائكة يومئذ : بشريك اليوم
جنتاً تجري من تحتها الأنوار .

الثالث عشر : وراحة النعمى ، والراحة في مشاق الدنيا ومتاعها بنعمى الآخرة .
ونعيم الله في الآخرة الجنة .

الرابع عشر : في أنعم نومه : أى في أطيب راحته ، وأطلق لفظ النوم على الراحة
في الجنة مجازاً إطلاقاً لاسم الملزم على لازمه .

الخامس عشر : وآمن يومه : أى آمن أوقاته ، وأطلق لفظ اليوم على مطلق الوقت
مجازاً إطلاقاً لاسم الجزء على الكل .

ال السادس عشر : قد عبر عبر العاجلة : أى الدنيا . حميداً : أى محمود الطريقة .

السابع عشر : وقدم ذات الآجلة سعيداً : أى عمله للأخر فحصل على السعادة الأبدية ، وحيداً وسعيداً حالان .

الثامن عشر : وبادر من وجل : أى إلى الأعمال الصالحة من وجل خوف الله .

التاسع عشر : وأسرع في مهل . أى إلى طاعة ربِّه أيام مهلته ، وهي حياته الدنيا .

العشرون : ورحب في طلب : أى كان طلبه الله عن رغبته له .

الحادي والعشرون : وذهب عن هرب : أى كان ذهابه عمما يبعد عن الله عن هرب من خوف الله . وفي كل قرينتين من هذه العشرة السبع المتوازى .

الثاني والعشرون : وراقب في يومه غده : أى توقع في أيام حياته هجوم آخر له .

الثالث والعشرون : ونظر قدماً أمامه : أى لم يلتفت في نظره عن قصد الله إلى غيره .

ثم بيته بقوله : فكفي بالجنة ثواباً ونولاً . على وجوب السعي لها دون غيرها ، ثم تكون النار وبالوعقايا على وجوب الهرب منها دون غيرها ، وكفى بالله منتقماً ونصيراً على وجوب الاقتصاد على خشيته والاستعاذه به ، وبقوله : وكفى بالكتاب حبيجاً : أى محتاجاً وخصوصياً على وجوب الانفعال عنه وما لاحظة شهادته في الآخرة على من لم يتبعه . وتنسب الاحتجاج والخصام إلى الكتاب مجازاً ، والمنصوبات بكفى على التمييز .

وقوله : أوصيكم بتقوى الله .

عود إلى الحث على تقوى الله باعتبار أمور ثلاثة :

أحدها : إعذاره إلى الخلق بما أنذرهم به من العقوبات .

الثاني : احتجاجه عليهم بما أوضحته بالدلائل والبيانات .

الثالث : تحذيره لهم بإيليس وعداوته ، وقد سبق معناه في الخطبة الأولى . وذكر له

أوضاعاً هي كونه نفذ في الصدور خفياً . والإشارة به إلى النفس الأمارة بالسوء ، وتوجُّز بلطف الصدور في القلوب إطلاقاً لاسم المكان على المتمكن ، وكونه نفث في الآذان نجيناً .

وهو إشارة إلى ماتلقنه شياطين الإنس بعضهم إلى بعض من زخرف القول وغزوته . وقد سبق ذلك في الخطبة الأولى ، وكونه أضل : أى جذب عن طريق الحق و أردى : أى فارداهم في قرار الجحيم ، وعد ومنى : أى يبلغ الآمال الكاذبة ، وزين سيئات الجرائم : أى

قبابح المعاصي ، و هو من موبقات العظائم : أى ما يهلك من عظيم الذنوب . و تهونه لها بمثل تمنيه التوبة ومساعدة العقل له بقوله « إن ” اللَّهُغَفُورُ رَحِيمٌ ” و بمثل الاقتداء بالغير الذي هو أولى بالعفة مثلاً أو أكثر قدرًا في الدنيا ، و سائر أوصاف الوساوس كما عرفت حقيقتها .

وقوله: حتّى إذا استدرج قرينته و استغلق زهينته .

قرئته هي النفس الناطقة باعتبار موافقته وهي رهينته باعتبار إحاطة الذنوب بها من قبله كما يستغلق الرهن بما عليه من الملل و لفظ الرهينة مستعار . واستدرجه لها تزيينه حالاً بعد حال و تعويدها بطاعته .

وقوله : أَنْكَرْ مَا زِيَّنَ . إلى آخره .

إشارة إلى غايتها من وسوسته وعود من النفس الأُمَّارة بالسوء إلى موافقتها لحكم العقل في قبح ما كانت أمرت به، واستعظام خطره ومساعدتها على التحذير منه بالامتناع من تحسينه بعد أن كانت تحت عليه و تزيينه و تؤمن منه . و ذلك إما عند التوبة و قهر العقل لها أو عند معاينة المكر واهات الجزئية من العقوبات والآلام إما في الدنيا أو بعد المفارقة و الحصول في عذاب الجحيم بسبب الانهماك فيما كانت زينته من الباطل ، و ذلك أن ” النفس إذا فارقت البدن حملت معها القوة المترهلة فتدرك ما يتحققها من جزئيات العقوبات كعذاب القبر و ما يتتوّع منه كما سبقت الإشارة إليه ، وقد يتصور ذلك من شياطين الإنس في تزيينهم الجرائم ، وأما من الشيطان الظاهر فظاهر . و منها في صفة خلق الإنسان ، وفي هذا الفصل فصلان .

الفصل الأوّل قوله :

أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَ فِي ظُلُلَاتِ الْأَرْحَامِ ، وَشَعْفِ الْإِسْتَارِ ؟ نُطْفَةٌ دَهَاقَةً
وَعَلْقَةٌ مُحَاقَّاً ، وَجَنِينَا وَرَاضِيًّا ، وَوَلِيدًا وَيَافِيًّا ، ثُمَّ مِنْهُ قُلْبًا حَافِظًا ، وَلَسَانًا
لَا فِظًا ، لِيَفْهَمُ مُعْتَرًا ، وَيَقْصُرُ مِنْ دِرْجًا ، حَتَّى إِذَا قَامَ أَعْتَدَهُ ، وَأَسْتَوَى

مِثَالُهُ ، نَفَرَ مُسْتَكِبًا ، وَخَبَطَ سَادِرًا ، مَا تَحَا فِي غَربِ هَوَاهُ ، كَادَ حَمِيَّةً
 سَعِيًّا لِدُنْيَاهُ ، فِي لَذَاتِ طَرْبِهِ ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ، لَا يَحْتَسِبُ رِزْيَهُ وَلَا يَخْشِعُ
 قَيْمَةً ، فَاتَّ فِي فُتْنَتِهِ غَرِيرًا ، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيرًا ، لَمْ يُفْدِ عَوْضًا ،
 وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرْضًا ، دَهْمَتْهُ ، بَجَعَاتُ الْمَنَى فِي غُبْرِ جَمَاحَهُ ، وَسَنَنَ مَرَاحَهُ ،
 فَظَلَّ سَادِرًا ، وَبَاتَ سَاهِرًا ، فِي عَمَرَاتِ الْآلَامِ ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ
 بَيْنَ أَخَ شَقِيقٍ ، وَوَالِدٍ شَفِيقٍ ، وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعًا ، وَلَادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقَةً
 وَالْمَرْهُ فِي سَكَرَةٍ مُلْهِيَّةٍ ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ ، وَانَّهُ مُوجَعَةٌ ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ ،
 وَسُوقَةٍ مُتَبَعَةٍ . ثُمَّ ادْرَجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِسًا ، وَجَذْبَ مُنْقَادًا سَلِسًا ، ثُمَّ الْقِيَ
 عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِعَ وَصَبَ ، وَنَضَوْسَقَ ، نَحْمَلُهُ حَفَدَةُ الْوَلَدَانِ ، وَحَشَدَةُ
 الْإِخْوَانِ ، إِلَى دَارِ غَرَبَتِهِ ، وَمَنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ ، حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيْعُ ، وَرَجَعَ
 الْمُتَفَجِّعُ ، اقْعَدَ فِي حُفْرَتِهِ تَجْيِيَّهَا لِهِتَةِ السُّؤَالِ ، وَعَثْرَةُ الْأَمْتَحَانِ ، وَأَعْظَمُ
 مَا هُنَالِكَ بِلِيَّةً نِزُولُ الْحَمِيمِ ، وَتَصْلِيَّةُ الْجَحِيمِ ، وَفَورَاتُ السَّعِيرِ ، وَسُورَاتُ
 الْزَّفِيرِ ، لَا قَرْةُ مُرِيَّةٍ . وَلَا دَعَةُ مُزِيَّةٍ ، وَلَا قُوَّةُ حَاجِزَةٍ ، وَلَا مَوْتَهُ
 نَاجِزَةٌ ، وَلَا سِنَةٌ مُسْلِيَّةٌ ، بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ !! إِنَّ
 بِاللَّهِ عَائِدُونَ .

أقول : أعلم أنّ مدار هذا الفصل على وصف حال الإنسان من مبدئه عمره بالنقسان و بيان نعم الله بتريده في أطوار الخلقة ، و تبكيته بمقابلة نعمه بالكفر و الغفلة في متابعة الشيطان ، و تذكيره بما يكون غايته من حياة الدنيا و هو الموت و ما يتبعه من أحوال الميلت بين أهله و أقاربه ، و حالهم معه و ما يكون بعد الموت من العذاب في القبر والسؤال و الحساب و سائر ما ينذر طبعه منه ، و يوجب له الالتفات إلى إصلاح معاده و تذكير مبدئه لعله يتذكر أو يخشى .

و الشغف بالغين المعجمة : جمع شغاف بالفتح و هو غلاف القلب . والدفاق : المفرغة . و المحاق : الناقصة . و اليافع : الغلام المرتفع . و السادر : الالاهي الذي لا يهتم بشيء والماتح : الجاذب للدلل من البشـر . والبدوات : الخطرات التي تبدو : أي تظهر للخاطر . و دهمه بالكسر : أي غشيه . و غير شيء : بقيته و بحاجه : سعيه في ركوب هواه . والسادرثانيا : المتخيـر . واللدم : ضرب الصدر . و كارثة : موجبة لشدة الفم . و إلا يلاس : اليأس . والرجيع : من الإبل المردـد في الأسفار . والنضو : الذي قد هزلته . و حفنة الولدان : أعوانهم . والحسـدة بفتح الحاء والشين : المجتمعون . والتـفجع : التوجع .

و في تفصيل هذا الفصل نكت :

الأولى: أم للاستفهام . وهو استفهام في معرض التقرير للإنسان وأمره باعتبار حال نفسه ، و دلالة خلقته على جزئيات نعم الله عليه مع كفراته لها . وكان أم معاذلة لهمة الاستفهام قبلها ، والتقدير أليس فيما أظهره الله لكم من عجائب مصنوعاته عبرة؟ أم هذا الإنسان و تقبـلـه في أطوار خلقـته و حالـاته إلى يوم نشورـه؟ كقولـه تعالى « وفي أنفسكم أفالـا تـبـصـرون» و في بعض النسخ : وهذا . ولـمعنى واحد .

اعلم أنّ في ملاحظة خلقة الإـنسـان و ما جـعـ فيها من طائفـ الأـسـرـارـ عبرـةـ تـامـةـ حتىـ كانـ عـالـماـ مـختـصـراـ كماـ أوـ مـاـنـاـ إـلـيـهـ قـبـلـ ، وـ سـيـأـتـيـ .

الـثـانـيـةـ : قـيلـ أـوـلـ أـحـوالـ تـكـونـ الإـنـسـانـ زـبـديـةـ المـنـيـ وـ اـنـفـاخـ يـظـهـرـ فـيـ فـيـنـمـوـ بـهـ ، وـ أـوـلـ مـاـ يـتـكـونـ فـيـ وـ عـاءـ الرـوـحـ بـفـعـلـ الـمـلـكـ الـمـصـوـرـ ثـمـ تـحدـثـ رـيحـ منـ قـبـلـ الطـبـيـعـةـ فـتـنـقـبـ ثـقـبـ ثـقـبـ أـمـاـ فـوهـاتـ الـعـرـوقـ بـحـيـثـ إـذـاـ تـخـلـقـتـ مـحـسـوـسـةـ صـارـتـ عـرـوـقـاـ ثـمـ يـبـسطـ النـطـفـةـ

في أقطارها و تحدث في الغشاء ثقباً موازية لثقب العروق التي في الرحم ينفتح عند الحوض ، ويحصل لجميعها مجاري في الغشاء المذكور يؤدي إلى مجرى واحد نافذ إلى عمق النطفة مؤدياً إلى باطنه الدم في عرقين أو عرق ونفس في عرقين فإذا تخلّفت هذه المجاري امتصت النطفة حينئذ الغذاء من فوهات تلك العروق ، ونفذ في الصفاقي دم يستحيل عن قريب إلى جوهر المني وحدث لها خطوط لها مبادئ دموية ، ونقطة أولى هي القلب ثم لا تزال الدموية تزداد في النطفة حتى تصير علقة تكون مثل الرغوة في الأكثـر لستة أيام ، وابتداء الخطوط الحمر و النقطة بعد ثلاثة أيام أخرى ثم بعد ستة أيام وهو الخامس عشر من حين العلـق تنفذ الدمويـة في الجميع فتصير علقة ، و بعد ذلك باثنـي عشر يوماً تصير لـحـما و تميـز قطـعة لـحـم المضـغـة و تمـيـز الأـعـضـاء الرئـيـسـة ، وتمـدـد رطـوبـة النـخـاعـ ثمـ بعد تـسـعـة أيام يـنـفـصـلـ الرـأـسـ عنـ الـمـنـكـبـينـ والأـطـرافـ عنـ الضـلـوعـ وـ اـبـطـنـ تـمـيـزـ يـحـسـ بـهـ فـيـ بـعـضـهـمـ وـ يـخـفـيـ فـيـ بـعـضـ حـتـىـ يـحـسـ بـهـ بـعـدـ أـرـبـعـةـ أـيـامـ أـخـرىـ تـمـامـ الـأـربعـينـ فـيـصـيرـ جـنـيـناـ ، وـ قـدـ يـتـمـ ذـلـكـ فـيـ ثـلـاثـيـنـ يـوـمـاـ وـ قـدـ يـتـمـ فـيـ خـمـسـ وـ أـرـبـعـيـنـ يـوـمـاـ ، وـ قـيـلـ :ـ العـدـلـ فـيـ ذـلـكـ خـمـسـةـ وـ ثـلـاثـيـنـ يـوـمـاـ فـيـتـحـرـكـ فـيـ سـبـعـيـنـ يـوـمـاـ ، وـ يـوـلـدـ فـيـ مـائـيـنـ وـ عـشـرـةـ أـيـامـ وـ ذـلـكـ سـبـعـةـ أـشـهـرـ ، وـ إـذـاـ كـانـ الـأـكـثـرـ لـخـمـسـةـ وـ أـرـبـعـيـنـ يـوـمـاـ فـتـحـرـكـ فـيـ تـسـعـيـنـ يـوـمـاـ ، وـ يـوـلـدـ فـيـ مـائـيـنـ وـ سـبـعـيـنـ يـوـمـاـ ، وـ ذـلـكـ تـسـعـةـ أـشـهـرـ .ـ فـهـذـهـ إـشـارـةـ إـلـىـ تـنـقـلـهـ فـيـ ظـلـمـاتـ الرـحـمـ بـتـدـبـيرـ الـمـلـكـ الـمـقـتـدـرـ وـ وـاسـطـةـ الـمـلـكـ الـمـصـورـ ، وـ لـوـ كـشـفـ الـغـطـاءـ لـرـأـيـناـ هـذـهـ التـخـطـيطـ وـ التـصـوـيرـ يـظـهـرـ عـلـيـهـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ مـعـ أـنـاـ لـأـنـرـىـ الـمـصـورـ وـ لـآـلـتـهـ .ـ فـسـيـحـانـ الـمـقـتـدـرـ عـلـىـ مـاـ يـشـاءـ .ـ

الثالثة : إنـما وصف العلقة بالمحاق لأنـها لم تـفـضـ عـلـيـهاـ بـعـدـ صـورـةـ شـخـصـ إـلـاـ إـنـسانـ فـهـىـ بـعـدـ مـنـمـحـقـةـ .ـ

الرابعة : الـوـلـدـ مـاـدـاـمـ يـرـضـعـ فـهـوـ رـضـيعـ ، وـ بـعـدـهـ وـلـيدـ ، فـإـذـاـ اـرـتفـعـ قـيـلـ :ـ يـافـعـ .ـ فـإـذـاـ طـرـشـارـيـهـ فـهـوـ غـلامـ ، فـإـذـاـ أـدـرـكـ فـهـوـ رـجـلـ ، وـ لـلـرـجـولـيـةـ ثـلـاثـةـ حدـودـ :ـ الشـيـابـ وـ هـوـ إـلـىـ تـمـامـ النـمـوـ ، وـ بـعـدـهـ الـكـهـولةـ ، وـ بـعـدـهـ الشـيـوخـةـ .ـ

الخامسة : ذـكـرـ الـحـفـظـ لـلـقـلـبـ وـ الـفـاظـ لـلـسـانـ وـ الـلـحـظـ لـلـبـصـرـ يـانـ لـفـوـاـيـدـهـ ، ثـمـ ذـكـرـ

غاية تلك الفوائد ومقصودها ، وهو أن يفهم إلا إنسان يعتبر أى يستتبع من شواهد آلاء الدليل وحدانيته وساير نعوت جلاله ويعبر فيها إلى استكمال الفضائل النفسانية ويقصر مزدجرأ: أى يكتفى عملاً لا يبني من موبقات الأيام وعن الخوض فيما لا يعنيه مزدجرأ عنها .

السادسة : قوله حتى إذا قام اعتداله واستوى مثاله نفر مستكراً إلى آخر الأوصاف . ربما يعترض فيقال : إن كثيراً من الناس لا يكون بهذه الصفة وحينئذ لا تصدق عليهم هذه الأحكام . فجوابه : أن إشارته عليه السلام إلى إلا إنسان المطلق الذي هو في قوله البعض لا إلا إنسان العام ، وذلك أن الأوصاف المذكورة إذا صدق على المطلق فقد صدق على بعض الناس ، وذلك البعض هم العصاة المرادون بهذه الأوصاف ، والتوييج بها لهم ، وفيه تنبية للباقيين على وجوب دوام شكر الله والبقاء على امتثال أوامره ونواهيه .

السابعة : ما تحا في غرب هواه . لما استعار لفظ الغرب لهواه الذي يملا به صحائف أعماله من المآثم كما يملا ذو الغرب غربه من الماء رشح تلك الاستعارة بذكر المثل .

الثامنة : المنصوبات العشرون : نطفة و علقة و جنينا و راضعاً و وليداً و يافعاً ومعتبراً و مزدجرأ و مستكراً و سادراً و ماتحاً و كادحاً و غيرها و مبلساً و منقاداً و سلسأً و رجيعاً و صب و نضو سقم ونجيأ . كلها أحوال ، والعامل في كل حال ما يليه من الأفعال . وسعياً إماً مفعول به و العامل كادحاً أو مصدر استغنى عن ذكر فعله ، ويسيراً صفة ظرف محنوف أقيمت مقامه : أى زماناً يسيراً ، وروى أسيراً فعلى هذا يكون حالاً ، وجزعاً و قلقاً و تقيه مفعول له ، واستعار أسيراً للعصى على الرواية الثانية ، ووجه المشابهة أن صاحب الرلة يقوده هواه إلى هوانه كما يقاد الأسير إلى ما يكره .

الحادية عشرة : لم يدعه شيئاً : أى لم يستفاد في الدنيا عوضاً مما يفوته منها في الآخرة ، والعوزن الذي ضيّعه هو الكلمات التي خلق ليستفيدها وفرضت عليه من الطاعات ولم يقضها من العلوم والأخلاق .

الحادية عشرة : الواوفي المرء للحال والعامل لادمة . والآية الموجعة أى لقلوب الواجبين عليه والجذبة المكرية : أى جذب الملائكة للروح كما قال تعالى ولو ترى إذا ظالمون في غمرات الموت و الملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ^(١) الآية ، وروى عن رسول الله

اللهم قال : إنَّ المؤمن إذا احتضر أنته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فينسِلْ روحه كماتسل الشُّعُرَة من العجين ويقال : أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية إلى روح الله وكرامته فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطوبت عليه الحريرة وبعث بها إلى عَلَيْنَ ، وإنَّ الكافر إذا احتضر أمر الله الملائكة بمسح فيه بحرة فنزَعَ روحه انتزاعاً شديداً ويقال : أيتها النفس الخبيثة ارجعى ساخطة مسخوتاً عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وكان لها نشيش ، ويطوى عليها ذلك المصح ، وينذهب بها إلى سجين .

واعلم أنَّ تلك الجذبة تعود إلى ما يجده الميت حال النزع وهو عبارة عن ألم ينزل بنفس الروح يستغرق جميع أجزاءه المنتشرة في أعماق البدن وليس هو كسائر ما يجده الروح المختص بعض الأعضاء كعضو شاكوشوكه ونحوه لاختصاص ذلك بموضع واحد فالمآل النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزاءه وهو المجنوب من كل عرق وعصب وجزء من الأجزاء ومن أصل كل شعرة وبشرة . ولا تسئل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ، وقد يمثل ذلك بشجرة شوك كانت داخل البدن ثم جذبت منه فهي الجذبة المكربة ، ولما كان موت كل عضو من البدن عقيب الأمراض التي ربما طالت تدريجاً فقتلتك هي السوقه المتعبه .

الحادي عشر : قوله : رجيع وصب ونضوسقم . استعار لوصفى الجمل فالرجيع باعتبار كونه قد ردَّ في أطوار المرض وتواءر عليه كما يردَّ الجمل في السفر مرَّة بعد أخرى ، ولغط النضو باعتبار نحو له من الأقسام كما ينحل الأسفار العمل .

الثانية عشر : قوله : أُقعد في حفرته نجيأ بهته السؤال . إلى آخره .

أقول : القول بعذاب القبر وسؤال منكر ونكير حق روى عن رسول الله **اللهم** أنه قال لعمر : يابن الخطاب كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاوسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوكم ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب فيدفعونك فإذا انصرفوا عنك أثارك فتنا القبر منكراً ونكيراً أصواتهما كالرعد القاصف وأصواتهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما و يحيثان

القبر بأنّيَا بهما في بلادك ويزل لزلك فيقول لك : من ربّك ؟ ، و من نبيّك ؟ و ما دينك ؟
كيف بك عند ذاك يا عمر . فقال عمر : فيكون معى عقلى الآن ؟ قال عليه السلام : نعم . قال :
فإذن أكفيهما . وفي وصفهما عنه عليه السلام أنّهما ملكان أسودان أرزقان أحدهما منكر
والآخر نكير .

واعلم أنَّ الإيمان بما جاء من ذلك على ثلاث مراتب :

أحدها : وهو الأظهر الأسلم أن يصدق بأنّها موجودة وأنَّ هناك ملkin على
الصورة المحكية ، وحيات وقارب تلدغ الميت ، وإن كننا لا نشاهدها إذلا تصلح هذه
العين لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكلَّ ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت كما
كانت الصحابة يؤمّنون بنزول جبريل ، وكان النبي عليه السلام يشاهده و إن لم يكونوا
يشاهدونه ، وكما أنَّ جبريل لا يشبه الناس فكذلك منكر و نكير و فعلهما و الحيات
و العقارب في القبر ليس من جنس حيات عالمنا . فتدرك بمعنى آخر .

المقام الثاني : أن يتذكّر ما قدراته النايم من صورة شخص هايل يضر به أو يقتله
أو حيّة تلدغه وقد يتآلم بذلك حتى تراه في نومه يصبح و يعرق جبينه وينزعج من مكانه
كلَّ ذلك يدرك من نفسه و يشاهده و يتاذّي به كما يتاذّي اليقطان وأنت ترى ظاهره
ساكناً ولا ترى حوله شخصاً ولا حيّة ، والحيّة موجودة في حقّه متخيّلة له ولا فرق
بين أن يتخيّل عدوًّا أو حيّة أو يشاهده .

المقام الثالث : أن تعلم أنَّ منكرًا و نكيراً و سائر أحوال القبر غايتها الأيام
و المولم في حقّه ليس هو الشخص المشاهد ولا الحيّة بل ما حصل فيه من العذاب فالنفس
العاصية إذا فارقت البدن حلت القوة المتخيّلة معها و لم يتجرّد عن البدن منزّهة عن
الهيئات البدنية و الأخلاق الرديئة المهلكة من الكبر والرياء والحسد و الحقد والحرس
و غيرها ، وهي عند الموت عاملة بمفارقة البدن متوجهة لنفسها إلا إنسان الذي مات وعلى
صورته كما كان في الرؤيا يتخيّل و يتوهّم بدنها مقبورة و يتخيّل الآلام الوائلة إليها
عن كلِّ خلق رديء على سبيل العقوبة الحسيّة لها كما قرّرت الشريعة الصادقة ، وانفرس
في الأذهان عنها على صورة شخص منكر هائل الصورة يعنقه في السؤال و يبهته بسوء

ذَكْرِ ماجاه فِي عَذَابِ الْقَبْرِ وَسُؤَالِ الْمَلَكِينَ

منظره و هول أصواته و يمتحنه فيتلجلج لسانه فيضر به و يعذّبه ، وعلى مثال تنين يلدغه ، و إن كانت النفس سعيدة تخيلت اللذات الحاصلة لها من كل خلق حسن و عمل صالح قدّمه في صورة ملائمة فوق ما كانت يعتقده مما كان وصف لها من صور أشخاص بهيمة يدخل عليهم و يتلقّاهم بال بشارة كمبشر و بشير و سائر الملائكة الذين يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن فسحة القبر و الروح و الريحان و سائر ما وعد فيه . فهذا عذاب القبر و ثوابه وإليه الإشارة يقول الرسول ﷺ: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

فإن قلت : لم جعل أول داًخِل على الإنسَان في قبره سواه كان سعيداً أو شقياً ملَكِين و لم يكن ثلاثة أو واحداً مثلاً .

قلت : قال بعض العلماء : إنما كانت السعادة والشقاوة المحاصلتين للنفس إنما يحصل من جهة قوّتين نظرية وعملية بهما جعل ما يكتسب عن كل واحدة منها ملكاً . فإن كان المكتسب جهلاً من كُبَّا و رذائل أخلاق فمنكر و نكير و إن كان علماً و مكارم فمبشر و بشير . والله أعلم بأسرار شريعته .

و أعلم أنك متى تصوّرت معنى ثواب القبر و عذابه في المقامات تصوّرت معنى ثواب الجنّة و عذاب النار .

الثالث عشر : قوله لا فتره مزدحه ولا فرقة حاجزة يجرى مجرى آيات الوعيد الناطقة بالتخليد، وهي مخصوصة بالكافار الذين لا مسكة لنفسهم بعالم الملوك و نحوه قوله تعالى «إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»^(١) وأما أنه ليس لهم قوّة حاجزة فلان القوّة الحاجزة بينهم وبين العذاب مقودة في حكمهم وهي المسكة بالله تعالى ومحبة الالتفات إلى عالم الغيب و الملاّ الأعلى، وأما عدم الموتة الناجزة فلان الإنسان غير قابل للقضاء مرّة أخرى كما علم ذلك في موضعه وأما سلب السنة عنهم إشارة إلى شدة آلامهم و ما يلقونه من أليم العذاب ما أنَّ الألم الشديد يستلزم عدم النوم فلا سلوة إذن بين حالات سكريات العذاب ، و إطلاق لفظ الموتات مجاز

في شدة العذاب إطلاعاً لذى الغاية على ما يصلح غاية له وقد لا حظ في أكثر هذا الفصل السجع المتوازى وبالله التوفيق .

الفصل الثاني قوله :

عَبَادَ اللَّهِ، أَيْنَ الَّذِينَ عَمِرُوا فَتَعْمَلُوا، وَعَلِمُوا فَقَهُمُوا، وَأَنْظُرُوا فَلَهُمَا،
وَسَلِمُوا فَتَسْلُوا؟ أَمْهُلُوا طَوِيلًا، وَمُنْحُوا جَيْلًا، وَحَذَرُوا إِلَيْهَا، وَوَعَدُوا
جَسِيًّا! احْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُوْرَطَةَ، وَالْعَيُوبَ الْمُسْخَطَةَ
أُولَى الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ! هَلْ مِنْ مَنَاصٍ، أَوْ خَلَاصٍ
أَوْ مَعَاذٍ، أَوْ مَلَادٍ، أَوْ فَرَارٍ، أَوْ تَحَارٍ؟ أَمْ لَا؟ فَإِنَّ تُوْفَكُونَ! أَمْ
أَيْنَ تُصْرِفُونَ؟ أَمْ بِمَاذَا تُغْتَرُونَ؟ وَإِنَّمَا حَظَّ أَحَدُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ
الْطُولِ وَالْعَرْضِ قِيدَ قِدَّهُ، مُتَعْرِفًا عَلَى خَدِّهِ. الْأَنْ عَبَادَ اللَّهِ وَالْخَنَاقِ
مَهْمَلٌ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ؛ فِي فَيْنَةِ الْإِرْشَادِ، وَرَاحَةِ الْأَجْسَادِ، وَبَاهَةِ
الْإِحْتِشَادِ، وَمَهْلِ الْبَقِيَّةِ، وَأَنْفُ الْمُشَيَّةِ، وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ، وَأَنْفُسَاحِ
الْحَوْبَةِ، قَبْلَ الصَّنْكِ وَالْمَضِيقِ، وَالرَّوْعِ وَالْزُّهُوقِ، وَقَبْلِ قُدُومِ الْغَائِبِ
الْمُنْتَظَرِ، وَأَخْدَةِ الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ.

أقول : و رطته في الأمر: خلصته فيه . و المناص: الملجأ . و المحار: المرجع .

وأفك : صرف . و قيد : قدر مقدار قامته . و المعرف : المترتب . والعفر : التراب . و الفينة :

الجبن . وأنف الشيء : أوله . والحوبة : الحاجة والمسكنة . والضنك : الضيق . وفي هذا الفصل فوائد :

الأولى: التنبية والتقرير على كفران جملة من نعم الله ، فمنها أن عصّرهم فنعموا ، وعلّمهم ففهموا ، وأنظرهم وسلّمهم من الآفات وأمهلهم طويلاً ، ومن حمّم الجميل ، وحدّرهم أليم العذاب ، ووعدهم وعداً حسناً . و من كفرانهم لتلك النعمة أن استغلوا بذلّات الدنيا عن أوامره ولهوا عن الالتفات إليه ونسوا ما ذكرهم به ودعاهم إليه .

الثانية: التحذير من الذنوب المورطة في موارد الهلاكة وأنواع العذاب ثم من العيوب المسخطة لله وهي اكتساب رذائل الأخلاق .

الثالثة: تنبية أولى الأ بصار والأ سماع والعافية والمتاع في الدنيا على أنه لا مناص : أى من أمر الله ، ولا خلاص : أى من عذابه لم يحصل فيه ، وكذلك لا معان ولا ملاذ منه لم يستعد له . ولا فرار : أى من حكمه ، ولا مرجع : أى بعد الموت . وإنما خص "أولى الأ بصار والأ سماع والعافية لكونهم أهل التكاليف التامة ، والعقول داخلة في إشارته إما بالإ بصار والإ سماع مجازاً أوفي العافية ، وإنما خص "أولى المتاع لأن" أهل الاستمتاع بالدنيا هم المجنوّبون عنها من جهة اشتغالهم بمتعتها عن سلوك سبيل الله ، وهل استفهام عن الأمور المذكورة على سبيل الإنكار لها ثم استفهمهم عن وقت صرفهم ، وعن مكان ذلك على سبيل التقرير لهم ، ثم عمما يعتقدون به بعد لقاء الله في ترك أو أمره على سبيل الإنكار للأعذار أيضاً . وأمّا معادلة لهل الاستفهامية .

الرابعة: التذكير بأمر القبر و تعفير الخدّ فيه مما هو منفور عنه طبعاً و فيه تنبية على وجوب الانتهاء عن الاستكثار من قينات الدنيا وجناتها لوجوب مفارقتها وأنه لا نصيب للمجد في تحصيلها منها إلا مقدار قامته وهو كنایة عن قبره .

الخامسة: التنبية على وقت العمل والأحوال التي يمكنهم فيها . وكنى بالآن عن زمان الحياة الدنيا ، وبالخناق عمما تؤخذ به أعناق النّفوس إلى بارئها وهو الموت كنایة بالمستعار ، ووجه المشابهة كون كلّ واحد منها مكروها يقاد به إلى مكرره ورشح الاستعارة بذكر الإهمال ، وكنى به عن مدة الإهمال في الحياة الدنيا وكذلك

أراد بـرسال الروح إهـما لها ، و يكون ذلك الإـرسال في فـينة الـارتـيـاد : أـى في زـمان اـرـتـيـاد النـفـوس و طـلـبـها مـا تـسـتـعـدـ به مـن الـكـمال لـلـقـاء الله ، و روـي الـإـرشـاد : أـى إـرشـاد النـفـوس إـلـى سـبـيل الله وـجـهـ السـعـادـة الـأـبـديـة وـ كـذـلـكـ مـهـلـ الـبـقـيـة : أـى بـقـيـة الـأـعـمـار .
 السـادـسـةـ قولـهـ : وـ أـنـفـ المـشـيـةـ : أـى أـوـلـ الـإـرـادـاتـ للـنـفـوسـ ، وـ ذـلـكـ أـنـهـ يـنـبـغـيـ أنـ يكونـ أـوـلـ زـمانـ الـأـنـسـانـ وـ أـوـاـيـلـ مـيـولـ قـلـبـهـ إـلـىـ طـاعـةـ اللهـ وـ الـإـنـيـادـ لـأـوـامـرـ لـيـكـونـ ماـ يـرـدـ عـلـىـ لـوـحـ نـفـسـهـ مـنـ الـكـمـالـاتـ الـمـسـعـدـةـ فـيـ الـآخـرـةـ وـارـدـاـ عـلـىـ لـوـحـ صـافـ عنـ كـدرـ الـبـاطـلـ وـ أـنـهـ مـتـىـ عـكـسـ ذـلـكـ فـجـعـلـ أـوـاـئـلـ مـيـولـهـ وـ إـرـادـتـهـ مـلـعـاـصـيـ اللهـ تـسـوـدـ وـجـهـ نـفـسـهـ بـمـلـكـاتـ السـوـءـ فـلـمـ يـكـدـ يـقـبـلـ بـعـدـ ذـلـكـ الـإـسـتـضـاءـ بـنـورـ الـحـقـ فـكـانـ مـنـ الـأـخـسـرـينـ أـعـمـالـاـ .
 السـابـعـةـ : إـنـظـارـ التـوـبـةـ إـمـهـالـ اللهـ الـعـصـاـةـ لـأـجـلـهـاـ وـ مـلـاـ كانـ غـرـضـ الـعـنـيـةـ الـإـلهـيـةـ سـوقـ كـلـ "ـ نـاقـصـ إـلـىـ كـمـالـهـ حـسـنـ أـنـ يـعـبـرـ عـنـ بـقـاءـ الـعـاصـيـ بـأـنـهـ إـنـظـارـ لـالـتـوـبـةـ .

الـثـامـنـةـ : وـ انـفـاسـ الـحـوـيـةـ اـتـسـاعـ زـمانـ الـعـمـلـ لـلـحـاجـةـ فـيـ الـآخـرـةـ .ـ وـ الـإـضـافـةـ يـكـفـيـ فـيـهاـ أـدـنـىـ مـلـابـسـةـ وـ ذـلـكـ أـنـ "ـ كـلـ "ـ حـاجـةـ فـرـضـهـاـ الـإـنـسـانـ فـيـ الـدـنـيـاـ فـقـدـ لـاـ يـكـونـ فـيـ محلـ "ـ الـضـرـورةـ ،ـ وـ الضـيقـ الـكـلـىـ مـنـهـاـ وـ إـنـ كـانـ فـيـ محلـ "ـ الـضـرـورةـ لـكـنـهـاـ فـيـ مـظـنـةـ أـنـ يـرجـيـ زـوـالـهـاـ بـخـالـفـ الـحـاجـةـ وـ الـضـرـورةـ فـيـ الـآخـرـةـ إـلـىـ صـالـحـ الـأـعـمـالـ فـإـنـهـاـ لـاـ يـمـكـنـ زـوـالـهـاـ بـعـدـ الـمـفـارـقـةـ وـ لـاـ مـتـسـعـ لـلـعـمـلـ إـلـاـ فـيـ الـدـنـيـاـ وـ كـانـ أـهـلـهـاـ مـنـهـاـ فـيـ أـشـدـ ضـرـورةـ وـ أـضـيقـ حـالـ وـ أـقـبـحـ صـورـةـ ،ـ وـ أـشـارـ بـالـضـنـكـ وـ الضـيقـ إـلـىـ اـنـحـصارـ الـإـنـسـانـ فـيـ أـغـلـالـ الـهـيـثـاتـ الـبـدـيـةـ وـ سـجـنـ جـهـنـمـ ،ـ وـ بـالـرـوـعـ وـ الزـهـوقـ إـلـىـ الـفـزـعـ الـأـكـبرـ مـنـ أـهـوـالـ الـمـوـتـ وـ مـاـ بـعـدـهـ .

الـتـاسـعـةـ :ـ الغـائـبـ الـمـنـتـظـرـ كـنـيـةـ عـنـ الـمـوـتـ ،ـ وـ قـدـومـهـ :ـ هـجـومـهـ ،ـ وـ مـلـاـ استـعـارـ لـهـ لـفـظـ

الـغـائـبـ مـرـاعـةـ لـشـبـهـ بـمـسـافـرـ يـنـتـظـرـ رـسـحـ تـلـكـ الـإـسـتـعـارـةـ بـلـفـظـ الـقـدـومـ .

الـعـاـشـرـ :ـ أـخـذـةـ الـعـزـيزـ الـمـقـتـدـرـ جـذـبـ الـأـرـوـاحـ بـحـكـمـ قـدـرـةـ اللهـ الـعـزـيزـ الـذـي لاـ يـلـحـقـهـ إـذـلـ قـاـهـرـ ،ـ الـمـقـتـدـرـ الـذـي لاـ اـمـتـنـاعـ لـهـ لـقـدـرـةـ قـادـرـ .ـ وـ بـالـلـهـ التـوـفـيقـ .

٨١ - قـمـنـ كـلـ الـمـرـبـلـةـ عـلـيـهـ الـسـتـلـ الـأـفـرـيـقـيـ

فـ ذـكـرـ عـمـروـ بـنـ العاصـ

ـ بـعـبـنـاـ لـأـبـنـ النـابـغـةـ ،ـ يـزـعـمـ لـأـهـلـ الشـامـ أـنـ فـيـ دـعـاـبـةـ ،ـ وـ أـمـرـ وـ تـلـعـابـةـ :

أعافُ وأمارسُ ، لقد قالَ باطلًا ، وَنَطَقَ آثِمًا . أمًا ، وَشَرَّ القَوْلَ الْكَذَبُ
إِنَّهُ لِيَقُولُ فِي كَذَبٍ ، وَيَعْدُ فِي خَلْفٍ ، وَيَسْأَلُ فِي لِحْفٍ ، وَيَسْأَلُ فِي بَخلٍ ،
وَيَخُونُ الْعَهْدَ ، وَيَقْطَعُ الْأَيْلَ ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَإِنَّ زَاجِرًا وَآمِرًا !!
مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفَ مَا خَذَهَا ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكْيَدَتَهُ إِنْ يَمْنَعَ
الْقَرْمَ سَبَّتَهُ ، أمًا وَاللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُ مِنَ اللَّعْبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُ مِنَ
قَوْلِ الْحَقِّ نَسِيَانُ الْآخِرَةِ ، إِنَّهُ لَمْ يَأْبَعْ مَعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيهِ أَيْتَهُ
وَيَرْضَحَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيَّةً .

أقول : نبغ الشيء : ظهر و سميت أم عمر و النابغة لشهرتها بالفيجور و تظاهرها
به . و الدعاية : المزاح . و التلعاية : كثيرا للعب و التاء للمباغة . و المعافسة : المداعبة .
و الممارسة : المعالجة بالمسارعة و القرص و نحوه . والإيل : القرابة . و سبته : سوءته .
و الأيتة : العطية و الوزن واحدو كذلك الرضيحة .
و أعلم أن في هذا الفصل ثلاثة فصول :

الأول ذكر دعوى عمرو في حقه عليهما من كونه لعبا من أحدا يكثر المعالجة
بالمسارعة و ذكر هذه الدعوى مصدراً بالتعجب من صدورها في حقه مختومة بالكذب
ملدعاها و الرد لمقاله و ذلك قوله : عجبا إلى قوله : و نطق آثما و باطل و صرف للمصدر ،
و آثما حال وإنما كتى عنه بأمه لأن من عادة العرب النسبة إلى الأم إذا كانت
مشهورة بشرف أو خسنة و نحوها .

و أعلم أنه عليهما قد كان يصدر عنه المزاح بالقدر المعتدل الذي لا يخرج به إلى
حد رذيلة الإفراط فيه فمن ذلك ما روى أنه كان جالسا يوماً على رياوة من الأرض و كان
أبو هريرة جالسا معه و أخذ منه لفته و حذفه بنواة فالتفت إليه أبو هريرة فتبسم عليهما

قال أبوهيره : هذا الذي أخرك عن الناس ، وقد علمت أن ذلك من توابع حسن الخاق
ولين الجانب فهو إذن فضيلة وليس برذيلة و المدعى لعمرو إنما هو عبوره في ذلك
إلى حد الإفراط الذي يصدق عليه أنه لعب وهزل ، وروى أنه كان يقول لأهل الشام :
إنما إنما آخرنا علينا لأن فيه هزلاً لا جد معه ونحوه ما كان يقوله أبوه العاص لرسول
الله ﷺ إنه لساحر ومن أشبهه بأباه فما ظلم و تكذيبه ﷺ لعمرو إنما هو فيما دعا به
من الخروج إلى اللعب وأما أصل المزاح فلم ينكره وكيف وقد كان يصدر عن رسول
الله ﷺ كما روي أنه قال يوماً لعجوز : إن العجائز لا يدخلن الجنة فبك قتيس
وقال إن الله يجعلهن شواب ثم يدخلهن الجنة وأهل الجنة شباب جرد مرد وإن
الحسن والحسين عليهما سيدى شباب أهل الجنة . وكان يقول : أمنح ولا أقول إلا حقاً .
الثاني : قوله : أما وشر القول إلى قوله سبته ويشتمل على ذكر ما اجتمع في هذا
المدعى من الرذائل التي توجب فسقه وسقوط دعواه قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إن
جائزكم فاسق بنبا فتبينوا» ^(١) الآية وذكر من تلك الرذائل خمساً .

الأولى : الكذب و ظاهر كونه شر القول وأنه مفسدة مطلقة في الدين والدنيا
أما الدين فللمنقول والمعقول أما المنقول قول الرسول ﷺ الكذب رأس النفاق ، وأما
المعقول فلان الوجدان شاهد بأن الكذب مما يسوّد لوح النفس و يمنعه أن ينتعش بصور
الحق و الصدق و يفسد المنامات والإلهامات ، و أما الدين فلانه سبب عظيم لخراب
البلاد وقتل النفوس وسفك الدماء وأنواع الظلم ولذلك اتفق أهل العالم من أرباب
الملل وغيرهم على تحريمي وادعى المعتزلة قبحه بالضرورة و هورذيلة مقابلة للصدق داخلة
تحت رذيلة الفجور .

الثانية : الخاف في الوعد .

الثالثة : الغدر في العهد و خيانته و بما رذيلتان مقابلتان للوفاء دامتان تحت
رذيلة الفجور أيضاً و الغدر يستلزم رذيلة الخبث و هو طرف الإفراط من فضيلة الذكاء
وهما يستلزمان الكذب أيضاً .

الرابعة: قطع الرحم وهي رذيلة إلا فرط من فضيلة صلة الرحم و حقيقتها عدم مشاركة ذوى اللحمة في الخيرات الدينية وهي رذيلة تحت الظلم مستلزمة للبخل .

الخامسة: رذيلة العجب وهي طرف التغريط من فضيلة الشجاعة ونبيه عليه قوله : فإذا كان عند الحرب فأي زاجر و أمر هو إلى قوله : سبته ، وفيه تنبيه على دناءة همته ومهانة نفسه إذ كان على الهمة شهم النفس لا يفر من قراع الأقران إلى التخلص من الموت بأقبح فعل يكون من كشف سوءته وبقاء ذلك سبة في عقبه على مرور الدبور . والدناة و المهانة رذيلتان تحت العجب .

وقوله : فأي زاجر و أمر .

هو استفهام على سبيل التعجب والبالغة في أمره و نهيه و ذكره في معرض الذم هنا وإن كان من المماح لغرض أن يردفه برذيلته ليكون ذلك خارجاً مخرج الاستهزاء فيكون أبلغ وقعاً في النفوس وأشدّ عاراً عليه إذ كان الأمر و النهي في العرب إنما يحسن ممّن يشتهر بالشجاعة والإقدام لامتن يأمر وينهى فإذا اشتد القتال فـ فرار الحمار من السبع واجتهد في البقاء ولو بأقبح مذمة فإن عدم الأمر و النهي و الخمول بمثل هذا أليق وأولي من وجودها و كأن أبا الطيب حكى صورة حاله إذ قال .

و إذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزا
و أمّا صورة هذه الرذيلة منه فروى أن عليا عليه حمل عليه في بعض أيام صفين فلما تصوّر أنه قاتله ألقى نفسه عن فرسه و كشف سوءته مواجهاته فلما رأى ذلك منه غصّ بصره عنه و انصرف عمر و مكشوف العورة و نجا بذلك فصار مثلاً ملن يدفع عن نفسه مكروهاً بارتكاب المذلة والعار ، وفيه يقول أبو فراس .

ولا خير في دفع الأذى بمذلة كما ردّها يوماً بسوءه عمرو و روى مثل ذلك لبسير بن أرطاة معه فإنه عليه حمل على بسر فسقط بسر على قفاه و رفع رجليه فاكتشفت عورته فصرف عليه وجهه عنه فلما قام سقطت البيضة عن رأسه فصاح أصحابه يا أمير المؤمنين إنه بسر بن أرطاة فقال : ذروه - لعنه الله . فلقد كان معاويه أولى بذلك منه . فضحكت معاويه وقال : لا عليك يا بسر ارفع طرافك ولا تستحي ذلك بعمرو

أُسوة ، وقد أراك الله منه وأراه منك . فصاح فتى من أهل الكوفة : ويلكم يا أهل الشام أما تستحيون لقد علمكم عمرو كشف الأستار ثم أنسد :

له عورة وسط العجاجة باديه	أفي كل يوم فارس ذو كريمه
ويضحك منها في الخلاء معاوية	يكف لها عنه على سنائه
دعوره بسر مثلها حذو حاذية	بدت أمس من عمرو فتنفع رأسه
نشد تكما لاتلقيا الليث ثانية	فقولا لعمرو و ابن ارطاة ابصرا
هما كانتا والله للنفس واقية	ولاتحمنا إلا الحيا و خصا كما
وتلك بما فيها عن العود ناهية	ولواهما لم تنجوا من سنائه
و كان بسر ممّن يضحك من عمرو فصار ضحكة له أيضاً .	

الثالث : بيان وجه فساد مدّعى عمرو في حقه وهو مستند امنع و ذكر وجهين : أحدهما : يرجع إليه وهو أنه ~~يَكْفِي~~ دائم الذكر للموت والتفكير في أحوال المعاد والوجدان شاهد بأن المستكثر من إخبار الموت عليه يكون أبداً قصير الأمل و جلاً من الله مترصدًا لهجوم الموت عليه مشغولاً بذلك عن الالتفات إلى حظ الشهوات من اللعب و نحوه فكيف يتصور اللعب ممّن هذه حالة .

الثاني : يرجع إلى حال عمرو وهو أنه ممّن نسي الآخرة ، و ظاهر أن نسيانها مستلزم للكذب و سايير وجوه خداع أبناء الدنيا من المكر والجحيلة و مالا ينبغي من مناهي الله ، ومن كانت هذه حاله كيف يوثق بقوله ، ثم ^{نبيه} بقوله : ولم يبايع معاوية . إلى آخره على بعض لوازם نسيان الآخرة ، وهو أخذه لبيعته و قتاله مع الإمام الحق الذي يخرج به عن ربقة الدين عوضاً و ثمناً . وتلك العطية هي مصر كما سبقت الإشارة إليه . وبالله العصمة والتوفيق .

٨٢ - فَمَنْ جَنَاحَتْ لَهُ عَلَيْنَا السَّلَامُ

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لأشريك له : الأول لأشيء قبله ، والآخر

لَاغَايَةُ لَهُ، لَا تَقْعُدُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صَفَةٍ، وَلَا تَقْعُدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ ،
وَلَا تَنالُهُ التَّجْزِيَّةُ وَالتَّبْعِيْضُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ .

أقول : هذا الفصل يشتمل على إثبات ثماني صفات من صفات المجال :

الأولى الوحدانية مؤكدة بنفي الشركاء و ذلك قوله : لا شريك له . وقد أشرنا إلى معقد البرهان العقلية على الوحدانية ، ولما لم تكن هذه المسألة مما يتوقف إثبات النبوة عليها جاز الاستدلال فيها بالسمع كقوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »^(١) و قوله « و إلَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ». الثانية : إثبات كونه أو لا غير مسبوق بالغير .

الثالثة : إثبات كونه آخرًا غير منته وجوده إلى غاية يقف عندها . وقد سبق البحث عنهم مستقصي و نفي قبلية شيء له والغاية عنه تأكيدان .

الرابعة : من السلوب أنه لا تلحظه الأوهام فيقع منه على صفة . وقد علمت فيما سبق أن الأوهام لا يصدق حكمها إلا فيما كان محسوساً أو متعلقاً بمحسوس فأماماً الأمور المجردة من علائق المادة و الوضع فالوهم ينكر وجودها أصلاً فضلاً لأن يصدق في إثبات صفة لها وإنما الحكم بإثبات صفة له العقل الصرف ، وقد علمت أن ما يثبته منها ليست حقيقة خارجية بل أموراً اعتبارية محدثها عقولنا عند مقاييسه إلى الغير ، ولا يفهم من هذا أنه أثبت له صفة بل معناه أن الأوهام لا يصدق حكمها في وصفه تعالى .

الخامسة : كونه تعالى لا يعقل له كيـفـيـة يكون عليها ؛ و بيان ذلك ببيان معنى الكيـفـيـة فنقول : إنـها عـبـارـة عن هـيـئة قـارـة في المـحلـ لا يـوجـب اـعـتـباـر وجودـها قـسـمة وـلا نـسـبة ، وـلـما يـسـنـا أـنـه تعالى لـيـسـ لـهـ صـفـةـ تـزـيـدـ عـلـىـ ذـاتـهـ وـهـ مـحـلـ لـهـ اـسـتـحـالـ أـنـ يـعـقـدـ القـلـوبـ مـنـهـ عـلـىـ كـيـفـيـةـ .

السادسة : كونه تعالى لا تناله التجزية و التبعيـض ، وـهـ إـشـارـة إلى نـفـيـ الـكـمـيـةـ عـنـهـ إـذـ كـانـ الـتـجـزـيـةـ وـالـتـبـعـيـضـ مـنـ لـوـاحـقـهـاـ وـقـدـ عـلـمـتـ أـنـ الـكـمـ مـنـ لـوـاحـقـ الـجـسـمـ

والبارى تعالى ليس بجسم وليس بكم فليس بقابل للتبعيض والتجزية لأن كل قابل لهما منفعل من غيره والمنفعل عن الغير ممكّن على مامر .

السابعة : كونه تعالى لا تحيط به الأ بصار و هو كقوله تعالى « لا تدر كه الأ بصار » و هذه المسألة مما اختلف فيها علماء الاسلام وقد سبق فيها الكلام . و خلاصته : أن المدرك بحسنة البصر بالذات إنما هو الألوان والأضواء وبالعرض المتنون والمفني و لما كان اللون والضوء من خواص الجسم و كان تعالى منزهًا عن الجسمية و لواحقها وجوب كونه منزهًا عن الإدراك بحسنة البصر .

الثامنة : كونه تعالى لا يحيط به القلوب ، والمراد أن العقول البشرية قاصرة عن الإحاطة بكلمة ذاته المقدسة وقد سبق تقرير ذلك . و بالله التوفيق .

منها : فَأَتَعْظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبْرِ النَّوَافِعِ ، وَأَعْتَرُوا بِالآيِ السَّوَاطِعِ ،
وَأَزْدَجُوا بِالنَّذْرِ الْبَوَالِغِ ، وَأَنْتَفَعُوا بِالذَّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ ، فَكَانَ قَدْ عَلَقْتُكُمْ
مَخَالِبُ الْمَنَى ، وَأَنْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلَاقَ الْأَمَنَى ، وَدَهْتُكُمْ مُفَضَّعَاتُ الْأَمْوَرِ ،
وَالسَّيَاقةُ إِلَى الْوَرَدِ الْمُورُودِ ، وَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقٌ وَشَهِيدٌ : سَاقٌ يَسُوقُهَا
إِلَى مَحْشَرِهَا ، وَشَاهِدٌ يَشْهُدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا .

أقول : الآي : بجمع آية . و الساطع : المرتفع . و النذر : جمع نذير . و مفظعات الأمور : شدائدتها . و الورد : المورود . و في هذا الفصل فوائد :
الأولى : الأمر بالاتزان بالعبر النوافع ، و اسم العبرة حقيقة في الاعتبار ، و قد يطلق مجازاً فيما يعتبر به ، و يحتمل أن يراد هيئنا إطلاقاً لاسم الحال على المحل و للاتزان سبب وحقيقة وثمرة إنما سببه فالنظر في آثار الماضين و تدبر قصصهم و تصريف قضاء الله و قدرته لا حوالهم وهو الاعتبار ، وأيضاً حقيقته فالخوف الحاصل في نفس المعتبر من اعتباره و تأثيره عن أن يلحقه ما لحقهم إذ هو مثلهم و أولى بمالحهم ، وأيضاً ثمرته

فالانزجار عن مناهي الله و إجابة داعيه و الانقياد لسلوكه سبيله .

الثانية : الأمر بالاعتبار بالآى السواطع وهو إرداد للأمر بالاتعاظ بالأمر بسببه و أراد بالآى آيات آثار الله و عجائب مصنوعاته أو آيات القرآن المعذرة والمنذرة ، واستعار لها لفظ السطوع ، ووجه المشابهة ظهور إشراق أنوار الحق منها على مرأيا قلوب عباد الله كإشراق نور الصبح و سطوعه وهو استعارة لفظ المحسوس للمعقول و اعتباره بها انتقال ذهنه فيها في مقام النظر والاستدلال كما سلف بيانه .

الثالثة : الأمر بالازدجاج بالنذر البالغ وهو أمر بفائدة الاتعاظ والنذر هي زواجر الله ووعيداته البالغة حد الكمال في التخويف والزجر عند اعتبارها .
الرابعة : الأمر بالانتفاع بالذكر و الموعظ . وهو أمر بتحصيل ثمرة الذكر و الموعظة عنهم ، و ختم هذه الأمر بذكر الانتفاع ترغيباً وجذباً للنفوس إلى الذكر و قبول الموعظ .

الخامسة : التخويف والتذكير بالموت وما يتبعه ليبارروا إلى امتحال أو أمره السابقة قوله . فكأن قد علقتكم مخالب المنيّة . استعار لفظ المخالف للمنيّة استعارة بالكتابية و رشح بذكر العلوق ملاحظاً في ذلك تشبيه المنيّة بالسبعين الذي يهجم و يتوقع إفراسه و كأن مخففة من كأن و اسمها ضمير الشأن ، و يحتمل أن يكون أن الناصبة للفعل دخلت عليها كاف التشبيه .

وقوله : و اقطعت عنكم عاليق الْأُمَّيَّةِ .

إشارة إلى ما ينقطع عن الميت بانقطاع أمله من مال وجاه و سائر ما كان يتعلّق به آماله من عاليق الدنيا و متاعها .

وقوله : ود همتك مقطوعات الأمور .

إشارة إلى ما يهجم على الميت من سكرات الموت وما يتبعها من عذاب القبر و أهوال الآخرة .

وقوله : و السياقة إلى الورد المورود .

فالسياقة هي السوق المتبعة التي سلف ذكرها ، و الورد المورود هو المحشر .

وقوله : وكل "نفس معها سائق و شهيد .

اقتباس للآية « وجاءت كل "نفس معها سائق و شهيد » فالسائق الذي يسوقها إلى المحشر هو حكم القضاء الإلهي وأسباب الموت القريبة الحاكمة على النفس برجوعها إلى معادها فإن كانت من أهل الشقاوة فيها لها من سوقه متعبة و جزية مزعجة » و سبق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلا منكم » الآيات ، وإن كانت من أهل السعادة ساقها سائق رؤوف سوقاً لطيفاً « و نودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما کنتم تعملون » « و سبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها و فتحت أبوابها و قال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » و أمّا الشاهد عليها [بعملها] فقد سبقت الإشارة إليه . و بالله التوفيق .

و منها في صفة الجنة :

دَرَجَاتٌ مُّتَقَاضِلَاتٌ، وَمَنَازِلٌ مُّتَفَاوِتَاتٌ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلَا يَظْعَنُ
مُّقِيمُهَا، وَلَا يَهْرُمُ خَالِدُهَا، وَلَا يَيْسُ سَاكِنُهَا :

أقول : أعلم أن "الذئبار" الجنية هي المعارف الإلهية بالنظر إلى وجه الله ذي الحال والإكرام . و السعداء في الوصول إلى نيل هذه الثمرة على مراتب متفاوتة و درجات متفاضة . فالأخ الأولى : مرتبة من أولى الكمال في حدود القوّة النظرية حتى استغنى عن معلم بشري "رأساً" و "أُوتى" مع ذلك ثبات قوّته المتفكّرة واستقامة وهمه منقاداً تحت قلم العقل فلا يلتفت إلى العالم المحسوس بما فيه حتى يشاهد العالم المعقول بما فيه من الأحوال ويستتبّها في اليقظة فيصير العالم و ما يجري فيه متمثلاً في نفسه فيكون لقوّته النفسيّة أن يؤثر في عالم الطبيعة حتى ينتهي إلى درجة النقوس السماوية ، و تلك هي النقوس القدسية أولات المعراج و هم السابعون السابعون "ولئك المقر" بون ، و هم أفضل النوع البشري و أحقه بأعلى درجات السعادة في الجنة .

امرتية الثانية مرتبة من له الأمر ان الأولان دون الثالث أعني التأثير في عالم الطبيعة ، وهذه مرتبة أصحاب اليمين و تحتها مرتب .

فأحدها: مرتبة من له استعداد طبيعي لاستكمال قوته النظرية دون العملية الثانية : من اكتسب ذلك الاستكمال في قوته النظرية اكتساباً تكليفيّاً دون تهيؤ طبيعي ولا حصة له في أمر القوة العملية .

الثالثة : مرتبة من ليس له تهيؤ طبيعي ولا اكتساب تكليفي في قوته النظرية و له ذلك التهيؤ في القوة العملية .

الرابعة : مرتبة من له تكلف في إصلاح الأخلق و اكتساب الملائكة الفاضلة دون تهيؤ طبيعي لذلك .

إذ اعرفت ذلك فاعلم أن المقرب بين البالغين في الملائكة الشريف قد لذات عظيمة في الجنة قد فازوا بنعيم الأبد و السرور الدائم في حضرة جلال رب العالمين في معقد صدق عند مليك مقتدر غير مخرجين عن لذاتهم لهم فيها ما تشتهي الأنفس و تلذلذ الأعين وهم فيها خالدون كما قال عليه السلام : لا يطعن مقيمها . جرد عن عوارض الأبدان و شوائب الموارد مورد عن مزاجة القوى المتعاقبة المتتجاذبة المؤدية إلى الهرم و الموت مكحولين بالأنوار الساطعة ينظرون إلى ربهم بوجوههم المفارقة ، وأما أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين و لهم لذات دون الوصول إلى مرتبة السابقين ، وقد يخالط لذات هؤلاء شوب من لذات المقرب بين كما أشير إليه في التنزيل الإلهي في وصف شراب البرار « و مزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون وكل من المراتب كمال يخصه و درجات من السعادة في الجنة تخصه كمكافأة لهم درجات عند الله » و قال « يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات » و قال « لهم غرف مبنية من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهر » .

و إذا اعرفت ذلك فلنرجع إلى المتن فنقول : أما قوله : لا ينقطع نعيمه فلقوله تعالى « وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ماء ربك عطاً غير مجنوز » و قوله « إن هذا لرزقنا ماله من نفاده » لأن الكمال الذي حصل لإنسان فاستحق به سعادة في الجنة ملائكة ثابتة في جوهره لا تزول

ولا تتغير ومهما دام الاستحقاق القابل لوجود الله ونعمته وجب دوام ذلك الجود وفيه تلك النعمة إذ هو الجود المطلق الذي لا يخل من جهته ولا منع.

وأما قوله : ولا يطعن مقيمًا فلقوله تعالى «لهم جنات النعيم خالدين فيها أبدًا» وقوله «إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفَرْدَوسِ نَزِلاً خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا» و لأنَّ النعيم الأبدى مطلوب بالذات غير منموع منه فلا يكون مهروباً عنه بالذات .

وأما قوله : ولا يهرم خالدها ولا يائس ساكنها : أى لا يصيبه بؤس فلان الهرم مستلزم للتعب والنصب وكذلك البؤس عن الضعف وهذه اللوازم منفيَة عن أهل الجنَّة لقوله تعالى «وقالوا الحمد لله الذي أذهب عننا الحزن إن ربينا لغفور شكور الذي أحلَّنا دار المقامَة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب» و بانتفاء هذه اللوازم ينتفي عنهم ملزومها وهو الهرم . وبالله التوفيق .

٨٢ - فَمِنْ خَطْبَتِنِي عَلَيْنِي الْسَّلَامُ

وفيها فصول : الأولى : قوله :

قَدْ عَلِمَ السَّرَّاَرُ، وَخَبَرَ الضَّمَّاَرُ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلَبةُ لِكُلِّ
شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

وهذا الفصل يشتمل على بعض أوصاف الحق سبحانه :

الأول : كونه عالماً بالسرائر وهو كقوله تعالى «يعلم سركم ونجواتكم» .

الثاني : كونه خيراً بالضمائر . وهو قريب من المراد للعالم بالسرائر فإنَّ الخير هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة ولا تضرُّب نفس ولا تسكن إلا ويكون عنده خبرها وذلك يعنيه هو العالم مضافاً إلى السرائر والخفايا الباطنة وإن كان مطلق العلم أعمَّ .

الثالث : كونه محيطاً بكل شيء . وهو إشارة إلى علمه بكليات الأشياء وجزئياتها ،

و عليه اتفاق جمور المتكلمين و الحكماء : أمّا المتكلمون ظاهرون، وأمّا المحققون من الحكماء فملخص كلامهم إجمالاً في كيفية علمه تعالى أنه يعلم ذاته بذاته و يتّحد هناك المدرك والإدراك ولا يتعدّد إلا بحسب الاعتبارات العقلية التي تحدّثها العقول البشرية . وأمّا معلولاته القريبة منه فيكون بأعيان ذواتها و يتّحد هناك المدرك والإدراك ولا يتعدّدان إلا باعتبار عقليٍّ و يغايرهما المدرك، وأمّا معلولاته البعيدة كالعاديات المدعومات التي من شأنها إمكان أن توجد في وقت أو يتعلق بموجود فيكون بارتسام صورها المعقوله من المعلولات القريبة التي هي المدركات لها أولاً و بالذات و كذلك إلى أن ينتهي إلى إدراك المحسوسات بارتسامها في آلات مدركاتها . قالوا : و ذلك لأنَّ الموجود في الحاضر حاضر و المدرك للحاضر مدرك ما يحضر معه فإذا ذُكر لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لكون ذات معلولاته القريبة مرسومة بجميع الصور وهي التي يعبر عنها تارة بالكتاب المبين و تارة باللوح المحفوظ و تسمى عندهم عقولاً فعالة .

الرابع : كونه تعالى غالباً لكل شيء .

الخامس : كونه قوياً على كل شيء، وهم إشارتان إلى وصف قدرته تعالى بال تمام على كل مقدور فإنَّ القوة عليها والغلبة لها من تمام القدرة و يفهم من الغالب زيادة على القوى ويعود إلى معنى القاهر . وقد سبق بيانه ، وأمّا بيان صدق هاتين لفظيتين فيبيان أنه تعالى مبهه كل موجود وأنَّ كل ممكن مفتقر في سلسلة الحاجة إليه ، وقد فرغ من ذلك في الكتب الكلامية .

الفصل الثاني قوله :

فَلِيَعْمَلِ الْعَالِمُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهْلِهِ . قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجْلِهِ ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوْانِ شُغْلِهِ ، وَفِي مُتَنَفِّسِهِ قَبْلَ أَنْ يَؤْخُذَ بِكَظْمَهُ ، وَلِيَهُدِّنَفْسَهُ وَقَدْوَمَهُ ، وَلِيَزُودَ زَمْنَ دَارِ ظَعْنَهُ لَدَارِ إِقَامَتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمْرَأُ النَّاسِ فِيمَا أَسْتَحْفَظُكُمْ مِنْ كِتَابِهِ .

وَاسْتُوْدِعُكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَيْشًا، وَلَمْ يَرُكُمْ سُدِّيًّا
 وَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلَا عَمَّى : قَدْ سَمِّيَ آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ
 آجَالَكُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَعَمِّرَ فِيمُكُمْ نَيْهُ أَزْمَانًا
 حَتَّىٰ أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ - فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ - دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ وَأَنْهَى
 إِلَيْكُمْ، عَلَىٰ لِسَانِهِ، مَحَابَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهِ، وَنَوَاهِيهِ وَأَوْامِرِهِ، فَالْقِيَامُ
 إِلَيْكُمُ الْمُعْذِرَةُ، وَأَنْخَذَ عَلَيْكُمُ الْحَجَةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمُ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ
 يَدِي عَذَابٍ شَدِيدٍ . فَاسْتَدِرُ كُوَا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا هَا نُفْسُكُمْ : فَإِنَّهَا
 قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغُفلَةُ . وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمُؤْعَظَةِ، وَلَا
 تَرْخِصُوا لِنُفْسُكُمْ فَتَذَهَّبَ بِكُمُ الرَّخْصُ فِيهَا مَذَاهِبُ الظَّلَّةِ، وَلَا تُدَاهُنُوا
 فِيهِمْ بِكُمُ الْأَدَهَانُ عَلَىٰ الْمُصِيَّةِ . عَبَادَ اللَّهُ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ
 اطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَإِنَّ أَغْشَمُهُمْ لِنَفْسِهِ اعْصَاهُ لِرَبِّهِ، وَالْمَغْبُونُ مِنْ غَيْرِ نُفْسِهِ
 وَالْمَغْبُوطُ مِنْ سَلْمٍ لِهِ دِينُهُ، وَالْسَّعِيدُ مِنْ وُعظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيقُ مِنْ أَنْخَدَعَ
 لَهُوَاهُ . وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرَّيَاهَ شَرْكٌ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مُنْسَأَةٌ لِلإِيمَانَ
 وَمُحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ . جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلإِيمَانِ، الصَّادِقُ عَلَىٰ
 شَرْفِ مَنْجَاهٍ وَكَرَامَةٍ، وَالْكَاذِبُ عَلَىٰ شَفَاءٍ مَهْوَاهُ وَمَهَانَةٍ؛ وَلَا تَحَاسِدُوا

فَإِنَّ الْحَسَدَ يَا كُلَّ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ، وَلَا تَبَاغِضُوا فَإِنَّهَا -
 الْحَالَقَةُ وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمْلَ يُسْهِيُ الْعُقْلَ ، وَيُنْسِيُ الدُّكَرَ فَأَكْذِبُوا الْأَمْلَ
 فَإِنَّهُ غَرُورٌ ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ .

أقول : الفصل إلى آخره شروع في الموعظة المشورة، ولما قدّم الإشعار بأن "الله تعالى عالم بما في الصدور غالب على كلّ مقدور أمرهم بعده بالعمل وأراد الأعمال الصالحة المطلوبة بالتكاليف الشرعية وأن يجعلوها مهادأ لثبتات أقدامهم على الصراط المستقيم المأمور بسلوكة ثم تلطّف بالجذب إلى العمل بتذكيرهم بأنّهم في أيام مهلة وفراغ ومتنفس خناق يمكنهم فيه العمل وأنّ الذي يعلّمونه من الصالحات هو زاد لهم في سفرهم إلى الله وإلى دار إقامتهم وأنّ وراء هذه المهلة إدراك أجل بعده شغل بأهوال الآخرة وأخذ بالكم، وكنتى به عن عدم التمكّن من العمل إذ لم تكن الآخرة دار عمل ثم أبه بالناس وحدّرهم زبدهم أن يخالفوا فيما أمرهم بحفظه وهو كتابه ، وعني بحفظه تدبّر ما فيه والمحافظة على العمل بأمره ونواهيه وهي حقوقه التي استودعهم إياها ثم علل ذلك بتتبّعهم على أن الله تعالى لم يخلقهم عبّاً خالياً عن وجه الحكمة بل خلقهم ليستكملاً لفضائل النّفسانية بواسطة الآلات البديّة ولم يجعلهم في وجودهم مهملين بل ضبط آثارهم وأعمالهم وكتب آجالهم في كتابه المبين وألوانه المحفوظة إلى يوم الدين ونظم وجودهم برسول كريم عمره فيهم وكتاب أوضح لهم فيه السبيل التي لسلو كها خلقهم وأكمل لهم ولنبّيهم دينهم الذي ارضى لهم وما أهّلهم له من الكلمات المسعدة في الآخرة كما قال تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»^(١) وبلغهم على لسانه ما أحبّ لهم من الخيرات الباقيه وكرّه لهم عن الشرور المشقية في الآخرة كما اشتملت عليه أو أمره ونواهيه وأبان لهم فيه الأعذار وأوضحت فيه الحجج وشحنه بالوعيد والنذر بين يدي عذاب شديد ، واستعار لفظ اليدين للعذاب و كنتى بين يديه عن

الوقت المتقدم على عذاب الآخرة المشارف له ، ووجه المشابهة أن" إلا نذار بالمخوف يكون من ذى سطوة و باس شديد فكأنه تزال العذاب الشديد بمنزلة المعدّب فاستعار له يدين و جعل إلا نذار و التخويف منه متقدماً له بين يديه و ذلك من الجواب اللطيفة ، ثم عاد إلى أمرهم باستدراك بقية أوقاتهم في الدنيا وأن يصبروا لها أنفسهم : أى يلزموا أنفسهم فيها الصبر على الأعمال الصالحة ، وفي لفظ الاستدراك إشعار بتقاديم تغريط منهم في جنب الله و لذلك قال : فإنها قليل في كثير الأيام التي تكون منكم فيها الغفلة و التشاغل عن الموعظة . وإنما قال : لها . لأن" كل وقت يستحق " أن يوقع فيما ينبغي من الأفعال فصدق عليها أن" ذلك الفعل لها .

قوله : ولا ترخصوا أنفسكم . إلى قوله : المعصية [المقصية خ] .

أقول: ليس المقصود بالرخصة هنا الرخصة الشرعية بل ما يتسهل إلا إنسان فيه مع نفسه من تنوع المأكل و المشرب و المناكح و الخروج فيها إلى مالا ينبغي في نفس الأمر و يتأنّى له تأويلاً وحيلة يخيل أنها جائزة في الشريعة و يروج بها اتباعه لهواه ، و نحوه الاجتماع في السماع لغير أهله ، و حضور مجالس الفساق ، و معاشرة الظالمين . و الضابط الكلّي في هذا الباب هو توسيع الإنسان في الأمور المباحة و استيفاؤه حدّه فإنه من فعل ذلك شارف المكره ثم ربما لاحظ أنه لاعقاب في فعله فقداته شهوته إلى فعله فاستوفى حدّه فشارف المحظور ، و ذلك أن" العقل إذا أطاع النفس الأمارة بالسوء فيما تأمر به مرّة و مرّة لم يبق له نثار عمّا تقوده إليه لوقعه الأنس به . و ظاهر أن" ارتكاب بعض مأموراتها يجرّ إلى ارتكاب بعض فيؤدي ذلك إلى تجاوز الحدود الشرعية و عبورها إلى الوقوع في جبائل الشيطان و التهور في المحظورات التي هي مهاوى الهلاك ، ولذلك ماورد في الخبر : من رتع حول الحمى أو شرك أن يقع فيه و قد شبّه العارفون القلب بالحصن والشيطان بعد ويريد أن يدخله ولم يمكن دفع ذلك العدو" و التحفظ منه إلا بضبط أبواب ذلك الحصن التي منها الدخول إليه و حرستها وهي أبواب كثيرة كسائر المحرمات و مساعدة النفس في التوسيع في المباحات و الدخول في الأمور المشتبهة من أعظم تلك الأبواب و دخول الشيطان منه أسهل وهو عليه أقدر ولذلك قال عليه^{عليه} : فتدبر بكم الرخص فيها مذاهب

الظلمة ، ولا تداهنو فيهم بكم الإدهان على المعصية [المصيبة خ] . و مذاهب الظلمة مسالكها و طرقها العادلة من العدول ، و روى : أن إبليس ظهر ليعي بن ذكريماً عليه السلام فرأى عليه معاليق كل شيء فقال له : يا إبليس ما هذه المعاليق ؟ قال : هذه هي الشهوات التي أُصيب بهن قلوب بنى آدم فقال : هل بي فيها شيء ؟ قال : نعم ربما شئت فشققناك عن الصلوة وعن الذكر قال : هل غير ذلك ؟ قال : لا قال : لله علی أن لأملاً بطني من طعام أبداً فقال إبليس : الله على أن لا أتصح مسلماً أبداً . ولا تداهنو : أى لاتسلمو الظلمة و تساهلو معهم في السكوت عما ترونه من منكراتهم فيهم فيهم بكم الإدهان على المعصية : أى إذا آنستم مشاهدة المعاصي و ألقتم تكرارها كنتم بذلك عصاة و ربما ساقكم ذلك إلى فعل المنكر و مشاركتهم فيه .

وقوله : عباد الله . إلى آخره إخبارات في معنى الأوامر والنواهي و أوامر و نواهي صريحة مشتملة على جوازه إلى طاعة الله ولزوم دينه .

فالأول : قوله : إن أتصح الناس لنفسه أطوعهم لربه ، و بيانه أنه لما كان غرض الناصح إنما هو جلب الخير و المنفعة إلى المتصوح ، وكان أجمل خير و منفعة هو السعادة الباقة الأبدية و مشاهدة الحضرة الربوبيّة ، وكانت تلك السعادة إنما تناول بطاعة الله تعالى فكل من كانت طاعته لله أتمّ فكان هو أتصح الناس لنفسه بمباليغته في طاعته .

الثاني : قوله : وإن أغشّهم لنفسه أعصاهم لربه . وهو ظاهر مما قررناه فإنه لما كانت غاية الغش إنما هو جلب الشر و المضرة إلى المغشوش ، وكان أعظم شر و ضرر يلحق العبد هو الشقاوة الأبدية في قرار الجحيم ، وكانت تلك إنما يحصل إلا إنسان عليها بمعصية الله تعالى فكل من كانت معصيته أتمّ كانت شقاوته أتمّ فكانت هو أغنى الناس لنفسه بمباليغته في معصيته . و حاصل القضية الأولى الأمر بالطاعة أتم ما يمكن والثانية النهي عن المعصية أتم ما يمكن . و رغب في الطاعات بذكر نصيحة النفس لما أن النصيحة محبوبة و نفر عن المعصية بذلك غشّها .

الثالث : قوله : والمغبون من غبن نفسه . و المراد من غبنها بمعصية المستلزمة لدخول النار فكأن الإنسان بمتابعة شيطانه خادع لنفسه ، وقد بخسها ما تستحقه من ثواب الله ،

ولما كانت السعادة الآخرية أعظم ما يتنافس فيه لاجرم كان أعظم مغبون من لم يغبها فلذلك حصر المغبون في على طريق المبالغة وهو خبر في معنى النهي عن المعصية، ونفر عنها بذكر غبن النفس.

الرابع: قوله: والمغبوط من سلم له دينه، والغبطة أن يتمني إلا إنسان مثل ما لغيره من حال أومال مع قطع النظر عن تميّز زوال تلك الحال عنده هي له، وبهذا القيد يتميّز عن الحسد، والقضية ظاهرة مما قبلها فإنه لما كان من سلم دينه فائزًا بالسعادة الكبرى الباقية مع كونها أجلًا ما يغبط به ويتنافس فيه لا جرم كان هو أعظم مغبوط وله ذلك حصر المغبوط فيه مبالغة، ورغبة في المحافظة على الدين يكون من سلم له مغبوطاً.

الخامس: قوله: والسعيد من وعظ بغشه، وقد صارت هذه القضية في معنى المثل: أى السعيد في الآخرة من اعتبر حال غيره فشاهد بعين بصيرته مصير الظالمين فخاف عاقبتهم فعدل عن طريقهم وتذكرة حال المتقين فمال إلى جادتهم وسلك مسالكهم ورغبة في الاعظام بالغير بذكر استلزماته للسعادة.

السادس: وكذلك الشفقة في الآخرة من انخدع لهواه وغروره ونفر عن اتباع الهوى بذكر الخداع والغرور.

السابع: التنبية على أنّ يسير الرياء شرك. وقد سبق من بيان أنّ الرياء في العبادة وإن قلل التفات مع الله إلى غيره وإدخال له بالقصد بالعمل والطاعة وذلك في الحقيقة شرك خفي اتفق عليه أرباب القلوب.

الثامن: قوله: ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان ومحضه للشيطان. أراد بأهل الهوى الفساق المنقادين لدعوى الشيطان إلى الشهوات الخارجة عن حدود الله، ونفر عن مجالستهم بأنها محل للأمراء: أحدهما: نسيان الإيمان وهو ظاهر فإنّ أهل الهوى أبداً مشغولون بذلك ما هم فيه من لعب ولهو خائضون في أصناف الباطل وأنواعه فمجالستهم عن رغبة مظنة الغفلة عن ذكر الله والانجذاب إلى ما هم عليه عن الأعمال الصالحة وتلك أركان الإيمان وقواعده، وقد علمت أنّ كثرة الغفلات عن الشيء تؤول إلى نسيانه وأنه محالة عن لوح الخيال والذكر، وربما يتوجّز في مطلق الغفلة عن أوقات العبادة

الذكر بالنسبيان تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه . الثاني : كونها محلاً لحضور الشيطان ، وقد علمت معنى الشيطان وأن كلّ محلّ عصى الله فيه فهو حضور للشيطان وموطن له .

التاسع : الأمر بمجانبة الكذب و نفر عنه بقوله : فإنّه مجائب للإيمان ، وهو حديث نبوى ، ومعنى المجانبة كون كلّ منها في جانب فإن كانت الأعمال الصالحة داخلة في مسمى الإيمان فالصدق من جملتها ومضاد الصدق مضاد للإيمان وأحدالضدين مجائب للآخر فالكذب مجائب للإيمان ، وإن لم يكن كذلك فلنا : إنّ الكذب أعظم الرذائل الموبقة ، والإيمان أعظم الفضائل المتقنة ، وبين الفضائل والرذائل منافاة ذاتية فالكذب مناف للإيمان ومجائب له ، ويحتمل أن يكون معنى مجائبته له كونه غير لائق أن يجامعه في محلّ واحد وغير مناسب له . وبالجملة كونه ليس منه في شيء ، وقد يبين ما يشتمل عليه الكذب من المضار المهملة ، ثم أردف ذلك بالترغيب في الصدق بكون الصادق على شرف منجاة : أي مشارف لنجاة وكرامة أو محلّهما وهو الجنة إذ الصدق بباب من أبوابها ثم بالتنفير عن الكذب بكون الكاذب على شرف مهواه ومهانة : أي هوى وهو ان أو محلّهما وهو حضيض الجحيم الذي هو محلّ الهوان إذ الكذب بباب من أبوابها ، ومن انتهى إلى الباب فقد شارف الدخول ، وعن الرسول ﷺ : إياكم والكذب فإنّه يهدى إلى الفجور ، وإنّ الفجور يهدى إلى النار ، وإنّ الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذلك ، وعليكم بالصدق فإنّ الصدق يهدى إلى البر وإنّ البر يهدى إلى الجنة وإنّ الرجل ليتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله مصداقا ، وقال ﷺ : الكذب رأس النفاق . وهو ظاهر فإن مدار النفاق على المصادعة بالقول الغير المطابق لما في نفس الأمر وهو حقيقة الكذب .

العاشر : النهي عن الحسد ، وقد اتفق أرباب القلوب على أنه من أعظم أبواب الشيطان التي يدخل بها على القلب وهو أحد العوارض الرديئة للنفس و يتولد من اجتماع البخل والشربة في النفس ، وأعني بالشربة من تلذذ طباعها بمضار تقع الناس ويكره ما يوافئهم وإن كانوا ممن لا يرون هولم يسيئوا إليه ، وقد علمت أنّ من هذه صفتة مستحق للمقت من الله عزّ وجلّ وذلك أنه مضاد لإرادته إذ هو تعالى المتفضل على المزبد للخير

المطلق للكل . وقد رسم الحسد بأنه اغتمام الإنسان بخير يناله غيره من حيث لا يضره منه عليه ، وقد يوجد الحسد ممن له نفع مامن المحسود ، ويسمى الحسد البالغ .

وأما تعليله وجوب ترکه بأنّه يأكل الحسنات كما يأكل النار الحطب :

فأعلم أنّ العلماء قد اتفقوا على أنّ "الحسد مضر" بالنفس والجسد: أمّا بالنفس فلأنّه يذهلها و يغرق فكرها بالاهتمام بأمر المحسود حتى لا يفرغ للتصرّف فيما يعود نفعه عليها بل وينسى ما حصلت عليه من الملائكة الخيرية التي هي الحسنات المنقوشة في جوهرها ويضمحل على طول تعود الحسد واشتغال الفكر فيه وطول الحزن والهم لأنّ نعم الله على عباده أكثر من أن تمحى فإذا كان الحسد بهادم فانقطع وقت الحسد به عن تحصيل الحسنات ، وأما بالجسد فلأنّه يعرض له عند حدوث هذه الأعراض للنفس طول السهر وسوء الاغتساد ويعقب ذلك رداء اللون وسوء السجية وفساد المزاج .

إذا عرفت ذلك فنقول : إنّه قد استعار هيئتنا لفظ الأكل لكون الحسد ماحياً لما في النفس من الخواطر الخيرية التي هي الحسنات ومانعاً من صدورتها ملائكة و ذلك بسبب استغراقها في حال المحسود واشتغالها به ، وشبه ذلك بأكل النار الحطب . ووجه الشبه ما يشترك فيه الحسد والنار من إفقاء الحسنات والخطب واستهلاكهما .

الحادي عشر : النهي عن التبغض وتعليله ذلك بأنّها الحالة ، و أعلم أنه لما كان أمر العالم لا ينتظم إلا بالتعاون والتضارف ، وكان التعاون إنّما يتم بالآلفة و كان أقوى أسباب الآلفة هو المودة و المؤاخة بين الخلق كانت المودة من المطالب المهمة للشارع ، ولذلك آخا رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ ، بين أصحابه لتخالص محبتهم و تصفو أقوافتهم ويصدق بينهم التعاون و التضارف و الاتحاد في الدين ، وقال صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ : المرء كبير أخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ماترى له . فلذلك كان التبغض بينهم منهيّا عنه مكروهاً في الشريعة لما يستلزم من التقاطع بينهم وعدم تعاونهم وتضارفهم ، و بسبب ذلك تتخطّف كلاماً منهم أيدي حاسديه و تتحمّل فيه أهواه أغادييه فلم تسلم له نعمة ولا تصفو له مدة بل يكون بذلك بواره واضمحلال النوع و هلاكه ، ولذلك قال صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ : فإنهما الحالة . وأصل هذا المفهوم مستعاراً يطلق الشعر كالمؤسي و نحوها للدواهي و

أسباب الشر ثم صار مثلاً وقد وقع هيئنا موقعه من الاستعارة، ووجه المشابهة أن الموسى مثلاً كما أنها سبب لحلق الشعر واستعماله كذلك التباغض سبب لاستعمال الخلق بعضهم بعضاً.

الثاني عشر : التنبية على مضار الأمل للدنيا تنفيراً عنه والأمر بتكذيبه المستلزم للنهي عنه. فاما مضاره :

فأحدها: أنه يجب سهو العقل: أي عما هو الأولي بالإنسان في معاشه ومعاده وهو ظاهر فإن "الأمل" أبداً مشغول الفكر بما يأمله ويرجوه في كيفية تحصيله وكيفية العمل به بعد حصوله وشغله بذلك يستلزم إعراضه عن غيره إذ ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه . الثانية : أنه ينسى الذكر: أي ذكر الله تعالى بعد الموت من أحوال الآخرة ، وذلك باستغراقه فيما يأمله من أحوال الدنيا كما مر .

الثالثة : أنه غرور وصاحب مغرور ، وروى بفتح الغين من غرور وضمها ، ووجه الفتح أن "الأمل" ليس هو نفس الغفلة عن الذكر و غيره بل مستلزم لها فلذلك صدقت نسبة الغرور إليه ، و وجه الضم أنه مجاز من باب إطلاق اسم اللازم على ملزومه ، وأيضاً تكذيبه فيذكر الموت و دوام إخطاره بالبال و ملاحظة المرجع والمعاد ، وإنما سمي ردّ "الأمل" تكذيباً لأنّ النفس حال توقعها للمأمول تكون حاكمة حكماً وهي آباء بلوغه و نيله فإذا رجعت إلى صرف العقل و ملاحظة الموت و جواز الانقطاع به عن بلوغ مارجته كان تجويفها ذلك مكذباً لما جزم به الوهم من الأحكام و راداً له . و باشر التوفيق .

- ٨٤ - *فِيْ مِنْ خَطْبَتِنِيْرِ عَلَيْنِرِ الْسِّنَلَامِرِ*

و فيها فصول .

الفصل الأول : في صفات المتقين وهو قوله :

عَبَادَ اللَّهُ، إِنَّ مَنْ أَحَبَّ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْهِ عِبَادًا اعْنَاهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ فَأَسْتَشْعِرُ
الْمُحْزَنَ، وَجَلِبَ الْخَوْفَ، فَرَهَرَ مُضِبَّاحُ الْمُهْدَى فِي قَلْهَ، وَاعْدَالْقَرَى لِيَوْمِ

النازل به ، فَقَرَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ ، وَهُوَنَ الشَّدِيدَ : نَظَرَ فَابْصَرَ ،
وَذَكَرَ فَاسْتَكْرَ ، وَأَرْتَوَى مِنْ عَذْبِ فُرَاتِ سَهْلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ ، فَشَرَبَ
نَهَلًا ، وَسَلَكَ سَيْلًا جَدًّا ، قَدْ خَلَعَ سَرَائِيلَ الشَّهَوَاتِ ، وَتَخَلَّى مِنَ -
الْهُمُومِ إِلَّا هُمَا وَاحِدًا انْفَرَدَ بِهِ ، نَفَرَجَ مِنْ صَفَةِ الْعَمَى ، وَمُشَارِكَةَ أَهْلِ
الْهَوَى ، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى ، وَمَغَالِقِ أَبْوَابِ الرَّدَى ، قَدْ ابْصَرَ
حَرَيقَهُ ، وَسَلَكَ سَيْلَهُ ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ ، وَقَطَعَ غَمَارَهُ ، أَسْتَمْسَكَ مِنَ الْعَرَى
بِأَوْثَقَهَا ، وَمِنَ الْجَبَالِ بِأَمْتَنَاهَا ، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ : قَدْ نَصَبَ
نَفْسَهُ لِللهِ - سُبْحَانَهُ - فِي أَرْفَعِ الْأَمْرِ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارْدِعْلِيهِ ، وَتَصْبِيرِ كُلِّ
فَرْعَى إِلَى أَصْلِهِ ، مَصْبَاحِ ظُلُمَّاتِ ، كَشَافِ عَشَوَاتِ ، مَفَاتِحِ مُبَهَّمَاتِ ، دَفَاعُ
مُعْضَلَاتِ ، دَلِيلُ فَلَوَاتِ ، يَقُولُ فِيهِمْ ، وَيَسْكُتُ فِيهِمْ : قَدْ أَخْلَصَ
اللهُ فَاسْتَخلَصَهُ فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ ، وَأَوْتَادَ أَرْضِهِ ، قَدْ لَزِمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ ،
فَكَانَ أَوْلُ عَدْلِهِ نَفْسُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ ، يَصْفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، لَا يَدْعُ لِلْخَيْرِ
غَایَةً إِلَّا أَمَّهَا ، وَلَا مَظْنَةً إِلَّا قَصَدَهَا ، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زَمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ
وَإِمَامُهُ ، يَحْلُّ حَيْثُ حَلَّ نَقْلُهُ ، وَيَنْزُلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ .

أقول : القرى : الضيافة : و الفرات : صادق العذوبة . والنهر : الشرب في أول
الورد . والجند : الأرض المستوية . والسرائل : القمحان . والمنار : الأعلام . والغمار :

جمع غمرة وهي الزحمة من كثرة الناس والماء ونحوه . والعشوات : جمع عشوة وهي ركوب الأمر على جهل به . و الغشوة بالغين المعجمة : هي الغطاء . و المبهمة : الأمر الملتبس . والمعضلات: الشدائد .

وذكر من صفاتهم التي هي سبب محبة الله لهم أربعين وصفاً ، وقد علمت أنّ محبة الله تعالى تعود إلى إفاضة الكلمات النفسانية على نفس العبد بحسب قربه بالاستعداد لها إلى جوده فمن كان استعداده أتمّ كان استحقاقه أوفي فكانت محبة الله له أكمل . فالاول من تلك الأوصاف : كونه أغايه الله على نفسه : أي إفاضه قوه على استعداد يقوى به عقله على قهر نفسه الأمارة بالسوء .

الثاني : أن يستشعر الحزن : أي يستخدمه شعاراً له . و أراد الحزن على ما فرط في جنب الله و اكتسب من الإثم فإنه من جملة ما أعدّته المعونة الإلهية لاستشعاره ليستعد به لكمال أعلى .

الثالث : أن يتجلب الخوف وهو اتخاذ جلباباً . استعار لفظ الجلباب وهو الملحقة للخوف من الله و الخشية من عقابه ، و وجه المشابهة ما يشتراك في كون كلّ منهما متلبساً به ، و هو أيضاً معونة من الله للعبد على تحصيل السعادة .

الرابع : زهرة مصباح الهدى في قلبه ، و هو إشارة إلى شروق نور المعارف الإلهية على مرآة سرمه ، و هو ثمرة الاستعداد بالحزن والخوف ولذلك عطفه بالفاء ، و استعار لفظ المصباح لنور المعرفة مما يشتراك في كون كلّ منهما سبباً للهدى و هو استعارة لفظ المحسوس للمعقول .

الخامس : كونه أعد القرى ليومها النازل به . استعار لفظ القرى للأعمال الصالحة وأراد باليوم النازل به يوم القيمة و استلزمت الاستعارة تشبيهه لذلك اليوم بالضيف أو يوم القرى للضيف المتوقع تزوله ، و وجه المشابهة أن القرى كما يعيش بها وجه القاري عند ضيفه و يخلص به من ذمته و يكسبه المحمدة و الثناء منه كذلك الأعمال الصالحة في ذلك اليوم تكون سبباً لخلاص العبد من أهواله وتكتسيه رضاه الحق سبحانه و الثواب الجزييل منه .

السادس : وقرب على نفسه البعيد . يحتمل وجهين : أحدهما : أن يشير بالبعيد إلى رحمة الله بها بعيدة من غير مستحقها و المستحق لقبولها قريبة من حسن عمله و كمال قبوله فالعبد إذا راض بالأعمال الصالحة نفسه و أعد هافري يومه كانت رحمة الله على غاية من القرب منه كما قال تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين» ، الثاني : يحتمل أن يريد بالبعيد أمله الطويل في الدنيا و بتقريره له على نفسه تقصيره له بذكر الموت دون بلوغه كما سبق .

السابع : كونه قد هوَّ الشديد . ويحتمل أيضاً معنيين : أحدهما : أن يريد بالشديد أمر الآخرة و عذاب الجحيم و تهويته لها بالأعمال الصالحة واستشراف أنوار الحق و ظاهر كونها مهوَّنة لشديد عذاب الله ، الثاني : أن يريد بالشديد شدائِ الدُّنْيَا من الفقر و الاهتمام بالمسائب التي تنزل به من الظلم و فقد الأحبة والأقرباء و نحو ذلك و تهويته لذلك تسهيله على خاطره و استحقاقه في جنب ما يتصوره من الفرحة بقاء الله و ما أعد له من الثواب العظيم في الآخرة كما قال تعالى «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»^(١) الثامن : كونه نظر : أي تفكّر في ملوكوت السماوات والأرض و ما خلق الله من شيء فأبصر : أي شاهد الحق سبحانه في عجائب مصنوعاته بعين بصيرته .

التاسع : وذكر فاستكثرا : أي ذكر ربّه و معاده فاستكثرا من ذكره حتى صار الذكر ملكرة له و يجعل المذكور في أطوار ذكره ملأة سرّه . والاستكثار من الذكر بباب عظيم من أبواب الجنّة .

العاشر : كونه ارتوى من عذب فرات . شبه العلوم والكمالات النفسيّة التي تفاض على العارف بالماء الزلال فاستعار له لفظ العذوبة ، و رشح تلك الاستعارة بذكر الارتواه ، وقد سبق وجّه هذه الاستعارة مراراً .

(يا) كونه سهلت له موارده . الفايرون لقصب السبق في طرائق الله لا ينفكّون عن تأييد إلهي بخاصيّة مزاجيّة لهم بها سرعة الاستعداد لقبول الكمالات الموصولة إليه .

إذا عرفت ذلك فقول : موارد تلك الكمالات من العلوم و الأخلاق هي معادنها و مواطنها المنتزعة منها وهي النقوس الكاملة التي يهتدى بها و تؤخذ عنها أنوار الله كالأنبياء ، و تصدق تلك الموارد أيضاً على بدائع صنع الله الذي يردها ذهن العبد و تكسب بها الملائكة الفاضلة و سهلة تلك الموارد لهم هو سرعة قبولهم لأخذ الكمالات عنها بسهولة باذهان صافية هيأتها العناية الإلهية لقبولها و يسر بها لذلك .

(ب) فشرب نهلا : أي أخذ تلك الكمالات سابقاً إليها كثيراً من أبناء نوعه و متقدماً فيها لسهولة موردها عليه ، وهي ألفاظ مستعارة لأخذها لها وسبقه إليها ملاحظة لشبهه بشرب السوائل من الأبل إلى الماء .

(ج) كونه قد سلك سبيلاً جديداً : أي سبيل الله الواضح المستقيم العدل بين طرق التفريط والإفراط .

(يد) كونه قد دخل سراييل الشهوات . أكثر الأوصاف السابقة أشار فيها إلى تحصيل العلم والاستعداد له ، وأشار بهذا الوصف إلى طرف الزهد ، و استعار لفظ السراييل للشهوات ، و وجه المشابهة تلبّس صاحبها بها كما يتلبّس بالقميص ، و رشح بلطف الخلع ، و كثني به عن طرحة لاتباع الشهوة و التفاته عنها فيما يخرج به عن حد العدل .

(يه) و تخلى من الهموم إلا همّا واحداً : أي من هموم الدنيا و علاقات أحوالها و طرح كلّ مقصود عن قصده إلا همّا واحداً افرد به ، و هو الوصول إلى مراحل عزة الله و توجيه سره إلى مطالعة أنوار كبرياته و استشرافها و هو تمام الزهد الحقيقى و ظاهر كونه منفرداً عن غيره من أبناء نوعه .

(يو) فخرج عن صفة العمى : أي عمى الجهل بما حصل عليه من فضيلة العلم و الحكمة وعن مشاركة أهل الهوى في إفراطهم و فجورهم إذ هو على حاق الوسط من فضيلة العفة .

(يز) فصار من مفاتيح أبواب الهوى . فأبواب الهوى هو طرقه و سبله المعدّة لقبوله من واهبه وقد وقف عليها العارفون و دخلوا منها إلى حضرة جلال الله فوقفوا على مراحلها و منازلها و مخاوفها فصاروا مفاتيح لما انغلق منها على أذهان الناقصين ، ومصابيح فيها لنقوس

الجاهلين ، و لفظ المفتاح مستعار للعارف ، و وجه المشابهة ظاهر .

(يج) و مغاليق أبواب الردى . فأبواب الردى هي أطراف التفريط و الإفراط و المسالك التي يخرج فيها عن حدود الله المردى سلوكها في قرار الجحيم . و العارف لما سد أبواب المنكرات التي يسلكها الجاهلون ولزم طريق العدل لاجرم أشيه المغالق الذي يكون سبباً لسد الطريق أن يسلك فاستغير لفظه له ، و في الفرينتين مطابقة فالمغاليق بازاء المفاتيح و الردى بازاء الهدى .

(يط) قد أبصر : أي بنور بصيرته طريقه : أي المأمور بسلوكها و المجنوب بالعناء الالهية إليها و هي صراط الله المستقيم .

(ك) و سلك سبيله : أي لما أبصر السبيل سلوكها إذ كان السلوك هو المقصود الأول .
 (كا) وقد عرف منارة . لما كان السالك إلى الله قد لا يستقيم به طريق الحق إتفاقاً و ذلك كسلوك من لم تستكملي قوته النظرية بالعلوم وقد يكون سلوكه بعد استكماله بها . فالسالك كذلك قد يدرك بالبرهان منارة : أي أعلامه المقصودة في طريقه التي هي سبب هدايته وهي القوانين الكلية العلمية ، ويحتمل أن يريد بالمنار ما يقصد به سلوكه وهو حضرة جلال الله و ملائكته المقربون .

(كب) قد قطع غماره ، وأشار بالغمار إلى ما كان مغموراً فيه من مشاق الدنيا وهمومها والتآلم بسبب فقدانها ومجاذبة أهلها لها فإن العارف بمعزل عن ذلك والتآلم بسببه .
 (كج) واستمسك من العرى بأوثقها ومن الرجال بأوثقها . أراد بأوثق العرى وأمن الرجال سبيلاً الله و أوامره استعارة و وجه المشابهة أن العروة كما تكون سبباً لنجاية من تمسك بها و كذلك الرجال ، وكان أجودها مثبت و تمن و لم ينفصم كذلك طريق الله المؤدى إليه يكون لزومه و التمسك بأوامره سبباً للنجاة من أهوال الآخرة و هي عروة لا انفصال لها و أوامره حبال لا انقطاع لها ، و إليها الإشارة بقوله تعالى « فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصال لها»^(١) .

(كد) فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس : أي فكان بتمسكه بأوامر الله و نواهيه

و مجاهدته في سيله قد استشرق أتمّ أنوار اليقين فصار شاهداً بعين بصيرته عالم الملائكة رائياً بها الجنة والنار عن اليقين كما يرى بصره الظاهر نور الشمس في الوضوح والجلاء (كـ) قد نصب نفسه الله سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كلّ وارد عليه وتصير كلّ فرع إلى أصله : أى مـا كـمل في ذاته نصب نفسه لأرفع الأمور من هداية الخلق و إفادتهم لقوانين طريق الله فصار المصباح يقتبس منه أنوار العلم فهو لكونه متلبساً بها [مليـاً بها خـ] قـائم باـصدار الـأـجـوبـةـ عنـ كلـ ما وردـ عـلـيـهـ مـنـ الـأـسـوـلـةـ الـتـيـ اـسـتـبـهـمـ أـمـرـهـاـ علىـ الـأـذـهـانـ ، وـافـ بـرـدـ كـلـ فـرعـ مـنـ فـروعـ الـعـلـمـ إـلـىـ أـصـلـهـ الـمـنـشـعـبـ عـنـهـ . (كـوـ) كـونـهـ مـصـبـاحـ ظـلـمـاتـ : أـىـ يـهـتـدـيـ بـهـ التـائـهـونـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـجـهـلـ إـلـىـ الـحـقـ . ولـفـظـ المـصـبـاحـ مـسـتـعـارـ لـهـ كـماـ سـبـقـ .

(كـزـ) كـونـهـ كـشـافـ عـشـوـاتـ : أـىـ مـوـضـعـ مـاـ أـشـكـلـ أـمـرـهـ وـرـكـبـ فـيـ الـجـهـلـ مـنـ الـأـحـكـامـ الـمـلـبـسـةـ مـيـزـ وـجـهـ الـحـقـ مـنـهـ ، وـمـنـ روـيـ بالـغـينـ الـمـعـجمـةـ فـالـمـلـادـ كـشـافـ أـفـطـيـةـ الـجـهـلـاتـ عـنـ إـبـصـارـ الـبـصـائـرـ .

(كـحـ) وـكـذـلـكـ كـونـهـ مـقـتـاحـ مـبـهـمـاتـ : أـىـ فـاتـحـ مـاـ اـنـفـلـقـ عـلـىـ أـذـهـانـ الـخـلـقـ وـاسـتـبـهـمـ وـجـهـ الـحـقـ فـيـهـ مـنـ الـأـحـكـامـ .

(كـطـ) كـونـهـ دـفـاعـ مـعـضـلـاتـ : أـىـ يـدـفـعـ كـلـ حـيـرـةـ فـيـ مـعـضـلـةـ مـنـ مـعـضـلـاتـ الـشـرـعـ صـعـبـ عـلـىـ الطـالـبـينـ تـمـيـزـ وـجـهـ الـحـقـ فـيـهـ وـيـجـيـبـهـمـ بـيـانـهـ عـنـ التـرـدـيـ فـيـ مـهـاـوىـ الـجـهـلـ . (لـ) وـكـذـلـكـ كـونـهـ دـلـيـلـ فـلـوـاتـ . وـاستـعـارـ لـفـظـ الـفـلـوـاتـ مـلـوـارـدـ الـسـلـوكـ وـهـيـ الـأـمـورـ الـمـعـقـولـةـ ، وـوـجـهـ الـمـشـابـهـةـ أـنـ الـفـلـوـاتـ كـمـاـ لـاـ يـهـتـدـيـ لـسـالـكـهاـ إـلـاـ الـأـدـلـاءـ الـذـينـ اـعـتـادـواـ سـلـوكـهاـ وـضـبـطـواـ مـرـاحـلـهاـ وـمـنـازـلـهاـ حـتـىـ كـانـ مـنـ لـاـ قـاـيـدـ لـهـ مـنـهـ لـابـدـ وـأـنـ يـتـيـهـ فـيـهـ وـيـكـونـ جـهـلـهـ بـطـرـقـهاـ سـبـبـاـ لـهـلـاـكـهـ كـذـلـكـ الـأـمـورـ الـمـتـصـوـرـةـ الـمـعـقـولـةـ لـاـ يـهـتـدـيـ لـطـرـيقـ الـحـقـ فـيـهـ إـلـاـ مـنـ أـخـذـتـ الـعـنـيـةـ إـلـهـيـةـ بـضـعـيـهـ فـأـلـقـتـ بـزـمـامـ عـقـلهـ إـلـىـ أـسـتـادـ مـرـشدـ يـهـدـيهـ سـبـيلـ الـحـقـ مـنـهـ وـمـنـ لـمـ يـكـنـ كـذـلـكـ حـتـىـ حـادـ عـنـ طـرـيقـ الـحـقـ فـيـهـ خـبـطـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـجـهـلـ خـبـطـ عـشـوـاتـ ، وـسـلـكـتـ بـهـ شـيـاطـيـنـهـ أـبـوـابـ جـهـنـمـ ، وـالـعـارـفـونـ هـمـ أـدـلـاءـ هـذـاـ الـطـرـيقـ وـالـوـاقـفـونـ عـلـىـ أـخـطـارـهـاـ وـمـنـازـلـ السـلـامـةـ فـيـهـ بـعـيـونـ بـصـاـيرـهـ .

(لا) كونه يقول فيهم ، و ذلك لما شاهدته عين الحق من غير شبهة تعتريه فيما يقول ولا اختلاف عبارة عن جهل بالقول .

(لب) كونه يسكت فيسلم : أى من خطر القول . ولما كانت فايضة القول الإفهام والإفادة ، و فايضة السكوت السلام من آفات اللسان و كان كلامه في معرض المدح لاجرم ذكر همامع فائدهما . والمقصود أن العارف يستعمل كلاماً من القول والسكوت في موضعه عند الحاجة إليه فقط .

(لح) كونه قد أخلص الله فاستخلصه . وقد عرفت أن الإخلاص لله هو النظر إليه مع حذف كل خاطر سواه عن درجة الاعتبار ، واستخلاص الحق للعبد هو اختصاصه من بين أبناء نوعه بالرضى عنه و إفاضة أنواع الكمال عليه و إدناه إلى حضرة قدسه و انفراده بمناجاته . و ظاهر أن إخلاصه سبب استخلاصه كما قال تعالى « و اذْكُرْ فِي الْكِتَابْ هُوسِي إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً وَ كَانَ رَسُولاً نَبِيًّا وَ نَادِيَنَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبَنَا نَجِيَّا » (١) .

(لد) فهو من معادن دينه . استعار لفظ المعدن له ، و وجه المشابهة اشتراكيهما في كون كل منهما أصلاً تنتزع منه الجوهر : من المعادن أنواع الجواهر المحسوسة ، و من نفس العارف جواهر العلوم والأخلاق وسائر ما اشتمل عليه دين الله

(له) كونه من أو تادرجه استعار له لفظ الولد ، و وجه المشابهة كون كل منهما سبباً لحفظ ما يحفظ به فبالو تديحفظ المأمور ، و بالعارف يحفظ نظام الأرض واستقامة أمور هذا العالم ، وقد سبق مثله في الخطبة الأولى : و وتد بالصخور ميدان أرضه .

(لو) كونه لزم نفسه العدل فكان أدل عدله نفي الهوى عن نفسه . ولما كان العدل ملكة تنشأ من الملكات الثلاث : وهي الحكمة والعفة الشجاعة ، و كان العارفون قد راضوا أنفسهم بالعبادة وغيرها حتى حصلوا على هذه الملكات الخلقية لاجرم كان بسعية في حصولها قد لزم نفسه العدل ، ولما كان العدل في القوة الشهوية وهو أن يصير عفيفاً لا خامد الشهوة و لا فاجرأً أصعب من العدل على سائر القوى لكثره موارد الشهوة

شرح ماذ كرفي كلامه عليه السلام من أوصاف المتقين

و ميلها بالإنسان إلى طرف الإفراط ولذلك كان أكثر المناهي الواردة في الشريعة هي موارد الشهوة لاجرم كان مقتصى المدح أن يمده بذكر نفي الهوى عن نفسه ، ولأن السالك أول ما يمده في تكميل القوة العلمية بإصلاح القوة الشهوية فيقف عند حدود الله ولا يتتجاوزها في ما كقول أو منكوح أو كسب ونحوه .

(لز) كونه يصف الحق و يعمل به : أي يتبع قول الحق بعمله فإن "الخلف في القول عند الخلق قبيح ومع الله أبشع ولذلك عاتب الله المؤمنين « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبير مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »^(١) و كانوا قالوا لنفعلن في سبيل الله ما فيه رضاه . فلما كان يوم أحد لم يثبتوا . وأكذب عتابه بشدة مقتنه لخلفهم وعدم مطابقة أقوالهم لأفعالهم .

(لح) كونه لا يدع للخير غاية إلا أنها . لما فرغ من جزئيات أوصاف العارف شرع فيها إيجالاً فذكر أنه طالب لكل غاية خيرية : أي لا يقنع ببعض الحق و يقف عنده بل يتناهى فيه و يستقصى غاياته .

(لط) وكذلك هو قاصد لكل مظنة له : و مظنته كل محل أمكنه أن ينتزع منه و يستفيده كالأولى و مجالس الذكر و غيرها .

(م) كونه قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائد . إلى آخره . فتمكينه الكتاب كنهاية عن أنقياده لما اشتمل عليه من الأوامر والنواهي ، و استعار لفظ الزمام لعقله ووجه المشابهة ما يشتهر كان فيه كون كلّ منها آللة للانقياد ، وهي استعارة لفظ المحسوس للمعقول ، وكذلك استعار لفظ القائد للكتاب لكونه جاذباً بزمام عقله إلى جهة واحدة مانعاً عن الانحراف عنها وكذلك لفظ الإمام لكونه مقتدياً به ، و قوله : يحل حيث حل شله و ينزل . استعار وصف الحلول والنزول للذين هم من صفات المسافر ، وكثيرون بحلوله حيث حل عن لزوم أثره و العمل بمقتضاه و متابعته له في طريق سفره إلى الله بحيث لا ينفك عنه وجوداً و عدماً ، و بالله التوفيق .

الفصل الثاني : قوله :

وآخر قد تسمى عالماً وليس به فاقتبس جهائل من جهال وأضاليل من ضلالٍ
ونصب للناس شركاً من جهائل غرور، وقول زور؛ قد حمل الكتاب على
آرائه؛ وعطف الحق على أهوائه، يوم من العظائم، ورون كبار الجرائم
يقول، أقف عند الشبهات، وفيها وقع، واعتزل البدع، وبينها اضطجع:
فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف بباب الهوى فيتبعه
ولا باب العمى فيقصد عنه؛ فذلك ميت الأحياء.

أقول: وهذا الفصل من صفات بعض الفساق في مقابلة الموصوف السابق، وخصص
من تسمى عالماً وليس بعالماً بالذكر في معرض الذم لأنّه أشد فتنـة و أقوى فسادـاً
لـلـديـن لـتـعدـى فـتنـته مـنـ نـفـسـه إـلـىـ غـيرـهـ . وـذـكـرـ لـهـ أـوـصـافـاـ :
الأول: كونـهـ قد تـسمـىـ عـالـماـ وـلـيـسـ بـعالـماـ . طـلـبـاـ لـلـرـياـسـةـ وـتـحـصـيلـ الدـنـيـاـ وـهـذاـ
الـصـنـفـ مـنـ النـاسـ كـثـيرـ وـالـعـلـمـاءـ فـيـهـمـ مـغـمـورـونـ .

الثاني: كـونـهـ قد اـقـتـبـاسـ جـهـاـلـ منـ جـهـاـلـ وأـضـالـيلـ منـ ضـلالـ . وـالـجـهـاـيلـ :ـ جـعـ
جـهـاـلـةـ ، وـأـرـادـ الجـهـلـ المـرـكـبـ ؛ـ وـهـوـ الـاعـتـقـادـ الغـيرـ المـطـابـقـ لـمـاـ فـيـ نـفـسـ الـأـمـرـ ،ـ وـهـذـاـ
الـوـصـفـ أـحـدـ أـسـبـابـ الـأـوـلـ .ـ وـنـسـبـةـ الـاقـتـبـاسـ إـلـىـ الجـهـلـ نـسـبـةـ مـجـازـيـةـ لـمـاـ أـنـ الجـهـلـ
يـشـبـهـ الـعـلـمـ فـيـ كـوـنـهـ مـسـتـفـداـ عـلـىـ وـجـهـ التـعـلـمـ وـالـتـعـلـيمـ ،ـ وـالـأـضـالـيلـ مـنـ لـوـازـمـ الـجـهـاـلـاتـ وـهـوـ
الـانـحرـافـ عـنـ سـوـاءـ السـبـيلـ ،ـ وـإـنـماـ قـالـ مـنـ جـهـاـلـ وـضـالـالـ لـيـكـونـ إـثـبـاتـ الجـهـلـ وـالـضـالـالـ
لـهـ آـكـدـ فـانـ تـلـقـفـهـمـ عـنـ الجـهـاـلـ الضـالـالـ وـاعـتـقـادـهـمـ أـثـبـتـ وـأـرـسـخـ فـيـ النـفـسـ مـنـ
سـاـيـرـ الـجـهـاـلـاتـ .

الثالث: كـونـهـ نـصـبـ للـنـاسـ أـشـراـكاـ مـنـ جـبـالـ غـرـورـ وـقـولـ زـورـ .ـ اـسـتعـارـ لـفـظـ الـأـشـراكـ
وـالـجـبـالـ لـمـاـ يـغـرـ عـلـمـاءـ السـوـءـ بـهـ النـاسـ مـنـ الـأـقـوالـ الـبـاطـلـةـ وـ الـأـفـعـالـ الـمـزـخرـفـةـ ،ـ
وـوـجـهـ الـمـشـابـهـةـ مـاـ يـشـتـرـكـ فـيـهـ الشـرـكـ مـنـ الـجـبـالـ وـغـيرـهـ وـسـاـيـرـ مـاـ يـجـذـبـ بـهـ الـخـلـقـ مـنـ

أَفْوَاهُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ فِي كُونِهَا مُحَصَّلَةً لِلْغَرَضِ فَالشَّرْكُ لِلصِّدْقِ وَغَرُورُ هُؤُلَاءِ لِقُلُوبِ الْخَلْقِ ،
وَرَسْحَتْ تِلْكَ الْاسْتِعَارَةُ بِذَكْرِ النَّصْبِ .

الرابع : قد حلَّ الْكِتَابُ عَلَى آرَائِهِ الْمُجَاهِلِ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مَذَاهِبَ
عَجِيَّةٍ وَيَكْفِيكُ مِنْهَا مَا تَعْتَقِدُهُ الْمُجَسَّمَةُ مِنْ ظَواهِرِ الْمُشَعَّرَةِ بِتَجَسِّيمِ الصَّانِعِ جَلَّ قَدْرَتِهِ
وَتَفْسِيرِهِمْ لِلْكِتَابِ عَلَى مَا اعْتَقَدوْهُ مِنْ بَاطِلِهِمْ .

الخامس : وَعَطْفُ الْحَقِّ عَلَى أَهْوَائِهِ مِنْ فَسْرَ الْفَاظِ الْقُرْآنِ عَلَى حَسْبِ عَقِيدَتِهِ
الْفَاسِدَةِ وَرَأْيِهِ الْبَاطِلِ فَقَدْ عَطْفَ الْحَقِّ عَلَى هُوَاهُ : أَى جَعْلَ كُلَّهُ هُوَى لِهِ حَقَّاً يَتَّبِعُ
بِتَأْوِيلِهِ مَا « وَلَا تَتَّبِعُ الْحَقِّ » أَهْوَائِهِمْ لِفَسْدِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » .

السادس : كَوْنُهُ يَؤْمِنُ مِنْ الْعَظَامِ وَيَهُوَنُ كَبِيرُ الْجَرَائِمِ : أَى يَسْهُلُ عَلَى النَّاسِ
أَمْرَ الْآخِرَةِ فِي مَوْضِعٍ يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى ذِكْرِ وَعِيدِ اللَّهِ وَتَذْكِيرِهِمْ بِالْيَمِّ عَقَابِهِ كَمَا
يَخْطِي الْجَاهِلُونَ وَيَعْرُضُونَ عَنْ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ فَإِذَا حَضَرُوا مَجَالِسَ جَهَّالِ
الْوَاعِظِينَ وَالْزَّهَادِ تَوَسَّلُوا إِلَى اسْتِجَابَةِ قُلُوبِهِمْ وَتَشْيِيدِ مَنَاصِبِهِمْ بِاحْتِمَاعِهِمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ
ذَكْرَ وَالْهَمْ مَوَاعِيدُ اللَّهِ كَفُولَهُ « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » وَنَحْوُهُ فِيهِوْنُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ
عَظِيمُ الْوَعِيدِ وَأَهْوَالِ الْآخِرَةِ وَتَصْغِيرُ عِنْدِهِمْ جَرَائِمِهِمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا فِي جَنْبِ مَا تَصْوِرُوهُ
مِنْ الْوَعْدِ الْكَرِيمِ وَيَسْاعِدُهُمْ مِيلُ طَبَاعِهِمْ إِلَى الْمُشَتَّبِيَاتِ الْخَارِجَةَ عَنْ حَدُودِ اللَّهِ فَيَعُوِّدُوْهُ
مَا افْتَرُوهُ وَلَا كَذَلِكَ الْعَالَمُ إِذْ مَنْ شَاءَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ كَلَافِنَ آيَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فِي مَوْضِعِهَا
لِيُقْبِلُ السَّامِعُونَ بَيْنَ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ فَلَا يَنْمِكُوْنَ فِي الْلَّذَّاتِ الْفَانِيَةِ اتِّكَالًاً عَلَى الْوَعْدِ وَ
لَا يَقْنُطُوْنَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ نَظَرًا إِلَى الْوَعِيدِ .

السابع : يقول : أَقْفَعْنَدَ الشَّبَهَاتِ أَى إِذَا اتَّهَمْتَ إِلَى أَمْرٍ فِيهِ شَبَهَةٌ لَا أَقْدَمْ عَلَيْهِ
وَفِيهَا وَقْعٌ وَذَلِكَ لِجَهْلِهِ بِمَوْاقِعِ الشَّبَهَةِ وَغَيْرِهَا .

الثامن : يقول أَعْتَزلُ الْبَدْعَ : أَى مَا يَتَدَعُّ مِنَ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِقَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ
وَبَيْنَهَا اخْطَبَعَ كَتَنَى بِاضْطِجَاعِهِ بَيْنَ الْبَدْعِ عَنْ تَوْرِّطِهِ فِيهَا كَنَايَةً بِالْمُسْتَعْنَارِ ، وَذَلِكَ أَيْضًا
لِجَهْلِهِ بِأُصُولِ الشَّرِيعَةِ وَكَيْفِيَّةِ تَفْرِعِهَا .

العاشر : فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيْوانٍ أَرَادَ بِالْحَيْوانِ غَيْرَ إِنْسَانٍ

كما هو مختص في العرف . وأطلق قلبه أنه قلب حيوان كالحمار و نحوه طا ينهمها من المناسبة وهو عدم صلاحيتها لقبول المعرف و العلوم مع ميلهما إلى الشهوات .

العاشر : كونه لا يعرف باب الهوى فتتبعه ولباب الردى فيقصد عنه : أى لا يعرف بجهله قانون الهدایة إلى طرق الحق فيسلكه ولا وجه دخوله في الباطل فيعرض عنه ، وذلك أن " الجاهل الجهل المركب لما حاد عن سبيل الله و جزم بما اعتقاده من الباطل امتنع مع ذلك الجزم أن يعرف باب الهوى و مبدء الدخول إليه فامتنع منه اتباعه ولما اعتقد أن " ما جزم به من الباطل هو الحق " امتنع أن يعرف مبدء دخوله في الجهل و هو باب العمى فامتنع منه أن يصدق عنه ثم حكم عليه عن تلك الأوصاف أنه ميت الأحياء ، أمّا كونه ميتاً فلان الحياة الحقيقة التي تطلب لكل عاقل و التي وردت الشرائع و الكتب الإلهية بالأمر بتحصيلها هي حياة النفس باستكمال الفضائل التي هي سبب السعادة الباقية ، وقد علمت أن " الجهل المركب هو الموت المضاد ل تلك الحياة . فالجاهل بالحقيقة ميت . و أمّا أنه ميت الأحياء فلان في صورة الحي "

الفصل الثالث : قوله :

فَإِنْ تَذَهَّبُواْ ؟ وَأَنِ تَوْفِكُونَ ؟ وَالْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ ! وَالآيَاتُ وَاضِحَّةٌ !
وَالْمَنَارُ مَنْصُوبٌ ! فَإِنْ يُتَاهَ بِكُمْ بَلْ كَيْفَ تَعْمَهُونَ ؟ وَيَنْكِمْ عَتَّةٌ نِيَّكُمْ ،
وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ ، وَالسِّنَةُ الصَّدِيقُ ، فَانْزَلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ
الْقُرْآنِ وَرُدُّوهُمْ وَرُودَ الْهَمِيمِ الْعَطَاشِ .
إِلَهُ النَّاسُ ، خُذُوهَا مِنْ خَاتِمِ النَّبِيِّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّهُ
يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ ، وَيَبْلُغُ مَنْ بَلَى مِنَا وَلَيْسَ بِيَالٍ » فَلَا تَقُولُوا

بِمَا لَا تَعْرِفُونَ : فَإِنْ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيهَا تُسْكِرُونَ ، وَاعْذُرُوا مِنْ لَا حُجَّةَ
 لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُوَ ، إِمَّا عَمَلٌ فِيمُكُمْ بِالثَّقْلِ الْأَكْبَرِ ؟ وَإِنْ كُنْتُمْ فِيمُكُمْ الثَّقْلَ
 الْأَصْغَرَ ، وَرَكِّزْتُ فِيمُكُمْ رَأْيَهُ الْإِيمَانَ ، وَوَقْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ
 وَالبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلٍ ، وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلٍ وَفَعْلٍ ، وَارْتَكْتُمْ
 كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيهَا لَا يُدْرِكُ قُرْبَهُ الْبَصَرُ ،
 وَلَا تَتَغَلَّلُ إِلَيْهِ الْفَكَرُ .

أقول : تؤفكون : تصرفون . وَ التَّيْهُ : الضلال . وَالْعَمَةُ : الحيرة والتَّرَدُّد . وَعَتْرَةُ
 الرَّجُلِ : أقاربِهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَلَدِ وَلَدِهِ وَأَدَانِي بْنِ عَمِّهِ . وَالْهَيْمُ : الْإِبْلُ الْعَطَاشُ .
 وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَقْدِمْ الْمُتَقْنِينَ بِصَفَاتِهِمْ وَالْفَاسِقِينَ بِصَفَاتِهِمْ كَانُ فِي ذِكْرِهِمْ تَنْبِيَهٌ
 عَلَى وَصْفِ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَلَوْازِمِهِمَا فَلَذِكَ أَعْقَبَهُمَا بِالْتَّنْبِيَهِ عَلَى كُونِهِمْ فِي صَالَلٍ
 وَتَيْهٍ وَعَمَى عَنِ الْحَقِّ ثُمَّ بِالتَّخْوِيفِ وَالْتَّبْكِيتِ وَالْتَّذْكِيرِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 لِيَلْزَمُوا سَمْتَهُمْ وَيَسْلُكُوا بِهِمْ طَرِيقَ أَهْلِ التَّقْوَى وَيَفِيُوْنَا عَنْ ضَلَالِهِمْ إِلَى افْتِنَاسِ أَنْوَارِ
 الْحَقِّ مِنْ أَهْلِهِ .

فَوْلَهُ : فَإِنْ تَذَهَّبُونَ . إِلَى فَوْلَهُ : مَنْصُوبَةٌ .

سُؤَالٌ عَمَّا يَذَهَّبُونَ إِلَيْهِ وَعَنْ وَقْتِ صِرْفِهِمْ عَنْ ذَلِكَ الْغَيِّ سُؤَالٌ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ
 مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّرِيقِ الْجَائِرَةِ ، وَالْوَاوِ فِي قَوْلِهِ : وَالْأَعْلَامُ . لِلْحَالِ . وَأَشَارَةُ الْأَعْلَامِ
 إِلَى أُمَّةِ الدِّينِ ، وَوضُوحُهَا ظُهُورُهَا بِيَنِّهِمْ . وَكَذَلِكَ الْمَنَارُ ، وَنَصْبُهَا قِيَامُ الْأُمَّةِ بِيَنِّهِمْ
 وَوُجُودُهُمْ فِيهِمْ ، ثُمَّ أَرْدَفَ مَا أَنْكَرَ مِنْ ذَهَابِهِمْ وَتَعَجَّبَ مِنْهُ بِتَقْسِيرِهِ فَقَالَ : فَإِنْ يَتَاهَا بِكُمْ
 وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ ، وَنَسْهَ بِهِ إِلَى أَنَّ الْذَّهَابَ الَّذِي سَلَّمُوهُ عَنْهُ هُوَ تَيْهٌ فِي الضَّلَالِ
 وَحِيرَةُ الْجَهْلِ وَالتَّرَدُّدِ فِي الْغَيِّ ، وَتَبَيَّنَ مِنْهُ أَنَّ قَوْلَهُ : وَأَنَّى تُؤفِّكُونَ : أَى مَتَى
 تَصْرِفُونَ عَنْ تَيْهِكُمْ وَذَهَابِكُمْ فِي الضَّلَالِ .

وقوله : و يبنكم عترة نبيكم .

الواو للحال أيضاً فالعامل تعمهم ، أويتأه بكم ، و كذلك الواو في قوله : و هم أزمة الحق : والمعنى كيف يجوز أن تتيهوا في ظلمات الجهل مع أنَّ فيكم عترة نبيكم ، وأراد بعترته أهل بيته ﷺ وإليه الإشارة بقول الرسول ﷺ : و خلقت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا كتاب الله و عترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا على "الحوض" . واستعار لهم لفظ الأزمة ، وجه المشابهة كونهم قادة للخلق إلى طريق الحق . كما يقود الزمام النافذ إلى الطريق ، وكذلك استعار لهم لفظ الألسنة ، وجه المشابهة كونهم ترابجة الوحي الصادق كمان اللسان ترجمان النفس ، ويحتمل أن يريده بكونهم ألسنة الصدق أنْهم لا يقولون إلا صدقاً .

وقوله : فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن .

فاعلم أنَّ للقرآن منازل :

الأولي القلب . وهو فيه بمنزلتين : إحديهما منزلة الـ كرامـ و التعظيمـ ، والثانية منزلة التصور فقط من دون تعظيمـ . الثالثة : منزلته في الوجود اللسانـيـ بالتلاؤـةـ . الرابعة : منزلته في الدفاتـ والكتبـ ، وأحسن منازلهـيـ الأولىـ . فالمـ اـ دـ إـ ذـنـ الـ وـصـيـةـ بـاـ كـرـامـهـ وـ مـحبـتـهـ وـ تعـظـيمـهـ كـمـاـ يـكـرمـ الـ قـرـآنـ بـالـمحـسـةـ وـالـتعـظـيمـ .

وقوله : وردوهم ورود الهم العطاشـ .

إرشادـلـهـمـ إـلـىـ اـقـبـاسـ الـعـلـومـ وـ الـأـخـلـاقـ مـنـهـمـ إـذـ كـانـواـ مـعـادـنـهـاـ . وـ مـلـاـ كـانـ الـعـلـمـاءـ وـ الـأـئـمـةـ تـشـبـهـ بـالـيـنـايـعـ ، وـ الـعـلـمـ يـشـبـهـ بـالـمـاءـ العـذـبـ ، وـ عـادـمـهـ بـالـعـطـشـانـ حـسـنـ مـنـهـ أـنـ يـأـمـرـهـ بـوـرـودـهـ وـ أـنـ يـشـبـهـ الـوـرـودـ الـمـطلـوبـ هـنـهـمـ بـوـرـودـ إـلـىـ الـعـطـاشـ .

وقوله : أـيـهـاـ النـاسـ . إـلـىـ قولـهـ : يـالـ .

مـلـاـكـانـ ﷺـ فيـ مـعـرـضـ ذـكـرـ الفـائـدـ فـكـانـهـاـ قـدـ تـقـدـمـ ذـكـرـهـاـ فـلـذـكـ أـحـسـنـ إـبرـازـ الضـميرـ فيـ قولـهـ : خـذـوـهـاـ . وـ إـنـ لـمـ يـسـبـقـ لـهـ ذـكـرـ ، وـ إـشـارـةـ النـبـيـ بـهـذـهـ الـكـلـمـةـ تـقـرـيرـ لـقولـهـ تـعـالـىـ وـ لـاـ تـحـسـبـنـ الـذـينـ قـتـلـوـاـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ أـمـوـاتـاـ بـلـ أـحـيـاءـ عـنـدـ رـبـهـمـ يـرـزـقـونـ

مَا لَا تَعْرِفُونَ ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيهَا تُسْكِرُونَ ، وَاعْذُرُوا مِنْ لَا حُجَّةَ
 لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَأَنَا هُوَ ، الَّمْ أَعْمَلْ فِيمُكُمْ بِالنَّقْلِ الْأَكْبَرِ ؟ وَاتْرُكُ فِيمُكُمْ النَّقْلِ
 الْأَصْغَرِ ، وَرَكِّرِتُ فِيمُكُمْ رَأْيَ الْإِيمَانِ ، وَوَقَفْتُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ
 وَالْبَسْتُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي ، وَفَرَشْتُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفَعْلِي ، وَارْتَمَيْتُمْ
 كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيهَا لَا يُدْرِكُ قَعْدَهُ الْبَصَرِ ،
 وَلَا تَتَغَلَّلُ إِلَيْهِ الْفَكْرُ .

أقول : تؤفكون : تصرفون . وَالتيه : الضلال . والعمة : الحيرة والتردد . وعترة
 الرجل : أفاربه من ولده وولد ولده وأداني بني عمته . و الهيم : الإبل العطاش .
 وأعلم أنه لما قدم المتقين بصفاتهم و الفاسقين بصفاتهم كان في ذكر هما تنبيه
 على وصفى طريقي الحق " و الباطل و لوازمهما فلذلك أعقبهما بالتنبيه على كونهم في صلال
 و تيه و عمي عن الحق ثم بالتخويف والتبيك والتذكرة بكتاب الله وعترة رسوله
 ليلزموا سماتهم و يسلكوا بهم طريق أهل التقوى و يفيؤوا عن ضلالهم إلى اقتباس أنوار
 الحق من أهله .

فقوله : فَأَيْنَ تَذَهَّبُونَ . إِلَى قَوْلِهِ : مَنْصُوبَةَ .

سؤال عما يذهبون إليه وعن وقت صرفهم عن ذلك الغي سؤالاً على سبيل الا نكار
 لما هم عليه من الطريق الجائرة ، و الواو في قوله : والأعلام . للحال . وأشاره بالأعلام
 إلى أئمة الدين ، ووضوحها ظهورها بينهم . وكذلك المنار ، ونصبها قيام الأئمة بينهم
 وجودهم فيهم ، ثم أردف ما انكره من ذهابهم وتعجب منه بتفسيره فقال : فَأَيْنَ يَتَاهُ بِكُمْ
 وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ ، وَنَبَهَ بِهِ إِلَى أَنَّ الْذَهَابَ الَّذِي سُئِلُوكُمْ عَنْهُ هُوَ تِيهُ فِي الضَّلَالِ
 وَحِيرَةُ الْجَهْلِ وَالتَّرَدُّدِ فِي الْغَيِّ ، وَتَبَيَّنَ مِنْهُ أَنَّ قَوْلَهُ : وَأَنَّى تُؤفِّكُونَ : أَى مَتَى
 تَصْرِفُونَ عَنْ تِيهِكُمْ وَذَهَابِكُمْ فِي الضَّلَالِ .

ولذلك ذكر هذه القضية مرتبة بفاء التعليل .

وقوله : و أعدوا من لاحجة لكم عليه وهو أنا .

طلب العذر منهم فيما يلحقهم من عذاب الله بسبب تقصيرهم فإن "الضرر اللاحق لهم قد أنذروا به و توعدوا فلو قصر هو في تذكيرهم بتلك الوعيدات أو الإنذارات مع كون ذلك مأخوذاً عليهم من الله تعالى فكانت حجتهم عليهم قائمة ولما كان له عذر لكنه بلغ وحدته وقد أُعذر من أنذرو إنساناً ذكرهم بسلب الحجية عنهم في ذلك ليتذكريوا خطأهم ولعلهم يرجعون .

وقوله : ألم أعمل فيكم إلى قوله : من نفسي .

تفصيل ما جائز لهم به من الجوازات إلى الله فأعذر لهم بها وأتي بلفظ الاستفهام على سبيل التقرير والتبيك و الشقل الأكبر كتاب الله ، وأشار بكونه أكبر إلى أنه الأصل المتبني المقتدى به ، و الشقل الأصغر الأئمة من ولده عليه السلام ، و كنتي برأية الإيمان عن سنة المتبعة و طريقة الواضحة في العمل بكتاب الله و سنة رسوله كنایة بالمستعار ، و وجه المشابهة كونه طريقة يهتمي بها إلى سلوك سبيل الله كما يهتمي بالأعلام والرأيات أمام الجيش وغيره ، و لفظ الركيز ترشيح للاستعارة كنتي به عن إياضها لهم و توقفه على حدود الحلال و الحرام تعريفهم إياها و أراد بالعافية السالمة عن الأذى الحال من أيدي الظالمين ، و استعار لفظ اللباس لها ، و وجه الاستعارة أن العافية تشمل المعافي كالقميص ، و كذلك استعار لفظ الفرش للمعروف لكونه إذا وطئت قواعده يستراح به كالفراش .

وقوله : و أرى لكم كرامي الأخلاق من نفسي : أى أوضحتها لكم و شاهدتموها مني متكررة .

وقوله : فلا تستعملوا الرأى إلى آخره .

نهى لهم عن الاشتغال بالخوض في صفات الله والبحث عن ذاته على غير قانون وأستاد مرشد بل بحسب الرأي والتخمين فإن " تلك الدقائق لما كانت لاساحل لها ولا غاية يقف الفكر عندها وإن تغلغل في أعماقها وكانت مع ذلك في غاية العسر والدقة و كثرة الاشتباه

كان تداولهم للاشتغال بها مؤدياً إلى الخبط وافتراق المذاهب وتشتت الكلمة والاشتغال بذلك عن الانتظام في سلك الدين والاتحاد فيه كما عليه من ينتسب إلى العلم بعده وكل ذلك منه مطلوب الشارع فإن الألفة والاتحاد في الدين من أعظم مطلوباته ويحتمل أن يريد مطلق دقائق العلم وتفریع الفقه على غير قانون من إمام هدى بل الرأى عن أدنى وهم.

منها : حتى يظنُّ الظَّانُ أَنَّ الدِّينَ مَعْقُولَةً عَلَى بَنِي أُمَّةٍ تَمْنَحُهُمْ دِرَّهَا
وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلَا يَرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سُوْطُهَا، وَلَا سَيْفُهَا، وَكَذَبَ
الظَّانُ لِذَلِكَ؛ بَلْ هِيَ بَجَةٌ مِّنْ لَذِيدِ الْعِيشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بِرَهْبَةٍ، ثُمَّ يَلْفَظُونَهَا جَمِيلَةً.

أقول : معقوله : محبوسة . والمتجة : الفعلة من مج الشراب إذا قذفه من فيه . والبرهه : المدة من الزمان فيها طول . وللفظ كذا : ألقاه من فيه .
 وهذا الكلام من فصل يذكر فيه حال بنى أمية وطول مدتهم وبلاد الخلق بهم قوله : يظن الظان . إلى قوله : سيفها . غاية من غايات طول عناء الناس معهم واستعار للدنيا أوصافاً :

أحدها : كونها معقوله ، ووجه الاستعارة ملاحظة شبهاها بالناقة في كونها محبوسة في أيديهم كما تجسس الناقة بالعقل .

الثاني : كونها ذات در تمنحهم أيامه ، ووجه الاستعارة أيضاً تشبيهاها بالناقة في كون مافيها من فوائدها وخيرها مهيئة لهم ومصبوبة عليهم كما تبذل الناقة در ها حالها .
 الثالث : كونها توردهم صفوها ، ونسبة الاراد إليها مجاز ، وتجوز بالسوط والسيف فيما فيهم من العذاب والقتل ونحوه استعمالاً للفظ السبب في المسبب وقوله : و كذب الظان لذلك . إلى آخره رد لما عساه يظن من ذلك تحقيق ما حصلوا عليه من الأمر ولذتهم به وتحقيق مدتهم ، واستعار لذلك لفظ المتجة ، وكتنى بكونها مطعومة لهم عن تلذذهم هامدة أمرهم ، وبكونها ملفوظة عن زوال الآخرة عنهم ، وأكذ

ذلك الزوال قوله : جلة : أى بكلّيتها وهى كنایة بالمستعار تشبيهاً لها باللّقمة التي لا يمكن إساغتها ، و باشة التوفيق .

٨٥ - فِيْنَ خَطَبَتِيْنَ بِهِ عَلَيْنِيْ مَا تَسْلَمْتُ

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصُمْ جَبَارِيْ دَهْرَ قَطْ إِلَّا بَعْدَ مَيْلٍ وَرَخَاءَ ، وَلَمْ يَجْرِ عَظَمٌ أَحَدٌ مِنَ الْأَمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلَ وَبَلَاءَ ، وَفِي دُونِ مَا سَتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ ، وَمَا أَسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ ؛ مُعْتَبِرًا وَمَا كُلَّ ذِي قَلْبٍ بَلِيلٍ ، وَلَا كُلُّ ذِي سَعْيٍ بَسِيمٍ ، وَلَا كُلُّ نَاظِرٍ يَصِيرُ ، فَيَأْعَجِيْ - وَمَا لِي لَا أَعْجَبُ - مِنْ خَطَابِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اختِلَافِ حُجَّجَهَا فِي دِينِهَا ! لَا يَقْتَصُونَ أُثْرَنِيْ ، وَلَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلٍ وَصِيْ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ ، وَلَا يَعْفُونَ عَنْ عِيْبٍ يَعْمَلُونَ فِي الشَّهَادَاتِ وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ ، الْمَعْرُوفُ عِنْهُمْ مَا عَرَفُوا ، وَالْمُنْكَرُ عِنْهُمْ مَا انْكَرُوا ، مَفْزُعُهُمْ فِي الْمُعَضِّلَاتِ إِلَى أَنفُسِهِمْ ، وَتَعْوِيْلُهُمْ فِي الْمُهَمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ . كَانَ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ إِمامٌ نَفْسَهُ : قَدْ اخْذَ مِنْهَا فِيَارِي بِعُرْيِ ثَقَاتٍ وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ .

أَفْوَلُ : القسم بالقفاف : الكسر . والأَذْل بفتح الهمزة : الضيق والشدة . واقتصر

أثره : تبعه .

وَمَقْصُودُ هَذَا الْفَصْلِ تَوْيِيخُ الْأُمَّةِ عَلَى اختِلَافِ آرَائِهِمْ فِي الدِّينِ وَاسْتِبْدَادِ كُلِّ مِنْهُمْ بِمِذْهَبٍ بِحَسْبِ رَأْيِهِ فِي الْمَسَالِلِ الْفَقِيْهِيَّةِ وَنَحْوُهَا مَعْوِجُوهُ عليه السلام بَيْنَهُمْ ، وَإِعْرَاضُهُمْ عَنْ مَرْاجِعَتِهِ مَعْ عِلْمِهِمْ بِقِيَامِهِ بِذَلِكِ .

فقوله : أمّا بعد . إلى قوله : يصير .

صدر الخطبة و كأنه تَبَلَّطَ فهم ممن خرجت هذه الخطبة بسيهائهم إنما يستبدون بآرائهم من دون مراجعة عن كبر منهم على التعلم والاستفادة ومحبة الراحة من تحمل كلفة التحرّى في الدين والتحرّز من الغلط فيه ومشقة الطلب فلذلك خوفهم من حال الجبارة وأن تصييدهم بترك قواعد الدين إلى آرائهم المترفرفة فيستعدوا للهلاك بقوله : إنه لم يقصد جباري دهر إلا بعد إمهالهم ورخائهم فإنّهم إذا أمهلوا وانغمسو في ما هم فيه من الرخاء والترف أعرضوا عن الآخرة ونسوا ذكر الله تعالى فاستعدوا بتركهم لقواعد الدين التي بها نظام العالم للهلاك ونحوه قوله تعالى «إِذَا أُرْدَنَا أَنْ نَهْلَكْ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرْفِهَا فَسَقَوْنَا فِيهَا فَحَقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فَدَمَرْنَا هَا تَدْمِيرًا»^(١) و كذلك قوله : ولم يجر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل وبلاه . كنني بجبران العظم عن قوتهم بعد الضعف كنایة بالمستعار، وصدق هذه القضية ظاهر فإن أحداً من الأمم المتبعين لأنبيائهم أو ملوكهم في إظهار دين أو طلب ملك لن يصلوا إلى مطلوبهم إلا بعد قوتهم وتصاعفهم وظهور بعضهم ببعض ومعاناة بلاه أثر بلاه بحيث يستعدون بذلك للفرز إلى الله تعالى في هيئته قلوبهم لقبول الألفة و يعودونها باجتماع عزائمها لقبول صورة النصر ، وفيه تنبيه على وجوب الاتحاد في الدين و عدم تشتت الآراء فيه فإن ذلك يدعو إلى التحرّب والتفرق ويدخل عليهم الوهن و الضعف وكل ذلك ضد مطلوب الشارع كما سبق ، ويحمل أن يكتنفي بقوله : لم يقصد جباري دهر . عن جباري وقته كمعاوية وأصحابه ، وبقوله : لم يجر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل و بلاه . عن أصحابه فنبّههم بالكلمة الأولى على أن أولئك الجبارين وإن طالت مدّتهم وقويت شوكتهم فإنّما ذلك إملاه من الله لهم ليستعدوا به للهلاك ، وبالكلمة الثانية على أنكم وإن ضعفتم وابتليتم فذاك عادة الله فيمن يربّد أن ينصره ثم عقب ذلك بتوجيههم على الاختلاف وتشعب الآراء والمذاهب في الدين ملأن ذلك يؤدّي إلى طول محنتهم وضعفهم عن مقاومة عدوّهم .

وقوله : وفي دون ما استقبلتم من عتب : أى من عتابي لكم واستدبرتم من خطب :

أى من الأحوال التي كنت ترونها من المشركون في ميادين الإسلام حيث كنتم قليلين وأمرتم أن يثبت الواحد منكم عشرة منهم ثم أيدكم الله بنصره بالتأليف بين قلوبكم و جبر عظمكم بين أسلم ودخل في دينكم و ذلك أى معتبر وفيه أى اعتبار فإنكم لولم تتحدوا في الدين وتقاسوا مرارة ذلك النصير و اختلفت آراؤكم في ذلك الوقت كاختلافها الآن ، و كنتم إذن على غاية من الكثرة لم تغرن عنكم كثركم شيئاً فكأنه قال : فيجب من ذلك الاعتبار أن لا تفترقوا في الرأي و أن تتحدوا في الدين و تراجعوا أعلمكم بأصوله وفروعه .

وقوله : **فما كل ذي قلب بل بليبي . إلى قوله : يصير .**

أراد بذى القلب إلا إنسان ، و ظاهر أن إنسان قد يخلو عن اللب و أراد باللب العقل و الذكاء و استعماله فيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ، و بالجملة فالبليبي من ينتفع بعقله فيما خلق لأجله و كذلك السميع و البصير هما اللذان يستعملان سمعهما و بصرهما في استفادة العبرة و إصلاح أمر المعاد و نحوه قوله تعالى «أَلَّهُمْ أَرْجِلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدِ يَطْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنْ يَمْسُرُونَ بِهَا»^(١) و قوله «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ أَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»^(٢) وفائدة هذه الكلمات تحريرك النفوس إلى الاعتبار كيلا يعد التارك له غير بليبي ولا سميع ولا بصير .

وقوله : **يا عجباً . إلى آخره .**

أردت تعجبه بما يصلح جواب سؤال مقدر عملاً بتعجب منه فكأنه فهم من تقدير ذلك السؤال تعجب السائل من تعجبه المستلزم لتبرره وهو ضجره حتى كأن السائل قال : ومم تعجب وعلام هذا التبرير والأسف فقال : مالي لأن عجب من خطأ هذه الفرق . ثم شرع في تفصيل الخطايا والمذام التي كان اجتماعها فيهم سبباً لتعجبه منهم فأشار إلى ترکهم لما ينبغي و قدم على الكل ذكر اختلاف حججهم في دينهم و ذلك هو الأصل الذي نشأت عنه أكثر هذه الرذائل فأماماً ترکهم لما ينبغي ففي صور :

أحدها : ترکهم لاقتاصاص أثر نبيهم فإنهم لو اقتاصوا أثره لما اختلفوا إذلاً اختلاف فيما جاء به كما سبق بيانه لكنهم اختلفوا فلم يقتاصوا أثر نبيهم .

الثانية : ترکهم الاقداء بعمل الوصيّ وهو إشارة إلى نفسه وهذه أقطع لأعذارهم فإنّ الاختلاف في الدين قد يعرض عن ضرورة وهي عدم إصابة الكلّ للحقّ مع عدم الشارع الذي يرجع إليه في التوفيق على أسرار الشريعة فاما إذا كان الموقف موجوداً بينهم كمثله عليهم امتنع أن يقعوا في تلك الضرورة فيعتذرون بها في الاختلاف .

الثالثة: ترکهم الإيمان بالغيب : أي التصديق به والطمأنينة في اعتقاده . وللمفسرين في تفسير الغيب أقوال :

أحدها : عن ابن عباس : هو ماجاء به من عند الله .

الثاني : عن عطاء : هو الله سبحانه .

الثالث : عن الحسن : هو الدار الآخرة و الثواب والعقاب و الحساب .

الرابع : قيل : يؤمّنون بظاهر الغيب كقوله تعالى « يخشون ربهم بالغيب » فالمعني قوله عليهم : أي لا يحفظون شرایط الإيمان في عقب بعضهم على بعض .

الخامس : عن ابن عيسى : الغيب ما غاب عن الجواب مما يعلم بالدليل .

السادس : عن الأخفش يؤمّنون بما غاب عن أهلاً منهم من متشابهات القرآن .

الرابعة : ترکهم العفة عن عيب وهو إشارة إلى الغيبة وظاهر أنها فجور و عبر إلى طرف الإفراط من فضيلة العفة . وأما فعلهم لما لايُنْبَغِي فـأمور :

أحدها : أنّهم يعملون في الشبهات : أي لا يتوقفون فيما أشده عليهم أمره ولا يبحثون عن وجه الحقّ فيه بل يعملون فيه بما قادهم إليه الهوى .

الثاني : كونهم يسيرون في الشهوات مـالاحظ مشابهة مـيل قلوبهم إلى شهوتها الدنيوية و انهمـ كـها فيها قاطعة مـراحل الأوقات بالتلذـذ لـسلوك السـاير في الطريق و نحوها استعار لذلك السلوك لـفـظ السـير .

الثالث : كونـ المعـروفـ فيـهمـ ماـعـرـفـواـ وـالـمـنـكـرـ ماـأـنـكـرـواـ : أيـ أنـ المـعـروفـ وـالـمـنـكـرـ تـابـعـانـ لـإـرـادـتـهـمـ وـمـيـولـهـمـ الطـبـيعـيـةـ فـمـاـأـنـكـرـتـهـ طـبـاعـهـمـ كـانـ هـوـ المـنـكـرـ بـيـنـهـمـ وـإـنـ كـانـ مـعـرـفـةـ فيـ الشـرـيـعـةـ وـمـاـقـضـتـهـ طـبـاعـهـمـ وـمـاـلـتـ إـلـيـهـ كـانـ هـوـ المـعـرـفـ بـيـنـهـمـ وـإـنـ كـانـ مـنـكـرـاـ فيـ الدـينـ ،ـ وـالـوـاجـبـ أـنـ يـكـونـ إـرـادـتـهـمـ وـمـيـولـهـمـ تـابـعـةـ لـرـوـاـسـ الشـرـيـعـةـ فـيـ اـتـبـاعـ ماـكـانـ فـيـهاـ .

معروفاً وإنكار ما كان فيها منكراً.

الرابع : كون مفزعهم في المضلالات إلى أنفسهم و تعويتهم في المبهمات إلى آرائهم وهو كنایة عن كون أحكامهم في كلّ ما يرد عليهم من مشكلات الدين و يستبهم من أحكامه تابعة لأهوائهم لا يجرؤونها على قانون شرعى يعرف حتى أشيئت نفوسهم الأمارة بالسوء التي هي منبع الأهواء المخالفة للشريعة الأئمة التي يرجع إليهم في استفادة الأحكام فكلّ منهم يأخذ عن نفسه : أى يتمسّك فيما يراه و يحكم به بآراء كأنّها عنده عرى و ثيقة : أى لا يضلّ من تمسّك بها و أسباب حكمات : أى نصوص جلية و ظواهر واضحة لا اشتباه فيها ، وقد عرفت معنى الحكم ، و لفظ العرى مستعار ، وقد سبق وجه الاستعارة . وبالله العصمة و التوفيق .

٨٦ - فَمِنْ خَطْبَتِنَا عَلَيْنَا الْسَّلَامُ

أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينَ فِتْرَةِ مِنَ الرَّسُولِ ، وَطُولَ هَجَّاجَةَ مِنَ الْأَمَمِ ، وَاعْتِزَامِ مِنَ
الْفَتَنِ ، وَانْتَشارِ مِنَ الْأَمْوَارِ ، وَتَلَظِّ مِنَ الْحَرْوَبِ ، وَالَّذِيَا كَاسِفَةُ النُّورِ
ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ ، عَلَىٰ حِينِ أَصْفَارِ مِنْ وَرْقَهَا ، وَإِيَّاسِ مِنْ ثَمَرَهَا ، وَأَغْوَارَ
مِنْ مَائِهَا ، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى ، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى ، فَهِيَ مُتَجَهَّمَةٌ
لِأَهْلِهَا عَابَسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبَهَا ، ثَمَرَهَا الْفَتَنَةُ ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ ، وَشَعَارُهَا
الْخُوفُ ، وَدِثارُهَا السَّيفُ . فَاعْتَبِرُوا ، عِبَادَ اللَّهِ ، وَاذْكُرُوا تِبَكَ الَّتِي
آبَاؤُكُمْ وَإِخْرَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهِنُونَ ، وَعَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ . وَلَعْمَرِي مَا تَقَدَّمْتُ
بِكُمْ وَلَا يَهُمُ الْعَهُودُ ، وَلَا خَلَّتْ فِيمَا يَنْكُمْ وَبَيْنَهُمِ الْاَحْقَابُ وَالْقَرُونُ ،
وَمَا اتَّمْتُ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمٍ كُنْتُمْ فِي اَصْلَاهِيهِمْ يَعِيدُ . وَاللَّهُ مَا اسْعَهُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً

إِلَّا وَهَا نَا ذَا الْيَوْمِ مُسْعَكُوهُ، وَمَا أَسْعَكُوكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْعَاهُمْ بِالْأَمْسِ
وَلَا شُقْتَ لَهُمُ الْأَبْصَارُ، وَلَا جَعَلْتَ لَهُمُ الْأَقْدَهُ فِي ذَلِكَ الْأَوَانِ إِلَّا وَقَدْ
أَعْطَيْتُمُ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ . وَاللهُ مَا بَصَرَ مَعْدُودَ بَعْدَهُمْ شَيْئًا جَهْلُهُ، وَلَا أَصْفِيْتُمْ
بِهِ وَحْرَمُوهُ ، وَلَقَدْ نَزَّلْتَ بِكُمُ الْبَلِيهَ جَائِلًا خَطَامُهَا رَخْوًا بَطَانَهَا ، فَلَا
يَغْرِنُكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيْهِ أَهْلُ الْفَرْوَرِ ، فَإِنَّمَا هُوَ ظَلٌّ مَمْدُودٌ ، إِلَى أَجَلٍ مَمْدُودٍ .

أقول : الفترة : ما بين زمانى الرسالة . والهجرة : النومة . والاعترام : العزم ، وروى :
اعترام الفتن بالراء المهملة : أى كثرتها ، وروى : اعتراض من اعترض الفرس الطريق إذا
مشى عرضاهن غير قصد . وتلظلت الحرب : تلميخت . والتوجه : العبوس . والأحقاب : جمع
حقب بضم الحاء والكاف وهو الدهر . والبطان : حزام البعير للقتب .

و صورة هذا الفصل تذكيرهم بنعمة الله تعالى التي نفت ما كانوا فيه من بؤس وهي
بعثة الرسول ﷺ وما استلزمته من الخيرات ليعتبروا فيشكروا ويخلصوا التوجّه إلى
الله تعالى فأشاروا إلى النعمة المذكورة ثم أردفها بأحوال المذمومة التي تبدّلت بتلك
النعمة الجسيمة ، وعدّ منها أموراً :

أحدها : الفترة من الرسل و ظاهر أن "خلو" الزمان عن رسول فيه يستلزم وجود
الشروع ووقوع الهرج والمرج ، وتلك أحوال مذمومة يلحق ذلك الزمان بهامن الذم بمقدار
ما يلحق زمان وجود الرسول ﷺ من المدح .

الثاني : طول الهجرة من الأُمّ ، و كثني بالهجرة عن الغفلة في أمر المعاد وساير
المصالح التي ينبغي .

الثالث : الاعترام من الفتن أمّا على الرواية الأولى فنسبة العزم إلى الفتن مجاز
كتنى به عن وقوعها بين الخلق المشبه لقصدها إياهم ، وعلى الرواية الثانية : أى على

كثرة من الفتن ، وعلى الرواية الثالثة فالمعنى أن "الفتن لما كانت غير واقعة على قانون شرعي ولا نظام مصلحي" ولذلك سميت فتنة لاجرم أشبها المعرض في الطريق من الحيوان الماشي على غير استقامة ، ولذلك استغير لها لفظ الاعتراف .

الرابع : وعلى انتشار من الأمور : أى تفرق أمور الخلق وأحوالهم وجريان أفعالهم على غير قانون عدل .

الخامس : التلظى من الحروب . وقد سبق تشبيه الحرب بالنار فلذلك أُسند إليها التلظى على سبيل الاستعارة ، وكفى بها عن هيجانها وجودها بينهم زمان الفترة .
السادس : و الدنيا كاسفة ، و الواو للحال : أى كاسف نورها ، و نور الدنيا كنایة عن وجود الأنبياء وما يأتون به من الشريائع وما ينتج عنهم من الأولياء والعلماء كنایة بالمستعار ، وجه المشابهة ما يستلزم النور وجود الأنبياء والشريائع من الاهتمام بهما ، و رشح تلك الاستعارة بذكر الكسوف ، و عبر به عن عدم ذلك النور منها ملاحظة شببهما بالشمس .

السابع : ظاهرة الغرور : أى كل "قد أغتر" بها وانهمك في مشتفياتها وخدعاته بخواصها .

الثامن : كونه أرسل على حين إصرارهن ورقها وإياس من ثمرها وأغوار من ماءها . استعار لفظ الثمرة والورق ملتاعها وزينتها ، ولفظ الإصرار لتغيير تلك الزينة عن العرب في ذلك الوقت وعدم طلاوة عيشهم إذن وخشوونة مطاعتهم كما يذهب حسن الشجرة بإصرار ورقها فلا يتلذذ بالنظر إليها وعني بالإياس من ثمرها انقطاع آمال العرب إذن من الملك والدولة وما يستلزم من الحصول على طيبات الدنيا ، وكذلك استعار لفظ الماء مواد متعاث الدنيا وطرق لذاتها ولفظ الأغوار لعدم تلك المواد من ضعف التجارة والملك و عدم التمليل للأمصار وكل ذلك لعدم النظام العدل " بينهم وكلها استعارات بالكنایة ووجه الاستعارة الأولى أن "الورق كما أنه زينة للشجرة وبه كما له كذلك لذات الدنيا وحياة الدنيا وزينتها ، ووجه الثانية أن "الثمر كما أنه مقصود الشجرة غالباً وغايتها كذلك متعاث الدنيا وانتفاع به هو مقصودها المطلوب منها لا أكثر الخلق ،

ووجه الثالثة أنّ الماء كما أنه مادة الشجر وبه حياتها وقيامها في الوجود كذلك مولود تلك اللذات هي الملائكة والتجارات والصناعات، وقد كانت العرب خالية من ذلك، ووجوه باقى الاستعارات ظاهرة.

الحادي عشر : دروس أعلام الهدى . و كنـى بأعلام الهدى عن أئمـة الدين ، و كتبـه التي بها يهتـدى لسلوك سـبيل الله و بدرـوسـها عن موـت أولـئـك و عدمـهم كـنـية بالـمستـعار كـما سـبق .

العاشر : ظهـور أعلام الرـدى . و هـم أئمـة الضـلال الدـاعـين إـلـى النـار .

الحاديـ عشر : كـون الدـينـا مـتجـهمـة لأـهـلـهـا عـابـسـة في وجـوهـ طـلـابـهـا ، و كـنـى بذلك عن عدم صـفـائـها فـإـن طـبـ العـيـسـ في الدـينـا إـنـما يـكـونـ مع وجـودـ نـظـامـ العـدـلـ و التـصـفـيـةـ بـينـ أـهـلـهـا و عدمـ التـظـالـمـ و ذلكـ في زـمانـ الفـتـرـةـ مـفـقـودـ بـينـ العـربـ ، و هو كـنـيةـ بالـمـسـتعـارـ ، و وجـهـ المـشـابـهـ ما يـلـزـمـهـ المـسـتعـارـ عـنـهـ و لـهـ مـنـ عـدـمـ تـحـصـيلـ المـطـلـوبـ معـهـماـ .

الثـانـيـ عـشـرـ : كـونـ ثـمـرـهـ الـفـتـنـةـ : أـىـ غـايـةـ سـعـيـهـ فـيـهـ عـلـىـ خـبـطـ فـيـ ظـلـمـاتـ جـهـلـهـمـ إـنـماـ هوـ الـفـتـنـةـ : أـىـ الضـلالـ عـنـ سـبـيلـ اللهـ وـ الـتـيـهـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـبـاطـلـ . وـ غـايـةـ كـلـ شـيـءـ هـوـ مـقـصـودـ فـتـشـبـهـ الشـمـرـةـ الـتـيـ هـيـ مـقـصـودـ الشـجـرـةـ فـلـذـاكـ اـسـتـعـيرـ لـهـ لـفـظـهـاـ .

الثـالـثـ عـشـرـ : وـ طـعـامـهـ الـجـيـفـةـ . يـحـتمـلـ أـنـ يـكـونـ لـفـظـ الـجـيـفـةـ هـنـاـ مـسـتعـارـاـ لـطـعـامـ الـدـينـاـ وـ لـذـاتـهـ ، وـ وجـهـ المـشـابـهـ أـنـهـ مـلـاـ كـانـ الـجـيـفـةـ عـبـارـةـ عـمـاـ أـنـتـنـ وـ تـغـيـرـتـ رـائـحتـهـ مـنـ جـشـةـ حـيـوانـ وـ نـحـوـهـاـ فـخـبـثـ مـاـ كـلـهـ وـ نـفـرـ الطـبـعـ عـنـهـ كـذـلـكـ طـعـامـ الـدـينـاـ وـ لـذـاتـهـ فـيـ زـمانـ الـفـتـرـةـ أـكـثـرـ مـاـ يـكـونـ مـنـ النـهـبـ وـ الغـارـةـ وـ السـرـقةـ وـ نـحـوـهـمـاـ مـمـاـ يـخـبـثـ تـناـولـهـ شـرـعاـ وـ يـنـفـرـ العـقـلـ مـنـهـ وـ تـأـبـاهـ كـرـائـمـ الـأـخـلـاقـ فـأـشـبـهـ مـاـ يـحـصـلـ مـنـ مـتـاعـهـ إـذـنـ الـجـيـفـةـ فـيـ خـبـثـهـاـ وـ سـوـءـ مـطـعـمـهـ وـ إـنـ كـانـ أـحـدـ الـخـبـيـثـ عـقـلـيـاـ وـ الـآخـرـ حـسـيـاـ فـاستـعـيرـ لـفـظـهـاـ لـهـ ، وـ يـحـتمـلـ أـنـ يـكـنـىـ بـالـجـيـفـةـ عـمـاـ كـانـواـ يـأـكـلـونـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ مـنـ الـحـيـوانـ غـيرـ مـذـكـرـ وـ هـوـ مـاـ حـرـمـهـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ مـنـ ذـلـكـ فـيـ قـوـلـهـ : حـرـمـتـ عـلـيـكـمـ الـمـيـتـةـ وـ الـدـمـ وـ لـحـمـ الـخـنـزـيرـ وـ مـاـ أـهـلـ لـغـيرـ اللهـ وـ الـمـخـنـقـةـ وـ الـمـوـقـوذـةـ :^(١) أـىـ الـمـضـرـ وـ بـهـ بـالـخـشـبـ حـتـىـ تـمـوتـ وـ يـقـيـ الدـمـ فـيـهـاـ فـيـكـونـ

أطيب كما زعم المجروس ، و المتردية : أى التي ترددت من علو فمات . فإن " كل " ذلك إذا مات فكثيراً ما يتغافن و يؤكّل فيصدق أن طعامهم كان الجيفة .
الرابع عشر : كون شعارها الخوف .

الخامس عشر : كون دثارها السيف . استعار لفظ الشعار للخوف و الدثار للسيف ، و وجه الاستعارة الأولى أن الخوف و إن كان من العوارض القلبية إلا أنه كثيراً ما يستتبع اضطراب البدن و انفعاله بالرعدة فيكون شامل له شمول ما يتخذه الإنسان شعارا ، و وجه الثانية أن الدثار والسيف يشتركان في مباشرة المدح و المضروب من فوقهما .
وقوله : فاعتبروا عبد الله شروع في المقصود . قوله : و اذ كرواتلث . إشارة إلى وجه العبرة من قبائح الأعمال : أى تلك الأعمال التي كانت عليها آباءكم و إخوانكم زمان الفترة و زمان دعوة الرسول لكم ، و قوله : فهم بها مرتئون : أى محبوسون في سلاسل الهيئات البدنية وأغلال ما اكتسبوا منها ، ومحاسبون عليها . قوله : و لعمري . إلى قوله : يبعيد . إلحاد بهم بأدائهم في تشبيه زمانهم بزمانهم و تقارب ما بين الزمانين و تشبيه أحوالهم بحالهم في أمور :

أحددها : أن " أولئك كانوا آباءكم و ليس زمان الآباء و حاله يبعيد من حال أبيه فيما يأتي وذر .

الثاني : أن " الرسول صلوات الله عليه وآله وسالم لم يسمعهم شيئاً إلا و أسمعتمكم إياه فلا فرق بينكم و بينهم من هذه الجهة .

الثالث : أنه لاتفاق بين إسماعكم و إسماعهم .

الرابع : أن " سائر الآلات البدنية التي كانت لا ولئك فاكتسبوا بها كما لا و لم تكتسبوا حاصلة لكم أيضاً .

الخامس : أنكم لم تعلموا شيئاً كان آباءكم جهلوه حتى يكون ذلك سبباً للفرق بينكم وبينهم .

السادس : ولا أصفيت من الدنيا بشيء لم يكن لا آباءكم مثله ، و غرضه من إلحادهم بما بهم في هذه الأحوال أمران : أحدهما : التغافل عن حال من سبق من العاصين بمخالفة

أو أمر الله تعالى . الثاني : الجذب و الترغيب في حال من سبق من أطاع الله و الرسول فإنه إذا حصلت المشابهة بينهم وبين السابقين والمتشابهين يتضمن في الوازيم كان من تشبيه سابق في عصيانه لزمه مالزمه من أيام العقاب ، ومن تشبيهه في طاعته وانقياده لزمه مالزمه من الوصول إلى جزيل الثواب .
وقوله : ولقد نزلت بكم البلية .

يشبه أن يكون إنذاراً باتلاه الخلق بدولة بنى أمية وملوكها ، و قوله : جائلاً خطامها . كنایة بالمستعار عن خطرها و صعوبة حال من يرکن إليها فانه لما كانت دولة خارجة عن نظام الشريعة جارية على وفق الأوهام كان الراكن إليهم على خطر في دينه و نفسه كما أن من رکن إلى الناقة التي جال خطامها ، أى لم يثبت في وجهها وارتخى حزامها فركبها كان على خطر أن تصرعه فيهلك ، ثم أردد ذلك بالنها عن الافتراض بما أصبح فيه أهل الغفلة من متاع الدنيا وطيباتها ونفر عنه باستعارة لفظ الظل له ، ووجه المشابهة ما يشتراك فيهم كونه ممدوحاً ينتهي عند أجل ويزول به . وبالله التوفيق .

٨٧- *فِيْ مِنْ حَجَّةِ الْمُحَاجَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ*

الحمد لله المعروف من غير رؤية ، والخالق من غير رؤية ، الذي لم ينزل
قائماً دائماً : إذ لا شاء ذات أبرايج : ولا حجب ذات أرتاج ، ولا ليل
داج ، ولا بحر ساج ، ولا جبل ذو بجاج ، ولا فج ذو اوعي جاج ، ولا أرض
ذات مهاد ، ولا خلق ذو اعتداد : ذلك مبتدعُ الْخَلْقِ ووارثه ، وإلهُ الْخَلْقِ
ورازقه ، والشمس والقمر دائن في مرضاته : يليلان كل جديده ويقربان
كل بعيد ، قسم ارزاقهم ، واحصى آثارهم واعمالهم ، وعدد انفاسهم ، وخائنة
اعيئهم ، وما تخفي صدورهم من الضمير ، ومستقرهم ومستودعهم من

الآرحام والظهور ، إلى أن تناهى بهم الغايات ، هو الذي اشتدت نعمته على
أعدائه في سعة رحمته واتسعت رحمة لا ولائمه في شدة نقمته ، قاهر من عازه
ومدمر من شاقه ، ومذل من نواه ، وغالب من عاده ، ومن توكل عليه كفاه ،
ومن ساله اعطاه ، ومن أقرضه قضاه ، ومن شكره جزاه .

عبد الله ، زُنوا أنفسكم قبل أن توزعوا ، وحاسبوها من قبل أن تمحاسبو ،
وتفسوا قبل ضيق الخناق ، وإنقادوا قبل عنف السياق ، وأعلموا أنه من
لم يعن على نفسه حتى يكون له منها وأعظم وزاجر لم يكن له من غيرها
زاجر ولا وأعظم .

أقول : الأرتاج : الأغلاق . والساجي : الساكن . والفحاج : الاتساع . والفتح :
الواسع . ودائيان : مجد أن في سيرهما . وعاذه : غالبه . و المناواة : المعاادة .
وقد صدر هذا الفصل باعتبارات إضافية للحق " سبحانه في معرض تمجيده :
فالاول : كونه تعالى معروفاً من غير رؤية ، وقد سبق معنى معرفته تعالى ومراتبها
و بيان كونه متنزهاً عن الرؤية بحسنة البصر .
الثاني : كونه تعالى خالقاً من غير رؤية ، وقد سبق أيضاً بيانه في قوله في الخطبة
الأولى : بالرواية أجابها .
الثالث : كونه لم يزل دائماً ، وذلك لكون وجوب وجوده مستلزمًا لاستحالة عدمه
أولاً وأبداً .

الرابع : كونه قائمًا . يجوز أن يريد به معنى الدائم الباقي ، ويجوز أن يريد به
القائم بأمور العالم ، وللمفسرين فيه على هذا الوجه أقوال :
الأول : عن ابن عباس - رضي الله عنه - كونه عالماً بالخلق أينما كانوا وضابطاً

لأحوالهم .

الثاني : قيامه توكيده الحفظة عليهم و هو المشار إليه بقوله تعالى « أَفَمِنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسِبَتْ » .

الثالث : القائم على الشيء هو الحافظ له و المدبر لأمره .

الرابع : هو المجازى بالأعمال .

الخامس : هو القاهر لعباده المقتدر عليهم ، و قوله : إِذْ لَا سَمَاءٌ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ذُو اعْتِمَادٍ إِشارة إلى جهة اعتبار أزلية قيامه بذاته و سببه لكل ممكناً و دواماً تقريراً لقول الرسول ﷺ : كان الله ولا شيء . فاما الحجب ذات الارتجاج فيحتمل أن يريده بها السماوات على ظاهر الشريعة وأنه تعالى في السماء فأثبتت الحجب له فأطلق له لفظها عليها ، و كونها ذات ارتجاج كنایة عن عدم التمكن من فتحها و الدخول فيها كنایة بالمستعار ، و قال بعض الفضلاء : أراد بها الهیئات البذرية و محنة الدنيا و الظلمات الحاصلة للنفس الحاجة لها عن مشاهدة أنوار جلال الله حتى كأنها أفعال عليها كما قال تعالى « أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَفْقَالِهِ » و قوله : وَلَا خَلَقَ ذُو اعْتِمَادٍ : أَيْ ذُو قُوَّةٍ وَبَطْشٍ .

السادس : كونه مبتدع الخلق : أى مخترعه على غير مثال سبق .

السابع : كونه وارثه : أى كما أنه مبدأ فهو مآل و مرجعه ، و ذلك إشارة إلى كونه دائماً قائماً لم يزد ولا يزال .

الثامن : كونه إله الخلق وهو اعتبار يلحقه بالقياس إلى إيجاده لهم واستعباده إياهم .

التاسع : كونه رازقهم و هو اعتبار له بالقياس إلى إفاضة سائر نعمه عليهم .

أحدها : كون الشمس والقمر دائرين في مرضاته : أى على وفق إرادته للخير المطلقة والنظام الكلى ، و ذكرهما في معرض تمجيده لكونهما من أعظم آيات ملكته ، و قوله : بيليان كلـ جديـد . نسب إـلـيـاهـ إـلـيـهـماـ لـكـونـ حـرـكـاتـهـماـ منـ الأـسـبـابـ لـجـدـوـثـ الـحوـادـثـ فيـ هـذـاـ الـعـالـمـ وـ تـغـيـرـاتـهـ ، وـ كـذـلـكـ قـوـلـهـ : وـ يـقـرـ بـانـ كـلـ بـعـيدـ ، وـ فـيـهـ جـذـبـ إـلـىـ ذـكـرـ الـمـعـادـ وـ الـعـمـلـ لـهـ فـكـونـهـماـ بـيـلـيـانـ كـلـ جـديـدـ منـبـهـ علىـ دـمـ الثـقـةـ وـ الـاعـتـمـادـ عـلـىـ ماـ يـرـوـقـ وـ يـعـجـبـ مـنـ حـسـنـ الـأـبـدـانـ وـ جـدـتـهـاـ ، وـ كـذـلـكـ مـاـ يـحـدـثـ وـ يـتـجـدـدـ مـنـ قـيـنـاتـ الـدـنـيـاـ وـ لـذـاتـهـاـ

لوجوب دخولها فيما يبلى و كونهما يقران البعيد تنبئه مع ذلك على العذر مما يستبعده أهل الغفلة من الموت والفناء في صحة أبدانهم و سلامتهم في حياتهم الدنيا .

العاشر : كونه تعالى قسم أرزاقهم كقوله « نحن قمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا »^(١) أي وهب لكل من الخلق ما كتب له في اللوح المحفوظ .

الحادي عشر : كونه أحصى آثارهم . إلى قوله : من الأرحام و الظهرور : أي أحصى كل ذلك منهم بقلم القضاء الإلهي في الألواح المحفوظة و إليه الإشارة بقوله تعالى « والله يعلم أعمالكم » و قوله « و ما من غائبة في السماء و الأرض إلا في كتاب مبين »^(٢) و قوله « يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور »^(٣) و قوله « و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها و مستودعها كل في كتاب مبين »^(٤) و قوله : إلى أن تنتهي بهم الغايات : أي يعلم كل أحوالهم من حين ابتدائهم إلى أن يقف كل عند غايتها المكتوبة له من خير أو شر .

الثاني عشر : هو الذي اشتدت نقمته على أعدائه في سعة رحمته و اتسعت رحمة لأوليائه في شدة نقمته و أشار بذلك إلى كمال ذاته بالنسبة إلى ملوك الدنيا مثلاً فإن أحدهم في حالة غضبه على عدو لا يتسع لرحمته ولا رحمة غيره ، وكذلك في حال رحمة لأوليائه لا يجتمع معها غضبه عليهم ، و لما ثبت أنه تعالى هو الغني المطلق المنزه عن صفات المخلوقين وأنه المعطى لكل قابل ما يستحقه من غير توقف في وجوده على أمر من ذاته و كان أعداء الله مستعدون ببعدهم عنه لقبول سخطه و شدة نقمته في الآخرة لاجرم أولاهم ذلك وإن كانوا في الدنيا في سعة رحمته و شمول نعمته ، وكذلك أولاهم لما استعدوا لقبول رحمة و شمول نعمته أفضحها عليهم فهم في حضرة قدره على غاية من البهجة و السعادة و ضروب الكراهة وإن كانوا بأجسادهم في ضروب من العذاب و شقاوة الفقر و الضنك في الدنيا ، وذلك لا يملكه إلا حليم لا يشغله غضب عن رحمة ، عدل حكيم لا تمنعه رحمة عن إنزال عقوبته سبحانه ليس إلا هـ .

الثالث عشر : قاهر من عازه . إنَّه تعالى قاهر باعتبار أَنَّه قاصم ظهور العجائب من أعدائه فيقهرهم بالموت والإِذلال كفرعون إذ قال : أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . وهو الذي يلحق هذا الاعتبار مطلقاً إذ كل موجود فهو مسخر تحت قدرته وقهقه عاجز في قبضته .

الرابع عشر : ومدمّر من شاقق .

الخامس عشر : ومذلّ من ناواه .

السادس عشر : وغالب من عاداه . فمشاققَة الله اتباع غير سبيله من بعده ما يتبيّن للمنحرف الهدي ، ومناؤاته الإِعراض عن أواسمه واتباع الشهوات وإِذلاله تعالى حينئذ هو إِفاضته لصورة الحاجة إلى غيره .

السابع عشر : كافٍ من توكل عليه .

الثامن عشر : ومعطى من سأله .

التاسع عشر : وقاضٍ من أفرضه .

العشرون : ومجازي من شكره . وهذه الاعتبارات تعود إلى حرف واحد وهو أنَّ العبد إذا استعد بحسن التوكل والسؤال والصدقة والشكر لنعم الله وجب في جود الله وحكمته إِفاضة كفايته فيما توكل عليه فيه فكفايته من الكمالات إِفاضة تمامها عليه ، ومن رفع النقصانات دفعها عنه ثم إِعطاؤه ما سأله إذا استعد لقبوله ثم أُداؤه عن قرره أضعافه ثم جزاؤه على شكر زيادة إنعامه ، وأطلق لفظ القرض لما يعطى الفقير مجازاً كما قال تعالى « من ذي الذي يقرض الله فرضاً حسناً » ^(١) أى بريئاً من جهات الرياء والسمعة خالصاً لوجه الله فيضاعف له أضعافاً كثيرة ، ووجه المناسبة كون القراء أهل الله وعياله فكان المعطى هو الله تعالى .

وقوله : عباد الله . إلى آخره .

شروع في الشور والموعظة قوله : زنو أنفسكم من قبل أن توزنوا . زنة النفوس في الدنيا اعتبار أعمالها وضبطها بميزان العدل : أى مراعاة استقامتها على حلق الوسط من طرف

الإفراط والتفريط الذين هما كفتي الميزان مهملان حجت إحدى مهام النقصان لازم والخسران قائم ، وأمّا الميزان الآخرى فاما على رأى المتكلمين و ظاهر الشريعة ظاهر و أمّا على رأى محققى السالكين من الصوفية فما أشار إليه الإمام الغزّالي -رضي الله عنه- كاف في بيانه قال : إن " تعلق النفس بالجسد كالحجاب لها عن حقائق الأمور و بالموت ينكشف الغطاء كما قال تعالى « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غُطَاءَكَ فَبَصَرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »^(١) و مما ينكشف له تأثير أعماله فيما يقر به إلى الله تعالى ويبعده عنه ، ومقدار تلك الآثار وأن بعضها أشد تأثيراً من بعض ، وفي قدرة الله تعالى أن يجري شيئاً يعرف الخلق به في لحظة واحدة مقدار الأعمال بالإضافة إلى تأثيراتها في التقرب والإبعاد فـ " الميزان ما به يتميّز الزيادة والنقصان وإن اختلف مثاله في العالم المحسوس فمنه الميزان المعروف ومنه القبان والأصطرباب لحركات الفلك ، و المسطرة مقدار الخطوط ، و العروض مقدار حركات الأصوات فهذه كلها أمثلة للميزان الحقيقي ، وهو ما يعرف به الزيادة والنقصان وهو موجود فيها بأسرها ، وصورته تكون للحس عند التشكيك وللخيال بالتمثيل . و قوله : و حاسبوه قبل أن تحاسبوا .

محاسبة النفس ضبط الإنسان على نفسه أعمالها الخيرية و الشريعة ليزكيها بما ينبغي لها و يعاقبها على فعل ما لا ينبغي ، وهي باب عظيم من أبواب المرابطة في سبيل الله فإن " للعارفين في سلوك سبيل الله و مرابطتهم مع أنفسهم مقامات خمسة : الأولى : المشارطة ثم " المراقبة ثم " المحاسبة ثم " المعاتبة ثم " المجاهدة و المعاقبة . و ضربوا بذلك مثلاً فقالوا : ينبغي أن يكون حال الإنسان مع نفسه كحاله مع شريكه إذا سلم إليه ما لا يتسرّج به فالعقل هو التاجر في طريق الآخرة ، و مطلبه و ربحه تركة النفس إذ بذلك فلا حجاها كما قال تعالى « قد أفلح من زكيها وقد خاب من دسيها »^(٢) وإنما علاجها بالأعمال الصالحة فالعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذا استسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه ، و كمائن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه فيربح فيحتاج أن يشارطه أولاً ، و يراقبه ثانياً ، و يحاسبه ثالثاً ، و يعاتبه أو يعاقبه

رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أو لا فيوظف عليها الوظائف، ويأمرها بسلوك طريق الحق، ويرشدها إليها، ويحرم عليها سلوك غيرها كما يشترط التاجر على شريكه.

الثانية: أن لا يغفل عن مراقبتها لحظة فلحظة عند خوضها في الأعمال وبالاحظها بالعين الكالمة وإلى مقام امراقبة الإشارة بقوله تعالى «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ»^(١) وقوله وَالَّذِينَ هُمْ كَانُوكُنْتُمْ تَرَاهُ: أعبد الله كأنك تراه، وقد سبق بيانحقيقة المراقبة، ولابد منها فإن الإنسان لو غفل عن نفسه وأهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا انفرد بمال سيده.

الثالثة: ثم بعد الفراغ من العمل ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى فتدقيق الحساب في هذا أهم من التدقيق في أرباح الدنيا لحقارتها بالنسبة إلى نعيم الآخرة فلا ينبغي أن يهمل من مناقشتها في ذرة من حركاتها وسكناتها وخطراتها ولحظاتها فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بما كنته من كنوز الآخرة لا يتنا هي . قالوا : وينبغى للإنسان أن يخاو عقب فريضة كل صبح مع نفسه بالوصية ويقول : أى نفس ليس لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس مالي ، ووقع اليأس من التجارة وطلب الربح ، وهذا يوم جديد قد أمهلني الله فيه وهو صاحب البضاعة وربها ولو توفاني لقلت : رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت : فاحسبي إنك ردت فايـاك و تضييع هذا اليوم والغفلة فيه . و أعلمك أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر أنه يفتح للعبد في كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصقوفة فيفتح لها فيها خزانة فيراها مملوقة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة فينال من الفرح والاستبشر بمشاهدة تلك الأنوار ما لو قسم على أهل النار لأنهم عن الإحسان بالآملا ، ويفتح له خزانة أخرى فيراها سوداء مظلمة يفوح منها و يغشاهم ظلامها وهي الساعة التي عصا الله تعالى فيها فينا له من الهول والفزع مالوقسم على أهل الجنـة لتغصـ عليهم نعيمـها ، ويـفتح لهـ خزانـة أخرى فارـغـة

(١) - ٧٠ - ٣٢

ليس فيها ما يسره وما يسوئه وهي الساعة التي نام فيها أو غفل في شيء من مباحثات الدنيا فيتحسن على خلوها ويناله من الغبن الفاحش ما ينال من قدر على ربح كثير ثم ضيّعه، وإليه الإشارة بقوله تعالى « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن »^(١) وقال بعضهم : هب أنَّ المُسيِّر قد عفى عنه أليس فاته ثواب المحسنين . وهو إشارة إلى الغبن والحسنة يومئذ ، ثم يستأنف وصيته لأعضائه السبعة : وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، ويسلمها إليها فإنها رعايا خادمة لها في التجارة وبها يتم أعمال هذه التجارة ، وأنَّ لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، وإنما يتعمّن تلك الأبواب من عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، ويوصي كل عضو بما ينبغي له وينبه عمّا لا ينبغي له ، ويرجعه في تفصيل تلك الأوامر والنواهي إلى مراسيم الشريعة ثم يشترط عليها إن خالفت ذلك عاقبها بالمنع من شهواتها ، وهذه الوصيّة قد تكون بعد العمل وقد تكون قبله للتحذير كما قال تعالى « فاعلموا أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذرُوه »^(٢) .

الرابعة : المجاهدة والمعاقبة ، وهو بعد المحاسبة إذا رأى نفسه قد تاقت معصية فينبغي أن يعقوبها بالصبر عن أمثالها ويضيق عليها في مواردها وما يقود إليها من الأمور المباحة وإن رآها توانت وكسلت عن شيء من الفضائل وورد من الأوراد فينبغي أن يؤدّبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الطاعات جبراً ملafات . روى : أنَّ ابن عمر أخر صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتقد رقبتين .

الخامسة : تويخ النفس ومعاتبتها ، وقد علمت أنَّ لك نفساً أمّارة بالسوء ميالة إلى الشر ، وقد امْرَت بـ [عودها] [جهاز] بـ [القهر] إلى عبادة ربها وخالفها وبنعتها عن شهواتها ولذاتها المألوفة فإنَّ أهملتها شردت وبحثت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبیخ والمعاتبة واللامئمة كانت نفسك هي النفس اللوامة ، وسبيل العاقبة أن تذکر النفس عيوبها وما هي عليه من الجهل والحمق وما ينبع عنها من مغافضة الموت وما تؤول إليه من الجنة والنار وما عليه اتفاق كلمة أولياء الله الذين هم يتسلّمها سادات

(١) ٦٤ - ٩ .

(٢) ٢٣٦ - ٢ .

الفصل الأول من أصل الخطبة التاسعة والثمانين

الخلق ورؤساه العالم من وجوب سلوك سبيل الله ومقارقة معاصيه، وتذكيرها بآيات الله وأحوال الصالحين من عباده . فهذه محاسبات النفس ومرابطاتها ؛ وأمّا حسابها الآخرة فقد سبقت الإشارة إليه .

وقوله : وتنفسوا من قبل ضيق الخناق .

استعار لفظ النفس لتحصيل الراحة والبهجة في الجنة بالأعمال الصالحة في الدنيا المستلزمة لها كما يستلزم النفس راحة القلب من الكرب، واستعار لفظ الخناق من الجبل المخصوص للموت ، ووجه المشابهة ما يستلزم ضيق الخناق و الموت من عدم التمكّن و النصر و العمل : أى انتهزوا الفرصة للعمل قبل تعذرها بزوال وقته وضيقه .

وقوله : وانقادوا قبل عنف السياق .

أى انقادوا لأوامر الله إلى طاعته قبل السوق العنيف و هو سوق ملك الموت بالجذبة المكرية كما سبق .

وقوله : و اعلموا أنه من لم يعن على نفسه . إلى آخره .

أى من لم يعنه الله على نفسه . و إعانته هو إعداد العناية الإلهية لنفسه الناطقة أن تقبل السوانح الخيرية ، وتأييدها بها على النفس الأمارة بالسوء لتقوى بذلك السوانح على قهرها وعلى الانزجار عن متابعتها و الانجداب إلى ما تدعوها إليه من الشهوات فإنه متى لم يكن لها ذلك الاستعداد و القبول لم ينفعها وعظ غيرها ولم يقبله إذ لا قبول بدون استعداد للمقبول . وفي ذلك تنبيه على وجوب الاستعانة بالله في أحوال النفس و دفع الشيطان عنها . وبالله التوفيق .

-٨٩-

وَمِنْ خُطْبَتِهِ عَلَيْنَا الْتَّنَاءُ

تعرف بخطبة الأشباح ، وهي من جلائل خطبه ، و كان سائل سئله أن يصف الله تعالى حتى كأنه يراه عياناً فغضب لذلك ، وقال الخطبة . روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال : خطب أمير المؤمنين عليهما السلام هذه الخطبة على منبر الكوفة ، و ذلك أن رجالاً أتاه فقال له : يا أمير المؤمنين صفلنا ربنا لنزداد له حباً وبه معرفة فغضب

ونادى: الصلاة جامعة . فاجتمع الناس حتى غصَّ المسجد بأهله فصعد المنبر وهو مغضب متغيس اللون فحمد الله و أثنى عليه وصلى على النبي ﷺ خطبها .

وأعلم أنَّ في الخطبة فصولاً :

الفصل الأول . قوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَفِرُّهُ الْمَنْعُ وَالْجُهُودُ ، وَلَا يُكَدِّيهُ الْإِعْطَاءُ وَالْجُهُودُ ؛
 إِذْ كُلُّ مَعْطُ مُنْتَقَصٌ سَوَاهُ ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلَاهُ ، وَهُوَ الْمَنَانُ بِفَوَائِدِ
 النَّعْمِ ، وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقَسْمِ ، عِبَالِهِ الْخَلْقُ : ضَمِّنَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَقَدِرَ أَفْوَاتِهِمْ ،
 وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ ، وَالظَّالِمِينَ مَالَدِيهِ ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجُودِهِ
 بِمَا لَمْ يَسَّأَلْ ، الْأَوْلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلًا فَيَكُونُ شَيْءٌ قَبْلَهُ ؛ وَالآخِرُ
 الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدَ فَيَكُونُ شَيْءٌ بَعْدَهُ ؛ وَرَادِعُ أَنْسَى الْأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ
 أَوْ تُدْرِكَهُ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فِي خَلْفَهُ مِنْ الْحَالِ ، وَلَا كَانَ فِي مَكَانٍ
 فِي جُوزَ عَلَيْهِ الْاِنْتِقالِ ؛ وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجَبَالِ ، وَضَحَّكَتْ
 عَنْهُ أَصْدَافُ الْبَحَارِ ، مِنْ فَلَزِ الْلَّجَنِ وَالْعَقَيْانِ ، وَتَارَةً الدَّرَوْ حَصِيدُ الْمَرْجَانِ
 مَا أَثَرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ ، وَلَا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عَنِدهُ ، وَلَكَانَ عَنِهِ مِنْ ذَخَائِرِ الْإِنْعَامِ
 مَالًا تَنَفَّدُهُ مَطَالِبُ الْأَنَامِ ؛ لَأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيْضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ ،
 وَلَا يُخْلِهُ إِلَحَاحُ الْمُلْحِينِ .

شرح الفصل الأول من الخطبة التاسعة والثمانين

أفول : الأشباح : الأشخاص . و يفره : يزيد ماله و فوراً و يتمسه . و يكديه : ينفقه خيره . و تنفس عنه : انفراجت . والفلز : ما ينقيه الكبير مما يذاب من جواهر الأرض . والعقيان : الذهب الخالص . و المرجان : صغار اللؤلؤ . وألح في سؤاله : إذا أدم عليه . و قد شرع في وصف الله سبحانه باعتبارات له إلى آثاره :

الأول : أنه لا يتزيد بما حرمه ومنعه من فضله .

الثاني : ولا ينفعه عطاوه وجوده . ثم رد حكم الوهم عليه سبحانه بدخوله في عموم المنتصرين بالعطایا بقوله : إذ كلّ معطٍ منتفص سواه ، و كذلك قدّسه عن الدخول في زمرة المذمومين بمنعهم ما في أيديهم عن طالبه بقوله : و كلّ مانع مذموم ما خلاه وكانت هاتان القضيةتان مؤكّتين للأولين ، و برهانهما أنّ التزيد بالمنع والتنقص بالإعطاء إنّما يطلق في حقّ من ينتفع ويضرّر بالزيادة والنقصان والانتفاع والتضرّر على الله محال فالتزيد والتنقص عليه محال ، ولا نهياً يقضيان عليه بالحاجة والإمكان ، ولا نهياً مقدوراته غير متناهية ، و نبه بقوله : إذ . على جهة الفرق بينه وبين خلقه ، و إنّما انتقص المعطى من خلقه ل حاجته إلى ما يعطيه و انتفاعه به ، و إنّما استحقّ المانع منهم الذم دونه سبحانه لكون ما يصدر عنه من منع و إعطاء مضبوطاً [منوطاً] بنظام الحكم والعدل دون غيره من المانعين فإنّ غالباً منعهم يكون عن شحّ مطاع و هو متبع . و أعلم أنّ صدق الكلمة في المنتصرين بالعطای ظاهر ، و أمّا في المذمومين بالمنع فتحقيقها أنّ كلّ مانع للمال فهو إنّما يمنع خوف الفقر و نحوه ، و ظاهر أنّ الخائف من الفقر في الدنيا محبّ لها و هو بمعزل عن عباد الله المتكوّلين عليه الزاهدين في متاع الدنيا و قناتها ، و إذا كان العبد مأمورةً بأن يكون من هؤلاء وفي ذمّتهم فالحرى أن يكون مستحفاً للذم على ما يمنعه من ماله فيكون حجاباً لوجهه عن النظر إلى وجه الله الكريم فصدق الكلمة إذن ظاهر . وفي أدعية زين العابدين عليه السلام : يامن لا يزيدك كثرة العطاء إلا كرماً جوداً . وفيه سرّ لطيف فإنه لما كان جوده سبحانه غير متوقف إلا على وجود الاستحقاق ، و كانت كلّ نعمة صدرت عنه معدّة محلّها و مهيّئة له لقبول نعمة أخرى كانت كثرة عطائه مستلزمة لكثرتها إلا عدد المستلزمة لزيادة الجود .

الثالث : أَنَّهُ الْمُنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ ، وَالْمُنْتَهَى تَذَكِيرُ الْمُنْعَمِ لِلنِّعَمِ عَلَيْهِ بِنَعْمَتِهِ وَالتَّطَاوِلُ عَلَيْهِ بِهَا كَوْلَهُ تَعَالَى « يَا بَنِي إِسْرَائِيلُ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ »^(١) فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ وَهِيَ صَفَةُ مَدْحُ لِلْحَقِّ « سُبْحَانَهُ وَإِنْ كَانَتْ صَفَةً ذَمًّا لِخَلْقِهِ ، وَالسَّبِيلُ الْفَارَقُ كَوْنُ كُلّ مِنْعَمٍ سُوَاهُ فِي حِتمَلَةِ أَنْ يَتَوَقَّعَ لِنَعْمَتِهِ جَزَاءً وَيُسْتَفِيدُ كَمَا لَا يَعُودُ إِلَيْهِ مَا أَفَادَهُ وَأَيْسَرَهُ تَوْقِعُ الذَّكْرِ وَيَقْبَحُ مَنْ يَقْبَلُ بِنَعْمَتِهِ وَيَتَوَقَّعُ لَهَا جَزَاءً أَنْ يَمْنَ بِهَا لَمَّا يَسْتَلِمُهُ مَلْنٌ مِنَ التَّطَاوِلِ وَالْكَبْرِ ، وَتَوْقِعُ الْجَزَاءُ وَالْحاجَةُ إِلَيْهِ مَعَ التَّطَاوِلِ وَالْكَبْرِ مَمَّا لَا يَجْتَمِعُانِ فِي الْعَرْفِ . إِذَا التَّطَاوِلُ وَالْكَبْرُ إِنَّمَا يُلْقَانُ بِالْغَنِّيِّ عَنْ ثُمَرَةِ مَا تَطَاوِلُ بِهِ وَلَا إِنَّ التَّطَاوِلَ مَمَّا يَتَأْذَى بِهِ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ فَيُبْطَلُ بِذَلِكَ اسْتِعْدَادُ نَفْسِ الْمُنْعَمِ لِقَبْوِ رَحْمَةِ اللهِ وَجَزَاءِهِ وَلَذِكْرِهِ وَرَدُّ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْتَهَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذْى »^(٢) فَجَعَلُوهُمَا سَبِيبًا لِبَطَالَانِ الصَّدَقَةِ : أَيْ عَدْمِ اسْتِحْقَاقِ ثُوَابِهَا ، وَفَوَائِدِ النِّعَمِ : مَا أَفَادَهُنَّا . وَعَوَائِدَ الْمُرْزِيدِ وَالْقُسْمِ : مَعْتَادُهُمَا .

الرابع : كَوْنُ الْخَلَاقِ عِيَالَهُ ضَمِنْ أَرْزَاقَهُمْ وَقَدْرِ أَفْوَاتِهِمْ ، وَاسْتِعْدَارُ لِفَظِ الْعِيَالِ لِلْخُلُقِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَوَجْهُ الْمُشَابِهَةِ أَنَّ عِيَالَ الرَّجُلِ هُوَ مِنْ جَمِيعِهِمْ كَيْفِيَّتُهُمْ وَيَصْلِحُ حَالَهُمْ كَذَلِكَ الْخُلُقُ إِنَّمَا خَلَقُوهُمْ وَجَعَلُوهُمْ تَحْتَ عِنَايَتِهِ لِيَصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَكَذَلِكَ اسْتِعْدَارُ لِفَظِ الضَّمَانِ مَا وَجَبَ فِي الْحُكْمَةِ إِلَيْهِمْ مِنْ وَجْدَ مَا لَبَدَّ مِنْهُ فِي تَدْبِيرِ إِصْلَاحِ حَالَهُمْ مِنَ الْأَفْوَاتِ وَالْأَرْزَاقِ ، وَتَقْدِيرِ أَفْوَاتِهِمْ إِعْطَاءَ كُلِّ مَا كَتَبَ لَهُ فِي الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مِنْ زَائِدٍ وَنَاقِصٍ .

الخامس : كَوْنُهُ نَهْجُ سَبِيلِ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ وَالْمُتَطَلِّبِينَ مَالِدِيهِ ، وَذِكْرُ أَوْلَى مَا يَصْلِحُ حَالَهُمْ فِي الدِّنِ وَهُوَ ضَمِنْ الْأَرْزَاقِ وَتَقْدِيرِ الْأَفْوَاتِ ثُمَّ أَرْدَفَهُ بِمَا هُوَ سَبِيلُ صَلَاحِ حَالَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَهْجِ السَّبِيلِ وَإِيَاضِهِ وَأَشَارَ بِهِ إِلَى إِيَاضِ الشَّرِيعَةِ لِطَرِيقِ السَّالِكِينَ الرَّاغِبِينَ فِي النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ وَالْمُتَطَلِّبِينَ مَا عَنْهُ مِنْ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ .

السادس : كَوْنُهُ لَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدِ مَنْهُ بِمَا لَمْ يُسْئَلُ ، وَيَسْتَلِمُ بِيَانُ هَذَا الْوَصْفِ إِشَارةً لطِيفَةً وَهُوَ أَنَّ فِيَضَانَ مَا صَدَرَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ لِهِ اعْتِبارَانِ : أَحَدُهُمَا : بِالنَّظَرِ إِلَى جُودِهِ

وهو من تلك الجهة غير مختلف في جميع الموجودات بل تسبتها إليه على سوء بذلك الاعتبار. فلابد أن يكون في ذلك أن يكون بعض الأشياء أبخل أو إليها أحرج فيلزم النقصان تعالى الله عن ذلك ، و الثاني : بالنظر إلى الممكن نفسه والاختلاف الواقع في القرب والبعد إلى جوده إنما هو من تلك الجهة فكل ممكناً كان أتم استعداداً وأقبل للوجود وأقل شرطاً ومعانداً كان أقرب إلى جوده . إذا عرفت ذلك فاعلم أن السائل وإن حصل له ما سأله من الله تعالى دون ما لم يسئل فليس منه ما لم يسئل له لغزه عند الله وليس فيه وبين ما سئل بالنسبة إلى جود الله تعالى فرق وتفاوت بل إنما خص بما سئل لوجوب وجوده له عند تمام قوله له بسؤاله دون مالم يسئلنه ولو سئل مالم يسئلنه واستحق وجوده لما كان في الجود الإلهي بخل به ولامنع في حقه وإن عظم خطره وجل قدره ولم يكن له أثر نقصان في خزائن ملكه وعموم جوده . وإلى هذا أشار على بن موسى الرضا عليه السلام وقد سئل عن الجود فقال : لسؤالك وجهان إن أردت المخلوق فالذى يؤدى ما افترض الله عليه والبخيل الذى يمنع ما افترض الله عليه وإن أردت الخالق فهو الجود وإن أعطى وإن منع لأنه إن أعطى أعطى من له وإن منع من ليس له . فقوله : له . وليس له ، إشارتان إلى أن الجود الإلهي إنما يهب . ويتوقف في هبته على وجود المستحق . وقد نزع عليه السلام بهذا الوصف عن ضمة الخلق إذ كان من شأنهم أن يكونوا بما سئلوا أجود منهم بما لم يسئلوا لكونه أسهل عليهم ومن شأن السائل أن لا يسألهم ما هو أعز عندهم ولذلك كانوا بما سئلوا أجود .

السابع : الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله .

الثامن : والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده ، وقد أشرنا إلى هذين الوصفين فيما سلف و تزيدهما بياناً فقول : الأولى والآخر معاً اعتباران إضافيان تحدثهما العقول لذاته المقدسة وذلك أنك إذا لاحظت ترتيب الوجود في سلسلة الحاجة إليه سبحانه وجدته تعالى بالإضافة إليها أول إذا كان انتهائها في سلسلة الحاجة إلى غناه المطلق فهو أول بالعلية والذات والشرف ، وإذا ليس بذلك مكان فالتقدّم بالمكان منفي عنه والزمان متاخر عنه . فإذا هو من لواحق الحر كة المتاخرة عن الجسم المتاخر عن علته فلم يلحقه القلبية

الزمانية فضلاً أن تسبق عليه فلم يكن شيء قبله مطلقاً لامن الزمانيات ولا من غيرها وإنما اعتبرته بالنظر إلى ترتيب السلوك ولاحظت مراتب السالكين المسافرين في منازل عرفانه وجدته آخرأ إذاً هو آخر ما ترقى إليه درجات العارفين وعرفته هي الدرجة القصوى و المنزل الآخر ، ولأن كل موجود سواه فهو ممكناً العدم فله من ذاته أن لا يستحق وجوداً فضلاً أن يستحق الآخريّة والبعدية المطلقة ، وهو تعالى الواجب لذاته فهو المستحق لبعدية الوجود وآخريته لذاته وبالقياس إلى كل موجود . فإذاً هو الأول المطلق الذي لاشيء قبله والآخر المطلق الذي لاشيء بعده .

الحادي عشر : الرادع **أناسى** **الْأَبْصَارِ** عن أن تزاله أو تدركه ، وقد سبق أن القوة الباقرة إنما تتعلق بذى وضع وجهة والبارى تعالى منها عنهما فيستحيل أن يدرك بحسنة البصر وردعه لها قهرها بذل النقسان عن قبول إدراكه .

العاشر : كونه لم يختلف عليه دهر فيختلف عليه الحال . لما كان الزمان مبدأ للتغيرات و اختلاف الأحوال ، وكان ذاته سبحانه منها منزهة عن لحوق الزمان كانت مبررة عن تغيير الأحوال الجارية على الزمانيات و اختلافها .

الحادي عشر : ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال . لما كان من شأن ذى المكان جواز أن ينتقل من مكانه ، وكان سبحانه منها عن المكان وإلا لزم النقسان اللازم للإمكان لا جرم لم يجز عليه الانتقال .

الثاني عشر : كونه لوطنه ما تنفس عنه معادن الجبال وضحك عنده أصداف البحار من فلز **اللُّجْنِ** والعقيان . إلى قوله : مطالب الأنام . إنما عدد هذه الأشياء في معرض المدح له تعالى لكونها أعظم ما يقتدر عليه الإنسان ويقتنيه وأجل ما يتنافس فيه أبناء الدنيا تبيهاً على كمال قدرته و عدم تناهى مقدوراته إذ سبق أنه إنما يتاثر بهبة مثل ذلك جود المحتاجين الذين يتعاقب عليهم الانتفاع والتضرر ، واستعار لفظ الضحك للأصداف ، ووجه الشبه افتتاح الصدفتين وإسفارهما عن اللؤلؤ الشبيه في بدوه بأنسان إلا نسان حال ضحكته و عن لحمة تشبه اللسان في رقة طرفه و لطافته . ومن صادف الصدفة عند فتحها وجدتها كالإنسان يضحك ، و كذلك استعار لفظ الحصيد لصغار اللؤلؤ ملاحظة

لشببه بما يحصل من الحنطة وغيرها ، واعلم أن الصدف وإن كان حيواناً ذو حس وحركة إلا أن له شبهاً بالنبات و لحوقاً به من جهة أنه ذو عرق في الأرض يقتضي به . وقد أجمل ما يخرج من معادن البر والبحر لتمييز السامعين بينهما ، قوله : لأن الجواد الذي لا يغيبه سؤال السائلين ولا يدخله إلحاح الملحقين . إنما كان هذا علة لعدم تأثير جوده ببغيه ما يعظام قدره و نقصان خزانته بإخراجه منها لأن الجواد الذي شأنه ما ذكر إنما كان كذلك لكونه ليس من شأنه أن يلحقه النفع والضرر و النقص بل نعمه غير متناهية ، واستعار لفظ الغرض لنعمته ملاحظة لشببه بالماء الذي له مادة تامة لا ينقص بالنزح ، ومن روى : بغضبه . فلان الغضب من لواحق المزاج ، والباري تعالى منزه عنه فيتنزعه عن لواحته ، وكذلك البخل رذيلة مكتسبة من البدن والمزاج تبعث إليها الحاجة والنقصان فمن لا يتزيد ولا يتناقص فلا يؤثر في ملكه أن يهب الدنيا من سأله .

الفصل الثاني : قوله :

فَانظُرْ إِلَيْهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صَفَاتِهِ فَإِنْ شِئْتَ بِهِ ، وَاسْتَضْنِي بِنُورِ
هَدَائِيهِ ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ وَلَا
فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَنْبَأَهُ الْهَدَى أُثْرُهُ؛ فَكُلُّ عَلَيْهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ:
بَلْ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ . وَاعْلَمُ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ
عَنِ اقْتِحَامِ السُّدُّ الْمُضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ ، الْأَفَارِدُ حَمْلَةٌ مَا جَهَلُوا تَفْسِيرَهُ
مِنَ الْغَيْبِ الْمُحْجُوبِ ، فَمَدْحُ اللَّهُ اعْتَرَافَهُمْ بِالْعَجزِ عَنْ تَنَاؤلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ
عَلَيْهِ ، وَسَعَى تَرْكُهُمُ التَّعْمِقَ فِيمَا لَمْ يُكْلِفُهُمُ الْبَحْثُ عَنْ كُنْهِ رُسُوخًا؛ فَاقْتَصَرُ
عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَقْدِرُ عَظِيمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْمَالِكِينَ :

هو القادر الذي إذا أرمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر
 المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غوب ملكوته ،
 وتوهت القلوب إليه لتجرى في كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول
 في حيث لا تبلغ الصفات لتناول علم ذاته ردعها هي تجوب مهاوى سدف
 الغيوب متخلاصة إليه ، سبحانه ، فرجعت إذ جئت معرفة بأنه لا ينال بمحور
 الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر يبال أولى الرويات خاطرة من تقدير
 جلال عزته الذي ابتعد الخلق على غير مثال ممثله ، ولا مقدار أحتجز
 عليه ، من خالق معهود كان قبله ، وارانا من ملوكوت قدرته ، وعجائب
 مانطفقت به آثار حكمته ، وأعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمهها بمساك
 قوته ، مادلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته ، وظهرت في البدائع التي
 أحدهما آثار صنعته وأعلام حكمته ، فصار كل مخلق حجة له ودليل عليه ،
 وإن كان خلقا صامتا فجته بالتدبر ناطقة ، ودلاته على المبدع قامة ، وشهاد
 أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك ، وتلامح حفاق مفاصلهم المحتاجة لتدبر
 حكمتك لم يعقد غيب ضميره على معرفتك ، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لأنك
 لك ، وكانه لم يسمع تبرؤ التابعين من المتبعين إذ يقولون : (تاله إن كنا

لَنِي ضَلَالٌ مُبِينٌ ، إِذْ نَسِيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) كَذَبَ الْعَادُونَ بِكَ إِذْ شَهُوكُ
بِأَصْنَامِهِمْ وَتَحْلُوكُ حَلِيلَةَ الْمُخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَجَزَ أَوْكَ تَجْزِيَةَ الْمُجْسَمَاتِ خَوَاطِرِهِمْ
وَقَدِرُوكَ عَلَى الْخَلْقَةِ الْمُخْتَلَفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِعِ عُقوَّلِهِمْ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مِنْ سَاوَاكَ
بَشَّيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الْحُكْمَاتُ
آيَاتِكَ ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَّيْجَ يَيْنَاتِكَ ، وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ
فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهْبَبِ فِكْرِهِمَا كِيفِيَّا ، وَلَا فِي رَوَيَاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ
مَحْدُودًا مُصْرَفًا .

أقول: الاقتحام: الدخول في الأمر بشدة دفعه . والسد: جمع سدة وهي الأبواب
والحجب. وجاب البلاد: أي قطعها . والسدف: جمع سدفة وهي الظلمة : والجبه: الرد .
واحتذى عليه: أي سلّك مسلكه . والحقاق: جمع حق وهو أطراف عظام المفاصل . والعادل:
الجاعل الله عديلا . والقريبة: قوّة الفكر .

و صدر هذا الفصل تأديب الخلق في وصفهم الله سبحانه و تعليمهم كيفية السلوك
في مدحه و الثناء عليه بما هو أهلها و إن كان الخطاب للسائل إذ هو السبب في هذه
الخطبة ، و ذلك على طريقة قولهم : إِيَّاكَ أَعْنِي و اسْمُعِي ياجارة . فارشدته في ذلك إلى
كتاب الله ، وأمره أن يجعله إماماً يقتدى به ويستضيء بأواره في سلوك سبيل الله وكيفية
وصفه فإن " أولى ما وصف به تعالى هو ما وصف به نفسه ، و أمره بأن يكمل عالم ماله يجده
مفترضاً عليه علمه في كتاب الله أو في سنة رسوله و آثار أئمة الهدى القائمين مقامه في
إيضاح الدين و حفظه إلى علم الله تعالى و هو المراد بالتفويض و ذلك لأن " أئمة الهدى
أعلم بوجوه نسبته تعالى إلى خلقه و بما يناسب تلك الاعتبارات من الألفاظ و يفيد لها
فيطلق عليه . و نفر عن طلب ذلك و البحث عنه بإشارته إلى أنه تكليف الشيطان و ظاهر

أن طلب ما وراء حدود الشريعة التي نهيت عن تجاوزها إنما هو بسبب وسسة الشيطان وحرمن الطبع على ما يمنع منه . ثم "أعلم أن" ذلك هو منتهى حق "الله عليه ومطلوبه منه، ولما كان مطلوب الشارع حين وضع الشريعة وتقدير قواعدها هو جمع قلوب العالم على قانون واحد واتحادهم فيه بحيث لا يفترقا في اعتقاد أمر ما لئلا يكون ذلك الاختلاف سبباً لضعف الدين وعدم تعاونهم على تشبيهه كما سبق بيانه لاجرم وجوب في الحكمة أن يحرم حينئذ عليهم الخوض فيما وراء ذلك لتثبت قواعد الدين في قلوبهم وترسخ ولا يخرج بهم البحث عن ما ورائهم إلى إطراحها وفساد اعتقاد كثير من الخلق لها ولغيرها مما وراثها . إذ لم يكن فيهم من يستعدّ لقبول ما وراء ذلك الظواهر إلا الفرد النادر وإن كنا نعلم أنه كان وَلَا يَفْتَنُنَا إذا علم من أحد استعداداً لقبول شيء من أسرار الشريعة ووثق به أن يحمله ألقاه إليه كعلى وَلَا يَفْتَنُنَا دون أبي هريرة وأمثاله ، ثم وصف بعد ذلك الراسخين في العلم الممد وحين في القرآن الكريم بقوله تعالى « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما نزل إليك » ^(١) الآية وقوله « والراسخون في العلم يقولون آمناً » ^(٢) وفسر معنى الرسوخ فقال: هم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوها تفسيره من الغيب المحجوب . فمدح الله اعتراضهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علمًا ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوحاً ، ومما: أشارة إلى السدد المضروبة وحجب الغيوب . فنشر إلى ما كشف عنه بعض العلماء الصوفية هيهنا وأشار إليه الخبر عن سيد المرسلين وَلَا يَفْتَنُنَا : إن الله تعالى سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدرك بصره . ولما ثبت أن الله تعالى متجلى لذاته بذاته فالحجاج لا بد وأن يكون بالنسبة إلى محجوب فـ فَ قسم المحجوبين ثلاثة: منهم من حجب بمجرد ظلمة، ومنهم من حجب بمجرد نور، ومنهم من حجب بنور مقرن بظلمة، وتحت كل قسم من هؤلاء أقسام كثيرة لاتحصى فيكتفينا الإشارة إلى أصولها فنقول :

. ١٦٠ - (١)

. ٥ - ٣ - (٢)

القسم الأول : المحجوبون بمجرد الظلمة وهؤلاء هم الملحدة الذين لا يؤمنون بالله وهم صنفان : فصنف منهم طلبوا للعالم سبباً فأحالوه على الطبع وقد علمت أنَّ الطبع صفة جسمانية مظلمة خالية عن المعرفة والإدراك ، وصنف منهم لم يتغيروا لذلك ولم يتتبهوا والطلب السبب بل اشتغلوا بآنسهم وعاشوا عيش البهائم فكانوا محجوبين بكدورات نفوسهم وشهواتهم المظلمة ولا ظلمة أشد من الهوى ولذلك قال الله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » ^(١) وقال النبي ﷺ : الهوى أبغض إله عبد على وجه الأرض . وتحت هؤلاء فرق كثيرة لاحاجة إلى ذكرها .

القسم الثاني : المحجوبون بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف : فصنف منهم منشأ ظلمته الحس ، وصنف منهم منشأها الخيال ، وصنف منهم منشأها مقاييسات عقلية فاسدة . فالآولون أيضاً طوائف :

الأولى : عبدة الآوثان فإنهم علموا على سبيل الجملة أنَّ لهم ربّاً وأوجبوا إيمانه على أنفسهم واعتقدوا أنه أعز وأنفس من كل شيء ، ولكنهم حجبوا بظلمة الحس عن أن يتجاوزوا العالم المحسوس في إثبات ربّهم فاتخذوا من أنفس الجواهر كالفضة والذهب والياقوت أشخاصاً مصورة بأحسن صورة وجعلوها آلة فهؤلاء محجوبون بنور العز والجلال من صفات الله لكنهم وضعوها في الأجسام المحسوسة فصارت حجتهم أنواراً مكدرة بظلمة الحس إذ الحس ظلمة بالإضافة إلى عالم المعقولات .

الثانية : طائفة ترقوا عن رتبة الأحجار فكانوا أدخل من عبدة الآوثان في ملاحظة الأنوار كما يحكى عن قوم من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولكن يعتقدون أنَّ لهم ربّاً هو أجمل الأشياء فإذا رأوا إنساناً في غاية الجمال أو فرساً أو شجراً عبده ، وقالوا : هو ربنا فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس أيضاً .

الرابعة : طائفة ترقوا عن هؤلاء وقالوا : ينبغي أن يكون ربُّ نوراً نائماً في صورته ذات سلطان في نفسه مهيباً لا يطاق القرب منه ، ولم يترقوا عن درجة المحسوس فعيدوا النار إذ وجدوها بهذه الصفات فهؤلاء محجوبون بنور السلطة والبهاء وكل ذلك من

أنوار الله مع ظلمات حسنه .

الخامسة : طائفة ترقوا عن ذلك فرأوا أنّ النار تطفى وتقهر فلا يصلح ل إلا لهيّة فقالوا : بل ما يكون بهذه الصفات ولكن نكون نحن تحت تصرّفه و يكون مع ذلك موصفاً بالعلوّ . وكان المشهور بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها فعبدوا النجوم فمنهم عبدة المشترى ومنهم عبدة الشعري وغيرهم فهو لا ، محظوظون مع ظلمه الحسّ بنور إلا استعلاء والإشراف وهي من أنوار الله تعالى .

ال السادسة : طائفة ترقوا عن هؤلاء فقالوا : وإن وجب أن يكون الرب بالصفات المذكورة إلا أنه ينبغي أن يكون أكبر الكواكب فعبدوا الشمس فهو لا ، محظوظون مع ظلمة الحسّ بنور الكبرياء والعظمة مع بقية الأنوار .

السابعة : طائفة ترقوا عن ذلك فقالوا : إنّ الشمس لا تفرد بالنور بل لغيرها أنوار والإله لا يجوز أن يكون له شريك في نورانيته فعبدوا النور المطلق على كلّ نور ، وزعموا أنه إله العالم والخيرات كلّها منسوبة إليه ثم رأوا في العالم شرورا فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربّهم تنزيهاً له فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم إلى النور والظلمة وهو لا الش böنة .

الصنف الثاني : المحظوظون بعض الأنوار مقرونة بظلمة الخيال وهم الذين جاؤوا الحسّ وأثبتو وراء المحسوس أمراً لكنّهم لم يهتدوا إلى مجاوزة الخيال فعبدوا موجوداً قاعداً على العرش وأخسمهم رتبة الجسمة ثم أصناف الكرامية وأرفعهم درجة من نفي الجسمية و جميع عوارضها إلا الجهة فخصصوه بجهة فوق ، وهو لا ، لم يثبتوا موجوداً غير محسوس ولا متخيل حتى ينزعه عن الجهة .

الصنف الثالث : المحظوظون بأنوار إلا لهيّة مقرونة بمقاييس عقلية فاسدة مظلمة فعبدوا إليها سمعاً بصيراً متكلّماً عالماً قادراً منزّهاً عن الجهات لكن فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم ، وربما صرّح بعضهم فقال : كلامه صوت مثل كلامنا . وربما ترقى بعضهم فقال : لابد هو كحدث أنفسنا ولا صوت ولا حرف . ولذلك إذا حقق القول عليهم رجعوا إلى التشبيه في المعنى وإن أنكروه لفظاً إذ لم يدركوا كيفية

إطلاق هذه الألفاظ في حق "الله". فهؤلاء محظوظون بجمل من الأنوار مع ظلمات المقاييس العقلية.

القسم الثالث : المحظوظون ببعض الأنوار ، وهم أصناف لا تحصى أيضاً لكن نذكر منهم ثلاثة أصناف :

الأول : الذين عرّفوا معانى هذه الصفات وفرّقوا بين إطلاق أسمائها على الله تعالى وبين إطلاقها على البشر فتحاشوا من تعرّيفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً وهو رب المنزه عن هذا المفهوم الظاهر وهو محرّك السموات ومدرسها .

الصنف الثاني : الذين عرّفوا أن في السموات ملائكة كثيرة ، وأن "محرك كل سماء منها موجود آخر يسمى" ملكا ، وأن "هذه السموات في ضمن فلك يتحرّك الجميع بحركته في اليوم والليلة مرتّة واحدة والرب" تعالى هو المحرّك للفلك الأقصى منها المشتمل عليها .

الصنف الثالث : الذين ترقوا عن هؤلاء وقالوا : إن "تحريك الأجرام الفلكية من الملائكة يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له ، ويكون رب" تعالى هو المحرّك للكل" بطريق الأمر . فهؤلاء كلّهم محظوظون بأنّ نوار حضة وقف بهم عما وراءها . وراء هؤلاء صنف رابع تجلّى لهم أن "هذا المطاع موصوف بصفة الوحدة المطلقة والكمال البالغ وكشفت عنهم حجب المقاييس والاعتبارات إلى الغير وهم الواصلون . فمنهم من أحرق ذلك التجلّى في تلك الأنوار جميع ما أدرّ كه بصره بالكلية وبقي ملاحظاً لرتبة الحق" فيها فأنه حقّ في المبصرات دون المبصر ، ومنهم من تجاوز هؤلاء وهم خواص "الخواص" فأحرقتهم سمات وجهه وغشّيه سلطان الجلال فأنه حقّ في أنفسهم فلم يبق لهم إليها التفات وملاحظة لفنائهم عن أنفسهم ولم يبق إلا الواحد الحق" وهؤلاء هم الواصلون كما سبق الإشارة إليه، وينتهي الكل" إلى حجاب الإمكان الذي يهلك فيه كل" موجود ولا يبقى إلا وجه الله ذى الجلال والإكرام .

إذا عرفت ذلك فنقول: السدد المضروبة وحجب الغيب التي أشار إليها هي درجات

الانتقالات في مفهومات صفات الله تعالى ومراتب عرفاته ومعرفته ملائكته ومراتبهم وكمالاتهم وساير حجب الأنوار التي حجب بها أهل الثالث، والراسخون الذين أشار إليهم هم في ظاهر كلامه الواقفون في المرتبة الأولى وهم الذين اقتصروا في صفات الله وملائكته وعالم غيبه على ما وفقتهم الشريعة عليه على سبيل الجملة كما أوصل إلى أفهمهم الرسول ﷺ وعلموا في وصفه تعالى بصفات الكمال ونعوت الجلال أنه ليس على حد وصف البشر بها ورسخ في أذهانهم متصوره إجمالاً لفصل لكان مطابقاً . ومن أعدّه العناية الإلهية لقبول التفصيل وصل إليه . وبقي هيمنا بحث لطيف وهو أنه لما كان التكليف في نفس الأمر إنما هو على قدر العقول وتفاوت مراتبها ولذلك قال ﷺ بعثت لا كلام الناس على قدر عقولهم . كان كل عقل قوى على رفع حجاب من حجب الغيب وقصر عمّا ورائه واعترف به وبالعجز عنه فذلك تكليفه وهو من الراسخين فعلى هذا الرسوخ ليس مرتبة واحدة هي تقليد ظواهر الشريعة واعتقاد حقيقتها فقط بل تقليدها مرتبة أولى من مرتب الرسوخ وما ورائها مرتب غير متناهية بحسب مراتب السلوك وقوّة السالكين على رفع حجب الأنوار التي أشرنا إليها كلامه ﷺ لا ينافي ما قلناه بل يصدق إذا نزل عليه فإن قوله : **وسمى ترك التعمق** فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً صادق أيضاً على من قطع جملة من منازل السلوك وعجز عمّا ورائه فوق ذهنه عن التعمق فيه والبحث فإذا يكلف بما لا يفي به قوله .

وقوله : فاقتصر على ذلك : أى على مانطق به الكتاب العزيز ودللت عليه السنة النبوية وأرشدت إليه أئمة البدى .

وقوله : ولا تقدر عظمة الله تعالى على قدر عقلك فتكون من الهاكين . فاما قدر لعظمة الله بقدر عقله هو المعتقد أن عقله قدره وأحاط به علما وهو تصغير لعظمة الله بحسب عقله الضعيف وعظمة الله تعالى أعظم وأجل من أن يضططها عقل بشري ، وإنما ينشأ ذلك الحكم من حصل له هو الوهم الحاكم بمثابة الله تعالى مدركته من الأجسام والجسمانيات ، وذلك في الحقيقة كفر لاعتقاد غير الصانع صانعاً وضلال عن طريق معرفة الله و هو مستلزم للهلاك في تيه الجهل .

واعلم أنّ في إحالته ~~لِكُلِّ~~ طالب المعرفة على الكتاب والسنة وبيان الأئمة دلالة على أنّ مقصوده ليس أن يقتصر على ظاهر الشريعة فقط بل يتبع أنوار القرآن والسنة وآثار أئمة الهدى ، وقد ورد في القرآن الكريم والسنة وكلام الأئمة من الإشارات والتبيهات على منازل السلوك و وجوب الانتقال في درجاتها مالا يحصي كثرة و نسبوا على كلّ مقام أهله وأخفوه من غير أهله إذ كانوا أطباء النفوس وكما أنّ الطبيب يرى أنّ بعض الأدوية لبعض المرضى ترباق وشفاء وذلك الدواء لشخص آخر سُمّ و هلاك كذلك كتاب الله والموضون طفاصه من الأنبياء والأولياء يرون أنّ بعض أسرار الإلهيّة شفاء لبعض الصدور فيلقونها إليهم وربما كانت تلك الأسرار بأعيانها لغير أهلها سبباً لضلالهم و كفرهم إذا افقيت إليهم . فإذا ذكر مقصوده ~~لِكُلِّ~~ قصر كلّ عقل على ما هو الأولى به وما يحتمله ، والجمع العظيم المخاطبون هم أصحاب الظاهر الذين يجب قصرهم عليه . والله أعلم .
وقوله : هو القادر الذي إذا ارتمت . إلى آخره .

إشارة إلى اعتبارات أخرى جليلة في وصفه تعالى نسبه على أن غاية استقصاء العقول وتعمقها وغوص فطنها طالبة لتفصيل صفات كماله ونعوت جلاله أن تتف خاصّة وترجع حسيرة معترفة بالعجز والقصور ، قوله : إذا ارتمت إلى قوله : ردعها شرطية متصلة في قوّة شرطيات متعددة المقدّمات و تاليها واحد . فالمقدم الأوّل قوله : إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وارتمناؤها استر سالها مجدّة في المطالعة والتقتيش ومنقطع قدرته منتهاها ، والمقدم الثاني قوله : وحاول الفكر المبرء من خطرات وساوس الشيطان وشوائب الأوهام أن يقع عليه ليكيّف ذاته ويستبّتها بكلّ ما ينبغي لها من الكمالات في عميقات غيوب ملكته : أي في أسرار عالم الغيب العميقه . والمقدم الثالث قوله : وتوّلت القلوب : أي اشتدّ شوقها إليه لتجرى في كيفية صفاته . والمقدم الرابع قوله : وغمضت مداخل العقول : أي وقت موضع دخولها بحيث لا تبلغه الصفات : أي انتهت العقول إلى حدّ أنها لا تعتبر مع ملاحظة ذات الحقّ صفة له بل يمحذف كلّ خاطر وكلّ اعتبار من صفة وغيرها من ملاحظة قدسه لينال علم ذاته بالكتنه ، وقوله : ردعها . هو تالي هذه

الشرطيات، وردعها هو ردّها خاسة حسيرة، وسبب ذلك في كلّ من هذه المذكرات هو خلقيها فاقرة عن إدراك ما يتطلبه من هذه المطالب العظيمة: فالاوهام لقصورها عن إدراك ماليّس بمحسوس ولا متعلقاً بالمحسوس، وردع الفكر أن يقع عليه وتولّ القلوب أن تجري في كيفية صفاتـه فتحدهـا وتحصرـها لخلقيها فاقرة عن الإحاطة بما لا نهاية له إذ كانت صفاتـ الكمال ونعوتـ الجلال كذلك، وردع العقول أن يحيطـ بـكـنه ذاتـه لـخلـقيـها فـاقـرـةـ عن إـدـراكـ كـنهـ مـالـيـسـ بـذـىـ حدـ وـتـركـيبـ . فـكانـ مـسـتـنـدـ ذـلـكـ الرـدـعـ هوـ قـدرـتهـ فـلـذـكـ قـدـمـ علىـ الشـرـطـيـةـ اـعـتـبـارـ كـونـهـ قـادـرـأـ فـقـالـ :ـ هـوـ الـقـادـرـ الـذـىـ مـنـ شـائـعـهـ كـذاـ .

وقوله: وهي تجوب مهابي سد الغيوب متخلاصة إليه سبحانه.

الجملة في موضع الحال والعامل ردعها، واستعارة لفظ السد لظلمات الجهل بكلّ معنى غبيّ من صفات جلاله وطبقات حبيبه: أى ردعها عن تلك المطالب حال ماهي قاطعة لمهابي تلك الظلمات، ووجه الاستعارة ما يشتهر كان فيه من عدم الاهتمام فيها، و متخلاصة حال أيضاً والعامل إما تجوب أو ردعها . و تخلصها إليه توجّهها بكلّيتها في طلب إدراكه .

وقوله: فرجعت إذ جبّهـتـ . إلىـ قولـهـ :ـ عـزـ تـهـ .

معترفةـ حالـ والـعـاملـ رـجـعـتـ ،ـ وجـورـ الـاعـتـسـافـ شـدـةـ جـوـلـانـهـافـيـ تلكـ المناـزلـ وـظـاـهـرـأـنـ جـورـ الـاعـتـسـافـ غـيرـ نـافـعـ فيـ تحـصـيلـ مـاـ يـمـكـنـ،ـ وـأـوـلـوـ الـرـوـيـاتـ أـصـحـابـ الفـكـرـ :ـ إـىـ رـجـعـتـ معـتـرـفـةـ بـأـمـرـيـنـ:ـ أـحـدـهـماـ:ـ أـنـهـلـاـيـنـالـ كـنـهـمـعـرـفـتـهـ ،ـ وـالـثـانـيـ:ـ أـنـ"ـ الـفـكـرـ لـاـ يـقـدـرـ جـالـلـ عـزـ تـهـ :ـ أـىـ لـاـ يـحـيـطـ بـكـمـالـهـ خـبـرـأـ .ـ وـظـاـهـرـ أـنـ صـدـقـ هـذـهـ الـأـحـكـامـ لـلـنـفـسـ مـوـقـفـ عـلـىـ اـرـتـماءـ أـفـكـارـهـاـ فـيـ طـلـبـ هـذـهـ الـمـعـارـفـ وـعـيـزـهـاـ عـنـهـاـ .ـ

وقوله: الـذـىـ اـبـدـعـ الـخـلـقـ عـلـىـ غـيرـ مـثـالـ .ـ إـلـىـ قولـهـ :ـ قـبـلـهـ .

إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ الصـنـاعـيـنـ الـبـشـرـيـةـ إـنـمـاـ تـحـصـلـ بـعـدـ أـنـ يـرـتـسـمـ فـيـ الـخـيـالـ صـورـةـ الـمـصـنـوعـ بـلـ وـكـلـ فـعـلـ لـاـ يـصـدـرـ إـلـاـ عـنـ تـصـوـرـ وـضـعـهـ وـكـيفـيـتـهـ أـوـلـاـ ،ـ وـتـلـكـ التـصـوـرـاتـ تـارـةـ تـحـصـلـ عـنـ أـمـثـلـةـ الـمـصـنـوعـ بـلـ وـمـقـادـيرـ لـهـ خـارـجـيـةـ يـشـاهـدـهـاـ الصـانـعـ وـيـحـذـوـ حـذـوـهـاـ ،ـ وـتـارـةـ تـحـصـلـ بـمـحـضـ إـلـهـامـ وـالـاخـتـرـاعـ كـمـاـ يـفـاضـ عـلـىـ أـذـهـانـ كـثـيرـ مـنـ

الاذ كياء صورة شكل لم يسبق إلى تصوّره فيتصوّره ويزّ صورته إلى الخارج ، وكيفية صنع الله للعالم وجزئياته منزّة عن الواقع على أحد هذين الوجهين : أَمَّا الأوّل فلا تأييضاً أنه لا قبل لمصنوعاته فلامثال امثاله: أي عمل مثله، ولا مقدار احتذى حذوه . وأَمَّا الثاني وإن سُمِّيَ الفاعل على وفقه مختلفاً لكن التحقيق يشهد بأنه إنما فعل على وفق ما حصل في ذهنه من الشكل والهيئة وهو مستفادان من الصانع الأوّل جلّت عظمته فكان في الحقيقة فاعلاً على غير مثال سابق محتذياً بمقدار غيره ، وعلم الأوّل سبحانه ليس على النحو المذكور من حصول صورة مساوية للمعلوم في ذاته كما تحقق منه قبل فإذن فعله بمحض الإبداع والاختراع على أبعد ما يكون عن حدّ ومثال .

وقوله : وأرانا من ملوكوت قدرته . إلى قوله : معرفته .

ملوكوت قدرته ملوكها وإنما نسبة إلى القدرة لأنّ اعتبارها مبده الوجود كله فهي مبده المالكية، وأثار حكمته ما صدر عنها من الأفعال والأحكام وانقياد كلّ ناقص إلى كماله ، واستعار لفظ النطق للسان حال آثاره تعالى المفصحة عن كمال الحكمـة العجيبة بتمام النظام وحسن الترتيب ، ووجه المشابهة ما اشتراكـ فيـ النـطقـ وـحالـ مـصنـوعـاتـهـ منـ ذـلـكـ الـافـصـاحـ وـالـبـيـانـ،ـ وـاعـتـرـافـ عـطـفـ عـلـيـ عـجـائـبـ،ـ وـإـلـيـ أـنـ مـتـعلـقـ بـالـحـاجـةـ،ـ وـمـاـ فـيـ قـوـلـهـ:ـ وـمـاـ دـلـلـاهـ المـفـعـولـ الثـانـيـ لـأـرـانـاـ:ـ أـيـ وـأـرـانـاـ مـنـ اـعـتـرـافـ الخـلـقـ لـحـاجـتـهـ إـلـيـ أـنـ يـقـيمـهـ فـيـ الـوـجـودـ بـمـسـاكـ قـدـرـتـهـ الـتـىـ تـمـسـكـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ أـنـ تـزـوـلـ مـاـ دـلـلـاـ بـاضـطـرـارـ قـيـامـ الـحـيـةـ لـهـ عـلـيـ مـعـرـفـتـهـ،ـ وـقـوـلـهـ:ـ عـلـيـ مـعـرـفـتـهـ مـتـعلـقـ بـدـلـلـاـ:ـ أـيـ مـاـ دـلـلـاـ عـلـيـ مـعـرـفـتـهـ فـلـزـمـتـ قـيـامـ الـحـيـةـ لـهـ بـالـضـرـورةـ.

وقوله : وظهرت في البدائع . إلى قوله : قائلة .

استعار لفظ الأعلام ما يدلّ على حكمة الصانع في فعله من الإتقان والإحكام . واعلم أنّ كلّ ماظهرت فيه آثار حكمة الله فهو ناطق بربوبيته وكمال اللوهية وبعض ناطق بلسان حاله ومقابل إنسان، وبعض بلسان حاله فقط إذ لا عقل له ولا لسان كالجماد والنبات ، والضمير المضاف إليه في قوله : فحجّته يحتمل عوده إلى الله، ويحتمل أن يعود إلى الخلق الصامت . وقد علمنـتـ أـنـ السـالـكـينـ فـيـ سـمـاعـ هـذـاـ النـطقـ مـنـ آـثـارـ اللهـ وـمـشـاهـدـتـهـ

في مصنوعاته على درجات ومنازل متفاوتة كما أشرنا إليه غير مرّة :

وقوله : وأشهد أنّ من شبهك . إلى قوله : برب العالمين .

التفات إلى خطاب الله تعالى على طريق قوله «مالك يوم الدين إِيَّاك نعبدُ وَإِيَّاك نشْهُدُ» :

بـهـ فيـ الـحـقـيقـةـ هوـ الـخـلـقـ وـإـنـماـ جـعـلـ المـشـبـهـ بـهـ تـبـاـيـنـ أـعـضـائـهـ وـتـلاـحـمـ حـقـاقـ مـفـاصـلـهـ لـأـنـهـ فـيـ مـعـرـضـ ذـمـ المـشـبـهـ وـالتـبـيـهـ عـلـىـ وـجـوهـ أـغـلاـطـهـ وـتـبـاـيـنـ الـأـعـضـاءـ وـتـلاـحـمـهـ مـنـ لـوـازـمـ المـشـبـهـ بـهـ وـهـمـ اـسـتـلـزـمـانـ لـلتـرـكـيبـ وـاجـتمـاعـ الـمـفـرـدـاتـ الـمـسـتـلـزـمـ لـظـهـورـ الـحـاجـةـ إـلـىـ الـمـرـكـبـ الـجـامـعـ وـيـمـتـنـعـ عـلـىـ مـحـلـ يـظـهـرـ حـاجـتـهـ أـنـ يـشـبـهـ بـهـ الصـانـعـ الـمـطـلـقـ الـبـرـىـعـ عـنـ الـحـاجـةـ بـوـجـهـ مـاـفـقـدـهـ مـهـمـاـ لـجـرـيـانـهـ مـاـجـرـىـ الـأـوـسـطـ فيـ لـزـومـ التـرـكـيبـ لـلـمـشـبـهـ بـهـ فـيـظـهـرـ تـنـزـيـهـ إـلـىـ لـهـ عـنـ التـشـبـهـ بـهـ وـإـنـ كـانـ التـقـدـيرـ مـنـ شـبـهـكـ بـخـلـقـكـ فـيـ أـعـضـائـهـ الـمـتـبـاـيـنـةـ الـمـتـلـاحـةـ .

وـالـذـىـ يـقـالـ مـنـ وـجـهـ الـحـكـمـ فـيـ اـحـتـجـابـ الـمـفـاـصـلـ هـوـ أـنـهـ لـوـخـلـقـ ظـاهـرـةـ عـرـيـةـ عـنـ الـأـغـشـيـةـ لـيـسـ رـبـاطـاتـهـ وـقـسـتـ فـيـتـعـدـ رـتـصـرـفـ الـحـيـوانـ بـهـ كـمـاـهـ الـآنـ وـأـنـهـ كـانـتـ مـعـرـضـةـ لـلـآـفـاتـ الـمـفـسـدـهـ لـهـاـوـغـيرـ ذـلـكـ مـنـ خـفـيـ تـدـبـرـهـ وـلـطـيفـ حـكـمـتـوـقـدـشـهـ عـلـىـ الـمـشـبـهـ اللـهـ بـخـلـقـهـ بـأـمـرـيـنـ :ـ أـحـدـهـمـ :ـ أـنـهـ لـمـ لـيـعـرـفـ ،ـ وـالـثـانـيـ :ـ أـنـهـ لـمـ يـتـقـنـ تـنـزـيـهـهـ عـنـ الـمـشـبـهـ اللـهـ بـخـلـقـهـ بـأـمـرـيـنـ :ـ وـالـقـرـآنـ وـالـبـرـهـانـ مـصـدـقـانـ لـشـهـادـتـهـ فـيـ الـمـوـضـعـيـنـ :ـ أـمـاـ الـقـرـآنـ فـمـاـبـهـ عـلـيـهـ بـقـوـلـهـ :ـ وـكـانـهـ لـمـ يـسـمـعـ تـبـرـؤـ الـتـابـعـيـنـ الـمـتـبـوـعـيـنـ إـذـ يـقـولـونـ الـآـيـةـ ،ـ وـ وجـهـ الـاسـتـدـلـالـ عـلـىـ الـمـطـلـوبـ الـأـوـلـ أـنـ الـمـشـبـهـ وـعـدـةـ الـأـصـنـامـ يـنـكـشـفـ لـهـمـ فـيـ الـآـخـرـةـ أـنـهـمـ كـانـواـ ضـالـلـيـنـ فـيـ تـشـبـهـ أـصـنـامـهـ بـرـبـ الـعـالـمـيـنـ فـيـتـرـقـبـ دـلـيـلـهـكـذاـ :ـ الـمـشـبـهـ خـالـوـنـ مـنـ جـهـةـ تـشـبـهـهـمـ اللـهـ بـخـلـقـهـ وـكـلـ مـنـ كـانـ كـذـلـكـ فـلـيـسـ بـعـارـفـ بـالـلـهـ وـالـمـقـدـمـةـ الـأـوـلـيـ ثـابـتـةـ بـمـنـطـوـقـ الـآـيـةـ ،ـ وـأـمـاـ الـثـانـيـ فـلـأـنـ اللـهـ سـبـحـانـهـ لـمـ تـقـدـسـ عـنـ أـنـ يـشـبـهـ خـلـقـاـ فـيـشـيـءـ كـانـ الـمـشـبـهـ لـهـ بـخـلـقـهـ وـالـمـكـيـفـ لـهـ بـكـيـفـيـةـ يـحـوـيـهـ وـهـمـهـ غـيرـ عـارـفـ بـهـ بـلـ مـتـصـوـرـ لـأـمـرـ آـخـرـ هـوـ فـيـ الـحـقـيقـةـ غـيرـ إـلـهـ ،ـ وـأـمـاـ صـدـقـهـ فـيـ الـقـضـيـةـ الـثـانـيـةـ فـلـأـنـ الـمـشـبـهـ اللـهـ خـالـلـ مـاـهـ مـوـشـبـهـ لـهـ وـكـلـ مـنـ كـانـ كـذـلـكـ فـلـيـسـ بـمـنـزـهـ لـهـ عـنـ النـدـ وـالـمـلـلـ ،ـ وـصـدـقـ الـأـوـلـيـ ظـاهـرـ مـنـ الـآـيـةـ ،ـ وـأـمـاـ

الثانية فلانه لو كان منزلها له عن الندّ بكونه مشبهها له ملائكة ضالاً من تلك الجهة لكنه ضال منها فليس بمنزل له عنه، وأما البرهان العقلّي فلان الندّ والمثل هو الشبيه و كلامنا في المشبه وفي الآية تنفي عن مذهب التشبيه بذكر تبرّ والتبعين من اتباعه و شبّهوا به خالقهم ، وندامتهم على تفريطهم في ذلك ، وحسرتهم على الرجوع لتدارك الأعمال و الاعتقادات الصالحة ، واعتراضهم بأنّهم كانوا بتشبّههم في ضلال مبين .

وقوله : كذب العادلون . إلى قوله : عقولهم .

تکذیب للعادلين به وأشار إلى تفصیل جهات کونهم عادلين و إلى سبب ذلك و هو الوهم ، وقد علمت أنّ منشأ التشبيه هو الوهم إذ كان حکمه لا يترفع [يرتفع خ] عن المحسوسات وما يتعلّق بها فإنّ حکمه في المجرّدات بحکم قدرها محسوسة ذات أحجام وأحقاباً حکاماً المحسوس ولذلك لم يترفع المشبّه لله عن تشبيهه بالأصنام وأشخاص الأجسام كصورة الإنسان وأعضائه وكذلك غير عبادة الأولان من سائر فرق المشبّهة حتى كانت غاية تنزيهه من نزهته منهن أن توهّمه في جهة فوق وقد علمت أنّ الجهة والكون من عوارض الأجسام المخلوقة فكانوا عن آخرهم قد تحلوه حلية المخلوقين و صفاتهم بأوهامهم الفاسدة . فمنهم من أثبت له أعضاء من يدو ساق و عين و وجه و سائر ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية حلاً على ظاهرها ، ومنهم من تجاسر على وصف هيئته فقال : إنّه مجوف الأعلى مصمت الأسفل و إنّه قطط الشعر إلى غير ذلك من هذيناتهم و كفرهم - تعالى الله عما يقول الطالعون علوًّا كبيراً - و تجزيته بخواطرهم تجزيـة المـجسـمات وهـي إثـباتـهم الأـعـضـاء المـذـكـورـة و ذـلـك عـن تـقـدـيرـهـم لـه عـلـى الخـلـقـةـ المختلفةـ القـوىـ بـقـرـائـعـ عـقـولـهـ الـجـامـدـةـ مـتـابـعـةـ لـأـوـهـامـهـ الفـاسـدـةـ وـ تـقـلـيدـهـ مـنـ سـلـفـ مـنـ آـبـائـهـ فإنّ الأـعـضـاءـ إـنـمـاـ تـوـلـدـ وـ تـكـمـلـ بـوـاسـطـةـ قـوـىـ طـبـيعـيـةـ وـ نـبـاتـيـةـ وـ حـيـوانـيـةـ وـغـيـرـهـاـ وهـيـ قـوـىـ مـخـتـلـفـةـ بـحـقـائـقـهـاـ وـ مـتـضـادـةـ فـيـ أـفـعـالـهـاـ مـحـتـاجـهـ إـلـىـ الـجـامـعـ وـ الـمـرـكـبـ مـؤـنـةـ بـالـإـمـكـانـ الذـيـ تـنـزـهـ قـدـسـ الصـانـعـ أـنـ يـتـطـرـقـ إـلـيـهـ بـوـجـهـ .

وقوله : وأشهد أنّ من ساواك بشيء من خلقك . إلى قوله : بيّناتك .

شهادة ثانية على من شبّهه و جعل له مثلاً بالكفر وإشارة إلى برهانها بقياس من

الشكل الأول أنسد بيان كبراه إلى كتاب الله ونصوص آياته المحكمة ، وبياناته : الأنبياء ، وشواهد حجتهم : هي تلك الآيات : أى حجتهم الشاهدة هي قوله تعالى « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون لها ندادا »^(١) وقوله « أئنكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى قل لاأشهد قل إنما هو إله واحد وإنى بريء مما تشركون »^(٢) و الإشراك كفر و نحو ذلك . وأمّا المقدمة الأولى فلأنّ الشبيه هو المثل و العدل وقد علمت أنّ البرهان العقلى ممّا يشهد بصدق هذه الشهادة فإنّ المشبه لله بخلقته مع براءته عن شبيهه الغير إذ اعتقد أنّ ذلك الذي يشير إليه بهوهمه هو صانع العالم فقد اعتقاد غير الصانع صانعاً و ذلك عين الكفر والضلالة .

وقوله : وإنك أنت الله الذي لم تنته في العقول . إلى قوله : مصر فـ .

شهادة ثلاثة هي خلاصة الشهادتين الأولىين بتزويده عن تناهيه في العقول البشرية و أفكارها : أى إحاطتها بحقيقة و ماله من صفات الكمال و نعوت الجلال بحيث لا يكون وراء ما أدركته شيء آخر و تنبئه في هذه الشهادة على ما يلزم ذلك التناهى من كونهذا كيفية تكيفها لهالقوى المتخيّلة لتسبيبها العقول ، ومهاب الفكر جهاتها . فيلزم من ذلك كونه محدوداً إذ كانت الحقائق إنما تدرك بكتنها من حدودها .

وقوله : مصر فـ : أى محكوماً في ذاته بالتجزية و التحليل والتركيب إذ كان من شأن المحدود ذلك ، و ممّا كانت هذه اللوازم باطلة لبرائته عن الكيفية والأجزاء والتركيب كان ملزومها وهو التناهى في العقول باطلاً .

الفصل الثالث :

ومنها : قدر ما خلق فالطف تقديره ، ودبره فاحكم تدبيره ، ووجهه
 لوجهته فلم يتعد حدود منزلته ، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته ، ولم يستصعب
 إذ أمر بالمضي على إرادته ، وكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيّته ؟

المنشىء أصناف الأشياء بلا رؤية فنكر آل إليها، ولا قريحة غريبة أضمر
عليها، ولا يجري به أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك اعانه على ابتداع
عجائب الأمور، فتم خلقه وادعن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، ولم يعرض
دونه ريش المبطىء، ولا آناة المتلkick، فاقام من الأشياء أودها، ونبه
حدودها، ولأم يقدر بين متضادها، ووصل أسباب قرائتها، وفرقها
اجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والمهيات بدايآ خلائق حكم
صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها.

أقول: آل:رجع . وآذعن: خضع وذل . والريث: البطئ وكذلك الآنة . والمتلkick
الباطئ عن الأمر والتوقف فيه . والأود: الامواجاج ، وبدايا: جمع بديبة وهي الخلقة
العجبية .

فقوله: قدر ما خلق فأحكم تقييره . إشارة إلى أن " كل " مصنوع قدره في الوجود
فعلى وفق حكمته بحيث لو زاد على ذلك المقدار أو نقص منه لاختلت مصلحة ذلك المقدار
وغيرت منفعته .

وقوله: ودبّره فالطف تدبّره إيجاده على وفق المصلحة ولطفه في ذلك تصرّفه
في جميع الذوات والصفات تصرّفات كليلة وجزئية من غير شعور غيره بذلك .
وقوله: ووجهه لو جهته . إلى قوله: إلى غايتها: أى ألهم كلاماً ويسره طال خلق له
وما كتب له في اللوح فلم يتجاوز مرسوم تلك المنزلة المعلومة له: أى لم يعبرها ولم يقترب منها
وإلزام التغيير في علمه سبحانه و إاته محال .

وقوله: ولم يستعصب إذ أمر بالمضي على إرادته: أى لما أمر المخلوق بالتوجه
إلى وجهه على وفق إرادة الله وساقت الحكمة الإلهية كلاماً إلى غايتها لم يمكن تخلفه

وأستصحا به عن ذلك الأمر ، وأمره له إشارة إلى توجيه أسبابه بحسب القضاء الإلهي عليه بذلك .

وقوله : وَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدِرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مُشَيْئَتِهِ : أَىٰ وَكَيْفَ يَسْتَعْصِبُ . ثُمَّ أَشَارَ إِلَى عَلَّةِ عدم استصحابه و سرعة طوعه و انتقاده بذكر عللته و هو استناد جميع الآثار إلى مشيئته . إذ كُلَّ أُثْرٍ فَهُوَ وَاجِبٌ عَنْ مُؤْثِرِهِ وَالْكُلُّ مُنْتَهٌ فِي سَلْسَلَةِ الْحَاجَةِ إِلَى إِرَادَتِهِ وَاجِبٌ عَنْهَا وَقَدْ عَلِمَ ذَلِكَ فِي الْعِلْمِ الإِلَهِيِّ .

وقوله: المنشيء أصناف الأشياء . إلى قوله: عجائب الأمور .

قد سبق في الخطبة الأولى بيان أنَّ الروية والفكر والتجربة مما يلحق الإنسان وبخاصة وأنَّ الباري سبحانه منزَّهٌ عن شيء منها في كيفية إبداعه لخلقه ، وأمَّا الشريك فمنزَّهٌ عنه برهان الوحدانية كما سبقت الإشارة إليه أيضاً . وفريحة الغريبة قوَّةُ الفكر للعقل .

وقوله: فَأَتَمْ [فَتَمْ] خ [خلقه] وَأَذْعَنْ لطاعته وَأَجَابَ إِلَى دُعُوتِهِ .

تمام مخلوقاته من جهة جوده بما فادتها ما ينبغي لها فإن عرض لشيء منها فوت كمال فلعدم استعداده و قوله لذلك و إذعانه ذلته في رق الحاجة والإمكان وتصريف القدرة و إجابته إلى دعوته كونه في الوجود عن قوله: كن .

وقوله: وَلَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهِ رِيَثُ الْمُبْطِئِ وَلَا أَنَّةُ الْمُتَلَكِّيِّ .

تنزيه لفعله تعالى وأمره أن يعرض في طاعة الأشياء له شيء من هذه الكيفيات إذ كُلَّ شيء في قهره وعلى غايته من السرعة إلى إجابة أمره و لما كان تعالى إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، و في قوله كن هبة ما ينبغي لذلك المأمور وما يبعده لا إجابة أمره بالكون في الوجود و يجب عنه فكيف يمكن أن يعرض له في إجابة الأمر بطوء أو تلکي بل يكون كلمح البصر كما قال تعالى «وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا كَلْمَحَ بِالْبَصَرِ» و يحتمل أن يكون ذلك تنزيها له تعالى أن يعرض له من جهة ما هو قادر شيء من هذه الكيفيات فإنَّ البطء والأناة والتلکي من عوارض الحرفة التي هي من عوارض الجسم ، و اعتراضها فيمن يفعل بالآلة و تستند حركته وتضعف ، وقد علمت تنزيه الله تعالى عن

جميع ذلك .

وقوله : فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أُوْدُهَا . إِلَى قَوْلِهِ : وَالْهَيَّاتِ .

إِقَامَتِهِ لَاْ وَدُهَا رَفِعَهُ لَاْ عَوْجَاجَ كُلَّ شَيْءٍ بِإِعْدَادِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ وَإِفَاضَةً كَمَالَهُ ، وَنَهْجَهُ لِجَدِرَهَا أَوْ لِحَدِودَهَا عَلَى الرَّدَائِتَيْنِ هُوَ يَضَاهِهُ لِكُلَّ شَيْءٍ وَجَهَتِهِ وَغَايَتِهِ تَيْسِيرَهَا لَهُ ، وَمَلَائِمَتِهِ بَيْنَ مَقْضَادَهَا كَجَمِيعِهِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى تَضَادِ كَيْفِيَّاتِهَا فِي مَزَاجٍ وَاحِدٍ وَقَدْ سَبَقَ بِيَانِهِ ، وَوَصْلَهُ لِأَسْبَابِ قِرَائِنِهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْمُوْجُودَاتِ لَاْ تَنْفَكُّ عَنْ أَشْيَاءِ تَقْرَنُ بِهَا مِنْ هَيَّةٍ أَوْ شَكْلٍ أَوْ غَرِيزَةٍ وَنَحْوَهَا وَأَقْرَانِ الشَّيْئَيْنِ لَاْ مَحَالَةَ مُسْتَلِزَمٍ لِاقْرَانِ أَسْبَابِهِمَا وَاتِّصالِهِمَا لِاسْتِحَالَةِ قِيَامِ الْمُوْجُودِ بِدُونِ أَسْبَابِهِ ، وَذَلِكَ الْوَصْلُ مُسْتَنِدٌ إِلَى كَمَالِ قَدْرِهِ إِذَا هُوَ مُسْبِبُ الْأَسْبَابِ . وَقَالَ بَعْضُ الشَّارِحِينَ : أَرَادَ بِالْقُرْآنِ النُّفُوسَ . وَعَلَى هَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى وَصْلِهِ لِأَسْبَابِهَا هَدَايَتِهَا إِلَى عِبَادَتِهِ وَمَا هُوَ الْأَوَّلُ بِهَا فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا وَسُوقَهَا إِلَى ذَلِكَ إِذَا الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِ الْقَافِلِ : وَصَلَ الْمَلَكُ أَسْبَابَ فَلَانَ . إِذَا عَلَّقَهُ عَلَيْهِ وَوَصَلَهُ إِلَى بَرٍ وَإِنْعَامِهِ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ .

وَقَوْلُهُ . وَفِرْقَهَا أَجْنَاسًا مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحَدُودِ وَالْأَقْدَارِ وَالْغَرَائِزِ وَالْهَيَّاتِ . لَا يَرِيدُ بِالْأَجْنَاسِ وَالْحَدُودِ مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فِي عِرْفِهِمْ بَلْ مَا اخْتَلَفَ بِالْأُمُورِ الْمَذَكُورَةِ كُلَّهَا أَوْ بَعْضُهَا فَهُوَ مُخْتَلِفُ الْجِنْسِ لِغَةً ، وَحَدَّ الشَّيْءَ مِنْتَهَاهُ وَمَا يَحْيِطُ بِهِ ، وَالْأَقْدَارُ الْمَقَادِيرُ وَالْأَشْكَالُ أَيْضًا ، وَالْغَرَائِزُ الْقَوْيُ النُّفْسَانِيَّةُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْهَيَّاتُ وَالصَّفَاتُ . وَإِنْ جَعَلْنَا الْحَدُودَ عَلَى مَا هُوَ الْمُتَعَارِفُ كَانَ حَسَنًا فَإِنَّ حِكْمَةَ الْخَالِقِ سَبْحَانَهُ أَفْتَضَتْ تَمِيزَ بَعْضِ الْمُوْجُودَاتِ عَنْ غَيْرِهَا بِحَدِودِهَا وَحَقَائِقِهَا وَبَعْضُهَا بِأَشْكالِهَا وَهَيَّاتِهَا وَمَقَادِيرِهَا وَغَرَائِزِهَا وَأَخْلَاقِهَا كَمَا يَقْتِضِيهِ نَظَامُ الْوُجُودِ وَأَحْكَامُ الصَّنْعِ وَحُكْمُ الإِرَادَةِ الْإِلهِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : بَدَا يَا خَلَاقِي أَحْكَمَ صَنْعَهَا وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَابْتَدَعَهَا . أَى هِيَ بِدَايَا : أَى عَجَابٍ مَخْلُوقَاتِ أَحْكَمَ صَنْعَهَا عَلَى وَفَقِ إِرَادَتِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

مِنْهَا فِي صَفَةِ السَّمَاءِ :

وَنَظَمَ بِلَا تَعْلِقَ رَهَوَاتِ فُرْجَهَا ، وَلَا حَمْ صُدُوعَ أَفْرَاجَهَا ،

وَوَسْجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْوَاجِهَا . وَذَلِيلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ
خَلْقِهِ ، حُزُونَةَ مَعْرَاجِهَا ، نَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ فَالْتَّحَمَتْ عَرَى اشْرَاجِهَا
وَفَقَ بَعْدَ الْأَرْتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا . وَاقَامَ رَصَداً مِنَ النَّهَبِ التَّوَاقِبِ
عَلَى نَقَابِهَا ، وَامْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ الْهُوَاءِ بِأَيْدِهِ وَأَمْرِهَا أَنْ تَقَفِ
مُسْتَسِلَةً لِأَمْرِهِ ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبَصِّرَةً لِنَهَارِهَا ، وَفَرَّهَا آيَةً مُحْوَّةً مِنْ
لَيْلِهَا ، فَاجْرَاهَا فِي مَنَاقِلِ بَحْرِهَا ، وَقَدْرَ سِيرِهَا فِي مَدَارِجِ دَرَجَهَا لِيَنْ
بَيْنَ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ بَيْنَهَا ، وَلِيَعْلُمَ عَدْدُ السَّنِينَ وَالْحَسَابُ بِمَقَادِيرِهَا ، ثُمَّ عَلَقَ فِي
جَوَاهِفِكَهَا ، وَنَاطَ بِهَا زِيَّنَتَهَا : مِنْ خَفَّيَاتِ دَرَارِيهَا ، وَمَصَابِيحَ كَوَاكِبِهَا
وَرَمَيَ مُسْتَرِقَ السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شَهِبَهَا ، وَاجْرَاهَا عَلَى إِذْلَالِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَيَّباتِ
ثَابِتَهَا ، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا ، وَهُبُوطِهَا وَصَعْوَدِهَا ، وَخُوسِهَا وَسُعُودِهَا .

أقول : الرهوات : جمع رهوة وهي الفرجة المتسعة . وأيده : قوته ، و بايده : هالكة .
و مار : تتحرّك . و ناط : علق والصدوع : الشقوق . و وسنج بالتشديد : أي شبات . والحزونه :
الصعوبة . والأشراج : جمع شرج بالفتح وهي عرى العيبة التي تخطّط بها وتنقل ويطلق أيضاً
على حروفها التي تخطّط . والارتاق : الالتصاق والنقارب : جمع نقب بفتح النون وهو الطريق في
الجبيل . والدارى : الكواكب المضيئه .

و هذا الفصل يشتمل على كيفية خلق السماء قوله : ونظم بلاتعليق . إلى قوله :
انفراجها يقتضي بظاهره أن السماء كانت ذات فرج و صدوع ، وهذا على رأى المتكلمين
ظاهر فإن الأجسام لما كانت عندهم من كبة من الأجزاء التي لا تتجزّى ، كانت قبل تأليفها

ذات فرج و صدوع ، وأمّا على رأي غيرهم فقالوا: يحتمل أمرين : أحدهما : أنه لما كانت السماوات من كبة من أجزاء وكانت بين أجزاء كلّ مركب مبادنة اولا المركب والمولف استعارة لفظ الرهوات والفرج ما يتصور من المبادنة بين أجزاء السماء عند قطع النظر عن صانعها و من كبها سبحانه ، ونظمه لرهوات فرجها إفاضته لصورها على قوالبها حتى تمت من كبا منتظما متلاحم الصدوع والفرج ، و الثاني : يحتمل أن يشير بالفرج إلى ما بين أطبق السماوات من التباعين ، ونظمه لرهواتها و ملاحمة صدوعها خلقها كرامة متساوية لا خلاة بينها ، وتباعلي كمال قدرة الله تعالى بقوله : بلاتعليق . فإنّ الأوهام حاكمة لأنّ السماء واقفة في خلاء كما يقف الحجر في الهواء وذلك منشأ حيرتها و تعجبها فحرّ كها بذلك القول إلى التعجب والاستعظام .

وقوله: و شجّ بينها وبين أزواجها . أراد بأزواجها نفوسها التي هي الملائكة السماوية بمعنى قرائتها وكلّ قرين زوج : أي ربط ما بينها وبين نفوسها بقبول كلّ جرم سماويّ لنفسه التي لا يقبلها غيره .
وقوله : و ذلل للهابطين بأمره . إلى قوله : انفاجها .

قد سبقت الإشارة إلى أنّ الملائكة ليست أجساما كساير الحيوان فإذا ذُن لليس هبوطها و صعودها الهبوط و الصعود المحسوسين و إلا لكان البارى - جل قدسه عن أوهام المتوجهين - في جهة إليه يصعد وعنه ينزل فإذا ذُن هو استعارة لفظ النزول من الجهة المحسوسة إلى أسفل لنزول العقول من سماء الجود الإلهي إلى أراضي الموارد القابلة للإفاضات العالية ، وبذلك المعنى يكون هبوط الملائكة عبارة عن إيصالها إلى كلّ ما دونها كماله متوسطة بينه وبين مبدعه و موجده و هم المرسلون من الملائكة بالوحى و غيره وكذلك الصاعدون بأعمال الخلق لهم الملائكة أيضاً ، وأمّا معنى الصعود بها فيعود إلى كونها منقوشة في ذوات الصاعددين بها ، وقد لاح فيما سبق أنّ علمه تعالى بمعلولاته البعيدة كالزمانيات و المعدومات التي من شأنها أن توجد في وقت و تتعلق بزمان يكون بارتسام صورها المعقولة في تلك الألواح ، وهو أيضاً مستعار لفظ الهبوط للمعنى الذي ذكرناه من أراضي النفوس إلى الألواح المحفوظة . فاما الانفراج الذي ذلل حزونته لهم و سهل عليهم سلوكه فيعود

إلى عدم حجبها ومنعها لنفوذ علوم الملائكة بأعمال الخالق و ما يحرى في هذا العالم و كما أنّ الجسم المتتصدّع لا يمنع نفوذ جسم آخر فيه من حيث هو متتصدّع و الوصول إلى ما رواه كذلك السماء لا تحجب علوم الملائكة أن تتعلق بما في هذا العالم من الموجودات فبجرت مجرى المنفوج من الأُجسام فأطلق عليه لفظ الانفراج و تذليله لحزونه ذلك الانفراج لهم هو كونها غير مانعة بوجهٍ مما لجريان علوم الملائكة المفترىين في هذا العالم .

وقوله : و ناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها و افتراق بعد الارتقاق صوامت أبوابها .

فيه احتمالان : الأول : أنت قد علمت مما سبق ما معنى كون السماء من دخان فأمّا نداء لها فإشارة إلى أمره لها بالإثبات والكون في قوله تعالى « فقال لها وللأرض اتتياطوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين»^(١) و أمّا التحامها فاعتبار تركيبيها بانضمام جزئها الصورى إلى جزئها القابل كما يلتحم طرف العيبة بتشرح عرها ، و افتراق صوامت أبوابها بعد ذلك الارتقاق هو جعلها أسباباً لنزول رحمته و مددرات تنزل بواسطة حرکاتها على هذا العالم أنواع رحمة الله فكانت حرکاتها تشبه الأبواب إذ هي أبواب رحمته و مفاتيح جوده . الثاني : أنّ العرب يقولون لكل ماعلاك : فهو سماوك . فعلى هذا يحتمل أن يكون امراد بالسماء ما هو أعمّ من السماء المعهودة ، و يكون قوله : و ناداها إشارة إلى سماء السحاب و كونها دخاناً هو كونها بخاراً قبل الانعقاد يشبه الدخان فاستعير له لفظه والتحام عرى أشراجها إشارة إلى التحام تلك الأجزاء البخارية و انعقادها سحاباً و افتراق صوامت أبوابها هو إنزال المطر منها كما قال تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بما منها »^(٢) .

وقوله: وأقام رصداً من الشهب الثواب على ثوابها .

له معنيان : أحدهما : أن يكون استعار لفظ النقاب لكونها بحيث لا يمنع تعلق العلوم بماورائتها من الأُجسام و المجرّدات ، و قد يسبق معنى الشهب و إقامتها رصداً . الثاني : أن

يكون استعارة لفظ الرصد لهذه الشهـب المحسوـة و رشـح بـذكـر النقـاب إـذ شـأن الرـصد و الحـرسـة حـفـظ الفـرج و الأـبـاب ، و يـكون سـرـ ذلك و وجـه الحـكـمة فـيهـ أنـ العـرب كـانـت تـعـقـدـ أـنـ الشـيـاطـين تـصـعدـ إـلـى السـمـاء فـتـسـتـرـقـ الغـيـبـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ ثـمـ تـلـقـيـهـ إـلـى الـكـهـنةـ و السـجـرةـ و نـحـوـهـمـ فـلـمـاـ آـنـ دـورـ السـتـرـ و النـهـيـ عنـ التـكـهـنـ و نـحـوـهـ مـاـ بـيـنـاـ فـيـهـ مـنـ فـسـادـ أـذـهـانـ الـخـلـقـ و صـرـفـ قـلـوبـهـمـ عـنـ غـرـضـ الشـرـيعـةـ أـنـقـىـ الـوـحـىـ إـلـيـهـمـ أـنـ هـذـهـ الشـهـبـ الـتـىـ تـنـقـضـ إـنـتـماـ جـعـلـتـ رـجـومـاـ لـلـشـيـاطـينـ مـسـتـرـقـيـ السـمـعـ كـلـ مـنـ اـسـتـمـعـ مـنـهـمـ رـمـىـ بـشـهـابـ مـنـهـاـ وـ حـجـبـتـ السـمـاـوـاتـ عـنـهـمـ فـلـاـ يـصـلـونـ إـلـيـهـاـ يـنـغـرـسـ فـيـ أـذـهـانـ الـخـلـقـ انـقـطـاعـ مـادـةـ الـكـهـنةـ وـ نـحـوـهـاـ فـنـسـبـوـاـ اـعـقـادـهـمـ فـيـكـوـنـ ذـلـكـ كـسـرـاـ لـأـوـهـاهـهـمـ الـتـىـ بـيـنـاـ أـنـهـاـ شـيـاطـينـ الـنـفـوسـ وـ قـمـعاـ لـهـاـ . وـ بـالـلـهـ التـوـفـيقـ .

وـ قـوـلـهـ : وـ أـمـسـكـيـهـاـ مـنـ أـنـ تـمـوـرـيـ خـرـقـ الـهـوـاءـ بـأـيـدـهـ وـ أـمـرـهـاـ أـنـ تـقـفـ مـسـتـسـلـمـةـ لـأـمـرـهـ .
أـىـ حـفـظـهـاـ عـنـ أـنـ تـحـرـ كـهـاـ الـرـبـحـ الـمـخـتـرـعـةـ فـيـهـاـ مـجـيـئـاـ وـ ذـهـابـاـ وـ حـكـمـتـ الـحـكـمةـ
إـلـيـهـاـ عـلـيـهـاـ بـالـاسـتـقـارـ اـنـقـيـادـاـ لـقـبـرـهـ ، وـ الـأـمـرـ الـأـوـلـ إـشـارـةـ إـلـىـ حـكـمـ الـقـضـاءـ ، وـ الـأـمـرـ
الـثـانـيـ إـشـارـةـ إـلـىـ اـعـتـبـارـ الـقـدـرـةـ .

وـ قـوـلـهـ : وـ جـعـلـ شـمـسـهـاـ آـيـةـ مـبـرـزـةـ لـنـهـارـهـاـ وـ قـرـهـاـ آـيـةـ مـحـوـّـةـ مـنـ لـيـلـهـاـ .
كـفـولـهـ تـعـالـىـ «ـ وـ جـعـلـنـاـ اللـلـيـلـ وـ النـهـارـ آـيـتـيـنـ فـمـحـوـنـاـ آـيـةـ اللـلـيـلـ وـ جـعـلـنـاـ آـيـةـ النـهـارـ
مـبـرـزـةـ »ـ (١)ـ وـ كـوـنـهـمـاـ آـيـتـيـنـ :ـ أـىـ لـدـلـالـتـهـمـاـ عـلـىـ كـمـالـ قـدرـتـهـ ، وـ نـقـلـ عـنـ أـئـمـةـ الـتـفـسـيرـ فـيـ
إـبـصـارـ آـيـةـ النـهـارـ وـ مـحـوـ آـيـةـ اللـلـيـلـ وـ جـوـهـ .

أـحـدـهـاـ :ـ أـنـ إـبـصـارـ آـيـةـ النـهـارـ هـوـ بـوـقـاءـ الشـمـسـ بـحـالـهـاـ وـ تـامـ ضـيـائـهـاـ فـيـ كـلـ حـالـ ،
وـ مـحـوـ آـيـةـ اللـلـيـلـ هـوـ اـخـتـلـافـ أـحـوـالـ الـقـمـرـ فـيـ إـشـرـاقـهـ وـ مـحـاقـهـ بـحـيثـ لـاـ يـقـيـ لـيـلـتـيـنـ عـلـىـ حـالـةـ
واـحـدـةـ بـلـ كـلـ لـيـلـةـ فـيـ مـنـزـلـ بـزـيـادـةـ أـوـ نـقـصـانـ .

الـثـانـيـ :ـ مـاـ نـقـلـ أـنـ اـبـنـ الـكـوـاءـ سـئـلـ عـلـيـهـاـ لـيـلـةـ (٢)ـ عـنـ الـلـطـخـةـ الـتـىـ فـيـ وـجـهـ الـقـمـرـ فـقـالـ :ـ
ذـلـكـ مـحـوـ آـيـةـ اللـلـيـلـ .

الـثـالـثـ :ـ عـنـ اـبـنـ كـثـيرـ :ـ أـنـ الـآـيـتـيـنـ هـمـاـ ظـلـمـةـ اللـلـيـلـ وـ ضـيـاءـ النـهـارـ ، وـ الـتـقـدـيرـ

وجعلنا الليل والنهار ذوى آياتين فقوله : فمحونا آية الليل : أى لم يجعل للقمر نوراً من ذاته بل من ضوء الشمس ، و إبصار آية النهار كون الشمس مضيئة بذاتها و من هناك ابتداء الغاية أولبيان الجنس متعلق بممحوأة أو يجعل ، و قيل : أراد من آيات ليلها .
وقوله : فأجراهما في مناقل مجراهما وقدر سيرهما في مدارج درجهما .

التي قدر سيرهما فيما هي بروجها و منازلها . و لنشر إلى مفهومات الدرج و البروج و المنازل و هو أن الناس قسموا دور الفلك الذى يسير منه الكواكب باثنى عشر قسما و سمو كلّ قسم برجاً و قسموا كلّ برج قسماً و سمو كلّ قسم درجة و سمو تلك البروج أسماء :

الحمل الثور الجوزاء السرطان الأسد السنبلاة الميزان العقرب القوس الجدى الدلو الحوت .

والشمس تسير كلّ برج منها في شهر واحد ، و القمر يسير كلّ برج منها في أزيد من يومين و نقص من ثلاثة أيام ، و أمّا منازل القمر فثمانية وعشرون وأسماؤها : الشرطين البطين الشريط الدبران الهقة البنعة الذراع النثرة الطرفة الجبهة الزبرة الصرفة العوا السماك الغفر الزبانا الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذايبح سعد بلع سعد السعوض سعد الأخبية الفرغ المقدم الفرغ المؤخر الرشاء .

و القمر يكون كلّ يوم في منزل منها « وكلّ في فلك يسبحون ذلك تقدير العزيز العليم » .

وقوله : **ليميز بين الليل والنهر** . إلى قوله : بمقاديرهما .

أى بمقادير سيرهما ، وقد سبق بيانه في الخطبة الأولى .

وقوله : ثم علق في جوها فلكلها .

لما أشار أولاً إلى تركيبها أشار إلى إفراطها في أحيازها و هو المشار إليه بتعليق فلكلها في جوها .

فإن قلت : فقد قال أولاً : بلا تعليق ثم قال هيهنا : و علق . فما وجه الجمع ؟ .

قلت : التعليق أمر إضافي يصدق سلبه وإثباته باعتبارين : فالمراد بالأول أنها غير معلقة بجسم آخر فوقها ، وبالثاني أنه علقها في جوّها بقدرته . ولا منفأة ، وأراد بالفلك اسم الجنس وهو أجسامها المستديرة التي يصدق عليها هذا الاسم .

وقوله : وناظ بها زينتها من خفيات دراريهما ومصابيح كواكبها .

كقوله تعالى « وزرنا السماء الدنيا بمصابيح »^(١) ورمى مسترقى السمع بثوابق شهيبها كقوله تعالى « فاتبعه شهاب ثاقب » وقد تقدم بيانه ، وإنما أعاد ذكر الشهب لأنّه ذكر أوّلاً أنه أقامها رصداً وذكر هنا أنه جعلها رصداً له : أى لرقى مسترقى السمع بها .

وقوله : وأجرها على إذلال تسخيرها .

كقوله تعالى « و الشمس والقمر والنجموم مستخرات بأمره »^(٢) والذلة : ذلة الإمكان والحاجة إلى الإيجاد والتديير ، وأمّا الثابت والساير منها فالساير : هي الكواكب السبعة : زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر . ويسمى الشمس والقمر بالنّيَّرين والخمسة الباقية بالمحيسنة لأنّ "لكل" واحد منها استقامة ثمّ وقوفاً ثمّ رجوعاً ثمّ وقوفاً ثانية ثمّ عوداً إلى الاستقامة ، و ليس للنيَّرين غير الاستقامة . وبافي الكواكب التي على السماء غير هذه السبعة تسمى بالثوابت وفلكلها الثامن وكلّ واحد من السبعة يتحرّك حرّكة مخصوصة يخالف حرّكة الآخر . فاما صعودها وهبوطها : فصعودها طلبها لشرفها وشرف الشمس في الدرجة التاسعة عشر من الحمل ، وشرف القمر في الدرجة الثالثة من الثور ، وشرف زحل في الحادي والعشرين من الميزان ، وشرف المشتري في الخامسة عشر من السرطان ، وشرف المريخ في الثامنة والعشرين من الجدي ، وشرف الزهرة في السابعة والعشرين من الحوت ، وشرف عطارد في الخامسة والعشرين من السبنبلة ، وشرف الرأس في الثالثة من الجوزا ، وشرف الذئب في الثالثة من القوس ، وبرج الشرف كله شرف إلا أنّ تلك الدرجات قوية فمادام الكواكب متوجّهاً إلى قوة الشرف فهو في الأزيداد الصعود فإذا جاز صار في الانقصاص والهبوط . وهبوط

كل كوكب يقابل شرفه و صعوده ، وأمّا نحوسها و سعودها ف قالوا : زحل و المريخ
نحسان أكبرهما زحل ، والمشترى و الزهرة سعدان أكبرهما المشترى ، و عطارد سعد مع
ال سعود و نحس مع النحوس ، و النيران سعدان من التثليت والتسديس نحسان من المقابلة
و التربع والمغاربة ، والرأس سعد ، والذنب والكبش نحسان ، و معنى سعودها و نحوسها
كون اتصالاتها أسبابا لصلاح حال شيء من الأشياء من أحوال هذا العالم . وبالله التوفيق

و منها في صفة الملائكة :

ثُمَّ خَلَقَ سَبَّاحَهُ لِاسْكَانِ سَيْوَانِهِ ، وَعَمَارَةَ الصَّفِيفِ الْأَعُلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ
خَلَقَهُ بِدِيَعَةَ مَلَائِكَتِهِ ، مَلَائِكَمُ فَرُوجَ بَخَاجَهَا ، وَحَشَّا بَهِمُ قُتُوقَ أَجَوَاهِهَا
وَبَيْنَ بَجَوَاتِ تِلْكَ الْفَرُوجِ زَجَلَ الْمُسْبِحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقَدِيسِ ، وَسَرَّاتِ
الْحَبْ ، وَسَرَادَقَاتِ الْجَهْدِ ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجُ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الْإِسْمَاعُ
سَبِحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلوغِهَا ، فَتَقْفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا ،
أَنْشَاهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، وَأَقْدَارٌ مُتَفَوِّتَاتٌ أَوْلَى أَجْنَحَةٍ تَسْبِحُ جَلَالَ عَزَّتِهِ
لَا يَنْتَهُونَ مَآظِهِرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صَنْعَتِهِ ، وَلَا يَدْعُونَ أَنْهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئًا مَا
أَنْفَرَدَ بِهِ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرِمُونَ (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)
جَعَلُهُمْ فِي هَنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحِيهِ ، وَحَلَّهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ دَائِعَ أَمْرِهِ
وَنَهِيهِ ، وَعَصَمُهُمْ مِنْ رِيبِ الشَّهَابَاتِ ، فَمَا مِنْهُمْ زَايِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَانَهِ ،
وَمَدِهِمْ بِفَوَائِدِ الْمَعْوَنَةِ ، وَاشْعَرُ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ ، وَفَتحُ طَمْ

أَبُوا بَا ذَلَّا إِلَى مَاجِدِهِ ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَارًا وَاضْحَى عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ
لَمْ تَقْلِهِمْ مُوْصِرَاتُ الْأَثَامِ ، وَلَمْ تَرْخِلْهُمْ عَقْبُ الْلَّيَالِ وَالْأَيَامِ ، وَلَمْ تَرِمْ
لَشْكُوكُ بَنَازِعَهَا عَزِيمَةً إِيمَانِهِمْ ، وَلَمْ تَعْتَرِكُ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ ،
وَلَا قَدَحَتْ قَادِحَةُ الْإِحْنَى فِيهَا يَنْهِمْ ، وَلَا سَلَبَتْهُمْ الْحِيرَةُ مَالَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ
بِضَمَائِرِهِمْ ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهِيَ جَلَالُهُ فِي اثْنَاءِ صُدُورِهِمْ ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمْ
الْوَسَاؤُسُ فَقَرَرَعَ بِرِيَاهَا عَلَى فَكِرْهِمْ : مِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْعَنَمِ الدُّلُجِ ،
وَفِي عَظِيمِ الْجِبَالِ الشَّمْسِيِّ ، وَفِي قَرْتَةِ الظَّلَامِ الْأَبْهِمِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَقَ
أَقْدَامَهُمْ نَحْوَمِ الْأَرْضِ السُّفْلَى ، فَهِيَ كَرَائِيَاتٍ يَضِيقُ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ
الْهَوَاءِ ، وَتَحْتَهَا رِيحُ هَفَافَةٍ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ اتَّهَتْ مِنَ الْحَدُودِ الْمُتَاهِيَّةِ ، قَدْ
أَسْتَفْرَغُهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ ، وَوَصَّلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ يَنْهِمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ
وَقَطْعُهُمُ الْإِيْقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَهِ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَجُوزْ رَغْبَتِهِمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَهُ
غَيْرِهِ ، قَدْ دَأَقُوا حَلَوةَ مَعْرِفَتِهِ ، وَشَرَبُوا بِالْكَلْسِ الرَّوَيَّةِ مِنْ مَجْبَتِهِ ، وَمَكَنَّتْ
مِنْ سُوِيدَاءِ قُلُوبِهِمْ ، وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ ، فَخَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ أَعْدَالَ ظُهُورِهِمْ ،
وَلَمْ يَنْفَذْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةً تَضَرُّعُهُمْ ، وَلَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الْزَّلْفَةِ رِيقَ
خُشُوعِهِمْ ، وَلَمْ يَتوَهَّمْ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ ، وَلَا تَرَكَتْ

هُمْ أَسْكَانَةُ الْجَلَالِ ، نَصِيبًا فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ ، وَلَمْ يَحْرِجْ الْفَتَّارَاتُ فِيهِمْ
 عَلَى طُولِ دُوَوِّبِهِمْ ، وَلَمْ تَغْضَرْ رَغْبَاتِهِمْ ، فَيَخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ ، وَلَمْ
 يَجْفَ لِطُولِ الْمُنَاجَاهَةِ أَسْلَاتُ الْسِنَتِهِمْ ، وَلَا مَلَكُوهُمُ الْأَشْغَالُ قَتَقْطَعُ
 بِهِمِ الْجَوَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتِهِمْ ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ فِي مَقَامِ الطَّاعَةِ مَا كَبِّهُمْ ، وَلَمْ
 يَنْثُوا إِلَى رَاحَةِ النَّقْصِيرِ فِي امْرِهِ رَقَابِهِمْ ، وَلَا تَعْدُوا عَلَى عَزِيزِهِمْ جَدِّهِمْ بِلَادَةِ
 الْفَقَالَاتِ ، وَلَا تَتَضَلَّلُ فِي هَمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ قَدْ أَخْنَدُوا ذَذِّا الْعَرْشِ
 ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقِهِمْ . وَيَمْعُونُ عَدَدَ اِنْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمُخْلُوقَيْنَ بِرَغْبَتِهِمْ ،
 لَا يَقْطَعُونَ أَمْدَانَةَ عَبَادَتِهِ ، وَلَا يَرْجِعُهُمُ الْأَسْتِهَنَارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ ،
 إِلَّا إِلَى مَوَادِّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرَ مُنْقَطَعَةٍ مِنْ رَجَاهِهِ وَمَخَافَهِ ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسَابِ
 الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ ، فَيَنْوِي جَدِّهِمْ ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ الْأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السُّعْيِ عَلَى
 أَجَهَادِهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَاضِيَّهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَوْ أَسْتَعْظِمُوا ذَلِكَ لَنْسَخَ
 الرَّجَاهِ مِنْهُمْ شَفَقَاتُ وَجَلِّهِمْ ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِأَسْتِحْوَادِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ
 وَلَمْ يَفْرُقُهُمْ سُوءُ التَّقَاطِعِ ، وَلَا تَوَلَّهُمْ غُلُّ التَّحَاسِدِ ، وَلَا شَعْبِهِمْ مَصَارِفُ
 الرِّيبِ ، وَلَا اِقْتَسَمُهُمْ أَخِيَافُ الْهُمَمِ ، فَهُمْ أَسْرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يُفْكِهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ
 زَيْغٌ ، وَلَا عُدُولٌ وَلَا وَقْيٌ وَلَا فُتُورٌ ، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعٌ إِهَابٌ

وهو مشتمل على وصف الملائكة بكمال العبودية له تعالى

إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعِ حَافِدٌ بِزَادَوْنَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عَلَيْهَا
وَتَزَادُ عَزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عَظِيمًا.

أقول : الصريح : السطح . والفجاج : الطريق الواسع . والجوّ : المكان المتسع العالى . والفجوة : الفرجة . والزجل : الأصوات . والسرادق : الستر الذى يمدّ فوق البيت . والرجيج : الزلزلة و الاضطراب . وتستك الأسماع : تصمّ . وخاصّةً : متخيّرة والإِخبارات : التذلل والاستكناة . وزلالاً : سهلة . والموصرات : المثقلات . و العقب : جمع عقبة وهي المدّة من التعاقب : والنوازع بالغين المعجمة : المفسدة . وبالمهملة القسى . والإِحن : جمع أحنة وهي الحقد . ولاق : التصق . وأثناء : جمع ثنى وهي تضاعيف الشيء . والرين : الغلبة والتقطيعة . والدَّلَحُ : جمع دالحة وهي الثقال . والشمخ : العالية . وفتره الظلام : سواده والأَبْهَمُ : الذي لا يهتدى فيه . والتخوم جمع تخم بفتح التاء وهي منتهى الأرض وحدودها . والريح البفافة : الساكنة الطيبة والوشيجة : عروق الشجرة . والربق : جمع ربقة وهي الحلقة من الجبل ، والدَّوْبُ : الجدّ في العمل . والأَسْلَةُ : طرف اللسان . والجوار : رفع الصوت بالدعاء وتحوه . والهمس : الخفي من الصوت . والانتفال : الرمي بالسهم . واستهتر بالأَمْرِ : أُعجِّبُهُ وظاهر به . وشيك السعي : مرتبتة . والنسمخ : الإِزالَةُ والاستحواد على الشيء : الإِحاطة والغلبة عليه . وأخياف الهمم . مختلفاتها واحده أخيف والحدف : السرعة .

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمل على وصف الملائكة الذين هم أشرف الموجودات الممكنة بكمال العبودية له إذ كان في معرض تمجيده ووصف عظمته ، وقد سبق ذكر أنواع الملائكة وإسكانهم أطباق السماوات ، ويستنبط مقتضاه بقدر المكان . ولنشر هيئتها إلى ما يختص بها الموضع من المباحث :

الأَوْلُ : ثم خلق سبحانه إلى قوله : من الملائكة يتحمل أن يشير بالصريح الأعلى إلى الفلك التاسع وهو العرش لكونه أعظم الأجرام وأعلاها وسكناته الملائكة المدبرون له ، ويتحمل أن يريده به محلّ عبادة الملائكة من حضرت جلال رب العالمين وعالم الملوك

و مقددهم الصدق من معرفته فـاـن " خلقـهـم إـنـتـما كـانـلـعـمـارـةـذـلـكـالـ محلـ" وهو الـبـيـتـ المـعـمـورـ بـجـالـ اللهـ وـعـبـادـهـمـ لـهـ ، وـلـتـاـ كـانـواـ مـنـ أـشـرـ المـوـجـودـاتـ كـانـواـهـمـ الخـلـقـ الـبـدـيـعـ التـامـ" المعـجـبـ .

الثـانـيـ : مـلـأـ بـهـمـ فـروـجـ فـجـاجـهـاـ وـحـشـابـهـمـ فـتوـقـ أـجوـائـهـاـ . استـعـارـ لـفـظـ الـفـروـجـ وـالـفـجـاجـ وـالـفـتوـقـ لـمـاـ يـصـوـرـ بـرـينـ أـجزـاءـ الـفـلـكـ مـنـ الـتـبـاـيـنـ لـوـلـاـ مـلـائـكـةـ الـذـيـنـ هـمـ أـرـوـاحـ الـأـفـلـاكـ وـبـهـمـ قـامـ وـجـودـهـاـ وـبـقـاءـ جـوـاهـرـاـ مـخـفـوظـةـ بـهـمـ . وـ وجـهـ الـمـشـابـهـ ظـاهـرـ، وـ رـشـحـ تـلـكـ الـاستـعـارـةـ بـذـكـرـ الـمـلـلـ، وـالـحـشـوـ، وـأـمـاـ فـجـاجـهـاـ وـفـروـجـهـاـ فـإـلـىـ مـاـ يـعـقـلـ بـيـنـ أـجزـائـهـاـ وـأـجوـائـهـاـ الـمـنـظـمـةـ عـلـىـ الـتـبـاـيـنـ لـوـلـاـ النـاظـمـ لـهـ بـوـجـودـ الـمـلـائـكـةـ فـيـكـونـ حـشـوـ تـلـكـ الـفـرـجـ بـالـمـلـائـكـةـ كـنـايـةـ عـنـ نـظـامـهـاـ بـوـجـودـهـاـ وـجـعـلـهـاـ مـدـبـرـةـ لـهـ .

الـثـالـثـ : وـبـيـنـ فـجـوـاتـ تـلـكـ الـفـروـجـ . إـلـىـ قـولـهـ : الـمـجـدـ . استـعـارـ لـفـظـ الـزـجـلـ لـكـمالـ عـبـادـهـمـ كـمـاـ أـنـ كـمـالـ الـرـجـلـ فـيـ رـفـعـ صـوـتـهـ بـالـتـضـرـعـ وـالـتـسـبـيعـ وـالـتـهـليلـ وـكـذـلـكـ لـفـظـ الـحـطـائـرـ مـنـازـلـ الـمـلـائـكـةـ مـنـ عـالـمـ الـغـيـبـ وـمـقـامـاتـ عـبـادـهـمـ ، وـظـاهـرـ كـوـنـهـاـ حـظـاـيـرـ الـقـدـسـ لـطـهـارـتـهاـ وـبـرـائـهـاـ عـنـ تـبـحـاسـاتـ الـجـهـيلـ وـالـنـفـسـ الـأـمـارـةـ بـالـسـوـءـ ، وـكـذـلـكـ استـعـارـ لـفـظـ سـترـاتـ الـحـجـبـ وـالـسـرـادـقـاتـ مـاـ نـيـسـنـاـ عـلـيـهـ مـنـ حـجـبـ الـنـورـ الـتـيـ حـجـبـتـ بـهـاـ عـنـ الـأـذـهـانـ أـوـلـتـجـرـ دـهـمـ عـنـ الـمـوـادـ وـالـأـوـضـاعـ الـمـحـسـوـسـةـ ، وـ وجـهـ الـمـشـابـهـ كـوـنـهـمـ مـحـتـجـيـنـ بـذـلـكـ عـنـ رـؤـيـةـ الـأـبـصـارـ وـالـأـوـهـامـ . وـظـاهـرـ كـوـنـ تـلـكـ الـحـجـبـ سـرـادـقـاتـ الـمـجـدـ لـكـمالـ ذـوـاتـهـمـ وـشـرـفـهـمـ بـهـاـ عـلـىـ مـنـ درـنـ تـلـكـ الـحـجـبـ .

الـرـابـعـ : وـوـرـاءـ ذـلـكـ الرـجـيجـ الـذـيـ تـسـتـكـ" . إـلـىـ قـولـهـ : حـدـودـهـ . استـعـارـ لـفـظـ الرـجـيجـ لـعـبـادـاتـ الـمـلـائـكـةـ كـمـاـ استـعـارـ لـفـظـ الـزـجـلـ وـرـشـحـ استـعـارـةـ الرـجـيجـ بـقـولـهـ : تـسـتـكـ" مـنـهـ الـأـسـمـاعـ وـكـنـىـ بـهـ مـنـ كـمـالـ عـبـادـهـمـ ، وـيـحـتـمـلـ أـنـ يـشـيرـ بـذـلـكـ الـرـجـلـ وـالـرـجـيجـ إـلـىـ مـاـ يـسـمـعـهـ الـأـنـبـيـاءـ مـنـ أـصـوـاتـ الـمـلـائـكـةـ كـمـاـ عـلـمـتـ كـيـفـيـتـهـ فـيـ سـمـاعـ الـوـحـيـ وـيـسـنـاهـ فـيـ الـمـقـدـمـةـ وـأـشـارـ بـسـبـحـاتـ الـنـورـ الـتـيـ وـرـاءـ ذـلـكـ الرـجـيجـ إـلـىـ جـالـ وـجـهـ اللهـ وـعـظـمـتـهـ وـقـنـزـيـهـ أـنـ يـصـلـ إـلـيـهـ أـبـصـارـ الـبـصـائرـ ، وـبـنـيـهـ بـكـوـنـ ذـلـكـ وـرـاءـ رـجـيجـهـمـ إـلـىـ أـنـ" مـعـارـفـهـمـ لـاـ تـتـعـلـقـ بـهـ كـمـاـ هـوـ ؛ بـلـ وـرـاءـ عـلـومـهـمـ وـعـبـادـهـمـ أـطـوـارـ أـخـرىـ مـنـ جـالـهـ تـقـصـرـ مـعـارـفـهـمـ عـنـهـاـ

والبحث عمّا يختص بالموضوع من المطالب

وتردّع أبصار البصائر عن إدراكها فترجع حسيرة متخيّرة واقفة عند حدودها وغایاتها من الإدراك.

الخامس: أنشأهم على صور مختلفات . إلى قوله : عزّه . اختلاف صورهم كنایة عن اختلافهم بالحقائق وتفاوت أقدارهم تفاوت مراتبهم في الكمال والقرب منه ولطف الأجنحة مستعار لقوائم التي بها حصلوا على المعارف الالهية وتفاوتها بالزيادة والنقصان كما قال تعالى «أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع»^(١) كنایة عن تفاوت إدراكهم لجلال الله وعلومهم بما ينبغي له ولذلك جعل الأجنحة هي التي تسبّح جلال عزّه فإن علمهم بجلاله منزلة عما لا ينبغي لكرم وجهه ولا يناسب جلال عزّه .

السادس: لا ينتحرون إلى قوله : يعملون : أى لا ينسون بعض مصنوعاته إلى قدرهم وإن كانوا وسايط فيها ولا يدعون أنهم يقدرون على شىء منها إلا باقداره لهم ؛ بل غایتهم أنهم وسائل في إفاضة وجود على مستحبته ومالم يجعلهم وسائل في بل انفرد بذاته في إبداعه فلا يدعون القدرة عليه أصلاً وذلك لكمال معارفهم بأقدارهم ونسبتهم إلى بارئهم وقد أكّرّهم الله تعالى بالتقديس عن النفوس الأمارة بالسوء التي هي مبدء مخالفة أمره والخروج عن طاعته .

السابع: جعلهم فيما هنالك . إلى قوله : ونبه : أى في مقاماتهم من حضرة قدسه . وقد سبقت الإشارة إلى كل ذلك في الخطبة الأولى .

الثامن: وعصّهم . إلى قوله : مرضاته . منشأ الشكوك والشبهات والزيغ عن سبيل الله هو معارضه النفس الأمارة للعقل وخذلها له إلى طرق الباطل وأملاكه مبرؤون عنها فكانوا معصومين من نوعين بما تقدّم إليه وتأمر به من الزيغ والانحراف عن قصد الله . وإمكانهم بفوائد المعونة زيادتهم في كمالاتهم على غيرهم ودوم ذلك بدوام وجوده . **التاسع:** وأشار قلوبهم تواضع إخبار السكينة استعار لفظ التواضع والاستكانة لحالهم من الاعتراف بذلك الحاجة والإمكان إلى جوده والانهيار تحت عظمته : أى جعل ذلك الاعتراف شعاراً لازماً لذواتهم ، أو من الشعور وهو الإدراك .

العاشر: وفتح لهم أبواباً ذلاً إلى تماجيده. الأبواب الذل وجوه معارفهم الإلهية التي بها يمجدونه حق تمجيده وهي أبوابهم ووسائلهم إلى تنزيهه وتعظيمه وظاهر كونها سهلة إذ حصولها لهم ليس اكتساباً عن طرق توعرت بتراكم الشكوك والشبهات ومنازعات الأوهام والخيالات كما عليه علومنا.

الحادي عشر: ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده. قيل: استعار المنار الواضحة للوسائط من الملائكة المقرب بين بينهم وبين الحق سبحانه إذ أخباره عن الملائكة السماوية، ولفظ الأعلام لصور المعقولات في ذواتهم المستلزمة لتوحيده وتنزيهه عن الكثرة، ووجه المشابهة أن المنار والأعلام كما يكون وسائل في حصول العلم بالمطلوب كذلك الملائكة المقربون والمعارف الحاصلة بواسطتهم يكون وسائل في الوصول إلى المطلوب الأول محرك الكل عز سلطانه.

الثاني عشر: لم تقل لهم موصرات الآثام. لما لم يكن النقوس الأمارة بالسوء موجودة لهم استلزم عدمها نفي آثارها عنهم من الآثام والشروع.

الثالث عشر: ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام: أى لم يستلزم تعاقب الزمان رحيلهم عن الوجود وذاك لتجردتهم وبراءة المجردات عن لحقوق الزمان والتغيرات العادلة بسببيه.

الرابع عشر: ولم ترم الشكوك بنوازغها عزيمة إيمانهم ولم تعترك الظنون على معاقده يقينهم. عزيمة إيمانهم ما لزم ذواتهم من التصديق بمدعىهم وما ينبغي له، ومعاقده يقينهم اعتقاداتهم اليقينية و اعتراك الشكوك و الظنون من شأن الأوهام والخيالات وعلوم الملائكة المقربين مبرأة عنها، ولفظ الرمي مستعار لابتعاث النقوس الأمارة بالسوء وإلقائها الخواطر الفاسدة إلى النفس المطمئنة، ومن روى النوازع بالعين المهملة فهو ترشيح للاستعارة وكذلك استعار لفظ الاعتراف لاختلاط الظنون والأوهام على القلوب وجلوها في النقوس، ووجه المشابهة ظاهرة.

الخامس عشر: ولا قدحت قادحة الإحن فيما بينهم: أى لم تشر بينهم الأحقاد شيئاً من الشرور كما تشير النار قادحاً لبراءتهم عن قوى الغضب والشهوة.

السادس عشر : ولا سلتهم الحيرة مالاق من معرفته بضمائهم إلى قوله : صدورهم . لما كانت الحيرة تردد العقل في أيّ الأمرین أولی بالطلب والاختيار و كان منشأ ذلك هو معارضات الوهم والخيال للعقل فحيث لا وهم ولا خيال فلا حيرة تختلط معارفهم وتزيل هيبة عظمته من صدورهم ، و الهيبة كنایة عن استشعار عظمته ، ولفظ الصدور مستعار لذواتهم .

السابع عشر : ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترب بريتها على فكرهم . وقد مر تفسير الوسوسة ، وفاعل الطمع هيئاً مضمراً على تقدير حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه : أي أهل الوساوس وهم الشياطين ، أو يكون الفاعل هو الوساوس وإسناد الطمع إليه مجازاً كقوله تعالى « وأخرجت الأرض أثقالها »^(١) وريتها غلبة الشكوك الالزمة عنها على وجوه عقولهم وأبصار ذواتهم التي بها ينظرون إلى وجه ربهم . وانتفاء أسبابها وهي النقوص الأمارة .

الثامن عشر : منهم من هو في خلق الغمام إلى قوله : الأَبْهَم . هذا التقسيم يعود إلى جنس الملائكة فأما الأوصاف السابقة فكانت خاصة بسكان السماوات منهم وقد وردت في الشريعة أنّ في الغمام ملائكة تسبح الله وتقدّسوا كذلك في الجبال والأماكن المظلمة وهم من الملائكة الأرضية ، وقد علمت ما قيل فيها في الخطبة الأولى .

التاسع عشر : ومنهم من خرق أقدامهم تخوم الأرض السفلی إلى قوله : المتناهية . يشبهه أن يكون هذا القسم من الملائكة السماوية أيضاً واستعار لفظ الأقدام لعلومهم المحضة بأقطار الأرض السفلی ونهاياتها ، ووجه المشابهة كون العلوم قاطعة للمعالم و سارية فيه واصلة إلى نهايته كما أنّ الأقدام تقطع الطريق وتصل إلى الغاية منها وشبّهها بالرياح البیض النافذة في مخارات الهواء من وجہین :

أحدھما: في البيان فإنّ البياض لما استلزم الصفاء عن الكدر والسود كذلك علومهم صافية من كدورات الباطل وظلمات الشبه .

الثاني: في نفوذهما في أجزاء المعلوم كما تتفذد الرياح في الهواء ، وأشاره بالريح

التي تجس الأقدام على حيث انتهت من الحدود إلى حكمة الله التي أعطت كلاماً يستحقه وقصرت كلّ موجود على حدّه، وبهفوتها إلى لطف تصرّفها وجريانها في المصنوعات.

العشرون : قد استقرّتهم أشغال عبادته إلى قوله : وشيعة خيقته : أى لم يجعل لهم فراغاً لغيرها ، وقد علّمت أنّ تحرّك الملائكة السماوية لأجرام الأفلاك الجارية لها مجرى الأبدان بحركة إرادية وشقيقة للتشبيه بالملائكة المتوسطة بينها وبين الحق " سبحانه في كمال عبادتهم له وتلك الحركات الدائمة الواجبة مستفرغة لهم عن الاستعمال بغيرها كما قال « يسبحون الليل والنهر ولا يفترون » وحقائق الإيمان تصدقهم الحق " بوجوهه عن شاهد وجودهم وظاهر كونه سبباً لإرادة معرفته التامة والدّوام عليها وإبراز مافي قوّتهم من الكمال بها إلى الفعل فإنّ التصديق بوجود الشيء الواجب تحصيله أقوى الأسباب الباعثة على طلبه . فصار الإيمان والتصديق الحق " اليقين بوجوهه وسيلةً جامعة بينه وبين معرفته والاستكمال بها وقطعاً لهم إلى الوله إليه والعشق له وثبات الرغبات على ما عنده دون غيره ، وما استعار لفظ الذوق لتعقلاتهم ولفظ الشرب بما تمكّن في ذاتهم في عشقه وكمال محبتته رشح الاستعارة الأولى بذكر الحلاوة وكنتى بها عن كمال ما يجدونه من اللذة بمعرفته كما يلتذذ باقي الحلاوة بها ، والثانية بذكر الكأس الروية إذ من كمال الشرب أن يكون بكأس روية : أى من شأنها أن تروي ، وكنتى بها عن كمال معرفتهم بالنسبة إلى غيرهم وكذلك رشح استعارة لفظ القلوب بذكر سواديئها إذ كان من كمال تمكّن العوارض القلبية كالمحبة والخوف أن يبلغ إلى سواديئه ، وأشار بوشيعة خيقته إلى العلاقة المتمكّنة من ذاتهم لخيقته وهي كمال علمهم بعظمته ، ولفظ الخيفة مستعار كما سبق لاتهارهم في ذلّ الإمكان عند اعتبار عزّه وقوّره .

الحادي والعشرون : فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم . تجوّز بانحناء الظهور في كمال خضوعهم في عبادتهم وهو إطلاق لاسم المسبي على السبب .

الثاني والعشرون : ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادّة تضرّعهم . ملائكة من شأن أحد إذا رغب في أمر إلى بعض الملوك وفرع فيه إليه بالتضّرع والخدمة أن ينقطع تضرّعه

والبحث عمّا يختص بالموقع من المطالب

بانقطاع مادّته . وما دعى نفسه إلى الطلب وميلها وانقطاعها باستيلاء الملال على نفسه وضعفها عن تحمل المشقة ، أو مطلوبه وتصوّره لا إمكان تناوله وانقطاعه إمّا بـ يأسه منه أو بـ عطائه إيماء و كانت مادة تضرّ عهم و عبادتهم له تعالى على التقديرين بريئه عن القواطع أمّا من ذواتهم فلان الكلال والملال من عوارض المركبات العنصرية وأمّا مطلوبهم فلانه كمال معرفة الله بعد تصوّرهم لعظمة ذلك المطلوب . وعلمت أن درجات الوصول إليه غير متناهية لاجرم سلب عنهم في معرض مدحهم انقطاع مادة تضرّ عهم ليستلزم ذلك سبب انقطاع تضرّ عهم وعبادتهم له .

الثالث والعشرون : و لا أطلق عنهم عظيم الزلفة ريق خشوعهم . ملائكة من قرب من السلطان مثلاً من شأنه أن يقوى نفسه ويخفّ هيبته منه و كان ذلك لتناهي ملك ملوك الدنيا و كونه مكتسباً لها و تصوّر المقرب إليهم مثليّة لهم و إمكان وصوله إلى ما وصلوا إليه . وكان سلطان الله لا يتناهى عظمة وعزّة و عرفاناً لم يتصور من العارف المقرب إليه أن يخفّ هيبته أو ينقص خشوعه و عبادته بل كلّما ازدادت معرفته به ازدادت عظمته في نفسه إذ كان يقدّر في سلوكه عظمة الله بقدر عرفائه به فكلّما غير منزلة من منازل المعرفة علم عظمة خالقه فكمّل عقد يقيمه بذلك و علم نقصان ذاته فكمّل خشوعه و صدّن خضوعه ، واستعار لفظ الربق لما حصلوا فيه من الخشوع .

الرابع والعشرون : ولم يتوّهم الإعجاب إلى قوله : حسناً لهم : أى لم يستول عليهم ، والإعجاب : هو استعظام الإنسان نفسه عمّا يتصرّف أنه فضيلة له ، و منها ذلك الحكم هو النفس الأمارة فيتّوهـمـ الإنسـانـ أـنـ تلكـ الفـضـيـلـةـ حـصـلـتـ لهـ عنـ استـحقـاقـ وـجـبـ لهـ بـسـعـيـهـ وـكـدـهـ معـ قـطـعـ النـظـرـ عنـ وـاهـبـ النـعـمـ وـمـفـيـضـهاـ ، وـالـمـلـائـكـةـ السـماـوـيـةـ بـمـبـرـؤـونـ عنـ الـأـوـهـامـ وـأـحـكـامـهاـ غـرـقـيـ فيـ الـوـلـهـ إـلـيـهـ وـدـوـامـ مـطـالـعـةـ آـلـائـهـ وـالـإـسـكـانـ تحتـ جـالـلـ عـزـّـتهـ فـلـاـ يـسـكـنـهـ مـاـ سـلـفـ مـنـهـ مـنـ عـبـادـةـ وـلـاـ يـسـتـعـظـمـونـ مـاـ صـدـرـ عـنـهـ مـنـ خـيـرـ .

الخامس والعشرون و لم تجر الفترات فيهم على طول دّورهم ، قد ثبت أن "الملائكة السماوية دائمة التحرير لا جرامها حرّكة لا يتخلّلها سكون ولا يتكلّلها و يفترها إعياء

وَتَعْبُ، وَلِبَيَانِ ذَلِكَ بِالْبَرْهَانِ أُصُولُ مُهْسَدَةٍ فِي مَوْضِعَهَا، وَأَمَّا بِالْقُرْآنِ فَلِقُولِهِ تَعَالَى
«يَسْبِحُونَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ»^(١) وَقَدْ سَبَقَ.

السادس و العشرون : وَلَمْ تَغْضِ رَغْبَاتِهِمْ فِي خَالِفَوْا عَنْ رِجَاءِ رَبِّهِمْ . الْمُخَالَفَةُ عَنِ الشَّيْءِ
الْعَدْوُلُ عَنْهُ ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ «رَغْبَاتُ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ وَأَشْوَاقُهَا إِلَى كَمَالِهَا دَائِمَةٌ

ثَابَتَةٌ فَكَانَتْ لِذَلِكَ دَائِمَةً الرِّجَاءُ لَهَا مِنْ وَاهِبِهَا ، وَلِفَظِ الْغَيْضِ مُسْتَعَارٌ كَمَا سَبَقَ .

السابع و العشرون : وَلَمْ تَجْفَ لَطْوِلُ الْمَنَاجَاهُ أَسْلَاتُ أَسْنَتِهِمْ . طَوْلُ مَنَاجَاتِهِمْ
يَعُودُ إِلَى تَوْجِيهِ وَجْهَهُمْ دَائِمًا إِلَيْهِ ، وَاسْتَعْنَارُ لِفَظِ الْأَلْسُنَةِ وَرَشْحُ بَذْكُرِ الْأَسْلَاتِ مَلَاحِظَةٌ
لِلتَّشْبِيهِ بِأَحَدَنَا فِي مَنَاجَاتِهِ ، وَكَنْتَى بَعْدِ جَفَافِ أَسْنَتِهِمْ عَنْ دُمُّ فَتْوَرِهِمْ وَعَدْمِ لِحْقَوْقِ
الْكَلَالِ وَالْإِعْيَاءِ لَهُمْ وَظَاهِرُ أَنَّهُ لِأَلْسُنَةِ لِحْمَانِيَّةِ لَهُمْ فَلَا جَفَافَ .

الثامن و العشرون : وَلَا مُلْكُتُهُمْ إِلَى قَوْلِهِ : أَصْوَاتُهُمْ : أَئِ لَمْ تَضْعُفْهُمُ الْعِبَادَةُ فَتَنْقُطْعَ
أَصْوَاتُهُمْ فَتَضْعُفُ فَتَتَخَفَّفُ بِالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ . وَهُوَ تَنْزِيَةٌ لَهُمْ عَنِ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْعَوَارِضِ
الْبَدَنِيَّةِ مِنَ الْعَضُوفِ وَالْإِعْيَاءِ وَكَلَالِ الْأَعْصَاءِ عِنْدَ كَثْرَةِ الْأَشْغَالِ وَقَوْتَهَا . وَقَدْ مَرَّ
أَنَّ الْمَلَائِكَةَ السَّمَاوِيَّةَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ تَلْكَ الْعَوَارِضِ ، وَاسْتَعْنَارُ لِفَظِ الْأَصْوَاتِ كَمَا
اسْتَعْنَارُ لِفَظِ الْأَلْسُنَةِ .

التاسع و العشرون : وَلَمْ يَخْتَلِفْ فِي مَقَامِ الطَّاعَةِ مِنَ كَبِّهِمْ إِلَى قَوْلِهِ : رَبِّهِمْ . اسْتَعْنَارُ
لِفَظِ الْمَقَامِ مِنْ رِيشِ الطَّاَبِيرِ وَهِيَ عَشْرُ فِي كُلِّ جَنَاحٍ مَا سَبَقَ وَجْوهَهُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَكَانَ
أَهْمَّ عِبَادَاتِهِ كَمْ عُرِفَتْهُ فِي التَّوْجِهِ إِلَيْهِ ، وَلِفَظِ الْمَنَاكِبِ وَهِيَ أَرْبَعُ رِيشَاتٍ بَعْدِ الْمَقَامِ فِي
كُلِّ جَنَاحٍ لِذَوَاتِهِمْ ، وَوَجْهُ الْمُشَابِهَةِ أَنَّ الْمَنَاكِبَ تَالِيَّةٌ لِلْمَقَادِيمِ وَعَلَى نَظَامِهَا وَتَرْتِيبِهَا
لَا يَخْالِفُ صَفَّهَا وَنَسْقَهَا كَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ لَا تَخْالِفُ ذَوَاتِهِمْ وَأَجْرَاهُمْ فِي نَسْقٍ مَا أَهْمَّ
مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَمَعْرِفَتِهِ بِلِ صَافَّوْنَ لَا يَخْالِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي اسْتِقْدَامِ طَرِيقِهِمْ إِلَيْهِ وَ
لَا يَخْرُجُونَ عَنِ نَظَامِ تَرْتِيبِهِ لَهُمْ فِي التَّوْجِهِ إِلَيْهِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي الْخَطَبَةِ الْأُولَى : وَصَافَّوْنَ
لَا يَتَرَابَّلُونَ ، وَكَذَلِكَ اسْتَعْنَارُ لِفَظِ الرَّقَابِ وَلِفَظِ الثَّنَى : أَئِ لَمْ يَلْتَقِتُوا إِلَى الْرَّاحَةِ مِنْ
تَعبِ الْعِبَادَةِ فَيَقْصُرُوا فِي أَوْامِرِهِ . وَالْمَفْصُودُ نَفِي الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ عَنْهُمْ مِنَ التَّعبِ وَالرَّاحَةِ

لكونه مانع توابع هذه الأبدان.

الثلاثون: ولا تعود إلى قوله: الشهوات. قد عرفت معنى الغفلة فيما سبق. والبلاد هي طرف التفريط من فضيلة الذكاء وكلاهما من عوارض هذا البدن وبواسطته. وكذلك الشهوات وأملاك السماوية بريئتان عنها فلم يجز أن يطرأ على قصودهم لما توجّهوا له غفلة ولا بلادة حتى يكون ذلك سبباً لإعراضهم عن التوجّه فيه ولم يجز أن ترمي الشهوات هممهم بسهام خدايعها، ولفظ الانتصار مستعار لنواود جواذب الشهوة على النفس الناطقة مع كونها مؤدية لها ومردية في قرار الجحيم.

الحادي والثلاثون: قد اتخذوا إلى قوله: برغبتهم. أشار يوم فاقتهم إلى حال حاجتهم في الاستكمال إلى جوده وإن كان ذلك دائمًا فهو ذخرهم الذي إليه يرجعون وكذلك الإشارة بقوله: عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين. إلى حال الحاجة أيضًا فإنما يكون ذخيرة لهم لرجوعهم إليه فيما يحتاجون وإنما يتحقق قصدتهم له برغبتهم حال الحاجة إليه.

الثاني والثلاثون: لا يقطعون إلى قوله: ومخافته. لما كانت غاية عبادته هو الوصول إلى كمال معرفته وكانت درجات المعارف الإلهية غير متناهية لم يكن قطعهم لتلك الغاية ممكناً، ولما كانوا غرقى في محبتهم عالمين بكمال عظمته وأن ما يرجونه من تمام جوده أشرف المطالب وأرجح الملائكة، وما يخشى من انقطاع جوده ونزول حرماته أعظم المهالك والمعاطب لاجرم دام رجاؤهم له وخضوعهم في رق الحاجة إليه والفرز من حرمانه و كان ذلك الرجاء والخوف هومادة استهتارهم بلزوم طاعته التي يرجعون إليها من قلوبهم فلم ينقطع استهتارهم بلزومها.

الثالث والثلاثون: لم تقطع أسباب الشفقة عنهم فيتوانى جدهم. الشفقة: الاسم من الإشراق: أي لم ينقطع أسباب خوفهم له وأسبابه حاجتهم إلى القيام في الوجود إلى الاستكمال بجوده فإن الحاجة الضرورية إلى الغير في مطلوب يستلزم الخوف منه في عدم قيادته ويوجب الإقبال على الاستعداد بجوده بلزوم طاعته. و حاجتهم إليه دائمة فجدهم في عبادته دائم فالتوانى فيه مفقود.

الرابع والثلاثون : و لم يأسرون إلى قوله : اجتهادهم . سلب بعض أوصاف البشر عنهم فإنّ كثيراً من العابدين قد يصرفهم عن الاجتهاد في طاعة الله بسبب ما يظهر لهم من كمالات الدنيا و زينتها فـيؤثرون ما قرب من السعي في تحصيله على ما يستبعدونه من تحصيل السعادة الآخرية الباقية ، وقد عرفت أنّ ذلك من جواذب الشهوات و الغفلة عمّا وراء هذه الدار والملائكة مبرّون عن الشهوات وما يلزمها من أسر الأطماع الكاذبة لهم ، ولفظ الأسر استعارة لـقـوـدـاـلـأـطـمـاعـإـلـىـمـاـيـطـمـعـفـيـهـ .

الخامس والثلاثون : و لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم إلى قوله : رجالهم . معنى هذه الشرطية أنّهم لو استعظموا ذلك لكان رجاؤهم لثواب عبادتهم عظيمـاـ فـكـانـ لـقـوـتهـ مـاحـيـاـ لـإـشـفـاقـهـ وـخـوفـهـ مـنـهـ وـهـذـاـ كـمـاـ أـنـ إـلـإـنـسـانـ إـذـاـ عـمـلـ بـعـضـ المـلـوـكـ عـمـلاـ يـسـتـعـظـمـهـ فـإـنـهـ يـرـىـ فـيـ نـفـسـهـ اـسـتـحـقـاقـ أـتـمـ جـزـاءـ لـهـ وـيـجـدـ التـطاـولـ بـهـ وـالـدـالـةـ عـلـيـهـ فـيـهـ ذـلـكـ مـاـ يـجـدهـ مـنـ خـوفـهـ ، وـكـلـمـاـ زـدـادـ استـعـظـامـهـ لـخـدـمـتـهـ إـزـدـادـ اـعـتـقـادـهـ فـيـ قـرـبـهـ مـنـ الـمـلـكـ قـوـةـ وـبـمـقـدـارـ ذـلـكـ يـنـقـصـ خـوفـهـ وـيـقـلـ هـيـبـتـهـ لـكـنـ مـالـائـكـةـ خـائـفـونـ أـبـداـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ «ـ يـخـافـونـ رـبـهـمـ مـنـ فـوقـهـ وـمـالـائـكـةـ »ـ مـنـ خـيـفـتـهـ فـيـنـتـجـ أـنـهـمـ لـاـيـسـتـعـظـمـونـ سـالـفـ عـبـادـتـهـ .

السادس والثلاثون : و لم يختلفوا في ربّهم باستحواذ الشيطان عليهم : أى في إثباته واستحقاقه كمال العبادة وذلك لعدم سلطان عليهم وهو سلب بعض أحوال البشر كذلك قوله : ولم يفرّقـهـ إلىـ قـوـلـهـ : أـخـيـافـهـمـ . تنـزـيـهـ لـهـمـ عـنـ أـمـورـ مـنـ عـوـارـضـ الـبـشـرـيـةـ : أحـدـهـ : سـوـءـ التـقـاطـعـ وـهـوـ كـنـتـقـاطـعـ الـمـتـعـادـينـ وـتـبـاـيـنـهـمـ النـاشـيـ عنـ القـضـبـ وـالـشـهـوةـ . الثاني: غل الحسد ، وقد علمنـتـ أنـ الحـسـدـ يـلـمـةـ نـفـسـانـيـةـ تـبـعـثـ عـنـ الـبـخـلـ وـالـشـرـهـ وـمـنـبـعـهـمـاـ النـفـسـ الـأـمـارـةـ .

الثالث : تـشـعـبـ مـصـارـفـ الـرـبـ لـهـ وـالـرـبـ الشـكـوكـ وـالـشـبـهـ وـمـصـارـفـهـاـ هـيـ الـأـمـورـ الـبـاطـلـةـ الـتـيـ تـنـصـرـفـ أـذـهـانـهـ إـلـيـهاـ عـنـ الشـبـهـ أوـتـلـكـ الشـبـهـ وـالـشـكـوكـ أـنـفـسـهـاـ وـتـشـعـبـهـاـ لـهـمـ اـقـتـسـامـهـ يـحـيـثـ يـذـهـبـ كـلـ واحدـ منـ شـبـهـهـ إـلـىـ باـطـلـ ، وـقـدـ عـلـمـتـ أـنـ مـنـشـأـ الشـكـوكـ وـالـشـبـهـاتـ هـوـ الـوـهـ وـالـخـيـالـ ، وـلـمـ كـانـواـ مـبـرـئـينـ عـنـ النـفـوسـ الـأـمـارـةـ وـجـبـ تـنـزـيـهـهـمـ عـنـ هـذـهـ الـأـمـورـ الـثـلـاثـةـ ، الرابع : مـلـأـكـانـ مـعـبـودـهـمـ وـاحـدـاـ وـهـوـ غـايـةـ مـطـلـوبـهـ

كانت همهم في واحدة فلم يلتقو إلى شيء آخر ولم يفترقا فيها .
 السابع والثلاثون : فهم أسراء الإيمان . إلى قوله : ولا قبور . استعار لفظ الأسر
 ورُشح بذلك الربقة ونرّ لهم عن أن يجذبهم عن الإيمان أحد الأمور الأربع ، وقد
 سبق وجه تنزيتهم عنها .

الثامن والثلاثون : وليس في أطباقي السماوات إلى قوله : عظما . المراد أن السماوات
 مملوكة بالملائكة فين ساجد لوجه ربّه وين ساعي مجد في أمره . واعلم أن في السماء
 ملائكة مباشرة لتحريكها ملائكة على رتبة من أولئك هم الآمرؤن لهم بالتحريك فيشبهه
 أن يكون الإشارة بالساجدين منهم إلى الأمرؤن ، والسبود كناية عن كمال عبادتهم
 كناية بالمستعار ويكون الإشارة بالساعين المسرعين إلى المتأولين للتحريك فأماماً زيادتهم
 بطول الطاعة علما بربّهم فلما ثبت أن حركاتهم إنما هو شوقيّة للتشبيه بملائكة أعلى
 رتبة منهم في كمالهم بالمعارف الإلهية وظهور ما في ذواتهم بالقوة إلى الفعل . وزيادة
 عزة ربّهم عندهم عظماً بحسب زيادتهم معرفتهم له تابعة لها كما نبهنا عليه قبل .
 وبالله التوفيق .

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء .

كبس الأرض على مورِّ أمواجِ مستَفحَلة ، ولجع بحار زَاخِرَة ، تَلْتَطمُ
 أوَذِي أمواجِها ، وَتَصْطَقُ مُتقَاذَفَاتُ أثابِجَها ، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عَنْ
 هِيَاجَها ، تَخْضَعُ جَاهِيَّ الماءِ الْمُلَاطِمِ لِثَقلِ حَلَّهَا ، وَسَكَنُ هِيجِ ارْتِمَاءِ إِذْ
 وَطَتَهُ بِكُلِّكَلَّهَا ، وَذَلَّ مُسْتَخْذِيَا ، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَافِلِهَا ، فَاصْبَحَ
 بَعْدَ اصْطَخَابِ أَمْوَاجِهِ سَاجِيَّا مَقْهُورَا ، وَفِي حَكْمَةِ الذُّلِّ مُنْقَادًا أَسِيرًا
 وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ مُدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَارِهِ ، وَرَدَتْ مِنْ نَخْوَةِ باوهِ وَاعْتَلَاهِ

وَشَوَّخَ أَنْفَهُ وَسِمَوْ غُلَوَاهُ ، وَكَعْمَتْهُ عَلَى كَطْلَةِ جَرِيَّهُ ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزْفَاتِهِ
 وَلَبَدَ بَعْدَ زَيْفَانِ وَثَبَاتِهِ فَلَمَّا سَكَنَ هِيَاجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا ، وَحَمَلَ
 شَوَّاهِقَ الْجَبَالِ الشَّمْعَ الْبَذَنَعَ عَلَى أَكْنَافِهَا بَغْرِيَّابِ الْعَيْنِ مِنْ عَرَانِينَ
 أَنْوَفِهَا ، وَفَرَقَهَا فِي سُهُوبِ يَدِهَا وَأَخَادِيدِهَا ، وَعَدَلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ
 مِنْ جَلَامِيدِهَا ، وَذَوَاتِ الشَّنَائِيبِ الْشَّمْمِ مِنْ صَيَّاخِيدِهَا ، فَسَكَنَتْ مِنْ
 الْمَيْدَانِ لِرُسُوبِ الْجَبَالِ فِي قَطْعَادِهَا ، وَتَغْلَقَلَهَا مُتَسْرِبَةً فِي جَوَابَاتِ خَيَاشِيمِهَا
 وَرُوكُومَّا اعْنَاقَ سَهُولِ الْأَرْضَيْنِ ، وَجَرَائِيمَهَا ، وَفَسَحَ بَيْنَ الْجَوَوِينِ ،
 وَاعْدَ الْهَوَاءِ مُتَنَسِّماً لِسَاكِنَاهَا ، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَاقِفَهَا ، ثُمَّ
 لَمْ يَدْعُ جَرْزَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعَيْنِ عَنْ رَوَابِيهَا ، وَلَا يَجِدُ جَدَارُ
 الْأَهَارَ ذَرِيَّةً إِلَى بُلوغِهَا حَتَّى أَنْشَأَهَا نَاسِشَةَ سَحَابٍ تُحِيِّ مَوَاهِهَا ، وَتَسْتَرِخُ
 بَنَاتِهَا ، أَلْفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْرَاقِ لَعْنَهُ ، وَتَبَيَّنَ قُزْعَهُ ، حَتَّى إِذَا تَمَضَتْ بَلَةُ
 الْمَزْنِ فِيهِ ، وَالْمَعْبُرَةُ فِي كَفَفِهِ ، وَلَمْ يَنْمِ وَمِضِهِ فِي كَهْوَرِ رَبَابِهِ ، وَمَتَرَأِكَمُ
 سَحَابِهِ ، ارْسَلَهُ سَحَّا مَتَارِكًا ، قَدْ أَسْفَ هِيدِبِهِ تَمْرِيَهِ الْجَنُوبُ دَرَرَاهَاضِيَهِ
 وَدَفَعَ شَائِيَّبِهِ ، فَلَمَّا الْقَتَ السَّحَابُ بِرَكَبِهِ بَوَانِيهَا ، وَبَعَاعَ مَا سَتَقَلَتْ بِهِ مِنَ الْعَبَءِ
 الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا أَخْرَجَ بِهِمْ هَوَامِدَ الْأَرْضِ النَّبَاتَ ، وَمِنْ زُعْرَ الْجَبَالِ الْأَعْشَابَ

فَهِيَ تَبْهِجُ بِزِينَةِ رِيَاضَهَا ، وَتَزَدَّهِي بِمَا أَبْلَسَهُ مِنْ رِيَطٍ أَزَاهِيرَهَا ، وَحَلْيَةٍ
 مَاسْطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرٍ أَنْوَارَهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ بِلَاغًا لِلأَنَامِ ، وَرِزْقًا لِلأنْعَامِ ،
 وَخَرَقَ الْعِجَاجَ فِي آفَاقِهَا ، وَأَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِ طُرُقِهَا ،
 فَلِمَا مَهَدَ أَرْضَهُ ، وَانْفَذَ أَمْرَهُ ، اخْتَارَ آدَمَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ . خِيرَةُ مِنْ
 خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جَبْلَهُ ، وَاسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، وَارْغَدَ فِيهَا أَكْلَهُ وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ
 فِيمَا نَهَا عَنْهُ ، وَاعْلَمَهُ أَنِّي فِي الْأَقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعْرُضُ لِعَصِيَّتِهِ ، وَالْمَخَاطِرُ يَمْتَلِئُهُ
 فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَا عَنْهُ — مُوافَةً لِسَابِقِهِ — فَاهْبَطَهُ بِعِدَّةِ تَوْبَةٍ ، لِيُعْمَرَ أَرْضَهُ
 بِنَسْلِهِ ، وَلِيُقْرَمَ الْحِجَةُ بِهِ عَلَى عِبَادَهُ ، وَلِمَ يَخْلُمُهُمْ بَعْدَ أَنْ قُضِيَّ
 حِجَةُ رَبِّيْتِهِ ، وَيَصْلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، بَلْ تَعَاهَدُهُمْ بِالْحِجَجِ عَلَى السِّنِ
 الْخَيْرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَمَتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رسَالَاتِهِ ، قَرَنَا ، فَقَرَنَا ، حَتَّى تَمَتْ بِنَيَّنَا مُحَمَّدٌ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ — حِجَّتُهُ ، وَبَلَغَ المُفْطَعَ عَذْرَهُ وَنَذْرَهُ ، وَقَدْرَ
 الْأَرْزَاقِ فَكَثِيرَهَا وَقَلِيلُهَا وَقُسْمُهَا عَلَى الضَّيْقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِبَيْتِيْنِيْ منْ أَرَادَ
 بِمَسْوِرَهَا وَمَعْسُورَهَا ، وَلِيَخْتَرَ بِذَلِكَ الشَّكْرَ وَالصَّبَرَ مِنْ غَيْرِهَا وَفَقِيرِهَا .
 ثُمَّ قَرَنَ بِسَعْتِهَا عَقَابِيَّلَ فَاقِهَا ، وَبِسَلَامَتِهَا طَوارِقَ آفَاهَا ، وَبِفُرْجَ أَفَراحِهَا
 غَصَصَ أَتَرَاحَهَا . وَخَلَقَ الْأَجَالَ فَاطَّالَهَا وَقَصَرَهَا ، وَقَدَمَهَا وَأَخْرَهَا ،

وَوَصَلَ بِالْمُوتِ أَسْبَابَهَا ، وَجَعَلَهُ خَاجًا لِأَشْطَانِهَا ، وَقَاطَعَ لِمَأْرِقَهَا عَالِمُ
 السَّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمِرِينَ ، وَبَجُوَى الْمُتَخَافِتِينَ ، وَخَوَاطِرِ رَجَمِ الظُّلُونَ ،
 وَعَقَدَ عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ ، وَمَسَارِقَ إِيمَاضِ الْجُفُونِ ، وَمَا ضَمَنَهُ أَكْنَانُ
 الْقُلُوبِ وَغَيَابَاتِ الْغَيُوبِ ، وَمَا أَصْغَتْ لِأَسْتِرَاقِهِ مَصَائِخُ الْأَسْمَاعِ ،
 وَمَصَافِقُ الدَّرِّ ، وَمَشَائِي الْهَوَامِ ، وَرَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُؤْلَهَاتِ ، وَهَمْسِ
 الْأَقْدَامِ ، وَمَنْفَسِ الشَّمَرَةِ مِنْ وَلَائِعِ غَلْفِ الْأَكَامِ ، وَمَنْقَعِ الْوَحْوشِ مِنْ
 غَيْرِ آنِ الْجَبَالِ وَآوْدِيَّهَا ، وَمُخْتَبِي الْبَعْوضِ بَيْنِ سُوقِ الْأَبْشَارِ وَالْحَيَّهَا ،
 وَمَغْرِزِ الْأَوْرَاقِ مِنَ الْأَفَانِ ، وَمُحْطَمِ الْأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الْأَصْلَابِ ،
 وَنَاسِئَةِ النَّيْوَمِ وَمَتَلَاهِمَا ، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمَهَا ، وَمَاتَسِقِ
 الْأَعْاصِيرِ بِذِيُولِهَا ، وَتَعْفُوُ الْأَمْطَارُ بِسَيُولِهَا ، وَعُوْمَ نَبَاتِ الْأَرْضِ فِي
 كُثْبَانِ الرَّمَالِ ، وَمَسْتَقِرَّ ذَوَاتِ الْأَجْنَحَةِ بِذُرَى شَنَاخِيبِ الْجَبَالِ ، وَتَغْرِيدِ
 ذَوَاتِ الْمَنْطَقِ فِي دَيَاجِيرِ الْأَوَّكَارِ ، وَمَا اُوعَتِهِ الْأَصْدَافُ ، وَحَضَنَتْ
 عَلَيْهِ أَمْوَاجُ الْبَحَارِ ، وَمَا غَشَيَتْهُ سَدْقَةُ لَيلٍ أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ ، وَمَا
 اعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الْدَيَاجِيرِ ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ . وَأَثَرَ كُلُّ خَطْرَةٍ ، وَحَسَّ
 كُلُّ حَرَكَةٍ ، وَرَجَعَ كُلُّ كَلْمَةٍ ، وَخَرَيكَ كُلُّ شَفَةٍ ، وَمَسْتَقِرَّ كُلُّ نَسْمَةٍ ، وَمُتَقَالَ

كُل ذَرَّة ، وَهَامِ كُلْ نَفْسَ هَامَة ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرَ شَجَرَة ، أَوْ سَاقِطَ وَرَقَة ،
أَوْ قَرَارَةَ نُطْفَة ، أَوْ نُقَاعَةَ دَمَ وَمَضْعَة ، أَوْ نَاسِشَةَ خَلْقَ ، وَسَلَالَة . لَمْ يَلْحِقْهُ
فِي ذَلِكَ كُلْفَة ، وَلَا أَعْتَرْضَتْهُ فِي حَفْظِ مَا بَتَدَعَهُ مِنْ خَلْقَهُ عَارِضَة ، وَلَا
أَعْتَرْرَهُ فِي تَنْفِيدِ الْأَمْرَ وَتَدْبِيرِ الْمُخْلُوقِينَ مُلَالَةً وَلَا فَرَقةً ، بَلْ تَفَذُّ فِيهِمْ عَلَيْهِ
وَاحْصَاصُهُمْ عَدَه ، وَوَسْعُهُمْ عَدْلُه ، وَغَمْرُهُمْ فَضْلُه ، مَعْ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ
أَهْلَه .

اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَيْلُ ، وَالْتَّعْدَادُ الْكَثِيرُ ، إِنْ تَوْمَلْ خَيْرَ مُؤْمِنٍ
وَإِنْ تَرْجِعْ فَأَكْرَمْ مَرْجُو . اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسْطَتِ لِي فِيمَا لَا أَمْدُحُ بِهِ غَيْرَكَ ، وَلَا
أَنْتَ بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ ، وَلَا أَوْجَهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْحَيَاةِ وَمَوَاضِعِ الرَّيْبَةِ ،
وَعَدْلَتِ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِعِ الْأَدَمِيَّنَ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمُخْلُوقِينَ . اللَّهُمَّ
وَلَكُلُّ مُثْنَى عَلَى مِنْ أَنْتَ عَلَيْهِ مُثْوَبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ ، وَقَدْ
رَجَوْتُكَ دَلِيلًا عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ . اللَّهُمَّ وَهَذَا مَقَامٌ مِنْ أَفْرَدِكَ
بِالْتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ ، وَلَمْ يَرِدْ مُسْتَحْقًا لَهُذِهِ الْحَامِدَ وَالْمَمَدِحَ غَيْرَكَ ، وَبِي
إِفَاقَةِ إِلَيْكَ لَا يَجْبُرُ مَسْكِنَتَهَا إِلَّا فَضْلُكَ ، وَلَا يَنْعُشُ مِنْ خَلْتَهَا إِلَّا مِنْكَ
وَجُودُكَ ، فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رِضاكَ ، وَاغْتَسِنَا عَنْ مَدِ الْأَيْدِي إِلَى
سِوَاكَ : إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أقول : كبسها : أغاصها في الماء بقوّة . والملور : التردد في الحركة . ومستحللة : صائلة : والتلاطم : الترداد . والأواذى : جمع آذى وهو ماعظم من موج البحر . والاصطفاف : الترداد أيضاً . والأثباج : جمع ثيج وهو معظمها وعواليمها . وهيج الفرس : إذا غلب صاحبه ولم يملكه . والارتفاع : التقادف والترداد . والكلكل : الصدر . والمستخدنى : الخاضع . والتمعّك : التمرّغ . واصطخاب أمواجه : غلبتها وأصواتها . والساجي : الساكن . والحكمة : ما أحاط من اللجام بحنك الدابة والدحو : البسط . والتيار : الموج . والنخوة : الكبر والترفع . والبلاؤ : الفخر . وشمخ بأنفه : تكبّر . والغلواء : تجاوز الحد . وكعنته : سدت فاه . والكلطة : شدة البطنة . وهمد : سكن و خمد . والتنزق : الخفة والطيش . ولبد : لصق بالأرض ساكناً . والزيفان : التبغتر . والبذخ : العالية . والعرين : أعلى الأنف عند ملتقى الحاجبين . والسيروب : جمع سهب وهو الفلاة الواسعة . والبيد : جمع يداء وهي الفلاة أيضاً . والأخدود : الشق في الأرض . والجلاميد : الصخور . والشناخيب : رؤس الجبال والشم : العالية . والصيخود : الصخرة الصلبة . وأديمها : سطحها . وتغلغلها : دخوله في أعماقها . والتسرب : الدخول في السرب . والجوبة : الفرجة في الأرض . وجراائم الأرض : أعلىها وما اجتمع منها . وأرض جرز : لاببات بها انقطاع الماء عنها . والروابي : عوالي الأرض . والقرع : قطع السحاب الرقيقة الواحدة قزعة . والكفة بالضم : ما استطال من السحاب وما استدار . وبالكسر : الوميض واللمعان . والكتهور : العظيم من السحاب . والرباب : الغمام الأبيض . والسع : الصب . وأسف : دنامن الأرض لثقله . وهيدبه : ما تهدّب منه إلى الأرض أى تدلّى . وتمرّبه : تستخرج ما فيه من الماء والدرر جمع درّة بالكسر وهي كثرة اللبن وسائله . والأهضيب : جمع هضاب وهو جمع هضب وهو جلبات القطر بعد القطر . والشائب : جمع شؤوب وهو الرشقة القوية من المطر . والبرك : الصدر . والبواني : ما يلي الصدر من الأضلاع . وبقاع السحاب : ثقلة بالمطر . والعبء : الثقل . وجبلة زعاء : لافتتها . وتردّه : تكبّر . والربط : جمع ربطه وهي الأزاهير المنيرة . وسمطت : زينت بالسمط وهو العقد ، ومن روى شمطت بالشين المعجمة أراد خلطت . والجبلة : الخلقة . وأوعز إليه بكندا : تقدم إليه به . والعقابيل :

بقايا المرض . والترح : الحزن . والفاقة : الفقر . والخلج : الجذب والانزعاج . والأشطان : جمع شطن وهي الجنائls . والمراثير : أيضاً الجنائls اللطيفة الفتل . والتخافت : المسارّة . والرجم بالظنّ : القول عنه . والغيابة : ظلمة قعر البئر . ومصائر الأسماع : خروقها . والإصاخة: التسمع . والولائم: المداخل . والأكمام: جمع كم بالكسر وهو غالٌف الطلع . والمنقمع: محل الانقماع وهو الارتفاع . ولحاء الشجرة: قشرها . والأفنان: الأغصان . والأمشاج: النطفة المختلطة بالدم ، وتعفو: تمحو . وشناخيب الجنائls: رؤوسها . وذرائها: أعلىها . والتغريد: تردید صوت الطاير . والدياجير: جمع ديجور وهو الظلام والسدفة: الظلمة . وذر الشارق: طلمع . ورجع الكلمة: جوابها . والنقاء: نقرة يجتمع فيها الدم . واعتورته: أحاطت به . والعارفة: المعروفة . والخللة: الفقر . وأنعشـهـ: أنهضهـ من عـثرـتهـ .

واعلم أنـ هذا الفصل يشتمـل على فصولـ :

الفصل الأول: في تمجيد الله تعالى باعتبار خلقه للأرض في الماء و جملة من أحوالها وهو . إلى قوله : جواد طرقها ، وفيه أبحاث :

البحث الأول: في الاستعارات والتشبیهات وأبحاث لفظية .

الأول: استعارة لفظ الكبس لخلقـهـ لها غالـاصـاً مـعـظمـهاـ فيـ المـاءـ كماـ يـغـوصـ بـعـضـ الزـقـ المـنـفـوخـ وـنـحوـهـ بـالـاعـتمـادـ عـلـيـهـ .

الثاني: استعارة لفظ الاستفحـالـ للمـوجـ ، ووجه المشـابـهـ ماـاشـتـركـ فيـهـ المـوجـ وـالـفـحلـ منـ الاـضـطـرـابـ وـالـبـيـجانـ وـالـصـوـلـةـ .

الثالث: تشبـيهـ بالـفـحـولـ أـيـضاـ وـوجهـ الشـبـهـ ماـيـظـهـ عـلـىـ رـؤـسـ المـوجـ عـنـداـ اـضـطـرـابـهـ وـغـلـيانـهـ منـ دـغـوةـ الزـبـدـ كـمـاـ يـظـهـرـ مـنـ فـمـ الفـحلـ عـنـدـ هـيـاجـهـ .

الرابع: استعارة لفظ الجماح لحركة الماء على غير نسق واضطراب لا يملك معه تصرـيفـهـ كماـ يـجـمـعـ الفـرسـ .

الخامس: استعـارـ أـوصـافـ النـاقـفـ منـ الـكـلـكـلـ وـالـكـاهـلـ لـالـأـرـضـ وـرـشـحـ تلكـ الاستـعـارـةـ بالـوطـنـ وـالـتـمـعـنـ . وـإـنـماـخـصـ الصـدـرـ وـالـكـاهـلـ لـقـوـةـ تـهـمـاـ وـكـنـسـيـ بالـمـجـمـوعـ عـنـ إـلـحـاقـهـ بـالـنـاقـفـ .

السادس : استعار للماء لفظ الاستخاء والقبر و لفظ الحكمة والاقياد والأسر و كنَى بها عن إلحاقة بحيوان صايل قهر كالفرس وأضاف الحكمة إلى الذل إضافة للسبب إلى المسبب .

السابع : استعار لفظ النخوة ، والبأو ، وشموخ الأنف ، والغلواه ، والنزن ، والزيغان ، والوثبات للماء في هيحانه واضطرب به ملاحظة لشيئه بالإنسان المتجرر التيه في حركاته المؤذنة بتكميره وزهوه .

الثامن : استعار لفظ الأكتاف للأرض ، ووجه المشابهة كون الأرض محلاً لحمل ما يشقى من الجبال كما أن "كتف الإنسان وغيره محل" لحمل الأنفال .

التاسع : استعار لفظ العرين والأفلاعالي رؤس الجبال كنایة عن إلحاقة بالإنسان .

العاشر : كنَى بالتلغلل والتسرُّب عمَّا يتوهم من نفوذ الجبال في الأرض وغوصها فيها ، واستعار لفظ الخياشيم لتلك الأسراب الملوهومة . ولما جعل للجبال أُنوفاً جعل تلك الأسراب المتلوهم قيام الجبال فيها خياشيم .

الحادي عشر : استعار لفظ الركوب للجبال والأعناق للأرض كنایة عن إلحاقة ما بالقاهر والمقهور .

الثاني عشر : استعار لفظ الوجدان والذرية للجدائل كنایة عن إلحاقة بالإنسان عديم الوسيلة إلى مطلوبه .

الثالث عشر : الضميران في تغلغلها وركوبها والضمير في خياشيمها يعود إلى الأرض وبباقي الضمائر ظاهر .

الرابع عشر : تجوَّز في إسناد لفظ الإحياء والاستخراج إلى السحاب إذ المخرج هو الله تعالى .

الخامس عشر : كنَى بعدم النوم عن عدم إخفاء و ميض البرق في السحاب كنایة بالمستعار .

السادس عشر : استعار لفظ الهدب ل قطرات المطر المتصلة يتلو بعضها بعضاً ملاحظة لشيئها بالخيوط المتسللة [المستدلية خ] .

السابع عشر : استعار لفظ الدبر والأهضيب وهي الجلباب للغمam كنادة عن إلحاقة بالناقة .

الثامن عشر : أنسد المارى إلى الجنوب مجازاً أو لأنّ لها سبيلاً ما في نزول الغيث وإنما خصّ الجنوب لأنّها في أكثر البلاد حارة رطبة أمّا الحرارة فلانّها تأتي من الجهة المتسخنة بمقارنة الشمس ، وأمّا الرطوبة فلانّ البخار أكثرها جنوبيّة والشمس تفعل فيها بهوًّا ويتبخّر عنها أبخرة تختلط الرياح وإذا كان كذلك كان الجنوب أولى بالذكر من وجهين : أحدهما : أنها أكثر استصحاباً للأبخرة فذلك كان السحاب أكثر انعقاداً معها وصاحبة لها الثاني : أنها حرارة تفتح المسام ، ولرطوبتها ترخي فكان درور المطر عنها أكثر .

التاسع عشر : استعار لفظ البرك والبواني للسحاب وأنسد إليه إلقاء كنادة عن إلحاقة بالجمل الذي أثقله الحمل فرمي بصدره إلى الأرض .

العشرون : نسب الابتهاج والإزدهاء واللبس إلى الأرض ذات الأزاهير مجازاً ملاحظة لشبهها باملأة المتبرجحة بما عليها من فاخر الملبوس وجميل الثياب .

البحث الثاني : أنّ مقتضى الكلام أنّ الله خلق الماء قبل الأرض ثمّ دحاهما فيه وسكن بها مستقحل أمواجه ، وهذا مما شهد به البرهان العقليٰ فإنّ الماء مساكن حاويّاً لأكثر الأرض كان سطحه الباطن المماس لسطحه الظاهر مكاناً لها وظاهر أنّ للمكان تقدماً باعتبار ما على المتمكن فيه وإن كان اللفظ يعطى تقدّم خلق الماء على خلق الأرض تقدّماً زمانياً كما هو المقبول عند السامعين .

البحث الثالث : أنه أُشير إلى كونها مدحوة في القرآن الكريم أيضاً «والأرض بعد ذلك دحيها » مع أنّ الأرض كررة كما ثبت بيانه في علم الهيئة . فلابدّ من التأويل وقد نبهنا إليه في قوله : اللهم داحي المدحوّات ، وقد ورد في الخبر : أنّ الأرض دحيت من تحت الكعبة . قال بعض العارفين : الإشارة بالكعبة إلى كعبة وجود واجب الوجود التي هي مقصد وجوه المخلصين التي جعلت هذه الكعبة في عالم الشهادة مثلاً لها ودحوها من تحتها عبارة عن وجودها عن ذلك المبدء .

البحث الرابع : الإشارة إلى خلق الجبال فيها وكونها سبباً لسكنها . وللناس في تكوين ما تكون من الجبال فيها وجوه : أحدها : أنه قد يكون عن بخار زالت مياها . الثاني : قد يكون عن زلزلة فصل قطعة على ناحية فارتفعت . الثالث : قد تكون عن رياح جمعت بهبوبها تراباً فتراكم وعلا . الرابع : قد تكون لعمارات تراكمت فتخرّبت . فاما كونها أسباباً لسكن الأرض فقد سبقت الإشارة إليه في الخطبة الأولى ، وأعلم أن البرهان مطابق على الشهادة بسكنها كما أُشير إليه في مظانه .

البحث الخامس : في تفجير ينابيع العيون في الجبال وغيرها ، وقد أشار العلماء إلى أسبابه فقالوا : إن "الأدخنة والأبخرة ما يحتبس منها تحت الأرض و فيه ثقب و فرج فيها هواء تبرّد الأبخرة والهواء فيصير ماء فما له قوّة و مدد يتقدّر عيوناً و يجري على الولاء لعدم مدخل الهواء بين الخارج وما يتصل به و يتبعه ، وما لا مدد له من العيون يركد ، وما لمدد إلا أن "أجزاءه مبددة والأرض واهية لا تحتاج إلى مقاومة يتحصل منه القنوات ، وماء البئر أيضاً من قبيل ماله مدد لكنه لم يجد سبيلاً إلى أحد الجوانب لعدم رخواة أرضه فخالف القنوات . وإنما خص الجبال بتقدّر العيون منها لأن العيون أكثر ما يتقدّر من الجبال والأماكن المرتفعة و ذلك لشدّة احتقان الأبخرة تحتها بالنسبة إلى سائر الأماكن الهاطلة الرخوة فإن "الأرض إذا كانت رخوة نفخت البخار عنها فلا يكاد يجتمع منه قدر ما يعتقد به و لأن "هذا التخصيص أدل على حكمه الصانع وعنایته بالخلق . وهو في معرض تمجيده و تعديده آلة .

البحث السادس : أنه أعدّ الهواء لساكنيها ، وأعلم أنّه سببها كما جعل الهواء عنصراً لأبدان الحيوان وأرواحه البدائية كذلك جعله مبدأ يصل إلى الأرواح و يكون علّة لصلاحها و بقاءها بالتعديل وذلك التعديل يكون بفعلين : أحدهما : التزوّيج ، و الثاني : التفتية . أمّا التزوّيج فهو تعديل مزاج الروح الحارّ إذا أفرط بالاحتقان في الأكثـر فـإنـ الهـواءـ الـذـيـ يـحيـطـ بـناـ أـيـرـدـ بـكـثـيرـ مـنـ ذـلـكـ المـزـاجـ فـإـذـاـ وـصـلـ إـلـيـ بـاستـشـاقـ الـرـيـةـ وـ مـنـ مـسـامـ مـنـافـسـ النـبـضـ وـ صـدـمـهـ وـ خـالـطـهـ منـعـهـ عنـ الـاسـتـحـالـةـ إـلـىـ النـارـيـةـ الـاحـتـقـائـيـةـ الـمـؤـدـيـةـ إـلـىـ سـوـءـ مـزـاجـ يـزـولـ بـهـ عـنـ الـاسـتـعـدـادـ لـقـبـولـ التـأـثـيرـ الـنـفـسـانـيـ الـذـيـ

هو سبب الحياة، وأما التنفس فهي باستصحابه عند رد النفس لما سلمته إليه القوة المميزة من البخار الدخاني الذي نسبته إلى الروح نسبة الخلط الفضلي إلى البدن فكما أن التعديل هو بورود الهواء على الروح عند الاستنشاق فالتنفسية بدوره عنه عند رد النفس وذلك أن الهواء المستنشق إنما يحتاج إليه في تعديله أوّل وروده لكونه بارداً بالفعل فإذا استحال إلى كيفية الروح بالتسخين لطول مكثه بطلت فايدهه فاستغنى عنه واحتياج إلى هواء جديد يدخل ويقوم مقامه فدعت الضرورة إلى إخراجه لا خلاه المكان لمعاقبه وليندفع معه فضول جوهر الروح . فهذا معنى قوله تعالى : وأعد الهواء متنسما لساكتها . واعتبار إعداده لمنفعة الحيوان أعم مما ذكرنا فإنه أيضاً معد لسائر الأمزجة المعدنية و النباتية و الحيوانية التي يحتاج الإنسان في بيئتها إليها و كونه عنصراً لها ومعتبراً في بيئتها . وعند ملاحظة هذه المنافع عن الهواء يظهر أثر نعمة الله به .

البحث السابع : في إخراجه تعالى أهل الأرض إليها بعد تمام مرافقها كما قال تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأبنتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معاش و من لستم له برازقين »^(١) والإشارة بأهلها المخرجين إليها إلى الحيوان مطلقاً .

وأعلم أنّ أوّل ارتقاهم بها أن جعلها قراراً لهم صالحأ للسكنى عليها كما قال تعالى « الذي جعل لكم الأرض فرائشاً ولكونها فرائشاً شرائيطاً : أحدها : أن تكون ساكنة ليصح الاستقرار عليها و التصرف فيها بحسب الاختيار و موافقة المصلحة دون كونها متحركة .

الثاني : أن تكون خارجة من الماء وذلك أن الإنسان وغيره من الحيوان البرية لا يمكنه أن يعيش في الماء فاقتضت عنایة الحق سبحانه بالحيوان أن أبرز بعضها من الماء ليعيش فيه و يتصرف عليه .

الثالث : أن لا يكون في غاية الصالحة كالحجر و إلا لakan النوم و المشي عليها مولما ، وأيضاً لم يكن لينبت فيها أنواع النبات والأشجار ، وأيضاً كانت تسخن في الصيف

كثيراً و تبرد كثيراً في الشتاء فما كانت تصلح لسكنى الحيوان ، وأيضاً كان يتعدّد رحافها و ترکيب بعضها ببعض .

الرابع : أن لا يكون في غاية الرخواة كلامه و غيره من الماءات التي يغوص فيه إلا إنسان .

الخامس : أنه سبحانه لم يخلقها في غاية الشفافية و اللطافة فإنها إن كانت مع ذلك جسمًا سيسال كالهواء لم يتمكّن من الاستقرار عليه و إن كان جسمًا ثابتاً صيفاً يرافق احتراق الحيوان و ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس عليها كما يحترق القطن إذا قرب من المرايا المحاذية للشمس والبلور لكنه خلقها غراء ليستقر النور على وجهها فيحصل فيها نوع من السخونة ، و خلقها كثيفة لئلا تنعكس الأشعة منها على ما فيها فتحرقه فصارت معتدلة في الحر و البرد تصلح أن تكون فراشاً و مسكننا للحيوان .

المنفعة الثانية : خلق الجبال فيها و تنجيدها بالماء كما سبقت الإشارة إليه .

المنفعة الثالثة : ما يتولد فيها من المعادن و النبات و الحيوان وفي أنواع كل من هذه الموجودات و اختلاف أصنافه وألوانه و روائحه و طعمه و لينه و صلابته و ملائسته و خشونته ما لا يحصى من المنافع التي يحتاج إليها إنسان في بيته و صلاح حاله .

المنفعة الرابعة : كونها أصلاً لبدن الإنسان ، و ذلك أنَّ الماء لرقته و رطوبته لا يحفظ الشكل و التصوير فإذا خلط بالتراب حصل له قوام و استمساك و حصل قبول الأشكال و التخطيط كما قال تعالى « إني خالق بشراً من طين » .

المنفعة الخامسة : قبولها للحياة بعد الموت كما قال تعالى « و آية لهم الأرض الميتة أحينها » .

البحث الثامن : في تمجيده تعالى باعتبار إنشائه للسحاب و البرق ، و النظر في وجه الحكمة فيه و في أصله و في حياة الأرض به : أمّا وجه الحكمة في إنشائه فكونه مادةً لما ينبت في الأرض الجرز مما هو قوام بدن الحيوان و غذاؤه كما أشار إليه تعالى بقوله : ثم لم يدع جرز الأرض التي تقصري مياه العيون و الأنهر عنها و لا تجد جداول الأرض ذريعة إلى بلوغها إلى قوله : وجعل ذلك بالإنعام و رزقاً للأنعام . و نحوه قوله

تعالى «أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفالاً يبصرون»^(١).

البحث التاسع : في تمجيده باعتبار تخرقه للفجاج في آفاقها : أى الطرق الواسعة في نواحيها كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجاجاً سِبْلاً لِعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »^(٢) ثم باعتبار إقامته المثار للسائلين فيها . والإشارة بالثار إما إلى النجوم كما قال تعالى « وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » أو إلى العجائب .

الفصل الثاني : في تمجيده تعالى باعتبار خلقه لأدم و اختياره له و إتمام نعمته عليه ، و مقابلته بالعصيان و مقابلة عصيانه بقبول توبته و إهاباته إلى الأرض و إكرام ذرته بعد بعثة الأنبياء منهم و إليهم و قسمته بينهم معيشتهم و آجالهم بالقلة والكثرة و ابتلاء لهم بذلك ، و هو من قوله : فلما مهد أرضه وأنفذ أمره . إلى قوله : وقطعوا طرائـر أقرانها ، و أعلم أن الكلام في قصة آدم عليه السلام قد سبق في الخطبة الأولى مستوفـي فلا نعيده غير أنـ في هذا الكلام فوائد :

الفائدة الأولى : معنى قوله : مهد أرضه : أى جعلها مهادأ كقوله تعالى « ألم يجعل الأرض مهادأ » أو جعلها مهادأ كقوله تعالى « جعل لكم الأرض مهادأ » وعلى التقدير الأول أراد أنه لما خلقها بحيث يسهل على العباد أن يتصرّفوا فيها بالعقود و القيام و الزراعة و سائر جهات المنفعة و أنفذ أمره في خلق آدم خلقه بذلك ، وعلى التقدير الثاني يكون لفظ المهد استعارة لها ملاحظة لتشبيهها بمهد الصبي في كونه محلـ الراحة و النوم .

الفائدة الثانية : قوله : وأنفذ أمره : أى في إيجاد مخلوقاته و تمامها فحكم على العالم بالتمام باختيار نوع الإنسان الذي هو تمام دائرة الوجود فقال له كن فكان .

الفائدة الثالثة : قوله : خيرة من خلقه نصب على الحال و يحتمل النصب على المصدر و الشاهد على كونه خيرة الله من خلقه قوله تعالى « إن الله اصطفى آدم » و قوله « و لقد كرمنا بني آدم و حملناهم في البر والبحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير

مِنْ خَلْقَنَا تَفْضِيلًا^(١) وَبِيَانِ هَذَا التَّكْرِيمِ مِنْ وَجْهِنَا :

أَحَدُهُمَا : قَالَ أَبُو يَزِيدَ الْبَسْطَامِيُّ : إِنَّ أَنْوَاعَ كَرَامَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَقِّ الْبَشَرِ غَيْرَ مُتَنَاهِيَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَإِنْ تَعْدَ وَانْعِمَّةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا » هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجَالِ أَمَّا التَّفْصِيلُ فَمِنْ وَجْهِهِ :

الْأُولَى : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَمْطِرُ كُلَّ سَاعَةٍ عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ مَطْرَ الْكَفَايَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبُهُ » .

الثَّانِي : أَنَّهُ يَمْطِرُ كُلَّ سَاعَةٍ عَلَى الْمُطَيَّعِينَ مَطْرَ الْمُودَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى « سِيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنَ وَدًّا »^(٢) .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ يَمْطِرُ عَلَى الْمُجْتَهِدِينَ مَطْرَ الْهُدَايَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي نَهْدِيْنَهُمْ سَبِلَنَا »^(٣) .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ يَمْطِرُ عَلَى الشَّاكِرِينَ مَطْرَ الزِّيَادَةِ كَمَا قَالَ « لِئَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدْنَكُمْ » .

الخَامِسُ : أَنَّهُ يَمْطِرُ عَلَى الْمُتَذَكِّرِينَ مَطْرَ الْبَصِيرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا هُمْ مُبَصِّرُونَ »^(٤) .

الثَّانِي : أَنَّ التَّكْرِيمَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ إِمَّا بِأَحْوَالِ دَاخِلَةٍ فِي الْإِنْسَانِ أَوْ خَارِجَةٍ عَنْهُ وَالْمُخْرَجَةُ فِيهَا إِمَّا بَدِيَّةً أَوْ غَيْرَهَا: أَمَّا الْبَدِيَّةُ الَّتِي أَكْرَمَ بِهَا فَأُمُورٌ الْأُولَى : الصُّورَةُ الْحَسَنَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَصُورَكُمْ فَأَحْسِنُ صُورَكُمْ » .

الثَّانِي : حَسْنُ الْقَادِمَةِ وَالتَّعْدِيلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى « لَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا فِي أَحْسَنِ تَوْبِيمْ » وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْءَ كَلَمَا كَانَ أَكْثَرَ عَلُوًّا وَارْتِفَاعًا كَانَ أَشْرَفَ فِي نَوْعِهِ فَإِنَّ أَحْسَنَ الْأَشْجَارِ أَعْلَاهَا امْتِدَادًا .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ أَكْرَمَهُ بِتَمْكِينِهِ مِنَ الْقِيَامِ وَالْقَعْدَةِ وَالْاسْتِلْقَاءِ وَالْابْطَاحِ وَالْاضْطِبَاجِ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى رَكَبَ الْخَلْقَ عَلَى أَصْنَافِ أَرْبَعَةٍ : أَحَدُهُمَا : مَا يُشَبِّهُ الْقَائِمِينَ كَالْأَشْجَارِ، وَثَانِيهِمَا : مَا يُشَبِّهُ الرَّاكِعِينَ كَالْبَهَائِمِ، وَ ثَالِثُهُمَا : مَا يُشَبِّهُ السَّاجِدِينَ كَالْحَشَرَاتِ الَّتِي تَدْبُّ عَلَى وُجُوهِهَا وَبَطْوَنِهَا، وَمِنْهَا مَا يُشَبِّهُ الْقَاعِدِينَ كَالْجَبَالِ ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ إِنْسَانًا

(١) ١٧ - ٧٢ . (٢) ١٩ - ٦٩ . (٣) ٦٩ - ٢٩ . (٤) ٤٠ - ٦٦ .

قادرًا على جميع هذه الهيئات ، ومكنته من ذكره على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى «الذين يذكرون الله قياماً و قعوداً و على جنوبهم»^(١) وأما الأحوال التي أكرم بها غير بدنية فـ فـ مور :

أحدها : الروح التي هي محل العلم بأشرف الموجودات و مبدئها و هو الله تعالى كما قال «و نفح فيه من روحه» و شرفه باضافة روحه إليه ، و بهذا التشريف تميّز عن سائر الموجودات في هذا العالم .

الثاني : العقل و شرفه من وجوه :

الأول : روى أن الله تعالى أوحى إلى داود إذا رأيت عاقلا فكن له خادماً .

الثاني : قول الرسول ﷺ : أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدب فأدبر فقال : وعزّتني وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم على منك ، بـك آخذـوكـ أـعـطـيـ وـبـكـ أـثـيـبـ وـبـكـ أـعـاـقـبـ . وـاعـلـمـ أـنـ للـعـقـلـ بـدـاـيـةـ وـنـهـاـيـةـ وـكـلـاهـماـ يـسـمـيـانـ عـقـلاـ :ـ أمـاـ الـأـوـلـ :ـ فـهـوـ الـقـوـةـ الـمـهـيـنـةـ لـلـعـلـومـ الـكـلـيـةـ الـضـرـورـيـةـ كـمـاـ لـلـطـفـلـ وـهـوـ الـمـشـارـ إـلـيـهـ بـقـوـلـ النـبـيـ ﷺ ،ـ وـالـثـانـيـ :ـ الـعـقـلـ الـمـسـتـفـادـوـهـ وـالـمـشـارـإـلـيـهـ بـقـوـلـ رـبـ الـفـلـقـ لـعـلـىـ ﷺ :ـ إـذـاـ تـقـرـبـ النـاسـ إـلـىـ خـالـقـهـمـ بـأـبـوـابـ الـبـرـ فـتـقـرـبـ أـنـتـ إـلـيـهـ بـعـقـلـكـ تـسـبـقـهـمـ بـالـدـرـجـاتـ وـالـزـلـفـيـ عـنـ النـاسـ فـيـ الدـنـيـاـ وـعـنـ دـلـلـهـ فـيـ الـآـخـرـةـ .

الثالث : العلم و الحكمة التي هي ثمرة العقل كما قال تعالى «يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين اُوتوا العلم درجات»^(٢) و قال «يؤتي الحكمة من يشاء و من يؤتى الحكمة فقد أُوتى خيراً كثيراً و ما يدرك إلا أولو الألباب»^(٣) وسماته حياة و نوراً فقال «أو من كان ميتاً فاحييـناهـ وـجـعـلـنـاـ لـهـ نـورـاـ يـمـشـيـ بـهـ فـيـ النـاسـ»^(٤) وأما التكreme الخارجية عنه فـ فـ مور :

أحدها : أنه خلق متساوياً من فضة له فقال : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » و قال : « و سخر لكم ما في السماوات و ما في الأرض جميعاً »^(٥) ففرش الأرض و جعل السماء سقفاً محفوظاً و جعل ما أخرج من الأرض رزقاً له و ما أرسله من السحاب من ماء ماءً ماءً لذلك كما قال تعالى « وأنزل من السماء ماء فآخرجه به من التمرات رزقاً لكم

(١) ١٨٨ - ٣ (٢) ٥٨ - ١٢٢ (٣) ٦٤ - ٢٢٢ (٤) ١٢٢ - ٦ (٥) ١٨٠ - ٧

و سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره و سخر لكم الأنهار »^(١) و أكرمه بخلق الشمس و القمر و النجوم كما قال « و سخر لكم الشمس و القمر دائرين و سخر لكم الليل و النهار » و قوله « و جعل لكم النجوم لتتبدوا به في ظلمات البر و البحر » و قال : « و لتعلموا عدد السنين و الحساب »^(٢) و أكرمه بخلق الأنعام يجعل منها غذاء و ملبسه و راحتة و مجاله و زينته فقال « و الأنعام خلقها لكم فيها دفء و منافع و منها تأكلون و لكم فيها مجال حين تربحون و حين تسرحون » إلى قوله « و الخيل و البغال والحمير لتركبوها و زينة و يخلق ما لا تعلمون »^(٣) .

الثاني : روى عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير قوله تعالى « ولقد كرّمنا بني آدم » أنه قال : بالدعوة إلى الجنة كما قال « والله يدعو إلى دار السلام » .

الثالث : أنه أكرمه بتخسيـر قلوبهم معرفته وأسنتهـم لشهادـته وأبدانـهم لخدمـته فشرـفهم بتـكـلـيفـه وبعـثـةـ الـأـبـيـاءـ إـلـيـهـمـ مـنـ أـنـفـسـهـمـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ « لـقـدـ جـائـكـمـ رـسـولـ مـنـ أـنـفـسـكـمـ عـزـيزـعـلـيـهـ مـاعـنـتـمـ »^(٤) ثـمـ جـعـلـ آـدـمـ وـ الـأـبـيـاءـ مـنـ ذـرـيـتـهـ أـكـرـمـ عـبـادـهـ لـدـيـهـ فـجـابـهـ بـالـنـبـوـةـ وـ الرـسـالـةـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ « إـنـ اللـهـ اصـطـفـيـ آـدـمـ وـ نـوـحـاـ وـ آـلـ إـبـرـاهـيمـ وـ آـلـ عـمـرـانـ عـلـىـ الـعـالـمـيـنـ ذـرـيـتـهـ بـعـضـهـاـ مـنـ بـعـضـ »^(٥) ثـمـ فـضـلـ أـوـلـيـ العـزـمـ مـنـهـمـ فـقـالـ : « وـاصـبـرـ كـمـاـصـبـرـ أـوـلـوـ العـزـمـ مـنـ الرـسـلـ » ثـمـ فـضـلـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ وـهـوـالـخـيلـ وـالـكـلـيمـ وـالـرـوـحـ وـالـحـبـيبـ فـقـالـ « تـلـكـ الرـسـلـ فـضـلـنـاـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ مـنـهـمـ مـنـ كـلـمـ اللـهـ وـ رـفـعـ بـعـضـهـمـ درـجـاتـ وـ آـتـيـنـاـ عـيـسـىـ بـنـ مـرـيـمـ الـبـيـنـاتـ وـ آـيـدـنـاهـ بـرـوحـ الـقـدـسـ »^(٦) ثـمـ فـضـلـ عـمـدـ الـقـبـطـ علىـ الـكـلـ » فـقـالـ « وـ كـانـ فـضـلـ اللـهـ عـلـيـكـ عـظـيـمـاـ »^(٧) وـ جـعـلـهـ غـاـيـةـ طـيـنـتـهـ وـ خـاتـمـ كـمـالـهـ فـقـالـ « وـلـكـنـ رـسـولـ اللـهـ وـخـاتـمـ النـبـيـينـ »^(٨) .

الفائدة الرابعة : قوله : و جعله أول جيلته إشارة إلى أن آدم أول شخص تكون في الوجود من نوع الإنسان ، و قوله : والمخاطرة بمنزلته : أى عند الله و كونه مستحقاً للقرب منه ، و قوله : موافاة سابق علمه إشارة إلى أن وقوفه في الوجود يقدر عن ضابط القلم

(١) ١٢٩ - ٦ . (٢) ١٧ - ١٣ . (٣) ١٦ - ٨ . (٤) ٤ - ٦ .

(٥) ٤٠ - ٣٣ . (٦) ٢ - ٢٥٤ . (٧) ١٤ - ١٢ . (٨) ٣٠ - ٣ .

والقضاء الإلهي” السابق .

الفائدة الخامسة: قوله : فأهبطه بعذالتوبة . من قال: إن ”المراد آدم هو نوع النفوس البشرية وقد ثبت أنه حادث أو أنه هو الشخص الأول منها قال: إن التوبة قبل الإهاب هي التوبة بالقوه المعلومة لله من عصاة أولاد آدم التائبين إليه قبل إهاب نفوسهم من درجات عرقانه ، وإلقات وجوههم إلى عمارة الأرض ، والاشتغال بالحرث والنسل ، والأنباء عَلَيْهِمَا يرجعون عن المباحثات إلى ما هو الأولى والأهم من عبادة الله و مطالعة أنوار كُلِّيَّةِ كبرياته و يعدون ما رجعوا عنه ذنوباً ، ورجوعهم عنه توبة كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ: إنَّه لِيغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً ، وليس ذلك المستغفر منه إلا اشتغال ذهنه بتدبير أمور الأرض و عماراتها و اشغاله بذلك عن الخلوة بالله واستشراف أنوار قدسه .

الفائدة السادسة: قوله : ولقيم الحجة به على عباده الذين بعث آدم حجة عليهم أما أولاده الموجودون في زمانه والمنقول أنه مات عنأربعين ولد ، أو من بلغته سننته منهن بعد وفاته والمنقول أن الله تعالى أنزل من الأحكام تحريم الميتة والمدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في أحدي وعشرين ورقة و هو أول كتاب كان في الدنيا أجرى الله عليه الألسنه كلها .

الفائدة السابعة: قوله : ولم يخلهم بعد أن قبضه مما يؤكّد عليهم حجّة ربوبيته : أي أن حجّة ربوبيته قائمة عليهم في كيفية تخليقه لهم ، وخلق ما يستدلّون عليه بهمن صنعه كما قال تعالى « سُنْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » ^(١) الآية وغيرها من الآيات . وإنما يكون بعثة الأنبياء مؤكدة لتلك الحجّج مذكرة للغافلين عنها بها ومنتبه على وجودها وموصلة بينهم وبين معرفته بما جاءت به من الكتب المنزلة والسنن الشرعية ، وقوله : بلغ المقطع عذرها ونذرها: أي إعذاره إلى الخلق وإنذاره لهم بلغ الغاية . ومقطع كل شيء غايتها .

الفائدة الثامنة: تقدير الله أوزانهم تقسميه لها وإعطاء كل مخلوق ما كتب له في اللوح المحفوظ منها من قليل وكثير و ضيق وواسع ومتيسّر ومتعرّ معاقبة الأضداد

عليهم من تنفيض سعة الغنى بلواحق الفقر والفاقة كمال قال : و بينما الإنسان في ملكه أصبح محتاجاً إلى الفلس . وكذلك الحاقة السلامة في النعم بطوارق الآفات من غرق أو حرق أو غصب ظالم وغلب غاشم و كذلك وسعة الأرزاق وفرج أفراحها وتکديرها بغضص أحزاناها وأتراها ثم خلقة الآجال متفاوتة بالطول والقصر والتقدم والتاخر .

الفائدة التاسعة : تکديره للموت متصلة بأسبابها ، ولما كان الأجل عبارة عن وقت ضرورة الموت وكانت أسباب حلول تلك الآفات هي بعض الأمراض أو القتل مثلاً لاجرم صدق أنَّ الموت الذي هو عبارة عن مفارقة الأرواح لأجسادها متصلة بتلك الأسباب ، واستعارة لفظ الخليج وهو الجذب للموت ، ورشح بذلك الأشيطان ، ووجه المشاهدة ما يستلزم الموت من قرب الأجل كما يستلزم الجاذب من قرب المجنوب إليه فقد رأى الموت جاذباً للأجل بالجبار كما يجذب بها الإنسان ما يريد ، وأمّا كونه قاطعاً ملائكة أفرانها فاستعارة أيضاً لفظ الملائكة لأسباب العلاقة بين افتراق الآجال وهم المتقاربون في الزمان الواحد الذي يتصل بهم الأجل وتلك الأسباب كالصدقة والأخوة وساير أسباب العلاقة بين الناس ، وظاهر كون الموت قاطعاً لتلك الملائكة .

الفائدة العاشرة : أنه ^{عَلَيْكُمْ} جعل قسمة الله تعالى للأرزاق وتقديرها بالكثرة والقلة والضيق والسعنة صورة ابتلاء من الله للشكرا من الأغنياء والصبر من الفقراء وقد أشرنا في قوله : ألا إنَّ الدنيا دار لا يسلم منها إلَّا فيها . إلى أنَّ المراد بالإبتلاء من الله معاملته تعالى لعباده معاملة المبتلين المختبرين لأنَّه سبحانه عالم الخفيات والسرائر فلا يتصور في حقه الاختبار حقيقة ؛ إلَّا أنا نزّيده هيئنا بياناً فنقول : إنَّ العبد إذا تمكَّن في خاطره أنَّ ما يفعله الله من إفاضة نعمه عليه أو حرمانه لها ابتلاء لشكراً أو صبره فشكراً أو صبر حصل من شكره أو صبره على ابتلاءه ملكات فاضلة في نفسه يستعد بها لمزيد الكمال وتمام النعمة كما قال تعالى « لئن شكرتم لا زيدنكم » وقال « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربِّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ^(١) وأمّا التحقيق في أمثل هذه القسمة من ضيق

رزق أوسعة أو طول أجل أو قصره أو معاقبته شدة لرخاء وحزناً لفرح فهو أن "لكل واحد من هذه الأمور أسباب قد تخفي على من تعرّض له ولا بدّ من انتهائها إلى قضاء الله فماعداً منها خيراً فهو داخل في الإرادة الكلية للخير المطلق بالذات وممّا شرّاً فداخل في القضاء الإلهي" بالعرض كما علم ذلك في مطانبه، و بالله التوفيق .

الفصل الثالث : في تمجيده سبحانه كونه عالماً بالأشياء وعدّ من جزئياتها جملة هي من قوله: عالم السرّ من ضمائر المضمرين إلى قوله: أُنَا شَهَدْتُ خلق وسلاة . ولنشر إلى ماعساه يشكل من ألفاظه :

الأول : خواطر رجم الظنوـن . لما كان الخاطر الظني للإنسان يتعلق بمطـنـون لا محالة بعد أن لم يكن أشبهـهـ تعلـقـهـ بـهـ الرـجـمـ وـهـ الرـهـيـ بالـحـجـرـ وـنـحـوهـ فـاستـعـيـرـ لـفـظـهـ لـهـ وإـنـماـ خـصـ "ـالـظـنـ"ـ بـذـلـكـ دـوـنـ الـعـلـمـ لـأـنـ كـثـيرـاـ ماـ يـظـنـ"ـ ماـ لـاـ يـجـوزـ ظـنـاـ غـيرـ مـطـابـقـ كـمـاـ يـظـنـ"ـ بـعـضـ النـاسـ ماـ يـقـبـحـ مـنـهـ وـيـصـلـ إـلـيـهـ بـسـبـبـهـ أـذـىـ وـإـنـ لـمـ يـكـنـ صـدـقاـ فـكـانـ أـشـبـهـ الأـشـيـاءـ بـرـمـيـهـ بـالـحـجـرـ المـسـلـزـمـ لـأـذـاهـ .

الثاني : عقد عزمـاتـ اليـقـنـ مـاـ انـعـقـدـ فـيـ النـفـسـ مـنـ العـزـمـ عـنـ يـقـنـ .

الثالث : وـمـسـارـقـ إـيـمـاضـ الجـفـونـ : لما أـشـبـهـ شـعـاعـ البـصـرـ البرـقـ فيـ وـمـيـضـهـ وـاخـتـفـائـهـ عندـ فـتـحـ الجـفـونـ وـطـبـقـهاـ استـعـارـ لـفـظـ الـوـمـيـضـ لـبـرـوـزـهـ وـلـفـظـ المـسـارـقـ لـخـارـجـهـ .

الرابع : استـعـارـ لـفـظـ الـأـكـنـانـ لـلـقـلـوبـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ مـاـ أـخـفـتـهـ مـنـ الـأـسـرـارـ ،ـ وـلـفـظـ الـغـيـابـاتـ لـلـغـيـوبـ ،ـ وـوـجـهـ الـمـشـابـهـ كـوـنـ الـقـلـوبـ حـافـظـةـ كـالـبـيـوتـ ،ـ وـكـوـنـ الـظـلـمـاتـ مـانـعـةـ مـنـ إـدـرـاكـ الـمـبـصـراتـ كـمـاـ تـمـنـعـ الـغـيـوبـ إـدـرـاكـ مـاـفـيهـ .

الخامس : مـصـائـفـ الذـرـ وـمـشـاتـيـ الـهـوـامـ"ـ : بـيـوـتهاـ وـإـشـراـبـهاـ الصـيفـيـةـ وـالـشـتـوـيـةـ مـنـ بـطـنـ الـأـرـضـ الـوـاقـيـةـ لـهـاـ حـرـ"ـ الصـيفـ وـبرـدـ الشـتـاءـ .ـ وـرـجـعـ الـحـنـينـ مـنـ الـمـوـلـيـةـ:ـ تـرـدـيـدـ صـوـتـ الشـكـلـيـ فـيـ بـكـائـنـهاـ وـحـنـينـهاـ إـلـىـ مـنـ فـقـدـتـهـ .

السادس : ولـائـجـ غـلـفـ الـأـكـمـامـ .ـ إـنـمـاـ حـسـنـتـ إـلـيـاضـافـةـ هـنـاـ لـأـنـ"ـ كـلـ كـمـ"ـ غـلـافـ ولاـ يـنـعـكـسـ فـجـازـ تـخـصـيـصـ الـعـامـ"ـ بـإـلـاـضـافـةـ إـلـىـ بـعـضـ جـزـئـاتـهـ .ـ

السابع : محـطـ الـأـمـشـاجـ:ـ محلـ"ـ نـزـولـ النـطـفـ مـنـ الـأـصـلـابـ ،ـ وـمـسـارـبـهاـ ،ـ وـهـيـ الـأـوـعـيـةـ

التي يتسرّب فيها المني والأخلاط التي تولّد عنها .

الثامن : و ما تسقى الأعاصير بذريتها : أي ما تثيره وتذرّو من التراب ، واستعار لفظ الذريّول لما أخذ الأرض منها .

التاسع : استعار لفظ العم لدخول عروق النبات في نواحي الأرض ملاحظة شبّهها بالماء ، وروى : بنات الأرض بتقديم البناء . وهي الهوام التي تنشأ في الرمل و تغوص فيه وتسيّر كالحلكة ، وهي دويبة كالعظاءة دون الشبر صفراء ملساء تستعملها العرب للسمنة وكتنوع من الحيات وغيرها .

العاشر : وتغيريذ ذات المتنطق استعار لفظ المتنطق للطير ، ووجه المشابهة أن مدلول تغيريذها معلوم لله فأشبه النطق المفید من الإنسان .

الحادي عشر : ما أوعبته الأصداف كاللؤلؤ والمرجان وما حضنت عليه أمواج البحار من لؤلؤ وحيوان وغيرهما ، ولفظ الحضن مستعار للأمواج ملاحظة لشبّهها بالحواضن في انباتها على البيض والفرانخ .

الثاني عشر : سبعات النور ما تنزع منه عن كدر الظلمة . ولفظ النور مستعار لعارف جلال الله ، والضمير في قوله : عليها . يرجع إلى الأرض ، وقرارة النطفة : مستقرّها من الأرحام ، ولفظ النقاعة استعارة ل محلّ دم الحين ، والمضغة الولدي بعض أطوار خلقته كما عرّفناه قبل ، وناشئة الخلق : ما نشأ من مخلوقاته .

الثالث عشر : لم يلحقه في ذلك كلفة . إلى قوله : ولا فترة . الكلفة : كون الفعل مستلزمًا لفاعله نوع مشقة وتلك المشقة إما ضعف فوقة الفاعل أو ضعف آلة أو قصور علمه عن تصوّر ما يفعل ، والباري تعالى منزه عن هذه الأمور لاستلزمها الحاجة ، وكذلك العارضة من عوارض موانع العلوم وتفوزها يستلزم وجود المقام والمثل وقد تنزع قدس الحق عنها وأماماً الملالة فالمفهوم انصراف النفس عن الفعل بسبب تحلّل الأرواح الدماغية وضعفها عن العمل أو لعارض آخر لها ، وقد علمت أنها من لواحق الأجسام وكذلك الفترة . والباري منزه عنها .

الرابع عشر : قوله : بل نفذ فيهم علمه . إلى قوله : وغمّرهم فضلـه . أثبت كل واحدة من

هذه القراءن الأربع مقابلة للأربع التي نفاهـا: ففـنان علمـهـ فيـهمـ مقابلـ نـفـاهـ منـ لـحـوقـ الكلـفةـ فيـ عـلـمـ بـهـمـ، وإـحـصـاؤـهـ بـعـدـ مقـابـلـ لـلـأـعـراـضـ العـارـضـةـ فيـ حـفـظـ خـلـقـهـ، وـ وـسـعـ عـدـلـهـ لـهـمـ مقابلـ لـنـفـيـ اـعـتـواـرـ المـلاـلـةـ فيـ تـنـفـيـذـ أـمـوـرـهـ وـتـدـبـيرـ مـخـلـوقـاتـهـ إـذـكـانـ معـنـىـ عـدـلـهـ فيـهـمـ وـضـعـهـ لـكـلـ مـوـجـودـ فيـ مـرـتـبـتـهـ وـهـبـتـهـ لـهـمـ يـسـتـحـقـهـ منـ زـيـادـةـ وـنـقـصـانـ مـضـبـوـطـاـ بـنـظـامـ الـحـكـمـةـ وـاعـتـراـضـ المـلاـلـةـ سـبـبـ لـاـخـتـالـفـ نـظـامـ الـفـعـلـ، وـقـولـهـ: وـغـمـرـهـ فـضـلـهـ مقابلـ لـنـفـيـ الـفـتـرـةـ فـإـنـ قـتـورـ الـفـاعـلـ عنـ الـفـعـلـ مـانـعـ لـهـ عنـ تـنـمـةـ فـعـلـهـ وـتـمـامـ وـجـودـهـ، وـقـولـهـ: مـعـ تـقـصـيرـهـمـ عنـ كـنـهـ ماـهـوـ أـهـلـهـ تـنـسـيـهـ عـلـىـ حـقـارـةـ عـبـادـتـهـ فيـ جـنـبـ عـظـمـتـهـ وـاسـتـحـقـاقـهـ مـاـهـوـ أـهـلـهـ لـيـدـومـ شـكـرـهـ وـثـنـائـهـ وـلـاـ يـسـتـكـبـرـوـاـ شـيـئـاـ مـنـ طـاعـتـهـمـ، وـبـالـلـهـ التـوـفـيقـ.

الفصل الرابع: في تمجيده خطاباً له ودعاًه وطلبًا لجزاء مسابق من ثنائه وتعديده أوصافه الجميلة وهو رضا عنه وإغناوه من غيره . وفيه إشارات :

الأولى: قوله : أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكبير . إشارة إلى أنه تعالى بحسب استحقاقه الوصف بأشرف طرق النقيض كان أهل الوصف الجميل وباعتبار تعدد ثنائه وجهه بالنظر إلى كل جزئيّ من جزئيات نعمه هو أهل التعداد الكبير .

الثانية: وقد بسطت لـي فيما لأمدح به غيرك ولا أثني به على أحد سواك إشارة إلى إذنه لـهـ فيـ شـكـرـهـ وـالـثـنـاءـ عـلـيـهـ بـالـأـوـصـافـ الـجـمـيلـةـ الـتـيـ لاـ يـسـتـحـقـهاـ حـقـيـقـةـ إـلـاـ هـوـ وـلـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـطـلـقـ إـلـاـ لـهـ . وـمـعـنـيـ هـذـهـ إـذـنـ إـمـاـ إـلـهـامـ حـسـنـ شـكـرـ الـمـنـعـ وـمـدـحـهـ وـإـذـلـامـنـعـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ إـلـاـ هـوـ فـلـاـ يـسـتـحـقـ "ـ التـمـجيـدـ الـمـطلـقـ إـلـاـهـوـ . وـمـخـاطـبـتـهـ لـهـ بـأـيـجـابـ الشـكـرـ كـقولـهـ تـعـالـىـ «ـ وـاـشـكـرـوـ إـلـهـاـنـ كـنـتـمـ إـيـاهـ تـبـعـدـوـنـ »ـ وـبـالـتـسـبـيـحـ فـيـ قـولـهـ تـعـالـىـ «ـ وـمـنـ آـنـاءـ اللـلـيـلـ فـسـبـحـ وـأـطـرـافـ الـنـهـارـ لـعـلـكـ تـرـضـيـ »ـ وـقـولـهـ: «ـ وـسـبـحـوـ بـكـرـةـ وـأـصـلـاـ »ـ وـاستـعـارـ لـفـظـ الـمـعـادـنـ لـلـخـلـقـ ، وـوـجـهـ الـمـشـابـهـ أـنـ "ـ مـعـدـنـ الشـيـءـ كـمـاـ أـنـهـ مـظـنـةـ الـمـطـلـوبـ مـنـهـ كـذـلـكـ الـخـلـقـ أـرـبـابـ الـنـعـمـ الـفـانـيـةـ مـظـانـ خـيـبةـ طـالـبـهـ مـنـ أـيـدـيـهـ وـحـرـمـانـهـ ، وـكـذـلـكـ مـوـاضـعـ الـرـبـيـةـ أـيـ الشـكـ"ـ فـيـ مـنـعـهـمـ وـعـطـائـهـمـ لـهـ وـلـذـلـكـ فـسـرـهـ بـقـولـهـ: وـعـدـلـتـ بـلـسـانـيـ مـنـ مـدـايـحـ الـأـدـمـيـنـ وـالـثـنـاءـ عـلـىـ الـمـرـبـوـيـنـ الـمـخـلـوقـينـ .

الثالثة: قوله : دليلاً نصب على الحال أو المفعول ، والمراد بر جائه دليلاً على ذخائر

الرحمة رجاؤه أن يسوقه ب بدايته إلى وجوه الاستعدادات إلى رحمة ويستر عليه بهمiese اللالفات إليه عن كل "خاطر سواه فإن" كل "خاطر سوى الحق" سبحاته ذنب في حق مثله عليه السلام ، ولفظ الذخيرة والكنوز مستعاران لوجوده .

الرابعة : قوله : هذا مقام من أفردك بالتوحيد . إشارة إلى مقامه بين يديه بهذا الذكر والتوحيد في خطبته ، وهو توطة لذكر مطلوبه واستنزل رحمة الله ثم قال : ول فاقه إليك فذكر وجه استحقاقه لوجوده أو لا وقصر سد تملك الفاقة على فضله إذ لم تكن فاقه في أمر دنيوي يمكن المخلوقين إلا بيان به ثم أردفه بذلك مطلوبه وهو رضا الله وإغناوه عن سواه وظاهر أن حصولها مستلزم لما رجاه الله دليلاً عليه من ذخائر رحمة وكنوز مغفرته . وبالله العصمة والتوفيق .

٨٩ - فِيْنَ خَطْبَتِيْلَهُ عَلَيْنَا الْتَّسْلِيمُ

لما أريد على البيعة بعد قتل عثمان

دَعُونِي وَتَمْسُوا غَيْرِي فَإِنَا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجْهٌ وَالوَانٌ ، لَا تَقُومُ
لَهُ الْقُلُوبُ ، وَلَا تَثْبِتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ ، وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَمَّتْ ، وَالْمَحْجَةُ
قَدْ تَنَكَّرَتْ ، وَأَعْلَمُوا إِنْ أَجْبَتُمْ رَكْبَتِكُمْ مَا أَعْلَمُ ، وَلَمْ أَصْعَ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ
وَعَتَبَ الْعَاتِبُ ، وَإِنْ تَرَكْتُمْنِي فَإِنَا كَاحِدُكُمْ وَلَعَلِيْ اسْتَعِمُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِنِ
وَلِتَمُوهُ أَمْرَكُمْ ، وَإِنَّا لَكُمْ وَزِيرًا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَمِيرًا .

أقول : حاصل هذا الفصل أنه لابد لكل مطلوب على أمر من تعزز فيه وتمتنع . والحكمة في ذلك أن الطالب له يكون بذلك أرغب فيما يطلب فإن الطبع حريص على مامنعت سريع النفرة عماسورع إلى إجابته فيه فأراد عليه السلام التمنع عليهم لقوى رغبتهم إليه فإنه لم يصل إليه هذا الأمر إلا بعد اضطراب في الدين في قتل عثمان والجرأة على الدم

فاحتاج في تقويم الخلق وردّهم إلى قواعد الحقّ إلى أن يزدادوا فيه رغبة بهذا الكلام ومثله فقال : دعوني والتمسو أغيري . لأنّي أنتَ نبيّهم بعدهم التمنّع على أنّ هيهنا أموراً صعبة مختلفة يريد أن ينكرها عليهم ويقاوم بعضهم فيها ببعضًا ويحملهم على الصالح ، وجعل استقباله لتلك الأمور الصعبة علة لاستقالته من هذا الأمر فقال : فـإـنـا مـسـتـقـلـونـأـمـرـاـ لـهـ وـجـوـهـ وـأـلـوـانـ لـاـنـقـوـمـ لـهـ الـقـلـوـبـ : أـىـ لـاـ تـصـبـرـ وـلـاـ تـبـثـ عـلـىـ الـعـقـولـ بـلـ تـكـرـهـ وـتـأـبـهـ مـخـالـقـتـهـ الشـرـيـعـةـ وـمـضـادـتـهـ لـنـظـامـ الـعـالـمـ ، وـذـلـكـ الـأـمـرـ هوـ ماـكـانـ يـعـلـمـهـ مـنـ اـخـتـلـافـ النـاسـ عـلـيـهـ بـضـرـوبـ مـنـ التـأـوـيـلـاتـ الـفـاسـدـةـ وـالـشـبـهـاتـ الـبـاطـلـةـ كـتـهـمـةـ مـعـاوـيـةـ وـأـهـلـ الـبـصـرـ لـهـ بـدـمـ عـثـمـانـ وـكـتـأـوـيـلـ الـخـواـرـجـ عـلـيـهـ فـيـ الرـضاـ بـالـتـحـكـيمـ وـنـحـوـ ذـلـكـ ، وـهـوـ الـمـكـنـىـ عـنـهـ بـالـوـجـوـهـ وـالـأـلـوـانـ كـنـيـةـ بـالـمـسـتـعـارـ .

وقوله : وإنّ الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت .

استعار لفظ الغيم لما غشى آفاق البلاد وأقطار القلوب المتغيرة العازمة على الفساد من ظلمات الظلم والجهل ، ووجه المشابهة ما تستلزم هذه الظلمات من توقيع نزول الشرور منها كما يتوقع نزول المطر والصواعق من الغيم ، وأشار بالمحجة إلى واضح طريق الشريعة ، وتنكرها جهل الناس بها وعدم سلوكهم لها .

وقوله : واعلموا . إلى قوله : عتب العاتب .

لـمـاـ تـمـنـعـ عـلـيـهـمـ وـعـلـمـ صـدـقـ رـغـبـتـهـمـ فـيـ شـرـعـ فـيـ تـقـرـيرـ ماـ يـرـيدـ أـنـ يـفـعـلـهـ تـقـرـيرـاـ إـجـمـالـيـاـ عـلـيـهـمـ مـعـ تـمـنـعـ دـوـنـ الـأـوـلـ فـأـعـلـمـهـمـ أـنـهـ عـلـىـ تـقـدـيرـ إـجـابـتـهـمـ إـلـىـ هـذـاـ الـأـمـرـ لـاـ يـرـكـبـ بـهـمـ إـلـاـ مـاـ يـعـلـمـ مـنـ أـمـرـ الشـرـيـعـةـ وـلـاـ يـصـفـ إـلـىـ قـوـلـ قـائـلـ خـالـفـ أـمـرـ اللـهـ مـلـقـضـيـ هـوـاءـ ، وـ لـاعـتـبـ عـاتـبـ عـلـيـهـ فـيـ أـنـهـ يـفـضـلـهـ أـوـلـمـ يـرـضـهـ بـمـاـ يـخـالـفـ مـاـ يـعـلـمـ مـنـ الشـرـيـعـةـ إـذـ القـائـلـ وـالـعـاتـبـ فـيـ ذـلـكـ مـفـتـرـ عـلـىـ اللـهـ وـعـاتـبـ عـلـيـهـ وـلـقـدـ وـفـيـ تـلـقـيـهـ بـمـاـ وـعـدـهـ بـهـ مـنـ ذـلـكـ كـمـاـ سـنـدـ كـرـهـ فـيـ قـصـةـ أـخـيـهـ عـقـيلـ لـمـاـ اـسـتـمـاـحـهـ صـاعـاـ مـنـ بـرـ أـوـ شـعـيرـ فـحـمـيـ لـهـ حـدـيـدـةـ وـقـرـ بـهـ مـنـهـ فـإـنـ عـقـيلـ قـوـالـ لـهـ : ثـكـلـتـكـ الثـواـكـلـ أـعـانـ مـنـ حـدـيـدـةـ حـمـاـهـ إـنـسـانـ لـلـعـبـةـ وـلـاـ تـأـنـ مـنـ نـارـ أـجـجـهـاـ جـبارـ لـغـبـهـ . وـلـفـظـ الرـكـوبـ مـسـتـعـارـ لـاـسـتـوـاـهـ عـلـىـ مـاـ يـعـلـمـ .

وقوله : وإنّ تـرـ كـتـمـونـىـ . إلى آخره .

أى كفت كحدكم في الطاعة لأميركم بل لعلى أكون أطوعكم له : أى لفوة علمه بوجوب طاعته الإمام ، وإنما قال لعلى لأنّه على تقدير أن يولوا أحداً يخالف أمر الله لا يكون أطوعهم له بل أعصاهם وإحتمال توليتهم ملـنـ هو كذلك قائم فاحتمال طاعته وعدم طاعته له قائم فحسنـ إـيـرـ اـدـلـعـلـ ، والواحد في قوله : وأنا . للحال ، وزيراً وأمراً حالـانـ ، والعامل ماتتعلق بهـماـ الجـارـوـالمـجـرـورـ ، وـأـرـادـ الـوزـيرـ اللـغـوـيـ وهو المعين والظاهر الحامل لوزرـ منـ يـظـاهـرـ وـثـقـلـهـ ، وـظـاهـرـ أـنـهـ ظـاهـرـ كـانـ وزـيرـ لـلـمـسـلـمـينـ وـعـضـداـ لـهـمـ ، والـخـيـرـيـةـ هـيـهـنـاـ تـعـودـ إـلـىـ سـهـوـلـةـ الـحـالـ عـلـيـهـمـ فـيـ أـمـرـ الدـنـيـاـ فـإـنـهـ إـذـ كـانـ أمـيرـ لـهـمـ حـمـلـهـمـ عـلـىـ مـاـ تـكـرـهـ طـبـاعـهـمـ مـاـ مـاـ تـكـرـهـ طـبـاعـهـمـ فـيـ الـحـرـوـبـ وـالـتـسـوـيـةـ فـيـ الـعـطـاـيـاـ وـمـنـهـمـ مـاـ يـطـلـبـهـنـ مـاـ فـيـهـ لـلـشـرـعـيـةـ أـدـنـيـ منـعـ ، وـلـاـ كـذـلـكـ إـذـ كـانـ وزـيرـ أـلـهـمـ فـإـنـ حـظـ الـوزـيرـ لـيـسـ إـلـاـ الشـورـوـرـ الـرأـيـ الصـالـحـ وـالـمـاعـضـدـةـ فـيـ الـحـرـوـبـ وـقـدـ يـخـالـفـ فـيـ رـأـيـهـ حـيـثـ لـاـ يـتـمـكـنـ مـنـ إـلـزـامـ الـعـمـلـ بـهـ وـإـنـمـاـ كـانـ هـذـاـ لـتـمـنـعـ دـوـنـ الـأـوـلـ لـأـنـ قـوـلـهـ : إـنـ أـجـبـتـكـمـ . فـيـهـ إـطـمـاعـ لـهـمـ بـالـجـابـةـ . وبـالـهـ التـوـقـيقـ .

٩٠ — وَمِنْ خَطْبَتِهِ عَلَيْهِ مَا تَبَلَّأَ

اـمـاـ بـعـدـ اـيـهاـ النـاسـ ؛ فـاـنـاـ فـقـاتـ عـيـنـ الـفـتـنـةـ ، وـلـمـ تـكـنـ لـيـجـرـفـ عـلـيـهـ اـحـدـ
غـيـرـيـ بـعـدـ اـنـ مـاـجـ غـيـرـهـ ، وـاشـتـدـ كـلـهـ ، فـاـسـلـوـنـيـ قـبـلـ اـنـ تـقـدـوـنـ ؛
فـوـالـذـىـ نـفـسـيـ بـيـدـهـ لـاـ تـسـالـوـنـيـ عـنـ شـىـءـ فـيـمـاـ يـنـكـمـ وـبـيـنـ السـاعـةـ . وـلـاـ عـنـ فـتـهـ
تـهـدـيـ مـائـةـ وـتـضـلـ مـائـةـ إـلـاـ أـبـنـاتـكـ بـنـاعـقـهـ ، وـقـانـدـهـ ، وـسـاقـهـ ، وـمـنـاخـ
رـكـابـهـ ، وـمـحـطـ رـحـالـهـ ، وـمـنـ يـقـتـلـ مـنـ أـهـلـهـ قـتـلاـ ، وـيـمـوتـ مـنـهـ مـوتـاـ ، وـلـوـقدـ
فـقـدـمـوـنـيـ ، وـزـلـتـ بـكـمـ كـرـائـهـ الـأـمـرـ ، وـحـوـازـبـ الـخـطـوبـ ، لـأـطـرـقـ

كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْؤُلِينَ، وَذَلِكَ إِذَا قَلَصَتْ حَرَبُكُمْ
 وَسَهَرَتْ عَنْ سَاقِ ، وَضَاقَتِ الدِّينَاعَلَيْكُمْ ضِيقًا تَسْطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلَاءِ
 عَلَيْكُمْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ : إِنَّ الْفَتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَهِرٌ ، وَإِذَا
 أَدْبَرَتْ نَهَرٌ : يُنْكَرُنَ مُقْبَلَاتٍ ، وَيُعْرَفُنَ مُدْبَرَاتٍ ، يَحْمِنُ حَوْلَ الرِّيَاحِ
 يَصِيبُ بَلَادًا وَيَخْطُئُنَ بَلَادًا ، إِلَّا إِنَّ أَخْوَافَ الْفَتَنِ عِنْدِنَ عَلَيْكُمْ فَتَنَةُ بَنِي أَمِيمَةٍ ؛ فَإِنَّهَا
 فَتَنَةُ عَيَّاءِ مَظْلَمَةٍ : عَمِتْ خَطَطَهَا ، وَخَصَّتْ بَلَيْهَا ، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مِنْ أَبْصَرِهَا
 وَأَخْطَأَ الْبَلَاءَ مِنْ عَيْنِهَا ، وَأَيْمَنَ اللَّهِ لَتَجَدُنَ بَنِي أَمِيمَةَ لَكُمْ أَرْبَابُ سُوءٍ بَعْدِي
 كَالنَّابِ الضرُوسِ : تَعْذِمُ بِفِيهَا ، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا ، وَتَزِينُ بِرِجْلِهَا ، وَمَنْعِ
 دَرَهَا ، لَا يَزَّلُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَرْكُوْمُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعًا لَهُمْ أَوْ غَيْرَ ضَارٍ بَهُمْ ،
 وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ اتِّصَارًا أَحَدُكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَاتِصَارُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ
 وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصِحِبِهِ ، تَرَدُ عَلَيْكُمْ فَتَنَهُمْ شُوهَاءٌ مُخْشِيَّةٌ ، وَقَطَعاً جَاهِلَيَّةٌ
 لَيْسَ فِيهَا مَنَارٌ هُدَى ، وَلَا عِلْمٌ يُرَى ، تَخْنَنُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْهَا بِنَجَاهَةٍ ، وَلَسْنَا
 فِيهَا بُدْعَاءً ، ثُمَّ يَفْرَجُهَا اللَّهُ عَنْكُمْ كَتْفَرِيجُ الْأَدِيمِ : بَنِي يَسُومَهُمْ خَسْفًا ،
 وَيُسُوقُهُمْ عَنْفًا ، وَيُسَقِّيْهُمْ بِكَأسِ مُصْبَرَةٍ ، لَا يُعْطِيْهُمْ إِلَّا السَّيْفَ ، وَلَا يَحْلِسُهُمْ
 إِلَّا الْخَوْفَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرْيَشَ ، بِالْدِينِ وَمَا فِيهَا ، لَوْ يَرُوتَنِي مَقَاماً

وَاحِدًا ، وَلَوْ قَدْ جَزَرَ جَزَرٌ لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا طَلَبَ الْيَوْمَ بَعْضُهُ فَلَا يُعْطُونَ .

أقول : ففَاتَ عَيْنِهِ : عِسْرَتَهَا . وَمَاجٌ : اضطرب . وَالغَيْبُ : الظُّلْمَةُ : وَالْكَلْبُ : الشَّرُّ
وَالْكَلْبُ : دَاءٌ مَعْرُوفٌ . وَالْفَنَّةُ : الطَّائِفَةُ . وَنَاعِمَهَا : الدَّاعِيُّ لَهَا . وَالْمَنَاخُ بِالضمِّ : مَحْلُّ الْبَرُوكِ
وَحَوَازِبُ الْخَطُوبِ : مَا حَزَبَ مِنْهَا : أَىٰ أَصَابٍ . وَالتَّقْلِصُ : التَّقْبِضُ . وَشَبَهَتْ : اشْتَبَهَتْ
وَأَوْقَعَتْ الشَّبَهَةَ . وَحَامُ الْعَلَائِرُ : دَارٌ . وَالْخَطْلَةُ : الْحَالُ وَالْأَمْرُ . وَالنَّابُ : النَّاقَةُ الْمَسْنَةُ .
وَالضَّرُورُونُ : الَّتِي تَعْضُّ حَالَبَهَا . وَالْعَدْمُ : الْعَضُّ وَهُوَ الْكَدْمُ أَيْضًا : وَالزَّبْنُ : الدُّفُعُ .
وَشَوْهَاهُ : بَجْمُ شَوَاهٍ وَهِيَ قَبِيحةُ الْمَنَظَرِ ، وَسَامَهُ خَسْفًا . أَوْلَاهُ ذَلِلًا . وَالْعَنْفُ : شَدَّةُ السُّوقِ . وَتَحْلِسُهُمْ :
أَىٰ تَلْبِسُهُمُ الْحَلْسُ وَهُوَ الْكَسَاءُ تَحْتَ بِرْدَعَةِ الْبَعِيرِ . وَالْجَزَرُ : الْقُطْعُ وَمِنْهُ سَمِّيَّتِ الْجَزَرُ
مَا يَنْحِرُ مِنِ الْإِبلِ .

وَمَقْصُودُ هَذَا الْفَصْلِ التَّبَيِّهُ عَلَى فَضْلِيهِ وَشَرْفِ وَقْتِهِ ، وَعَلَى رِذْيَلَةِ بَنِي أُمِّيَّةِ بِذِكْرِ
فَتَنَتِهِمْ وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ لِيُشَتَّدَّ النَّفَارُ عَنْهُمْ وَتَقوِيُ الرَّغْبَةُ إِلَيْهِمْ وَجَهِينُ : أَحَدُهُمَا : بِإِخْبَارِهِ
عَمَّا يُكَوِّنُونَ ، وَالثَّانِي : بِذِكْرِ الشَّرِّ وَمِنْ غَيْرِهِ . فَقُولُهُ : فَإِنَّ فَاتَتْ عَيْنَ الْفَتَنَةِ . إِشَارَةٌ إِلَى فَتَنَةِ
أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهَا ، وَاسْتِعْارَةٌ لِهَا الْفَظُّالُ لِلْعَيْنِ ، وَإِنَّمَا خَصَّ "الْعَيْنَ لَا تَهَا أَشْرَفُ عَضْوَفِ الْوَجْهِ" ، وَبِهَا
تَصَرُّفُ الشَّخْصِ وَحْرَ كَتَهُ ، وَرَسْحُ الْاسْتِعَارَةِ بِذِكْرِ الْفَقاَءِ وَكَتْنِي بِهِ عَنْ زَوَالِ فَتَنَتِهِمْ بِسَيْفِهِ ،
وَقُولُهُ : وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِي عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي : أَىٰ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا لَا يَتَجَاسِرُونَ عَلَى قَتَالِ
أَهْلِ الْقَبْلَةِ وَيَخافُونَ مِنْ ذَلِكَ الْحَرجِ وَالْإِثْمِ وَلَا يَعْلَمُونَ كَيْفِيَّةَ قَتَالِهِمْ هُلْ يَتَبَعُونَ مَدْبِرَهُمْ
وَهُلْ يَجْهَزُونَ عَلَى جَرِيَّهُمْ وَهُلْ تَسْبِي ذَارِيَّهُمْ وَتَقْسِمُ أُمُوَالَهُمْ إِذَا بَغَوُا أَمْ لَا هُنَّ
أَقْدَمُ عَلَيْهِمْ عَلَى فَتَنَتِهِمْ فَفَقَأُوا عَيْنَهَا فَسَكَنَتْ بَعْدِهِا جَهَنَّمُ ، وَمِبْدِئَ ذَلِكَ حَرْبُ عَائِشَةَ ، وَقَدْ
صَرَّحَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي الْفَاظِ أُخْرَى فَقَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَاتَتْ عَيْنَ الْفَتَنَةِ شَرِقِيَّهَا وَغَرِيبِهَا
وَمِنْافِقِهَا وَمَارِقِهَا لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِي عَلَيْهَا غَيْرِي وَلَوْلَمْ أَكَنْ لَمَاقُولَتْ أَصْحَابُ الْجَمْلِ وَلَا صَفَّينِ
وَلَا أَصْحَابُ النَّهْرِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ فَفَاتَتْ عَيْنَ أَهْلِ الْفَتَنَةِ فَحَذَفَ الْمَاضِفَ وَأَقامَ
الْمَاضِفَ إِلَيْهِ مَقَامَهُ وَيَكُونُ فَقَاؤُهُ لِعِيُونِهِمْ كَنَايَةً عَنْ قَتْلِهِمْ ، وَرُوِيَ أَنَّ مِنَ الْمُتَوَقَّفِينَ عَنْ
الْحَرْبِ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَجَمَاعَةُ مَعْهُ ، وَكَنَّ يَتَمَوَّجُونَ غَيْبَهَا عَنْ اتِّشَارِ ظَلَمَاتِ الشَّبَهَةِ
عَنْ تَلْكَ الْفَتَنَ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ فَجَهَلُوا أَنَّ خَالِفَ طَلْحَةَ وَخَرْجَ عَائِشَةَ كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا

فكان ذلك سبباً لاضطرا بهم وقتالهم وقتلهم، وكذلك كني" باشتداد كلبها عن شدة ما وقع منها من الشرور، وكلب أهلها وحرصهم على القتل والقتال كنایة بالمستعار في الموضعين.

وقوله : فاسْلُونِي . إلى قوله : ومن يموت منهم موتاً .

تعزّض للأُسْوَلَةِ عمَّا يكُونُ ولم يكن ليجتري على ذلك أحد غيره من بين سائر الصحابة والتابعين ، ولو ادّعى غير ذلك لکذّ به العيان وفضحه الامتحان ، وروى أن قتادة دخل الكوفة فالتفت عليه الناس فقال : سلوني عمّا شئت . وكان أبو حنيفة حاضرًا وهو إذن غلام حدث السن" فقال : سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرًا أم أنثى . فسئلواه فانقطع فقال : أبو حنيفة كانت أنثى فقيل له : بم عرفت ذلك فقال : من كتاب الله ، وهو قوله : « قالت نملة » ولو كان ذكرًا لقاز : قال نملة وذلك أن النملة تقع على الذكر والأنثى كالحمامة والشاة ، وإنما يميز بينهما بعلامة التأنيث فانظر إلى هذا المعجب بنفسه كيف انقطع عن سؤال يمكن الفطن أن يجيب عنه بأدنى سعي فكيف به إذا سئل عن الأمور المستقبلة التي لا يتنزع لها من عالم الغيب إلا من أيد بقوّة إلهيّة تكشف لنور بصيرته معها حجب الأسرار ، وقد يمسنا فيما سبق وجه تمكّنه من الإخبار عمّا سيكون وكيفية ذلك ، وأراد بالساعة القيمة ، واستعار أوصاف الإبل ورعايتها وأصحابها من الناعق والقائد والسائل والمناخ والركاب والرحال للفئة المهدّية والضالة ومن يهدّيهم ويضلّهم ملاحظة لشبيهم بالإبل في الاجتماع والانفصال لقائد وداعي ، والضمير في أهلها يعود إلى الفئة .

وقوله : ولو قد فقد تموني . إلى قوله : المسؤولين .

كراءه الأمور ما يكرهون منها وحواجز الخطوب ما يصيبهم من الأمور العظيمة المهمة وأطراف السائلين لغيرتهم في عواقب تلك الخطوب وما يكون منها وكيفية الخلاص وفشل كثير من المسؤولين : أى جنعوا عن رد الجواب لجهلهم بعواقبها وما يسئلون عنه منها .

وقوله : ذلك .

إشارة في أطراف السائلين وفشل المسؤولين .

وقوله : إذا فلست حربكم تفسير لكرائه الامور النازلة بهم ، واستعارة لفظ التقلص والتشمير عن ساق الحرب ووجه الاستعارة تشبيهها بالمجده في الأمر الساعي فيه ، وكما أنه إذا أراد أن يتوجه قلم ثيابه وشمرها عن ساقه لثار توفيقه وتهيأ وأجمع عليه كذلك الحرب في كونها مجتمعة عن النزول بهم والمحوق لهم ، والواو في قوله : وضاقت للعطف على شمرت ، وموضع تستطيلون النصب على الحال .

وقوله : حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم .

أى الذين يسلمون بنى أميّة في دينهم وأعمارهم ويقتحم الله لهم بهلاكهم وزوال دولتهم .

وقوله : إنّ الفتن إذا أقبلت تشبيهت [تشبّهت خ] .

أى يكون في مبدأها متشبّهة بالحق في أذهان الخلق وإذا أدبرت نسبت لأذهان الخلق على كونها فتنّة بعد وقوع الهرج والمرج بين الناس واضطراب أمرهم بسببها وأكثر ما يكون ذلك عند إدبارها كالفساد في الدول مثلاً الذي يعرف به عامة الخلق كونها فتنّة و خاللاً عن سبيل الله أكثر ما يكون في آخرها فيكون مؤذناً بزوالها وعلامة مبشرة .

وقوله : ينكرون مقبلات ويعرفن مدبرات .

تفسير له : أى لا يعرف في مبادئ الحال كونها فتنّة وتشبيه بكونها حقاً ودعاء هدى فإذا استعقبت عرفت أنها عن الحق بمعزل وإن دعاتها كانوا دعاة ضلاله .

وقوله : ويحمن حوم [حول خ] الرياح .

استعارة لها لفظ الحوم ملاحظة لشبيهها في دورانها الموحوم و وقوعها عن قضاء الله من دعاء الضلال في بلد دون بلد بالطائر والريح ، ولذلك شبّهها بحومها وكذلك لفظ الخطاء .

وقوله : ألا إنّ أخواف الفتن عندي إلى آخر .

شرع في تعين ما يريد أن يخبر به وهو بعض ما تعرّض للسؤال عنه ، وإنما كانت هذه الفتن أخواف الفتن لشدّتها على الإسلام وأهله وكثرة بلوى أهل الدين فيها بالقتل

وأنواع الأذى ويكفى في عظم تلك الفتنة هتكهم حرمة رسول الله ﷺ وقتل الحسين عليهما السلام وذريته ، وهتك حرمة الإسلام بهدم الكعبة وحرقها ، وقتل ابن الزبير وبسبّ على عليهما السلام ثمانين سنة ، وما انتشر من البلاء وعمّ بتوبيتهم للحجاج دماء المسلمين إلى غير ذلك من منكراتهم المسطورة في التواريخ وأشار بكونها فتنة عمياء إلى ذلك ، واستعارة لفظ العمى لها أجر ي أنها على غير قانون حق كالاعمى المتصرّ في حر كاته في غير جادة ، أو لكونه لا يسلك في سبيل الحق كما لا يهتدى بالعين العمياء وكذلك لفظ المظلمة وقوله : عمّت خطتها لكونها ولاية عامة ، وخصّت بليستها : أى بأهل التقوى وشيعة على عليهما ومن بقي من الصحابة والتابعين الذينهم أعيان الإسلام ، وقوله : أصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ من عمى عنها : أى من اهتدى لكونها فتنة كان فيها في بلاء من نفسه ومنهم أمّا من نفسه فالحزن الطويل من مشاهدة المنكر ، وأمّا منهم فلان المتّقى العالم بكونهم أمّة ضلال منحرف عنهم وغير داخل في تصرّفهم الباطل ، وكان من شأنهم تتبع من هذا حاله بالأذى والقتل فكان البلاء به أحسن ، وأمّا من لم يهتدى لكونها فتنة بل كان في عمى الجهل عنها فهو منقاد لدعوتهم الباطلة منساق تحت رايات ضلالهم جار على وفق أوامرهم فكان سالماً من بلائهم ثم أردف ذلك بالقسم البار ليجدنهم الناس أرباب سوءهم وشبههم في أفعالهم المضرة لهم بالناب الضروس لحالها ، وأشار إلى وجه الشبهه بأوصاف : فكدهما وغضّها وخططها يديها وزبها برجلها ومنعهادره إشارة إلى جميع حر كاته الموزية الرديئة وهي تشبه حر كاته في الخلق بالأذى والقتل ومنع الوفد والاستحقاق من بيت المآل ثم أردف ذلك بذكر غايتين لحر كاته الشريرة وبلائهم للناس : إحديهما : أنتهم لا يتركون من الأذى والقتل إلا أحد رجلين إما نافع لهم سالك مسلكهم أو من لا يضرّهم بإنكار منكر عليهم ولا يخافون على دولتهم من ساير العوام والسوق ، الثانية أنه لا يكون انتصارهم منهم إلا مثل انتصار العبد من سيده والصاحب من استصحبه : أى كما لا يمكن العبد أن ينتصرا من سيده والتابع المستصحب الذي من شأنه الضعف وعدم الاستقلال بنفسه من يستصحبه كذلك لا يمكن بقية هؤلاء أن ينتصروا من بنى أمّته أصلاً ، ويحتمل أن يربد هناك ما يشبه الانتصار من الغيبة وتحوها كما قال عليهما في موضع

آخر : ويكون نصرة أحدكم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه ، وإذا غاب اغتابه . ثم أردف ذلك بذكر فتنتهم وأنها مشتملة على فتن فوق واحدة تأتي شأبيب وقطعاً كقطع الليل المظلم ، و من روى فتنهم بلفظ الجمع فأراد جزئيات شرورهم في دولتهم ، واستعار لفظ الشوهاء لقبعها عقلاً وشرعاً ، ووجه المشابهة كونها منفورة عنها كما أن قيحة المنظر كذلك ، وكذلك استعار لفظ القطع لورودها عليهم دفعات كقطع الخيل المتقدمة في الغارة وال الحرب ، وأشار بكونها جاهلية إلى كونها على غير قانون عدلٍ كما أن حركات أهل الجاهلية كانت كذلك ، ولذلك قال : ليس فيها منار هدى ولا علم يرى : أى ليس فيها إمام عدل ، ولا قانون حق يقتدي به .

و قوله : نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعة .

أى إننا ناجون من آثامها و الدخول فيها والدعوة إلى مثلها ، وليس المراد أننا سالمون من إذا هم غير داعين فيها إلى الحق بشهادة دعوة الحسين عليه السلام إلى نفسه و قتله وأولاده و هتك ذريته ، و يحتمل أن يريد أننا بمنجاة من آثامها ولسنا فيها بدعابة مطلقاً و الحسين عليه السلام لم يكن داعياً منبعثاً من نفسه للدعوة ، وإنما كان مدعوًّا إلى القيام من أهل الكوفة و مجيناً لهم .

و قوله : ثم يفرّجها [يفرج خ] الله كتفيرج الأديم . إلى قوله : إلا الخوف . إشارة إلى زوال دولتهم بظهور بنى العباس عليهم و قلعهم و استيصالهم و تتبعهم لآثارهم و حصول الفرج منهم لبقية الأبرار من عباد الله المقصودين بإذهم كما يفرج الجلد : أى يشفق عما فيه ، و لقد أولاهم بنوا العباس من الذل و الهوان ، و إذا قوهم كأس العذاب طعوماً مختلفة ، و أروهم عيان الموت ألواناً شتى كما هو مذكور في كتب التاريخ ، و لفظ الكأس والتسبير والعطية مستعار ، وكذلك لفظ التحليس . و وجه المشابهة جعلهم الخوف شعاراً لهم كما أن حلس البعير كذلك .

و قوله : حتى تود قريش إلى آخره . إشارة إلى غاية هذه الفرقـة المتقدمة من قريش على هذا الأمر أي أن حالمـهم في التراـذل و الضعف عن محاربـتهم ينتهي إلى أن يحبـوا رؤـيتـه مقاماً واحدـاً مع أنهـه أبغـضـ الخـلق

إليهم ليقبل منهم حينئذ ما يطلب اليوم بغضه من نصرتهم له واتباعهم لأمره وانقيادهم لهداه ويعنوه إيمانه ، وكتى عن قصر ذلك المقام المتنفس له بمقدار زمان جزر الجزور ، وصدقه عليه في هذا الخبر ظاهر فإن أرباب السير نقلوا أن مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية قال يوم الزراب حين شاهد عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس: مارأبه في صف خراسان لوددت أن على بن أبي طالب تحت هذه الريات بدلاً من هذا الفتى . وقصة مشهورة . وبالله التوفيق .

٩١ - فِي نَجْحَبِيَّةِ الْمُتَكَبِّرِ عَلَيْهِ الْسَّيْلَامَةِ

فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَلْعَفُ بَعْدَ الْهُمَمِ ، وَلَا يَنَالُهُ حُسْنُ الْفَطْنِ ، الْأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فِي تَهْمِيَّ ، وَلَا آخِرٌ لَهُ فِي تَقْضِيَّ .

أقول : تبارك قيل : مشتق من البروك المستلزم للمقام في موضع واحد والثبات فيه ، وقيل : من البركة وهو الزيادة ، وبالاعتبار الأول يكون إشارة إلى عظمته باعتبار دوام بقائه واستحقاقه قدم الوجود لذاته وبقاء وجوده لا عن استفتاح ولا إلى انقطاع ، وبالاعتبار الثاني إشارة إلى فضله وإحسانه ولطفه وهدايته ووجوه الثناء عليه .
وقوله : الذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حسن الفطن .

كواه في صدر الخطبة الأولى الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن إلا أنه أبدل الغوص هنا بالحسن : وحسن في اللغة الظن ، وفي اصطلاح العلماء لما كان الفكر عبارة عن حركة الذهن منتقلًا من المطالب إلى المبادئ ثم منها إلى المطالب كان الحسن عبارة عن جودة هذه الحركة إلى اقتناص الحد الأوسط من غير طلب وتجشيم كلفة ، وهو مقول بحسب التشكيك ، وهو بجميع اعتباراته وأعلى رتبته قادر عن تناول ذات الحق تعالى كما سبق .

وقوله : الأول إلى آخره .

وقد من تفسير أوليته وآخريته غير مررة . وبالله التوفيق .

فاستودعهم في أفضلي مستودع ، واقر لهم في خير مستقر ، تناصحهم كرام الأصلاب إلى مطهرات الأرحام ، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف ، حتى افضت كرامات الله سبحانه إلى محمد ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فآخر جه من أفضل المعادن مبتدا ، وأعز الأرومات مغرسا من الشجرة التي صدعا منها أنبياء ، وانتخب منها إمناء ، عترته خير العترة ، وأسرته خير الأسر ، وشجرته خير الشجر ، نبتت في حرم ، وبسقت في كرم لها فروع طوال ، وثمرة لا تطال ، فهو إمام من أتقي ، وبصيرة من أهتدى ، سراج لمع ضوءه ، وشهاب سطع نوره ، وزند برق لمعه ، سيرته القصد وستنه الرشد ، وكلامه الفضل ، وحكمه العدل ، على حين فترة من الرسل

وهفوة عن العمل ، وغباءة من الأمم ،

أعملوا ، رحمة الله ، على أعلام بيته ، فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام واتم في دار مستعتبر على مهل وفراغ ، والصحف منشورة ، والأقلام جارية ، والآبدان صحيحة ، والالسن مطلقة ، والتوبه مسموعة والأعمال مقبولة

أقول : النسخ : النقل . وأفضت : انتهت . و الأرومة : الأصل . و الصدعا : الشق . و عترة الرجل : نسله و رهطه الأدنون . وأسرته : قومه : و بسقت : طالت ، والزند : العود الأعلى يقدح به . ونهج : واضح .

وقوله ، واستودعهم . إلى قوله : خلف .

إشارة إلى الأنبياء كَلِيلُ الْجَنَاحِ القائمين بدين الله . واعلم أن دين الله واحد بعثت جميع الأنبياء لتسليط الخلق إياه وله أصل وفروع فأصله الطريق إلى معرفته ، والاستكمال بها ، وبجماع مكارم الأخلاق ، ونظام أمر الخلق في معاشهم ومعادهم وهذه الأمور هي المراد من الشرع وهو أصل لا يخالف فيه نبيّنا . فاما الاختلاف الواقعة في الشرياع فهي امور جزئية بحسب مصالح جزئية يتعلق بوقت الرسول المعين وحال الخلق المرسل إليهم يقع عليها ذلك الأصل ، و تكون كالم شخصيات له و العوارض التي يختلف بها الطبيعة الواحدة النوعية . وأفضل مستودع استودعهم فيه حظائر قدره و منازل ملائكته وهو خير مستقر " أقربهم فيه و محل " كرامته في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، و تناسخ الأصلاب لهم إلى مطهرات الأرحام نقلهم إليها نطفا ، و كرائم الأصلاب : ما كرم منها و حق لأصلاب سمحت بمثلهم أن توصف بالكرم . و مطهرات الأرحام : ما ظهر منها و حق ما استعد منها لإنتاج مثل هذه الأمزجة و قبولها أن تكون طاهرة من كدر الفساد . و الشيعة يطهرون أصول الأنبياء من طرف الآباء والأمهات عن الشرك و نحوه قول الرسول وَالْفَقِيرُ : نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية . ويحتمل أن يريد بأفضل مستودع وخير مستقر في مبدئهم أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ويكون قوله : تناسخهم تفسيراً له و بيانا .

وقوله : كلما مضى منهم سلف قام بدين الله منهم خلف .

إشارة إلى ضرورة وجود الأنبياء عند الحاجة إليهم على التعاب ، وقد سبقت الإشارة إليه .

وقوله : حتى أفضت كرامة الله إلى عذر وَالْفَقِيرُ . إلى قوله : أمناء .
إشارة إلى غاية سلسلة الأنبياء كَلِيلُ الْجَنَاحِ ، و كنتي بكرامة الله عن النبوة واستعار لفظ المعدن والمنتبت والمغرس لطينة النبوة وهي مادته القريبة التي استعدت لقبول مثله ، ووجه الاستعارة أن تلك المادة منشأ لمثله كما أن الأرض معدن الجواهر و مغرس الشجر الطيب ، وظاهر أن أصل اسم بمثله أفضل المعادن وأعز الأصول ، وقيل :

أراد بذلك مكّة - شرّفها الله تعالى - و قيل : بيته و قبليته ثم ميّزه بما هو أخصّ و أشرف فقال : من الشجرة التي صدّع منها الأنبياء فاستعار لفظ الشجرة لصنف الأنبياء ، و كما أنّ الشجرة أشرف من طينتها كذلك صنف الأنبياء أشرف من قوابل صورهم ، و وجه الاستعارة هو ما كنّى بالانصدام عنه من تفرّع أشخاص الأنبياء عن صنفهم كما يتفرّع أغصان الشجرة منها . و أمّا قوله : أى على رسالته .

وقوله : عترته خير العtero أُسرته خير الأُسر .

بده بالعتبرة لما عرفت أنها أخصّ و أقرب من الأُسرة ، و مصداق أفضلية عترته قوله والله أعلم : سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا أنا و على و حسن و حسين و حزرة و جعفر . و وجه أفضلية أُسرته قوله والله أعلم : إن الله اصطفى من العرب معدا ، و اصطفى من معد بنى النضر بن كنانة ، و اصطفى هاشماً من بنى النضر ، و اصطفاني من بنى هاشم . و قوله والله أعلم : قال لي جبرئيل : يا محمد قد طفت الأرض شرقا و غربا فلم أجده فيها أكرم منك ولا يبيتا أكرم من بنى هاشم . و قوله والله أعلم : الناس تبع لقريش بـ هم لـ بـ هم و فاجرهم لفاجرهم .

وقوله : و شجرته خير الشجر .

قيل : أراد بالشجر في الموضعين إبراهيم عليه السلام ، و قيل : أراد هاشماً و ولده بقرينة قوله : نبتت في حرم و أراد مكّة ، و رشح تلك الاستعارة بوصف الإناث و البسق ، و كنّى بالفروع عن أهل الكرم الذي فيه عن زكاء أصله و ما استلزم من الفضل ، و كنّى بالفروع عن أهل الكرم و ذريته و سائر النجباة من بنى هاشم ، و بوصفهم بالطول عن بلوغهم في الشرف و الفضل الغاية البعيدة ، و هو ترشيح للاستعارة . وكذلك الشمر ، و كنّى به عن العلوم و الأخلاق المتفوّعة عنه وعن أئمّة أُمّته ، و تكونها لا تنال عن شرفها و غموض أسرارها : أى أنها لشرفها و علوّها لا يمكن أن يطاول فيها ، أو لغموض أسرارها لا تصل الأذهان إليها .

وقوله : فهو إمام من أئمّة إلى قوله : ملعه .

استعارة لفظ البصيرة و السراج و الشهاب و الزند له والله أعلم ، و وجه الاستعارة

كونه سبب هداية الخلق كما أنّ هذه الأمور الثلاثة كذلك ورشح استعارة السراج بلمعان الضوء والشهاب بسطوع النور والزند ببروق اللمع، ويحتمل أن يكون وجه استعارة الزند هو كونه مثيراً لأنوار العلم والهداية.

وقوله : سيرته القصد .

أى طريقته العدل والاستواء على الصراط المستقيم وعدم الانحراف إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط، وسنته الرشد : أى سلوك طريق الله عن هدايته، وكلامه الفصل : أى الفاصل بين الحق والباطل كقوله تعالى «إِنَّه لِقُولَ فَصْلٍ» وحكمه العدل الواسط بين رذيلتي الظلم والانظام .

وقوله : أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة من العمل .

أى زلة عنه وغباوة من الأعم : أى جهل منهم وعدم فطنة لما ينبغي ، وقد سبق بيان الفترة .

وقوله : اعملوا رحمة الله على أعلام بيته .

استعار لفظ الأعلام لأنّة الدين وما بآيديهم من مصالح الهدى ، وكتبي بكونها بيته عن وجودها وظهورها بين الخلق .

وقوله : و الطريق نهج يدعو إلى دار السلام .

فالطريق: الشريعة . ونحوه: وضوحاها في زمانه تبليله وقرب العهد بالرسول والله أعلم وظاهر كون الشريعة داعية إلى الجنة . و إسناد الدعوة إلى الطريق مجاز إذ الداعي قيم الطريق واضعها .

وقوله : و أنتم في دار مستعبد .

أى دار الدنيا التي يمكن أن يستعبدوا فيها : أى يطلبوا رضا الله بطاعته فرضي عنكم ، وعلى مهل : أى إمهال و إنذار و فراغ من عوائق الموت و ما بعده .

وقوله : والمصحف منشورة . إلى آخره .

الاوّات السبع للحال ، والمراد صحائف الأعمال وأقلام الحفظة على الخلق أعمالهم .

و فايدة التذكير بهذه الأمور التنبيه على وجوب العمل معها و تذكر أضدادها مما

لا يمكن معه العمل ولا ينفع الندم من الموت و طي "الصحف" و جفاف الأقلام و فساد الأبدان و خرس الألسنة و عدم سماع التوبة كما قال تعالى «فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معدتهم ولاهم يستعيثون»^(١) و بالله التوفيق .

٩٢ - وَمِنْ حَطَبِنَا لَكُلَّ بَرٍ مِّنَ الْسَّلَامِ

بَعْدَهُ وَالنَّاسُ ضُلَالٌ فِي حِيرَةٍ ، وَخَابُطُونَ فِي فِتْنَةٍ ، قَدْ اسْتَهْوَهُمُ الْأَهْوَاءُ
وَاسْتَزَلُّهُمُ الْكُبْرِيَاءُ ، وَاسْتَخْفَتُهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهَلَاءُ . حِيَارَى فِي زِلْزَالٍ
مِّنَ الْأَمْرِ ، وَبَلَاءً مِّنَ الْجَهَلِ ، فَبَالَّغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي النَّصِيحَةِ ،
وَمَنَّى عَلَى الْطَّرِيقَةِ ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .

أقول : الفصل لتقرير فضيلة الرسول ﷺ، و الواو في و الناس للحال : أى في حال ما هم ضالون عن سبيل الله في حيرة من أمرهم ماذا يتبعون . و خاططون في فتنه : أى كانت حركاتهم على غير نظام في ضلال البدع ، ومن روى خاططون فهو استعارة ، و وجهها كونهم يجمعون في ضلالهم و فتنتهم ما اتفق من أقوال وأفعال كما يجمع الخاطب ، و منه المثل : خاطب ليل . ملن بجمع الغث و السمين ، والحق و الباطل في أقواله . و قوله : قد استهوههم الأهواء .

أى جذبهم الآراء الباطلة إلى مهافي الهايا أو إلى نفسها ، واستزلتهم الكربلاء : أى قادتهم إلى الزلل و الخطل عن طريق العدل و افتقاء آثار الأنبياء في التواضع و نحوه ، و استخفتهم الجاهليّة الجهلاء فطارت بهم إلى مالاينبغى من الغارات و الفساد في الأرض فكانوا ذوى خفة و طيش ، و لفظ الجهلاء تأكيد للأول كما يقال : ليل أليل و تدواتد .

وقوله : حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل .
 أى لا يهتدون لجهلهم إلى مصالحهم فهو منشأ اضطراب أمورهم و بلائهم بالغارات
 و سبب بعضهم بعضاً و قتلهم .
 و قوله : فبالغ إلى آخره .

مضيّ على الطريقة سلو كه لسبيل الله من غير انحراف ، و دعوته إلى الحكمة و
 الموعظة هي دعوته إلى سبيل الله بهما إمثلاً لقوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة
 و الموعظة الحسنة » ^(١) فالدعوة بالحكمة الدعوة بالبرهان ، و بالموعظة الدعوة بالخطابة ،
 وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في المقدّمات . والله ولـ " التوفيق " .

٩٣ - *وَمِنْ خُطْبَتِي تِبْلِغُ عَلَيْنِ الْسَّمَاءَ*

الحمد لله الأول فلا شيء قبله ، والآخر فلا شيء بعده ، والظاهر فلا شيء
 فوقه ، والباطن فلا شيء دونه .

أقول : أثني على الله سبحانه باعتبارات أربعة : الأولى والآخريّة والظاهريّة
 والباطنيّة ، وأكّد كلّ واحد منها بكماله فكمال الأولى بسلب قبلية شيء عنه ،
 وكمال الآخريّة بسلب بعدية كلّ شيء له ، وظاهريّة بسلب فوقية شيء له ، و
 الباطنيّة بسلب شيء دونه . والمراد بالظاهر هنا العالى فلذلك حسن تأكيده بسلب فوقية
 الغير له ، وبالباطن الذى بطن خفيّات الأمور علماً و هو بهذا الاعتبار أقرب الأشياء
 إليها فلذلك حسن تأكيده بسلب ما هو دونه : أى ما هو أقرب إليها منه و حصلت حينئذ
 المقابلة بين الداني والعلى ، و يحتمل أن يريد بالظاهر البيّن ويكون معنى قوله :
 فلا شيء فوقه : أى لا شيء يوازي وجوده و يمحجه عن معرفة خلقه به . وبالباطن الخفي
 و معنى فلا شيء دونه : أى في الخفاء ، وقد سبق بيان هذه الاعتبارات الأربع غير مرّة .

(١) ١٢٦ - ١٦

و بالله التوفيق .

منها في ذكر الرسول صلى عليه وآلـه وسلم :

مستقره خير مستقر ، ومنته اشرف منبت ، في معادن الكرامة ، وما هد
السلامة ، قد صرفت نحوه أفتدة الأبرار ، وثنيت إليه أزمة الأبرار ،
دفن به الضغائن ، وأطافبه التوارر ، الف به إخواناً ، وفرق به أقرانًا
أعز به الذلة ، وأذل به العزة ، كلامه بيان ، وصيته لسان .

أقول : المماهد : جمع ممهد ، والميم زائدة . و ثنيت إليه : أى صرف . والضغائن :
الأحقاد . والنواير : جمع نائرة ، وهي العداوة والمخاومة : والأقران : الأخوان المقربون .
وأشار بمستقره إلى مكّة وكونها خير مستقر لكونها أم القرى ومقصد خلق الله
و محل كعبته ، ويحتمل أن يريده محله من جود الله و عنایته و ظاهر كونه خير مستقر ،
و استعار لفظ النسبت والمعنى ، وقد مر بيان وجه استعارتهما ، و مماهد السلامة محال
التوطئة لها ، وهي كناية من مكّة والمدينة وما حولها فإنّها محل لعبادة الله والخلوة
بـهـ الـتـيـ هـيـ مـهـادـ السـلـامـةـ مـنـ عـذـابـهـ ، وـ إـنـسـاـ كـانـتـ كـذـلـكـ لـكـونـهاـ دـارـ الفـشـ خـالـيـةـ عـنـ
المـشـتـهـيـاتـ وـ الـقـيـنـاتـ الـدـيـوـيـةـ ، وـ يـحـتـمـلـ أـنـ يـرـيـدـ بـمـماـهـدـ السـلـامـةـ ماـ تـقـلـبـ فـيـ وـ نـشـأـ
عـلـيـهـ مـنـ مـكـارـ الـأـخـلـاقـ الـمـهـدـةـ لـلـسـلـامـةـ مـنـ سـخـطـ اللهـ ، وـ فـيـ قـوـلـهـ : وـ قـدـ صـرـفـ نـحـوـهـ
أـفـنـدـةـ الـأـبـرـارـ .ـ تـنبـيـهـ عـلـيـهـ أـنـ الصـارـفـ هوـ لـطـفـ اللهـ وـ عـنـايـتـهـ بـهـ بـاـ لـفـاتـ قـلـوبـهـ إـلـىـ مـحـبـتـهـ
وـ الـاسـتـعـارـ بـأـنـوـارـ هـدـاهـ ، وـ مـلـاـ استـعـارـ لـفـظـ الـأـزـمـةـ لـلـأـبـصـارـ مـاـ لـاحـظـةـ لـشـبـهـهاـ بـمـقاـوـدـ الـأـبـلـ
رـشـحـ تـلـكـ الـاسـتـعـارـةـ بـذـكـرـ الشـنـىـ وـ كـنـىـ بـذـلـكـ عـنـ التـفـاتـ الـخـلـقـ إـلـيـ بـأـبـصـارـ بـصـاـيرـهـ
وـ تـلـقـيـ الـرـجـةـ الـإـلـهـيـةـ مـنـهـ ثـمـ استـعـارـ لـفـظـ الدـفـنـ لـإـخـفـاءـ الـأـحـقادـ بـهـ بـعـدـ أـنـ كـانـ ظـاهـرـةـ
مجـاهـرـاـ هـاـ .ـ وـ لـفـظـ الـأـطـفـاءـ لـإـزـالـةـ الـعـدـوـاتـ بـينـ الـعـرـبـ بـالـتـأـلـيفـ بـينـ قـلـوبـهـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ
فيـ إـظـهـارـ الـمـنـتـهـةـ عـلـيـ عـبـادـهـ «ـ وـ اـذـ كـرـواـ نـعـمـةـ اللهـ عـلـيـكـمـ إـذـ كـنـتـمـ أـعـدـاءـ فـأـلـفـ بـينـ قـلـوبـكـ

ومن كلامه تَكْتُلًا يجري مجرى

فأصبحتم بنعمته إخواناً^(١) و الأقران المفرق لهم هم المتألفون على الشرك .
وقوله : أعزّ به الذلة .

أى : لة الإسلام وأهله . و أذلّ به العزة : أى عزّ الشرك وأهله ، وبين كل قرينتين من هذه الست مقابلة و مطابقة فقابل بالتفريق التأليف و بالذلة الإعزاز
و بالعزّة الإذلال .
وقوله : و كلامه بيان .

إى لما انفلق من أحكام كتاب الله كقوله تعالى « ليسن للناس ما ترّى إليهم ».
وقوله : و صمته لسان .

استعارة لفظ اللسان لسكته ، و وجه المشابهة أن سكته وَالشَّكُوكُ مستلزم للبيان
من وجہین : أحدهما : أنه يسكت عمما لا ينبغي من القول فيعلم الناس السكت عن الخوض
فيما لا يعنيهم ، الثاني : أن الصحابة كانوا إذا فعلوا فعلاً على سابق عادتهم فسكت عنهم و
لم ينكّر عليهم علموا بذلك أنه على حكم الاباحة . فكان سكته عنهم في ذلك بياناً له
وأشبه سكته عنه باللسان المعرب عن الأحكام . و بالله التوفيق .

٩٤ - *وَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ نَّاهِيٌّ عَنِ الْمُنْكَرِ*

وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْدَهُ ، وَهُوَ لَهُ بِالْمَرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ ،
وَبِمَوْضِعِ الشَّجَى مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ ، أَمَّا وَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ لِيَظْهُرَ هُؤُلَاءِ
الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ ، لَيْسَ لَأَنَّهُمْ أُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ لَا سُرَاعَهُمْ إِلَى بَاطِلِ
صَاحِبِهِمْ وَإِبْطَائِهِمْ عَنْ حَقٍّ . وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ خَافِ ظُلْمَ رُعَايَتِهَا ،
وَأَصْبَحَتِ أَخَافُ ظُلْمَ رُعَايَتِي : اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا ، وَاسْعَتُكُمْ فَلَمْ

تَسْمَعُوا ، وَدَعْوَتُكُمْ سِرًا وَجَهْرًا فَلَمْ تَسْتَجِعُوا ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبِلُوا
أَشْهُودُ كُغَيْبَ ، وَعَبَدْ كَارْبَابَ ؟؟ أَتُلُو عَلَيْكُمُ الْحِكْمَ فَتَفَرَّوْنَ مِنْهَا ،
وَأَعْظَمُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالَغَةِ فَتَفَرَّوْنَ عَنْهَا ، وَاحْسَمْتُ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَإِنَّا
آتَيْتُ عَلَى آخِرِ الْقَوْلِ حَتَّى أَرَأْتُكُمْ مُتَفَرِّقِينَ إِيَّادِي سَبَّا تَرْجِعُونَ إِلَى مَحَالِسِكُمْ
وَتَخَادِعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ ، أَقْوَمُكُمْ غَدْوَةٌ وَتَرْجِعُونَ إِلَى عَشَيَّةٍ كَظَهَرِ
الْحَيَاةِ بَعْزِ الْمَقْوُمِ ، وَأَعْضَلُ الْمَقْوُمِ .

إِيَّاهَا الشَّاهِدَةِ ابْنَاهُمْ ، الْغَائِبَةِ عَقْوَلَهُمُ الْمُخْلَفَةُ اهْوَأُهُمْ ، الْمُتَلِّبِهِمُ امْرَأَوْهُمْ
صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتَمْ تَعْصُونَهُ ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِيَ اللَّهَ وَهُمْ
يُطِيعُونَهُ ؟ لَوْدَدْتُ وَاللَّهُ أَنْ مَعَاوِيَةَ صَارَ فِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدَّرَّهُمِ ،
فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَاعْطَانِي رِجْلًا مِنْهُمْ ،

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، مُنِيتُكُمْ بِثَلَاثَ وَاثْتَنِينَ : صَمْ ذُوو أَسْعَاعٍ ، وَبِكُمْ ذُوو
كَلَامٍ ، وَعَمِيْ ذُوو أَبْصَارٍ ، لَا أَهْرَارٌ صَدِيقٌ عِنْدَ الْلَّقَاءِ ، وَلَا إِخْوَانٌ ثَقَةٌ
عِنْدَ الْبَلَاءِ ،

يَا شَهَادَةَ الْأَبْلِيلِ غَابَ عَنْهَا رُعَيْتَها ؛ كُلَّمَا جَعَتْ مِنْ جَانِبِ تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانِبِ

آخَرَ ، وَاللَّهُ لَكَائِنٌ بِكُمْ فِي إِخَالٍ أَنْ لَوْ حَمَسَ الْوَغَى ، وَحَمَى الْضَّرَابُ ،

وقد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها ، وإلى لعلَّ بيته
 من رفي ، ومنهج من نبي ، وإلى على الطريق الواضح القطع انظروا
 أهل بيته نبيكم فالزموا سنتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخِرُّوكُمْ من هدى
 ولن يعيدهوكُمْ في ردِّي . فإن لبدوا بالبدوا ، وإن هضوا فانهضوا ، ولا تسقوهم
 فقضلوا ، ولا تتأخر واعنهم فتلهكوا ، لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه
 وأله ، فما أرى أحداً منكم يشبههم ! لقد كانوا يصيرون شيئاً غريباً ، وقد
 يأتوا سجداً وقائماً ، يراوحون بين جاههم وحدودهم ، ويقفون على مثل
 الجرم من ذكر معادهم ! كان بين اعينهم ربُّ المعزى ، من طول سجودهم !
 إذا ذكر الله هملت اعينهم حتى تبل جيوبهم ، وما دوا كاماً يميد الشجر يوم
 الربيع العاصف ، خوفاً من العقاب ، ورجاء للثواب .

أقول : المرصاد : الطريق يرصد بها ، والرصد الراقب . والشجى : الغصن بالقمة
 وغيرها . والتحت : السوق الشديد . وأفضل : أشكال . والحيثة : القوس . ومني : ابتلى .
 وقربت : أصابت التراب دون الخير . وأخال : أحسب . والوغي : الحرب وأصله من
 الأصوات . وحسن : اشتد . وسمت : الطريقة . ولبد الطاير : لصق بالأرض .
 فقوله : ولئن أمهل الله الظالم . إلى قوله : ريقه .

في معرض التهديد لأهل الشام بأخذ الله لهم وعدم قوتهم . وأنه لهم بالرصد
 على جميع حركاتهم وعلى مجاز طريقهم التي هم سالكوها ضللاً وعلى موضع الشجى
 من مساغ ريقهم وهو الحلق ، وفي ذكر الشجى وكون الله بالرصد تنبئه على أن

الله تعالى في مظنه أن يرمي الظالم بعقوبته عند اطلاعه على ظلمه كما قال تعالى
 «أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بـ» مجازين أو يأخذهم على بخوف «^(١) ثم أردف ذلك بالقسم
 البار ليظهرن أصحاب معاوية عليهم تنفيراً لهم إلى مقاومتهم، ثم نفي ما عساه يتوجهون
 أنه علة غلبهم لهم كيلا يتخذون بسبب ذلك، وهو قوله: ليس لأنهم أولى بالحق
 منكم، وأردفه بتعيين السبب الحق في ذلك وهو قوله: لكن لا يسراعهم إلى باطل
 أصحابهم: أى أمره الباطل وإبطائهم عن حقٍ إذ كانت النصرة باجتماع الكلمة وطاعة
 الإمام لا باعتقاد حقيقة إمرئه مع التخاذل عنه، ثم أردف ذلك بتوجيههم وتنفيرهم عمّا هم
 عليه من مخالفة أمره بقوله: و لقد أصبحت الأُمّم . إلى قوله: رعيتني لأن شأن الرعية
 الخوف من سلطانها فإذا كان حاله مع رعيته بالعكس كانت اللائمة عليهم بعصيائه دون
 حجّة لهم عليه، وأمّا التنفير فيذكر أنّهم في محلٍ ظلم نفسه و لقد أشّق ^{عليّهم}
 منهم في مواطن كثيرة كيوم التحكيم إذ قالوا له: إن لم ترض فعلناك كما فعلنا بعثمان.
 و نحو ذلك ، ثم أردف وجوه تقصيرهم ببيان ما فعل في حقهم من الأيدي الجميلة و
 الهدایة إلى وجوه المصالح من استغفارهم لجهاد عدوهم و حفظ بلادهم و إسماعهم الدعوة
 إلى مصالحهم سرًا وجهرًا و نصيحته لهم بالوجوه الصائبة من الرأي و هو قوله تعالى
 حكاية عن نوح ^{عليّهم} «قال رب إني دعوت قومي ليلاً و نهاراً فلم يزدّهم دعائي إلا فراراً
 و إني كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا إلى قوله «اسراراً» ^(٢) ثم شبّههم بالغياب مع
 شهادتهم وبالأرباب مع كونهم عبيداً ، ووجه الشبه أنَّ الفايدة في شاهد الموعظة دون
 الغائب عنها هي سمعها و الانتفاع بها فإذا ليسوا كذلك فهم كالغياب عنها في عدم
 الانتفاع بها ، وأمّا الثانية فلا نتهم رعيتة من شأنهم التبعيد لا وامر أمرائهم ثم إنّهم لتعزّزهم
 وشموخهم كبيراً وعدم طاعتهم كالأرباب الذين من شأنهم أن يأمروا لا يأتّروا ثم وبخفهم
 بنفارتهم عما يتلو عليهم من الحكم وتفرّقهم عن مواعده البالغة . و أهل البغى إشارة
 إلى أهل الشام . وأيدي سبا: مثل يضرب في شدة التفرق وضربه لتفرّقهم عن مجالس
 الذكر و هم لفظان جعلا اسمًا واحداً كمعدى كرب ، و سبا قبيلة من أولاد سبا ابن

يشحب بن يعرب بن قحطان ، وأصل المثل أنَّ هذه القبيلة كانت بمارب فلما آن وقت انفتاح سد مارب ورأى طريقة الكاهنة ذلك الأمر وعرفته ألقته إلى عمرو بن عامر الملقب بمزيقيا فباع أمواله بمارب وارتحل إلى مكة فأصابت هولاء الحمى ، وكانوا لا يعرفونها فزعوا إلى الكاهنة فأخبرتهم بما يسعون ، وقالت إنَّه مفرق بيننا فاستشارونها في أمرهم فقالت : من كان منكم ذاهم بعيد ، وحمل شديد ، ومراد حديد فليلحق بقصر عمان المشيد ، وكانت أذ عمان ، ثم قالت : ومن كان منكم ذاجلد وقس ، وصبر على أزمات الدهر فعليه بالإِدراك من بطن نمر . فكانت خزاعة ، ثم قالت : ومن كان منكم يزيد الراسيات في الوحل المطعمات في محل فليلحق يشرب ذات النخل فكانت الأوس والخرج ، ثم قالت : و من كان منكم يزيد الخمر والخمير ، الملك والتأمير ويلبس الدبياج والحرير فليلحق يصري وغوير ، وهم من أرض الشام فكان الذين يسكنونها آل جفنية من غسان ، ثم قالت : و من كان منكم يزيد الثياب الرفاق والخيل العتاق وكنز الأرزاق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق فكانت آل جذيمة الأُبرش ، ومن كان بالحيرة وآل محراق . فضربت العرب بفراقهم في البلاد هذا المثل وسار فيمن يتفرق بعد اجتماع ، ثم طا كانت المخادعة هي الاستغفال عن المصلحة قال : يتخدعون : أى أنتم إذا رجعوا من مجلس وعظه أخذ كلَّ منهم يستغفل صاحبه عن تذكرة الموعدة ويشغله بغير ذلك من الأحاديث وإن لم يكن عن قصد خداع بل تقع منهم صور المخادعة ، وتفويهه لهم بالغدوة إصلاح أخلاقهم بالحكم والمواعظ ورجوعهم إليه عشيَّة كظهر الحياة : أى موجين كظهر القوس وهو تشبيه للمعقول من أوجههم وانحرافهم عن جبل الأخلاق بالمحسون .

وقوله : عجز المقوم .

إشارة إلى نفسه واعتراف بعجزه عن تقويمهم وأفضل المقوم : أى أشكال أمرهم وأعيتها إداؤهم علاجاً ، ثم عاد إلى ندائهم وتنبيههم بذكر معايبهم لينفر عقولهم عنها فوصفهم بشهادة الأبدان مع غيبة العقول ثم باختلاف الأهواء ثم بكونهم من ابتدئ بهم أمراؤهم ثم نسبتهم على رذيلتهم من مخالفة أمره مع كونه مطيناً لله ، وما عليه خصومهم من فضيلة طاغة إمامهم مع كونه عاصياً لله ، وجعل ذلك مقاييسة بينهم ليظهر الفرق

فيدر كهم الغيرة ثم أرده بتحقيرهم و تفضيل عدوهم عليهم في البأس والنجدة واستقامة الحال فاقسم أنه ليود أن يصارفه معاوية بهم صرف الدينار بالدرهم و ذلك قوله : رجال منهم . ثم أردد ذلك بيان ما ابتنى به منهم ، وأشار إلى خمس خصال ، وإنما قال بثلاث واثنتين لتناسب الثلاث و كون الشتتين من نوع آخر فالثلاث : الصمم مع كونهم ذوى أسماع والبكاء مع كونهم ذوى أبصار ، وجمعه لهذه الثلاث مع أضدادها هو سبب التعجب منهم والتويج لهم وأراد بها عدم اتفاقهم في مصالحهم الدينية ونظام أمور دولتهم بآلية السمع واللسان والعين فإن من لم يفده سمعه وبصره عبرة ومن لم يكن كلامه فيما لا يعنيه كان كفأقد هذه الآلات في عدم الانتفاع بها بل كان فاقدها أحسن حالاً منه لأن وجودها إذالم يفقد منفعة أكسب مضرّة قد أمنها عادمها ، وأما الثنستان فكونهم لأحرار صدق عند اللقاء : أى أنهم عند اللقاء لاتصدق حرستهم و لاتبقى نجدتهم من مخالطة الجبن والتخاذل والفرار إذا الحر هو الحال من شوب الرذائل والمطاعن ، ثم كونهم غير أخوان ثقة عند البلاد : أى ليسوا ممن يوثق باخوتهم في الابتلاء بالنوازل ، ثم عاد إلى الدعاء عليهم على وجه التضجر منهم وتشبيههم بالنعم قوله : تربت أيديكم دعاء بعدم إصابة الخير .

وقوله : يا أشباه الإبل غاب عنها رعايتها كل ماجمعت من جانب تفرقت من جانب .

ذكر للتشبيه والمشبه به ، ووجه الشبه أرده بذكر رذيلة يظنها منهم بإمارتها وهي تفرّقهم عنهم على تقديره اشتباك الحرب ، وشبهه أنفاجهم عنه بانفراج المرأة عن قبلها ليرجعوا إلى الأنفة ، وتسليم المرأة لقبلها وانفراجها عنه إنما وقت الولادة أو وقت الطعام ثم عاد إلى ذكر فضيلته ليستثبت قلوبهم ويتآلفها والبيضة التي هو عليها من ربّه آيات الله وبراهينه الواضحة على وجوده والثقة بما هو عليه من سلوك سبّله وهو كقوله تعالى « قل إني على يسنة من ربّي » والمنهج من نبيه طريقه وسننته ، والطريق الواضح الذي هو عليه سبّيل الله وشريعة دينه ، والتقاطه له لقطا تتبعه وتميّزه على طريق الضلال بالسلوك له ثم أردف فضيلته بالأمر باعتبار أهل البيت ولزوم ستمهم واتفاقه أثرهم ،

وأشاره إلى جهة وجوب اتباعهم بكونهم يسلكون بهم سبيل الهدى لا يخرجون عنه ولا يردونهم إلى رد الجاهلية والضلال القديم ، وفيه إيماء إلى أنّ اتباع غيرهم يرد إلى ذلك قوله : فإن لبدوا : أى إن سكنوا وأجبنوا لزوم البيوت على طلب أمر الخلافة والقيام فيه فتابعوهم في ذلك فإن سكنهم قد يكون مصلحة يغيب عن علمها عن غيرهم وإن نهضوا في ذلك فانهضوا معهم ، ثم نهاهم عن أن يسبقوا فيضلوا : أى إلى أمر لم يتقدّموك فيه فإن متقدّم الدليل شأنه الضلال عن القصد وأن لا يتأخرّوا عنهم فيهلكوا : أى لا يتأخرّوا عن متابعتهم في أوامرهم وأفعالهم بالمخالفة لهم فيكونوا من الهالكين في تيه الجهل وعذاب الآخرة . والإمامية تخص ذلك بالآثني عشر من أهل البیب الظفیر .

وقوله : ولقد رأيت أصحاب رسول الله الظفیر إلى آخره .

مدح لخواص الصحابة وذكر مكانهم من خشية الله ودينه ترغيباً في مثل تلك الفضائل ، وحرّك بقوله : فما أرى أحداً يشبّههم . ماعساه يدرك السامعين من الغيرة على تلك الفضائل أن يختصوا بها دونهم وذكر من ممادحهم أوصافاً : أحدها : الشعت والاغبار وهو إشارة إلى قفهم وتر كهم زينة الدنيا ولذاتها . الثاني : بياتهم سجدةً وقياماً ، وأشار به إلى إحياءهم الليل الصلاة وهو قوله تعالى « والذين يبیتون لربهم سجدةً وقياماً » .

الثالث : مراوحتهم بين جباههم وخدودهم ، وقد كان أحدهم إذا تعبت جبهته من طول السجود رارح بينها وبين خديه .

الرابع : وقوفهم على مثل الجمر من ذكر معادهم وأشار به قلقهم ووجدهم من ذكر المعاد وأهواه يوم القيمة كما يقلق الواقع على الجمر مما يجده من حرارته .

الخامس : كان بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم ، ووجه المشابهة أنّ محال سجودهم من جباههم كانت قد اسودت وماتت جلودها وقتت كما أنّ ركب المعزى كذلك .

السادس : أنّهم كانوا إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم ، ومن روى جباههم بذلك في حال سجودهم يمكن . وما دوا كما تميد الشجر بالريح العاصف خوفاً

من عقاب ربهم ورجاء لثوابه فتارة يكون ميدانهم وقلفهم عن خوف الله ، وتارة يكون عن ارتياح و اشتياق إلى ما عند الله من عظيم ثوابه و هو قوله تعالى «الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ وَجْلَتْ قُلُوبُهُمْ وَبَالَّهِ التَّوْفِيقُ .

٩٥ - قَمِنْ كَلَامِنَ رَعْلَيْنَ السِّنَالَافِنَ

وَاللَّهُ لَا يَرَوْنَ حَتَّى لا يَدْعُوا اللَّهَ مُحْرِماً إِلَّا أَسْتَحْلُوهُ ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلَوهُ
وَحَتَّى لَا يَبْقَى يَتْ مَدْرَ وَلَا وَبَرَ إِلَّا دَخَلَهُ ظَلْمُهُمْ ، وَبَنَاهُ سُوءُ رَعِيْهِمْ ،
وَحَتَّى يَقُومَ الْبَأْ كِيَانَ يَسْكَانَ : بَاكَ يَسْكَنَ لَدِينِهِ ، وَبَاكَ يَسْكَنَ لَدِينِهِ ، وَحَتَّى
تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنْصُرَةُ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ : إِذَا شَهَدَ أَطَاعَهُ ،
وَإِذَا غَابَ أَغْتَابَهُ ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمُكُمْ فِي هَاعِنَهُ أَحْسَنُكُمْ بِاللَّهِ ظَنًا ، فَإِنْ
أَتَكُمُ اللَّهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبِلُو : وَإِنْ أَبْتَلَيْمُ فَاصْبِرُوا ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَقِينَ .

أقول : بنابة المنزل : إذا لم يوافقه . والعنا : التعب .

والإشارة في هذا الفصل إلى بنى أمية فأقسم لايزالون ظالمين فحذف الخبر للعلم

به وذكر لظلمهم غایيات :

إحدىها : أنهم لايدعون محرماً إلّا استحلّوه ، وأعظم كبار المحرمات الظلم
وقتل النفس وحالهم فيما مشهور فما ظنك بغيرهما ، ومعنى قوله : استحلّوه : استعملوه
كاستعمال الحال في عدم التراجّع والتّائش به .

الثانية : أن لايدعوا عقداً إلّا حلّوه : أي من عقود الإسلام التي نظم بها أمر العالم
من قوانين الشرع وضوابطه ، وحلّة كنایة عن حزم تلك القواعد بمخالفتها .

الثالثة : أنه لا يبقى يتدرّ ولا وبر إلّا دخله ظلمهم ، وهو كنایة عن عموم
عداوتهم وبغيهم على جميع الخلق من البدو والحضر ، قوله : وبنابة سوء رعيهم : أي أوجب

سوءٌ رعيهم لأهل نبوةٍ عنده .

الرابعة : أن يقوم الباكيان بالكِير يبكي لدينه ، و بالكِير يبكي لدنياه .

الخامسة : و حتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده ، ذكر المشبه والمشبه به ثم أشار إلى وجه الشبه بقوله : إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه .

العاشر : و حتى يكون أعظمكم فيها عناءً أحسنكم بالله ظننا ، وإنما كان كذلك لأن من حسن الظن بالشّان أشد الناس بعداً منهم و توكلًا عليه فيكونون عليه أشد كلاماً له أقوى طلباً فكان منهم أكثر تعباً ، ثم أردد ذلك بأمر من أنته العافية أن يقبلها ،

ويشكّر الله عليها نعمة ، وأراد العافية بن الابتلاء بشرورهم لبعض

الناس أو بقائهم عدل مخلص من بالائهم ، ويأمر من ابتلى

بهم بالصبر على ما ابتلى به ووعده على ذلك

بحسن العافية لازماً للتقوى والصبر

كم قال تعالى « واصبر

إن العاقبة للّمتقين »



فهرست أَهْمَ مَطَالِبِ مَا فِي هَذَا الْجُزْءِ

الصَّفَحَة

العنوان

- الخطبة الثانية والعشرين ألقاها لتأديب القراء بترك الحسد والأغاني
بالشفقة على القراء ومواساتهم .
٣
- ذم الرياء والعمل لغير الله تعالى .
٩
- حسن الاعتضاد بالعشيرة ولبن الجائب للخلق .
١٣
- الخطبة الثالثة والعشرين ألقاها في رد من يقول إن متابعته على
محاربيه ومخالفيه ومداهنتهم أولى من محاربتهم .
١٤
- معنى الفرار إلى الله ، وبيان ماله من المراتب .
١٥
- الخطبة الرابعة والعشرين ألقاها حين تواترت عليه الأخبار باستيلاء
أصحاب معاوية على البلاد ، وغلبة بسر بن أرطاة على عامليه يمن .
١٦
- الخطبة الخامسة والعشرين ألقاها في ذكر بعض أسباب غاية البعثة .
٢٣
- شرح حاله بعد وفات رسول الله ﷺ .
٢٦
- ذكر عمرو بن العاص ومباهعته معاوية .
٢٨
- الخطبة السادسة والعشرين ألقاها حين بلغه أن سفيان بن عوف الغامدي
قد ورد في خيل المعاوية إلى الأنبار وقتل عامله حسان بن
حسان البكري .
٢٩
- بيان الفرق بين الجهاد وسائر العبادات .
٣٣
- الخطبة السابعة والعشرين يذكر فيها تنبیهات لطيفة على وجوب النفار
عن الدنيا وعدم الركون إليها .
٣٩
- بيان أن من لم ينفعه الحق يضره الباطل .
٤٧

الصفحة

العنوان

- الخطبة الثامنة والعشرين ألقاها حين بلغه غارة ضحاك بن قيس بعد قصة الحكمين .
٤٩
- كلامه الجارى مجرى الخطبة التاسعة والعشرين في معنى قتل عثمان .
٥٤
- كلامه الجارى مجرى الخطبة الثلاثين لابن العباس لما أرسله إلى الزبير .
٥٩
- الخطبة الإحدى والثلاثين ألقاها في بيان حقيقة الزهد ، وتصنيف الناس .
٦٢
- بيان أقسام الخوف وأعلى أقسامه .
٦٩
- الخطبة الثانية والثلاثين ألقاها عند خروجه لقتال البصرة .
٧١
- الخطبة الثالثة والثلاثين ألقاها في استفار الناس إلى أهل الشام .
٧٦
- الخطبة الرابعة والثلاثين ألقاها بعد التحكيم .
٨٤
- الخطبة الخامسة والثلاثين ألقاها في تخويف أهل النهروان .
٨٩
- كلامه الجارى مجرى الخطبة السادسة والثلاثين ذكر فيه حاله منذ توفي رسول الله ﷺ إلى آخر وقته .
٩٢
- الخطبة السابعة والثلاثين ألقاها في بيان معنى الشبهة .
٩٧
- الخطبة الثامنة والثلاثين خطب بها في غارة النعمان بن بشير بعين التمر .
٩٩
- كلامه الجارى مجرى الخطبة التاسعة والثلاثين في الخوارج ملائمة لحكم إله .
١٠١
- الخطبة الأربعين ألقاها في بيان معنى الوفاء والصدق .
١٠٤
- كلامه الجارى مجرى الخطبة الإحدى والأربعين في النهى عن الهوى وطول الأمل .
١٠٦
- كلامه الجارى مجرى الخطبة الثانية والأربعين وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد إرساله جرير ابن عبد الله البجلى إلى معاوية .
١٠٩
- كلامه الجارى مجرى الخطبة الثالثة والأربعين لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية ،
١١٥

الصفحة

العنوان

- ١١٧ الخطبة الرابعة والأربعين ألقاها يوم الفطر .
- ١٢١ كلامه الجارى مجرى الخطبة الخامسة والأربعين عند عزمه على المسير إلى الشام .
- ١٢٣ كلامه الجارى مجرى الخطبة السادسة والأربعين في ذكر الكوفة .
- ١٢٥ الخطبة السابعة والأربعين ألقاها عند المسير إلى الشام .
- ١٢٦ الخطبة الثامنة والأربعين ألقاها في بيان جملة من الصفات الربویة .
- ١٣٣ الخطبة التاسعة والأربعين ألقاها في بيان بده وقوع الفتن .
- ١٣٥ كلامه الجارى مجرى الخطبة الخمسين لما غلب أصحاب معاوية أصحابه على الشريعة للفرات بصفين ومنعوهم الماء .
- ١٣٧ الخطبة الإحدى والخمسين ألقاها في المتنقين على الدنيا و التنبيه على عظيم ثواب الله وعظمة نعمه .
- ١٤٢ كلامه الجارى مجرى الخطبة الثانية والخمسين في ذكر يوم النحر .
- ١٤٣ كلامه الجارى مجرى الخطبة الثانية والخمسين وأشار فيه إلى صفات أصحابه بصفين .
- ١٤٥ كلامه الجارى مجرى الخطبة الرابعة والخمسين لما استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين .
- ١٤٦ كلامه الجارى مجرى الخطبة الخامسة والخمسين في توين أصحابه على ترك الجهاد والتقصير فيه .
- ١٤٨ كلامه الجارى مجرى الخطبة السادسة والخمسين في الإخبار بما سيكون لأصحابه من الابتلاء بسببه .
- ١٥١ كلامه الجارى مجرى الخطبة السابعة والخمسين كلّم به الخوارج .
- ١٥٢ كلامه الجارى مجرى الخطبة الثامنة والخمسين لما عزم على حرب الخوارج .
- ١٥٦ كلامه الجارى مجرى الخطبة التاسعة والخمسين لما خوف من الغيلة .

الصفحة

العنوان

- ١٥٨ الخطبة الستين ألقاها في التحذير من الدنيا .
- ١٦١ الخطبة الإحدى و الستين ألقاها في التنفير عن الدنيا والترغيب في الآخرة .
- ١٦٨ الخطبة الثانية و الستين أشار فيها إلى مباحث لطيفة من العلم الإلهي .
- كلامه الجارى مجرى الخطبة الثالثة و الستين كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين .
- ١٧٨ كلامه الجارى مجرى الخطبة الرابعة و الستين في معنى الأنصار .
- ١٨٣ كلامه الجارى مجرى الخطبة الخامسة و الستين لما قُلد محمد بن أبي بكر مصر فملكت عليه فقتل .
- كلامه الجارى مجرى الخطبة السادسة و الستين في توبيق أصحابه لتقاعدهم عن النهوض معه إلى حرب أهل الشام .
- ١٩١ كلامه الجارى مجرى الخطبة السابعة والستين في سحرة اليوم الذي ضرب فيه .
- ١٩٢ الخطبة الثامنة و الستين في ذمّ أهل العراق .
- ١٩٥ الخطبة التاسعة و الستين ألقاها لتعليم الناس الصلاة على النبي ﷺ .
- ٢٠٣ كلامه الجارى مجرى الخطبة السابعين قاله مارون بن الحكم بالبصرة .
- ٢٠٤ كلامه الجارى مجرى الخطبة الإحدى والسبعين لما عزموا على بيعة عثمان .
- كلامه الجارى مجرى الخطبة الثانية و السبعين لما بلغه اتهام المشاركة في دم عثمان .
- الخطبة الثالثة والسبعين استنزل فيها الرحمة لعبد استجمع ما ذكر فيه من الأمور .
- ٢١٢ كلامه الجارى مجرى الخطبة الرابعة و السبعين في ردّ على سعيد بن العاص .
- ٢١٣ كلامه الجارى مجرى الخطبة الخامسة و السبعين كان يُلقي يدعوه به .
- كلامه الجارى مجرى الخطبة السادسة و السبعين قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخارج .

الصفحة

العنوان

- ذكر ما يلوح من نزّهى الحكمة النبوية عن تعلم النجوم .
٢١٦
- وجوه المشابهة بين المنجم والكافر والساحر والكافر .
٢٢١
- الخطبة السابعة والسبعين أنشأها بعد حرب الجمل في ذم النساء .
٢٢٣
- كلامه الجارى مجرى الخطبة الثامنة والسبعين في التفسير الزهد ولوازمه .
٢٢٥
- كلامه الجارى مجرى الخطبة التاسعة والسبعين في صفة الدنيا .
٢٢٧
- الخطبة الثمانين تسمى الغراء يذكر فيها بعض نعوت جلاله ، و الوصيّة
بتقوى الله و التّنفير عن الدنيا ، و بعض مباحث المعاد الجسماني .
٢٣٠
- دفع ما يتوهّم من الشبهة في المعاد الجسماني .
٢٤٠
- بيان مراتب الایمان بما جاء من عذاب القبر والسؤال .
٢٦٥
- كلامه الجارى مجرى الخطبة العاشرة والثمانين في ذكر عمرو بن العاص .
٢٦٩
- الخطبة الثانية والثمانين ألقاها لإثبات ثمانى صفات من صفات العجل .
٢٧٣
- الخطبة الثالثة والثمانين ألقاها في الموعظة والمشورة .
٢٧٩
- الخطبة الرابعة والثمانين ألقاها في بيان صفات المتقين .
٢٨٨
- الخطبة الخامسة والثمانين ألقاها في توبیخ الأمة على اختلاف آرائهم .
٣٠٥
- الخطبة السادسة والثمانين ألقاها في تذکیر هم بنعمة الله و منها
بعثة الرسول .
٣١٠
- الخطبة السابعة والثمانين ألقاها في تمجيد الله سبحانه باعتبارات
إضافية له .
٣١٥
- الخطبة الثامنة والثمانين تعرف بخطبة الأشباح .
٣٢٢
- الرد على المشبهة بدليل العقل و النقل .
٣٣٩
- الرد على من تحلاّه سبحانه بحلية المخلوق .
٣٤١
- بيان كيفية خلق السماء .
٣٤٧

الصفحة

العنوان

- ٣٤٩ ذكر ما للنبيين من البروج والمنازل .
- ٣٥٤ في وصف الملائكة الذين هم أشرف الموجودات الممكنته بكمال العبودية لله .
- ٣٧٩ شرح ما أوهب الله تعالى لأدم وشرفه به من العقل و استحقاق القرب إليه .
- ٣٨٥ الخطبة التاسعة والثمانين ألقاها ملائكة أُرِيد قبل البيعة بعد قتل العثمان .
- ٣٨٧ الخطبة التسعين ألقاها في بيان فضيلته ، و رذيلة بنى أمية .
- ٣٩٤ الخطبة الحادية والتسعين ألقاها في بيان وحدة الدين و بعض أوصاف عترة النبي .
- ٣٩٩ الخطبة الثانية والتسعين ألقاها في فضيلة النبي ﷺ .
- ٤٠٠ الخطبة الثالثة والتسعين أثني على الله سبحانه باعتبارات وأشار إلى أوصاف النبي .
- ٤٠٢ كلامه الجارى مجرى الخطبة الرابعة والتسعين في أصحابه وأصحاب رسول الله .
- ٤٠٩ كلامه الجارى مجرى الخطبة الخامسة والتسعين يشير فيه إلى ظلم بنى أمية .
- ٤١١ فهرست .

بِصَدْرِ كَابِ

إِنْضَاحُ الْفَوَادِنْ

لِلأَفَاءِرِ الْفَقِيهِ الْجَامِعِ فِي الْمُحْقَقَيْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الْجَلِي

فِي شُرْحِ مُشْكِلَاتِ

فَوَالْعَدْلُ الْأَحْكَامُ

لِلْعَالَمِ السَّعِيدِ الْفَضِيلِ الْقُدَّامِ الْمَنْجُونِ الْجَسِينِ بْنِ يَسِيفِ الْجَنْوبيِّ

بِقِيمَتِ عَدَّةٍ فَسْخٍ مِنْ كِتابٍ

فَصِيلَ الْأَذْلِ الْقَرْلَ الْجَمِيلَ

فليبادر الى اقتناه نسخة منه قبل نفادها

يُصَدِّرُ كِتابٌ

الْتَّحْصِيلُ

لِلفَيْلِسُو الْمُحْقَفُ هَبَنْيَا بِنْ مَرْزَانِ الْأَذْرِبَجَانِيِّ

تهران شارع ری - مكتبة دولت آباد

مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com